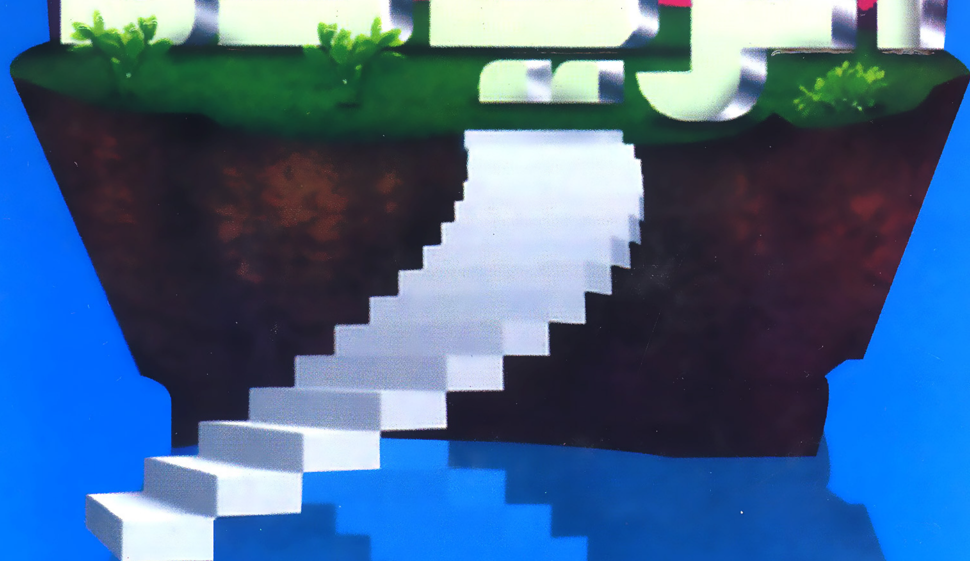
عُشَاقُ الريادة

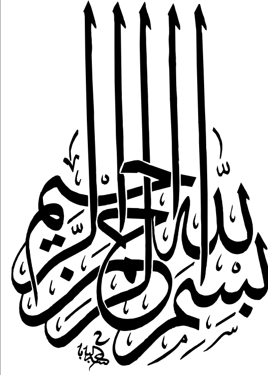


الشَّيخ الدُّكْتُور

جَاسِمُ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ المُهَلْهَلِ الْيَاسِينِ

عشاق الريادة

احتياجات دعوية



الطبعة الثانية
١٤٣٦هـ - ٢٠١٥م

بطاقة الكتاب

الموضوع : سلسلة بيت الدعوة
اسم الكتاب : عشاق الريادة – احتياجات دعوية
تأليف : الشيخ د / جاسم بن محمد بن مهلهل الياسين
الناشر : شركة السماحة للنشر والتوزيع - الكويت
الصف والإخراج : مركز بدور للثقافة والترجمة
عدد الصفحات : ٥٣٤
عدد الملازم : ٣٣,٧٥
مقاس الكتاب : ١٧× ٢٤
رقم الإيداع : ٢٣١٣٣ / ٢٠١٠

شركة السماحة للطباعة والنشر
والتوزيع - الكويت
ت/٩٩٥٥٧٤٧١
الرمز البريدي : ٤٣٧٥٦
ص. ب : ٦٦٥٢٠ بيان

عشاق الريادة
احتياجات دعوية

تأليف

الشَّيْخ الدُّكْتور:
جاسِمُ بْنُ محمد بن مُهَلْهِلِ الْيَاسِين

الطبعة الجديدة: ١٤٣٦هـ ٢٠١٥م
الطبعة الأولى: ١٤٣٣ هـ ٢٠١٢م

مؤسسة السماحة

الطبعة الثانية

١٤٣٦ هـ - ٢٠١٥ م

تطلب مؤلفات الشيخ الدكتور

جاسم بن محمد بن مهلهل الياسين

في الكويت من: شركة السماحة - الكويت.

ت/ ٩٩٥٥٧٤٧١

الرمز البريدي : ٤٣٧٥٦

ص. ب : ٦٦٥٢٠ بيان

فـي مصـر من: بدور للثقافة والترجمة

سلسلة بيت الدعوة

رقم السلسلة (٣) **الرقم الفني (٣)**

الإهْدَاءُ نثرًا

إِلَىٰ وَالِدَتِي مُنِيرَةَ، الَّتِي لَهَا مِن اسْمِهَا نَصِيبٌ، فَقَدْ أَنَارَتْ لِي طَرِيقَ حَيَاتِي، فَعَرَفْتُ رَبِّي، وَسَلَكْتُ مَنْهَجَ النَّبِيِّ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ الله ﷺ .

إِلَىٰ وَالِدَتِي الَّتِي أَرْضَعَتْنِي مَعَانِيَ الْخَيْرِ كُلَّهَا، فَكَانَتْ مَدْرَسَةً فِي كُلِّ شَيْءٍ، فَهِيَ الَّتِي عَلَّمَتْنِي كَيْفَ يَكُونُ بِرُّ الْوَالِدَيْنِ، وَعَلَّمَتْنِي الإِحْسَانَ إِلَىٰ الآخَرِينَ وإِنْ أَسَاؤُوا، وأَرْضَعَتْنِي مَعَانِيَ الصَّبْرِ الَّتِي قَرَأْنَا فِي المجَلَّدَاتِ وَكَتَبْنَاهَا. لَقَدْ عَلَّمَتْنِي مَعْنَىٰ الإِنْفَاقِ مِمَّا كَانَ فِي يَدهَا لِتُدْخِلَ بِهِ السُّرُورَ عَلَىٰ الآخَرِينَ.

إِلَىٰ وَالِدَتِي الَّتِي لَمْ تَعْرِفِ الشَّكْوَىٰ فِي حَيَاتِهَا، وَلَمْ تَئِنّ مَعَ كَثْرَةِ أَمْرَاضِهَا.

إِلَىٰ وَالِدَتِي الَّتِي كُنَّا قَبْلَ وَفَاتِها – رَحِمَهَا اللهُ – بِدُعَائِهَا نَتَنَعَّمُ، وَإِنِّي لأَذْكُرُ قَوْلَ أَحَدِ الأَصْدِقَاءِ عَنْ أمّهِ بَعْدَ وَفَاتِهَا: لَقَدْ ذَهَبَتْ مَنْ كُنَّا بِدُعَائِهَا نَتَنَعَّمُ. وَإِنِّي لأَقُولُ: لَئِنْ تَنَعَّمْتُ بِدُعَاءِ أُمِّي فِي حَيَاتِهَا، فَإِنِّي أَتَنَعَّمُ بالدُّعَاءِ لَهَا بَعْدَ وَفَاتِهَا، وَكُلَّمَا ازْدَدْتُ لَهَا دُعَاءً، ازْدَادَتْ نَفْسِي إِحْسَاساً بِالنَّعِيمِ، فَقَدْ كُنْتُ أَتَنَعَّمُ بِدُعَائِهَا فِي حَيَاتِهَا وَأَتَنَعَّمُ بِالدُّعَاءِ لَهَا بَعْدَ وَفَاتِهَا، وَفِي الْحَالَتَيْنِ، فَإِنِّي أَتَنَعَّمُ بِخَيْرِهَا فِي الْحَيَاةِ وَالممَاتِ.

وَلَسْتُ أَعْرِفُ لإِنْسَانٍ فَضْلاً عَلَيَّ – فِيمَا أَنْعَمُ بِهِ مِنْ فَضْلٍ – خَيْراً يُعَادِلُ أَوْ يُقَارِبُ فَضْلَ وَالِدَتِي – رَحِمَهَا اللهُ تَعَالَىٰ. وَأَسْأَلُ الله – سُبْحَانَهُ – أَنْ يَسْتَجِيبَ دُعَاءَهَا لِي، وَيَسْتَجِيبَ دُعَائِي لَهَا.

لَقَدْ تَعَلَّمْتُ مِنْهَا الصَّبْرَ وَالتَّجَلُّدَ؛ فَقَدْ شَطَبَتْ مِنْ حَيَاتِهَا مَا يُسَمَّىٰ بِالإِيذَاءِ، فَكَانَتْ لاَ تُؤْذِي أَحَداً وَلا شَيْئًا، حَتَّىٰ الأَرْضَ الَّتِي كَانَتْ تَمْشِي عَلَيْهَا، عَلَّمَتْنِي مَعَانِيَ كَثِيرَةً، قَدَّمَتْهَا وَهِيَ تُضَحِّي بِصِحَّتِها وَوَقْتِهَا وَسَعَادَتِهَا.

إِلَىٰ وَالِدَتِي الَّتِي أَعْرِفُ مِنْ مَدْرَسَتِهَا الْكَثِيرَ، وَلاَ يَسَعُنِي ذِكْرُهُ فِي هَذَا الإِهْدَاءِ، وَسَأُفْرِدُ لَهُ رِسَالَةً خَاصَّةً، إِنْ شَاءَ اللهُ.

إِلَىٰ وَالِدَتِي أَهْدِي ثَوَابَ هَذِهِ الرَّسَائِلِ، لَعَلّي أُؤَدّي زَفْرَةً مِنْ زَفرَاتِهَا فِي وِلادَتِي.

وَأَهْدِي هَذِهِ الرَّسَائِلَ إِلَىٰ وَالِدِي – رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ.

وَأَهْدِي هَذِهِ الرَّسَائِلَ إِلَىٰ رَفِيقَةَ الدَّرْبِ أُمّ مُعَاذٍ، الَّتِي كَانَتْ لِي عَوْنـًا فِي صَبْرِهَا عَلَىٰ سَهَرِي وَسَفَرِي.

وَأَهْدِي هَذِهِ الرَّسَائِلَ إِلَىٰ أَوْلادِي جَمِيعـًا، ذُكُوراً وَإِنَاثـًا.

وَأَهْدِي هَذِهِ الرَّسَائِلَ إِلَىٰ كُلّ مَنْ أَسْهَمَ فِي إِخْرَاجِهَا، وَجَعَلَهَا بَيْنَ يَدَي النَّاسِ فِي الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ.

وَإِنَّنِي إِذْ أَكْتُبُ هَذَا الإِهْدَاءَ، أَرْجُو مِنْ إِخْوَانِي الَّذِينَ يَكُونُ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ هَذَا الْكِتَابُ أَلاَّ يَنْسُونَا جَمِيعـًا مِنْ صَالِحِ دُعَائِهِمْ.

الشيخ الدكتور

جاسم بن محمد بن مهلهل الياسين



الإهْدَاءُ شعْرًا

أمَّـــاهُ كُنْــتِ مُنِيــرَةً وَمَنَــارَةً عُلْيَـا وَصَــرْحـاً ثابـتَ الأَرْكَـانِ
قَـدْ كُنْـتِ مَدْرَسَـةً تُعِـدُّ نُفُوسَنَـا لِــصَنَائِعِ المَعْــرُوفِ وَالإِحْـسَانِ
قــدْ كُنْـتِ لِلأَيْتَــام أُمًّـا بَــرَّةً وَالجَـارِ وَالمِـسْكِينِ أَرْأَفَ حَـانِ
أَرْضَـعْتِنَا الأَخْـلاق شَـهْدَاً سَلْـسَلاً تَـدْنُو ثِمَـارُ قُطُوفِهَـا لِلْجَـانِي
عَلَّمْتِنَـا الـصَّبْرَ الجَـمِيلَ خَـلِيقَةً وَالقَوْلَ لِلحُسْنَىٰ وَكَفَّ لِسَانِ

* * *

أبَتَـاهُ قَــدْ رَبَّيْتَنِــي وَأَحَــطْتَنِي برِعَايَـــةٍ فِــي غِبْطَــةٍ وَأَمَــانِ
وَفَّـرْتَ أَسْبَـابَ الـسَّعَادَةِ وَالهَنَـا فَجَعَلْتَنِي أَسْمُو عَلَىٰ الأَقْرَانِ
فَجَـزَاكَ رَبُّ العَـرْشِ خَيْـرَ جَزَائِـهِ وَأُسْـكِنْتَ فِـي رَوْحٍ وَفِي رَيْحَـانِ

* * *

نَوَّرْتَ يَا بَدْرَ الدُّجَا سُبُلَ العُلا بالفَــضْلِ لاَ فَــظٍّ وَلاَ مَنَّــانِ
كَـمْ ذَا تُقَابِـلُ بِالـسُّـرورِ تَـدَلُّلِي بمَحَبَّــةٍ وَبرَأْفَــةٍ وَحَنَــانِ
أَحْبَبْتَنِــي قَـرَّبْتَنِــي رَبَّيْتَنِــي بالعِــزِّ فِـي ثِقَــةٍ وَفِـي اطْمِئْنَـانِ

* * *

أرَفيقَتِـي كُنْـتِ الـشُّعَاعَ إِذا دَجَـا لَيْـلُ الحَيَـاةِ بِمُظْـلِمِ الحِـدْثَانِ
قَـدْ كُنْـتِ خَيْـرَ شَرِيكَـةٍ وَمُعِينَـةٍ فِـي البِـرِّ عِنْـدَ تَقَـاعُسِ الأَعْـوَانِ
الـصَّبْرُ فِيـكِ مَـعَ الوَفَـاءِ سَـجِيَّةٌ بتَعَـاقُبِ الأَفْـرَاحِ وَالأَحْـزَانِ

* * *

يَـا حَبَّــذَا أفْــلاذ أكْبَـادٍ بِهَــا كَـمُلَ المُــرَادُ وَقَــرَّتِ العَيْنَـانِ

فَاحْفَـظْ **مُعَـاذاً** وَاحْفَظَـنَّ **مُهَلْهِلاً** أَمَــدَ الزَّمَــانِ **وَعَابِــدَ الــرَّحْمَنِ**
لاَ زَالَ **عَبْـدُ اللهِ** فِــي حِفْـظٍ وَلاَ زَالُــوا جَمِيعــاً غُــرَّةَ الفِتْيَــانِ
وَلْتَــحْظَ **عَائِـشَةٌ وَفَاطِـمَةٌ** بِمَـا قَــدْ شَــاءَتَا مِــنْ بُغْيَــةٍ وَأَمَــانِ
وَاحْفَـظْ **هَـيَـا وَمُنِيــرَةً** يَــا رَبَّنَـا مِــنْ مُبْطِــنِ البَغْــضَاءِ وَالــشَّنَآنِ

* * *

يَــا رَبِّ لاَ زَالَ الجَمِيــعُ بِنِــعْمَةٍ وَقِــهِمْ شُــرُورَ الحَاسِــدِ المِعْيَــانِ
صَلَّىٰ الإِلـهُ عَـلَىٰ **النَّبِيِّ مُحَـمَّدٍ** وَالآلِ وَالأَصْحَــــابِ كُــــلَّ أَوَانِ

الشيخ الدكتور

جاسم بن محمد بن مهلهل الياسين



مقدمة الكتاب

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ به من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا.

بعد:

إن الدعاة إلىٰ الله هم راحلة البشر، وهم مادة الحياة، ومنزلتهم أعلىٰ المنازل، لا يستوحشون قلة السالكين، ولا يغترون بكثرة الهالكين، عرفوا أن الأمة المسلمة قد جاء دورها لتحقق ما أراده الله لها: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾[1]، ولكن هذا ليس بالأمر الهين، إنه بعث جديد لأمة واراها ركام الأجيال، وركام التصورات، وركام الأوضاع، وركام الأنظمة التي نأت عن نهج الإسلام في كثير من مآخذها ومداخلها وتراتيبها، فالمسافة شاسعة والطريق طويل، ولكن لا مناص فلابد من البعث الإسلامي، ولابد من الخطوة الأولىٰ، وإن كانت هذه الخطوة بداية مفترق طريق، فما لنا من فكاك من البدء في هذه الرحلة الطويلة، فمن عاش لغيره عاش متعبًا، ولكنه عاش كبيرًا ومات كبيرًا.

إلىٰ من جند نفسه وعزم أن يكون في طليعة المجاهدين العاملين أكتب هذه السطور، التي هي بنيات الفكر وحصاد المشاهدة بذلت فيها الجهد للنصح والبيان، فما كان منها صوابًا، فمن الله، وما كان منها خطأ، فمن نفسي وأرجع عنه وأستغفر الله، كما أن ما أذكره لا علاقة له بشخص معين أو جهة خاصة، وإنما هي نظرات عامة ذكرتها من غير تكلف من خلال العيش العملي في الدعوة إلىٰ الله.

والله أسأل أن يكون بهذه الصفحات دفع لعمل أفضل وإنتاج أكثر، وأن يكتب الله لنا فيه الإخلاص والصواب مع الأجر والثواب. والحمد لله رب العالمين.

أبو معاذ

---

(١) آل عمران: ١١٠.

الرسالة الأولى

طريق الدعوة الإسلامية

أسرار ـ عوائق وعلاجات ـ

وقفات ـ إشارات وهمسات

مقدمة

الإنسان ـ مطلق إنسان ـ يبحث عن الأسرار في القديم والحديث، ولكن حقيقة البحث وطبيعته تختلف من إنسان لآخر كل حسب اهتماماته، وكما قيل: همك علىٰ قدر ما أهمك، خواطرك من جنس همك، فهذا إنسان يبحث في أسرار الكون والحياة وعلاقة الإنسان بها، وذاك آخر يبحث في أسرار الناس وحياتهم الخاصة، وهكذا الناس.

وفي هذه الرسالة سنتطرق إلىٰ بعض الأسرار المتعلقة بالدعوة إلىٰ الله ـ عز وجل ـ وحسبي في ذلك فتح الباب للبحث في أسرار تعود بالخير علىٰ الإنسان في الدنيا والآخرة.
وقد يطرح سؤال: لماذا البحث في الأسرار الخاصة بمصلحة الدعاة؟

فالجواب هو ما قاله الأقدمون:

«**همك علىٰ قدر ما أهمك، خواطرك من جنس همك**».

فهذه قاعدة مستمرة في حياة البشر لها واقعها الملحوظ علىٰ كل صنف واتجاه، فاهتمامات الإنسان تأتي من تفكيره في محبوبه، وما من شيء أكثر تفكيرًا وحبًّا لدىٰ المسلم ـ العابد لله تعالىٰ ـ من الإسلام وقضايا الإسلام، والإناء الذي يحمل هذا الاسم، وأقصد بذلك: الحركات الإسلامية التي أخذت علىٰ عاتقها العمل لإيجاد هذا الدين في واقع الحياة، وهذا الإناء هو الذي يجب أن يأخذ الحظ الوافر في تفكير أهل الدعوة، فالإسلام كمبادئ ونظم موجودة في الكتاب والسنة وشروحها وقد تكفل الله بحفظهما من التحريف.

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾ ﴾[1].

(١) الحجر: ٩.

أولا: أسرار في العمل الإسلامي

ظل المنهج الإسلامي نقيًّا صافيًا ينتظر من يحمله، وفق حكمة الله التي اقتضت ألا يتحقق الإسلام بمعجزة خارقة للعادة، بل يتحقق وفق الجهد البشري الذي خلق الله البشر عليه، لذلك قيل: «**ما أعظمه من دين لو كان له رجال**»، علىٰ أن الدعوة إلىٰ الله ـ تبارك وتعالىٰ ـ قد تشابكت قضاياها وتداخلت، بحيث أصبح الداعية يشعر في بعض الأحيان أنه غريب في فهمه حتىٰ بين إخوانه، فيضيق صدره، وتحبس أنفاسه الطيبة المباركة في صدره، فتفقد الحركة نسمة طيبة مباركة كانت تدر الخير والبركة علىٰ الناس. لهذا الأمر ولغيره من القضايا التي تشابكت علىٰ أصحاب الدعوة كان التفكير المستمر، وكانت هذه الكلمات التي لا تعدو أن تكون نظرات وتأملات قابلة للخطأ والصواب.

*** أسرار نبوح بها للدعاة:**

أولاً: أسرار في العمل الصالح:

إن للعمل الصالح طرقًا كثيرة، بينها الكتاب ووضحتها السنة، وليس موضوع البحث تفصيلها، بل التطرق إلىٰ بعض من أسرار هذا النوع من العمل التي يغفل عنها كثير من الناس... وهم بذلك يظنون أن لهم رصيدًا كبيرًا من الأعمال، فإذا أتوها يوم القيامة وجدوها سرابًا لا حقيقة لها ـ والعياذ بالله ـ ولهذا الأمر ولأهميته كان ذكر هذه الأسرار.

١ ـ الإخلاص في القصد والعمل مع موافقة الشرع في الأعمال:

وهذان الأصلان كثر فيهما الكلام واستفاض، ولكننا نكتفي بالقول: إن العمل لا يقبل إلا إذا كان خالصًا لوجه الله وموافقًا لشرعه، فلو تخلف أحد هذين الأصلين بطل العمل، فالمخلص مهما بلغ من إخلاصه، إن لم يوافق الشرع فعمله مردود، وكذلك من وافق الشرع ودقق بالنصوص إن تخلف عنصر الإخلاص، فعمله مردود، وبهذا استفاضت النصوص.

٢ ـ العمل بالخفاء:

وهو أمر قد غفل عنه كثير من الدعاة مع عظيم أجره، كما بين النبي ﷺ في حديث السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله، فقال ﷺ: «**سَبْعةٌ يظِلُّهُـمُ الله في ظِلِّه يَوْمَ لاَ ظِلَّ إِلا ظِلُّه: إِمَامٌ عَادِلٌ، وَشَابٌّ نَشأَ فِي عِبَادَةِ الله، وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ بِالمسَاجِدِ إِذا خَرَجَ مِنْهُ حَتَّىٰ يَعُودَ إِليْهِ، وَرَجُلانِ تَحابَّا في الله فاجْتَمَعا علىٰ ذَلكِ وَافْتَرقَا عَلَيه، وَرَجُلٌ ذَكَرَ الله خَالِيًا فَفَاضَتْ عَيْنَاه، وَرَجُلٌ دَعَتْهُ امْرأَةٌ ذاتُ مَنْصِبٍ وَجَمال، فَقَال: إِنِّي أَخَافُ الله رَبَّ الْعَالَمِينَ، وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ فَأَخْفَاهَا حَتَّىٰ لا تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا تُنْفِق يَمِينُهُ**»(١).

فما السر في هذا الأجر العظيم وما السبب في تظليل الله لهم في ذلك اليوم الذي يغرق الناس في عرقهم؟

هل هو قيام كل واحد من هؤلاء السبعة بالعمل الذي نسب إليه فقط؟ كلا... فمفهوم الحديث يفيد أن أمرًا عظيمًا قد صاحب أداء كل منهم لعمله!! فجعل له هذا الأجر العظيم... ألا وهو الإخلاص والخفاء في الأداء، إنه التعامل مع رب لا تخفىٰ عليه خافية.

ومن أدلة هذا الأمر كذلك قصة الثلاثة الذين أغلقت عليهم الصخرة باب الكهف... حيث عمد كل واحد منهم إلىٰ أن يتذكر عملاً صالحًا كان يرجو به وجه الله؛ليفرج الله به هذه الصخرة، فماذا تذكروا وماذا قالوا؟! إنهم لم يتذكروا إلا الأمور التي لم يكن يعلمها إلا الله، فهذا يذكر قصته مع والديه وسقايته اللبن لهما، والسهر عندهما، وذاك قصته مع الفتاة التي اختلىٰ بها وتمكن منها، وهذا في حفظه للمال وتنميته في غيبة صاحبه، والحديث كما ورد في «**صحيح البخاري**»:

عن أبي عبد الرحمن عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما قال:سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**انْطَلَقَ ثَلاَثَةُ نَفَرٍ مِمَّنْ كَانَ قَبْلَكُمْ حتَّىٰ آوَاهُمْ المَبيتُ إِلَىٰ غارٍ فَدَخَلُوهُ، فَانَحَدَرَتْ صَخْرةٌ مِنْ الجَبلِ فَسَدَّتْ عَلَيهِمُ الغَارَ. فَقَالوا: إِنَّهُ لاَ يُنَجِّيكُمْ مِنْ هَذِهِ الصَّخْرةِ إلا أَنْ تَدْعُوا الله ـ تَعَالىٰ ـ بِصَالح أَعْمَالِكُمْ، قَالَ رَجُلٌ مِنْهُم: اللَّهُمَّ إِنهُ كَانَ لِي أَبوان شَيْخانِ**

(١) أخرجه البخاري (٦٦٠)، ومسلم (١٣٠١)، والترمذي (١٩٣٢)، وأحمد (٢/ ٩٣٤) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

كَبِيرَانِ وَكُنْتُ لاَ أَغْبِقُ قَبْلَهُمَا أهلاً ولاَ مَالاً، فَنَأَىٰ بي طَلَبُ الشَجَرِ يَوْمًا فَلَمْ أُرِحْ عَلَيْهِمَا حَتىٰ نَامَا، فَحَلِبْتُ لَهُمَا غَبُوقَهُمَا فَوَجَدْتُهُمَا نَائِمَيْنِ، فَكَرِهْتُ أَنْ أَوقِظَهُمَا وَأَنْ أَغْبِقَ قَبْلَهُما أَهلاً أَوْ مَالاً. فَلَبِثتُ ـ وَالقَدَحُ عَلىٰ يَدَيَّ ـ أَنْتَظِرُ اسْتِيقَاظهما حَتَّىٰ بَرَقَ الفَجْرُ، والصِّبْيَةُ يَتَضَاغُونَ عِندَ قَدَمي ـ فَاسْتَيقَظَا فَشَرِبَا غَبُوقَهُمَا، اللَّهُم إِنْ كُنْتُ فَعَلتُ ذَلَكِ ابْتِغاءَ وَجْهِكَ، فَفَرِّجْ عَنَّا مَا نَحْنُ فِيهِ مِنْ هذِهِ الصَّخْرةِ، فَانْفَرَجَتْ شَيْئًا لاَ يَسْتَطِعُونَ الخُرُوجَ مِنْهُ.

قال الآخر: اللَّهُمَّ إِنَّهُ كانَتْ لِي ابْنَةُ عمٍّ كَانَتْ أَحبَّ النَّاسِ إليَّ ـ وفي رواية: «كُنْتُ أُحِبُّهَا كأَشَدِّ مَا يُحبُّ الرِّجَالُ النِساءَ» ـ فَأَرَدتُها عَلىٰ نَفْسِها فامتنعَتْ مِني، حَتَّىٰ أَلَمَّتْ بِهَا سَنَةٌ مِنْ السِّنِينَ، فَجَاءَتْني فَأَعْطَيْتُهَا عِشْرِينَ وَمَائَةَ دِيْنَارٍ عَلَىٰ أَنْ تُخلِّي بَيني وَبَينَ نَفْسِهَا فَفَعلَتْ، حَتَّىٰ إذا قَدِرْتُ عَلَيهَا ـ وفي رواية: «فَلَما قَعِدْتُ بَيْنَ رِجْلَيْهَا» ـ قالت: « اتَّقِ الله وَلاَ تفُضَّ الخَاتِمَ إلاَ بِحَقِّهِ فَانصَرَفْتُ عَنْهَا، وَهِي أَحَبُّ النَّاسِ إليّ وَتَركْتُ الذَّهَبَ الذِي أَعْطَيتُها، اللَّهم إِنْ كُنْتُ فَعَلتُ ذَلِكَ ابْتَغاءَ وَجْهِكَ فَافْرجْ عَنَّا مَا نَحنُ فِيهِ، فَانْفَرَجَتِ الصَّخْرَةُ غَيرَ أَنَّهُمْ لاَ يَستَطيعُونَ الخُرُوجَ مِنْهَا.

قال الثالث: اللَّهُمَّ إِنِّي اسْتَأْجَرْتُ أُجَراءَ وأَعْطَيْتُهُمْ أَجْرَهُم غَيْرَ رَجُلٍ وَاحِدٍ تَرَكَ الَّذِي لَهُ وَذَهبَ، فَثَمرتُ أَجْرَهُ حَتَّىٰ كَثُرَتْ مِنْهُ الأَمْوَال فَجَاءَنِي بَعْدَ حِين فَقَالَ: يَا عَبْدَ الله أَدِّ إِليَّ أَجْرِىٰ فَقُلتُ: كُلُّ مَا تَرىٰ مِنْ أَجْرِكَ: مِنَ الإِبِلِ وَالبَقَرِ والْغَنم، فَأَخَذَهُ كُلَّهُ فَاسْتَاقَهُ، فَلَمْ يَتْرُكْ مِنْهُ شَيئًا، اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتُ فَعَلتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ وَجهِكَ، فَافْرُجْ عَنَّا مَا نَحْنُ فِيهِ، فَانْفرجَتِ الصَّخْرَةُ، فَخَرَجُوا يَمْشُونَ»[(١)].

فلماذا لم يتذكر هؤلاء النفر إلا هذه الأعمال؟! السبب واضح وهو كونها أقرب إلىٰ الإخلاص، وهي بذلك خالية من الرياء، وبهذا يتبين سر الخفاء في العمل.

٣ ـ الاعتزاز بالعمل الصالح:

حيث يرتفع صاحبه عن مجالسة أصحاب الجور والطغيان، ويكون كما كان ابن تيمية

(١) أخرجه البخاري (٢٧٢٢)، ومسلم (٣٤٧٢) عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

رحمه الله يُوصف: بأنه ليس برجل محافل يزهو بعبارات الإعجاب والإطراء، ويستهويه أن يتجمع حوله الأتباع والأشياع، وإنما هو رجل حق يزول معه حيثما زال، ويميل أينما مال، هو رجل يسير بالطريق المستقيم لا توحشه قلة السالكين وينأىٰ عن الطريق المنحرف ولا يغتر بكثرة الهالكين...فهو كما يقول عن نفسه: «**رجل ملة، لا رجل دولة**»[1].

كما كان البخاري ـ رحمه الله ـ عندما طلب منه والي نيسابور أن يحمل إليه كتاب الجامع في التاريخ ليسمع منه فأبي وقال: «**إني لا أذل العلم ولا أحمله إلىٰ أبواب السلاطين، فإن كانت له حاجة فليحضرني في مسجدي**»[2] فكان ذلك سبب الوحشة بينهما. ولا يعني ذلك ألا يقوم صاحب العلم والعمل بالدعوة إلىٰ الله وتبليغها إلىٰ الخلق، بل المراد حفظ العلم والعمل من الإهانة والتدنيس والنيل منه، وعدم جعل العمل الصالح سُلَّمًا للوجاهة والمال والسلطان، فمن أرضىٰ الناس بسخط الله أذله الله، ومن أسخط الناس برضىٰ الله أعزه الله.

ثانيًا: سر فعالي وتأثير السيرة:

من الأسرار العجيبة في السيرة أن الإنسان عندما يسرح في قراءتها؛ متنقلاً في رياض سيرة ابن هشام، خائضًا معارك وغزوات باشميل، ثم «**فتوحات أحمد عادل كمال**»، معرِّجًا علىٰ نفحات ابن الجوزي في مناقب المصطفي ﷺ، واقفًا عند ما امتاز به الإمام الممتحن، متفقهًا بسيرة محمد الغزالي...أقول:عند القراءة في هذه الكتب وأمثالها، تقشعر الأبدان ويرتجف القلب، فإذا الدموع الساخنة تتلألأ علىٰ سبحات الوجه، وقوة عظيمة تحرك الوجدان؛لتبعث فيه نفحات حب العمل والتضحية، وإذا بأحلام اليقظة

(١) العقود الدرية من مناقب شيخ الإسلام ابن تيمية ص (٩٣) لابن قدامة المقدسي، تحقيق محمد حامد الفقي، ط دار الكتاب العربي، وتوضيح المقاصد وتصحيح القواعد في شرح قصيدة الإمام ابن القيم (٢/ ٩) لأحمد ابن إبراهيم بن عيسىٰ.ط المكتب الإسلامي.

(٢) تاريخ بغداد (٢/ ٣٣) للخطيب البغدادي، وتاريخ دمشق (٢٥/ ٥٦) لابن عساكر، وتهذيب الكمال (٤٢/ ٤٦٤) للحافظ المزي، وتاريخ الإسلام (٩١/ ٢٧١) للذهبي، وسير أعلام النبلاء له (٢١/ ٤٦٤)، وتدريب الراوي (٢/ ٣٦٢) للسيوطي.

تأخذ بالقارئ إلىٰ حيث المواقف التي يعيش فيها من خلال قراءته، ويجدها مسطرة بأحرف قد صفت علىٰ ورق ينتقل من مكان إلىٰ مكان، فيرىٰ نفسه حاملاً السلاح يقاتل في القادسية، أو ممسكًا بحلي زوجته وقوت أولاده؛متبرعًا به للجيش الإسلامي الذي يقاتل لتحرير الشام من التتار، وهكذا تفعل السيرة في حياة الناس من مستمع وقارئ، فما السر في ذلك؟

لماذا لا نرىٰ المستمع للقرآن والباحث في الحديث والمقلب لأمهاته يتأثر التأثر السابق الذي ذكرناه؟ إنه أمر لابد من الوقوف والتأمل فيه... فهو واقع لا تغمض العين عنه؛ ولذلك كان لابد أن نفكر: هل في ذلك تعارض مع ما أخبرنا به الرب تبارك وتعالىٰ عن القرآن أنه: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢﴾[1] وقوله: ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾[2].

قوله: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝١٦٤﴾[3]. وقوله: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ۝٢٣﴾[4].

وقوله: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ۝٢١﴾[5].

وغيرها من آيات الذكر الحكيم التي تبين أثر القرآن الكريم!!

عند التحقيق يتضح أنه ليس هناك تعارض بل هو سر لابد من فهمه وهو: «**أن السيرة النبوية ومواقف الصحابة والسلف الصالح رضي الله عنهم، ما هي إلا الترجمان الحقيقي العملي**

(١) البقرة:٢.
(٢) البقرة: ١٨٥.
(٣) آل عمران: ١٦٤.
(٤) الزمر: ٢٣.
(٥) الحشر: ٢١.

لآي الفرقان العظيم، فأخلاقيات وسلوكيات الرسول ﷺ وصحابته ليست منفكة عن المحجة البيضاء، بل هي التطبيق والامتثال لما تركه لنا النبي ﷺ بدليل حديث عائشة رَحِمَهَاٱللَّهُ عندما سئلت عن أخلاق النبي ﷺ فقالت: «**كان خلقه القُرْآنُ**»[1] وقس علىٰ ذلك بقية السيرة، فالتأثر بالسيرة إنما هو في حقيقة الأمر تعايش مع الآيات والأحاديث في تطبيقها العملي الذي من أجله نزلت، كما قال ابن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: « **كُنَّا لا نَتَجَاوَزُ العَشْر الآيات مِنَ القُرآنِ حتَّىٰ نَحْفَظَها وَنُطَبِّقَها...**» [2].

وليزداد هذا الأمر وضوحاً نضرب علىٰ سبيل المثال بعضاً من الصور التقريبية:

الصورة الأولى: الدعوة للإنفاق:

وهذه يمكن أن نتصورها بشكلين:

الشكل الأول:

قيام خطيب بين الناس يتكلم فيهم عن الإنفاق في سبيل الله مستشهدًا بآيات وأحاديث وقصص من السيرة...فهذا شكل من التبليغ.

الشكل الثاني:

أن تأتي فرقة من المسرح الإسلامي وتصوغ نفس ما ذكره الخطيب باستشهاده بفاصل مسرحي محكم، فأي الأمرين أكثر تأثيرًا في الناس؟!

الصورة الثانية: بيان تنكيل الطواغيت بالمسلمين:

وهذه الصورة نذكر لها شكلين:

الشكل الأول:

لو قام مجاهد من المحاربين للطواغيت في بلد ما يبين ما يقوم به زبانية الجزارين في أقبية السجون من تعذيب وتنكيل للمسلمين، وأخذ يصف بكل ما أعطاه الله من قوة في

---

(١) أخرجه مسلم (٧٤٦)، وأحمد (٦/ ٩١) عن عائشة رَحِمَهَاٱللَّهُ.

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك (١/ ٥٥٧)، والبيهقي في شعب الإيمان (١٩٥٣) عن عبد الله بن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، قال الحاكم: «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه».

البيان لهذا الأمر.

الشكل الثاني:

أن تأتي إلىٰ نفس الحاضرين مجموعة من المجاهدين قد هربوا من سراديب التشريح والتشويه، ويعرضوا آثار تسلط المجرمين عليهم، فأي الأمرين أكثر تأثيرًا في الحضور؟!

الصورة الثالثة : التربي على المفاصل والثبات على المبدأ:

فهذه التربية يمكن أن تصاغ بطريقتين:

الطريقة الأولىٰ: أن تجمع نفرًا من الشباب، وتقرأ عليهم قوله تعالىٰ: ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ ﴾[1].

وقوله تعالىٰ: ﴿ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ ۖ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ ﴾[2].

وقوله ﷺ: «**احْفَظِ الله يَحْفَظْكَ، احْفَظِ الله تَجِدْهُ تُجَاهَكَ، وَاعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعَتْ عَلَىٰ أَنْ يَنْفَعُوك بِشيء لَمْ يَنْفَعُوك إلا بشيء قَدْ كَتَبَهُ الله لَكَ، ولَو اجْتَمعُوا علىٰ أنْ يَضُروكَ بشيء لَمْ يَضُرُّوكَ إلاَ بِشيء قَدْ كَتَبَهُ الله عَلَيكَ**»[3] وغيرها من النصوص التي تبين أن المسلم يجب أن يعتقد بأن النفع والضر من الله تعالىٰ وحده، وأن علىٰ المسلم أن يعلو علىٰ جميع القوىٰ المؤثرة، فيثبت علىٰ عقيدته ومنهجه وتصوراته لا يثنيه عن ذلك رحم مقرب ولا شهوة ساقطة ولا مال.

الطريقة الثانية: أن تذكر هذه الآيات والأحاديث مطعمة بمواقف من سيرة الرعيل الأول، كقصة خالد بن سعيد بن العاص مع أبيه، وقصة مصعب مع أمه خناس بنت مالك، وكذلك ما قاله سعد بن أبي وقاص لأمه:

---

(١) التوبة: ٢٤.

(٢) التوبة: ٥٢.

(٣) أخرجه الترمذي (٢٥١٦) وأحمد في مسنده (١/ ٢٩٣) عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما، وقال الترمذي: «حسن صحيح».

«تَعْلَمِينَ والله يا أَمَّاهُ لَو كَانَتْ لَكِ مَائَةُ نْفسٍ فَخَرَجَتْ نَفْسًا نَفْسًا مَا تَرَكْتُ دِينِي، هَذَا طَعَامٌ فَكُلِي إنْ شِئْتِ أَوْ لاَ تَأْكُلِي»[١].

فأي الموقفين أكثر تأثيرًا في النفوس؟![٢].

ثم بعد ذلك لعل الأمر قد وضح والسر قد بان.

كما أنه ليس لمعترض أن يقول: بأن الرعيل الأول كان يسمع الآيات والأحاديث فقط، ومع ذلك فهو الجيل الفذ والنموذج الأصيل الفريد، ليس له ذلك...؛ لأن ذلك الجيل هو خير القرون مصداقًا لحديث النبي ﷺ:«**خَيْرُ القُرون قَرْنِي ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ..**»[٣] الحديث، ثم إن الحياة العملية الجهادية هي التطبيق العملي للكتاب والسنة فهم كانوا يرون السيرة ونحن اليوم نقرأ السيرة...!

هذا سر من أسرار السيرة. وذاك سر من أسرار العمل الصالح.

ثالثًا: سر تأخر النصر عن الحرك الإسلامي :

ليس من شك أن الحركة الإسلامية ظلت وما زالت تعمل قبيل سقوط الخلافة العثمانية إلىٰ وقتنا هذا، ومع ذلك لم تحقق في أي قطر نصرًا ماديًا من خلال استلام زمام الدولة والنظام...مع أن الحركات الهدامة أتت بعدها بسنوات وهي الآن تملك دولاً وأنظمة...فما هو السبب؟!.

السبب الأول: نقص النضج القيادي في الحركة الإسلامية: إن وجود الراحلة التي تقود أي قطاع من القطاعات هو منال ومطلب الناس علىٰ مر العصور؛ لذلك كان البيان النبوي الكريم: «**الناس كإبل مائة لا تكاد تجد فيها راحلة**»[٤]، وهذه القاعدة مطردة في جميع التجمعات والدول والحركات والهيئات؛ ولهذا السبب كان العنصر القيادي عملة

(١) أخرجه ابن عساكر في تايخ دمشق (٠٢/ ٣٣١) ، عن أبي عثمان النهدي، وعزاه الحافظ ابن كثير في تفسيره (٣/ ٤٤٦) ط. دار الفكر، للطبري في كتاب العشرة، وزاد السيوطي نسبته في الدر المنثور (٦/ ٥٢١) لأبي يعلىٰ وابن مردويه.

(٢) وهو أن الصورة في كل الحالات التي ذُكرت أكثر أثرًا لاشتراك الجانب العملي مع البيان النظري.

(٣) أخرجه البخاري (٢٦٥١) ، ومسلم (٢٥٣٥) ، عن عمران بن حصين، ولفظه: «خيركم قرني...».

(٤) أخرجه البخاري (٦٤٩٨) ، ومسلم (٢٥٤٧) ،وأحمد (٢/ ٧٠) ، عن عبد الله بن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا.

نادرة في شتىٰ الميادين، وتأتي أهمية القيادة في الحركة الإسلامية من وجود عنصر القـدوة في البناء التربــوي الإيماني، ومن أن التعامل يكون مـع الله ـ سبحانه ـ الذي لا تخفىٰ عليه خافية، والنـاظر في تـاريخ الـدعوة الإسـلامية في العهـد النبـوي يجـد أن النبـي ﷺ عمـد في سنواته التي عاشها في مكة والمدينة علىٰ تكوين القيـادات التـي تـستلم العمـل مـن بعـده، فكان التركيز النظري في دار الأرقم بن أبي الأرقم مع الممارسة، والاحتكاك في المجتمـع الـوثني، وتحمـل تبعـات هـذا الاحتكـاك اليـومي، ثـم متابعـة المبـادئ والقـيم والمـوازين خلال الحياة اليومية التي يعيشها الجيل القيادي في مكة والمدينـة؛ لـذلك رأينـا النبـي ﷺ مستمرًّا مع نفس العناصر التي رباها في شعاب مكة وصقلها في المدينة، فكانت الروايـات بعد ذلك: ذهب رسول الله ﷺ مع أبي بكر وعمر، أتىٰ رسول الله ﷺ مع أبي بكر وعمـر، ونتـاج هـذه التربيـة القياديـة رأينـا أن الخلفـاء الأربعـة رضي الله عنهم مـن الجيـل القيـادي الأول، والقادة في الفتوحات الإسلامية هم من هذا الجيل الأول كذلك.

وعلىٰ ذلك، فمنهج الدعوة في عهد النبوة يوجهنـا إلـىٰ تكـوين هـذه القيـادة التـي ترفـع راية التوحيد راية الدعوة إلىٰ (لا إله إلا الله)، كما أن الحركة الإسلامية يقـاس نجاحهـا لا بكثرة أتباعها أو مؤلفاتها، أو مؤسساتها التجارية والماليـة ـ وإن كانـت هـذه مهمـة ـ ولكـن بكثرة العنصر القيادي الذي يتناسب معدنه مع الرسالة التي يحملهـا، فالملكـات القياديـة التي تلزم كل قائد تكثر أو تقل حسب المكان الذي يشغله هذا القائد، فالقائد الذي يحـل مكان الأنبياء في تحمل الدعوة وتبليغها لابد أن يكون علىٰ مستوىٰ مـن الإيمـان والنـضج والعمق التربوي والسياسي وحدة الـذكاء وقـوة التحمـل... إلىٰ غيـر ذلـك مـن الـصفات القيادية، وهذا النوع من القيادة لا يترك للصدف والتكوينات الفردية الشخصية، بـل لابـد أن تكون هناك مؤسـسة في الحركـة الإسـلامية تتبنـي هـذا الأمـر، فكمـا تخـصص الحركـة الإسـلامية مؤسـسات اقتـصادية واجتماعيـة وثقافيـة، لابـد أن توجـد مؤسـسة للـصياغة القيادية تتبنى مـن يـتلمس أصـحاب الحركـة التكوينيـة القياديـة فـيهم، ثـم يعتنـي بهـم منـذ نعومة أظفارهم، بتفريغ أناس لهم من جميع الاختصاصات، وترصد لهـم ميزانيـة لا تقـل عن باقي المؤسسات إن لـم تكـن أكثـر لأهميـة العنـصر القيـادي، مـع الأخـذ بالاعتبـار أن

العناصر القيادية إذا تم نضجها لا توزع وتترك حتىٰ تنتهي، بل لابد أن يستلموا مكان القيادة التي نطلق عليها إن صح التعبير «**القيادة المُعِدة**» ـ بضم الميم وكسر العين ـ للقيادة القائدة، وذلك لا يعني أنه ينتهي دورها بتسليمها مكانها للعناصر الجديدة، بل تبقىٰ في المراكز الاستشارية أو في المكان الذي تستفيد منه الحركة من تجاربهم وقدمهم، وهذا لا ينقص من حقهم شيئًا بل يبقىٰ الخير لهم بعمل هذا الجيل الذي كونوه: «**مَنْ سَنّ سُنَّةً حَسَنةً فَلَهُ أَجْرُهَا وأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا لاَ يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئًا**»[1] ثم إن «**الدَّالَّ عَلَىٰ الخَيرِ كَفَاعِلِه**»[2].

السبب الثاني: نسيان الضابط الشرعي:

في زخم العمل والاحتكاكات اليومية والفتن التي تنهال علىٰ الحركة الإسلامية نرىٰ غياب الأصل في التفكير الإسلامي، من أنه يجب أن يكون تفكيرهم شرعيًّا ويضبط من أهل الذكر: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ۝٧﴾[3].

والذي يجعلنا نذكر هذا الأمر الذي يعد من بديهيات العمل الإسلامي أننا نسمع ممن نحبهم من أصحاب الحركة الإسلامية أن من مصلحة الحركة الإسلامية ألا تقضي علىٰ جميع أوكار الأحزاب الكافرة التي فيها يعشعشون ويفرخون، وذلك بتعليل أن طاقة الحركة الإسلامية الإنتاجية والإدارية لا تعينها علىٰ احتواء المعاقل الكافرة وتحويلها إلىٰ معاقل لبث الخير والدين، أو أن القضاء عليهم سيجعل السلطات تنفرد بهم في الساحة إلىٰ غير ذلك من أنماط التفكير الذي غاب عنه الأصل في التعامل مع هؤلاء.

﴿وَقَـٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾[4]، «**مَنْ رَأىٰ مِنْكُم مُنْكَرًا فَلْيُغَيره**»[5]، ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ

---

(١) أخرجه مسلم (١٠١٧)، والترمذي (٢٦٧٥)، والنسائي (٢٥٥٤)، وابن ماجه (٢٠٣)، عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه.

(٢) أخرجه الترمذي (٢٦٧٠) واللفظ له عن أنس بن مالك، وصححه الألباني، وهو عند مسلم (١٨٩٣)، عن أبي مسعود الأنصاري ولفظه: «من دل علىٰ خير فله مثل أجر فاعله».

(٣) الأنبياء: ٧.

(٤) الأنفال: ٣٩.

(٥) أخرجه مسلم (٤٩)، وأبو داود (١١٤٠، ٤٣٤٠)، والترمذي (٢١٧٢)، والنسائي (٥٠٠٨)، وابن ماجه (١٢٧٥، ٤٠١٣)، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ﴾[١].

السبب الثالث: عدم متابعة العمل عند التكليف به:

مع زيادة متطلبات العمل من قيادي الحركة الإسلامية، ومع القراءة لفن الإدارة في كتب الغرب، التي تبين أن من أسس الإدارة الناجحة عدم تمركز العمل في مكان واحد، بل توزيع الصلاحيات على القطاعات المختلفة، ومع هذه الأمور يعمد المسؤولون بعد توزيع الصلاحيات إلى عدم المتابعة والبحث والنظر، وهذا مخالف لمنهج السلف ـ رضوان الله عليهم ـ الذي يبين أن توزيع الصلاحيات لا يعفي القيادة من مسؤولياتها؛ لذلك قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «**أَرَأَيْتُمْ إِذَا اسْتَعْمَلتُ عَلَيْكُمْ خَيْرَ مَنْ أَعْلَمُ، ثُمَّ أَمَرْتُهُ بِالعَدْلِ أَكُنْتُ قَضَيْتُ مَا عَلَيّ؟ قَالُوا: نَعَمْ، قَالَ: لاَ، حَتىٰ أَنْظُرَ فِي عَمَلِهِ أَعَمِلَ بِمَا أَمَرْتُهُ أَمْ لاَ؟**»[٢] وهذه القاعدة لو أتبعت بالجدية الإسلامية لما رأيت كثيرًا من اللجان تولد وتموت في المخاض.

السبب الرابع: عدم معرفة حقيقة العهد المكي الذي تقول الحركات الإسلامية بأنها تعيشه في مسيرتها وخطواتها:

فتارة تسمع بأنها مرحلة الصبر والسكوت على إيذاء المجرمين، تمشيًا مع حديث الرسول ﷺ: «**كن عبد الله المقتول ولا تكن القاتل**»[٣] «**كن كابن آدم**»[٤] بل قد تسمع أن

(١) البقرة: ١٢٠.

(٢) أخرجه عبد الرزاق في المصنف (٢٠٦٦٥)، والبيهقي في السنن الكبرىٰ (٨/ ١٦٣)، وفي شعب الإيمان له (٧٣٩٥)، وابن عساكر في تاريخ دمشق (٤٤/ ٢٧٩ ـ ٢٨٠) عن طاوس عن عمر، وطاوس لم يدرك عمر؛ لذا فهو منقطع، قال العلائي في جامع التحصيل ص (٢٠١): «طاوس عن عمر وعن علي وعن معاذ مرسل».

(٣) أخرجه أحمد (٥/ ١١٠)، والطبراني في الكبير (٤/ ٥٩) (٣٦٢٩)، عن حميد بن هلال عن رجل من عبد القيس، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٧/ ٣٠٢، ٣٠٣): «ولم أعرف الرجل الذي من عبد القيس وبقية رجاله رجال الصحيح»، وعزاه الحافظ ابن حجر في فتح الباري (١٢/ ٢٩٧) ليعقوب بن سفيان، وصحح سنده عن حميد بن هلال عن الرجل من عبد قيس.

(٤) أخرجه أبو داود (٤٢٥٧)، والترمذي (٢١٩٤)، وأحمد (١/ ١٨٥)، عن سعد بن أبي وقاص، وقال الترمذي: «وهذا حديث حسن»، وقال الشيخ أحمد شاكر في تعليقه على المسند (١٦٠٩): «إسناده صحيح».

من سمات هذه المرحلة أن تنبري للدفاع عن هذه الأنظمة القائمة وتنافح عنها أكثر من منافحتها عن نفسها بعلة أنها أحسن الموجود، وتارة تسمع بأن الحركة الإسلامية قد تخطت العهد المكي بمجرد ما ظهرت أقلامها وكلماتها عبر المنبر والصحافة والكتاب إلىٰ غير ذلك من الأفهام حول العهد المكي.

والذي يظهر لي: أن مرحلة العهد المكي تمثل في حقيقتها مرحلتين: مرحلة في دار الأرقم بن أبي الأرقم وغار حراء وشعاب مكة المظلمة، ومرحلة مسيرة القافلة المؤمنة في الصدع بالحق وتميزها عن الباطل، ووضوح الرايتين: راية التوحيد وراية الشرك والوثنية، وهذه المرحلة ليست بهذه السهولة، بل تستلزم الصبر والتربية الإيمانية العميقة، فتتطلب من أصحابها الإعداد الكامل في جميع الميادين، ثم يبدؤون فيقولون كلمة الحق، ويصبرون عليها كما أراد الله سبحانه: ﴿ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ﴾[1] الحق بوضوحه ولو كان هذا سيقلل الرواتب أو المكاسب المالية أو قد يحرمهم منها، أو يسلب منهم الوجاهة التي قد تحصل لهم بأخلاقياتهم وسكوتهم عن بعض الحق، إنها كلمة الحق التي حول الجهر بها النظر إلىٰ الرسول ﷺ من الصادق الأمين إلىٰ الكذاب الأشر إلىٰ الساحر المجنون، إنه العهد الذي نقل العبارة من «**رَضِينَا بِهِ حَكَمًا**»[2] في وضع الحجر الأسود إلىٰ العبارة الساخرة «**تبا لَكَ أَلِهَذَا جَمَعْتَنَا**»[3]، وفي هذا الفهم هناك حقيقة يجب ألا تخفي علىٰ أصحاب الحركة الإسلامية إن كانوا صادقين في تقييمهم، وهي أن جموع الشباب ورجالات الدعوة ـ علىٰ الأقل في دائرة الدول الخليجية ـ ليسوا مهيئين في تربيتهم الحالية علىٰ العيش وفق مقتضيات العهد المكي الذي يمثل في حقيقته المفاصلة ومستلزماتها من الصبر والثبات، والله المستعان.

السبب الخامس: الاعتماد علىٰ الجهد البشري:

فهم من عبارات بعض الدعاة اعتمادهم علىٰ جهدهم البشري، وهذا يمثل خدشًا في

---

(١) الكهف: ٢٩.

(٢) السيرة النبوية لابن هشام (٢/ ١٨، ١٩) عن ابن إسحاق.

(٣) أخرجه البخاري (٤٧٧٠، ٤٨٠١، ٤٩٧٢، ٤٩٧٣)، ومسلم (٢٠٨) وأحمد (١/ ٢٨١)، عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما.

الحس الإيماني للدعاة، ويأتي هذا الأمر بعد كثرة الأنصار وتقدم الدعوة في مسيرتها، فالمرحلة الأولىٰ التي تمثل الضعف البشري الذي بطبيعته يمثل الالتجاء إلىٰ القوة التي يعبدها، وهذا أمر مشترك لدىٰ الجميع، ولكن الأمر الذي يتميز به أهل الإيمان عن غيرهم أنهم علىٰ صلة بالله ـ تعالىٰ ـ في جميع حالاتهم وقوتهم وكثرة عددهم؛ لأنهم يعلمون أنهم ضعاف أذلاء بالنسبة لله تعالىٰ؛ وذلك لأن العبودية لله تعالىٰ في حقيقتها الحب والذلة لله ـ تعالىٰ ـ مع الخوف والرجاء، وقد عالج القرآن الكريم هذا الضعف البشري في البيان القرآني.. فقال تعالىٰ: ﴿ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾ ﴾[(١)].

وكذلك الدرس العملي في غزوة حنين التي يصفها القرآن الكريم: ﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ۙ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ ۙ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦﴾ ﴾[(٢)].

فالمنهاج الصحيح أن يبقىٰ الدعاة علىٰ صلة دائمة بالله ـ تعالىٰ: فلا يركنوا إلىٰ تخطيطاتهم وأعدادهم وأرقامهم وإحصائياتهم ولا يظهروا ذلك في لحن القول، بل لسان حالهم يردد: «**اللَّهُمَّ لاَ حَوْلَ وَلاَ قُوَّةَ لِي إِلَّا بِكَ**»[(٣)]، «**اللَّهُمَّ إِنَّا نَبْرأُ مِنْ حَوْلَنِا وَقُوَّتِنَا**»[(٤)]، ولهم في ذلك قبس من علم من كلام شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله عندما قال عن نفسه مربياً إياها «**إني لست بشيء وما مني شيء، إنما أنا مَكْدي وابن مَكْدي**»[(٥)] مع أنه رحمه الله يُعتبر من العلماء المجددين في صفوف الأئمة المهتدين، والله يهدي إلىٰ

(١) الكهف: ٢٩.
(٢) التوبة: ٢٥، ٢٦.
(٣) أخرجه البخاري (٦٣٨٤)، ومسلم (٢٧٠٤)، من حديث أبي موسىٰ الأشعري رضي الله عنه.
(٤) قال البيهقي في شعب الإيمان (٢٤١): أخبرنا أبو عبد الرحمن السلمي فيما قرئ عليه حكاية عن بعضهم أنه قال: «كمال الدين في التبري من الحول والقوة، والرجوع في الكل إلىٰ من له الكل».
(٥) ذكر ذلك الإمام ابن القيم في مدارج السالكين (١/ ٥٢٤).

الصواب.

رابعًا: أسرار في قواعد العمل الإسلامي:

القاعدة الأولىٰ: سر الترابط بين الغاية والوسيلة:

في كل عمل منظم لابد من وضع لوائح ونظم لتسيير العمل لمصلحة الدعوة وهي التي تسمىٰ بالإداريات، وهذه الإداريات الأصل في وضعها بيان قواعد مقننة تضبط جوانب هذا الصرح الذي يراد له الاستمرارية والنماء، وتختلف هذه الإداريات من حيث الكثرة والتعقيد حسب اتساع العمل ونمائه الأفقي والعمودي، وإلىٰ هذا الأمر فلا إشكال ولا اختلاف في وجهات النظر، ولكن عند طرح السؤال الآتي يكون الاختلاف في وجهات النظر (هل الضوابط الإدارية وضعت لذاتها، وهي غاية في نفسها، أم هي وسيلة للغاية؟) فتتباين وجهات النظر، فيتم الاتفاق علىٰ أنها وسيلة من الوسائل، ثم يكون الاختلاف: هل نقدم مصالح الدعوة التي تصطدم مع بعض الإداريات ونكسر بعض القواعد التي اتفقنا عليها، أم نقيد أنفسنا بأيدينا ونفوت علينا كثيرًا من الفرص التي قد لا تسنح لنا في وقت آخر؟ وهذا التساؤل لا يوفق إلىٰ الإجابة عنه، وإيجاده في واقع العمل إلا صاحب تجربة، نبه دقيق في مهمته، صاحب نضج في ترجيحاته، قد وضح عنده أنه مع أهمية الضوابط الإدارية لسير العمل، لا نجعلها حائلاً دون اغتنام بعض الفرص التي قد لا تسنح لنا مرة أخرىٰ؛ لأن هذه الضوابط إنما وضعناها بأنفسنا ولمصلحتنا فلا يمنع من أن نغيرها متىٰ اقتضت المصلحة ذلك، فليست هي بنص التنزيل الذي لا يجوز في حقه النقص والتغيير، وهذه الضوابط لابد من جعلها مرنة رطبة كالغصن الندىٰ الذي يمثل المسلم الذي يتحرك مع مصلحة دعوته ويدور معها حيث دارت، وأن نتحاشىٰ الإداريات كشجر الأرز تأبي عند رياح المصالح إلا أن تنكسر، وفي هذه القاعدة نستسمح أصحاب القانون والتقنيات الإدارية.

القاعدة الثانية: معرفة سبيل المجرمين:

لابد لأصحاب الحركة الإسلامية من معرفة الجاهلية وطرقها وأساليبها، وكيفية تفكيرها، وهذا الأمر ليس بدعًا، بل له أسوة في تفكير الصحابي الجليل حذيفة بن اليمان

رَضِيَ اللهُ عَنْهُ حيث كان الناس يسألون رسول الله ﷺ عن الخير وكان يسأله عن الشر مخافة أن يدركه[١]. وبهذا التصور نطق الفاروق عمر بن الخطاب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فقال: «**إِنَّمَا تُنْقَض عُرَىٰ الإِسْلاَمِ عُرْوَةً عُروَةً، إِذا نَشَأَ فِي الإِسْلاَمِ مَنْ لَمْ يَعْرِفِ الجَاهِلِيَة**»[٢] وبذلك أكد شيخ الإسلام ابن تيمية وجعل ذلك سببًا في أن الصحابة رضوان الله عليهم أعظم إيمانًا وجهادًا ممن بعدهم.

وليعلم الدعاة أن المفهوم من هذه القاعدة قد أخذت به أجهزة الطواغيت وتخطيطاتهم الجاهلية والأصابع الخفية التي تحرك الدمىٰ والعرائس من خلف خشبة مسرح المحافل الماسونية، فنرىٰ تلك الدمىٰ من المأجورين لحساب شهواتهم وأهوائهم، يضربون الحركات الإسلامية علىٰ أساس من العلم بالهرم التنظيمىٰ والبناء النفسىٰ للأفراد داخل إطار الحركة الإسلامية والاتجاهات السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي تكون الرأىٰ العام والنفسية التي تحيا بها الجماهير.

وهذه الأصابع الشيطانية التي تدبر وتخطط وتحرك العرائس المنفذة، يجب أن يعتقد أنها واحدة مهما اختلفت حركاتها، فهي إن سبحت أو تراقصت، فلن تغير من كونها شيطانية إبليسية خبيثة.

وكذلك في النتيجة التي يرمي إليها من وراء هذا التخطيط، فهي القتل أو الذبح، ولا يهم بعد ذلك أكانت الآلة خيطًا من حرير أو سيفًا من حديد، كما أنها لا تهتم إن سجنت الحركات الإسلامية في المعتقلات وخلف القضبان الشائكة والحديدية، أو سجنتها في إطار خلافاتها الذاتية وأنانيتها التعسفية، أو من وراء قضبان الوجاهات والمراكز المرموقة والتجارات الواسعة، أو في حظيرة الشهوات البهيمية المتعددة، كل هذه وسائل تابعة للتخطيطات الطاغوتية لا يهمها أيها أخذت المهم النتيجة النهائية...هل تصل هذه التدابير إلىٰ قبر الحركات الإسلامية أم لا!! حيث إنها علقت في شماعاتها أثوابًا كثيرة تأخذ منها ما يناسب المقابل، تغير وتبدل في الصباح والمساء، ولهم في ذلك قدوة في

(١) أخرجه البخاري (٣٦٠٦)، ومسلم (١٨٤٧/ ٥١) عن حذيفة بن اليمان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.
(٢) ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية في مجموع الفتاوىٰ (١٠/ ٣٠١، ١٥/ ٥٤).

الحية الرقطاء ذات السم الزعاف؛ لهذا الذي ذكرناه وما يراه وما يسمعه الإنسان في كل مكان ومن كل جهة، ولتنفيذ أمر الله في قوله سبحانه: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٥٥﴾﴾[1].

كان لابد لأصحاب الحركة الإسلامية من تبين سبيل المجرمين، ومعرفة حقيقة الجاهلية التي يتعاملون معها، وسنذكر بعضًا من سبل المجرمين علىٰ سبيل المثال لا علىٰ سبيل الحصر:

١ ـ إخراج الجماعة من الطريق المستقيم الوسط:

الذي يشبهه النظم القرآني باللبن السائغ الذي يخرج من بين الفرث والدم، الذي هو الطريق بين الإفراط والتفريط، وسبيل المجرمين لا يهتم بالصورة التي تنحرف فيها المسيرة الربانية غلوًا أو تقصيرًا، إفراطًا أو تفريطًا، فالنتيجة واحدة هي الانحراف... وتحقيق المحاق الأندلسي الجديد للإسلام في مشرقه العربي.

٢ ـ توظيف الجماعة الإسلامية في إجهاض الحركة الإسلامية ذاتها عن طريق سبل المجرمين الكثيرة:

أ ـ دس العناصر الجاسوسية التي تمثل الفضلات النتنة التي أفرزتها الصراعات الحزبية والتشنجات العصبية الموجودة داخل الإطار الطيني البشري الذي يحيط بالحركة الإسلامية، فترىٰ هذه العناصر توظف نفسها لمصلحة الطاغوت بعلم أو بغير علم، وهذا كما ذكرنا لا يهم بالنسبة لأعداء الإسلام، وقد رأينا جماعات إسلامية تنساق إلىٰ السجون وإلىٰ المقاصل، حيث وَأَدتِ البراعم الناضجة التي تمثل القواعد المتربية من قِبَلِ الغيورين علىٰ الإسلام، وعند بحثنا عن المقدمات التي سبقت هذه النتيجة نجد أن سببها تلك الإفرازات الجاسوسية التي تحاول بتوجيه أسيادها أن تنمط العقل الإسلامي والتصور الصافي إلىٰ سطحيات وتفاهات العقل البشري الأرضي الجاهلي...وحدث هذا. ولا حول ولا قوة إلا بالله، وأجهضت حركات إسلامية في طفولتها البريئة، بسبب تفكيرات بشرية طفحت علىٰ سطح العقلية القيادية لتلك

(١) الأنعام:٥٥.

التجمعات، فتصرفت بغفلة عن الوعي بسبيل المجرمين، فانتهكت الحرمات واستبيحت المقدسات، وبذلك دخلوا بأرجلهم مصيدة أعداء الله، وأسهموا في المحاق الأندلسي الجديد.

ب ـ تدليل بعض الجماعات وتقريبها من الحريات والفرص علىٰ حساب الجماعات الإسلامية الأخرىٰ، وهذا التدليل لا يستمر بل مثله كمثل إطعامنا الطعام والعلف للخروف ليسمن فنذبحه، وهكذا بعد انتهاء الجماعة المدللة من دورها تذبح، فأعداء الله لا يفرقون في حقدهم علىٰ الاتجاه الإسلامي، فكل ما هو إسلام خطر عليهم حتىٰ الذي يصنعونه بأيديهم وتحت أبصارهم عندما ينتهي من الدور الذي أعد له يذبح... ولكنهم يقدمون إلىٰ المقصلة أكثر الاتجاهات خطورة عليهم وهكذا يمكرون.

القاعدة الثالثة: حتمية التأمير:

وهذه بدهية من البدهيات وحقيقة مسلم بها لدىٰ أبسط الناس وأقلهم فهمًا في أوليات الإسلام، وما كان من عزم علىٰ ذكرها لولا أني رأيت شبابًا ممن يحمل هذه الدعوة ينكرها، ولا يكتفي بذلك بل يعمل علىٰ حربها، إنها حتمية التأمير في كل عمل من أعمال الإسلام كبر هذا العمل ـ كبناء دولة ـ أم صغر ـ كسفر إلىٰ أقرب بلدة.

وإني لأمثل غياب هذه القضية المسلَّم بها عن هؤلاء بمثل سؤال ذلك العالم لصاحبه عندما رأىٰ بغلاً منتفخًا بطنه فقال لصاحبه: متىٰ تلد هذه البغلة!! وهو بمثل هذا السؤال يعبر عن غياب بدهيات كثيرة ـ لا يمكن أن يتصور عدم حضورها في ذهن الإنسان إلا لأسباب قد تكون ذاتية في نفس الإنسان، أو خارجية لظروف محيطة به تدخلت فيها عوامل اجتماعية وسياسية واقتصادية لإيجادها، وعند هذه القاعدة سأقف قليلاً عند شرعية التأمير ثم خطورة منهجية هؤلاء علىٰ أنفسهم وعلىٰ مجموع القوىٰ العاملة في الإسلام.

* أما من حيث الشرعية فنقول: من المسلم به عند جميع المسلمين الاقتداء بالنبي ﷺ، لقوله تعالىٰ: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾[1] وقد داوم رسول الله

(١) الأحزاب: ٢١.

ﷺ على بعث السرايا وأمر عليهم في كل مرة، ولم يترك هذا الأمر ولم يتركه من بعده من الخلفاء، ولو جاز تركه لفعله ﷺ مرة تعليما لنا على الجواز، ولكنه لم يفعل. وهذا الأمر يوافق فيه صريح المعقول صحيح المنقول..؛ وذلك لأن الذين يجتمعون يحتاجون إلى اجتماع الكلمة، وهذا لا يحصل إلا إذا كان عليهم أمير يأمرهم فيطيعونه، حيث لا معنى لإمارة بدون طاعة، وهذا الكلام المعقول وافق صحيح المنقول: «**إِذَا خَرَجَ ثلاثَةٌ فِي سَفَر فَلْيُؤَمِّروا أَحَدَهُمْ**»(١) وقد ذُكر في «**شرح السير الكبير**» حديث سليمان بن عامر أن النبي ﷺكان في بعض أسفاره فأسرى من تحت الليل فتقطع الناس -أي:تفرقوا- في غلبة النوم، فمالت راحلتا أبي بكر وأبي عبيدة رضي الله عنهما بهما إلى شجرة فجعلتا تصيبان منها وهما نائمان، فاستيقظا وقد مضى النبي ﷺ وأصحابه ونزلوا، فلما كانا بحيث يسمعهما النبي ﷺ ناداهما: «**أَلاَ هَلْ أَمَّرتُما؟**» قالا: بَلَىٰ يَا رَسُولَ الله، فقال: «**أَلاَ رَشَدْتُما**»(٢). وإذا كان هذا الحرص من النبي ﷺ في مسائل السفر وقطع الأميال المعدودة من الأرض، فكيف يكون شأن من يريد أن يحمل مشعل الدعوة؛ لينير للبشرية طريق الهداية، كيف بشأن من يريد أن يزيل شرائع البشر ويحل محلها شرائع رب البشر.

أما إن قال ظاهري جامد:هذا النص أتى به بالسفر ونحمله على السفر فقط، فنقول له: والله إنك لم تختلف عمن قال في قوله تعالى:﴿ فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا ﴾(٣) بأنه لو لم يجد من دلائل أخرى من النصوص ما يمنع ضربهما لأجاز للابن أن يضرب الأب، ولكن هناك تنبيه وهو أن هذه الإمارة ليست هي إمامة المسلمين ولا هي الإمارة العامة، بل هي شبيهة بإمارة السفر، فمن أراد أن يسافر مع هذه القافلة، فعليه أن يلتزم بطاعة أميرها بالمعروف. وإن أراد أن يسافر مع غير هذه القافلة، فهو ليس ملزم معهم بشيء.

* أما من حيث خطورة منهج هؤلاء على أنفسهم وعلى مجموعة القوى العاملة للإسلام فنقول: إن هؤلاء قد قاموا بما تقوم به أجهزة الرصد لمحاربة الحركات الإسلامية من غسيل للمخ، فجلسوا مع أنفسهم وحصروا تفكيرهم فيما بينهم وبدؤوا

(١) أخرجه أبو داود (٢٦٠٨)، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، وقال الألباني: «حسن صحيح».
(٢) شرح السير الكبير لمحمد بن الحسن الشيباني (١/ ٦١).
(٣) الإسراء: ٢٣.

يقرؤون النصوص ويفهمونها حسب ما لديهم من قناعات وخلفيات، وهكذا سهلوا علىٰ المجرمين ما أرادوه، وهؤلاء إن استمروا علىٰ هذا المنوال فسيؤول الأمر بهم إلىٰ تصرفات هستيرية تدمرهم وتدمر من حولهم من الاتجاهات الإسلامية، فيفوز بها المحاربون للدعاة، الناصبون شباك المكر في الطرقات، وإني لأشم رائحة هذه التصرفات من بعض أقوالهم المحمومة، التي لا تعي أبسط أنواع قواعد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر...والأكثر خطورة أنهم في محاربتهم لفكرة الإمارة... يدعون إلىٰ البحث عن الأمير القرشي وبيعته، وتأتي الخطورة من أن مسألة الأمير القرشي ستظل تدور علىٰ ألسنتهم ثم تتخمر بها أفكارهم، فيُخزنها العقل الباطن، وتظهر بعد ذلك في أحلام بإنسان يعرفونه، وما أكثر القرشيين، فيظهر هذا القرشي ويبايعه هؤلاء ويعدّونه هو الأمير الحق، وجماعتهم هي الجماعة المعنية بالحديث، ويكون الخارج عليهم قد شذ، ومن شذ شذ في النار فيدخلون قفص الخوارج من حيث لا يشعرون، فإلىٰ هؤلاء أصرخ بأعلىٰ صوتي: حذار حذار، فبداية الميل خطوة، وعظمة الانفراج تبدأ من درجة، فإلىٰ أهل العلم فارجعوا، وإلىٰ التروي والتريث فعودوا، فوالله في هذا الزمان لا يعرف الإنسان من أين يؤتىٰ...اللهم نسألك الثبات وأن ترينا الحق حقًّا وترزقنا اتباعه، وترينا الباطل باطلاً وترزقنا اجتنابه.

القاعدة الرابعة: الداعية لا يغير مبادئه:

مع تتبع النظر وتقليبه في واقع بعض الحركات الإسلامية نرىٰ أنها: كثيرًا ما تغير بعضًا من مبادئها مع تغييرها لمواقع دعوتها، ويكفي هذا الأمر خطورة أنه مخالف لمنهج النبي ﷺ، حيث كان يتغير مكانه ومنصبه ومع ذلك لم يتخل عن شيء من مبادئه قيد أنملة، فهو في مكة في السفح في سفل الوادي ينادي بنفس المبادئ التي نادىٰ بها في الطائف في أعلىٰ الجبال، وهو بين قومه وعشيرته وعصبته في مكة أعلنها صريحة نقية، وكذلك في المدينة في ديار لا يعرف فيها أحدًا، وبنفس القوة والتواضع والوضوح سطر خطوط الدعوة، وهو فرد ضعيف ليس له جاه ولا سلطان في مكة، وكذلك في المدينة حيث كان رئيسًا لأول دولة في الإسلام، وهكذا كان القدوة، وهكذا يجب أن تكون الحركة

الإسلامية، لا نراها في مهد الطفولة نقية طاهرة، ثم هي في عهد الشباب والفتوة طائشة متخبطة، فطبيعة الدعوات في نموها، يجب ألا تخضع لمثل تغيرات الإنسان في نموه من طيش ورعونة إلىٰ شيخوخة وضعف.

القاعدة الخامسة: الداعية يذكر الدوافع كلها:

من الأمور التي قد نراها في بعض الدعاة امتطاء ظهر الدعوة وإخفاء الدافع الحقيقي، حيث نسمع كلامًا ونتسمع همسًا في مناسبات كثيرة في مجال الركض إلىٰ الدرهم والدينار...يقول هذا الداعىٰ الراكض: إنما أبحث عن المال؛ لأنه عصب الحياة وقوة للدعوة فهو لها ومن أجلها، وإلا فمن يتبرع للأفغان؟ ومن يبني المدارس والمستشفيات في الباكستان؟ ثم يتغنىٰ بقول الشاعر:

لولا توقع معترٍّ فأرضيه   ما كنت أوثر إترابًا علىٰ ترب

وهنا لا يُنكر أهمية المال في الحياة، ولكن الذي ينكر طبيعة هذا التبرير، فلماذا لم يقل: وبالمال أوسع علىٰ نفسي بالعيش وأوفر للأولاد ما يحتاجون، وأدخر بعضًا من المال للزوجة والأولاد...نعم الذي لا ترتاح له النفس هو عدم ذكر الدافع الثاني الذي لا يقل أهمية عن الدافع الأول في حقيقة الأمر لدىٰ ذلك الداعي، وهناك آخر يتنهد من طول الدراسة والاغتراب قائلاً: إنما يجب أن نجتهد حتىٰ نحصل علىٰ الشهادة العالية؛ لنتصدر المنابر للاتصال بالناس، فنعلن كلمة الحق من مكان يسمع له الناس، فنحن لا نريد هذه الورقة إلا لتكون بمثابة الجناح الذي يطير بنا حيث يصغىٰ الناس، نعم هو كذلك ولكن...هنا نسيان لدافع كامن بالنفس البشرية، وهو تحسين الوضع الاجتماعي وتأمين المستقبل وزيادة الوجاهة وارتفاع الراتب، إلىٰ غير ذلك مما يحصل عليه الناس من وراء الشهادات العالية؛ ولذلك فإنه يجب علىٰ من يتصدر للحركة الإسلامية أن يصدق مع الله ويعلم أنه يتعامل مع رب يعلم السر وأخفىٰ، ونسأل الله تعالىٰ أن يمنحنا الإخلاص.

القاعدة السادسة: مبدأ الموالاة ليس حصرًا علىٰ أفراد جماعة بعينها:

مما تناساه كثير من أصحاب الحركة الإسلامية: أنهم جسد واحد، يفرح بعضهم

لأفراح بعض ويحزن لمصائبه، عز بعضهم من عز البعض الآخر، وكذلك الذل، ولكن مما يحز في النفس ذهاب هذا المبدأ الأصيل من حس وشعور بعض أفراد الحركة الإسلامية، حتىٰ أصبح حال بعضهم مع بعض هو ما يمثله قول الشاعر:

إن يسمعوا سبة طاروا بها فرحا   مني وما سمعوا من صالح دفنوا

فنرىٰ العجب العجاب، فحيثما وفق الله جماعة من الجماعات لعمل يعود علىٰ الإسلام والمسلمين بالخير، نرىٰ جماعة أخرىٰ إن استطاعت أن تقلل من أهمية هذا العمل فعلت، وإلا حاولت دفن هذا الخير، حتىٰ لا تشرئب رقاب من معها من الأتباع إليه، فتميل إلىٰ تلك الجماعة، أما إذا قدر الله وأخطأت هذه الجماعة في فكرها أو سيرها أو اجتهادها، فمعاول التجريح ومطارقه تنتظر؛ متناسية أن من ستر مسلمًا ستره الله، غافلة عن أن (من نصح في الملأ فقد فضح) وصور ذلك كثيرة نراها ونسمعها كل يوم، فلا حول ولا قوة إلا بالله.

القاعدة السابعة: إثبات الحق لأهله:

أهل الدعوة لا ينسون الفضل لأهله في زحمة العمل الإسلامي، ومناشدة الأحسن للدعوة، ولكن في الحرص علىٰ السرعة في الوصول للهدف تُنسىٰ طاقات أهل الفضل التي كانت تواصل الليل مع النهار، ولكنها لم تنل حظًّا وافرًا من الشهادات العالية أو الوجاهات الاجتماعية والمادية، فيُنسىٰ هذا الصنف عندما يتقدم صاحب الشهادة والوجاهة. وبذلك يخطئ أصحاب الحركة الإسلامية؛ لأنهم سيكونون قد نسوا منهج النبي ﷺ الذي لم ينس فضل زيد وابنه أسامة، فولىٰ أسامة جيشًا فيه أصحاب الجاه والأصل والشرف، وسلك هذا النهج من بعده من تلقوا التربية عن طريقه، فنرىٰ الفاروق رضي الله عنه يقف علىٰ بابه سادة قريش الذين امتنعوا عن الدعوة في أول الأمر، ويدخل عليه من غير انتظار، سابق الروم، وسابق الحبشة، وسابق الفرس، فهم سبقوا في الدخول إلىٰ الإسلام فسبقوا بالدخول إلىٰ مجالس الخلفاء، وهذا ما فهمه سهيل بن عمرو حين رأىٰ الغضب علىٰ وجوه سادة قريش وهم ينتظرون الإذن فقال ـ ويا له من رجل ما كان أعقله: أيها القوم إني والله قد أرىٰ الذي في وجوهكم، فإن كنتم غضابـًا فاغضبوا علىٰ أنفسكم،

دُعِي القوم ودعيتم، فأسرعوا وأبطأتم، ثم قال: إن هؤلاء قد سبقوكم بما ترون ولا سبيل لكم - والله - إلىٰ ما سبقوكم إليه، فانظروا هذا الجهاد فالزموه.

هذه هي الحقيقة فيمن أمعن النظر في الحركة الإسلامية، فهذا صاحب شهادة يأتي حديثًا إلىٰ سلك الحركة الإسلامية، ولكنه يُحسن الحديث ويرتب العبارة وينمق الأسلوب، ومع حداثته تراه يعتلي منابر التوجيه، فيخطب ويوجه ويخطط ويدبر لسير الحركة الإسلامية، وما هي إلا فترة حتىٰ يعتلي موج الوجاهة والمادة والمنصب، ومن ثم يترك صاحب الفضل عديم الشهادة والجاه.

القاعدة الثامنة: الدعاة متكافلون فيما بينهم:

الناظر في واقع الناس يرىٰ أن كل دعوة من الدعوات قد أمسكت بمكبر صوت وقالت: «**من يقترب منا ويخضع، فلا يخش ظلمًا ما أقام**» وهذا هو داء الأنانية الذي كرهه النبي ﷺ عندما قال طارق البيت:«**أنا**» فقال المربي الأول ﷺ يستنكر: «**أنا أنا**»(١)، نعم إنه نفس المرض ولكنه بصورة مختلفة، وهذا منبعه داء الأنانية وحب الذات واحتقار الغير، فكفي يا دعاة الحق ركضًا وراء الشهرة وانبطاحًا في سراب المجد الخادع، وهلموا إلىٰ دين يقول فيه ابن عباس: وهل الدين إلا الحب في الله والبغض في الله، إلىٰ دين يقول فيه الشافعي: ما جادلت أحدًا إلا وتمنيت أن يكون الحق علىٰ لسانه، إلىٰ دين لا نرىٰ فيه صاحب الدعوة الإسلامية يكشر أنيابه ويسلط لسانه علىٰ من معه في ظل الدعوة إذا اختلف معه، وإذا ما اصطدم مع من يختلف معه في الخط والنهج نمق له العبارة وزين له الأسلوب وبذلك. نكون غافلين عن قوله - تعالىٰ: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾(٢).

خامسًا: أسرار في أسباب السقوط من قطار الدعوة إلىٰ الله:

قبل الخوض في هذه القضية لابد من ذكر أمرين:

---

(١) أخرجه البخاري (٦٢٥٠)، ومسلم (٢١٥٥) عن جابر رضي الله عنه.

(٢) المائدة: ٥٤.

الأمر الأول:

أن دوام الحال من المحال، وأن الذي يتحرك ويتكلم لابد أن يخطئ، وأن أصناف الناس في قطار الدعوة هم أصناف الناس في المجتمع، فيهم الضعيف وفيهم القوي، وكذلك الكريم والبخيل والمتجرد والمخلط، والإمعة والقائد، والعاصي والمطيع، ولكن الفارق أن هذه الأصناف في قطار الدعوة قد لاقت قسطًا من التربية والتهذيب ترتب عليها أن الصفات الناقصة التي ذكرناها ليست مطلقة فيهم، بل عملت علىٰ تهذيبها واقتلاع كثير من شوائبها أصابع المربين من الدعاة.

الأمر الثاني:

أنه علىٰ الدعاة ألا يجزعوا لسقوط بعض الدعاة من قطار الدعوة، وإن كانوا ممن علت صفاتهم في سلم الدعوة، وألا يتعجبوا من ذلك، فيصفوا الدعوة بالقصور والنقص بسبب تخلي هؤلاء عن المسيرة، فقد كان خير البرية وسيد البشرية ﷺ يدعو «**اللهم يا مقلب القلوب ثبت قلبي علىٰ دينك**»[1] وعلىٰ ذلك من رأىٰ ساقطًا في طريق الدعوة فليحمد الله تعالىٰ علىٰ العافية، ويسأله الثبات وليقل: «**الحمد لله الذي عافاني مما ابتلي به كثيرًا ممن خلق**»[2].

أسباب السقوط:

السبب الأول: الكبر:

وهذا داء فتاك حذرت منه الشرائع، وكثرت فيه الأحاديث والأقوال عن سلفنا الصالح ـ رضوان الله عليهم ـ فمن المتفق عليه أن السبب الرئيس في سقوط إبليس من منزلة الملائكة: هو الكبر، وقد ورد في ذلك قوله تعالىٰ: ﴿ قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا ﴾[3].

(١) أخرجه الترمذي (٣٥٢٢)، وأحمد (٦/ ٣٠١)، عن أم سلمة رضي الله عنها، وقال الترمذي: «حديث حسن».
(٢) أخرجه الترمذي (٣٤٣١) عن عمر رضي الله عنه، وابن ماجه (٣٨٩٢) عن ابن عمر رضي الله عنهما، وحسنه الألباني.
(٣) الأعراف: ١٣.

وقال تعالىٰ: ﴿إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰ وَٱسۡتَكۡبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٣٤﴾[(١)]. وهذا الأمر يأتي وفق نواميس الله تبارك وتعالىٰ: ﴿سَأَصۡرِفُ عَنۡ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾[(٢)] وقضية الاستكبار مقرونة بالتكذيب بدليل قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمۡ أَبۡوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ﴾[(٣)] ولذلك وصف الله عباده بعدم الكبر، فقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ﴾[(٤)].

وقد ذكرت هذه الآيات التي تعالج هذا الموضوع في القرآن الكريم؛وذلك لخطورة القضية وأهمية بيانها في الحس الإسلامي، وتأتي الخطورة من أن بداية هذا المنزلق لا تتبين إلا بعد المضي في الطريق المنحدر؛ نظرًا لوجود التأويلات السالفة المتبادرة إلىٰ الذهن في أول الطريق.

ومن الصورة التي يبدأ بها الداعىٰ في الانزلاق في طريق الكبر:

أ - إنه لماذا فلانـًا بالذات يكون هو المسؤول؟ ما هي صفاته التي تؤهله لذلك؟ لماذا أشاركه في تخطيطاته السطحية البسيطة؟ إلىٰ غير ذلك من التساؤلات التي يريد صاحبها أن يقدح بشخص وكفاءة المسؤول.

ب - التكبر علىٰ خطة الدعوة والبرنامج المرسوم للمسيرة: في أي مرحلة من المراحل...واتهامه بالتهور أو الضعف أو السطحية والسذاجة، أو أن هناك أخطاء شرعية لا يستطيع أن يذكر أدلتها الشرعية، ولكنه يحس بها، فإذا شارك في المسيرة بهذه الخطة، فكأنما عمل علىٰ إشاعة المنكر أو علىٰ إيجاده.

هاتان صورتان علىٰ سبيل المثال لا علىٰ سبيل الحصر. والسقوط بسبب الكبر منه ما هو سقوط مركب قد يخرج الإنسان من دائرة الإسلام، ومنه ما هو سقوط بسيط يخرج الإنسان من دائرة المجاهدين العاملين إلىٰ دائرة المسلمين الخاملين.

---

(١) البقرة: ٣٤.
(٢) الأعراف: ١٤٦.
(٣) الأعراف: ٤٠.
(٤) الأعراف: ٢٠٦.

وقد ذكر لنا القرآن وذكرت لنا السيرة أنواعًا من الكبر المركب، فهذا إبليس كما ذكرنا ينحط من مراتب العبادة إلىٰ أسفل درجات الكفر والعناد، ومبدأ التحول في حياته أنه قاس قوة النار علىٰ قوة الطين، فوجد أن تفضيل النار علىٰ الطين هو الذي يجب أن يكون لا العكس، فعندما أتىٰ الأمر الرباني بخلاف ذلك عصىٰ وتكبر، وأعلن بقوله وسلوكه العملي أنه أعلم من الله في حقيقة التمييز، فطرد وكان من المبعدين.

أما السيرة فتذكر لنا حوادث كثيرة منها قصة جبلة بن الأيهم، وهو يطوف في بيت الله وهوبنفسية الملك لا بنفسية العبد لله - تبارك وتعالىٰ - فيطأ عبد من عباد الله ثوبه من غير قصد، فينسىٰ أنه عبد الله وتطير في نفسيته أنفة الملوك، فيضرب المسلم، فيكظم العبد المسلم أنفاسه وغيظه ويذهب إلىٰ الفاروق عمر بن الخطاب رضي الله عنه فيحكم أمير المؤمنين بحكم الله - القصاص فيبدأ الميزان البشرىٰ يعمل في تفكير الملك: أيضربني وأنا الملك وهو من السوقة، فيكون هذا التفكير بداية الانزلاق، فيهرب الملك من حظيرة الإسلام فيكمل طريق الهاوية، ويلتقىٰ مع إبليس في السفح ويخسر الدنيا والآخرة، بعد أن تكبر علىٰ أمر الله سبحانه.

السبب الثاني: الخوف علىٰ الأولاد والأهل والنفس والرغبة في معونة الجاهلية:

وهذا السبب يخالج أصحاب الدعوة في فترة يضعف فيها اليقين بأن الآجال مكتوبة وأنها بيد الله، والأرزاق معينة قبل خلق الناس بخمسين ألف سنة، فنسيان هذه القضية مع زحمة العمل والتكاليف يجعل الإنسان يبدأ بالانزلاق وهو لا يشعر، وقد نقل لنا التاريخ في ذلك قصصا نذكر منها قصة ذلك الرجل البدري الذي قال الرسول ﷺ عنه وأصحابه لعمر: «**وَمَا يُدْرِيكَ يا عُمَرُ أَنَّ الله قَدْ نَظَرَ إِلىٰ أَهْلِ بَدْرٍ فَقَالَ: افْعَلُوا مَا شِئْتُم فَإِنِّي قَدْ غَفَرتُ لَكُمْ**»[1].

حاطب بن أبي بلتعة: الرجل الذي تلقّىٰ التربية الإيمانية في مدرسة الرسول ﷺ يضعف ويكاد ينزلق إلىٰ الهاوية ولولا أن تداركته رحمة الله الرؤوف الرحيم، فتراه يبادر بالخيانة العظمىٰ في غزوة الفتح، فيرسل رسالة إلىٰ كفار قريش يخبرهم بمسير النبي ﷺ

(١) أخرجه البخاري (٣٩٨٣)، عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

إليهم؛ فتكون العناية الربانية فيُخبر الرسول ﷺ ويسترد الرسالة ويُضبط المبعوث، وينجو حاطب من الانزلاق بشفاعة سبقه في الحركة الإسلامية، وقتاله في بدر، وسلامة قصده، فيكون الاستجواب النبوي الرحيم لحاطب، ومن خلف هذا الاستجواب غليان الفاروق عمر رضي الله عنه مع سيفه المغمود المنتظر لأمر النبي ﷺ في تنفيذ حكم الإعدام..فيبدأ حاطب في ذكر سبب فعلته وأنها ليست نفاقًا ولا ردة، بل ضعف بشري ورغبة بأن يكون له حظ عند صناديد قريش بعد انتهاء المعركة، فيستغفر حاطب ويقبل رسول الرحمة عذره، وتطوىٰ القضية؛ لتكون درسًا للأجيال القادمة، وإشارات حمراء علىٰ الجادة. وبذلك يأتي النهج القرآني القصصي في التربية، فيذكر في سورة الشعراء قصة موسىٰ عليه السلام.

﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ ۚ أَلَا يَتَّقُونَ ﴿١١﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ صَدْرِى وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ ﴿١٣﴾ وَلَهُمْ عَلَىَّ ذَنۢبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿١٤﴾ قَالَ كَلَّا ۖ فَٱذْهَبَا بِـَٔايَٰتِنَآ ۖ إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ ﴿١٥﴾﴾[1].

فهذا الاحتياط الذي عرضه موسىٰ مع أنه للدعوة لا للداعية، وهذا ما يعلمه الله من موسىٰ ومع هذا أجابه إلىٰ ما سأله، ثم جاء الرد الحاسم لهذه القضية واستخدام لفظ للردع (كلا)، ففي هذا اللفظ نفي للمخاوف نفيًا شديدًا، ولماذا لا يكون ذلك والله مع الدعاة يسمع ويرىٰ...فالدعوة لله والمنهج من الله والعناية فضل ومنة من الله، فلم الخوف والرهبة؟!

وهذا المنزلق قد يقع فيه قطار الدعوة، فيسقط بكامله، وقد تَنْفَلِتُ أقدام آحاد من الدعاة ممن كانوا في القطار.

ومن صور ذلك:

١ ـ أن يقول الدعاة: إن الطاغية الفلاني هو أخف العصاة الموجودين في الساحة، فلو أني استجبت له في بعض الأمور وأعلمته ببعض الأشياء، لكنت أجده وقت الشدة عند ضربه الدعاة الآخرين، فيبدأ بتكوين العلاقة فيكون الانحدار.

(١) الشعراء: ١٠ ـ ١٥.

٢ ـ وصورة أخرىٰ أن نجد بعض الدعاة يحاول أن ينزلق إلىٰ أهل الوجاهة والسلطان ويقدم بين أيديهم، حتىٰ إذا كانت ضربة لا قدر الله للحركة كانت له مكانة ينجو من خلالها....وهنا تزل قدم بعد ثبوتها.

السبب الثالث: العلم:

فمن يأتىٰ إلىٰ قطار الدعوة ويأخذ في أساليب العلم والمعرفة تراه ينبهر بأول شعاع من نور المعرفة، ويظن أنه قد حصَّل خزائن العلم وأمسك بمفاتحها، ويبدأ الغرور يدب إليه، فيبدأ بالاستنباط والإفتاء والتصدي للقضايا التي تواجه الدعاة، ويعطيها الأحكام التي يرىٰ أن الحق لا يتعداها، وهنا قد يتساءل الكثير، أليس العلم هو الطريق للعبادة الصحيحة؟ ألم يميز الله أهل العلم بأنهم أهل الخشية والمخافة من الله؟ فنقول: بلىٰ هذا صحيح.

فالعلم وسيلة للعبادة الصحيحة وللخوف من الله، فهو إذن ليس غاية في ذاته؛ فكما هو وسيلة للخير، فقد ينحرف صاحبه عن الطريق الصواب فيكون العلم وبالا علىٰ صاحبه كما قال تعالىٰ:

﴿ وَءَاتَيْنَـٰهُم بَيِّنَـٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ ۖ فَمَا ٱخْتَلَفُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ...﴾ (١).

وقوله تعالىٰ: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ ﴾ (٢).

وقوله تعالىٰ: ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَـٰمُ ۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩﴾ ﴾ (٣).

وهذه القضية تحتاج إلىٰ اجتهاد ونظرة للتوفيق بين النصوص، وبعد البحث اتضح أن النية أساس كل عمل في دين الله تعالىٰ، وطلب العلم هو نوع من العبادة، والعلم كغيره من العبادات التي قد يرد علىٰ صاحبه ويكون وبالاً عليه في الدنيا والآخرة، كما في

(١) الجاثية: ١٧.
(٢) الجاثية: ٢٣.
(٣) آل عمران: ١٩.

الحديث: «**الثلاثة الذين تسعر بهم النار يوم القيامة**»(١).

فعلىٰ هذا فالنتيجة المترتبة علىٰ المقدمة تكون تبعًا لحقيقة هذه المقدمة، فإذا كان طلب العلم أساسًا لله تعالىٰ، بارك الله لصاحبه فيه فزاده خشية وخوفاً ونوراً ويرىٰ به الطريق إلىٰ الله سبحانه، وإذا كان لغير الله بأن يتعلم ليقال: إنه عالم مثلاً، فهذا يذيقه الله نار الفتنة والسقوط في الدنيا قبل الآخرة، نسأل الله العافية.

صور من الانزلاق في هذا المنحدر:

١ ـ تبني الآراء الشاذة: ما من شك أن كثيرًا من مسائل الفقه الفرعية فيها أكثر من رأي للعلماء؛ نتيجة لوصول النصوص لبعضهم دون الآخر، أو صحتها عند بعضهم دون الآخرين، أو لطبيعة الفهم والاستنباط إلىٰ غير ذلك، مما هو مبسوط في محله، فنتيجة لمعرفة الآراء عند العلماء وأدلتها، ونتيجة للطبائع البشرية من حب البروز وعدم الانقياد والتعالي علىٰ الغير، نتيجة لهذه الأمور يبدأ من تنفلت قدماه في منزلق السقوط، بتبني الآراء المخالفة لرأي الجماعة التي هو فيها، مبتدئًا بالأمور الفرعية، ثم ينساب مع استهواء الشيطان إلىٰ ركائز العمل الإسلامي، ومن غير أن يشعر يرىٰ أنه في تفكيره واستنباطه خارج قطار الدعوة، وأن القطار قد فاته بمسافة تحتاج منه إلىٰ جهد كبير ليلحق به، فيعجز ويرضىٰ بالقعود.

---

(١) أخرجه الترمذيٰ (٣٣٨٢) وقال: «حسن غريب»، وصححه الألباني ونصه:

قال أبو هريرة: حدثني رسول الله ﷺ: «إن الله ـ تبارك وتعالىٰ ـ إذا كان يوم القيامة ينزل إلىٰ العباد ليقضي بينهم، وكل أمة جاثية، فأول من يدعو به رجل جمع القرآن، ورجل يقتل في سبيل الله، ورجل كثير المال، فيقول الله للقارئ: ألم أعلمك ما أنزلت علىٰ رسولي؟ قال: بلىٰ يا رب. قال: فماذا عملت فيما علمت؟ قال: كنت أقوم به آناء الليل وآناء النهار. فيقول الله له: كذبت، وتقول له الملائكة: كذبت، ويقول الله: بل أردت أن يقال: إن فلانًا قارئ فقد قيل ذاك، ويؤتىٰ بصاحب المال فيقول الله له: ألم أوسع عليك حتىٰ لم أدعك تحتاج إلىٰ أحد؟ قال: بلىٰ يا رب. قال: فماذا عملت فيما آتيتك؟ قال: كنت أصل الرحم وأتصدق. فيقول الله له: كذبت، وتقول له الملائكة: كذبت، ويقول الله تعالىٰ: بل أردت أن يقال: فلان جواد، فقد قيل ذاك. ويؤتىٰ بالذي قتل في سبيل الله فيقول الله له: فبماذا قتلت؟ فيقول: أمرت بالجهاد في سبيلك، فقاتلت حتىٰ قتلت، فيقول الله تعالىٰ له: كذبت، وتقول له الملائكة: كذبت، ويقول الله: بل أردت أن يقال: فلان جريء فقد قيل ذاك»، ثم ضرب رسول الله ﷺ علىٰ ركبتي فقال: «يا أبا هريرة أولئك الثلاثة أول خلق الله تسعر بهم النار يوم القيامة».

السبب الرابع: افتراض الصواب المطلق في الرأي الشخصي:

من المعروف أن الداعية الحي النشط في الجماعة هو الذي يبادر برفع الآراء واقتراح الأسباب الناجحة لسير العمل، والعيش مع الدعوة في مشاكلها وصراعاتها، وإلىٰ هذا الحد، فالأمر طبيعي بل والسير فيه ممدوح، ولكن بغفلة عن الضوابط الشرعية بسبب زحمة العمل، وتكالب الجاهلية، وضراوة الصراع نرىٰ بعض الدعاة بحسن نية يعرض الرأي ويتعصب له، ويبدأ ينافح عنه، فإذا تداركته رحمة الله رجع إلىٰ أسسه التي تربىٰ عليها وفهم حقيقة الاقتراح، وأنه لا يعدو كونه رأيا مرفوعًا ضمن آراء كثيرة رفعت من بعض الدعاة، ورجع إلىٰ القاعدة الأصولية التي تقرر أن الخطأ لا يكون صوابا مع حسن النية، وقول العلماء المحققين: «**قولنا صواب يحتمل الخطأ، وقول غيرنا خطأ يحتمل الصواب**» فإن لم يرجع إلىٰ هذه الأصول فسيكون هذا التعصب بداية السقوط.

ولنا في هذا المجال قصة عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في الحديبية حيث رأىٰ أن الرأي ليس فيما اتخذه النبي ﷺ بل في القتال، وأخذ يعرض تصوره للموضوع بطرق مختلفة؛ ليقنع النبي ﷺ بما يراه...وعمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في هذا الإلحاح إذا برحمة الله تبارك وتعالىٰ تُنطقُ الصديق بكلمات يهدأ روع الفاروق لها، وإذا النغمة الإيمانية «**الزم غرزه يا عمر**» «**الزم غرزه يا عمر**»[1] وإذا بعمر الفاروق يسمع الكون يردد هذا النداء، فيتدارك نفسه ويستغفر ويتوب، ويظل مع كونه من المبشرين بالجنة يظل يستغفر الله ويتصدق ويكثر من النوافل خشية أن تحبط تصرفاته في الحديبية جهاده وعمله مع رسول الله ﷺ.

السبب الخامس: طول الجهاد وتأخر النصر:

الناظر في المنهج القرآني يرىٰ أن هناك قضية يجب علىٰ الدعاة أن يجعلوها دائمًا نصب أعينهم هي: أن المطلوب منهم هو الجهاد والحركة عند إيمانهم بهذا المنهج إلىٰ أن يتوفاهم الله سبحانه.

---

(١) أخرجه ابن إسحاق كما في السيرة النبوية لابن هشام (٤/ ٢٨٤)، وأحمد في مسنده (٤/ ٣٣)، من طريق محمد بن إسحاق عن الزهري، وهو عند البخاري (٢٧٣١، ٢٧٣٢)، عن المسور بن مخرمة ومروان ولفظه: «فاستمسك بغرزه».

أما النصر، فهو من أمر الله إن شاء جعله في عصرهم وعلىٰ أيديهم، وإن شاء أمضاه علىٰ أيدي الأجيال من بعدهم؛ وذلك مصداقًا لقوله تعالىٰ: ﴿ وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ﴾(١)، وقوله تعالىٰ: ﴿وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ﴾(٢).

ولكن مع زحمة العمل ينسىٰ الإنسان هذا الأمر، فلا يلقىٰ من يثبته، فتبدأ قدمه بالانزلاق.

ومن صور ذلك في التاريخ الإسلامي:

* قصة خباب بن الأرت: فبعد أن اشتد إيذاء صناديد الكفر والشرك في مكة علىٰ عصبة الدعوة الأولىٰ: عمار وبلال وسمية...بعد هذا الابتلاء تحرك خباب إلىٰ النبي ﷺ، وكان متكئًا علىٰ وسادة في الكعبة، فجلس عليه الصلاة والسلام وبدأ بالتوجيه التربوي لأفراد جماعته، حفاظًا عليهم من الانزلاق: «**قَدْ كَانَ مَنْ قَبْلَكُمْ يُؤْخَذُ الرَّجُلُ فَيُحْفَرُ لَهُ فِي الأَرْضِ فَيُجْعَلُ فِيهَا، ثُمَّ يُؤْتَىٰ بالمنْشَارِ فَيُوضَعُ عَلَىَ رَأْسِه فَيَجْعَلَهُ نِصْفَيْن، وَيُمَشَّطُ بِأَمْشَاط الحَديد مَا دُونَ لَحْمِهِ وَعَظْمِهِ مَا يَصُدُّه عَنْ دِينه، وَالله لَيُتمنَّ الله هَذَا الأَمَرَ حَتَّىٰ يسيرَ الراكِبُ مِنْ صَنْعَاء إلىٰ حَضْرَمَوْت لا يَخَاف إلا الله والذِئْبَ علىٰ غَنَمِهِ وَلَكِنكُم تَسْتَعْجِلُونَ**»(٣).

وبهذا التوجيه وبهذه المتابعة المستمرة من القيادة ثبت خباب وثبت بثباته خلق كثير، ووصلت الدعوة إلىٰ أجيال متلاحقة من بعده، فهذه القضية يجب أن يتعاهدها الدعاة وخصوصًا في زماننا هذا الذي يرىٰ الدعاة إلىٰ الله فيه الأحزاب الأرضية تكون اليوم؛ وإذا بها بعد فترة علىٰ رقاب الناس قد تسلطت، والدعوة الإسلامية تخرج من محنة لتدخل في محنة. فإذا رأىٰ الدعاة هذا الأمر وطال بهم الأمد بدأ الانهيار يدب في صفوفهم، وبدؤوا يتساقطون في الطريق ما لم تكتنفهم عناية الله بتسخير قادة الخير

---

(١) يونس:٤٦.

(٢) الرعد:٤٠.

(٣) أخرجه البخاري (٦٩٤٣) عن خباب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

لمتابعتهم وتوجيههم.

*** حالة الساقطين من الدعوة:**

إن من يتساقط في الطريق هو بين حالتين:

الحالة الأولىٰ:

أن يبرر سقوطه ويرمىٰ اللوم والعتب والأسباب علىٰ الدعاة بأنهم أخطؤوا في معالجته، أو أنهم خالفوا لوائحهم في تعاملهم معه، أو أنهم ليسوا علىٰ المستوىٰ الذي يؤهلهم لإدارة الحركة...إلىٰ غير ذلك، وهذا الذي يكون حاله بهذه الصورة، فالغالب أنه لا يرجع إلىٰ قطار الدعوة وإن صلح حاله وطاب أمره.

الحالة الثانية:

ألا يبرر سقوطه، بل يعترف بتقصيره، وأن الشيطان قد أخذ منه حظًّا، وأن نفسه التواقة إلىٰ ملذات الدنيا قد ضعفت، وأنه في يوم ما سيرجع إلىٰ دائرة العمل إن شاء الله...ومن يكون هذا حاله فاحتمال صلاح أمره ورجوعه إلىٰ قطار الدعوة وارد بمشيئة الله، وقد شهدت الدعوة بهذا صورًا كثيرة بفضل الله ومنته، ونسأل الله القدير أن يرينا الباقي من إخواننا تتخضب لحاهم بدموع التوبة، راجعين إلىٰ قيادتهم، معترفين بتقصيرهم، مجددين عهودهم، وأملنا بالله كبير والحمد لله رب العالمين.

هذه بعض الأسرار وهناك منها كثير، وكل ما ذكرناه لا يعدو أن يكون تفتيحًا للمواضيع ووضع خطوط للدراسات في هذه المباحث، أكثر من كونه موضوعًا مستوفي الأطراف والجوانب.

****

ثانيًا: عوائق وعلاجات في طريق الدعوة

الداعية لن ينفك بين جذبين: جذب إيمانه ونيته وهمته ووعيه وشعوره بمسؤوليته، وجذب الشيطان من جهة أخرىٰ، وتزيينه الفتور وحب الدنيا.

وإني في هذه السطور الطيبة ـ إن شاء الله ـ أعمد إلىٰ أن أتحدث إلىٰ من نحسبهم من دعاة الإسلام من المعتزين بدينهم السائرين علىٰ جادة التوفيق، حيث إن العالم الإسلامي اليوم لا يحتاج لحل مشكلته إلىٰ استقبال جمهور جديد من المنحرفين والغافلين للتمسك بالإسلام ـ مع أن هذا من وظيفة دعاة الحق ـ بمقدار ما هو بحاجة سريعة إلىٰ نوعية المتمسكين به، وبعث هممهم وتعريفهم طريق العمل وفقه الدعوة...فالعالم الإسلامي بحاجة إلىٰ دعاة مخلصين ـ تجردوا لمقارعة الجاهلية ومصاولة دعاة الإلحاد والفجور والزندقة والفسق.

بحاجة إلىٰ دعاة ينخلعون من المحاولات الفردية؛ ليجعلوا العمل الجماعي للرجوع بالأمة إلىٰ إسلامها، واستعادة مجدها، وتحكيم كتاب ربها، والاهتداء بنهج نبيها عليه السلام. وعلىٰ هذا أصبح أمرُ الدعوة والحركة الإسلامية من الأمور المهمة التي يجب أن تأخذ حظًّا وافرًا من الحوار والمدارسة والبحث، فكان بعد ذلك لزامـًا علينا في مثل هذا المبحث أن نتحدث عن قضية مهمة في الحركة الإسلامية وهي:

أهمية معرفة العوائق الداخلية في الحركة الإسلامية:

تأتي أهمية معرفة العوائق، وضرورة مدارستها من عدة أمور منها:

أولاً: أن هذه المعرفة هي الطريق لتحقيق النصر؛ حيث إنه من المقرر أنه لا يكفي لقيام أمر ما أن تتحقق موجباته، بل لابد أن تنتفي معوقاته، كما يعبِّر أهل الأصول بـ «**وجود المقتضي وانتفاء المانع**» ويعبر كذلك في كتب العقائد بـ «**وجود الشروط وانتفاء الموانع**» فعلىٰ ذلك فوجود الشرط، أو المقتضىٰ لا يكفي لوجود الحكم والفعل، كما أن وجود الطهارة والوضوء لا يكفي لصحة الصلاة بل لابد من انتفاء الموانع نحو أن تكون الأرض التي يصلي عليها غير مغصوبة مثلاً.

ثانيًا: أن المجتمع المسلم لا يبنيه إلا أصحاب الحركة الإسلامية؛ ولذلك كان لابد من نقاء الحركة من جميع الشوائب التي تُمثل العوائق في تحقيق الغاية.

ثالثًا: أن النظر في العوائق ومعرفتها ليتجنبها الدعاةُ منهجٌ سلفي أصيل، فهذا حذيفة بن اليمان الصحابي الجليل يقول: «**كان الناس يسألون رسول الله ﷺ عن الخير وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يدركني**»[١].

رابعـًا: أنه السبيل إلىٰ إتمام البناء الإسلامي الشامخ...ولذلك قال الشاعر:

متىٰ يبلغ البنيانُ يومًا تمامـهُ إذا كنت تبنيه وغيركُ يهـدمُ
ولو ألفُ بانٍ خلفهم هادمٌ كفي فكيـف ببانٍ خلفه ألـف هادم

خامسا: وحتىٰ لا يخدع أصحاب الدعوة والحركة الإسلامية، فتنخُر بهم دابة البشر من حيث لا يشعرون، وهذا أمرٌ بينه الفاروق رضي الله عنه حين قال: «**إنَّما تُنْتَقَضُ عُرَىٰ الإِسْلامِ عُرْوَةً عُرْوَةً، إِذَا نَشَأَ في الإِسْلامِ مَنْ لا يَعْرِفُ الجَاهِلِيَّةَ**»[٢] وأكد هذا الأمر بقوله مبينًا محذرًا:

«**لست بخِبٍّ ولا يَخْدَعُنِي الخِبُّ**»[٣].

وبعد معرفة أهمية دراسة العوائق لابد من الوقوف عند صاحب الموضوع الذي نتحدث عنه وهو الدعوة والداعية.

تعريف الدعوة:

لغة: يقول صاحب «القاموس المحيط» دعا ودعاء ودعوىٰ. أي:الإمالة والترغيب.

اصطلاحـًا: يقول شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله: الدعوة إلىٰ الله: هي الدعوة إلىٰ الإيمان به، وبما جاءت به رسلُه بتصديقهم فيما أخبروا به وطاعتهم فيما أمروا به[٤].

مصادر الداعي :

أولاً: **القرآن الكريم**: في القرآن الكريم آيات كثيرةٌ تتعلق بأخبار الرسل الكرام وما

(١، ٢) سبق تخريجهما.
(٣) ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية في مجموع الفتاوىٰ (١٠/ ٣٠٢) .
(٤) مجموع الفتاوىٰ ١٥/ ١٥٧.

جرىٰ لهم مع أقوامهم، وما خاطب الله تعالىٰ به خاتمهم محمد بن عبد الله ﷺ. قال تعالىٰ: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَٰذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾﴾[(١)].

وقال تعالىٰ: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾﴾[(٢)].

ثانيًا: السنة النبوية:

من لطف الله ـ سبحانه وتعالىٰ ـ بإرساله محمد بن عبد الله ﷺ، أن جعله ﷺ يمرُّ في ظروفٍ متعددة لا حصر لها، سواءً كان ذلك في العهد المكي أو المدني، حتىٰ يكاد الإنسان يجزم أنه كما قال الصحابة ـ رضوان الله عليهم: «**إن أحدنا ليفقد سوطه فيجدهُ في القرآن**»[(٣)]، فالدعاة ما تعترضهم مشكلةٌ إلا ويجدون لها في هدي رسولهم ﷺ بيانـًا ونوراً.

ثالثًا: سيرة السلف الصالح: من الصحابة الكرام والتابعين لهم بإحسان رضوان الله عليهم:

حيث كانوا أعلم من غيرهم بمراد الشارع وفقه الدعوة إلىٰ الله، ومازال أهل العلم يستدلون بسيرتهم.

رابعًا: استنباطات الفقهاء:

يعتني الفقهاء باستنباط الأحكام الشرعية من أدلتها التفصيلية، ومن هذه الأحكام ما يتعلق بأمور الدعوة إلىٰ الله، مثلُ: أحكام الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والجهاد والحسبة، وقد أفردوا لهذه أبوابًا خاصة.

خامسًا: التجارب:

---

(١) هود: ١٢٠.
(٢) يوسف: ١١١.
(٣) ذكره السيوطي في الإتقان في علوم القرآن (٢/ ٣٣٢) . ط. دار الفكر، من كلام ابن عباس ولفظه عنده: «لو ضاع لي عقال بعير لوجدته في كتاب الله تعالىٰ».

فهي معلمٌ جيدٌ للإنسان لا سيما لمن يعمل مع الناس، وللداعي تجارب كثيرة في مجال الدعوة هي حصيلةُ عمله المباشر مع الناس، ومباشرته للوسائل فعلاً في ضوء ما فهمه من المصادر السابقة؛ لأن التطبيق قد يظهر له وجه خطئه، فيتجنبه في المستقبل، وقد يكون الثمن غاليًا لكن ما يتعلمه من التجارب أغلىٰ من الثمن المدفوع إذا انتفع من التجارب حقًّا، وهذا هو المأمول من المؤمن «**فإن المؤمن لا يُلدغ من جحر مرتين**»(١) وكما أن الداعىٰ يستفيد من تجاربه الخاصة، يستفيد أيضًا من تجارب الآخرين في مجال الوسائل والأساليب فإن «**الحكمة ضالة المؤمن يأخذها من أي وعاء خرجت**»(٢).

ضوابط في الدعوة:

أولاً: وضوح الغاية في أعماق الداعية: حتىٰ لا يزيغ به الهوىٰ أو تنحرف له رغبةً.

ثانيًا: سلامةُ الوسيلة وضمان مشروعيتها، وموافقتها لروح الإسلام: وبذلك تتحقق صيانة العمل الإسلامي من كل انحراف يمكنُ أن تُسببه القاعدة الحزبية التي تقول بتبرير الوسائل من أجل الغايات.

ثالثًا: القدوة الحسنة: وهي من أبرز وسائل الدعوة إلىٰ الله وجذب الناس إلىٰ الإسلام، فالسيرة الطيبة الزاكية والأفعال الحميدة والصفات الرفيعة تجعل الداعية قدوة طيبة وأسوة حسنة لكل الناس؛ لأنه يكون بها كالكتاب المفتوح يقرأ الناس فيه معاني الإسلام، فيقبلُون عليها وينجذبون إليها؛ لأن لسان الحال أبلغ وأفصح من لسان المقال. ومما يدل علىٰ أهمية السير الحسنة وأثرها في تصديق الداعية والإيمان بما يدعو إليه قول السيدة خديجة أم المؤمنين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا بعدما أخبرها النبي ﷺ بما حدث له في غار حراء «**كَلاَّ وَالله لا يُخْزِيكَ الله أَبَداً، إنكَ لَتَصِلُ الرَّحِم، وتَصْدُقُ الحَديثَ، وتَحْمِلُ الكَلَّ، وتُعِينُ عَلىٰ نَوائِبِ الدَّهرِ**»(٣). وأوصاف أخرىٰ جميلة عدتها من أخلاقه تصديقًا منها له.

---

(١) أخرجه البخاري (٦١٣٣)، ومسلم (٢٩٩٨) عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه الديلمي في الفردوس بمأثور الخطاب (٢٨٤١) عن ابن عمر، وهو عند الترمذي (٢٦٨٧)، وابن ماجه (٤١٦٩)، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «الكلمة الحكمة ضالة المؤمن حيثما وجدها فهو أحق بها»، قال الترمذي: «غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وإبراهيم بن الفضل المدني المخزومي يضعف في الحديث من قبل حفظه»، وقال الألباني: «ضعيف جدًّا».

(٣) أخرجه البخاري (٣)، ومسلم (١٦٠) عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

وللقدوة الحسنة أصلان كبيران:

الأول: حسن الخلق: يجب علىٰ الداعية أن تتوافر فيه «**تلك الطبيعة الرحيمة الهينة اللينة المعدة لأن تتجمع عليها القلوب وتتكاتف حولها النفوس، فالناس في حاجة إلىٰ كنف رحيم وإلىٰ رعاية فائقة وإلىٰ بشاشة سمحة وإلىٰ ود يسعهم، وحلم لا يضيق بجهلهم وضعفهم ونقصهم، في حاجة إلىٰ قلب كبير يعطيهم ولا يحتاج منهم إلىٰ عطاء، ويحمل همومهم، ولا يعنيهم بهمه، ويجدون عنده دائمًا الاهتمام والرعاية والعطف والسماحة والود والرضاء**».

الثاني: موافقة العمل القول: فيجب أن يحذر الداعي من مخالفة أفعاله لأقواله، فإن النفس مجبولة علىٰ عدم الانتفاع بكلام من لا يعمل بعلمه، ولا يوافق فعله قوله، ولهذا قال شعيب عليه السلام: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ﴾[1].

رابعاً: قواعد عامة فيمن يعمل على إزالة المنكر:

القاعدة الأولىٰ: الإيمان لمن يتولىٰ هذه المهمة.

القاعدة الثانية: الاستقامة في المزيل للمنكر والرفق واللين.

القاعدة الثالثة: القدرة علىٰ تغيير المنكر، فالعاجز ليس عليه إلا الإنكار بقلبه ولا يسقط وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بالعجز الحسي.

القاعدة الرابعة: أن يكون المنهي عنه منكرًا، وسواء في ذلك صغائر المعاصي وكبارها.

القاعدة الخامسة: أن يكون المنكر ظاهرًا بغير تجسس.

القاعدة السادسة: ألا يسبب الإنكار منكرًا أكبر منه.

وفي نهاية هذه المقدمة نقول: إن الدعاة في العمل الإسلامي إذا لم يتعرفوا علىٰ العوائق التي تعترضهم في الطريق، ويعملوا علىٰ تلافيها ومعالجتها، فإنهم سيرون في

---

(١) هود:٨٨.

دعوتهم وبنائهم صعود المنكرات وتمكين أهل البدع، وتوسيد الأمور إلىٰ غير أهلها، فيصدق فيهم قول الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه: «**إذا رأيتم اليوم شيئًا مستويًا فتعجبوا**»[(١)].

أولاً: المعوقات الداخلية للحركة الإسلامية

والمراد بها الأخطار التي تعترض الحركة الإسلامية في داخلها من أمراض الفرقة والتخلخل، ووقوع التخريب، وظهورُ الغبش في الوسائل والغايات، وغيرُ ذلك مما ينزغ به الشيطان، وهذه الأخطار تُعتبر أشدّ فتكًا وأعظم ضررًا من الأخطار الخارجية، فهي التي تهلك الحركة الإسلامية غالبا، فهي أشبه ما تكون باللغم الموضوع داخل العمارة إذا لم ينسفها كاملاً، فإنه يوهن بناءها ويُسقط بعضها قطعًا.

وهذه الأخطار لا تأتي فجأة، وإنما تأتي متدرجة، تبدأ بسيطة هينة أول الأمر ثم تقوىٰ وتستفحل شيئًا فشيئًا.

ومن هذه السطور سنتطرق وإياكم إلىٰ بعض العوائق الداخلية التي نسأل الله ـ العلي القدير ـ أن يعيننا علىٰ تجاوزها وتلافيها بعد أن يُبصرنا بها:

* **العائق الأول: وجود المنشقين عن جسم الحركة الإسلامية:**

إن أشد ما تعانيه قيادات العمل الإسلامي، وأكثر ما يشغلها عن عملها اليومي وجودُ أولئك الذين نزغ الشيطان بينهم وبين إخوانهم بعد أن تركوا قول الأحسن وفعل الأحسن: ﴿ وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿٥٣﴾ ﴾[(٢)].

وعن هذه المعاناة يُعبر الإمام حسن البنا رحمه الله في رسالة أرسلها إلىٰ تمام أفندي يتحدث عن مجموعة المنشقين الذين تم فصلهم بعد معاناة طويلة فيقول: «**ولكني أُجمل لك القول فأذكر لك أني لقيت منهم عنتًا شديدًا، وأتحت لهم فرصًا كثيرة، فأبوا الانتفاع بهذه الفرص**»[(٣)].

---

(١) رسالة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر للخلال ص ١١٣.

(٢) الإسراء: ٥٣.

(٣) رسالة من الإمام حسن البنا إلىٰ قيادات العمل.

هذه المعاناة آلمت الإمام، فأبكته فصدق فيه قول كمال عبد الرحيم رشيد: «**آذاه جرح أوجعه، فبكىٰ وأبكىٰ من معه، جرحٌ قديمٌ راعفٌ أحيا القصيد ورجعه**»[1].

فهو بكاء حياء بين يدي رب العالمين، هل سيحاسبه ربه عنهم؟!! ويشتد الإيذاء عندما ينتقل التجريح من الأشخاص إلىٰ الفكرة، يقول الإمام البنا ـ رحمه الله: «**إن الانتقال من تجريح الأشخاص إلىٰ الطعن في الفكرة نفسها هو مكمنُ الخطر، وهو أسلوب مكير يحطم صاحبَهُ قبل أن يُحطم الناس**»[2].

ولِمَ لا يُعاني قادة العمل من هؤلاء الذين يجعلون الحركة تعيش في دوامة مغلقةٍ من التكامل والتآكل، فالحركة لا تكاد عناصرُها تتكامل حتىٰ تأخذَ بالتآكل.

وهذا العائق الضخم إنما يأتي من أمور لابد من بيانها:

١ ـ الإشاعة: تعريفها:

لغة: شيعتُ فلانًا: اتبعتُه، ومنه شاع الشيب: انتشر.

واصطلاحًا: أخبارٌ مشكوكٌ في صحتها، ويتعذرُ التحقق من أصلها، وتتعلق بموضوعات لها أهمية لدىٰ الموجه إليهم، ويؤدي تصديقُهم أو نشرهم لها إلىٰ إضعاف روحهم المعنوية.

وعلىٰ ذلك فالإشاعة تُعتبر من أخطر الأسلحة الفتاكة والمدمرة للمجتمعات أو الأشخاص، فكم أقلقت الإشاعة من أبرياء، وحطمت من عظماء، وهدمت من وشائج وفي كم تسببت من جرائم وفككت من علاقات وصداقات.

٢ ـ غياب معنىٰ الحب والاعتراف بالود:

قال الإمام الشافعي ـ رحمه الله: «**الحر من راعىٰ وداد لحظة أو انتمىٰ لمن أفاده لفظة**».

فقيادة تسبقُ في طرحها وجدها وعملها وتوفير المناهج للجميع شعارهم: «**مَا مِنْ أَمِيرِ**

(١) العوائق ص٦.

(٢) من حسن البنا إلىٰ قيادات العمل ص ٦٦.

يَلِىٰ أَمْرَ الـمُسْلِمينَ لا يَجْهَد لَهُمْ ويَنْصَحُ إلا لَمْ يَدْخُل مَعَهُمْ الجَّنَة»[١].

فهذه القيادة حتىٰ تستمر في العطاء لابد من أن يوجد معهم جنودٌ طائعين وبقيادتهم واثقين.

٣ـ عدم الحركة والعمل من قبل المنشقين:

قال تعالىٰ: ﴿إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ (٢). قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «**إذا لم ينفروا في سبيل الله عذبهم الله بأن يلبسهم شيعا ويُذيقُ بعضهم بأس بعض**»[٢].

وعدم الحركة إنما هو من التثاقل عن حمل الدعوة وتبعاتها.

٤ ـ الاشتغال بالغيبة والنميمة والغمز واللمز:

قال الفضيل بن عياض: «**إذا ظهرت الغيبة ارتفعت الأخوة**»[٣] ومن خلال الاستقراء تبين أن الذين يقعون في هذا المرض الخبيث إنما يقومون بالدفاع عن أنفسهم حقيقة، مع أنهم كانوا بإمكانهم أن يعمدوا إلىٰ الطريق بقنواته السليمة بعيداً عن الانتقام للذات وانتهاج سبيل الموبقات؛ لأن مَنْ اغتاب قتل؛ قال أبو معبد عبد الله ابن عكيم الجهني ـ تابعي جليل ـ في خطبة له:«**لا أعين علىٰ دم خليفةٍ أبدًا بعد عثمان**»، فقال رجلا متعجبًا: يا أبا معبد أو أعنت علىٰ دمه؟

فقال أبو معبد: (إني لأرىٰ ذكر مساوئ الرجل عونًا علىٰ دمه) [٤].

وبهذا صح الحديث عن النبي ﷺ أنه قال: «**إِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكلَّمُ بالْكَلِمَةِ مِنْ سَخَطِ الله لا يُلْقِي لَهَا بالاً يَهْوِي بِهَا فِي جَهَنَّمَ**»[٥].

---

(١) أخرجه مسلم (١٤٢)، والطبراني في الصغير (٤٦٥) عن معقل بن يسار، وزاد الطبراني «كنصحه وجهده لنفسه».

(٢) التوبة: ٣٩.

(٣) مجموع الفتاوىٰ ١٥/ ٤٤.

(٤) أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء (٨/ ٩٦) من قول الفضيل بن عياض.

(٥) أخرجه ابن سعد في الطبقات الكبرىٰ (٣/ ٨٠، ٦/ ١٤٤)، وابن أبي شيبة في المصنف (٣٢٠٤٣). ط مكتبة الرشد، والبخاري في التاريخ الكبير (١/ ٣١).

وبهذا أفتىٰ الإمام الحسن البصري حيث ذكر الإمام أحمد في كتابه «**الزهد**»[(١)]. قال: قال عبد الواحد بن زيد للحسن البصري ـ وكلاهما من التابعين: يا أبا سعيد أخبرني عن رجل لم يشهد فتنة ابن المهلب بن أبي صفرة[(٢)] إلا أنه عاون بلسانه ورضي بقلبه، فقال الحسن: يابن أخي كم يد عقرت الناقة. قلت: يدٌ واحدة.

قال: أليس قد هلك القوم جميعًا برضاهم وتمايلهم.

وهذا المغتاب لم يجعل بينه وبين من اغتابه للصلح موضعًا.

٥ ـ التحدث في المجالس العامة والخاصة بأخطاء الدعاة والقيادات:

إن من أكبر الأمور التي تُشعل أجواء الانشقاق هو هذا الكلام المشاع الذي لا يعرف ورعًا مانعًا ولا حكمةً مصححة؛ ولذلك انتبه عبد الرحمن بن عوف لهذه المسألة فطلب من عمر رضي الله عنه ألاَّ يتحدث عن يوم السقيفة في موسم الحج مخافة الانشقاق والفتنة، فقال رضي الله عنه لأمير المؤمنين في الحج: «**لا تفعل فإن الموسم يجمعُ رعاع الناس وغوغاءهم، فإنهم هم الذين يغلبون علىٰ قربك حين تقوم في الناس، وأنا أخشىٰ أن تقوم فتقول مقالةً يُطيِّرُها عنك كل مطيِّر، وألا يعوها وألا يضعوها علىٰ موضعها، فأمهل حتىٰ تقدم المدينة فإنها دار الهجرة والسنة، فتخلُصَ بأهل الفقه، وأشراف الناس، فتقول ما قلت متمكنًا فيعي أهلُ العلم مقالتك ويضعونها علىٰ موضعها**»[(٣)].

هذه بعض الأسباب التي تُسهم في الانشقاق والتي يدفعها الداء الخفي «**حب الرئاسة**».

قيل لأبي داود السجستاني: ما الشهوة الخفية؟ قال: حب الرياسة[(٤)]، فقال شيخ الإسلام ابن تيمية معقبًا: «**فهي خفية تخفي عن الناس، وكثيرًا ما تخفي علىٰ صاحبها**»[(٥)]. وهذه هي الخطورة الحقيقية التي تدفع بصاحبها دفعًا يُحطم من أمامه،

(١) أخرجه البخاري (٦٤٧٨)، وأحمد (٢/ ٣٣٤)، عن أبي هريرة. (٧) الزهد للإمام أحمد ص ٢٨٩.

(٢) وكان قد انشق عن الدولة الإسلامية معتمدًا علىٰ وجاهة أبيه وكان أبوه ـ رحمه الله ـ مبيدًا للخوارج.

(٣) أخرجه البخاري (٧٣٢٣) عن ابن عباس رضي الله عنه.

(٤) أخرجه الخطيب في تاريخ بغداد (٩/ ٥٨)، وابن عساكر في تاريخ دمشق (٢٢/ ٢٠٠).

(٥) الفتاوىٰ ١٦/ ٣٤٦.

ويستبيح الذي في طريقه؛ ففي هذا المعنىٰ يقول الثوري: «**ما رأيت الزهد في شيء أقل منه في الرياسة**»[١]. ثم يقول: «**ما أحب أحدٌ الرياسة إلا أحبَ ذكر الناس بالنقائص والعيوب، ليتميز هو بالكمال، ويكره أن يذكر الناس أحدًا عنده بخير**».

وهذا «**واصل بن عطاء**»[٢] بدأ بكلمة في مجلس الحسن البصري، فانشق عنه فافتتنت الأمة بعده في إمامها وعلمائها كما هي قصة الإمام الممتحن أحمد بن حنبل الشيباني الذي أرجع الأمة إلىٰ السنة والجماعة، فكان إمام أهل السنة والجماعة، وهذه طبيعة الانشقاق أنه لا يكون بعدهُ لقاء، قال تعالىٰ: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١٣﴾ ﴾[٣].

قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ بعد هذه الآية: «**إن المنشق لا يكون أبدًا إلا في شق بعيدٍ عن الشق الذي فيه الله ورسوله، فكيف يكون الالتقاء مع الذي بينك وبينه وادٍ عميق فهو علىٰ شق وأنت علىٰ شق**».

ومن هذه الخطورة كانت الاستعاذة النبوية الكريمة:

« **اللَّهُمَّ إنَّا نَعُوذُ بِكَ مِنَ الشِّقَاقِ**[٤] **والنِّفَاقِ وسُوءِ الأَخْلاَقِ**»[٥]، وهذا هو الذي بقي للشيطان يفتن به المصلين ويأخذهم عن الطريق القويم قال رسول الله ﷺ:

«**إنَّ الشَّيْطَانَ أَيِسَ أَنْ يَعبُدَهُ المصَلُّونَ فِي جَزِيرَةِ العَرَبِ ولكِنْ فِي التَّحْرِيشِ بينَهُم**»[٦].

فعليكم معاشر الإخوة بالتماسك والتعاضد والائتمار بأمر ربكم ـ تبارك وتعالىٰ: ﴿ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا ﴾[٧].

(١) أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء (٧/ ٣٩)، ونقله الذهبي في سير أعلام النبلاء (٧/ ٢٦٢).
(٢) رأس المعتزلة بدأ بكلمة عندما سأل عن العصاة من الموحدين والمنزلة بين المنزلتين.
(٣) الأنفال: ١٣.
(٤) وهو بداية الانشقاق والذي حقيقته الجدال.
(٥) أخرجه أبو داود (١٥٤٦)، والنسائي (٥٤٧١) عن أبي هريرة رضي الله عنه، وضعفه الألباني.
(٦) أخرجه مسلم (٢٨١٢)، والترمذي (١٩٣٧)، وأحمد (٣/ ٣١٣) عن جابر رضي الله عنه.
(٧) آل عمران: ١٠٣.

فهذا الاعتصام طريق القوة، كما قال الشاعر:

تأبىٰ الرماحُ إذا اجتمعن تكسرا   وإذا افترقن تكسرت آحـــادا

* **العائق الثاني: ضعف الرابط بين القيادة والقاعدة من حيث الثقة والصلة:**

إن أخوف ما يخاف الداعية من أن يكون الداء في الجسم الحركي حيث تدب الفوضىٰ الفكرية بين القادة والأفراد، فتختلف الكلمة فتكون الحركة الواحدة المنسجمة في الظاهر مجموعة حركات متباينة في الواقع، فيدب فيها التنازع الذي هو طريق الفشل، قال الله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡ ﴾(1) وهذه هي نتيجة ضعف الرابط بين القيادة والقاعدة؛ لذلك قال الإمام البنا ـ رحمه الله: «**إني لا أخشىٰ عليكم من أعدائكم بل أخشىٰ عليكم من أنفسكم، أخشىٰ عليكم أمرين بـ:**

١ ـ أن تتخلوا عن الله، فيتخلىٰ عنكم.

٢ ـ أن تتفرقوا فيما بينكم، فلا تجتمعوا إلا بعد فوات الفرصة».

فالأخلاق الإسلامية الحركية لا تعرف التبدل الحزبي، فهي بعيدةٌ عن:

* تكوين جبهات معارضة داخل جسم الحركة.

* وعن إشاعة النقد والفرقة والتباغض.

* أسباب قد تؤدي إلىٰ ضعف الرابط يجب الحذر منها:

١ ـ سوء الظن من الطرفين.

قال عبد القادر الجيلاني: «**إذا خرج الزور دخل النور**» زور سوء الظنون في القلب، المسببُ للتشاؤم وعبوس الوجه، فالمكاشفة من الطرفين ومصارحة كل طرفٍ للآخر لا تجعل للظن بابًا يدخل منه.

٢ ـ طلب القيادة للإمارة والحرص عليها:

قال النبي ﷺ لعبد الرحمن بن سمرة: « **يا عبد الرحمن لا تسأل الإمارة، فإنك إن**

(١) الأنفال: ٤٦.

أعطيتها عن مسألة وكلت إليها، وإن أُعطيتها من غير مسألة أُعنت عليها»[١] فطريق الإعانة هو انتظام الصف وعدم اعوجاجه، وهذا إنما يكون بعون الله وتوفيقه الذي بيده مفاتيح القلوب.

٣ـ عدم إنصاف القاعدة للقيادة:

إن من الإنصاف ألاَّ يُطلب أكثر مما هو ممكن، فإن ذلك من أسباب كفران النعم والاتهام بالنقصان، فهذا الصديق ﷺ يقول: «**يا أيها الناس، لوددتُ أن هذا كفانيه غيري، ولئن أخذتموني بسنة نبيكم ﷺ ما أطيقُها، إن كان لمعصوما من الشيطان، وإن كان لينزلُ عليه الوحي من السماء**»[٢].

وبهذا قال الخلفُ من أمراء وولاة الأمة: «**أنصفونا يا معاشر الرعية تُريدون منا أن نسير فيكم سيرة أبي بكر وعمر ﷺ ولا تسيرون فينا ولا في أنفسكم بسيرة رعية أبي بكر وعمر**».

ولذلك ترى عدم الإنصاف في رجلٍ يهتم بجمع الأموال ويخشى الفقر، ويطيل السهر مع زوجته، ويعطي الدعوة فضول الأوقات، ثم يريد أن يرى معجزة.

ولذلك لابد من تكامل القيادة مع الجنود حتى يشع النور وتسيرُ الحركة على هدي من ربها كما قيل:

الرأي كالليل مسـود جوانبـه والليلُ لا ينجلي إلا بإصـباح
فاضممُ مصابيح آراء الرجال إلى مصباح رأيك تزدد ضوء مصباح

وهذه قصة النبي ﷺ مع المهاجرين والأنصار في غزوة بدر تبين مدى الارتباط بين القيادة والقاعدة، وأن القاعدة وإن اختلفت أسماؤهم وجنسياتهم ومستوياتهم الاجتماعية وقبائلهم، فالمنهج واحد والكلام واحد؛لأنه منهج الثقة بين القاعدة

(١) أخرجه البخاري (٦٦٢٢)، ومسلم (١٦٥٢) عن عبد الرحمن بن سمرة ﷺ.
(٢) أخرجه أحمد (١/ ١٣) عن قيس بن أبي حازم، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٥/ ١٨٤): «رواه أحمد وفيه عيسى ابن المسيب البجلي وهو ضعيف»، وقال الشيخ أحمد شاكر في تعليقه على مسند أحمد (٨٠): «إسناده حسن».

والقيادة.

ففي معركة بدر وهي قاعدة الشورىٰ الإسلامية قال عليه الصلاة والسلام: «**أَشِيرُوا عَلَيَّ أَيُّها النَّاسُ**»(١) فقال المقداد مما قال:«**امض يا رسول الله حيث أمرك الله ونحن معك ولن نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسىٰ: فاذهب أنت وربك، فقاتلا إنا هاهنا قاعدون، ولكن نقول لك: اذهب أنت وربك فقاتلا إننا معكما مقاتلون، فوالله يا رسول الله لو سرت بنا إلىٰ برك الغماد لسرنا معك ولجالدنا معك من دونه حتىٰ تبلغه**(٢).

ـ و«برك الغماد» منطقة تقع في أقصىٰ اليمن وبينها وبين موقع بدر عشرات القبائل المعادية ومساحتها تزيد علىٰ الألفين كيلو مترًا ـ فأنىٰ لجيش عدده ثلاثمائة وبضعة عشر أن يغطي تلك المساحة، ولكن من انتصر علىٰ عدوه في ساحات القلوب انتصر عليه في ميادين الدروب.

وبعد ممثل المهاجرين قام ممثل الأنصار والرسول ﷺ يكرر: «أَشِيرُوا عَلَيَّ أَيُّها النَاسُ» فقال بأدب:«**لعلك تعنينا يا رسول الله؟ قال: «بلىٰ»** قال: إنا آمنا بك وصدقناك وأعطيناك علىٰ ذلك عهودنا ومواثيقنا علىٰ السمع والطاعة، فلو استعرضت بنا هذا البحر لخضناه معك ما تخلف منا رجل واحد، ولا نكره أن تلقىٰ بنا عدونا غدًا فسر حيث أمرك الله، فإنا صدق في القتال صبر عند اللقاء، ولعل الله يريك منا ما تقرّ به عينك، فامض علىٰ بركة الله(٣).

* العائق الثالث: ضعف الروح العلمية في الحركة الإسلامية:

صور الضعف:

١ ـ النظر إلىٰ الأمر لا باعتبار الحق الذي فيه بل باسم وشخص من يقول، ومن هذا حذر علىٰ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فقال: «**اعرف الحقَ تعرف أهله**»(٤).

٢ ـ عدم الحرص علىٰ الازدياد العلمي: وبهذا قال الرافعي ـ رحمه الله: «**إن لم تزد**

(١) ابن إسحاق كما في السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ١٦١، ١٦٢) والبيهقي في دلائل النبوة (٣/ ٣٣، ٣٤).
(٢) السابق نفسه.
(٣) ابن إسحاق كما في السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ١٦٢)، وابن جرير الطبري في تاريخه (٢/ ٢٧).
(٤) ذكره القرطبي في تفسيره (١/ ٣٤٠).

شيئًا علىٰ الدنيا كنت أنت زائدًا علىٰ الدنيا»[١] وهذا لا يكون إلا بالنماء المستمر، فالداعية في ازدياد دائم كما كان الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه؛ حيث حدث عنه إبراهيم الحربي فقال: «**لقد صحبته عشرين سنة، صيفًا وشتاءً، حرًا وبردًا، ليلاً ونهارًا فما لقيتُه في يوم إلا وهو زائدٌ عليه بالأمس**»[٢].

٣ ـ الغفلة عن التأصيل الشرعي لأعمال الحركة اليومية:

إن الحركة الإسلامية غاياتُها ربانية ووسائُلها كذلك، وعندما تغفل الحركة عن ذلك وتتخذ وسائل غير منضبطة بالشرع تكون قد سدت علىٰ نفسها خيرًا كثيرًا، وبذلك يقول ابن القيم رحمه الله:

«**جعلوا الشريعة قاصرة لا تقومُ بمصالح العباد محتاجة إلىٰ غيرها وسدُّوا علىٰ نفوسهم طُرقًا صحيحةً من طرق معرفة الحق**»[٣].

فعلىٰ الحركة أن يتكامل فيها صوت العقل وصوت العاطفة، وحجة الفقيه، وجلجلة الخطيب، ومنطق المفكرين ومشاعر المتحمسين، وأن يتعاون فيها من هو أنضج فكرًا مع من هو أطول لسانًا، وأن تُزين أعمالها وتصرفاتُها وفقًا لأحكام الشرع ومصلحة الفكرة لا استجابةً لشعورٍ وقتي، ولا إرضاءً لحماسة العامة، أو أهواء الخاصة.

هذا هو التكامل المنهجي، وعندما يتخلون عنه يُحرمون من خيرٍ كثير هم يحملونه معهم دائمًا كما قيل:

كالعيس في البيداءِ يقتلُها الظما والماء فوق ظهورِها محمول

* **العائق الرابع**: **شبه العزلة عن قوى الشعب**:

وهو عدم انفتاح الحركة ودورانها في داخلها وهذه آتية من:

١ ـ عدم فهم قضية الاستعلاء الإيماني وكون المسلم متصلاً بجسمه منفصلاً بروحه.

٢ ـ اليأس من استجابة الجماهير باعتبار أن الجماهير يُصفقون لكل حاكم، ورميهم

(١) وحي القلم ج/ ٢.
(٢) مناقب الإمام أحمد لابن الجوزي ص ١٤٠.
(٣) بدائع الفوائد (٣/ ٦٧٤).

بالفسق؛لذلك قال الإمام البنا ـ رحمه الله: «**لماذا تيأس من الإصلاح هب أننا سوف لا نصل إلىٰ شيء من النتائج، وليكن ذلك... ألم نؤد الواجب؟ ألم نتحر الحق؟ ألم نؤد الرسالة؟ ذلك حسبنا ولله عاقبة الأمور**»(١).

٣ ـ مطالبة الجماهير بما يطالب به أصحاب الحركة.

٤ ـ عدم التفريق بين الثبات علىٰ الأسس والقواعد والضوابط ومفهوم تجديد الأساليب والتحرك.

٥ ـ عدم مشاركة الجماهير في احتياجهم وأعمالهم ـ كالأمثلة الآتية ـ الاشتغال بأعمال إنقاذ الناس من المجاعة، تشجير المناطق الصحراوية، إنشاء مراكز للتعليم، ومستشفيات للعلاج وغير ذلك وقد قيل في ذلك:

«**إن عمل رجل واحد في ألف رجل أقوىٰ من قول ألف رجل في رجل واحد**».

وهذه المشاركة يجب في نفس الوقت ألا تُشغل الحركة عن مُهمتها الأساسية وهي عمليةُ البناء والصياغة الربانية لأفرادها، وتوسيع القاعدة الصلبُة، وهذه المشاركة ـ مع أهميتها ـ صعبة ولكنها طبيعة البناء التكاملي الذي لا مناص منه، فهو طريق النجاة المستلزم مسلك الموازنات الوعرة وقد قيل:

ترجو النجاة ولم تسلك مسالكها ... إن السفينة لا تجري علىٰ اليبس

* **العائق الخامس: حب الدنيا وتعظيم الذات:**

إن من المقرر أن حب الدنيا يُعطي للقلب استعدادًا للفتنة، فيكون الداعية كحوض ماءٍ راكدٍ ترسَّب الطين في قعره، تُلقي فيه حجرًا صغيرًا فيختلطُ كُله، وقد كنت تظنه زلالا، أما الحوضُ النظيف فإن إلقاء الحجر فيه يزيده جمالاً بما أحدث من دوائر الأمواج التي تعكس ظلال الأغصان الخضراء(٢).

ولهذا الأمر كان تحذير النبي ﷺ من الوهن الذي هو: «**حُبُّ الدُّنْيا وكَرَاهِيةُ**

(١) ص ٣ من رسائل الإمام حسن البنا إلىٰ قيادات الدعوة الإسلامية.
(٢) العوائق ص ٣٢.

المَوْتِ»[١].

وهذا العائق هو الفتور إلىٰ البدعة بعد نشاط الدعوة والتراخي بعد الجد والجنوح إلىٰ الكسل والسكون، وبهذا المعنىٰ ورد الحديث: «**لكل عمل شرة ولكل شرة فترة، فمن كانت فترته إلىٰ سنتي فقد اهتدىٰ، ومن كانت فترته إلىٰ بدعة فقد ضلَّ**»[٢].

وحب الدنيا هو الطريق بعد ذلك إلىٰ حب الذات المتمثل في حب البروز، والعمل فقط في الصف الأول؛للبحث عن الأضواء.

ولنتلافي هذا العائق لابد من وضوح ما كان عليه سلفنا ـ رضوان الله عليهم ـ فهذا الإمام الحسن البصري رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يقول عنه الأمراء: «**احتجنا إلىٰ دينه واستغنىٰ عن دنيانا**» وبمثله قال النبي ﷺ: «**فَرُبَّ أَشْعَثَ أَغْبَرَ ذِي طِمْرَينِ لا يُؤْبَهُ لَه لو أَقْسَمَ عَلَىٰ الله لأَبَرَّهُ**»[٣].

* **العائق السادس: ضعف التخطيط:**

إن الحركة لا تدع نفسها للظروف والمصادفات تُسيرُها سيرًا عشوائيًا، تعمل ما لا تريده، وتريد ما لا تعمله، وتُدفع دفعًا إلىٰ السير في غير طريقها، ولكن يجب أن تسير في خط واضح المعالم، محدد المراحل، بين الأهداف ومعلوم الوسائل، علىٰ أن هذا التخطيط يكون بقدر الاحتياج مناسبًا للمرحلة متناسبًا مع المرحلية زيادة ونقصًا، لذلك قال: «**مونتغمري المنتصر في العلمين علىٰ رومل في إدارة جيشه المنتصر**»: إنه متىٰ كثرت الخطط لابد أن يفشل الجنود؛لكونهم غير واثقين من صوابية خطةٍ واحدة[٤]؛ لأن كثرة التخطيط من غير احتياج ستحول الإسلام إلىٰ ترفٍ فكري ومعرفة ذهنية باردة جدلية، ويصدق فيهم قول النبي ﷺ:

(١) أخرجه أبو داود (٤٢٩٧) عن ثوبان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وصححه الألباني.

(٢) أخرجه أحمد (٥/ ٤٠٩) عن رجل من الأنصار من أصحاب النبي ﷺ، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٣/ ١٩٣): «رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح».

(٣) أخرجه الترمذي (٣٨٥٤)، والبيهقي في شعب الإيمان (١٠٤٨٢) عن أنس بن مالك رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قال الترمذي: «حسن غريب».

(٤) المنطلق ص ١٦ عن مجلة الحوادث.

«مَا ضَلّ قومٌ بَعْدَ هُدًىٰ كَانُوا عَلَيْهِ إلاَّ أُوتُوا الجَدَلَ»[١].

*** العائق السابع: إثارة الشبهات على الدعوة والدعاة في أوساط الدعاة:**

إن المُنصف لا يرىٰ في الحركة الإسلامية إلا حُب الخير للناس، والإشفاق عليهم والتفاني في صالحهم، فهي حركةٌ قد مضت بحمد الله قُدمًا، ضاربةً في شعاب الزمن لا يضرُها من خذلها ولا من تولىٰ عن صفوفها ولا من تحامل عليها، تدعو المذبذبين، والمضطربين، والمترددين بين الدعوات الحائرة والمناهج الفاشلة، وهي بعد ذلك سائحةٌ بعون الله ـ تعالىٰ ـ غير عابئة بقلةٍ ولا بكثرة، أما من يُثير حولها الشبهات ويُحيطها بظلم الاتهامات ويحاول أن يُلصق بها كل نقيصةٍ، وأن يُظهرها لمن حوله في أبشع صورة ـ فهذا ما نراه إلا شخصًا أساء فيهم الظن، وأحاطت به الشكوك والريبة، فهو لا يراهم إلا بالمنظار الأسود القاتم.

المراد بالشبهة:

هي ما يثير الشك والارتياب في صدق الداعي، وحقيقةُ ما يدعو إليه، فتمنع المدعو من رؤية الحق والاستجابة له، أو تؤخر هذه الاستجابة، كما أنه غالبًا ما ترتبط إثارةُ الشبهة بعادةٍ موروثة، أو مصلحةٍ قائمة، أو شهوةٍ دنيوية، أو حميةٍ جاهلية، أو سوء ظن، أو غبش في الرؤية فتتأثر النفوس الضعيفة المتصلة بهذه الأشياء...وتجعلها حجة وبرهانًا تدفع به الحق.

مراد مثيرىٰ الشبهات:

يحتج الكثير ممن يثيرون الشبهات حول الدعوة والدعاة، أن هذا من قول الحق وإنكار المنكر، وهم في الغالب ليسوا كذلك؛ إذ يفترون الكثير من المفاسد التي تشير إلىٰ أن هدفهم هو الفضيحة لا النصيحة..!.

أصول رد الشبهات[٢]:

(١) أخرجه الترمذي (٣٢٥٣)، وابن ماجه (٤٨)، وأحمد (٥/ ٢٥٢)، عن أبي أمامة رضي الله عنه قال الترمذي: «حسن صحيح».

(٢) مع أن الأصل عدم وضع الدعوة في قفص الاتهام والدفاع عنها.

إن تتبع الشبهات والرد عليها أمر يصعب علىٰ الإنسان لأمرين:

الأمر الأول: أن أصحاب الحركة ما داموا يتحركون....فلابد أن يصدر عنهم الخطأ، وهذا أمر يدل علىٰ الحركة والعيش في الواقع...والصراع مع الباطل الذي يحيط بهم، وليس في ذلك منقصة إذا لم يُصاحبه تعصبٌ وإصرار، بل النقصُ أن يجلس الدعاةُ عن الحركة والصراع مع الباطل بحجة الحرص علىٰ عدم الانحراف عن دين الله ولا يعلم المسكين أنه بجلوسه...يمثل الانحراف.

الأمر الثاني: أن الذي يبحث عن الشبهات ويقيم كيانه علىٰ أعراض الناس، ويقتاتُ من لحومهم في الليل والنهار... إنما يمثلُ دور الذباب في حياة البشر الذي يحوم باحثـًا عن القيح الناتج عن الأجزاء المريضة في الجسم التي هي من خواص الجسد، وهذا الصنف من البشر ما دام هذا همه...فسيجد ما يقتات به حقيقة أو افتعالاً.

الأصل الأول:

الاحتكام إلىٰ الكتاب والسنة: ﴿ وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾[1].

الأصل الثاني:

أن كل إنسان يؤخذ من كلامه ويرد إلا المعصوم ﷺ.

الأصل الثالث:

إن رجالات الدعوة ليسوا مجرد علماء يُلقون الدرس علىٰ طلبة العلم، ويحققون المسائل العلمية، ولكنهم رجال أبصروا تضعضع الأمة الإسلامية، وتأخرها وبعدها عن دينها، إلىٰ غير ذلك مما تعانيه الأمة الإسلامية، فأخذوا علىٰ أنفسهم بعد توفيق الله أن يُعيدوا بناء الأمة من جديد ببناء الشخصية الإسلامية، والجماعة الإسلامية التي تعيد للأمة أصالتها وحيويتها وخيريتها.

وأخيراً، نقول للأخ الداعية:

لا تجعل قلبك للإيرادات والشبهات مثل السفنجة، فيتشربها فلا ينضح إلا بها، ولكن

(١) الشورىٰ: ١٠.

اجعله كالزجاجة المصمتة تمر الشبهات بظاهرها ولا تستقر فيها فيراها بصفائه ويدفعها بصلابته وإلا فإذا أشربت قلبك كل شبهة تمر عليه صار ممرًّا للشبهات. واعلم أن من قواعد الشرع والحكمة أيضًا أن من كثرت حسناته وعظمت وكان له في الإسلام تأثيرًا ظاهرًا فإنه يحتمل له ما لا يحتمل لغيره، ويعفىٰ عنه ما لا يعفىٰ عن غيره، فإن المعصية خبث والماء إذا بلغ قلتين لم يحمل الخبث.

* **العائق الثامن: الضعف في الاهتمام التربوى:**

يقول الأستاذ الفاضل مصطفىٰ مشهور عن منعطفات الحركة الإسلامية: «**أن تتخفف من قيود التربية والتكوين والالتزام بتعاليم الإسلام لتكوين القاعدة المتينة، وتلجأ إلىٰ الأسلوب السياسي علىٰ نمط الأحزاب السياسية، وتنخدع حينئذ بالكثرة التي تقبل سبب احتمال المغانم، ولعدم وجود التزامات تربوية، فنحن لا ينقصنا الكم ولكن ينقصنا الكيف**» اهـ[1]. فالاهتمام بتكوين الشخصية الإسلامية هو حجر الزاوية في البناء الإسلامي، فالحركة الإسلامية لا يمكن أن تنهض بدورها الكبير في قيادة الأمة بغير الدعاة العاملين، وكذلك فإن هؤلاء الدعاة لا يمكن أن يقوموا بالدور الخطير ما لم تكتمل شخصيتهم الإسلامية اكتمالاً طبيعيا سليمًا.

* **ومن نتائج الضعف في الاهتمام التربوي:**

١ ـ التوسع العددي مع عدم وجود القاعدة الصلبة:

إن الحركات الإسلامية يجب أن يعلموا خطورة استقطاب رجل الشارع والجماهير الواسعة، فهي من المزالق التي تنساق لها الحركة الإسلامية قبل حصول المقدار اللازم من الوعي الإسلامي والعدد الكافي من أصحاب التربية الصلبة، فرجل الشارع والغوغاء والدهماء والمصفقون هم مادة الأحزاب الأرضية وغصن حياتها؛ لأن هذه الأحزاب تستطيع أن تبدل وتحور برامجها وفق طلبات هؤلاء وتبعًا لاستهلاك السوق، أما الدعوة الإسلامية فما بمثل هؤلاء تنتصر، وما بمثل هؤلاء تغير مجرىٰ الحياة. إن هذا النوع من التجميع ممكن لكنه لا يستمر طويلاً، حيث إن إيجاد جماهير تنتسب للإسلام أمر سهل،

(١) من فقه الدعوة ص ٣٥.

ولكنها تنفر من الخطوات الحكيمة وتندفع اندفاعات غير موجهة ولا هادفة، وربما طوعت الإسلام لقبول ما ليس منه وحملت مفاهيم مشوبة بنظريات الفكر وعقائد مختلطة بالبدع.

٢ ـ عدم اعتماد المرحلية والتدرج في الخطوات:

لأن السير الطبيعي هو أن تسير الحركة سيرًا منسجمًا تمامًا مع قدرتها، وقوتها فهي تمشي ببطء عند الضعف، وتسرع الخطىٰ عند القوة أو سنوح الفرصة، فمن المجازفة وعدم التبصر الظهور للمجتمع الفاسد قبل أن ترتكز الجماعة، وقبل التأكد من القدرة علىٰ تلقي الصدمات والمقاومات العنيفة المنتظرة، فيكون مثلها مثل من يتعرض إلىٰ العدو القوي، وهو لا يزال في دور التعلم علىٰ استعمال السلاح وفنون الحرب والقتال وإعداد القوة للنزال.

٣ ـ الاستعجال واعتساف الطريق:

إن من الخطأ اعتساف الطريق واستعجال الثمرة قبل نضوجها، فالحركة الإسلامية يجب أن تعتمد طريق الرسول ﷺ منهجًا ولو طال الطريق ﴿وَمَا ٱلنَّصۡرُ إِلَّا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ ﴾[1] ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدۡعُۖ وَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَ ﴾[2].

وبهذا يقول الإمام البنا ـ رحمه الله ـ في المؤتمر الخامس يخاطب المتحمسين المتعجلين:

«اسمعوها مني كلمة عالية داوية من فوق هذا المنبر في مؤتمركم هذا الجامع: إن طريقكم هذا مرسومة خطواته وموضوعة حدوده، ولست مخالفًا هذه الحدود التي اقتنعت كل الاقتناع بأنها أسلم طريق للوصول، أجل قد تكون طريقًا طويلة ولكن ليس هناك غيرها ـ إنما تظهر الرجولة بالصبر والمثابرة والجد والعمل الدائب ـ فمن أراد منكم أن يتعجل ثمرة قبل نضجها أو يقتطف زهرة قبل أوانها، فلست معه في ذلك بحال. وخير له أن ينصرف عن هذه الدعوة إلىٰ غيرها من الدعوات، ومن صبر معىٰ حتىٰ تنمو البذرة

---

(١) آل عمران: ١٢٦.

(٢) الشورىٰ: ١٥.

وتنبت الشجرة وتصلح الثمرة، ويحين القطاف فأجره في ذلك علىٰ الله، ولن يفوتنا وإياه أجر المحسنين. إما النصر والسيادة، وإما الشهادة والسعادة».

٤ ـ عدم القدرة علىٰ الاحتفاظ بالأعضاء:

فيحس الفرد في الجماعة أنه في دائرة ضيقة لا تتسع، وأنه يدور في حلقة مفرغة، فيتولاه السأم؛ لأن الجماعة لا تعتبر بيئة صالحة لنمو الفرد واستثمار وقت فراغه، ثم قد يكون أسلوب الجماعة في الدعوة للإسلام وتربية الأنصار أسلوب مبتدع أو قاصر، فينفر الفرد منه.

*** العائق التاسع: محاولة إدخال الدعوة في عموميات العوام:**

بات من المقرر عند الدعاة أن هناك قواعد أثبت الواقع والفهم السليم أنه لا خلاف عليها نحو:

أ ـ أن مهمة الدعوة إدخال الملك في دين الله لا دخول الدعوة في دين الملك.

ب ـ أنه لا التقاء مع المخالفين في أصول الدين في منتصف الطريق.

وعلىٰ ذلك لن نقف عندها ولكننا سنقف في حوار هادئ عند قضايا جديدة:

*** دخول العوام في منهج الدعاة لا دخول الدعوة في عموميات العوام:**

قد يخطر علىٰ قلب واحدٍ من البشر خواطر غريبة فيقول بعد قراءة العنوان:

أتُريد دين الله أن يكون خاصًّا بفئةٍ معينةٍ من الناس؟!.

ـ فيكون الجواب: أبا الخير لا تعجل علينا فإنا نورد الأوراق بيضًا ونصدرهن سوادًّا «**بالحبر**» قد مُلينا ـ مع الاعتذار للشاعر الجاهلي.

ـ فالمراد في حديثنا هذا مفهوم: إدخال العوام في صفوف الدعاة عن طريق التخلي عن الموازين والضوابط التي جعلتها الدعوة أساسًا لبنائها.

ـ فإن قلت: هذا تشاؤم منك، واستطراد في ذهنك لا حقيقة له.

ـ فاليد ترتفع بالدعاء: أن يحقق الله ما تعتقده ويقيها شر الهدم والحفر ومن لم يذد عن فكره بقلمه يهدم.

وماذا أفعل يا صاحبي:

وفهمي كلما عاتبته هام بالتفكير يبغي تعبي

واعلم أن الإغماض عن القذاة لا ينفي وجودها. وإن لم تكن تعلم ما يقال فتلك مصيبة، وإن تكن تعلم، فالمصيبة أعظم! وإن أردت أن تسمع فأعطنى سمعك لأسمعك ماذا يقال من أفريقيا البعيدة: «**عليك بتنزيل مستواك الإيماني**» و«**على الحركة الإسلامية تنزيل مستوى التدين!**»..وإن كان سمعك ثقيلاً، فأعرني سمعك أقرأ عليك من «**آسيا**» ضرورة التساهل في الشروط ـ أي:شروط وموازين أفراد الحركة.

ـ كفى. وقفا نذكر للقارئ ما في حواركما:

هناك حقيقة في النفس البشرية لا يمكن إغفالها وهي:حب التملك والمكاثرة: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١﴾[1]، ويعبر عن هذه القضية البعض بالحرص على التجنيد.. وهذه تشتد في البلاد التي نظامها كما يسمونه «**ديمقراطي**» وهو «**حكم الشعب للشعب بواسطة الشعب**» فيكون الشعار كلما جندت شخصًا ساعدت على حصولنا على مقعد انتخابي في أي مركز من مراكز التوجيه والتأثير...، وهنا يفهم المراد بالتوجيه السابق ـ نزل مستواك الإيماني ـ بمعنى إذا رأيت الذي معك لا يحرص على هدي النبي ﷺ فلا شيء، فالأمر فيه خلاف عند العلماء، وإذا أراد أن يذهب إلى «**دار السينما**» مثلاً فلا حرج من ذهابك معه، فالصور الموجودة عبارة عن خيال، وليست حقيقة، وهناك من جوز ذلك من العلماء!! وهكذا بعد فترة يجد الداعي المسلم نفسه خاليـًا من محتواه الذي يميزه عن غيره من أصحاب الأحزاب الأرضية، ويظل الاختلاف قائمًا بالأسماء دون المسميات...، وهذا من ثم ينسحب على الجماعة فتنزل ـ بضم التاء ـ من مستوى التدين عندها لكي تستطيع أن ترضي أكبر عدد من القطاعات ليتسنى لها كسب أكثر عدد ممكن من الأصوات!!وعندئذ تفقد الحركة أصالتها كما فقد الفرد محتواه...، وتتغير الصورة وتدخل الجماعة في دين العوام بدل إدخال العوام في دين الجماعة.

وهنا قد يعترض معترض فيقول: وهل نترك العوام نهبًا للأحزاب الأرضية، ألا تذكر

(١) التكاثر:١.

بالأمس القريب كيف حكمت طبقة «**البروليتاريا**» ـ هي طبقة العمال حين تحكم بالقوة، كما يعرفها ماركس.

ـ هون عليك يا هذا فلا زلت لا تعرف الكثير كما يقول: أبو حامد:

أنت أكل الخبز لا تعرفه   كيف يجري منك أم كيف تبول

فإنه لا يعني عدم إدخال هؤلاء معك في الصف وألا تحسن إليهم ولا تعقد الصداقات معهم، ولا تمشي في حوائجهم إن استطعت، ولا تقوم بتعليمهم وتوجيههم، فهذا مطلوب منك...فهذا وكيع بن الجراح شيخ الإمامين أحمد والشافعي ﷺ جميعًا يقتطع من وقته ليذهب للسقائين والخبازين لتعليمهم وتوجيههم... ولكن لا يدخلهم في صفوف طلبة العلم حتىٰ يجوزوا الشروط، وكذلك لا يُنزل ـ بضم الياء ـ من مستواه الإيماني ليواكبهم، ولا يحط من علمه ليوافق ميولهم فيأخذوه، وهنا لابد من ذكر خطأ وقع فيه الناس في فهم ما قاله أبو إسحاق الفزاري عن الأوزاعي:«**كان رجل عامة**» فقالوا: أي إنه يكثر من مجالسة العامة، وهذا خلاف المراد؛ لأنه كما هو في سياق التعظيم «**ليس رجل نفسه، إنما هو رجل يدير الأمة عامة عنده عقل ومدارك تؤهله لذلك**».

فالعوام لا يرضيهم إلا ما يوافق هواهم، وما أظن وصف النساء عنهم ببعيد لو أحسنت لأحدهم ـ العوام ـ العمر كله، ثم أخطأت في حقه، بل لم تلب رغبته مرة لتنكر كما تنكر الناشز زوجها..؛ لهذا قال الإمام محمد بن الحسن تلميذ الإمام أبي حنيفة شيخ الإمام الشافعي ﷺ جميعًا: «**لو كان العوام عبيدي لأعتقتهم، وأسقطت موالاتهم**».

وللبدء في ختم الموضوع هل سأل شباب الحركة أنفسهم: ما هو المطلوب منهم شرعًا؟ هل هو تحقيق النصر في حياتهم؟ أم هو التزام الطريق المستقيم؟ ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦ﴾(١) فإن كان الثاني وهو البين من خطاب الله سبحانه لنبيه ﷺ: ﴿فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعۡضَ ٱلَّذِي نَعِدُهُمۡ أَوۡ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾(٢) فلماذا التعجل

(١) الأنعام: ١٥٣.
(٢) غافر: ٧٧.

والتخبط.

ونهاية المطاف، فإن أهل الدعوة علىٰ يقين أن هذا الذي هو باخع نفسه علىٰ إنتاجية الحركة وسعة أفرادها سيأتي اليوم الذي ينكشف له نقاب الفكر الذي يتنطط به ويرجع كما الباحث الذي يبحث عن حِمارَي أهله ويطلقها مثلاً... أتعرفون قصته: إنه رجل في الجاهلية فقد حماريه، وفي أثناء بحثه رأىٰ امرأة متنقبة فأخذ يتبعها لعله يحصل منها علىٰ كلمة أو نظرة، وطال المسيرُ، فرقت الفتاةُ وكشفت عن وجهها ونظر إلىٰ شفتيها وقال مثلاً: «**ذكرني فوك حماري أهلي**»[1] ورجع ليبحث عن ضالته لعله يجدها بعد أن طال الطريق! وانطلق الركب، فهل إلىٰ سبيل؟!

* **العائق العاشر: حب الدعاة والتعلق بهم لدرجة عمى العيون والأبصار والافتتان بهم:**

قديمًا قال الإمام علي بن أبي طالب ﵁ مبينًا منهج معرفة الحق: «**لا يُعرف الحقُّ بالرجال، بل يعرف الرجالُ بالحق، اعرف الحق تعرف أهله**»[2]. وهذه القاعدة تظل مستمرة ما لم يحدث الغبش والافتتان.

فعندما يُفتن الإنسان بشيخه لا يرىٰ عيبه، بل الأكثر من ذلك أن ينظر إلىٰ شذوذ شيخه علىٰ أنه قاعدة علمية، علىٰ الناس أن يأخذوا بها.

ولتوضيح ذلك نسوق القصة الآتية وهي مروية من تلميذ عن شيخه: يقول الأستاذ كرد، متحدثًا عن وجوده في فرنسا مع شيخه محمد عبده: عندما كنا في فرنسا نعمل علىٰ إصدار مجلة «**العروة الوثقىٰ**» كان الشيخ يذهب الساعة العاشرة ونحن في أشد الاحتياج للوقت...وهكذا كل يوم، وأردت أن أسأله فهبته...ولكني تبعته يومًا فرأيته يجلس في مقهي علىٰ طاولة واحدة مع حسناء فرنسية... فرجعت وأخذت أنتظر حتىٰ يرجع وسألته قال: إنه يتعلم منها اللغة الفرنسية وأن التعلم عن طريق الجمال أسرع» هذه هي الصورة كما يذكرها التلميذ عن شيخه، فما هي ردة الفعل لما حدث وماذا يمكن أن يقول التلميذ

---

(١) مجمع الأمثال (١/ ٢٧٥) للميداني ط. دار المعرفة، والمستقصىٰ في أمثال العرب (٢/ ٨٥) للزمخشري ط. دار الكتب العلمية.

(٢) سبق تخريجه.

المفتون؟ إنه الأمر العجب الذي يذهب بالعقول يقول: «**هكذا يعلم منقذ الشرق كيف يتلقىٰ العلم عن طريق الجمال**» أليست هذه فتنة وسقوط؟

أمر قد يبدو غريبًا ولكنه داء الافتتان الذي يصيب الناس في لحظات الغفلة، ومن الملاحظ أن انتشار هذا المرض يتناسب مع مقدار الأصالة الشرعية لدىٰ الأفراد تناسبًا عكسيا. ولم لا وهم أصحاب الفهم السديد والفحص العميق والإدراك الصحيح والمنهج السليم؟ فكلما ازداد علم الإنسان الشرعي كلما كان أبعد عن هذا النوع من الافتتان.

وقد أصبح من المعلوم أنه لا يحدث التأثر بين المفتون والمفتون به إلا إذا كان بينهما عرق رابط: وللتوضيح استمع إلىٰ هذه القصة يرويها أبو حامد الغزالي ـ رحمه الله ـ فيقول «**بتصرف**»: رأيت ما أعجبني يومـًا غرابًا وعصفورًا يطيران معًا فأخذت أتتبعهما مستغربًا، فلكل واحد منهما طبائعه ومآربه التي تختلف عن الآخر، فما الذي جمعهما معـًا؟! فلما نزلا إلىٰ الأرض بان السبب فزال العجب، فكل من الغراب والعصفور يعرجان!! فبان العرق الرابط!! واستطراداً نقول: إنه كما يكون العرج في الرجل يكون في الفهم والفكر!! والله الهادي إلىٰ سواء الطريق.

*** العائق الحادى عشر: نسيان قاعدتى القبول (الإخلاص وموافقة الشرع):**

كثرة الانتصار، وانتفاشة العضلات، وتصفيق المؤيدين، كل هذه وأمثالها تنسىٰ الداعية الضوابط الأولىٰ التي كان يرتكز عليها في بداية الطريق، وهذا المرض قد يكون متوقعًا في بدايته، حيث يسهل إزالته بموقف إيماني ـ يُستل من آية أو حديث ـ يرجعه إلىٰ صوابه الأول فها هي الانتفاشة تحصل للجيل الأول الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ فيصيبهم البهرج وتخدش القلوب فيأتي الشافي الأعظم، والنور الساطع؛ليرجع الناس إلىٰ أصولهم وقواعدهم:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةٗ لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةٗۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴿٢٥﴾ وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ أَنتُمۡ قَلِيلٞ مُّسۡتَضۡعَفُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمۡ وَأَيَّدَكُم بِنَصۡرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾[1] الآيات.

فكانت هذه الآيات البلسم الشافي الذي لا يحتاج إلىٰ بيان، في إرجاع النفوس إلىٰ صفاء ونقاء أوقات البداية، وصدق من قال: «**واشوقاه لأوقات البداية**»، قال تعالىٰ: ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ...﴾[2] وفي هذه اللحظات وعند الرجوع للمعين الصافي يكون الترديد من الجميع: «**اللهم لا حول ولا قوة لنا إلا بك**» «**اللهم بك نصول وبك نجول**»، وغيرها من الأدعية التي تبين الالتجاء الصادق إلىٰ الله، بعيدًا عن غرور العقل وتدبيره.

فهذه الأعداد الهاتفة لمسيرة الدعوة، المنقادة لخطابات الدعاة توجد زهوًا في النفس ينسىٰ الإنسان لماذا هو يدعو؟ هل لتكثير الأنصار، وبهرجة الأعداد؟ أم لمرضاة الله سبحانه والفوز بجنته ووعده؟! وهنا تُذكرني هذه الانتعاشة بالطيشان لكل أمر ثائر والزبد الذي يخلفه فيخيل للناظر في أول الأمر أنه عظيم القدر والحجم، فإذا ما صبر المشاهد عليه وجده قد انكمش ورجع إلىٰ حجمه، وكأن أمرا، يُلزمه: «**اخسأ فلن تعدو قدرك**»[3] وصدق التابعي الجليل تلميذ عبد الله بن مسعود رضي الله عنه الربيع بن خثيم رضي الله عنه عندما قال: «**كل ما لا يُراد به وجه الله يضمحل**»[4] ولم لا والمنبت ـ المكان الذي ينبت فيه الزرع ـ إذا خبث لا يخرج إلا نكدًا... وهذا البهرج الفارغ لا يعدو أن يكون أحسن صورة من «**خضراء الدمن**» النبتة الجميلة في منبت السوء فإياكم وإياكم.

وهكذا كل بناء علىٰ جرف هار ينهار بصاحبه، وكذلك عندما يغفل الإنسان عن مراقبة الله يبدأ بالتخلي عن الالتزام بضوابط الشرع، فيبدأ بالانحراف حتىٰ يصل إلىٰ تسمية الفقه الذي قدمه وتركه رجال أوجدهم الله لخدمة دينه، فسهروا وجدوا وجاهدوا حتىٰ وصل إلينا نقيًا صافيًا... يُسمونه «**فقه الحفريات**» فيقسمون الإسلام إلىٰ

(١) الأنفال: ٢٤ـ٢٨.
(٢) الأنفال: ٢٦.
(٣) انظر: صحيح البخاري (١٣٥٤)، ومسلم (٢٩٢٤) من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.
(٤) أخرجه ابن سعد في الطبقات الكبرىٰ (٦/ ١٨٦)، ونقله الذهبي في سير أعلام النبلاء (٤/ ٢٥٩).

عقائد وشعائر ومعاملات فيبنون بعد ذلك فكرة الانتماء، فيقولون: للمسلم انتماء ديني وانتماء سياسي، فتبدأ الانقسامات وتكثر التشعبات.

ويظن أصحاب هذا التفكير ـ الذين انسلخوا من مراقبة الله، وانفلتوا من ضوابط الشرع أنهم يمدون جسرًا لكسب بعض العناصر اليسارية المتدينة، ليجعلوهم في صفوفهم بعد أن يبينوا ما في الإسلام من مبادئ إصلاحية تغنيهم عن المذاهب اليسارية الوضعية.

ومن غير أن يشعر هذا القائل وأمثاله فإنه يصير بوقًا لليسار وأعوانه... ولا نستغرب ذلك، فهذا حسن حنفي العضو بحزب التجمع الوطني صاحب مجلة «**اليسار في مصر**» أجرت معه صحيفة «**المستقبل**» حوارًا فسألته بعض الأسئلة عن وسائل الإعلام التي يستخدمونها؟ فقال: نحن نستعمل جميع القنوات الممكنة للتعبير عن أنفسنا: «**الأحزاب التقدمية والحركات الإسلامية القائمة...**».

وهذه هي أساليب أعداء الله التي أضافوها إلىٰ وسائل التعذيب والتنكيل، فيعمدون إلىٰ الدخول تحت مظلة الإسلام وإدخال مفاهيم غريبة عليه لتقويضه من الداخل. هذا هو سبيل المجرمين فتبينوا يا سالكي سبيل المؤمنين، واسمعوا شاعرنا يقول:

الشرع أعظم مرشـدٍ   في ظلمة الشبه البهيجه
والعقل يقفوه ولـو   لاه لكنـا كالبهيمـه
فاتبعهما ولمـن لحـا   ك عليهما قـل يا بهي مه

مع الاعتذار للفهم لذلك يقصد الشاعر في الكلمة الأخيرة «**يا بهي مه**» يا بهي «**أي جميل المطلع**» اكفف عن قولك مه عما تقول: «**وهذا من حسن الأدب**».

*** العائق الثاني عشر: حلاوة المظهر وخداع البصر:**

هذا المرض عادة عند صاحب الاحتياج.. فالمحتاج إلىٰ الماء يظن السراب ماء، والذي يوشك علىٰ الغرق يظن القشة سفينة، وغيرها من الصور التي نراها في حياتنا، وهذه خطورتها تقل لكونها طبعية وتأثيرها فردي، أما التي تمثل خطرا علىٰ الدعوة

الإسلامية هي تلك التي يصطنعها أعداء الله؛ليخدعوا بها الحركة، فيظنون السائل ماء وهو شراب مسكر يذهب بلباب الرجال فيضلون الطريق.

خداعات كثيرة تستعمل لكل بيئة بحسبها، فالشيطان قد امتلأت كنانته بأسهم مختلفة.. ومن أشد صور الخداع التي يرىٰ الإنسان فيها الأرض مخضرة، فيظن أنه في بستان غناء وأرض ثابتة، وإذا هو مستنقع آسن قد غطته الأوراق الساقطة التي هبت بها الريح.. وهذا الخداع سَيُكتشَف يومًا ولكن سيكون الوقت قد فات حيث ستهب سنة كونية، ريح قوية وستتطاير الأوراق وتنكشف الحقيقة، فيبحث المخدوعون عن يابسة فلا يجدون، فيسقطون في المستنقع الآسن وسيغرقون ويتنجسون، وفي كلتا الصورتين سيشعرون ويحسون بعد فوات الوقت أنهم كانوا مخدوعين.

ومن أمثلة هذه الصورة ما يظنه الكثير من المسلمين في البلاد التي تنتشر فيها المظاهر الإسلامية أنهم علىٰ الخير، وأن الأحزاب الباطلة كالشيوعية والماسونية وغيرها من الاتجاهات اللادينية محاربة، ومقضي عليها، فلذلك لسنا بحاجة إلىٰ حركة إسلامية، فالناس بخير، والمساجد منتشرة والجمعة قائمة وهكذا يظن الجميع أن الأرض مخضرة، وأنها يابسة فإذا جاء أمر ربك وظهرت الحقيقة زال خداع البصر وأني لهم يومئذ، فحذار من هذا المرض الخبيث، فالمريض الذي يعرف مرضه من أول الأمر يمكنه بعون الله معالجته وقطع الأجزاء المريضة إن كانت تمثل خطورة علىٰ الجسد، أما الخطورة فتتجسد عندما لا يكتشف المرض إلا في نهاية مرحلته التي لا ينفع فيها العلاج لا قدر الله.

*** العائق الثالث عشر: سقوط قيادة العمل الإسلامي في الدنيا وحبها:**

إن قيادة العمل الإسلامي تكليف وتعب وجهد أكثر مما هي تشريف، وهي مغرم وليست مغنم، هذه حقيقة يعرفها الجميع ولكنها تخفي علىٰ الجميع في لحظات إقبال الدنيا وبهرجها وزينتها.. ولتصوير ذلك لابد من ذكر ما ذكره الطبري في«**تاريخ الأمم والملوك**»(١) قال: دخل ذات يوم عبد الرحمن بن عوف علىٰ أبي بكر في علته التي مات

(١) تاريخ الطبري ٢/ ٦٢.

فيها فقال: ... أراك بارئًا يا خليفة رسول الله، فقال أبو بكر: أما إني علىٰ ذلك لشديد الوجع، ولما لقيت منكم يا معشر المهاجرين أشد علي من وجعي».

(إني وليت أموركم خيركم في نفسي « **يقصد عمر بن الخطاب** » فكلكم ورم أنفه أن يكون له الأمر من دونه...) فإذا كان معاشر المهاجرين حرصوا عليها فما بالنا نحن!!

ولوجود هذا المرض في النفس البشرية اتخذ الفاروق رَضِيَ اللهُ عَنْهُ سياسة حكيمة في تربيتهم لدرجة أنه حظر عليهم الخروج إلىٰ البلدان إلا بإذنه وإلىٰ أجل، فاشتد عليهم الأمر وأخذوا بالشكوىٰ فبلغه رَضِيَ اللهُ عَنْهُ الأمر، فقال: «**ألا وإني قد سننت الإسلام سن البعير: يبدأ فيكون جذعا، ثم ثنيا، ثم رباعيا، ثم سداسيا، ثم بازلاً، ألا فهل ينتظرون بالبازل إلا النقصان، وإن قريشًا يريدون أن يتخذوا مال الله معونات دون عباده، فأما ابن الخطاب حيٌّ فلا، إني قائم دون شعب الحرة فآخذ بحلاقيم قريش وحجزها أن يتهافتوا إلىٰ النار**»[(١)] انظر كيف صور التهافت علىٰ الدنيا بالتهافت إلىٰ النار، وكيف منعهم من السفر خوفًا من معاينة مفاتن الدنيا وبهارجها.. فالله نسأل حسن العون والثبات، وألا يكون خروج الدعاة في دراساتهم [(٢)]، يريدون الدنيا وبهرجها، فوالله للذي خاف منه عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، نحن أحوج إليه اليوم منه بالأمس، والله نسأل حسن المقاصد.

*** العائق الرابع عشر: ظهور مفاهيم مغلوطة من جراء نظرات ضيقة محصورة:**

إن الناظر في خلافات أصحاب الحركة -حتىٰ الذين هم في إطار واحد - يرىٰ أن السبب متمثل في أن كل واحد منهم نظر إلىٰ جانب من الحركة وجعله هو الحركة، وخاصم وفاصل عليه؛ وخطأ الآخرين في ضوئه، مع أن الحركة تشمل الجوانب كلها. ولتوضيح هذا الموقف نذكر هذه الصور:

*** الصورة الأولىٰ :**

انقسم أهل الدعوة علىٰ رأيين: هل الحركة الإسلامية حركة تغييرية أو إصلاحية؟

---

(١) الطبرى ٥/ ١٣٤ .

(٢) وذكر هذا الأمر لا يخدش نيات ومقاصد الدعاة الخارجين للدراسة لكي يرجعوا بعد ذلك بالشهادات التي يستخدمونها لتبليغ دعوة الله، ولكنه الحرص والتنبيه والتحذير .

وبدأ بينهما سجال ودارت منازعات واتهامات.. وفي هذا المجال نقول: لا خلاف بين الفريقين، فالحركة الإسلامية إصلاحية في مجال الإصلاح وتغييرية في مجال التغيير.. والناظر إلىٰ سيرة النبي ﷺ في الحركة يرىٰ قيام النبي ﷺ بالأعمال الإصلاحية من محاربة المفاسد ودعوة إلىٰ الأخلاق، في نفس الوقت الذي كان يعرض نفسه ﷺ علىٰ القبائل ليكون دولة الإسلام بهم التي تقوم بعمل التغيير للوجه الجاهلي للجزيرة العربية، فعلىٰ ذلك، فلا مبرر للصراع والاتهامات علىٰ أن يكون الهدف النهائي للحركة الإسلامية هو عبادة الله بمفهومها الواسع وهدم الطاغوت، كما قال الله تعالىٰ: ﴿أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾[(١)].

*** الصورة الثانية:**

يدور الحوار بين أصحاب الحركة الإسلامية حول أسلوب العمل الأصلح، هل البناء والتركيز في الصياغة الفردية لإنسان الحركة الإسلامية؟ أم العمل الجماهيري العام والتوعية الإسلامية الوعظية؟ ويحمىٰ النقاش بين أنصار كل فريق من الفريقين.. وفي هذا نقول: لا مبرر للصراع إذا كان الاتجاهان يكمل أحدهما الآخر؛ حيث إنه لابد من صياغة الفرد الرباني الذي يحمل الرسالة ويقوم بالتغيير، كما أنه يلزم وجود الجماهير المسلمة الواعية التي ترضىٰ بتوجيه الفرد الرباني عن قناعة وإيمان، وإن لم يكن هناك استعداد لتحمل الرسالة وتبعاتها، وهذا التوافق بين الرأيين كان منهج النبي ﷺ.. فالرسول ﷺ الذي كان يذهب إلىٰ الطائف لدعوة الجماهير، ويصعد علىٰ الصفا ليدعو عوام أهل مكة وخواصهم هو نفسه الرسول ﷺ الذي كان يربىٰ الجيل القرآني الفريد في دار الأرقم بن أبي الأرقم، وشعب أبي طالب...، ولا تناقض بين الموقفين، ثم بعد ذلك ينحصر النقاش في الأولويات، وهذه كذلك أمور نسبية خاضعة لوضع الحركة من حيث القوة والضعف بالنظر إلىٰ الكيف والكم، وخاضعة للظروف الاجتماعية والاقتصادية والسياسية المحيطة بالحركة.

---

(١) النحل: ٣٦.

*** الصورة الثالثة:**

بماذا نتحدث وماذا نكتب؟ حوار يدور مع كل خطبة ومع كل كتاب ورسالة، هذه الخطبة لا تناسب الوضع الذي نحن فيه، وتلك الرسالة كان المفروض ألا تأخذ الجهد والوقت وهكذا تجار الكلام؟

فإلىٰ هؤلاء نذكر واقع النبي ﷺ الشمولي في البيان والحديث والتوجيه، فالرسول المصطفىٰ ﷺ الذي كان يسير الجيوش لقتال الكفار، هو الرسول ﷺ الذي كان يحاور الوفود ويبرم العهود، هو الرسول ﷺ الذي كان يداعب الصبيان: «**يا أبا عمير ما فعل النغير**»[1] هو الرسول نفسه ﷺ الذي كان يجلس مع المرأة فيشرح لها عن خصائص نفسها في أدق أمورها، وحكم شرع الله فيها، ولم يكن ذلك ينقص من اهتماماته الأخرىٰ، ومن الأخطاء الشائعة عند أهل الحركة الإسلامية أنك تراهم يهملون بعض أمور الشرع؛ليظهروا اهتمامهم في الأمور الجسام الملقاة علىٰ عواتقهم، فتراه يجلس من صلاة العشاء إلىٰ الفجر؛ليناقش بيانًا أصدره اليسار، وليس لديه استعداد أن يجلس نصف ساعة ليعرف نواقض الوضوء، أو كيفية قراءة القرآن، بحجة أن هناك أمورا مهمة مناطة به.

فإلىٰ هؤلاء - إلىٰ إخواننا الذين نحبهم في الله، ونسأل الله أن يجمعنا وإياهم علىٰ منابر النور، إلىٰ المعتمدين علىٰ جهودهم وعقولهم - نقول: «**لا إفراط ولا تفريط**» فكما تهتم بالبيان السياسي، والتوجيه الاقتصادي، اهتم بالحكم الفقهي، واعلم أن علماء المسلمين الذين كتبوا في الأحكام السلطانية هم الذين كتبوا في الطهارة والعبادات، فلا تعارض بين الأمرين، بل يكمل كل واحد منهما الآخر.

*** العائق الخامس عشر: الافتتان ببهرج التخطيط والعلم الإداري:**

نتيجة لاحتكاك شباب الدعوة في العلوم الإدارية والتقسيمات الفنية من خلال دراستهم الجامعية. واحتكاكاتهم اليومية في مجالات الوظائف العامة والخاصة وعن طريق سماع المحاضرات العامة..حصاد هذه الأمور كلها أن خرجت نبتة غريبة عن

(١) أخرجه البخاري (٦١٢٩)، ومسلم (٢١٥٠)، عن أنس بن مالك رضي الله عنه.

الحس الإيمانى والضوابط الشرعية والأدب الإسلامي. فأخذت تسفه مناهج العمل الإسلامي ، وتصفها بالسذاجة تارة، وبعدم مواكبة تطور الواقع تارة أخرى، لذلك فهي لا تخطط بل تسير بتخبط، والأدهى من ذلك إقران ما يرونه تخبطًا بالبركة الإيمانية فيقولون بأن الحركة تسير بالبركة، فيفهم من ذلك أن البركة الإيمانية تصادم الحركة التخطيطية؛ وكأنهم جعلوها منقصة في الحركة، وكأنهم جعلوا ميزة الحركة الإسلامية، بل ميزة الإنسان هو التخطيط وتناسوا ميزة الإيمان.. وهذه القضية لا يرد عليها أصحاب الحركة الإسلامية بل يتولى توجيهها توفيق الحكيم في كتابه: «**تحت شمس الفكر**» فيقول: الذكاء ليس بالمزية التي اختص بها الإنسان وحده، والنظام الإداري المحكم والاقتصادي الكامل ليس وقفا على المجتمع البشري. فإن مجتمع النحل لأدق منا نظاما في الاقتصاد. ولكن الذي يميزنا نحن معاشر البشر هو الإيمان»[1].

ثم إن أمر التخطيط نسبي يختلف من أمر إلى آخر، ويؤخذ بقدره وينظر إليه على أنه وسيلة لإنتاج أفضل وأسرع. لا أنه غاية في نفسه، ثم إن المراد والمطلوب الشرعي هو اتجاه السبب وهو التعبير الشرعي للتخطيط، والسبب هو استغراق الجهد البشري لطاقته في تحصيل أمر من الأمور، مع الاستعانة بالله ـ تعالى ـ الذي خلق الأسباب ومقتضياتها وهذا هو الأمر الوسط الذي وصف به الأمة الإسلامية ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ﴾[2]. وسطا بين الأشاعرة الذين جعلوا الأشياء تحدث عند الأسباب لا بها، وجعلوا الارتباط بين السبب والمسبب ارتباطًا اعتياديًّا فجعلوا الشبع يحدث عند الطعام لا به، وبين المعتزلة الذين جعلوا حتمية حدوث النتيجة وترتبها على السبب ترتبـًا لازمـًا بمعزل عن مراد الله، ولكن أهل السنة والجماعة الذين يمثلون اللبن السائغ الذي يخرج من بين فرث ودم منهم الذين يتخذون الأسباب ويخططون، ولكن لا يعزلونها عن مراد الله سبحانه، ولا عن الضوابط الشرعية المستقاة من منهج الله، فيمثلون بذلك حقيقة التوكل على الله».

(١) ص ٥١، نقل ذلك عنه صاحب تهافت العلمانية ص ١٣٠.
(٢) البقرة: ١٤٣.

ثم يجب ألا يغيب عن تفكير المفتونين بالتخطيط أن كل مرحلة من مراحل الدعوة تستلزم طبيعة وصورة مناسبة للتخطيط، فالمرحلة الأولىٰ في عهد النبي ﷺ حين كان الأمر مقصورًا علىٰ الاتصال الفردىٰ بأهل مكة، والتعبد في شعب أبي طالب، والتدارس في دار الأرقم بن أبي الأرقم.. تختلف عن مرحلة الهجرة والتحرك للهجرة، بل إن الأمر لا يعدو أن يكون خروج كل إنسان بقدرته واستطاعته مع بذل أسباب النجاة من التخفي وأخذ الزاد والراحلة، وإنني لا أستبعد من أولئك أن يقول أحدهم بأن المسلمين أثناء الهجرة خرجوا من غير تخطيط، بل خرجوا بالبركة، فهذا صهيب ترمد عيناه في الطريق، وهؤلاء النساء يخرجن بلا محرم وقيم، وهكذا الأفراد كل واحد منهم يخرج باجتهاده!! ثم إن مرحلة الدولة بعد ذلك وتأسيسها تحتاج إلىٰ تخطيط أكثر من مرحلة التعبد والتدريس، وليس هناك انتقاص لأي مرحلة من المراحل، بل كل مرحلة خطط لها بما يناسبها ويوافقها.

وهذه القضية تخفي علىٰ من بهرهم بريق الشعارات وانعكاس جمال اللافتات، فأخذوا يرددون عبارات جوفاء في حقيقتها، براقة في ألفاظها تبهر الناس في أول أمرها. وإن حال هؤلاء ليذكرنا بالأعرابي الذي بال في بئر زمزم، فعندما سئل عن سبب فعله قال: حتىٰ يعرفني الناس، هذا بحث عن الشهرة لكنه لم يحسن الوسيلة، واختلط عليه الأمر بين من يشتهر بالظلم ومن يشتهر بالعدل، ومن يعرف بالقبح ومن يعرف بالجمال، في زحمة البحث عن الشهرة تراه ينسىٰ أو يتناسىٰ.

كما أن هذه الشعارات الجميلة تذكرنا بنداءات الثورة الفرنسية ـ التي يسمونها الكبرىٰ ـ (الإخاء، الحرية، المساواة) والتي في ظاهرها الرحمة وباطنها من قبله العذاب؛ ولتوضيح ذلك أبين صورة من الصور التي ترتبت علىٰ هذه الشعارات: « **في إحدىٰ جلسات الجمعية الوطنية ـ وهي الجمعية التي كانت تحكم فرنسا بعد الثورة ـ قام أحد المفتونين، ونادىٰ بهذا الشعار وطلب التصويت عليه:**

« **لا صدقات ولا مستشفيات** » وكان مراده في ذلك تحقيق المساواة.. حيث كانت المستشفيات قبل الثورة وبعد الثورة ـ مستشفيات تجريبية ـ فكانت الطبقة الفقيرة تذهب

إلىٰ المستشفيات للعلاج فيقوم الأطباء بعلاجهم بالأدوية التي توصلوا إليها ويقومون بتجربتها علىٰ المرضىٰ من الفقراء، أما الأغنياء فيذهب إليهم الطبيب الخاص ليقوم بعلاجهم.. لذلك من باب المساواة، أن تلغىٰ المستشفيات ويعطىٰ الفقراء المال؛ليستطيعوا أن يعطوا الطبيب الخاص ولا يذهبون إلىٰ المستشفيات؛ ومن ثم تغلق المستشفيات؛ لأنها تجسد الفقر بين الشعب، ولكن لحسن حظ البشرية أنه لم يوافق علىٰ هذا الاقتراح. فبالله عليكم لو تصورنا أن هذه المستشفيات قد أغلقت فكيف كان يمكن أن يتقدم الطب؟!»

هذا هو نتاج التطبيل للشعارات الفارغة التي تطرح من غير وعي ولا ضابط، ففكرة التخطيط في ظاهرها الرحمة والإنتاج والأخذ بالأسباب وهذا أمر لا شيء فيه، بل هو مندوب إليه، ولكن عندما يكون ذلك ستارًا لهدم الأصول الثابتة للعمل الإسلامي وتغيير بنيته الأساسية مع مرور الزمن، في هذه اللحظة يكون في باطنه العذاب وتظهر الحقيقة علىٰ لسان المخدوعين المرددين لكلام لا يعون مخاطره، فيأتي أحدهم فيقول: إنه يجب إعادة البناء التنظيمي للهيكل، ثم يتبع ذلك قوله: ولابد من تغيير الأصول الفكرية التي تقوم عليها الجماعة لتواكب الواقع الذي نعيش فيه...؛ وهكذا يسترسل مع مراد التغيير حتىٰ يقول:

وإذا اصطدم العقل مع النقل، فلابد من تقديم العقل، ويصل بذلك إلىٰ أن يحرم النظر في كتب التفسير كالقرطبي والطبري وابن كثير ويدعو إلىٰ معرفة التفسير من خلال النظر في القرآن الكريم وكثرة قراءته فقط.

وهكذا تبدأ القضية بأهمية التخطيط وتنتهي بضرورة التغيير وعدم الجمود، تغيير وتغيير حتىٰ لا يبقىٰ شيء مستقرًّا، ومن ثم تضيع الأصول، فيقوم بناء ويسقط آخر، ويسقط الذي قام ليقوم غيره، وبهذا يحدث القلق وعدم الاستقرار الذي هو مراد أعداء الحركات الإسلامية، وبهذا يقول الدكتور محمد المبارك: « **إن الدعوة إلىٰ التغيير المستمر دعوة يهودية ماكرة يراد بها قلب المجتمعات، وإحداث القلق، ومنع الاستقرار، وقد استغلت فكرة التطور أقبح استغلال لمحاربة الأخلاق، وباسم التقدم والتطور**

لمحاربة الإسلام وتشريعه ونظمه ومثله العليا، ولعل مبدأ الانحراف في التفكير الإسلامي في هذا الجانب أن ينظر الدعاة إلىٰ المنهج الإسلامي كمنهج من مناهج التفكير البشري الأخرىٰ، فيغفلون عن كونه دينًا ربانيا سيقف صاحبه بين يدي الله يوم القيامة. وتأتي خطورة هذا الطرح بكونه يلاقي استهواء لدىٰ الشباب الذين من عادتهم أخذ كل ما هو ثوري ومتغيرة؛ لما فيه من خروج علىٰ المألوف وإشباع للغرور الفردي» .

وفي الختام..نطلب من إخواننا الذين افتتنوا بالدراسات الغربية أن يتريثوا في أخذهم وتعلقهم ويزنوا كل أمر بضوابط الشريعة، وليعلموا أن الشر لا يأتي إلا بشر والخير لا يأتي إلا بخير كما هو من نص ومفهوم الحديث المتفق عليه واللفظ لمسلم في كتاب الزكاة باب تخوف ما يخرج من زهرة الدنيا، فعن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال: «**إنَّ مِمَّا أخافُ عَلَيكم بَعْدي ما يُفتحُ عَليكمُ من زَهْرَة الدُّنيا وزينَتها**»[١] فقال رجلٌ: أو يأتي الخيرُ بالشرِّ يا رسول الله؟ قال: فسكت عنه رسول الله ﷺ فقيل لهُ: ما شأنُك؟ تكلم رسول الله ﷺ ولا يُكلِّمك؟ قال: ورأينا أنَّه يُنزل عليه. فأفاق يمسحُ عنهُ الرحضاء[٢] وقال:«**إن هذا السائل**»[٣] ـ وكأنه حمدهُ ـ فقال: «**إنهُ لا يأتي الخيرُ بالشرِّ وإن مما يُنبتُ الرَّبيعُ يقتل أو يُلمُّ إلاَّ آكلة الخضر، فإنَّها أكلت، حتىٰ إذا امتلأت خاصرتاها استقبلت عين الشمس فثلطت وبالت ثُمّ رتعت. وإن هذا المال خضر حُلوٌ..**» [٤] الحديث.

ثانيًا: علاجات اجتهادية لما ذكرنا من العوائق الداخلية

إن عملية تشخيص الداء وبيانه يتبعها بالضرورة ذكر وصفات العلاج التي تعتبر سببًا قد يترتب عليها الشفاء بعد توفيق الله تعالىٰ، وهذه العلاجات في حقيقتها تمثل جهدًا بشريا خاضعًا للخطأ والصواب، وفي هذه الورقات سنذكر بعضًا منها.

العلاج الأول: البناء العقدى النظرى الواضح:

إن من أهم الأمور التي يجب أن يتنبه إليها أصحاب الحركة الإسلامية في بنائهم

(١) أخرجه البخاري (١٤٦٥)، ومسلم (١٠٥٢)، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.
(٢) الرحضاء: العرق ـ وأكثر ما يسمىٰ عرق الحمىٰ .
(٣) وفي بعض النسخ أين وأني ـ وكلها بمعنىٰ أن هذا هو السائل الممدوح الحاذق الفطن .
(٤) أخرجه البخاري (١٤٦٥)، ومسلم (١٠٥٢)، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

وتكوينهم لقواعدهم وخلاياهم أن تكون الأسس واضحة جلية مستقاة من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، مهتدية بهدىٰ سلفنا - رضوان الله عليهم - فيكون العمل قائما علىٰ قواعد وتأصيلات مستقرة. لا تتزحزح ولا تضطرب ولا تتغير، فمثلاً يكون الأساس النظري الذي يتعلق بالخوارج مثلاً واضحًا لا لبس فيه « **بأنهم فئة منحرفة ذات زيغ وضلال**». وكذلك الرافضة « **في طعنهم ورفضهم لصحابة رسول الله ﷺ وانتقاصهم لمكانتهم التي جعلها الله لهم** » حيث إنهم بذلك - أي بسبهم لصحابة رسول الله ﷺ يكونون قد عبروا عن أنفسهم بالضلال والسقوط - وهكذا بقية الفرق التي ليست علىٰ الكتاب والسنة يكون الأساس النظري في البناء العقدي لأفراد الحركة الإسلامية واضحًا لا يختل تجاههم، سواء كانت هذه الفرق في حال قوتها أو في حال ضعفها، وسواء كانت الحركة الإسلامية في قوتها أو ضعفها، فهذا الأساس النظري لا يتغير ولا يتحول اتباعًا للظرف والواقع، وبذلك تضمن الحركة نقاء في أفرادها وصفاء في عقائدها ورسوخًا في تكوينها.

ثم بعد هذا التأصيل إذا ما اضطرت الحركة الإسلامية من خلال تعاملها اليومي في الواقع المعاش أن تنفذ سياسات مصلحية قد تكون في ظاهرها خطأً في التصور أو عدم وضوح في المسير ولكن في حقيقة الأمر لا شيء من هذه الأشياء، و إنما هي سياسات الهدنة والصلح وغيرها من سياسات الحرب، فالنبي ﷺ هادن اليهود كسياسة مصلحية مرحلية، وفي نفس الوقت كان يربي الجيل القرآني في عهده علىٰ وضوح حقيقة اليهود، كما في قوله تعالىٰ: ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ۖ يُضَـٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ قَـٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾[1]، وقوله تعالىٰ: ﴿ ۞ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ﴾[2]، فالاعتقاد النظري عند صحابة رسول الله ﷺ واضح في شأن اليهود لم يتغير في حال مسالمتهم للنبي ﷺ قبل غزوة الخندق، ومعاداتهم للنبي ﷺ عند قدوم

(١) التوبة : ٣٠ .
(٢) المائدة : ٨٢ .

الأحزاب، هم هم اليهود لم يتغيروا.

فبهذه المنهجية تأمن الجماعة الانحراف العقدي الذي قد تسقط فيه الحركة الإسلامية في حال ضعفها وتعلقها بأئ شيء، فالتأصيل في البناء والتربية والتكوين لا يختلف من ظرف إلىٰ ظرف ومن موقف إلىٰ آخر، فأي قاعدة تربوية تم الإيمان بها علىٰ أنها علىٰ الطريق المستقيم وفق كتاب الله وسنة نبيه يجب أن تبقىٰ في حالة الشدة والرخاء، في حالة الحزن أو الفرح، سواء كتبت والجماعة الإسلامية تعيش في القصور، أو كتبت والجماعة الإسلامية تمتحن في السجون، فعلىٰ سبيل المثال كتاب «**معالم في الطريق**»[1] في تأصيله التربوي التكويني كتبه الشهيد سيد قطب ـ رحمه الله ـ وهو في السجون، ولو قدر الله أن يكتبه وهو علىٰ كرسي الحكم لم يتغير؛ لأن تكوين القاعدة الصلبة، واستمرار عملية البناء قضية مستمرة مع الحركة من بداية تكوينها إلىٰ وصولها واستلامها واستمرار ذلك إلىٰ أن تلاقي ربها.

العلاج الثاني : الثقة وأثرها في الاطمئنان:

إن الهزات التي تنتاب الفرد في أثناء مسيرته وتكاد تسقط به من قافلة المسير إنما مرجعها إلىٰ الاختلال الذي يحصل للنفس البشرية المتعلقة ببحثها عن ذاتها، ففي غيبة الثقة الرابطة والماسكة لبناء الحركة ترىٰ الفرد المضطرب بعد أن ينظر إلىٰ نفسه، وما يحوزه من ملكات فطرية أو صناعات تكوينية من قوة في العبارة وسلاسة في الأسلوب وفصاحة باللسان ورصانة في القلم. فيعتلي المنبر خطيبًا يهز الجماهير، ويركب الصحيفة كاتبًا يشد انتباه المشاهير، ثم يعاود النظر إلىٰ نفسه وذاته ومكوناته، ثم يلتفت في الجهة الأخرىٰ إلىٰ ما أعطىٰ من كرسي في العمل الإسلامي، فيرىٰ الفارق الكبير بين ذاته في المجتمع الكبير المعاش، وبين ذاته في إطار حيز الحركة الإسلامية، فيرىٰ الفارق بين المكانين، فيقع بين نظرتين.

أما النظرة الأولىٰ: نظرة بعيدة عن ميزان الثقة تجعل من النفس أوتارًا حادة متحركة صارخة في نفسه: «**قد وقع عليك الظلم في حركة تحارب الظلم**»، ويبدأ الصراع ويتحرك

(١) الشهيد سيد قطب.

شياطين الإنس والجن بإشعال نار الفتنة التي وجدت في النفس المضطربة أرضـًا وبيئة مهيئة بأسمدة الضعف البشري ، والركام الجاهلي ، والخور الإيماني، فتنبت شجرة التفريق كأنها رؤوس الأباليس.

أما النظرة الثانية: فهي نظرة قد ملئت ثقة بقيادتها وموجهيها، شعارها تربية إيمانية، أساس البناء فيها يذكره وقت الخطوة الأولىٰ عند الانخراط في العمل الإسلامي، حيث كان همه ومراده أن يكون أوثق سهم في كنانة قائده سواء كان مطرزًا بالذهب والفضة أو كان مجردًا لا يزينه شيء، فهو في هذه الدعوة عرف من أول الطريق أن قائده لا يختار في حقه إلا ما هو أصلح، فهو بالنسبة للجماعة أولاً، ثم إلىٰ ذات الفرد ثانيـًا، ثـم إن أصالته التربوية تذكره أنه لم يدخل في يوم من الأيام الحركة الإسلامية ـ ليشار إليه بالبنان، وإنما دخل عنوانه قول الصحابي: «**والله ما علىٰ هذا بايعتك يا رسول الله ولكن أن أضرب ها هنا ـ وأشار إلىٰ عنقه ـ بسهم يخرج من ها هنا، فأدخل الجنة**» فهذه الالتفاتة لقواعد الثقة الأولىٰ تثبت أوتار القلب فيصدح بأنغام الثبات الكفوف بالكفوف وحدوا صفوفنا، فهي إذًا الثقة التي يعطي فيها الفرد حق التنظير للجماعة، وهو مطمئن إلىٰ عدلها وحسن تصرفها، علمًا بأن هذه الثقة لا تمنعه في أية حال من أن يقوم بالنقد البناء من خلال الطرق الصحيحة، والقنوات المستقيمة التي توصل الماء الزلال من غير تعكير ولا تشويش.

العلاج الثالث: الاهتمام بالفرد قبل مؤسسة العمل:

إن الأساس في العمل الإسلامي هو تحسس نهج النبي ﷺ في واقعه العملي في المرحلة المكية والحياة المدنية في مراحلها التي دارت بين التأسيس والتكوين إلىٰ مرحلة الخروج والجهاد، لمقارعة الباطل في دولته ومن خلف حصونه، فنرىٰ أن النبي ﷺ لا يهتم فقط بالعلاقات الحسية بين الأفراد وبين قيادتهم بل حتىٰ بالعواطف النفسية.. فهذا حاطب بن أبي بلتعة يهدم جانبًا من أهم الجوانب في التكوين التنظيمي، ومع ذلك يخفف عنه النبي ﷺ روعه ويهدئ من انتصار المجموعة القيادية للحق، وذلك بعد أن علم صدق المخالف وأنه لم يعمد إلىٰ هذا الفعل يبتغي الهدم والانتصار

للنفس علىٰ حساب جماعة المسلمين، بل لشبهة عرضت له.. لذلك عندما قال الغاضب للحق ـ عمر بن الخطاب رضي الله عنه: (دعني أضرب عنق هذا المنافق يا رسول الله) [(١)].. فقال له القائد العام ﷺ: «**ما يدريك يا عمر أن الله اطلع علىٰ أهل بدر فقال: اصنعوا ما شئتم فإني قد غفرت لكم!!**» [(٢)]. كان هذا البيان الرحيم الذي لمس أهداب النفس الحساسة قد أطفأ الفتنة وطمأن القاعدة بأن الفرد هو الأصل ولن يسحق ويهدد من أجل البناء التنظيمي للدولة. وكان ذلك بعد اعتراف الجندي وتوبته واستغفاره وإقراره، بقوله: (والله ما نافقت يا رسول الله)[(٣)] ثم بين الشبهة التي عرضت له.

وما أحوجنا اليوم إلىٰ قيادة إيمانية تتحسس الرضىٰ والغضب والفرح والسرور من نظرات أفرادها وزفرات تنفساتهم. وانفراج أساريرهم، وتجعدات جباههم قبل نطق ألسنتهم وانقباض قلوبهم وتحرك جوارحهم، وهذه القيادة لا توجد ولا تتكون بغياب القاعدة التي ترجع إلىٰ الحق عند تذكيرهم، وتسكب دموع الحسرة والندم علىٰ عتبة البناء الجماعي.. فإلىٰ مزيد من تعاون القاعدة مع القيادة في إيجاد الحق والسير به.

وصورة ثانية تبين حرص القائد النبي ﷺ علىٰ مراعاة نفسية الأفراد وأنه لا يتعامل مع جلمود صلب، بل مع حس مرهف يميل مع نسمات المديح إلىٰ الخير، وينكمش ويتقوقع مع تقريع التأنيب، فهذا عباد بن بشر، وأسيد بن حضير يشعر النبي ﷺ أنه أغضبهما، وهما كذلك أحسا بعدم الرضىٰ من قبل رسول الله ﷺ فيعجل النبي ﷺ ليقطع دابر الوسواس الشيطاني وذلك بعد أن علم أنهما ما قالا ـ من مقالة ـ إلا باجتهاد منهما أن ما طرحاه من رأي إنما يحبه النبي ﷺ، ففي حديث مسلم: «**أنَّ اليهود كانوا إذا حاضت المرأة فيهم، لم يُؤاكلوها ولم يجامعوهن في البيوت**»[(٤)]. فسأل أصحاب النبي ﷺ النبي ﷺ فأنزل الله تعالىٰ: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ ﴾[(٥)] فقال رسول الله ﷺ: «**اصنعوا كل شيء إلا النكاح**»[(٦)] فبلغ ذلك اليهود

(١-٣) أخرجه البخاري (٣٠٠٧)، ومسلم (٢٤٩٤) عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

(٤) أي لم يساكنوهن في بيت واحد.

(٥) البقرة: ٢٢٢.

(٦) أخرجه مسلم (٣٠٢)، وأبو داود (٢٥٨)، وأحمد (٣/ ١٣٢)، عن أنس بن مالك رضي الله عنه.

فقالوا: ما يريد هذا الرجل أن يدع من أمرنا شيئًا إلا خالفنا فيه، فجاء أسيد بن خضير، وعباد بن بشر فقالا: يا رسول الله، إن اليهود تقول كذا وكذا. أفلا نجامعهن؟ فتغير وجه رسول الله ﷺ حتىٰ ظننا أن قد وجد عليهما[1] فجيء بهدية من لبن إلىٰ النبي ﷺ فأرسل في آثارهما. فسقاهما. فعرفا أنه لم يجد عليهما [2].

العلاج الرابع: أهمية ترابط أصحاب الحركة الإسلامية في إطار واحد:

إن من أهم أسباب النصر وتحقيق الهدف وحدة الصف ووحدة القيادة ووحدة التوجيه.. فإن أهم ما تسعىٰ إليه القوىٰ الضاربة للقوىٰ الإسلامية بشتىٰ لباسها سواء أكانت بمسوح الرهبان أو بلباس القبطان تسعىٰ لتفتيت القوىٰ الإسلامية، فينظر الناظر إلىٰ نموذج الدول العربية التي يتحرك فيها الدعاة فيجد فيها أكثر من خمس وعشرين حركة كلها في نهاية لافتاتها كلمة (الإسلامية)، هكذا تتوزع الطاقات وتضيع الجهود وتبرز القيادات المتناحرة، ويضحك الأعداء علىٰ كراسيهم، وعند تدقيق النظر في هذا المتبعثر نرىٰ العاملين في الحركة الإسلامية ينقسمون إلىٰ قسمين: قسم مشربه واحد ومنابعه من منصب واحد، وتحركه لهدف واحد. وهؤلاء - إن صح التعبير - يمثلون الأعداد المتوالية في أرقام جدول الضرب فنسميهم - ٢ - ٤ - ٦ - ٨ - ٠١ - ٢١... وهكذا مضاعفات (اثنين) فنظرة كل متجرد يبحث عن نصرة الدين بعيدًا عن بحثه عن ذاته يرىٰ العامل المشترك بين هذه الفروع، فالأربعة هي مكرر الاثنين والستة كذلك وبقية الأرقام، وعلىٰ ذلك فالأصل في هذه الجماعات أن تكون في إطار واحد؛ لأن عامل الاشتراك بينها لا يختلف عليه العقلاء، فعلىٰ سبيل المثال جماعة الإخوان المسلمين لسعة انتشارها وتفرعها بأشخاصها ومؤلفاتها وكتبها في مشارق الأرض ومغاربها مع ما واكب هذا الانتشار الأفقىٰ الواسع من غياب القيادة في سجون الطاغوت الخاسر مما هيأ ظهور جماعات وجمعيات وتجمعات نشأت ورضعت من فكر الإخوان من خلال كتاباتهم أو بالاتصال مع من أنجاه الله منهم من بطش الطاغوت فتعددت هذه التجمعات بتعدد المتواليات الرياضية كتعدد الرقم (٢)، فهذه المتواليات بعد نضوج الحركة

---

(١) غضب عليهما.

(٢) أخرجه مسلم (٣٠٢) ، وأبو داود (٢٥٨) ، وأحمد (٣/ ١٣٢) ، عن أنس بن مالك رضي الله عنه.

وخروج قادتها من السجون لا يحل لها بأىٰ حال من الأحوال أن تكون في غير المخروط الواحد تحت أي تبرير كان وبأىٰ تعليل مستساغ أو غير مستساغ.

أما تجمعات القسم الثاني: والذي يمثل الأعداد الفردية بالأرقام الحسابية (واحد ـ ثلاثة ـ خمسة ـ سبعة...) فهذه في المرحلة الحاضرة لا يطلب فيما بينها وبين المتواليات أكثر من التنسيق والتعاون، وإن كان المطلب في النهاية أن تكون في نفس تسلسل الأرقام سبحة واحدة (مسباح) يربطها خيط واحد (التقوىٰ) يضمها ويرأسها شاهد واحد، فتكون سبحة منتظمة جميلة متناسقة تسبح فيها القلوب الحائرة وتخرج أنغامًا متناسقة تطمئن القلوب المؤمنة وترهب القلوب الفاجرة.

العلاج الخامس: المحاسب :

إن محاسبة النفس لذاتها المفردة أمر حرص عليه الأقدمون والمحدثون حين يؤمنون الاستمرارية بالخير والانقطاع عن الشر، فهذا الخليفة الثاني الفاروق عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: «**حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وزنوا أعمالكم قبل أن توزن عليكم**»[1].

وهذا في العصر الحديث الإمام حسن البنا ـ رحمه الله ـ يوصي بالمحاسبة عند الإيواء إلىٰ الفراش قبل النوم ويضع لذلك جدولاً مبرمجًا يعين الأخ علىٰ متابعة نفسه.. هذا في مجال متابعة الفرد لنفسه الذي بفساده وانحرافه لا يضر إلا نفسه، وإن كان الأمر له تأثير علىٰ من حوله، فلن يعدو في تأثيره علىٰ أعداد لا تكثر علىٰ أصابع اليد، ومع ذلك كان هذا الحرص علىٰ المتابعة والتصحيح والتصويب، فيكون من باب أولىٰ علىٰ الجماعة كجماعة تحاسب نفسها بمعرفة أن مواطن الصواب للاستمرار بها. ووضع اليد علىٰ أماكن الخلل لعلاجها وإزالة الأجزاء المريضة.

وهذا ما يسمىٰ بعملية « **النقد الذاتي** » ولكن من خلال المؤسسات الناصحة لا المنابر الفاضحة.

ولم لا، وانحراف المجموعة أو الجماعة هو انحراف قطاع كبير من قطاعات الحركة

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف (٣٤٤٥٩) ، وأبو نعيم في حلية الأولياء (١/ ٥٢) عن عمر بن الخطاب موقوفًا، وأودعه الألباني في الضعيفة (١٢٠١) .

الإسلامية، وتزداد الخطورة أن هذا القطاع يظن في نفسه الصواب، فيلجأ إلىٰ تأصيل انحرافه وتدعيمه بالحجج والبراهين، فتبعد الهوة، وتزداد الشقة ويصدق فيهم قول العلماء: «**إن صاحب الشبهة لا يرجىٰ شفاؤه، لاعتقاده بصواب طريقه بعكس صاحب الشهوة**» .

فإن كان الفرد في كل ليلة يحاسب نفسه فعلىٰ أضعف تقدير علىٰ الجماعة الإسلامية أن تقف في كل سنة تراجع ما هي عليه، وصدق العلماء حين قالوا: «**من قابل أمنت عثراته وقلت سقطاته**» ، أي:من قابل الكتابات التي يكتبها بالأصول التي يأخذ منها.

العلاج السادس: **بناء الحركة بالفرد**:

الحركة والعمل قوامها الفرد والمؤسسة، فإذا أحكمنا هذا، وهذا ضمنا بعد توفيق الله حسن السير وقوة الإنتاج.

ولتوضيح القضية نذكر صورة علىٰ سبيل التمثيل لا علىٰ سبيل الحصر: المؤسسة في بناء الفرد تقوم علىٰ تربيته وصياغته وفق مكونات الشخصية المسلمة التي منها تكوينه علىٰ مبدأ الصدق (الصدق مع الله، الصدق مع نفسه، الصدق مع الجماعة، الصدق مع الكون بكامله) فيكون داعية صادقا مثاله مثال السهم حيث يقال:«**رمح صدق**»، أي:لا ينثني ولا ينكسر، وهكذا الداعية إلىٰ الله -تعالىٰ- عندما يتربىٰ علىٰ الصدق يكون كالسهم الذي ينطلق فيخرق الباطن من غير انكسار عند سطح بطش الطاغوت وترهيبه وتقريعه. وكذلك من غير انثناء ولا انثلام عند سطح مغريات الباطل وألاعيبه لا تحرفه أضواء الشهوات والملذات ولا ترجعه علىٰ أصحابه أعاصير البحث عن الذات والقيادات.

وبفضل الله، فالفرد في الحركة الإسلامية يمثل في غالبه نضجا تربويا رصينًا جمع في واقعه ما هو متناقض في التفكير البشري المنطقي ، فهو يجمع ثلاثيات قابلة للنمو والازدياد، فترىٰ الداعية يجمع في نفسه دمعة المجتهد مع حدس السياسي ولباقة المناظر وانتباهة الفقيه وشجاعة المقاتل ورأفة الوالد... والناظر إلىٰ هذه المتقابلات يرىٰ بينها تناقضًا فكيف يمكن لهذا السياسي الذي يقضي وقته في متابعة الصحف ووكالات الأنباء

ومناقشة ومجاملة رجال السياسة، والعمل علىٰ إشغال الذهن في تحليل حوادث العالم المتناقضة، ثم مع هذه الصراعات يقضي ليلة متبتلا يسكب العبرات؛ليزيل عنه الظلمات، ثم يجمع بعد ذلك بين شجاعة المقاتل الذي يطيح الرؤوس ويرىٰ انتهاء وإزهاق الأرواح حين يقاتل الكفار، ثم إذا التقىٰ مع إخوانه من المسلمين تحول ذلك القلب إلىٰ قلب رحيم ودود... وقس علىٰ ذلك.

وهذا ليس بدعا من الأمر بل كان أسلافنا ـ رضوان الله عليهم ـ يوصفون بأنهم: رهبان بالليل فرسان بالنهار، فالجيل القرآني الفريد يتكرر بأفراده كلما تكررت عوامل تكوينه.هذا في مجال الإعداد الفردي .

أما في جانب التنظير، فهو متأخر بالنسبة للإعداد الفردي ، ولتوضيح هذه المسألة نأخذ نفس المثال «**سهم الصدق**» فلو انطلق كل سهم بمفرده سيخدش كل واحد منها شيئًا من الجدار ثم ينثني ويسقط، فيكون في الجدار خدوش هنا وهناك وتحته سهام منثلمة أو منكسرة، فيظل السهم ساقطًا وتذهب الثلمات الموجودة في الجدار بتعاقب الزمان، ولكن إذا اجتمعت السهام وانطلقت انطلاقة واحدة علىٰ نقطة واحدة فهي بمشيئة الله خارقة، وعلىٰ ذلك، فبعد صياغة الفرد لابد من التلاحم والتآزر.

هذه نظرات اجتماعية للوصول للأحسن في العمل الإسلامي قابلة للأخذ والعطاء، المراد منها دعوة أصحاب الحركة الإسلامية إلىٰ النظر إلىٰ حركتهم والاعتناء بها، والعمل علىٰ تقويمها قبل النظر إلىٰ تجميع الناس وتكثير الأعداد، ورحم الله عمر بن عبد العزيز عندما تولىٰ زمام الخلافة قيل له: ألا تفتح البلاد وتسلم الناس وتدخلهم في دين الله من النصارىٰ والوثنيين.. فنظر إلىٰ من حوله من جموع المسلمين فوجدهم منصرفين عن حقيقة الإسلام ومعانيه فقال: «**بل أعمل علىٰ تسليم من أسلم**».

فلينتبه إلىٰ ذلك من يقول: «**كم لا كيف**» وليتقوا الله ربهم وليرجعوا إلىٰ منابعهم وأصولهم.

وفي هذه العلاجات لا يسعني إلا أن أطلب ممن قرأ أن ينظر إلىٰ الكلام لا إلىٰ قائله، فإن كان حقًّا قبله وإن كان غير ذلك رده، كما قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ متحدثًا عما كتبه

في «**المدارج**»:

فيا أيها القارئ له، لك غنمه وعلىٰ مؤلفه غرمه. لك ثمرته وعليه تبعته، فما وجدت فيه من صواب وحق فاقبله، ولا تلتفت إلىٰ قائله، بل انظر إلىٰ ما قاله لا إلىٰ من قال، وقد ذم الله ـ تعالىٰ ـ من يرد الحق إذا جاء به من يبغضه. ويقبله إذا قاله من يحبه. فهذا خلق الأمة الغضبية، قال بعض الصحابة: «**اقبل الحق ممن قاله وإن كان بغيضا، ورد الباطل علىٰ من قاله وإن كان حبيبـًا** »[١] وما وجدت فيه من خطأ: فإن قائله لم يأل جهد الإصابة، ويأبي الله إلا أن يتفرد بالكمال، كما قيل:

والنقص في أصل الطبيعة كامن   فبنوا الطبيعة نقصهم لا يجحد

وكيف يعصم من الخطأ من خلق ظلومـًا جهولاً؟ ولكن من عُدت غلطاته أقرب إلىٰ الصواب ممن عُدت إصاباته.

وعلىٰ المتكلم في هذا الباب وغيره أن يكون مصدر كلامه عن العلم بالحق وغايته النصيحة لله ولكتابه ولرسوله ولإخوانه المسلمين، وإن جعل الحق تبعًا للهوىٰ. فسد القلب والعمل والحال والطريق، قال الله تعالىٰ: ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ﴾[٢].

وقال النبي ﷺ: «**لا يؤمن أحدكم حتىٰ يكون هواه تبعًا لما جئت به**»[٣] فالعلم والعدل: أصل كل خير. والظلم والجهل: أصل كل شر. والله تعالىٰ أرسل رسوله بالهدي والدين والحق. وأمره أن يعدل بينهم ولا يتبع الهوىٰ هوىٰ أحد منهم، فقال تعالىٰ: ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ ۖ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ ۖ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن

---

(١) أخرجه ابن عساكر في تاريخ دمشق (٣٦/ ٢٦٩) عن عبد الله بن مسعود مرفوعًا، وقال الألباني في ضعيف الجامع (٩٢٣)، والضعيفة (٢٨١٥): «موضوع»، وأخرجه الطبراني في الكبير (٩/ ١٢) (٨٥٣٥) عن معن بن عبد الرحمن، عن عبد الله بن مسعود موقوفًا، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/ ٢٣٥): «رواه الطبراني ورجاله ثقات إلا أن مَعْنًا لم يدرك ابن مسعود».

(٢) المؤمنون: ٧١.

(٣) أخرجه الحكيم الترمذي في نوادر الأصول (٤/ ١٦٤)، والديلمي في الفردوس بمأثور الخطاب (٧٧٩١) عن عبد الله بن عمرو، وقال الألباني في ظلال الجنة في تخريج السنة لابن أبي عاصم (١٥): «إسناده ضعيف».

كِتَٰبٍۖ وَأُمِرۡتُ لِأَعۡدِلَ بَيۡنَكُمُۖ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمۡۖ لَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡۖ لَا حُجَّةَ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُۖ ٱللَّهُ يَجۡمَعُ بَيۡنَنَاۖ وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ﴿١٥﴾ ﴾[1].

العلاج السابع: انغماس ومشاركة علماء الشريعة في الحركة الإسلامية:

في هذا العلاج نعلن بجميع موجات البث الإعلامي المسموعة منها والمرئية والمقروءة، الطويلة والقصيرة والمتوسطة: « **يا علماء الشريعة مكانكم في أوساط الدعاة فلا تبخلوا ولا تجبنوا ولا تضعفوا ولا تركنوا**» نعم من خلال الحركات الإسلامية يتم التغيير والإصلاح، فهي الأبواق التي بنت الحوادث صلابة معدنها، ونقاء سريرتها، وصدقها مع ربها بعد أن تكشفت الأنظمة الزائفة، والدمىٰ المتحركة والقطرات الخادعة، والأطعمة الفاسدة بعد أن انكشفت الأيدي الصانعة للفطير اليهودي بالدماء العربية المسلمة.

فيا علماء الشريعة، أنتم ورثة الأنبياء ، فالأنبياء لم يورثوا درهمًا ولا دينارًا ولا علمًا خاملاً كسولا ، بل علمًا وعملاً وفهمًا وحركة، قلمًا وسيفًا .

فالجهاد والحركة والدعوة والعمل تحتاج إلىٰ إيمان وخشية وهذه قد قررها الله للعلماء : ﴿إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْ ﴾[2]، فلا تتركوا إدارة العمل من داخله وترضوا بما يخططه أعداء الله لكم من بقائكم خارج إطار التوجيه والتقنين وحصر نشاطكم في خطبة الجمعة ونواقض الوضوء وشروط الصلاة، فكما أن هذا من واجبكم، فكذلك من ضروريات مهامكم المحافظة علىٰ سير الحركة في حدود الفهم الإسلامي . وهذا الأمر يستلزم صمام الأمان الشرعي الذي لا يملكه إلا أصحاب القلم الشرعي الذين بتغيبهم سيتولىٰ زحام التقنين من هم ليسوا أهلا لذلك، فيعمدون إلىٰ تقديم عقولهم علىٰ الشرع، فيجعلون العقل بمثابة شاهدي عدل، والشرع بمثابة الشاهد الزائد الذي يستأنس به فقط، وفي هذه اللحظة تبدأ الحركة الانحراف، وتأخذ في التخبط والحيرة فلا هي التي التزمت منهج ربها ولا هي التي سارت علىٰ منهج البشر؛ لأنه من المقرر نقلاً وعقلاً أن

---

(١) الشورىٰ: ١٥، وانظر: المدارج٣/ ٥٢٢، ٥٢٣.

(٢) فاطر : ٢٨ .

من لا يحسن الالتزام بشريعة المصطفي ﷺ ليس أهلاً لحمل رسالته.

العلاج الثامن: الالتزام الصحيح:

﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾ ﴾[1]..هذا البيان الإلهي ردده يوسف، ومن قبله، ومن بعده من الأنبياء عليهم السلام، ونردده اليوم نحن ورثة الأنبياء...فهو النور والوضوح والجلاء في الدعوة بدون مماراة وتطبيب على الأكتاف وخلط في المستقى والإعطاء ...، إنها دعوة الله تبارك وتعالى وهو المتكفل سبحانه بها وقد ألزم نفسه بحفظها، فقال: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾ ﴾[2].

وعلى هذا الذي سلف ذكره فعلى الدعاة اليوم أن يعرضوا الإسلام كما أمر الله وبالذي أمر الله بدون خلط... يعرضونه بإخلاص مبتغين من عملهم وجه الله ـ تبارك وتعالى ـ وجناته، لا يبتغون مدحًا ولا ثناء، يتخلصون من حظوظ أنفسهم، لا ينتظرون نتاج دعوتهم في الدنيا ولا يأملون حتى تحقيق نصر هذا الدين في حياتهم... وهذا هو ما كان يربي الله ـ تبارك وتعالى ـ نبيه ﷺ عليه فيقول سبحانه: ﴿ وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ ﴾[3] أي:من العذاب والهزيمة ﴿أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ قبل أن نريك هزيمة الكفار ونصر المؤمنين.وعلى ذلك فالدعاة إلى الله غير محاسبين على ما يحققون من النصر...، وليس لهم أن يستعجلوا خطوات الحركة، يسيرون كما أمرهم الله ـ سبحانه وتعالى ـ بدون مهادنة أو تباطؤ، وأن يبتغوا بذلك كله وجه الله وتحصيل مثوبته ورضوانه، وأن يصدقوا في التوجه وحسن الاستعداد في مواجهة المجتمع الجاهلي الذي يخطط في الليل والنهار في القضاء على نور الإسلام، ولكن يأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون.

العلاج التاسع: إيجاد الحماسة في نفوس الشباب:

إن الشباب الذين يتخبطون في الظلمات يُنادون الدعاة لإنقاذهم من الظلمة التي

(١) يوسف:١٠٨.
(٢) الحجر: ٩.
(٣) يونس: ٤٦.

يعيشون فيها وحتىٰ يستطيع الدعاة ذلك لابد لهم من الحماس الذي يدفعهم للتحرك والسهر الجد للأخذ بأيدي التائهين إلىٰ الطريق المستقيم.

فلابد للدعاة من حماسة تحرك نفوسهم ومشاعرهم وقلوبهم لهذا الدين حماسة لإنقاذ البشرية من الضلالة والغي إلىٰ طريق الهدي والخير، حماسة لأولئك المسلمين الذين يعذبون في بقاع الأرض.

وهذه الحماسة تُزرع من خلال:

١ ـ الإسلام بشموله ومدىٰ صلاحيته للبشر.

٢ ـ التفكير بالواقع المرير الذي نعيش فيه وبعده عن الإسلام، وكيف ننقذه.

٣ ـ الاطلاع علىٰ التاريخ الإسلامي الذي اعتز به المسلمون الأوائل.

٤ ـ حاجة الناس في وقتنا الحالي إلىٰ الإسلام.

٥ ـ إيجاد الفهم الدقيق للإسلام بأن تتوافر العقلية المبتكرة للدعوة، العقلية المرنة التي تستطيع أن تتصرف في أي وقت، وأي موقف من المواقف الحساسة.

٦ ـ الإيمان العميق: فهو الركيزة التي يرتكز عليها الحماس.

العلاج العاشر: بناء رجل الدعوة:

من المسلَّم به أن قوة الأساس في بنيان يتناسب طرديا مع الثقل الذي سيقام عليه ولما كان حمل الدعوة الإسلامية هو أثقل ما يمكن أن يحمله الإنسان فلابد أن يكون لحملة الدعوة من القوة والصلابة ما يجعلهم أهلاً لحمل هذه الدعوة العظيمة.

فإذا ما تخللت هذا الأساس بعض الفجوات والثغرات، فلابد حينئذ من العمل بسرعة علىٰ سدها وإحكامها قبل الخروج إلىٰ المجتمع. أما إذا خرجنا وفي القاعدة شيء من التخلخل والضعف فسرعان ما يظهر العيب ويتخلخل البناء وتمتد الأيدي لإزالته.

العلاج الحادى عشر: أهمية وجود المربي :

لابد للداعية من أن يجعل من نفسه أداة تربوية تربىٰ الناس بصغار الأخلاق وكبارها، مستنيرة بالقرآن الكريم وهدي الرسول ﷺ، فهو شجرة أصلها ثابت وفرعها في السماء، فالمربي ليس بدعًا من الأمر، فهو عنصرٌ مهم في مهمة الأنبياء، فهذا كعب بن مالك رضي الله عنه

يصف لنا بيعة العقبة الثانية ـ البيعة التي أغاظت الشيطان واهتزت منها قريش ـ فيقول: «**بعد أن اجتمع النفر من الأوس والخزرج برسول الله ﷺ وأخذ كل منهم من الآخر ما أراد لدينه ولنفسه، قال لهم ﷺ:«أخرجوا إليّ منكم اثني عشر نقيبًا ليكونوا علىٰ قومهم بما فيهم**» فلما بايعهم خاطبهم قائلاً: «**أنتم كفلائي علىٰ قومكم ككفالة الحواريين لعيسىٰ ابن مريم علىٰ قومهم**»[(١)] إذن فسلالة الدعوة ونهج الحركة وسبيل التربية الربانية اتخاذ كفلاء علىٰ الأفراد يقومون بتربيتهم وتقويمهم علىٰ ما يحب الله ويرضىٰ.. وهذه الكفالة هي نوع من المواثيق حيث لها شروط وجزاء... وذلك ما بينه الله بالنسبة لبني إسرائيل في سورة المائدة فقال سبحانه وتعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا ۖ وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مَعَكُمْ ۖ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِى وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٢﴾﴾[(٢)]، بهذه الآية الواحدة بين الله ميثاقه مع بني إسرائيل فبين أنه ميثاق بين طرفين متضمن شرطًا وجزاء.. وقد كان الميثاق مع نقباء بني إسرائيل الذين يمثلون فروع بيت يعقوب وعدتهم اثنا عشر سبطًا.. ثم كان الميثاق مع النقباء ومن هم من ورائهم، وهذا الميثاق له شروط إقامة الصلاة ـ وتمثل حقيقتها وإيتاء الزكاة زكاة المال والقلب، زكاة العلم والمعرفة، ثم الإيمان بالرسل والتصديق بهم وبما أَتَوْا به ثم بعد ذلك النصرة لمنهجهم ولطريقهم وللدعوة التي يعملون بها، وذلك بإقراضهم ومنحهم المال والنفس...هذه هي الشروط وما أسهلها علىٰ من يسرها الله عليه ثم الجزاء واضح يؤخذ حتىٰ من نفس الشرط ﴿وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾[(٣)] فمن طبيعة القرض أنه يرجع إلىٰ صاحبه. فكيف سيرجع هذا القرض ومتىٰ سيرجع؟ إنه في الدنيا والآخرة حيث هو سبب تكفير للذنوب ودخول الجنات.. هذا جزاء من أوفىٰ بالعهد.. أما من

(١) أخرجه ابن إسحاق كما في السيرة النبوية لابن هشام (٢/ ٢٩٤)، وابن جرير في تاريخه (١/ ٥٦٢)، عن عبد الله بن أبي بكر بن عمرو بن حزم مرسلاً، وضعفه الألباني في تخريجه لفقه السيرة للغزالي ص (١٥٠).
(٢) المائدة: ١٢.
(٣) المائدة:١٢.

خان العهد، فالنتيجة واضحة، فهي الخسران في الدنيا والآخرة وذلك هو الخسران المبين.

وعلىٰ ذلك فاحرص ـ أخي ـ علىٰ أن تكون عند حسن الظن فيك، وخير خلف لخير سلف، مستعينًا علىٰ التربية بالفهم الدقيق والإيمان العميق، والعمل المتواصل مرددًا ما كان يردده الإمام حسن البنا ـ رحمه الله:

قد رشحوك لأمر لو فطنت له فاربأ بنفسك أن ترعىٰ مع الهمل

واعلم أنه ما من عمل هام إلا وله حساب يضبط ربحه وخسارته وكذلك حياة المسلم العقائدىٰ الذي اتصل بالله ـ تعالىٰ ـ في كل صغيرة وكبيرة.. فالمربي هو الذي لا يلقي مشكلاته علىٰ الغير بل يتهم بها نفسه، وقد قال نابليون في منفاه بجزيرة القديس «**هيلانه**»: «**لا أحد سواي مسؤول عن هزيمتي**» . فكن أخي المربي واعيًا لهذا المسألة عند جلستك مع نفسك للحساب وإياك أن تلقي اللوم علىٰ غيرك، فإن ذلك بداية الوهن، واعلم ـ أخي ـ أن عمارة دار جديدة علىٰ أنقاض دار قديمة، لا يتم طفرة، ولا يتم في ارتجال وإهمال.. فأنت اليوم ـ أخي ـ المربي قد بدأت بإنشاء نفوس جديدة تعمل معك، وبدأت بتربية نفسك علىٰ أنماط إيمانية جديدة لم تكن قد تعودت عليها، فلا تستعجل النتيجة ولا تطلب الثمر قبل أن ينضج، فتحصد مرًّا وتجني خسارة، ولكن تذكر أننا نريد بالمكث ما نريد بالحث، فاعقد النية ـ أخي ـ المربي علىٰ أن تبدأ صفحة جديدة من حياتك عنوانها الهمة والجهاد المتواصل الذي لا هوادة فيه، واجعل ذلك ينبع قبل كل شيء من داخل نفسك المتقدة بالإيمان وابتعد عن التسويف، فإن الموت يأتي بغتة.. واعلم «**أن الله يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل**»[(١)] .

فما أجمل أن يعيد الإنسان تنظيم نفسه بين الحين والحين وأن يرسل نظرات ناقدة في جوانبها، ليتعرف عيوبها وآفاتها، وأن يرسم السياسات القصيرة المدىٰ والطويلة المدىٰ، ليتخلص من هذه الهفوات التي تزري به.. والإنسان المسلم أحوج الخلائق إلىٰ التنقيب في أرجاء نفسه وتعهد حياته الخاصة والعامة بما يصونها من العلل والتفكك. وصوت

(١) أخرجه مسلم (٢٧٥٩)، وأحمد (٤/ ٣٩٥)، عن أبي موسىٰ الأشعري رضي الله عنه.

الحق يهتف في كل مكان؛ليقرر حقيقة التوبة، وتجديد الحياة، كما قال ﷺ: «**إذا مضىٰ شطر الليل، أو ثلثاه، ينزل الله ـ تبارك وتعالىٰ ـ إلىٰ السماء الدنيا فيقول: هل من سائل فيعطىٰ؟ هل من داع فيستجاب له؟ هل من مستغفر فيغفر له، حتىٰ ينفجر الفجر**»(١).

فحياة الإنسان من صنع أفكاره، كما نتبين ذلك من عيادة النبي ﷺ للأعرابي في مرضه حيث رآه يتلوىٰ من شدة الحمىٰ فقال له مواسيًا ومشجعًا «**طهور**» فقال الأعرابي: بل هي حمىٰ تفور، علىٰ شيخ كبير لتورده القبور(٢).

فقال له ﷺ: «**فهي إذن**» ولتتضح هذه القاعدة نذكر هاتين الآيتين: ﴿وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٩٨﴾﴾(٣) ﴿وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِ ۚ أَلَآ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ ۚ سَيُدْخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِي رَحْمَتِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٩﴾﴾(٤).

هؤلاء وأولئك يدفعون المال المطلوب، ولكن القسم الأول يتخذونه غرامة مؤذية مكروهة ويتمنون العنت لقابضيه، والقسم الثانىٰ يتخذونه زكاة محبوبة تطيب النفس بأدائها، وتطلب الدعاء الصالح بعد إيتائها.

وشؤون الحياة كلها لا تعدو هذا النطاق، فكن ـ أخي ـ صاحب الآية الثانية في تحركك وإنفاقك وعملك.. واعلم أن كل إنسان غاد، فبائع نفسه فمعتقها أو مهلكها، وأن جميع الناس في كدح ونصب ولكن كدحًا في الجنة وكدحًا في النار.

العلاج الثاني عشر: زيادة الفهم والفقه للدعوة:

لقد أثبت الواقع أن الدعاة بحاجة إلىٰ ما نطلق عليه الآن مصطلح «**فقه الدعوة**» والذي نعني به «**الفهم والإدراك العميق لماهية الدعوة الإسلامية وحقيقتها وسبيلها ومقتضياتها**» حيث إن فقه العمل لدعوة الله لا يقتضي منه أن يعمل علىٰ ترديد نظريات العمل الإسلامي في جوانبه المتعددة من تربية وتخطيط وتنظيم... إلخ بكلمات تنطق

(١) أخرجه مسلم (٧٥٨) عن أبي هريرة رضي الله عنه.
(٢) أخرجه البخاري (٣٦١٦) عن ابن عباس رضي الله عنهما.
(٣) التوبة: ٩٨.
(٤) التوبة: ٩٩.

ولكن بترجمة ذلك إلىٰ وقائع محسوسة يسهم في الدفع المباشر والتطوير الفعلي والكسب الحقيقي لذلك العمل.

وهنا استعراض لبعض الجوانب التي يجب أن يفقهها الأخ وهو في مجال تحركه في الدعوة:

* أن يفقه أن العمل الإسلامي ليس هو المعلومات بذاتها بقدر ما هو تعويد الأخ نفسه علىٰ أن يبذل قواه العقلية والجسمية، وينفق ماله وجهده ضمن خطة الدعوة ولتحقيق أهدافها.

* أن يفقه حق الفقه طبيعة مهمته، وأدوار الدعوة ومراحلها.

* وأن يكون تفكيره ليس مجرد تفكير نظري ليس له رابط بواقع الدعوة ومشاكل الطريق، وإنما يكون تفكيرًا عمليًا يتلمس الحلول الواقعية المناسبة، وليس هذا فقط، وإنما فقه يحمل معه قوة دافعة ذاتية تدفع الأخ دفعًا سريعًا للمشاركة في إحلال هذه الحلول موضع التنفيذ.

* وإن من الفقه أن يسلك الأخ بنفسه وبمن معه من إخوانه المسلك الذي يبرز ويرسخ شعورهم بشمول الدعوة وما يقتضيه هذا الشمول من لزوم الجمع بين الأمور الروحية والسياسية والتنظيمية والعلمية جميعًا، دون الاصطباغ باتجاه واحد.

أن يربط يوميات نشاطه وإخوانه وتفكيرهم والوقائع الجزئية والكبيرة في حياتهم الإسلامية بأهداف الدعوة.

* أن يركز جهوده وإخوانه للوصول بالعمل الإسلامي إلىٰ درجة حسنة من المتانة، وبالتربية الروحية والأخلاقية إلىٰ عمق كبير، وبالوعي السياسي إلىٰ نضج كاف، وبالفكر الإسلامي إلىٰ صفاء كامل لا تشوبه شائبة مهما لاقت من ترهات الفلسفة والمشاعر والمبادئ الأرضية.

وهذا البناء القاعدي لا يقوم إلا ببذل كل ما هو غال ونفيس، وأن يجعل كل أخ من نفسه حاميًا للدعوة يسارع لمكافحة كل كلمة تخرج من أي فم تعمل علىٰ إحداث

الخلل في الجبهة الداخلية، وهذا الأمر كان يفقهه السلف ـ رضوان الله عليهم ـ فهذا أحد جنود خالد؛ بن الوليد عند فتح الشام يقول: ما أكثر المشركين وأقل المسلمين. وهنا يغضب خالد؛لأنه يعلم أن مثل هذا الكلام يفت في عضد الجند ويخذلهم؛ ولذلك صاح قائلاً: «**إنما تكثر الجنود بالنصر وتقل بالخذلان لا بعدد الرجال**»(١).

ولذلك علىٰ المربي أن يكون غاديًا رائحًا همه عظيم، وهمته أعظم، فإن كان هناك تفكير فللدعوة، وإن كان هناك مال فلها حتىٰ ينظر الناظر إليه فيقول: لقد خالط هذا الرجل أمر عظيم.

(١) أخرجه ابن جرير الطبري في تاريخه (٢/ ٣٣٧)، ونقله الحافظ ابن كثير في البداية والنهاية (٧/ ٩).

ثالثا: وقفات لأصحاب الدعوة

إن السائر في طريق الأنبياء، والسالك معالم الطريق يستعد لمواصلة السعي والمسير، وكلما كان الطريق طويلاً كانت المحطات كثيرة، وإن اقتطاعك أخي الكريم من وقتك لقراءة الصفحات يُمثل من نفسه وقفة من وقفات الزاد، أما الاستفادة مما هو مكتوب والتفاعل معه من واقع عملي يومي، فهذا مما يتفاضل فيه الناس، ثم إنه بقدر أخذنا من زاد الطريق ـ سواء الذي في هذه الصفحات أو في غيرها مما هو معروف لدىٰ أصحاب الطريق ـ نصبر أو لا نصبر، نثبت أو لا نثبت، نصفو أو لا نصفو، نعلو أو لا نعلو، فمن أوليات الأخذ في مثل هذه المحطات ـ الصبر، والعلو، والصفاء، والثبات والإخاء ـ وعيش الدعاة اليوم في هذه المجتمعات المتخبطة يحتم عليهم أن يقفوا في واحات الخير ومنابع النور التي تمثل الكتابات الإسلامية شيئًا منها، فهم يحتاجون إلىٰ صبر لمواصلة الطريق، وإلىٰ علو يعتلون به علىٰ الجاهليات المتضاربة، وإلىٰ صفاء في العقيدة والسلوك والمنهج لا يضره سحاب الجهل ولا يعكره غبار المادة.

فإلىٰ هذه المحطة وإلىٰ وقفاتنا الفكرية، فإن كان بها خير فخذ، ولا تنظر إلىٰ قائلها، وإن لم يكن بها فائدة، فأعرض عنها وتجاوز صفحاتها.

الوقفة الأولى: الاتعاظ بالواقع:

الإنسان في اليوم والليلة تمر عليه صور كثيرة عليه أن يتعظ بها ويربطها في واقعه، وعلىٰ سبيل التمثيل نذكر هنا حوادث نمر بها كل يوم وكيفية أخذ الدروس منها:

الحادث الأول:

استوقفتني إشارة الضوء الأحمر، وإذا ببائع الجرائد ينطلق بحركات رشيقة ينظر في الوجوه ويقرأ حركات العيون ليبيع هذا وذاك، ثم يلتفت إلىٰ إشارة الضوء الأحمر، هل ما زال هناك وقت للبيع؟! فيجري لاهثًا إلىٰ آخر في آخر الطابور، ويتمنىٰ لو أن الإشارة أعطته نصف دقيقة أخرىٰ؛ لأنه يسمع صوت بوق سيارة أخرىٰ بعيدة تناديه، ولكن هيهات فقد أضيء الضوء الأخضر، وانطلقت السيارات من جديد، وعاد بائع الجرائد

يسير فوق الرصيف متجهًا نحو الإشارة؛ليبدأ من جديد.

فقلت في نفسي: اللهم اجعل حرص الدعاة إلىٰ الله كحرص هذا علىٰ الوقت، وخاصة نحن في زمان ذهب فيه وقت النوم والكسل والنصر فيه للعاملين.

الحادث الثانيٰ:

عندما كنت أسير بسيارتي ببطء، إذ نظرت من بعيد إلىٰ إشارة الضوء الأخضر، فإذا بي أزيد من سرعة السيارة وأحس بأمل الاجتياز يدفعني أكثر فأكثر قبل أن يضيء النور الأحمر، ولكن بعد لحظات تلاشىٰ الدافع للإسراع، وانقطع أمل الاندفاع وخفت سرعة السيارة، حتىٰ وقفت تحت الإشارة وهي تنظر إلينا بعينها الحمراء، فتذكرت ساعتها السير علىٰ الصراط يوم القيامة، يوم أن يمر عليه العبد الصالح، فيجتاز العقبات والكلاليب، وكلما اجتاز واحدًا منها ازداد عنده الأمل بالاجتياز وبالوصول إلىٰ الجنة، فيزيد سرعته واندفاعه، وهكذا كلما اقترب من الوصول إليها زاد الأمل الدافع، حتىٰ يكون كالبرق في سرعته.

أما العبد الشقي، فإنه كلما أقبل علىٰ عقبة نظر إلىٰ ذنوبه وتقصيره، فانقطع أمله بالوصول والاجتياز، فخفت سرعته كالناظر إلىٰ الضوء الأحمر من بعيد حتىٰ إذا وصل لم يستطع أن يتقدم خطوة واحدة إلا بإذن الضوء الأخضر رمز السلامة والوصول.

الوقفة الثانية : استشعار صعوبة العملية التربوية:

إن من أشق الأشياء وأصعبها هي العملية التربوية؛ وما ذاك إلا لأنها تتعامل مع نفوس لا يحكمها قانون محدد يسير عليه، حيث إن كل نفس لها تشكيلها الخاص بها، ومن ثم الوسيلة الخاصة لمعالجتها هي التي تنفع وتفيد، فبينما تجد التصريح بالنصيحة هو الأنفع والأجدىٰ مع زيد، تجد التلميح أنفع وأجدىٰ مع عمرو؛ وحيث تجد رسالة رقيقة هي السبيل لعلاج عيب أخيك تجد السبيل إلىٰ آخر أن تشاطره همومه وتضع عن كاهله بعضًا من مشاكله التي عاناها.

وهكذا الناس في تمايز ظاهر في القدرات والميول، فتجد صاحب الاتجاه العلمي، والآخر صاحب التجميع والتكاثر، والثالث له قدرات رياضية، والرابع كشفية، وعلىٰ

المربي هنا أن يعطىٰ كل واحد حسب ميوله.... وهذا الأمر ليس بالسهل، ولذلك نرىٰ من الأخطاء أن المربي يزج بإخوانه في المجال الذي هو بارز فيه وتجده يدندن حوله ويكثر فيه، وهذا قد يؤدي إلىٰ ملل من يوجهه وخاصة إذا كان الأخ ضعيفًا فطريًا بالناحية التي يبرز فيها مربيه.

وهذا المنهج خلاف هدي الرسول ﷺ حيث كان يعطي كل واحد علىٰ حسب قدراته وميوله فيقول لفلان: «**لا تغضب**»(١) وللآخر: «**إن الله يحب فيك خصلتين**»(٢). ولأبي ذر: «..**لا تأمرن علىٰ اثنين ولا مال يتيم**..» (٣) ويعطي أبا دُجانة السيف(٤) والصحابة يعتقدون أن هناك أفضل منه ثم يتضح لهم غير ذلك، ويأتي لعبد الله بن مسعود ويطلب منه أن يقرأ القرآن عليه(٥).. ويعذر حسان من المعارك ولكن في الشعر يقول له: «**نافح ومعك روح القدس**»(٦) ويولىٰ خالدًا الجيش وهناك من هو أتقىٰ وأقدم منه.. ويقول: «**نعم الرجل عبد الله لو كان يقوم الليل**..» (٧) ويقول: «**مسعر حرب لو كان معه رجال**...» (٨) وتجده ﷺ لا يعذر ابن أم مكتوم في الحضور لصلاة الجماعة(٩) ويأتيه رجل آخر أقل من ظروف ابن أم مكتوم فيعذره ويجيز له الصلاة في بيته(١٠).

فإذن أخي المربي كل إنسان يسر لما خلق له ففتش في نفسية أخيك وحاول اكتشاف مواهبه وقدراته، ثم وجهه علىٰ حسب تلك القدرات والمواهب. واحذر أن تكلفه في نواح هو قليل القدرات فيها ومن ثم تفتح عليه وعليك بابًا للشيطان فيقع هو فريسة

---

(١) أخرجه البخاري (٦١١٦)، وأحمد (٢/ ٤٦٦) عن أبي هريرة رضي الله عنه.
(٢) أخرجه مسلم (١٧) عن ابن عباس رضي الله عنهما.
(٣) أخرجه مسلم (١٨٢٦) عن أبي ذر رضي الله عنه.
(٤) أخرجه مسلم (٢٤٧٠)، وأحمد (٣/ ١٢٣) عن أنس بن مالك رضي الله عنه.
(٥) أخرجه البخاري (٤٥٨٢)، ومسلم (٨٠٠) عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.
(٦) أخرجه مسلم (٢٤٩٠) عن عائشة رضي الله عنها.
(٧) أخرجه البخاري (١١٢٢)، ومسلم (٢٤٧٩) عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.
(٨) أخرجه البخاري (٢٧٣١، ٢٧٣٢) عن المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم.
(٩) أخرجه أبو داود (٥٥٢)، وابن ماجه (٧٩٢)، وأحمد (٣/ ٤٢٣) عن ابن أم مكتوم، وقال الألباني: «حسن صحيح»، وأخرجه مسلم (٦٥٣)، عن أبي هريرة وليس فيه تعيين الأعمىٰ بابن أم مكتوم.
(١٠) أخرجه أبو داود (٢٤٥٩)، وأحمد (٣/ ٨٠) عن أبي سعيد الخدري، وصححه الألباني.

الأوهام أنه غير كفء وناقص...، وأنت قد يفتر حماسك تجاه أخيك حين تنتقصه نتيجة المهمة التي وكلته بها ثم لم ينجزها.

وثمة حقيقة لا تقل عن السابقة ألا وهي «**التعامل القلبي في العملية التربوية**». فأني للتربية أن تؤتي ثمارها والأخ لا يحس من مربيه صلة قلبية فيها معاني الأخوة والمحبة، ولا يشاهد منه الحرص والتفقد لأحواله، فإنه مما لاشك فيه أن الأخ حين يجد أنه يعيش مع نفسه في مشاكله، ثم لا يجد من أخيه المربي إلا الرسميات والمهام وهذر الكلام وبعد ذلك المحاسبة والتدقيق والتأنيب فهذا أمر خطير، ولتوضيح ذلك نذكر أمثلة:

١ ـ قال لي أحد المربين: أنه ابتلىٰ بأخ جافي الروح خشن المعاملة مع إخوانه فأخذ يذكره ويعظه، ولكن بدون جدوىٰ، وبعد ذلك تعرف علىٰ مشكلته ألا وهي حاجته الملحة للزواج، فسعىٰ المربي في البحث له عن زوجة صالحة ووفر له المال الكافي ووجهه في أمور زواجه في جميع مراحله، وإذا بالأخ يتغير تغيرًا ملحوظًا يبشر بنتائج طيبة وإذا الولاء والمحبة والطاعة في نمو مضطرد، فسبحان مغير النفوس.

٢ ـ ويقول آخر: إليك هذه التجربة التي عشتها مع أحد الإخوة الجدد:

لما أراد الله لي الخير، ساق لي أخـًا يحتاج إلىٰ علاج مكثف عميق في ميزان كبير من موازين العمل في حقل الدعوة.

وأخي الجديد ـ ثبته الله ـ كان يعتبر السمع والطاعة في العمل الإسلامي ذلة ومهانة، ويعتبر الأمر الصادر من أخيه المربي ما هو إلا تحكم منه يجب مخالفته، فاستعنت بالله علىٰ علاجه وتبرأت من حولي وقوتي وظللت زمنـًا طويلاً أدعو الله أن ينصرني علىٰ شيطانه وأن يؤلف بين قلبي وقلبه.

واقترب يوم اللقاء، فلما رأيته أقبلت إليه إقبال المسافر الغريب إذا عاد إلىٰ أهله فرآهم، فالتزمته طويلاً، وتذكرت ساعتها التزام عمر بن الخطاب لعمير بن وهب الذي جاء ليقتل النبي فهداه الله إلىٰ الإسلام، فقال النبي ﷺ: «**خذوا أخاكم وعلموه أمور**

دينه»[١]، فقام عمر والتزمه بعطف وحنان، وقد كان منذ لحظات يجره من رقبته إلىٰ النبي ﷺ.

المهم، جلسنا معًا وتبادلنا الحديث وبدأت أعطيه الدواء علىٰ دفعات، ابتسامة قبل الحديث وبعده، ومصافحة وداع يرسل القلب من خلالها شحنات المحبة والثقة التي تحثه أشواقها إلىٰ لقاء جديد.

وبعد أسابيع معدودة رآني له أبا في الرعاية، وأخًا في النصرة، وصديقًا في الوفاء فلم يتمالك نفسه حتىٰ قال: «**يا أخي في الله إني أحبك أكثر من أهلي وأرحامي**».

عندها حمدت الله علىٰ ذلك، وعلمت أنه هو الذي ألف بين قلوبنا.

وتمت بحمد الله زراعة المحبة والثقة في نفسه، وبدأ موسم زراعة جديد.

إنها بذور الموازين، موازين العمل في حقل الدعوة، وعلىٰ رأسها ميزان السمع والطاعة في المنشط والمكره، ولم تجد البذور الطيبة صعوبة في النمو؛ لأن أرض القلب كانت محروثة بالمحبة والثقة.

ومر عام وأنا معه لا يراني إلا وأنا أتفقده، أو أسال عن حاله وأهله، أو أنصح له في دنياه وآخرته حتىٰ غدت أفراحه وأحزانه أحزاني وأصبح عندي، كاللحم المحيط بالقلب.

وجاء وقت الحصاد، فإذا به يعلمني بسلوكه كيف يحترم المربي، وببذله وسخائه كيف يكون الإنفاق، ثم جاءت اللحظة الحاسمة، التي ستكشف بالأشعة الملونة إن كان هناك شيء باق من الداء القديم، جاءت لحظة تحويله إلىٰ مربٍّ جديد وإلىٰ محضن جديد.

واعترض باقي أخوته في المحضن التربوي علىٰ هذا التحول وأخذوا يطالبون بشدة للبقاء سنة أخرىٰ معي، وهنا انبرىٰ الأخ خطيبـًا في إخوانه قائلاً: «**أيها الإخوة إن هذا التحول هو بمثابة محك تختبر به مدىٰ استفادتنا من العلوم والموازين التي تلقيناها وإنه**

(١) أخرجه ابن إسحاق كما في السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ٢١٣)، والطبراني في الكبير (١٧/ ٥٦) (١١٧) عن عروة بن الزبير مرسلاً، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٨/ ٢٨٦): «وإسناده حسن».

مجال جيد، ليعرف الأخ منا مدىٰ تأثره بالعلاج، ولا نملك إلا أن نسأل الله أن يعيننا علىٰ السمع والطاعة لأخ لا نعرفه ولم نألفه».

أخي المربي، ليتك تعلم مقدار السعادة التي غمرت قلبي، وكم تمنيت أن تكون أعضائي كلها آذانًا صاغية، لتستمع إلىٰ ما يقول ويا لها من ذكريات لا تنسىٰ وصدق الله: ﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ إِلَى ٱلۡجَنَّةِ زُمَرًا ﴾ (١).

أخي المربي، هذه هي طبيعة العلاقة التي يجب أن تكون بين المربي وأفراده، وهي طبيعة تختلف في حقيقتها عن أي علاقة أخرىٰ. فهي علاقة تحيطها الألفة والمحبة وأساسها الثقة والانسجام، وهما أمران لابد منهما في هذه العلاقة. بهما تتذلل الصعاب، وتذوب الكلفة وينشرح بهما الصدر. فيعطي الفرد ما في نفسه، ويظهر ما خفي من همه، ويصرح بما يعانيه ويقلقه؛ ليجد اليدين اللتين تحتضنه والقلب الذي يسعه والصدر الذي ينشرح له.

وهذا التحبب وهذا التقرب يجعل العيش سلسًا سهلاً ينساب كالغدير عذبًا يروي الظامئ نميره. فيكون جو الصفاء والأخوة الإيمانية والمحبة الصادقة التي لا تُريد إلا رضاء الله والتقرب إليه، محبة خالصة لا تكلف فيها ولا تصنع...مجالها ذلك العيش الجماعي.

ولإيجاد هذه المحبة نذكر بعض الوسائل التي تزيدها:

١ ـ إلقاء السلام والسؤال عن صحة الأخ وأحواله، والتبسم في وجهه.

٢ ـ إكرام والديه والعطف علىٰ إخوانه وأولاده والتحبب إلىٰ أقربائه، واحترام أصدقائه إن كانوا من الصالحين.

٣ ـ تَحَيُّن الفرص لتقديم الهدايا المناسبة.

٤ ـ الحرص علىٰ معرفة أحواله الاجتماعية والمادية ومحاولة علاجها معه ومشاركته في أفراحه وأحزانه.

(١) الزمر: ٧٣.

٥ ـ عدم ترديد المواقف المحزنة التي مر بها.

٦ ـ عدم تقديم النصح له علىٰ الملأ وإنما انفرادًا.

٧ ـ لا تفش سره واحفظه وصن عرضه.

٨ ـ راسله في غربته، أو في سفرك أنت.

٩ ـ لا تقلل من مكانته، ولا تبخسه الفائدة من أفكاره، ومعلوماته ولا تعيره بنسبه (وإن كنت مازحًا له).

١٠ـ أحسن الاستماع والإنصات إلىٰ حديثه، وأظهر الاهتمام وتواضع في الرد عليه إن أخطأ.

١١ ـ كن قدوة حسنة لأخيك في حسن الخلق وطيب الحديث والوفاء بالمواعيد، وحسن الهندام والرائحة الطيبة.

١٢ ـ إسقاط الكلفة مع بقاء الاحترام.

١٣ ـ أكثر الزيارات له.

١٤ ـ أعطه الثقة والمسؤولية بالقدر الذي يتناسب مع مستواه وتابعه في ذلك.

١٥ ـ دخولك إلىٰ قلبه يتم عن طريق معرفة هواياته وممارستها معه ما أمكن ذلك.

١٦ ـ ناده بأحب الأسماء إليه، وأفسح له في المجلس.

١٧ ـ أسبغ عليه التقدير إذا أحسن العمل.

١٨ ـ لا تظهر له الأستاذية.

١٩ ـ اسع في قضاء حاجاته.

٢٠ ـ لا تتصيد أخطاءه، والتمس له العذر ما وسع المجال للالتماس.

٢١ اصحبه في أسفار طويلة ما أمكن ذلك.

٢٢ ـ راع الفروق الفردية بينه وبين أقرانه.

الوقفة الثالثة: استشعار المربي لأهمية القدوة في التربية:

إن السعادة الحقيقية للمربي تتمثل في رؤيته لأخيه الجديد الذي معه وهو ينمو، كما

تنمو النبتة الطيبة في الأرض المباركة، فالسعادة الحقيقية تكون في النظر إلىٰ أخلاقه وهي تستقيم، وإلىٰ أفكاره وهي تعتدل وإلىٰ تصوراته وهي تتضح، وطباعه وهي تتهذب.

إنها الفرصة التي تغمر القلب والروح، يوم أن يراه بعد شهور وسنين قد أصبح امتدادًا لجهده وجهاده، فإحسانه من إحسانه، وصدقه من صدقه، وإخلاصه من إخلاصه، وتضحيته من تضحيته، يا له من مورد للحسنات عظيم يثقل الله به الميزان، وصدق الرسول الكريم: «**لأن يهدي الله بك رجلاً واحدًا خير لك من أن يكون لك حمر النعم**»[1].

ولهذا الأمر كانت أهمية القدوة في الحياة التربوية ولذلك قيل قديمًا:

« **الناس علىٰ دين ملوكهم**» وهذا المثال يظهر وضوحه عندما نستعرض حياة بعض الخلفاء وحالة الناس في عهدهم، فها هو عمر بن عبد العزيز كان يمتاز بالزهد والتقلل من الدنيا، وقراءة القرآن، وقيام الليل؛لذلك كنت تجد الناس في حديثهم مع بعضهم البعض... كم قرأت من القرآن، وكيف كان قيامك في الليلة الماضية... تراهم في واقع حياتهم يمتازون بالقناعة والتقلل من الدنيا... وها هو سليمان بن عبد الملك يتلذذ بالطعام وصنوفه وطهيه... ولشدة حبه للطعام كان موته بسبب أكله للتين مع البيض، وعلىٰ هذا وجدنا الناس في عصره مجال حديثهم واهتمامهم بالطعام والشراب...وكذلك الوليد بن عبد الملك...كان يهتم بالبناء وزخرفة المعمار وتباعًا كان الناس في عصره يهتمون بقصورهم وبيوتهم...

إذن فالخليفة يعرف نفسه عندما ينظر إلىٰ الرعية...وأنت أخي المربي تعرف نفسك في نظرك في أفرادك...، فإذا ما رأيت منهم حبًّا للدنيا وقلة لذكر الآخرة فانظر إلىٰ نفسك وراجع يوم حياتك..وإذا ما وجدتهم قليلي الهمة متعثري الحركة فانظر إلىٰ نفسك وراجع همتك وإذا كنت أنت بهذه الصورة بالنسبة لأفرادك.. فاحرص كل الحرص علىٰ أن تكون عنوان كل نشاط وهمة، وكل حرص وإخلاص، فإنما هي أمانة يسألك الله عنها، واعلم أنه من سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلىٰ يوم القيامة..فكيف

(١) أخرجه البخاري (٣٠٠٩)، ومسلم (٤٠٦) عن سهل بن سعد رضي الله عنه.

أنت إذا رأيت أخًا لك يسلك طريق الضعف والخور، أو الركود والتهاون...أليس في ذلك حرج نفسي، وصراع إيماني؟ هذا في الجانب السلبي من المسألة...أما الجانب الإيجابي...فهو من سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها لا ينقص ذلك من أجورهم شيئًا..فكيف أنت إذا رأيت أخًا لك قوي الهمة سريع الحركة... فأي ارتياح تشعر به نفسك وأي ازدياد تحسه في إيمانك..فعلىٰ ذلك، فأنت ميزان الحركة، وقلب الدعوة..وأنت بذلك تكون تلك المضغة التي إذا صلحت صلح سائر الجسد وإذا فسدت فسد سائر الجسد، فانهض معي متعاونًا للسداد والتقريب والتكوين والبناء، والله الموفق.

الوقفة الرابعة: الداعية والجهاد الأفغاني:

قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾﴾[(١)] وقال علىٰ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «**ما أكثر العبر وأقل من يعتبر**»...وفي ضرب الأمثال والقصص في القرآن آيات وعبر...وبالتفكير والاعتبار تميز المسلم عن غيره من البشر...وإن العالم المتطور الذي نعيشه في زماننا هذا قد تزاحمت فيه اللقطات المصورة التي تحرك العقل البليد، علاوة علىٰ اللب الأصيل، وفي هذا الموقف سأقف عند الصورة الأفغانية وعند لقطة واحدة واضحة في الاتحاد والبيعة والجهاد...

بيعة إلىٰ أي مدىٰ وما هي حقوقها؟

إن المصطلحات في الفقه الإسلامي ليست شعارات فارغة، كما هي عند أصحاب الطرح الفكري المادي ومن دار في فلكهم، أسماء لا مسميات لها علىٰ الحقيقة وأرضها بل بريق تتمتع به العيون من بعيد، فإذا ما أتيت إليه لم تجده شيئًا، فإذا ما وجدته فهو بين أن يحرقك بشرره أو ـ يخنقك بنتنه...هذا في المصطلحات المادية..أما المصطلحات الفقهية فهي في الواقع للواقع، فإن لكل مصطلح مدلوله وشروطه وحقوق مترتبة عليه، وواجبات لازمة له...والبيعة لعبد رب الرسول سياف أو أحد إخوانه في الجهاد ـ حكمت يار، برهان الدين رباني، يونس خالص ـ في أن يكون أميراً للجهاد تعني أن تطرح هذه

(١) ق: ٣٧.

التساؤلات من قبل الذين لا زالت جذوة الإيمان تنير قلوبهم، ولم تطفئها رياح الكفر والفسوق والعصيان.

ـ ما حدود وإلزامية البيعة هل هي قطرية أفغانية محدودة أم هي إسلامية عامة؟!

ـ ماذا يعني الأمر الذي يصدره أمير الجهاد لعموم المسلمين...هل هو للوجوب أم للندب؟ هل هو على الكفاية أم على العين؟

ـ ما علاقة حكام المسلمين مع هذا الأمير الجديد المبايع... هل هو رئيس لعصابة كما يصوره الشرق الشيوعي؟! أم هو العنصر المتطرف كما يسميه الغرب المادي؟! أم هو الأخ المسلم الذي أمرنا الله سبحانه بموالاته ونصره وتولي طريقه ومنهجه مع معاداة أعدائه: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَىْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ ۚ وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٧٢﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴿٧٣﴾ ﴾[١].

وهذه التساؤلات تفرض نفسها الآن على الساحة الإسلامية، بل أخذت تدور على ألسنة الشباب في كل مكان...فهل تجتمع هيئات ولجان الفتوى الموجودة في العالم الإسلامي؛ لتبين للمسلمين حقيقة الإجابة عن هذه الأسئلة حتى لا يتصرف الشباب بمعزل عن العلم الشرعي؟ أم تجتمع هذه الهيئات لا لتجيب على الأسئلة ولكن لتصب الاتهامات والتصنيفات عليهم؟!

مغالطات في فهم الاحتياج الجهادي:

إن من المغالطات التي يتمنطق بها الدعاة ويبررون وجودهم بعيدًا عن حركة الجهاد ويكتفون بزاد العمرات والركعات والاعتكاف والمدارسات...أن نراهم قد نصبوا أنفسهم مفتين عن الأمير فيقولون: إن الحركة الجهادية لا تحتاج إلى رجال، ثم يبدأ يفلسف هذه النظرية ويقعد لها القواعد بحيث تصبح هذه القضية لا تحتاج إلى دليل... والحقيقة أن هذه مغالطة أتت نتيجة للجهل بالأمور الآتية:

(١) الأنفال: ٧٢، ٧٣.

أ ـ إن الحركة الجهادية حركة متكاملة تحتاج إلىٰ رجال كما تحتاج إلىٰ المال، وكما تحتاج إلىٰ الإعلام والتخطيط تحتاج إلىٰ الوعىٰ والتأهيل؛ لأن الحركة الجهادية الثورية لابد لها من النظرية التي تواكب الحركة...وهكذا فالجهاد يحتاج إلىٰ هذه كلها، فلماذا نقصر الرجال علىٰ الأفغان، والمال علىٰ جهة، والإعلام علىٰ جهة، وهكذا نقسم الاحتياجات علىٰ الشعوب، بل الأصل أن الاحتياج بعمومه ينصب علىٰ كل المسلمين كل بحسبه.

ب ـ إن المجاهدين إن كانوا في بداية الأمر لم يحتاجوا إلىٰ الرجال فهم بعد جهاد وقتال استمر أربع سنوات قد استشهد فيه عدد كبير من القياديين، لابد وأنهم يحتاجون إلىٰ رجال قادة يقومون بسد الفراغ الذي بدأ يظهر في قطاعات المجاهدين.

جـ ـ إن الجهاد إن كان في أول الأمر يحتاج إلىٰ الرجل الذي يمسك بالسلاح... فهو الآن يحتاج إلىٰ الرجل الطبيب الذي يمسك بالمشرط ليعالج أثر السلاح، ويحتاج إلىٰ الرجل الذي يدير وينشئ المستشفيات، وإلىٰ الرجل الذي يقيم الملاجئ والمشاريع الخيرية التي تنفق علىٰ الجهاد.. ويحتاج إلىٰ الرجل الذي يعيش في مخيمات المهاجرين.. معلمًا وموجهًا ومفقهًا ومخففًا آلام الهجرة والغربة، وآلام اليتم والفقر مستشعرًا حديث الرسول ﷺ الذي أخرجه البخاري في صحيحه من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه حيث قال: قال رسول الله ﷺ: «**أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا**» وأشار بالسبابة والوسطىٰ وفرج بينهما[1].

د ـ إن وجود المقاتل المسلم الذي ليس من الجنسية الأفغانية بجانب المجاهد الأفغانىٰ ليعطيه الدفعة والشحنة الإيجابية التي تجعله ينغمس في الجهاد لدرجة أن الرب يضحك من صنيعه كما ورد بالحديث[2]، يكفي أن يعرف المسلمون العرب أن الأفغان

---

(١) أخرجه البخاري (٥٣٠٤، ٦٠٠٥) عن سهل بن سعد رضي الله عنه.

(٢) أخرجه ابن إسحاق كما في السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ١٧٥، ١٧٦) وابن أبي شيبة في المصنف (١٩٤٩٩)، وابن جرير الطبري في تاريخه (٢/ ٣٣)، عن عاصم بن عمر بن قتادة مرسلاً، أن عوف بن الحارث وهو ابن عفراء قال: يا رسول الله ما يضحك الرب من عبده؟ قال: « غمسه يده في العدو حاسرًا»... الحديث.

ينظرون إلىٰ المسلمين العرب أنهم أبناء الصحابة، فتصور الهمة التي يشعر بها المجاهد الأفغاني عندما يشعر أن الذي يقاتل معه وبجانبه من سلالة الصحابة ـ رضوان الله عليهم.

هـ ـ ثم هب أن الجهاد الأفغاني لا يحتاج إلىٰ رجال، فهل الرجال لا يحتاجون إلىٰ الجهاد.

فإذا تقرر ذلك فإني أوجه الدعوة إلىٰ من يريد ألا يموت علىٰ شعبة من النفاق، إلىٰ من عجز عن الجهاد المسلح...أنه لا مناص من السقوط بالنفاق إلا بتحديث النفس بالجهاد...، وتحديث النفس له صور أعرفها علىٰ كل جهة باختصاصها، ولذلك أوجه النداء إلىٰ:

١ ـ الحكومات الإسلامية أن تكف عن موالاة وتولي من لهم يد في محاربة المجاهدين؛ وليعلموا أن النبي ﷺ قال: «**لا يشير أحدكم إلىٰ أخيه بالسلاح، فإنه لا يدري لعل الشيطان ينزع في يده، فيقع في حفرة من النار**»[(١)].

وحديث الطبراني الذي أخرجه عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**من أخاف مؤمنًا كان حقًا علىٰ الله ألا يؤمنه من أفزاع يوم القيامة**»[(٢)]. فهذه الأحاديث وغيرها تبين خطورة من أخاف مسلمًا فكيف من ساعد علىٰ قتل مجاهد!!وعلىٰ ذلك فعليهم أن يقطعوا العلاقات الثقافية والدبلوماسية مع الروس وحكومة كابل الموجودة، ويعترفوا بالاتحاد كممثل وحيد للأفغان.

٢ ـ علىٰ صيدليات الأدوية الخاصة والتابعة لمستشفيات الدولة أن تصرف من الأدوية ما يناسب احتياج المجاهدين والمهاجرين بحيث يكون الإنفاق نابعًا من الإحساس بالوجوب والإلزام لا من باب النفل والتصدق.

٣ ـ إلىٰ مؤسسات الخطوط الجوية في كل بلد مسلم أن تخصص لكل طبيب أو

---

(١) أخرجه البخاري (٧٠٧٢)، ومسلم (٢٦١٧)، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه الطبراني في الأوسط (٢٣٥٠)، عن عبد الله بن عمر، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٦/ ٢٥٤): «رواه الطبراني في الأوسط، وفيه محمد بن حفص الوصابي وهو ضعيف»، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (٥٣٦٢).

مدرس أو عالم بأي أمر من الأمور التي يحتاجها الجهاد تذكرة مجانية ذهابا وإيابا ليقضي إجازته الدورية في مستشفيات المجاهدين ومعسكرات المهاجرين...، ولو تصورنا ذلك، فإنه سيكون متواجدًا علىٰ طول السنة ما لا يقل عن مائة طبيب.

٤ ـ إلىٰ أصحاب الوقف الذين يريدون أن يخرجوا من الوقف التقليدي ـ الأضاحي، موائد الإفطار...إلخ ـ إلىٰ ميادين الجهاد حيث إنشاء معاهد التأهيل المهني للجرحىٰ ومن فقدوا بعضًا من أعضائهم في ميادين المعارك، وكذلك بناء المتاجر والعمارات التي يكون ريعها للمجاهدين والمهاجرين.

*** لماذا يتحرك المسلمون للقضية الأفغانية؟**

أ ـ هل هو نتيجة للشعور بالرابط الإيماني فقط؟

ب ـ هل هي استجابة إنسانية لحال المظلومين؟

جـ ـ هل هو قميص عثمان يتمسح به كل من يريد أن يوصف بأنه مجاهد؟

د ـ هل هي فرصة لاستغلال قضية تستجيب لها النفوس المسلمة بفطرتها، كما هي القضية الفلسطينية ومتاجرة القيادة القديمة والحديثة فيها.

هـ ـ أم هو الحرص علىٰ إيجاد دولة إسلامية عقائدية تكون ملجأ للمسلمين، وتمثيلاً حركيًّا واقعيًّا كان الدعاة يحلمون به، دولة إسلامية تكشف الزيف وتزيل الأقنعة عن الوجوه، دولة تكون المنطلق والقدوة والمنارة للمرتجفين الخائفين من تطبيق الإسلام...نعم إنها هي ولاشك غاية المخلصين من الدعاة الموحدين.

وفي الختام نحن بحاجة إلىٰ دعاة يعملون علىٰ زيادة إيمانهم من خلال الجهاد والتحرك في ميادينه، كما يتزود غيرهم من خلال جلسات الذكر، نريد العالم الذي يقبل علىٰ مشاكل المسلمين بروح العالم المجاهد كما كان ابن تيمية ـ رحمه الله ـ بل إنا نحتاج إلىٰ أدق من ذلك، نحتاج إلىٰ أن تكون القضية الأفغانية تملك الفكر والنفس والقلب، فيكون المسلم عظيم الاهتمام بها علىٰ قدم الاستعداد أبدًا، إن دعي أجاب، أو نودي لبىٰ، غدوه ورواحه وحديثه وكلامه، وجده ولعبه لا يتعدىٰ ميدان الجهاد الذي

يتفكر فيه، تقرأ من قسمات وجهه وترىٰ في بريق عينيه وتسمع من فلتات لسانه ما يدلك علىٰ ما يضطرم في قلبه من ألم دفين.

أما الداعية الذي ينام ملء جفنيه، ويأكل ملء ماضغيه، ويضحك ملء شدقيه، ويقضي وقته لاهيًا عابثًا ماجنًا فهيهات أن يكون من الفائزين أو يكتب في عداد المجاهدين[١].

الوقفة الخامسة: المحن في الدعوات:

ليس غريبـًا ولا بدعـًا أن تصاب الجماعات العاملة في سبيل الله بأذىٰ وفتنة، ولكن الغريب والبدع ألا تصاب، فإن الفتنة والابتلاء مما سنّه الله علىٰ حملة دعوته منذ أن كانت هنالك دعوة ودعاة، حيث إن الله ـ تعالىٰ ـ جعل المحن ميزانًا يوزن به الفرد المسلم ويعرف به ثباته وصلابته وصبره وشدة شكيمته وتعلقه بالله وبدعوته، فالله ـ تعالىٰ ـ يأبىٰ أن يكون له في قلب عبده شريك، ودعوة الله تأبىٰ الشركة، وما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه؛ لذا فإن الله تعالىٰ يريد أن يصفي قلب عبده المؤمن ويخلصه مما به من أدران المادة وما علق به من وسخ الحياة، ويقطع علائقه الوثيقة بالدنيا ويجعله خالصًا له، صافيًا ليس به غبش، متجهًا إليه وحده لا ينازعه في هذا شيء من مال أو ولد أو عشيرة أو منصب أو جاه، وما سوىٰ ذلك من أمور الدنيا.

ولذا كان لزاما أن تمتحن هذه القلوب لتخلص لله ويخرج منها درنها، ويمتاز الطيب من الخبيث والأصيل من الدعي، وكان لزامًا أن تمتحن الجماعة المؤمنة ليخلص الصف ويمتاز جند الله عن جند الشيطان، وجند الإسلام عن جند الجاهلية، فالله ـ سبحانه ـ لا ينزل نصره إلا للفئة المؤمنة وإن نصر الله ـ عز وجل ـ أعز وأغلىٰ من أن ينزل لصف مشتبك فيه الغث والسمين والبر والفاجر والمؤمن والمنافق والمسلم واللابس لبوس الإسلام.

وكلما ترشح الفرد أو الجماعة المسلمة لمهمة أعلىٰ كان بلاؤها أشد وأشمل؛ ولذا قال رسول الله ﷺ: «**أشد الناس بلاء الأنبياء، ثم الأمثل فالأمثل**»[٢]، حتىٰ إذا ترشحت

---

(١) بتصرف من رسائل الإمام.

(٢) أخرجه الترمذي (٢٣٩٨) عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، وقال: «حسن صحيح».

الجماعة المسلمة لقيادة العالم الجاهلي الغارق في الجاهلية الضال ضلالاً بعيدًا كانت محنتها بالغة من الثقل وشدة الوطأة والشمول والامتداد، وكلما كانت الجماعة أرسخ كانت مظنة لنزول النصر والتأييد، وإنه لخير للجماعة أن يحتسبها الله في زمرة الأمة المسلمة المجاهدة، عبر التاريخ، فيبلوها بالمحنة ليرى صدقها ويميز صفها. خير للجماعة أن تلاقي، وفي سبيل الله في سبيل دعوته ما تلاقي من عنت وشدة وإرهاق من أن يتركها ربها، فلا ينظر إليها ولا يراها جديرة بأن تجرب ولو طال ادعاؤها، وكم رأينا جماعات تدعى العمل للإسلام فتركت وادعاؤها؛لأنها ليسيت جديرة بشيء، ولم يلتفت إليها أحد وهي تعيش في عافية ورغد العيش، وغيرها يعيش ملطخًا بدمه في أحواض التراب معرضًا لنهش كلاب الشرطة ولشتى فنون التعذيب في ذات الله.

والله ـ تعالى ـ يقول: ﴿ مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ﴾ [١] وعلى هذا فالمحنة ضرب لازم على الصف المؤمن العامل حتى يميز الله الخبيث من الطيب، والمحنة التي تحل بالجماعة المؤمنة محنة شاملة عامة تشمل الأذى في المال والبدن والاعتقاد: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾ ﴾[٢]، وتبدأ الآية الكريمة بقول الله ـ تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ ﴾ هو إنكار للتصور الخاطئ الذي يتصور أن يدخل الجنة بلا فتنة، ومعنى الآية الكريمة أن دخول الجنّة لا يكون إلا بفتنة وامتحان، وقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ ﴾ يقرر أن هذه سنة الدعوات وطريق المؤمنين الداعين إلى الله منذ الأيام الخالية، ثم يقرر نوع الامتحان وشموله بقوله: ﴿مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ ﴾ وهي الفتنة بالمال ﴿ وَٱلضَّرَّآءُ ﴾ وهي الفتنة بالبدن وقيل:البأساء أي:الأذى بالبدن والضراء في المال﴿ وَزُلْزِلُوا۟ ﴾ وهو الفتنة بالاعتقاد، ثم بذكر امتداده وعمقه ورهبته وشدته، وبرم المسلمين بالمحنة وضيقهم بها بحيث أن الرسول والذين آمنوا معه يستبطئون النصر ويرفعون أصواتهم قائلين:﴿ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ ﴾ وهنا يأتيهم الجواب

(١) آل عمران: ١٧٩

(٢) البقرة: ٢١٤.

الحاسم المؤكد من الله سبحانه ﴿أَلَآ إِنَّ نَصۡرَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ﴾، ويقرر الله تعالىٰ هذا الأمر في موطن آخر فيقول: ﴿وَلَنَبۡلُوَنَّكُم بِشَيۡءٖ مِّنَ ٱلۡخَوۡفِ وَٱلۡجُوعِ وَنَقۡصٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٥٥﴾[1]. فيبين ويحدد معالم الفتنة وجوهرها فيبين منها: الخوف والرعب والإرهاب، ومن المعلوم أن الأمن والطمأنينة أول ما يبغيه الفرد، والإنسان الخائف لا يستطيع أن يعمل شيئًا، فإذا اقترن بالجوع فذلك أمر أشد، والفتنة بالأمن هي من أشد أنواع الفتن وأخوفها علىٰ الفرد المسلم، ويعدد القرآن أنواع الفتن وأخوفها علىٰ الفرد المسلم، ويعدد القرآن الكريم معالم الابتلاء في هذه الآية في النواحي المادية والنفسية:

١ ـ الخوف. ٢ـ الجوع.

٣ ـ النقص في الأموال، ومنه المحاربة في الرزق.

٤ ـ النقص في الأنفس، ومنه القتل. ٥ ـ النقص في الثمرات.

وهي أمور لها رصيدها في النفس وقطع العلائق معها أمر كبير، وشاق علىٰ النفس ولكن دعوة الله كما ذكرنا لا تقبل الشركة، وسلعة الله غالية أغلىٰ من هذه كلها وأن الله ـ سبحانه ـ يأبىٰ أن يتعلق قلب عبده بسبب من أسباب الدنيا، ويريده أن يتجه إليه وحده، متوكلاً عليه لا علىٰ شيء آخر مهما كان ذلك الشيء والفتنة في هذه الأمور تحتاج إلىٰ مزيد من الصبر والثبات؛ ولذا عقب الله ـ تعالىٰ ـ علىٰ ذلك بقوله: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾، وهذه الأمور التي ذكرناها إن هي إلا وجه وصور لخطوط الفتنة التي ذكرها سبحانه في الآية السابقة وهي البأساء والضراء والزلزال.

ويؤكد رب العزة هذا المعنىٰ في آية أخرىٰ بقوله:﴿لَتُبۡلَوُنَّ فِيٓ أَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡ وَلَتَسۡمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُوٓاْ أَذٗى كَثِيرٗاۚ وَإِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ١٨٦﴾[2]. فهو يبدأ الآية مؤكداً أن الابتلاء لابد أن يكون، ويبرز خطوط الابتلاء الثلاثة: الأموال ـ الأنفس، ويذكر هنا جانبًا آخر للحرب النفسية وهي حرب الشائعات والدعاية والإيذاء بجارح القول وسماه (أذىٰ

(١) البقرة: ١٥٥.
(٢) آل عمران:١٨٦.

كثيرًا) وهو ضرب من الزلزلة. والقرآن الكريم كما ترىٰ يذكر جوانب من الحرب يمكن أن تدرج تحت اسم واحد وهو (الزلزال) النفسي؛ لأن الغاية هي زلزلة النفس وزحزحتها عن عقيدتها، فهو تارة يذكر الزلزلة وتارة يذكر الخوف وتارة يذكر إسماع الأذىٰ الكثير من القول، وجوانب أخرىٰ كثيرة يعرضها القرآن في معرض كلامه علىٰ الفتن وجوانبها، ومن أمثلة ذلك:

١ ـ **إظهار الإيمان بالفكرة** ثم النكوص عنها، وذلك ليلقوا في روع الضعفاء، أنهم اطلعوا عليها وخبروا حقيقتها، فإذا هي لا تستحق الإيمان بها: ﴿وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓا۟ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٢﴾﴾[1]. وهذا ضرب فتاك من ضروب الحرب النفسية.

٢ ـ **التخويف بكثرة العدد وأنهم متألبون مجتمعون علىٰ القلة المؤمنة**: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾﴾[2].

٣ ـ **الاستهزاء والسخرية**: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾﴾[3]، ﴿إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴿٩٥﴾﴾[4]، ﴿وَيَسْخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾[5]، ﴿وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾﴾[6].

٤ ـ **الاحتقار والازدراء**: ﴿لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ﴾[7].

٥ ـ **الإيذاء بجارح القول**: ﴿وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا﴾[8]، وقد وصف الله عباده المؤمنين بالإعراض عن اللغو

---

(١) آل عمران: ٧٢.
(٢) آل عمران: ١٧٣.
(٣) التوبة: ٦٥.
(٤) الحجر: ٩٥.
(٥) البقرة: ٢١٢.
(٦) المطففين: ٣٠.
(٧) الأحقاف: ١١.
(٨) آل عمران: ١٨٦.

فقال: ﴿وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغْوِ مَرُّواْ كِرَامًا ﴿٧٢﴾﴾[١]، ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾﴾[٢]، ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُواْ عَنْهُ وَقَالُواْ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٥٥﴾﴾[٣].

٦ ـ **التهديد والوعيد:** ﴿وَلَا تَقْعُدُواْ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾[٤]، ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهُواْ لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨﴾﴾[٥]، ﴿قَالُواْ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ ﴿١١٦﴾﴾[٦].

٧ ـ **التيئيس من الإصلاح:** ﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾﴾[٧]، وغيرها من ضروب الحرب النفسية، ولا تزال معالم الفتن وخطوطها ووسائل الحرب كما كانت عليه، بل هي أقوىٰ وأشد.

والمسلم الممتحن عليه أن يصبر ويثبت إزاء هذه الفتن الضاربة، ويتقي الله في كل شيء فلا تخرجه محنته عن التقوىٰ؛ ولذا يقول ربنا سبحانه: ﴿وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٨٦﴾﴾[٨] فقرن التقوىٰ بالصبر وأن يستعين بالصبر والصلاة والذكر والدعاء والتسبيح ﴿وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾[٩]، ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾﴾[١٠].

والمحنة علىٰ ما بها من أذىٰ وضراوة ضرورية للصف المؤمن، وهي الطريق إلىٰ النصر وأبرز مثل نذكره هو ما ذكره الله في قصة طالوت؛لتنقية الصف المختلط وكيف أنه

---

(١) الفرقان: ٧٢.
(٢) الفرقان: ٦٣.
(٣) القصص: ٥٥.
(٤) الأعراف: ٨٦.
(٥) يس: ١٨.
(٦) الشعراء: ١١٦.
(٧) الأنفال: ٢٣.
(٨) آل عمران: ١٨٦.
(٩) البقرة: ٤٥.
(١٠) الحجر: ٩٧، ٩٨.

استخلص القلة المؤمنة الخالصة من ركام الكثرة واستطاع بهذه القلة المؤمنة الصابرة أن يكسب النصر علىٰ جيش جالوت ذي الكثرة الكاثرة.

والمحنة علىٰ ضرورتها لا يتمناها المسلم، ولا ينبغي أن يتمناها، وإنما عليه أن يسأل الله العافية إذا أصابته المحنة، فليس له إلا أن يتذرع بالصبر، والتقوىٰ داعيًا الله كشفها والعافية منها والأخذ بأسباب إزالتها ما أمكنه ذلك؛ ولذا كان ﷺ يقول: «**سلوا الله العافية**»(١)، ويعلم أصحابه أن يسألوا الله العفو والعافية، ويقول: «**لا تمنوا لقاء العدو، وإذا لقيتموهم فاصبروا**»(٢).

وكثيرًا ما يعقب الله سبحانه المحنة والاستضعاف والصبر عليها النصر والتأييد ومحق الكفر ﴿ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤١﴾ ﴾(٣)، ﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِىٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا۟ وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾ ﴾(٤)، ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾(٥)، ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ ﴾(٦)، إلىٰ غير ذلك من الآيات القرآنية الكريمة التي تعد بنصر الله من ينصره وعداً قاطعـًا.

الوقفة السادسة: الضعف من الجانبين:

إن بعض الإخوان ينتابه ضعف طارئ خفي ناشئ عن كونه قد نال حظًّا من حطام الدنيا، وعرضًا من عروضها كأن أصبحت له منزلة اجتماعية بين الناس... فتنسيه هذه المنزلة مكانه وموقعه الحقيقي في هذه الدعوة المباركة، فينشأ عنده مقياس جديد يقيس

(١، ٨) أخرجه البخاري (٢٩٦٦) عن عبد الله بن أبي أوفي رضي الله عنه.
(٣) آل عمران: ١٤٠ .
(٤) آل عمران: ١٤٦ ـ ١٤٨.
(٥) القصص: ٥.
(٦) السجدة: ٢٤.

به الأمور، وهذا المقياس هو منزلته هذه أو شهادته العلمية التي نالها، فيعتقد في نفسه بأنه طالما أصبح علىٰ هذه الوضعية الجديدة في المجتمع فيجب أن تتبدل منزلته وموضعه في الدعوة تبعـًا لذلك، ولسان حاله يطلب من الإخوان أن ينظروا إليه بهذا المنظار الذي ينظر هو به إلىٰ نفسه، وإذا أحس من بعض الإخوان بأنهم لا زالوا ينظرون إليه بنفس المنظار ويقيسونه بنفس مقياس الدعوة ـ ألا وهو التقوىٰ والتضحية والحماس للدعوة والدفاع عنها ـ ضاق بهم ذرعًا وكره مجالستهم وكثر انتقاده لهم ويكون أكثر ميلاً إلىٰ أولئك الذين يقدمونه علىٰ أساس منزلته بين الناس وشهادته العلمية... إلخ.

وحاصل القول: أن الذي دخل في النفس عند هذا هو نوع من التكبر علىٰ الدعوة والتنكر لها وللإخوان وانزلاق إلىٰ مقياس دنيوي خاطئ معوج ليس من مقياس، أهل الدعوة في شيء، إذ إن مقياس الدعوة واضح لا غموض فيه وثابت لا يتغير مهما تغيرت الظروف والأحوال، وهذا المقياس هو الإسلام الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه..فلا نقيس إلا به ولا نزن الأمور إلا بميزانه، ولا نحكم للإخوان أو عليهم إلا بحكمه «**فرب أشعث أغبر لو أقسم علىٰ الله لأبره**»[1] صدق رسول الله... ولا طبقات ولا فروق في الإسلام: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾[2]، والتقوىٰ في القلب لا يطلع علىٰ مكنونها أحد إلا الله ـ تعالىٰ ـ... وعلىٰ ذلك قد يكون الأخ منا عاملاً أو نجارًا أو صاحب أية مهنة أخرىٰ عنده من معاني الدعوة والتضحية في سبيلها الشيء الكثير، وقد تربو أو تزيد علىٰ غيره من الإخوان، فمنزلة هؤلاء في الدعوة وعند الدعاة أعلىٰ من أولئك الإخوان الفاقدي الحماس والتضحية والغيرة علىٰ الدعوة مهما كانت منزلتهم الاجتماعية أو شهاداتهم العلمية، فمن تكبر إذن علىٰ مقياس الدعوة وميزانها ولم يرغب بالخضوع لهذا المقياس فلابد أن تلفظه الدعوة بعيدًا عن صفوفها عاجلاً أو آجلاً؛ إذ لا مكان لمتكبر في صفوف دعوة الإسلام الحقة، ولا عجب إذا خرج أحد من هذا الضعف ـ عند تقدم الدعوة في المستقبل، فالدنيا كما نعلم فيها من الإغراءات أو الشهوات ما تجر

(١) تقدم تخريجه.
(٢) الحجرات: ١٣.

إليها من ضعفاء النفوس فتختل مقاييسهم ويتكبرون علىٰ إخوانهم، فإذا ما ظهر عند أحد الدعاة مرض التكبر ـ وكان مربيه أقل منه ثقافة وشهادة يرىٰ هذا الأخ نفسه أكبر من مربيه وأكثر منه ثقافة، وإن كان المربي أكثر منه حماساً وتضحية وفقهًا في الدعوة فيقل عنده الدافع الذاتي الخفي للدعوة فيأخذ من مربيه التوجيهات بشيء من البرود وعدم المبالاة...، بل قد يأخذها لا للتنفيذ بل للعبث والتسلية فقط، ولا يكلف نفسه التنفيذ مطلقًا...، وهذا العنصر إذا لم يعالج حرصه ويبدل مقياسه الخاص الذي يقيس به نفسه استفحل وتمكن منه المرض وأدىٰ به في النتيجة إلىٰ عدم الاهتمام؛لحضور الاجتماعات المطلوبة منه ويتمرد عليها، فإذا ألح عليه مربيه وحاسبه عن تقصيره انفجر وأخذ باللائمة علىٰ العاملين واتهمهم بالتقصير وعدم المعرفة بواقع الإخوان وإمكانياتهم؛ إذ كيف تضع عليه مربيًا أقل منه شهادة علمية ومنزلة اجتماعية، وكان الواجب يقضي أن تراعىٰ هذه الأمور؛ليحصل الانسجام والتآلف...حجج واهية باطلة، الغرض منها التغطية وإخفاء مرض التكبر الذي أصابه ليخلص من كل ذلك إلىٰ أنه غير مستعد لحضور الاجتماعات أو قبول أية توجيهات ما لم يوضع في مكان يناسبه ويلائم منزلته الاجتماعية وشهادته، وهكذا يأخذ مرض التكبر علىٰ الدعوة هذه الصورة ويلبسها هذا اللباس متعللاً بهذه العلل، وهو يحسب بأن ذلك ينطلىٰ علىٰ العاملين في الدعوة..فإذا انطلت علىٰ الناس العاديين وعلىٰ بعض الإخوان الذين ينظرون إلىٰ المسألة نظرة ظاهرية مجردة، فلا تنطلي علىٰ من فقه العمل، علاوة علىٰ من مارس هذا العمل من الدعاة مدة طويلة.

وعلىٰ كل حال، فهذا ضعف ظاهر قد يصيب الأخ من جراء أسباب من جانبه أدَّت لهذه الحالة، وقد ينشأ ضعف آخر يسبب إضعاف هذا الأخ نفسه حتىٰ يقعده عن العمل، فتفقده الدعوة.

وهذا السبب هو: أن الأخ المربي قد يضعف تجاه الأخ صاحب المنزلة الاجتماعية والشهادة العلمية فيحس في نفسه بأنه طالما أقل منه ثقافة وشهادة ومنزلة اجتماعية، فلابد أن يكون الأخ أعلىٰ منه منزلة في الدعوة..فيعامله معاملة خاصة، ويخاطبه مخاطبة

خاصة وبالتالي لا يجرؤ علىٰ محاسبته محاسبة جدية كبقية الدعاة فيتساهل معه إذا ما قصر...، وحتىٰ عندما يطلب منه شيئًا لا يناديه بالأخ فلان..بل بلقبه ورتبته، وقد يقع في نفسه بأنه لا يأخذ منه ولا يسمع إليه ولا يطيع أوامره، وعلىٰ ذلك لا يكلفه بشيء قطعًا، وقد يكون هذا من الأخ المربي مجرد خيال وتصور وظن ليس إلا، فيكون عنده انطباعات عنه مغلوطة علىٰ غير أساس، فتصبح معاملته له منبعثة عن هذه الانطباعات والتصورات، فيؤدي ذلك إلىٰ فتور الأخ وتضعف العلاقة بينهما وتنقلب الرابطة التي تربطهما والمبنية علىٰ الأخوة والتعاون والطاعة إلىٰ رابطة عمل بحتة خالية ومجردة من روح التعاون والمحبة والألفة، فيصبح العمل الإسلامي عبئًا ثقيلاً علىٰ الأخ يود لو انقطع وتخلص من أعبائه وتبعاته وفعلاً قد ينقطع.

وبهذه النتيجة يكون الأخ المربي قد تسبب في فتور هذا الأخ الطيب الذي لو عرف كيف يسلك معه لتمكن من الاحتفاظ به كأخ عامل مثقف، ولكن بتصرفاته الخاطئة وتخيلاته الموهومة واعتقاده غير المبني علىٰ واقع جر هذا الأخ إلىٰ هذه الهوة السحيقة فخسره وخسرته الدعوة وقد تكون خسارته لا تعوض...وهذا ضعف بلا شك من جانب آخر وهو جانب المربي.

وخلاصة القول: أنه يجب علىٰ كافة الدعاة أن يعرفوا منزلتهم في الدعوة، علىٰ أساس مقياسها، فلا يتعدونها بطلب منزلة أعلىٰ، من غير حق وعلىٰ أساس آخر، ولا ينزلون عن منزلتهم من غير مبرر ولا مسوغ شرعىٰ، فتنقلب المقاييس وتختل الموازين، وفي ذلك ضياع الأخ وضياع المسؤولية، والله الموفق للصواب.

الوقفة السابعة: آداب في طريق الدعوة:

أخي الداعية... هذه طائفة من آداب الإسلام نقدمها لك بعبارة واضحة مفهومة، لتعمل بها وتسير عليها، وخيرُ ميدان للعمل بها هو بينك وبين أخيك، وشخصك وشخص أخيك، فلا تتساهل في القيام بها فيما بينك وبين إخوانك؛ زعمًا أنه لا كلفة بين الأهل والإخوان، فأحق الناس بالبر واللطف منك أهلك وإخوانك.

روىٰ البخاري ومسلم أن رجلاً جاء إلىٰ رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، من أحقُّ

الناس بحسن الصُّحبة مني؟ قال: «**أمُّك ثم أمُّك ثم أمُّك، ثم أبوك، ثم أدناك أدناك**»[١]، أي الأقرب فالأقرب.

فحذار أيها الأخ أن تتساهل مع أحق الناس بحسن الصحبة منك وتتكايس ـ أي تتظارف ـ مع غيرهم، فإنك إن فعلت ذلك غبنت نفسك، وظلمت الحق الذي عليك.

الأدب الأول: اعرف لأخيك الكبير حقه:

* جاء أخوان إلى رسول الله ﷺ ـ ليُحدِّثاه بحادثة وقعت لهما، وكان أحدهما أكبر من أخيه، فأراد أن يتكلم الصغير، فقال له النبي ﷺ: «**كبِّر كبِّر**»[٢].

الأدب الثاني: لا تكن ثقيلاً وتلطف مع إخوانك:

* قال المقداد بن الأسود رضي الله عنه: «**كنا نرفع لرسول الله ﷺ نصيبه من اللبن، فيجيء من الليل، فيسلم تسليمًا لا يوقظ النائم، ويسمع اليقظان**»[٣].

الأدب الثالث: استعمل الرفق في شأنك كله:

ـ إذا دخلت دارك أو خرجت منها، فلا تدفع بالباب دفعًا عنيفًا أو تدعه ينغلق لذاته بشدة وعنف، بل أغلقه بيدك إغلاقًا رقيقًا:

* قال رسول الله ﷺ: «**إن الرِّفق لا يكون في شيء إلا زانه، ولا ينزع عن شيء إلا شانه**»[٤].

* وقال أيضًا: «**من يُحرَم الرفق يحرم الخير كله**»[٥].

الأدب الرابع: التمس لأخيك عذرًا:

ـ إذا زرت أحد إخوانك دون موعد، أو على موعد سابق منه، فاعتذر لك عن قبول زيارتك له، فاعذره، فإنه أدرى بحال بيته وملابسات شأنه، ولأهمية هذا الأدب، واقتلاع

(١) أخرجه البخاري (٥٩٧١)، ومسلم (٢٥٤٨/ ٢) عن أبي هريرة رضي الله عنه.
(٢) أخرجه البخاري (٧١٩٢)، ومسلم (١٦٦٩) عن سهل بن أبي حثمة رضي الله عنه.
(٣) أخرجه مسلم (٢٠٥٥)، والبخاري في الأدب المفرد (١٠٢٨) عن المقداد بن الأسود رضي الله عنه.
(٤) أخرجه مسلم (٢٥٩٤) عن عائشة رضي الله عنها.
(٥) أخرجه مسلم (٢٥٩٢) عن جرير.

ما قد يعلق ببعض النفوس من جراء الاعتذار نص القرآن الكريم بقوله: ﴿وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرْجِعُواْ فَٱرْجِعُواْۖ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ﴾[١].

الأدب الخامس: من آداب الزيارة:

ـ إذا طرقت باب أخيك فدقَّه دقًّا رفيقًا يعرِّفه وجود طارق بالباب، ولا تدق بعنف كدق الظلمة والزبانية، فتروعه وتخل بالأدب.

وروىٰ البخاري في «**الأدب المفرد**»: (إن الصحابة كانوا يقرعون باب رسول الله ﷺ بالأظافر)[٢].

* وجاءت امرأة إلىٰ أحمد بن حنبل لتسأله عن شيء من أمور الدين، ودقَّت عليه الباب دقا فيه بعض العنف، فخرج، وهو يقول: «**هذا دقُّ الشُّرط**»[٣] جمع شرطي.

الأدب السادس: من آداب الاستئذان:

ـ وينبغي أن تجعل بين الدَّقتين زمنًا غير قليل، ليفرغ المتوضئ من وضوئه في مهل، ولينتهي المصلي من صلاته في مهل، وليفرغ الآكل من لقمته في مهل، وإذا طرقت ثلاث مرات متباعدة ووقع في نفسك أنه لو كان غير مشغول عنه لخرج إليك فانصرف.

قال رسول الله ﷺ: «**إذا استأذن أحدكم ثلاثًا فلم يؤذن له فلينصرف**»[٤].

الأدب السابع: لا تحرج آل بيت أخيك:

ـ عند زيارتك لأحد من إخوانك، لا تقف عند استئذانك تلقاءَ فتحة الباب فتُحرج من يفتح لك، ولكن خذ يمنة أو يسرة.

* فقد «**كان رسول الله ﷺ إذا أتىٰ باب قوم لم يستقبله من تلقاء وجهه، ولكن من ركنه الأيمن أو الأيسر**»[٥].

---

(١) النور: ٢٨.

(٢) أخرجه البخاري في الأدب المفرد (١٠٨٠)، والبيهقي في شعب الإيمان (١٥٣٠) عن أنس بن مالك رضي الله عنه، وصححه الألباني في الصحيحة (٢٠٩٢).

(٣) ذكره الإمام ابن مفلح في الآداب الشرعية (١/ ٧٣).

(٤) أخرجه البخاري (٦٢٤٥)، ومسلم (٢١٥٣) عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٥) أخرجه أبو داود (٥١٨٦) عن عبد الله بن بسر رضي الله عنه، وصححه الألباني.

الأدب الثامن:

ـ إذا طرقت باب أحد إخوانك. فقيل لك: من هذا؟ فقل: فلان باسمك الصريح الذي تعرف به، ولا يصحُّ لك أن تعتمد علىٰ أن صوتك ولقبك معروف عند من تطرق عليه، فليس كل من في الدار التي طرقت بابها يعرف صوتك وحسك.

* عن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «**أتيت النبي ﷺ فدققت الباب، فقال: من هذا؟ فقلت أنا، فقال النبي** ﷺ: «**أنا أنا؟**» كأنه كرهها[(١)].

الوقفة الثامنة: من فقه اجتماعات العمل:

موقف من المواقف الحرجة علىٰ المسلمين يتكرر علىٰ مدار التاريخ، إنه الاجتماع في وقت الشدة لاتخاذ قرار معين يترتب عليه العمل...إنه اجتماع عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بقادة المسلمين وعامتهم في المدينة قبل معركة نهاوند، عندما أتاه الخبر بأن المجوس قد أعدوا جميع إمكانياتهم لإيقاف المد الإسلامي، فالموقف حرج ومصيري، ويحتاج إلىٰ مشورة، وحزم، وعزم...لهذه لأسباب وجه عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ خطابه بهذه الصيغة:

«**هذا يوم له ما بعده من الأيام، ألا وإني هممت بأمر، وإني عارضه عليكم، فاسمعوه، ثم أخبروني وأوجزوا، ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم، ولا تكثروا ولا تطيلوا فتفشغ بكم الأمور ـ أي: فتتشعب بكم المسالك ـ ويلتوي عليكم الرأي**»[(٢)].

ففي هذه الكلمات الفقه كله، لكيفية سير اجتماعات العمل ـ لا اجتماعات اللغو والهزل والفلسفة والجدل... فالاجتماعات دائمًا بين قائد وجنود...فما واجب الجنود في هذه الاجتماعات:

١ـ الاستماع: فالإنصات الجيد والوعي التام والملاحظة الدقيقة، ومعرفة مبتغيات التكلم، وفهم مبررات الكلام والنظر لما بين السطور وفي حواشي العبارات..كل هذا من متطلبات الاستماع...ثم بعد.

٢ـ الإخبار: حيث إن كتم الرأي ككتم العلم، والبخل في المشورة من أعظم أنواع

(١) أخرجه البخاري (٦٢٥٠)، ومسلم (٢١٥٥) عن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
(٢) أخرجه ابن جرير الطبري في تاريخه (٢/ ٥٢٣).

البخل..كما أن الساكت عن الحق شيطان أخرس..وهذا الإخبار يراعىٰ فيه:

أ ـ الإيجاز: علىٰ ألا يكون مخلاً؛ لأن الوقت حرج، والأعمال أكثر من الأوقات والحاجة للعمل أكثر من الحاجة، وفي الإيجاز نستطيع أن نسابق الزمن، فننجز الأعمال الكثيرة بالوقت القليل، وهذا هو الإنتاج الصحيح الذي يباركه الله ـ سبحانه ـ ويربيه إنتاج كثير في وقت قليل.

ب ـ عدم التنازع: لأن من شروط السلامة في الرأي، انطلاقه من جو تسوده السكينة ويحفه الأمن، وتعلوه راية الأخوة والمودة، وخلاف ذلك جو التنازع والتشاحن والانفعال وإعجاب كل ذي رأي برأيه، لا يزحزحه عنه حتىٰ يقينه الكامل أن ما جاء به رأي لا نص من كتاب أو سنة، ومن هنا يأتي تحذير المولىٰ جل وعلا المؤمنين من تجنب جو التنازع بقوله: ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ﴾[1] الآية.

جـ ـ عدم الإكثار والإطالة: وذلك لأن الكلام الكثير المعاد حول قضية ما، يستلزم التفريعات الكثيرة وكثرة الآراء...فتكون النتيجة طبيعية من توسع الأمور والتواء الرأي..هذا ـ إخواني ـ من فقه اجتماعات العمل، فدرب عليه نفسك، وَرَبِّ عليه إخوانك.

الوقفة التاسعة: قصة لها معالم:

إنها قصة يحيىٰ بن يحيىٰ التميمي صاحب الإمام مالك وشيخ البخاري، حيث روىٰ أنه كان يومًا عند مالك في جملة أصحابه إذ قال قائل: قد حضر الفيل، فخرج أصحاب مالك لينظروا إليه ـ إلا هو لم يقم من مجلسه ـ فقال له مالك: «**لِمَ لَمْ تخرج فترىٰ الفيل إنه لا يكون بالأندلس**» فقال له يحيىٰ: إنما جئت من بلدي لأنظر إليك وأتعلم من هديك وعلمك ولم أجئ لأنظر إلىٰ الفيل(فأُعجب به مالك وسماه عاقل الأندلس)[2].

المعالم:

(١) الأنفال: ٤٦.

(٢) طبقات الفقهاء لإبراهيم بن علي الشيرازي ص (١٥٧)، ووفيات الأعيان لابن خلكان (٦/ ١٤٤)، ونفح الطيب للتلمساني (٢/ ٩).

أولاً: يجب أن يتحمل الداعية المشقة في طلب العلم وفي طلب المدعو، فهذا يحيىٰ جاء ماشيًا من الأندلس للإمام مالك، وأنت يا أخي تحرك في طلب المدعو ولو كان في أقصىٰ مكان من بلدك «**لولا المشقة ساد الناس كلهم**».

ثانيًا: يجب أن يعرف الأخ هدف دعوته ولا يميل عنه يمينًا أو يسارًا بل يكون نصب عينيه.

ثالثا: بعض المباحات يجب أن يمسك الداعية المربي نفسه عنها، ولا يعامل نفسه مثل أي فرد آخر في العمل الإسلامي، فهذا الإمام مالك المربي لم يذهب ليرىٰ الفيل كما فعل التلاميذ مع أنه مباح له.

رابعًا: حرص الداعية علىٰ معرفة ما في العالم الإسلامي، فهذا الإمام مالك يعرف بلاد الأندلس وهي في أقصىٰ الدولة الإسلامية، ويعرف ما فيها من حيوانات.

خامسًا: مراعاة النفوس من قبل المربي، فالإمام مالك حينما رأىٰ النفوس تطلب رؤية شيء غريب ومباح أباح لها أن تذهب.

الوقفة العاشرة: أسلوبنا في العمل:

أيها الأخوة...

قد يتبادر إلىٰ بعض الإخوة أن أسلوبنا في العمل يشبه أسلوب العمل في الأحزاب ذات المبادئ الوضعية التي اتخذت أسلوب..«**الغاية تبرر الوسيلة**»؛ إذا وجد بين الإخوة من يفكر بهذا التفكير فهو علىٰ خطأ كبير...كبير جدًّا. إن دعوتنا ومبادئنا مختلفة تمام الاختلاف عن مبادئ ودعوات الآخرين التي صنعتها عقول البشر، فدعوتنا شريفة غاية ووسيلة، محدودة بمبادئ الشريعة الإسلامية الغراء، فلا يمكن أن تتخطاها بأي حال من الأحوال، فالغاية عندنا لا تبرر الوسيلة ولما كانت غايتنا شريفة وعالية، فلا يجوز أن تكون الوسيلة للوصول إليها محرمة.

إذا كان الأمر كذلك فالذي يجب أن تعرفه هو أن ما نلاحظه ونقرؤه ونشاهده من أعمال الأحزاب قد لا يتفق كثيره مع دعوتنا وعليه يجب ألا نتأثر به مطلقًا، ولا تتطلع نفوسنا لمحاكاته وتقليده ومطالبة جماعتنا؛ لتحذو حذوه أو تسلك نفس المسلك،

فعلينا أن نطالب ونقترح القيام بعمل ما، وأن نعرض هذا العمل أولاً وقبل كل شيء علىٰ الشريعة، فهي ميزاننا الوحيد الذي نزن به الأعمال.

فما أقرته الشريعة أخذنا به حسب الممكن وجوبًا أو ندبًا أو إباحة، وإذا لم تقره تركناه وأهملناه، فعلىٰ ضوء ذلك تظهر أهمية قيامنا بالعمل فإذا كان واجبًا شددنا العزم وجمعنا الهمم للقيام به وهكذا..، فلا يصح أن نعرضه أولاً علىٰ نفوسنا، فما حسنته عقولنا طالبنا به وألححنا بتنفيذه، وما قبحته تركناه وأهملناه دون النظر إلىٰ الأدلة الشرعية التي توجبه وتعده وتؤيده أو تنهي عنه وتأمر بعدم القيام به..، فالنفوس تكره التكليف والالتزام وتحب الشهوات والآثام، وإن النفس لأمارة بالسوء. فميزاننا الوحيد للأمور جميعًا هو الشريعة الإسلامية.

وسيرنا في دعوتنا هو نفس سير صاحبها الأول ﷺ، نقتفي أثره ونخطو خطواته في سبيل نشر الدعوة وبناء الدولة...، فالملاحظ أن أول ما فعله ﷺ في هذا السبيل، أن دعا إلىٰ قولة أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدًا رسول الله.. أي ثبت الأساس لمعاني التوحيد في قلوب المسلمين التي بني عليها فيما بعد الأمور الشرعية الأخرىٰ، بكل جرأة وصلابة ولم يخش في الله لومة لائم غير ملتفت إلىٰ ما يفوته من حطام الدنيا من جاه ورئاسة ومال...حتىٰ إذا ما تركزت في قلوب أتباعه، وكون منهم النخبة الصالحة من حملة الدعوة والرسالة الإسلامية انهارت من حولهم الأصنام وانهارت التقاليد الجاهلية وأقيمت محلها عقيدة التوحيد مع نظام كامل للحياة الجديدة، مبني علىٰ العقيدة، السليمة.

فالرسول ﷺ لم ينشغل بالتهديد أولاً، وإنما اهتم ببناء العقيدة والإيمان، ولم ينشغل أصحابه بالسياسة وأمور الحكم والمعاهدات قبل تركيز العقيدة وتثبيت الإيمان في نفوسهم حتىٰ أصبحت حياتهم كلها تدور علىٰ العقيدة وتصرفاتهم تصدر عنها، ويقبلون ما ينسجم وعقيدتهم ويتركون ما لا ينسجم معها. هذه حقيقة واضحة من سيرة الرسول ﷺ، فالواجب إذن أيها الإخوة الأحباب ألا تفوتنا هذه الحقيقة فنهملها أو نتغافل عنها أو نتساهل فيها؛ لأن في إهمالها أو إغفالها أو حتىٰ التساهل فيها ضررًا عظيمًا علىٰ

الدعوة والدعاة أنفسهم، فتنطمس معالم الدعوة وخطوط سيرها ونصبح دعاة سياسة وحكم فقط، لا دعاة عقيدة وإسلام، فلا تكرسوا وقتكم كله أو معظمه من أجل الأمور السياسية فقط، ولا تتركوا جوانب أخرىٰ من جوانب الدعوة، فتجعلوا من إخوانكم هياكل سياسية عليها مسحة إسلامية، وحاولوا جاهدين ألا تطغىٰ ناحية علىٰ أخرىٰ وخير الأمور أوسطها..إن هذا هو حقيقة الخطأ الذي نخشاه في مسيرتنا إلىٰ الله ـ سبحانه وتعالىٰ ـ كمسلمين مقبولي الإسلام عند الله ـ إن شاء الله.

فعليكم ـ أيها الإخوة الأحباب ـ واجب عظيم هو إعداد الإخوان إعدادًا إسلاميا خالصًا لا تشوبه شوائب الأفكار الوضعية والأحزاب الأرضية، وعليكم متابعتهم وملاحقتهم وملاحظتهم وتعديل ما يعوج من أفكارهم وسلوكهم وأخلاقهم وجعلهم مطابقين تمامًا لمبادئ الإسلام الحنيف في القول والعمل، منسجمين معه في تصرفاتهم وأفعالهم؛ لأنهم أمانة في أيديكم، فأدوا الأمانة، كما يحب الله ويرضىٰ.

وعليكم ـ أيها الإخوة ـ ألا تتساهلوا مع الذين يتهاونون في أداء واجباتهم الملقاة علىٰ عاتقهم؛ لأن تهاونكم في ذلك معناه تقليل أجورهم عند الله، فيفوتهم خير كثير هم أحوج ما يكونون إليه في دنياهم وأخراهم كمسلمين، وكإخوة عاملين في جماعة وعليكم إرشادهم وتنبيههم إلىٰ أعمالهم المخالفة للشريعة كالغيبة والنميمة والخوض بالباطل والقول علىٰ الله بغير علم..ومطالبتهم بالتمسك أكثر فأكثر بالإسلام، وأن يجعلوه مدار حياتهم اليومية، فيقيسوا جميع أعمالهم عليه، فما وافقه عملوا به وما خالفه تركوه، متحملين في سبيل ذلك كل الصعاب، وألا يقضوا يومهم بالجدل السياسي الفارغ الذي لا يأتي بنتيجة، فافهم هذا أخي الحبيب جيدًا، احمل إخوانك علىٰ العمل به، والله الموفق للصواب.

الوقفة الحادية عشرة: حديث النفس:

إن محنة الداعية المسلم لا تكمن في معارضة الكفر، ولا في سجنه أو تعذيبه بقدر ما تكمن في استرخاء همته والتذاذه بالراحة وكتابته في سجل الغافلين العاجزين عن تحقيق أهدافهم وغاياتهم التي يرجونها وما ذاك إلا عندما يعطي الداعية للدعوة فضول وقته

غافلاً أن المسلم لا يملك نفسه حتىٰ يسوغ له أن يمنح نفسه إجازة، وإنما هو وقف لله ـ تعالىٰ ـ إن صح التعبير.

فالدعاة في البلاد التي تنعم بشيء من الحرية، توافرت لهم معظم أسباب الراحة والرفاهية، وَسُخرت لهم كثير من الوسائل التي تعين علىٰ الدعوة التي لا يقدر غيرهم من الدعاة علىٰ معشارها، وتهيأ لهم الجو الملائم للدعوة والحركة من حيث الأمن وحرية الكلمة والإمكانات المالية وغير ذلك، فالدعاة في البلاد الأخرىٰ لا يستطيع أحدهم أن يجتمع مع أخيه في مجلس واحد وآخرون لا يستطيعون الصلاة في جماعة في المسجد؛ لأنهم مراقبون وآخرون مطاردون وآخرون معتقلون، ومنهم من قضىٰ نحبه ومنهم من ينتظر، ينتقل أحدهم من مركبة إلىٰ أخرىٰ ومن شارع إلىٰ شارع؛ لحضور اجتماع أو محاضرة، فتأخذ هذه العملية ساعات طويلة لا يعلم بحالهم إلا الله ـ تعالىٰ.

أما نحن ففي دقيقة واحدة نصل إلىٰ المكان من غير عناء أو جهد، ثم انظر إلىٰ بيوتنا..فإذا هي قصور، وإلىٰ مأكلنا، فإذا هو من أطايب الطعام، وإلىٰ سياراتنا وإلىٰ كل شيء عندنا؛ فإذا نحن في نعمة عظيمة يا ليتنا ننتبه إليها، ولكننا ألفنا هذه النعمة فظننا أن الناس كلهم مثلنا ولكن ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ۝٣٥﴾[1]، أي: نختبركم أتشكرون أم تكفرون، وشكر أهل العلم ممن امتّن الله عليهم بالفهم الصحيح، لا ينبغىٰ أن يكون باللسان فحسب إنما بالعمل المتواصل الدؤوب، فهي فرصة سانحة، علينا أن نستغلها، فهي أيام الله نخشىٰ ألا نعرف قيمتها إلا إذا زالت ولم نعمل فيها شيئًا فنعض علىٰ أناملنا بعد ذلك حسرة وندمًا، ونحن في موسم كما للنبات موسم إذا تعدىٰ موسم النبات ولم تغرس فيه غرسك، فإنك لم تجن شيئًا.

فلم التكاسل ورسول الله ﷺ خرج من الدنيا ولم يشبع من خبز البر؟! فتذكر أن الدنيا ليست هدفًا نسعىٰ إليه ولا غاية نصبو إليها، فالدنيا أيام طويلة في ميزان غيرنا، وإنما هي دقائق قليلة في ميزاننا، دقائق تمر بسرعة عجيبة، لا يكاد يبدأ أول العام حتىٰ نسمع بآخره، لا يلبث أحدنا حتىٰ يجد نفسه أمام حقيقة عظيمة ألا وهي الموت، ومفارقة هذه الدنيا

---

(١) الأنبياء: ٣٥.

بزينتها وزخرفها وملذاتها حاملاً معه الثروة الحقيقية والرصيد النافع ألا وهو العمل الصالح وتاركًا وراءه كل شيء، ولتنتبه أخي الداعية فلا تجعل طول الأمل يستحوذ عليك فيخدعك بصغر سن أو سلامة بدن، فالقلب ما هو إلا عضلة تنبض وبيد الله ـ تعالىٰ ـ مقاليدها، فإذا حان الأجل توقفت من غير أن تستأذنك أو تنذرك، فإذا أنت أمام الله رهين ما قدمت من عمل «**ورحمة الله واسعة**»، فالنبي ﷺ بين ذلك فقال: «**خذ من حياتك قبل موتك، ومن صحتك قبل سقمك، فإنك لا تدري يا عبد الله ما اسمك غدًا**»(١)

ويقول الشاعر:

الموت يأتـي بغتة والقبر صندوق العمل

وليكن مثلك في ذلك بعد النبي ﷺ حارثة رضي الله عنه فيما قال: «**أصبحت مؤمنًا حقا عزفت نفسي عن الدنيا أسهرت ليلي وأظمأت نهاري وكأني أنظر إلىٰ أهل الجنة فيها ينعمون، وإلىٰ أهل النار فيها يصطرخون**»(٢) نعم إنه رجل تعلق قلبه بالآخرة.

ثم تذكر ولا تنس يا أخي الداعية أنه ليس بينك وبين كل ما تسمع عنه من جنة ونار وحساب وصراط إلاّ ستار رقيق يهتكه الموت، فإذا أنت أمام هذه المشاهد العظيمة.

*****

(١) أخرجه البخاري (٦٤١٦)، والترمذي (٢٣٣٣) عن ابن عمر رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير (٣/ ٢٦٦) (٣٣٦٧)، وعبد بن حميد في مسنده (٤٤٥)، عن الحارث بن مالك الأنصاري، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١/ ٥٧): «رواه الطبراني في الكبير وفيه ابن لهيعة وفيه من يحتاج إلىٰ الكشف عنه».

رابعا: إشارات ضوئية يحتاجها الداعية

طريق الدعوة طويل، فهو طريق الإدراك والتكليف، فما دام المسلم في إدراكه ووعيه فهو في سيره في قافلة المؤمنين العاملين، فحياة المسلم درب من جهاد متواصل لا هوادة فيه، فهي عبودية مطلقة لله ـ سبحانه ـ في كل شيء ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾﴾[1] فإذا كان السير مستمرًّا والحركة دائبة، واستيعاب جميع فرعيات مستلزمات المعرفة اللازمة للطريق أمر صعب، كان لابد من هذه الإشارات الضوئية التي تلفت الانتباه إلىٰ معاني تأصيلية يحتاجها السائر في طريق الدعوة الربانية، فهي التفاتات تشد الانتباه للبحث والتنقيب في المعاني الدعوية من خلال مصادر الدعوة الإسلامية ـ الكتاب الكريم، السنة المطهرة، مسيرة السلف رضوان الله عليهم، استدلالات الفقهاء ـ رحمهم الله، تجارب الدعاة.

والله أسأل أن يُنبهنا لخطوات طريقنا، وهو ولي ذلك والحمد لله رب العالمين.

١ـ التحرك الذاتي:

لا ينبغي للأفراد أن يكون تحركهم ونشاطهم ناتجًا عن تأثيرهم بالمربي وشخصيته فقط، وإنما يجب أن يكون نابعًا من ذاتيتهم وإيمانهم بضرورة العمل، فهذا من شأنه أن يحفظ عليهم عطاءهم وبذلهم مهما تغير الظرف وتبدل؛ لذا يجب علىٰ المربي أن ينتبه لذلك، ويغرس في نفوس الذين يعملون معه دافع الذات والإيمان.

٢ـ الفهم لتلميح الموجه:

إن أحوج ما يحتاج إليه الداعية هو سرعة الفهم الذي يدفع به إلىٰ العمل السريع المفيد للحركة، كما فهم أبو بصير قول الرسول ﷺ له: «**ويل أمه، مسعر حرب لو كان معه رجال**»[2]. فدفع به الفهم إلىٰ أن يلتجئ إلىٰ الساحل مؤلفًا عصابة قوامها سبعون رجلاً مهمتها حرمان قريش من الأمن والطمأنينة وإقضاض مضاجعهم وزلزلة أمنهم

(١) الأنعام: ١٦٢.

(٢) سبق تخريجه.

وإقلاق بالهم. فقدم بهذا الفهم العميق الخير الكثير للإسلام والمسلمين.

٣ـ البيان ثم الأمر:

إن ما يخطئ فيه كثير من المربين في توجيهاتهم هو أن يجعلوها مقرونة بأسلوب الأمر قبل البيان مستغلين بذلك طاعة الدعاة لهم، وظنهم أنهم بذلك يوفرون لأنفسهم وقت الحجة والبيان. وهم بهذا يرتكبون خطأين: الأول تربوي حيث إن الأخ يتعود علىٰ تلقي الأوامر دون أن يتبينها... فتقتل فيه روح القيادة والإبداع.. والآخر: شرعي، حيث إن رسول الله ﷺ كان يبين ثم يأمر وهذا واضح في منهجه عمومًا. ومنها علىٰ سبيل المثال قوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ لأبي بصير حيث أتاه في المدينة بعد هروبه من قريش: «**إن هؤلاء قد صالحونا علىٰ ما قد علمت، وإنا لا نغدر، فالحق بقومك**»[1]. فذكره بالعهد والميثاق، والوفاء به، ونبهه إلىٰ خطورة الغدر، ثم أمره بالعودة إلىٰ مكة.

فتعود أخي المربي في تربيتك لإخوانك أن تقوم بالتبيين لهم والتوضيح، ثم بعد ذلك مر أفرادك بما ترمي إليه.

٤ـ التوكل علىٰ الله:

كثيرًا ما يغفل الدعاة عن القوة الحقيقية في هذا الكون، التي يركن إليها المسلم وهو الله، وذلك في خضم الدعوة، ومعاناة الباطل؛ لذلك قال لوط عندما أتته جحافل الباطل: ﴿ قَالَ لَوۡ أَنَّ لِي بِكُمۡ قُوَّةً أَوۡ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكۡنٖ شَدِيدٖ ﴿٨٠﴾ ﴾[2] وهو بذلك قد نسي أنه يركن إلىٰ رب قوي شديد. ثم إن أي شيء أكبر وأعظم من العرش ومع ذلك تحمله الملائكة وتطيقه بقوة جبارة أمدهم القويّ ـ سبحانه وتعالىٰ ـ بها ويستمر إمدادهم بها؛ لأنهم يطلبونها منه تعالىٰ قائلين: لا حول ولا قوة إلا بالله، وبالتوكل أمرنا الله بقوله: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓ ﴾[3]. وقال ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ فَزَادَهُمۡ

---

(١) أخرجه البيهقي في السنن الكبرىٰ (٩/ ٢٢٧) عن مروان بن الحكم والمسور بن مخرمة.
(٢) هود: ٨٠.
(٣) الطلاق: ٣.

﴿إِيمَٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ١٧٣﴾[١]. وهذه قولة الأنبياء من قبل فقد قالها إبراهيم الخليل حين ألقي في النار كما ثبت في البخاري[٢]، وقد وردت صفة الرسول ﷺ في التوراة كما ثبت في الصحيحين «**إنه المتوكل**»[٣]... كذلك قال السلف: «**من سره أن يكون أقوىٰ الناس فليتوكل علىٰ الله**»[٤].

فتوكل أخي الحبيب علىٰ الله ووجه إخوانك إلىٰ هذه الحقيقة تكن لهم المعين علىٰ مواصلة هذا الطريق الطويل.

٥ـ دعــــــاء:

في فترة الضياع التي يعيشها المجتمع الإسلامي، وكثرة الآراء والاجتهادات، تعتري الإنسان بعض الحيرة في معرفة الصواب أحيانًا..، وهذه المعرفة لا تكون إلا بتوفيق الله ـ تبارك وتعالىٰ ـ وهذه سبيلها الدعاء الخالص؛ ولذلك علمنا رسول الله ﷺ إذا اشتبه علينا ما اختلف فيه الناس أن نقول هذا الدعاء الذي يرويه مسلم عن عائشة رَحَمَهُ اللَّهُ: «**اللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل، فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك، إنك تهدي من تشاء إلىٰ صراط مستقيم**»[٥].

وهذا الدعاء أهميته تأتي؛ لكون الله ـ تعالىٰ ـ قال فيما رواه عنه رسول الله ﷺ: «**يا عبادي كلكم ضال إلا من هديته، فاستهدوني أهدكم**»[٦].

٦ـ انتبه لأمانتك:

كان طاوس جالسًا وعنده ابنه. فجاء رجل من المعتزلة، فتكلم في شيء فأدخل

(١) آل عمران: ١٧٣.
(٢) أخرجه البخاري (٤٥٦٣) عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.
(٣) أخرجه البخاري (٤٨٣٨) عن عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.
(٤) أخرجه ابن أبي الدنيا في مكارم الأخلاق (٥) عن ابن عباس مرفوعًا، وقال الألباني في ضعيف الجامع (٥٦٢٧): «ضعيف جدًّا».
(٥) أخرجه مسلم (٧٧٠).
(٦) أخرجه مسلم (٢٥٧٧) عن أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

طاوس أصبعيه في أذنيه.وقال: يا بني، أدخل إصبعك في أذنك حتىٰ لا تسمع من قوله شيئًا فإن هذا القلب ضعيف، هكذا كان السلف يخشون علىٰ أبنائهم والأخ الذي بين يديك بمثابة ابنك، والأهواء التي تحيط به وتسرع إلىٰ قلبه لا تقل عن سرعة النار بالهشيم، كما جاء بالأثر: «**تأتيكم دنيا تأكل إيمانكم كما تأكل النار الحطب**»[1] فعلمه في بداية طريقه أن يكون كأبي أيوب عندما قال له رجل من أهل الأهواء: أكلمك بكلمة؟ قال: لا ولا نصف كلمة، وعلمه أن يكون ذا حساسية يجزع عندما يعطي السلام لمن لا يستحق السلام، كما جزع سليمان التيمي وبكىٰ في مرضه فقيل له: أتجزع من الموت؟ قال: لا ولكن مررت علىٰ (قدري) فسلمت عليه، فأخاف أن يحاسبني ربي عليه، فاحرص أخي المربي علىٰ أمانتك واعلم أن صفاء الابتداء له أثر كبير علىٰ أخيك عندما يبلغ سن الإنتاج، وهذه قضية من قضايا الولاء، فلا تلتفت عنها إلا وهي واضحة فيمن معك.

٧ـ هكذا تفهم الفراسة:

هناك سؤال يرد في الذهن، وهو: هل الفراسة أمر ينبغي أن نبني عليه اختيارنا أو رفضنا هذه الدعوة بشكل مطلق، دون قيد أو شرط؟

والجواب يكون بـ(لا)..فمع أن الفراسة يحتاجها المسلم والداعية عند اختياره وانتقائه لجنود هذه الدعوة من بين المجتمع، لكنه يقيدها بشروط، فلا يترك العنان كله للفراسة، حيث لا ينبغىٰ أن نحكم علىٰ شخص ما حكمًا سريعًا غير مدروس يتوقف عليه ضمه لصف الدعوة أو عدم صلاحه لها، وعلىٰ هذا فلابد من محاولات كثيرة وصبر وسعة صدر وتصحيح مفاهيم ومواصلة المحاولة تلو المحاولة، وملاحظة دقيقة حتىٰ إذا ما أصدرنا حكمنا عليه يكون حكمًا مدروسًا، والفراسة أوله وليست كله.

وأنبه إلىٰ أن أي أمر نتصرف به بفراستنا فقط سنضيع علىٰ دعوتنا خيرًا كثيرًا أو جنديًّا صالحًا أو نضم عنصرًا متعبًا لدعوة، وقد يأتىٰ من ورائه الشر والفساد والفرقة التي نحن أحوج ما نكون إلىٰ تجنبها.

(١) ذكره العراقي في المغني عن حمل الأسفار (٢/ ٨٧٨) ، وقال: «لم أجد له أصلاً».

فلو رأيت إنساناً كسولا يحب الدعة والراحة، ويتهرب من الجهد والتعب، فلا تتسرع في حكمك عليه فتقول بفراستك: إنه لا يصلح لصف الدعاة، ولكن هناك شروط للقبول طبقها عليه جميعها ثم يعالج عيبه الوحيد بصبر وأناة، فلربما كان في هذا الشخص خير وصلاح وميزات طيبة تجعله جنديًّا صالحًا وذا فائدة عظيمة للإسلام، فاعمل أخي الحبيب علىٰ علاج عيبه حتىٰ ينال أجر ضمه إلىٰ دعوتك، ولا تتعجل في رفضه وتضعيفه فتخسر الأجر، وعكسه صحيح، فلا تتسرع بتوثيق شخص قبل أن تميزه وتختبره وتختاره حسب الشروط، فهذا رسولنا الكريم ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ كان يدعو رؤوس الكفر وعتاته وأصحاب السطوة والظلم إلىٰ صف الإسلام وما اعتمد علىٰ فراسته فقط في اختياره جنود دعوته، وقد اعتمد المسلمون علىٰ فراستهم؛ فقط عندما قالوا عن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «**لو آمن حمار الخطاب ما آمن ابن الخطاب**» فخابت فراستهم لعدم اعتمادها علىٰ المحاولة والجد والاجتهاد وبذل الأسباب.

٨ ـ لا تنخدع:

هناك صور كثيرة يراها الإنسان، فينخدع في إعطاء الحكم عليها وتقييم أصحابها لما يراه منهم من صور لا يتصور أن يراها إلا في عالم المعجزات وقصص الأساطير والأبطال، ولتوضيح الصورة نذكر قصة بابك الخرمي الباطني الذي عاث في الأرض فسادًا في انتهاكه لحرمات المسلمين من دمائهم وأعراضهم، واستمر علىٰ ذلك سنين وتبعه خلق كثير حتىٰ تمكن منه المعتصم سنة ٣٢٢هـ، فقال له أخوه وكان معه: قد عملت ما لم يعمله أحد، فاصبر الآن صبراً لم يصبره أحد، فقال: سترىٰ صبري، فأمر المعتصم بقطع يديه، ورجليه، فلما قطعوا مسح بالدم وجهه، فقال المعتصم: أنت في الشجاعة كذا وكذا ما بالك قد مسحت وجهك بالدم أجزعًا من الموت، فقال: لا. ولكني لما قطعت أطرافي نزف الدم، فخفت أن يقال عني: إنه اصفر وجهه جزعاً من الموت، قال: فيظن ذلك بي فسترت وجهي بالدم كيلا يُرىٰ ذلك مني[1]... وكذلك قصة

(١) المنتظم لابن الجوزي (١١/ ٧٧) ط. دار صادر، وتاريخ الإسلام للذهبي (١٦/ ١٢) ط. دار الكتاب العربي.

ابن ملجم الذي قتل الإمام عليا رضي الله عنه حيث قطع عبد الله بن جعفر يديه، ورجليه فلم يجزع ولم يتكلم فكحل عينيه بمسطر محمىٰ. فلم يجزع، وجعل يقرأ...

﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢﴾[1] حتىٰ ختمها، وإن عينيه لتسيلان، فعولج علىٰ قطع لسانه فجزع فقيل له: لم تجزع فقال: أكره أن أكون في الدنيا مواتًا لا أذكر الله[2]..وقصة أولئك الذين رفعوا عليًّا إلىٰ منزلة الألوهية... فحفر لهم أخدودًا وأضرم فيه النار فأخذ أحدهم يرمي نفسه في الأخدود ويقول: ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ۝٨٤﴾[3] [4].

ومثل هذه الحوادث الصحيحة كثيرة في ذلك الوقت، وهي في هذا الزمان كذلك، فاحذر أن يلبس عليك الشيطان فتوثق هذا الصنف نتيجة لصبره واحتماله..ولكن عليك ما كان عليه السلف ـ رضوان الله عليهم ـ في التوثيق حيث يوثق الرجل علىٰ قدر ما هو عليه من الكتاب والسنة.

٩ـ زدها ولا تخش:

عن الحارث بن قيس رضي الله عنه قال: «**إذا أتاك الشيطان وأنت تصلي فقال: إنك ترائي فزدها طولاً**»[5].

فللشيطان مدخلان إما إفراطًا أو تفريطًا، فإذا عجز عن الإفراط لجأ إلىٰ التفريط... فيا معاشر العاملين، نظراً لكثرة أعمالكم وبروزكم في كل مكان وفي كل ميدان، فإنكم تحتاجون إلىٰ وصية الحارث حيث يوسوس الشيطان لكم، ليقعدكم عن عمل يزيدكم محبة عند الله ويبعدكم عنه فخالفوا الشيطان، وأكثروا من الأعمال في جميع الميادين وتنافسوا في الخير، وادحضوا وساوس الشيطان كما دحضها أبو بكر الصديق رضي الله عنه عندما تبرع بماله كله، وعندما دحضها صهيب فهاجر من مكة إلىٰ المدينة وترك ماله كله للكفار، وكما فعل سمرة

---

(١) العلق: ١، ٢.

(٢) ذكره ابن الجوزي في تلبيس إبليس ص (١١٦)، وابن تغري بردي في النجوم الزاهرة (١/ ١٢٠).

(٣) طه: ٨٤.

(٤) انظر: فتح الباري (١٢/ ٢٧٠).

(٥) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف (٨٣٥٧)، وابن المبارك في الزهد (٣٥).

بن جندب، ورافع بن خديج وغيرهم من السلف ـ رضوان الله عليهم.

١٠ـ لأهل الفضل ما فعلوا والمعصوم هو ﷺ:

المسيرة في طريق الدعوة تلزم صاحبها بأن يثبت علىٰ طريق طويل يمتد إلىٰ آخر الأجل، لذلك كان علىٰ صاحبها أن يعلم أن ما قدمه سيكتب عند الله إن توافرت فيه شروط القبول، وأن ما سيأتي من الأعمال هو محاسب عليه إن خيرًا فخير وإن شرا فشر...، وهذا المنهج يبينه عمر بن الخطاب رضي الله عنه مع ولاته علىٰ الأمصار وهم من هم صحابة الرسول ﷺ وأصحاب بدر ومنهم من بشر بالجنة...سعد بن أبي وقاص أحد العشرة المبشرين بالجنة وفاتح العراق وإيران صاحب الدعوة التي ليس بينها وبين السماء حجاب...ينم عليه النمامون من أهل الكوفة إلىٰ عمر ـ بأنه بني بالكوفة قصرًا وجعل بينه وبين الرعية بابًا يغلق ـ فهل يسكت عمر، لا فهو لا يكتفي بالخير الماضي، ولا يعتقد العصمة لأحد بعد رسول الله ﷺ، فإذا كان سعد من أهل الخير فيما مضىٰ، فقد مضىٰ ما مضىٰ، ويجب علىٰ سعد أن يكون مصدر خير في كل لمحة نفس.

وعلىٰ قرار ذلك بعث محمد بن مسلمة إلىٰ الكوفة، وأمره إن وجد قصرًا له باب دون الرعية أن يحرق هذا الباب ويرجع...، فذهب فلم يجد إلا دارًا متواضعة بنيت لتمنع ضجيج السوق عند الحكم بين الناس ومع ذلك نفذ محمد وصية عمر رضي الله عنه وحرق الباب، ثم رجع إلىٰ الخليفة وأخبره بما شاهد وفعل. فقال الفاروق: «**إن سعدًا أصدق ممن روىٰ عنه وممن أبلغني**»[(١)] نعم هذا سعد ولم يكن أمير المؤمنين يظن به غير ذلك، ولكن منهجية الخلافة والإماره حتمت عليه أن يتخذ هذا الأسلوب ولم لا؟ وهو القائل: «**انقطع الوحي ونحاسب الناس علىٰ ظواهرهم**». فإذا كان كذلك فلينتبه كل أمير لمن هم معه ولا يعتمد علىٰ ما كانوا عليه فقط من توثيق.

١١ـ طريق الإعانة:

كثيراً ما يتململ الأخ من ضيق الوقت وكثرة الأعمال وازدحامها ويسأل عن كيفية

---

(١) أخرجه ابن جرير الطبري في تاريخه (٢/ ٤٨١)، وأحمد في مسنده (١/ ١٧٩)، عن عباية بن رفاعة بن رافع، وقال الشيخ أحمد شاكر في تحقيقه للمسند (٣٩٠): «إسناده ضعيف؛ لانقطاعه».

الاستفادة من الأوقات والاستعانة علىٰ إنجاز هذه الأعمال. والأمر ليس كما يتصوره الأخ ضيقًا حرجًا، بل هو سهل ويسير بتيسير الله له، وهذا يكون بالأمور الآتية:

١ـ الإخلاص لله والتوكل عليه بالدعاء، وأصل ذلك المحافظة علىٰ الصلوات ظاهرا وباطنًا.

٢ـ الإحسان إلىٰ الخلق بالمال وبكل ما ينفع.

٣ـ الصبر علىٰ أذىٰ الخلق والصبر علىٰ النوائب.

فهذه الأمور الثلاثة بعد مشيئة الله تعالىٰ يتحقق بها توفيق الله تبارك وتعالىٰ وبها تهون الصعاب وتحل المشاكل، كما بين رسول الله ﷺ في الحديث القدسي الذي يرويه عن ربه: «**ما زال عبدي يتقرب إلىٰ بالنوافل حتىٰ أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، ولئن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه**»(١).

١٢ـ التربية والمداراة:

كثيراً ما يخطئ الأخ في تربيته لأخيه ويسيء إليه من حيث لا يدري، بأن يظن بأن حسن النية بمن معه والإحسان إليهم أن يفعل ما يرغبون فيه ويترك ما يكرهونه.

ولخطورة المسألة أنزل الله بها قرآنًا من السماء، فقال جل شأنه: ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾(٢) ثم خصص الخطاب للمدعوين من الصحابة فقال: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ ۚ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِى كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ﴾(٣)؛ ولذلك كان الإحسان إليهم ـ الذي هو مطلوب منك شرعًا ـ فعل ما ينفعهم في الدين والدنيا ولو كرهه من كرهه، فإذا رأيت في أخيك ما ينقصه كأخ قدوة فعليك بإسداء النصح إليه وعدم تركه، حتىٰ لا تتهمه وقت التقييم بالضعف والخور والفوضىٰ وعدم النظام وغيرها من السلبيات، مبتغيًا من حجب النصح عنه الحفاظ علىٰ صداقته وعدم الاصطدام معه،

---

(١) أخرجه البخاري (٦٥٠٢) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) المؤمنون: ٧١.

(٣) الحجرات: ٧.

مهتديًا بمقولة عمر بن عبد العزيز رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «**والله لا يريد أن أخرج لهم المرة من الحق، فأخاف أن ينفروا عنها، فاصبر حتىٰ تجيء الحلوة من الدنيا فأخرجها، فإذا نفروا لهذه سكنوا لهذه**»[١].

وبذلك يوصي النبي ﷺ فيقول في حديث مسلم: «**ما كان الرفق في شيء إلا زانه، ولا كان العنف في شيء إلا شانه**»[٢].

١٣ـ الاستطاعة مخرج:

إن الفرد في تجمع الدعاة وخصوصًا الجديد في حقل الدعوة، يتصور في المربي التكامل التربوي، والقمة في القدوة، والاكتفاء بالشروط..حتىٰ إذا ما رأىٰ منه قصوراً كانت هزة في نظرته وفي فكرته، وهو بعد ذلك بين أمرين إما أن تفتر فيه الهمة فيضعف وإما أن يستسلم للوضع ويسير في الدعوة وهو لا يعرف حقيقة هذا الأمر ومن ثم يعيش في كيان الدعوة مترددًا لا يكاد يستقر وبذلك ينعدم منه الإنتاج..وحتىٰ نتلافىٰ هذا الشرخ في الدعوة يجب أن نبين للأفراد «**أن الشروط تُفعل حسب الإمكان**» وليس ذلك في شروط الأخ بل وسائر شروط العبادات من الصلاة والجهاد وغير ذلك، فهذه واجبات مع القدرة، أما مع العجز فإن الله لا يكلف نفسًا إلا وسعها؛ ولهذا أمر الله المصلي أن يتطهر بالماء، فإن عدمه أو خاف الضرر باستعماله؛ لشدة البرد أو جراحه أو غير ذلك يتيمم صعيدًا طيبًا فيمسح بوجهه ويديه منه. وهكذا الصلاة...فكل أخ يرىٰ منه قصورًا يحسن الظن به ويقال:هذه استطاعته ولا يكلف الله نفسًا إلا وسعها...وكل ابن آدم خطاء.

١٤ ـ هكذا لا يبخل علىٰ الإسلام:

«**قام رسول الله ﷺ في الغار ثلاثـًا ومعه أبو بكر حتىٰ إذا مضت الثلاث وسكن عنهما الناس، أتاهما صاحبهما الذي استأجراه ببعيرين لهما، وبعير له، وأتتهما أسماء بنت أبي بكر** رَحِمَهَا اللهُ **بسفرتهما، ونسيت أن تجعل لها عصامًا ـ وهو ما تعلق به السفرة ـ فلما ارتحلا**

---

(١) ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية في مجموع الفتاوىٰ (٢٨/ ٣٦٤، ٣٦٥) .

(٢) أخرجه مسلم (٢٥٩٤) عن عائشة.

ذهبت لتعلق السفرة، فإذا ليس لها عصام، فعمدت إلىٰ نطاقها فجعلته عصامًا، ثم علقتها به»... سبحان ربي فتاة لم تفقه بعد الإسلام ولم يكتمل نضجها، ولم تتلق التربية الكاملة ولكنها تصرفت بفطرتها، فنظرت فرأت أنها لو بخلت بخاصية نفسها لما استطاع موكب الدعوة أن يسير؛ لأن الزاد أساس القوة، والقوة أساس المسير، فهيا إخوة الطريق لا تبخلوا علىٰ الدعوة بجهدكم ووقتكم ومالكم الخاص بكم، علاوة علىٰ ما نذرتموه من الفائض، كما لا تبخلوا بحظوظ أنفسكم وعزة نفوسكم.

١٥ ـ العقل خلق للتدبر:

اعلم ـ أخي ـ أنه قبيح بمن أعطىٰ شمعة يستضيء بها أن يطفئها ويمشي في الظلمة... فالعقل هو الشمعة التي أعطاك الله إياها، فمن الضلال أن تسلم عقلك لغيرك وتسير علىٰ غير هدىٰ ونور، فينبغي أن يكون النظر إلىٰ القول لا إلىٰ القائل كما قال علىٰ ﷺ للحارث بن حوط وقد قال له: أتظن أنا نظن أن طلحة والزبير كانا علىٰ باطل؟ فقال له: يا حارث، إنه ملبوس عليك، إن الحق لا يعرف بالرجال، اعرف الحق تعرف أهله[(١)]. ولكن التمادي في هذا ـ أي في استعمال العقل وعدم الوقوف عند حدود الشرع يؤدي إلىٰ علم الكلام، وهذا نوع آخر من التلبيس، وهو تلبيس مذموم كما قال الإمام الشافعي رحمه الله: «**لأن يبتلىٰ العبد بكل ما نهي الله عنه ما عدا الشرك خير له من أن ينظر في الكلام**»[(٢)] وإذا كان كذلك، فانتبه إلىٰ هجر العقل وإلىٰ التمادي في استخدام العقل: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾[(٣)].

١٦ ـ بالأعمال فالتزم ولا تلتفت:

روىٰ وهب بن منبه ﷺ قال: كان راهب في صومعته في زمن المسيح عليه السلام، فأراده إبليس، فلم يقدر عليه، فأتاه بكل طريق فلم يقدر عليه، فأتاه متشبهًا بالمسيح. فناداه: أيها الراهب أشرف عليَّ أكلمك، قال: انطلق لشأنك فلست أرد ما مضىٰ من

(١) سبق تخريجه.
(٢) ذكره ابن الجوزي في تلبيس إبليس ص (١٠٢)، وشيخ الإسلام ابن تيمية في درء التعارض (٧/ ١٤٦).
(٣) البقرة: ١٤٣.

عمرى، فقال: أشرف علىٰ، فأنا المسيح، فقال: إن كنت المسيح فما لي إليك حاجة ألست قد أمرتنا بالعبادة ووعدتنا القيامة، انطلق لشأنك، فلا حاجة لي فيك فانطلق اللعين عنه وتركه، هذا هو دأب إبليس اللعين لا يترك أحدًا، ما ترك آدم ـ عليه السلام ـ وهو في الجنة، وما ترك موسىٰ وهو رافع يديه يناجي ربه ـ فكيف يعقل أن يتركك وأنت تصارع هذه الجاهليات، فسيأتيك بطرق متعددة حتىٰ يثنيك عن عزمك وطريقك فيأتيك، كما أتىٰ إلىٰ الراهب فقال له:إني عيسىٰ، فيأتيك فيقول لك: أنا شيخ الدعاة، أنا من عاصرت الحركات أنا من قمت بالتضحيات... أنا...أنا... إلىٰ غير ذلك، فلا تعره سمعك وقل له كما قال الراهب...أليست الدعوة هي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وفق أصول الشرع، أليست هي العمل علىٰ أمر واضح، فإني كذلك فاذهب إلىٰ غيري من أهل الجاهلية، وانصح له وبين.

١٧ ـ الشيطان فاحذر:

اعلم ـ أخي ـ حفظك الله أن الآدمي لما خلق ركب فيه الهوىٰ والشهوة؛ ليجلب ما ينفعه... فلا يلبس عليك الشيطان، فتأخذ أكثر مما ينفعك فيضرك وأنت كمربٍّ تجلب ما ينفعك في أمور العمل الإسلامي في حدود مسؤوليتك، فإذا أخذت أكثر مما ينفعك فاعلم أنه إسراف وتلبيس يضرك، كذلك في كل أمر تأخذ منه من طعام، ونوم، ومال... إلخ موضع فيه الغضب؛ ليدفع به ما يؤذيه، فلا يلبس عليك الشيطان فتدفع ما لا يؤذيك من أمر مربيك، أو محاسبته، أو نصحه وتبيانه، فإنه دفعٌ مما ينفعك وبذلك تلبيس، واعلم أن الإنسان أعطي العقل كالمؤدب يأمره بالعدل فيما يجتلب ويجتنب، فكن من أصحاب العقول الذين يعرفون غاية الخلق، ومقاصد الشرع: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾﴾ (١)، فالعقل يعلم أنه يجب أن يأخذ حذره من الشيطان الذي خلق محرضًا للإنسان علىٰ الإسراف في اجتلابه واجتنابه، وبذلك يكون فاهمًا لمقاصد الشرع في التحذير من الشيطان بآيات كثيرة التي منها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُوا۟ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٦٨﴾

(١) آل عمران: ١٩٠.

إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلْفَحْشَآءِ وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٦٩﴾ ﴾[١].

١٨ ـ موازين في العمل الإسلامي:

١ ـ كل قول لا ينبني عليه عمل، فالخوض فيه من التكلف الذي نهينا عنه شرعًا.

٢ ـ لا اجتهاد مع النص.

٣ ـ لا كبيرة مع استغفار، ولا صغيرة مع الإصرار.

٤ ـ ونفسك إن لم تشغلها بالحق...شغلتك بالباطل.

٥ ـ اقتصاد في سنة... خير من اجتهاد في بدعة.

٦ ـ ما يصدر من القلب فمحله القلب، وما يصدر من اللسان، فمحله الآذان.

٧ ـ لا تكتم علمًا...ولا تتكلم جهلاً.

٨ ـ لا نحب ولا نكره إلا في الله.

٩ ـ الحلال بيِّن، والحرام بيِّن، وبينهما أمور مشتبهات[٢].

١٠ ـ دع ما يريبك إلىٰ ما لا يريبك[٣].

١١ ـ المسؤولية تكليف لا تشريف.

١٢ ـ من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه[٤].

١٣ ـ إنما الأعمال بالنيات... وإنما لكل امرئ ما نوىٰ[٥].

١٤ ـ خير الأعمال..أدومها وإن قل[٦].

١٥ ـ الواجبات أكثر من الأوقات...فأعن أخاك علىٰ الانتفاع بوقته.

١٦ ـ استعينوا علىٰ قضاء حوائجكم بالكتمان[١].

---

(١) البقرة: ١٦٨، ١٦٩.

(٢) انظر: صحيح البخاري (٥٢)، ومسلم (١٥٩٩) من حديث النعمان بن بشير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٣) انظر: سنن الترمذي (٢٥١٨) من حديث الحسن بن علي، وصححه الألباني.

(٤) انظر: سنن الترمذي (٢٣١٧) عن أبي هريرة، وصححه الألباني.

(٥) انظر: صحيح البخاري (١)، ومسلم (١٩٠٧) من حديث عمر.

(٦) انظر: صحيح البخاري (٦٤٦٤)، ومسلم (٢٨١٨) من حديث عائشة.

١٧ ـ درء المفاسد مقدم على جلب المصالح.

١٨ ـ نريد دعاة مسلمين، لا مسلمين فقط. ١٩ ـ المحنة متوقعة دائما.

٢٠ ـ التضعيف قبل التوثيق. ٢١ ـ نثق بقيادتنا.

٢٢ ـ اعقلها....وتوكل(٢).

٢٣ ـ أنا زعيم ببيت في ربض الجنة لمن ترك المراء وهو محق(٣).

٢٤ ـ ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾(٤).

٢٥ ـ لا إيثار في الطاعات. ٢٦ ـ الانتقاء يقي المصارع.

٢٧ ـ التمس لأخيك سبعين عذرًا.

٢٨ ـ نحكم بالظاهر...والله يتولى السرائر.

٢٩ ـ إنكار المنكر واجب...ولو بالقلب.

٣٠ ـ من حام حول الحمى...أوشك أن يوقع فيها(٥).

٣١ ـ لذة في لحظة معصية...ننال منها عذابًا أليمًا أمد الحياة. أو مشقة في لحظة طاعة... ننال منها نعيمًا مقيمًا أمد الخلود.

٣٢ ـ المسلم لا يسعه إلا العمل الجماعي. ٣٣ ـ نبدأ بالأهم قبل المهم.

٣٤ ـ حسن الظن واجب شرعي.

٣٥ ـ اختلافاتنا الفقهية لا تؤثر في علاقاتنا الأخوية.

٣٦ ـ من ذم نفسه أمام الملأ فقد مدحها. ٣٧ ـ لا إفراط ولا تفريط.

٣٨ ـ نريد بالمكث...ما تريد بالحث.

---

(١) انظر: الطبراني في الكبير (٢٠/ ٩٤) (١٨٣) من حديث معاذ، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٩٤٣).

(٢) انظر: سنن الترمذي (٢٥١٧)، من حديث أنس بن مالك، وحسنه الألباني.

(٣) انظر: سنن أبي داود (٤٨٠٠) من حديث أبي أمامة، وحسنه الألباني.

(٤) آل عمران: ٩٢.

(٥) انظر: صحيح البخاري (٢٠٥١)، ومسلم (١٥٩٩) من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنهما

٣٩ ـ لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق[1]. ٤٠ ـ الإيمان يزيد وينقص.

٤١ ـ حُفَّت النار بالشهوات...وحُفت الجنة بالمكاره[2].

٤٢ ـ لا يقبل من العمل إلا ماكان: خالصًا، صائبـًا[3].

٤٣ ـ وزن المسلم بحسناته وأخطائه معًا. ٤٤ ـ صواب القول من صواب العمل.

٤٥ ـ الإفراط في «**التورية**» قد يؤدي إلىٰ الكذب.

٤٦ ـ العبرة بعموم اللفظ...لا بخصوص السبب.

١٩ ـ التخطي:

إن الأخ المسلم الداعية ـ وخصوصًا المربي ـ لابد أن يكون ذا طبيعة تميزه عن سائر الناس، وخلقًا يعطيه من التوقير والمكانة في نفوس إخوانه، وصبرًا يجعله قدوة لمن يدعوه. قال الله ـ تعالىٰ ـ بشأن المؤمنين: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[4]، فالمؤمن إذًا لين يتحلىٰ بالرفق مع الإخوان والأحباب الذين جمعته بهم رابطة العقيدة، وهو إلىٰ جانب ذلك يتميز بالشدة والعزيمة والقوة والعزة والخصومة لأعداء هذه العقيدة.

ولا يخفي علىٰ الداعية أن نفوس الناس مختلفة الطباع والمزاج تحب دائمًا أن تكون هي المصيبة والمحقة، فإذا ما بدا وظهر أنها أخطأت، فإنها تدافع عن خطئها إما بالقول أو العمل أو الإخفاء حتىٰ لا يظهر عجزها وزلتها، وفي مجال الدعوة يتعرض الداعية لأنواع مختلفة من المواقف من قبل المدعوين أو الأفراد أنفسهم يظهر فيها خطؤهم.

وهذا الخطأ لم يأتِ منهم إلا بسبب أنهم قليلو التصور للإسلام لم يفهموا العمق الإسلامي بعد ولَمَ ينغمسوا الانغماس الكامل في الدعوة ولم يعيشوا عيش الداعية لمعاني الإسلام العظيمة؛ فلهذا قد نرىٰ منهم أحيانًا بعض الأخطاء في تفسيراتهم وتأويلاتهم وأعذارهم وحتىٰ في عباداتهم وشعائرهم.

---

(١) انظر: مسند أحمد (١/ ١٣١) عن علىٰ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بإسناد صحيح.

(٢) انظر: صحيح مسلم (٢٨٢٢) من حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٣) انظر: سنن النسائي (٣١٤٠) من حديث أبي أمامة الباهلي، وقال الألباني: «حسن صحيح».

(٤) المائدة: ٥٤.

فهنا يأتي دورنا كمربين ودعاة فما رأيناه مخالفًا لأصول هذا الدين وقواعد الخير، فهو يحتاج إلىٰ تصويب ويتطلب حكمة في العلاج. آخذين بالاعتبار أن الذي أخطأ صاحب نفس لا تحب أن تكون مخطئة أبدًا بل تريد أن تكون علىٰ الصواب دومًا، وهنا يأتي دورك ـ أخي ـ فأنت بلا شك لست مداهنـًا تسكت علىٰ الخطأ والعيب وتاركه، وتخبر صاحبك أن ما ارتكبه بسيط ولا داعي للالتفات إليه، وهو محق فيما فعل، كما أنه لا يجب أن تبين خطأ صاحبك بالعبارات الجافة، والإصرار الذي يؤدي إلىٰ الجدل والمراء ولكن قدِّر أولاً هذا الخطأ ومكانته وأثره في حياة وتصور المدعو، ثم اختر العلاج المناسب له (وأنواع العلاجات والتربيات كثيرة)، ثم اختر وقتًا مناسبًا لتصحيح الخطأ، ثم اختر الوسيلة والطريقة لتبليغ هذا الحق.

واحذر ـ يا أخي ـ من الجدل المنهي عنه والتعصب والتصلب بقصد أن تهزم من هو أمامك وتظهر بمظهر المنتصر، ولا تعجب إن لم تجد استجابة من أول مرة فعاود العلاج مرة ثم مرة، كما أذكرك بأنه قد يكون هناك سبيل للعلاج أجدىٰ، وطريقة أصح لم تخطر عليك ففكر في حل لهذا الخطأ، وأعد الكرة مرة أخرىٰ وأنت متيقن بعون الله لك ببلوغ قصدك وتصحيح الخطأ.

وتذكر وأنت في علاجك أنك تريد الإصلاح والخير، فلا تجعل لنفسك نصيبًا حتىٰ لا تتعدىٰ حدود هذا الإلحاح إلىٰ مفسدة أنت في غنىٰ عنها وأحوج ما تكون إلىٰ تجنبها، بل اجعل قصدك هو الله واتبع سبيل الإخلاص والحق، لا يكن في همك أبدًا أن تُظهر أخاك مغلوبًا مهزومـًا مخطئًا وتكون أنت الغالب المنتصر الفائز، فإن وضعت ذلك في حسك، فلا تعجب إن لم تجد استجابة وبركة لكلامك، وأما إن وضعت في حسك دعوة الحق، فإن دعوة الحق لا تأتي إلا بالتلطف والنصيحة والأسوة الحسنة ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾(١) ﴿رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ﴾(٢).

وأذكرك أخيرًا بقول الحبيب ـ عليه الصلاة والسلام: «**ما كان الرفق في شيء إلا زانه ولا**

---

(١) المائدة: ٥٤.

(٢) الفتح: ٢٩.

نزع من شيء إلا شانه»[١].

٢٠ ـ قاعدة من قواعد التربية الربانية:

عندما يتعلق الأمر أو النهي بعادة أو تقليد، أو بوضع اجتماعي معقد، فإن الإسلام يتريث به ويأخذ المسألة باليسر والرفق والتدرج، ويهيئ الظروف الواقعية التي تيسر التنفيذ والطاعة.

ولكن عندما يتعلق الأمر بقاعدة من قواعد التصور الإيماني، أي بمسألة اعتقادية، فإن الإسلام يقضي فيها قضاء حاسمًا منذ اللحظة الأولىٰ، لا تردد فيها ولا تلفت، ولا مجاملة ولا مساومة ولا لقاء في منتصف الطريق؛ لأن المسألة هنا مسألة قاعدة أساسية للتصور، ولا يصلح بدونها إيمان ولا يقام إسلام.

٢١ ـ الغضب للدعوة وما ينالها من غمز الغامزين ولمز اللامزين:

من المعروف سلفًا أن الناس في الغضب ثلاثة أقسام: قسم يغضبون لنفوسهم ولربهم، وقسم لا يغضبون لنفوسهم ولا لربهم، والثالث وهو الوسط أن يغضب لربه لا لنفسه، كما ورد عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «**ما ضرب رسول الله ﷺ بيده خادمًا له ولا امرأة ولا دابة ولا شيئًا قط إلا أن يجاهد في سبيل الله، ولا نيل منه شيء، فانتقم لنفسه قط إلا أن تنتهك حرمات الله، فإذا انتهكت حرمات الله لم يقم لغضبه شيء حتىٰ ينتقم لله**»[٢]، أما من يغضب لنفسه لا لربه أو يأخذ ولا يعطي غيره، فهذا شر الخلق.

فالدعاة إلىٰ الله أعين للدعوة وألسنة لها يحفظون ويذودون عن أفكارها وسياساتها ومناهجها التي تم الاتفاق عليها، وإن كانت تخالف اجتهاداتهم، فالأمر بعد المشاورة والاتفاق أصبح رأي الجميع، وبهذا السبيل ينقطع سبيل المربين الذين هم لطريق النجوىٰ والبطالة مستقلين.

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) أخرجه أحمد (٦/ ٢٣٢) عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وصححه الألباني في الصحيحة (٥٠٧)، وأخرجه البخاري (٦٧٨٦) عن عائشة بأخصر منه.

٢٢ ـ تطبيق مبدأ المتابعة والمحاسبة:

قال علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

«**يجب علىٰ الوالي أن يتعهد أموره، ويتفقد أعوانه حتىٰ لا يخفي عليه إحسان محسن ولا إساءة مسيء، ثم لا يترك أحدهما بغير جزاء، فإنه إذا ترك ذلك، تهاون المحسن واجترأ المسيء، وفسد الأمر، وضاع العمل**»[1].

فمبدأ المتابعة يُسهل علىٰ الحركة معرفة رجالاتها وضبط عملها وزرع الثقة في نفوس أفرادها، وبهذا يزداد عدد المحسنين، وينتهي عبث المخدوعين، وفي المقابل ترك المتابعة والانشغال بالدنيا سبيل الفساد، قال بعض العقلاء: «**إذا تفرغ الملك لِلَهْوِهِ، تفرغت الرعية لإفساد ملكه**».

٢٣ ـ الموازنة بين الرحمة القسوة:

إن المتابعة والمحاسبة تستلزم اتخاذ القرار الذي يجب أن يكون حاويا للرحمة والقسوة، فإن كلاً من الرحمة والقسوة تحمد عند اعتدالها، وفي موضعها، وتذم عند غلبتها وميلها؛ فالطبيب الذي يرحم العليل من مرارة الدواء، إنما تؤدي رحمته إلىٰ هلكة المريض، فتصير رحمته له أبلىٰ من قسوته، ورفقه به أضرُّ من غلظته، وكذلك القسوة إذا غلبت أفضت إلىٰ مجاوزة الحدود، وتكون القسوة والصرامة في قلة الغفلة عن الجرائر، ومعرفة الأمور علىٰ الحقائق حتىٰ لا يتدلس السقيم بالسليم، والخائن بالأمين، ولا يتصور الخالع بصورة الطائع.

٢٤ ـ الرجوع إلىٰ الحق:

إن الداعية في المتابعة والمحاسبة بين شخصين: إما أن يكون متابعًا أو قابعًا، وفي كلا الحالين عليه أن يرجع إلىٰ الحق إذا ظهر له، ولا يأنف إن لزمه، ولا تأخذه العزة بالإثم فالحق لا يعاند، فقد قيل بالأمثال: «**من صارع الحق ذل، ومن أكثر المزح ملّ، ومن ترك الكبر جلَّ**».

(١) ذكره القلقشندي في صبح الأعشىٰ (٢/ ٣٢٥).

٢٥ ـ الموازنة بين إحسان الظن بالنفس وسوء الظن بها:

علىٰ الداعية أن يوازن بين إحسان الظن والإساءة؛ ليكون من الأمة الوسط، فإن إطلاق حسن خلق الإنسان بنفسه يجعله يغفل عن مراعاة أخلاقه فيرضىٰ عنها وينقاد لها فيفسد ما كان منها صالحًا، ولا يصلح ما كان منها فاسدًا. ولأن النفس بالسوء آمرة وإلىٰ الشهوات مائلة، كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ ﴾[١].

٢٦ ـ استعمال الحزم وبسط العدل:

لابد لصاحب الولاية من الحزم والعدل، فلا يغفل عن الحزم في صغير ولا كبير، كما لا يترخص في الجور من قليل ولا كثير، وهذا يستدعي تصفح أحوال الدعاة، فإذا وقف الداعية علىٰ مواد الفساد، وأسباب آفاتهم قطع أسبابها وحسم موادها، وقد قال في ذلك عمر رضي الله عنه: «**لا يصلح لمن يلي أمر الأمة إلا أن يكون حصيف العقدة، قليل العزة، بعيد الهمة، شديدًا من غير عنف، لينًا من غير ضعف، لا يخشىٰ في الله لومة لائم**»[٢].

٢٧ ـ حسن الأدب مع المربين في العبارة والاستجابة:

أصل هذه المسألة قوله تعالىٰ: ﴿وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ﴾[٣] وقول النبي صلى الله عليه وسلم من حديث سهل بن حنيف قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**لا يقولن أحدكم: خبثت نفسي، ولكن ليقل: لقست نفسي**»[٤] مع أن «**لقست وخبثت**» في معنىٰ واحد، ولكن الرسول صلى الله عليه وسلم كره لفظ الخبث لبشاعته. ولم لا وكثير من الخصومات كان وقودها جثث أوهام هاجها قبيح الكلام، وقد كان سلفنا يحرصون علىٰ العبارة الجميلة، فهذا عمر رضي الله عنه يقول لأناس جلسوا حول النار: «**يا أهل الضوء**»[٥]، وكره أن يقول: يا أهل النار. فيكون الأدب والاحترام المتبادل بين المؤدي لواجبه والمطالب لحقه «**رحم الله**

---

(١) يوسف: ٥٣.

(٢) أخرجه عمر بن شبة في أخبار المدينة (٢/ ٥٧)، ونقله ابن مفلح في الآداب الشرعية (١/ ٢٠٠).

(٣) الإسراء: ٥٣.

(٤) أخرجه البخاري (٦١٧٩)، ومسلم (٢٢٥٠) عن عائشة رضي الله عنها.

(٥) ذكره ابن الجوزي في الأذكياء ص (٢٤).

مسلمًا، سمحًا إذا قضىٰ، سمحًا إذا اقتضىٰ»[١]، وصدق الله القائل: ﴿ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ ﴾[٢].

٢٨ ـ الارتباط بالدعوة ومنهجها في جميع الظروف والأحوال:

قال الصحابة بعد وفاة النبي ﷺ من شدة الحزن: «**ليتنا متنا قبله ولم نشهد موته**». فقال معن بن عدي: أما أنا فما أحببت أن أموت قبله قالوا: ولم؟ قال: لكي أصدقه ميتًا، كما صدقته حيًّا!! ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ﴾[٣]»[٤].

*****

(١) أخرجه البخاري (٢٠٧٦)، وابن ماجه (٢٢٠٣)، عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه.
(٢) النجم: ١٧.
(٣) آل عمران: ١٤٤.
(٤) ذكره الذهبي في تاريخ الإسلام (٣/ ٦٧)، وسير أعلام النبلاء (١/ ٣٢١) عن عروة بلاغًا.

خامسا: همسات في آذان الدعاة

«**إن علىٰ الديك أن يصيح، وليس عليه أن يُطلع الصباح**»، فنحن نصرخ تارة ونهمس في تارة أخرىٰ، ونحن في كلتا الحالتين لا يُخيفنا كثيف الظلمة ولا ضجيج الفساد، فأملنا بالله كبير واعتقادنا بخروج الصباح لا ريب فيه، فشمس الحق ساطعة، وزيف الباطل زائل، والله معيننا علىٰ ما يمكر به المجرمون، فالصراخ سلاح والهمس لا يقل عنه، فقد يحتاج الشجاع في يوم إلىٰ جلبة، وقد يحتاج في وقت آخر إلىٰ مشي خفي، فهمسنا ليس كلامًا لا يكاد يفهم، بل هو خفي الوطء يبطش، فهو أسدٌ هموس، قال رؤبة يصف نفسه بالشدة:

ليث يدُقّ الأسدَ الهمُوسا والأقهَبينِ الفيلَ والجاموسا(١)

فإن كان شيطان الجن يوسوس، فيهمس بوسواسه في صدر ابن آدم؛ ليضله عن الصراط المستقيم، فإن داعي الإنس يهمس بالآذان لطرد وسوسة الشيطان الرجيم وإقرار منهج رب العالمين فإلىٰ محادثة هادئة، وإلىٰ طرح خفي بعيد عن جلبة الآخرين والله ـ سبحانه ـ هو المعين.

١ ـ لا إفراط ولا تفريط:

من أخطر ما يلبس الشيطان علىٰ الإنسان الإفراط أو التفريط...فكيف إذا اجتمعت هاتان الخصلتان في جماعة أو إنسان...وحتىٰ نصور هذه القضية سنتعرض لقصة الخوارج مع عبد الله بن خباب حيث التقوا به فقالوا له: هل سمعت عن أبيك حديثًا تحدثه عن رسول الله ﷺ قال:سمعت أبي يحدثني عن رسول الله ﷺ أنه «**ذكر فتنة القاعد فيها خير من القائم، والقائم فيها خير من الماشي، والماشي فيها خير من الساعي، فإن أدركت ذلك فكن عبد الله المقتول**». قالوا: أنت سمعت هذا من أبيك يحدثه عن رسول الله ﷺ؟ قال: نعم، فقدموه إلىٰ شفير النهر، فضربوا عنقه فسال دمه كأنه شراك

(١) لسان العرب مادة:همس.

نعل، وبقروا بطن أم ولده عما في بطنها، وكانت حبلى[١]، أرأيت كيف ألبس الشيطان عليهم في الإفراط في دماء المسلمين وحرماتهم...ثم هؤلاء أنفسهم نزلوا تحت نخل مواقير بنهروان فسقطت رطبة، فأخذها أحدهم فقذف بها في فيه فقال أحدهم: أخذتها بغير حقها، وبغير ثمنها فلفظها من فيه ـ ثم بعد ذلك اخترط أحدهم سيفه فأخذ يهزه فمر به خنزير لأهل الذمة فضربه به يجربه فيه، فقالوا: هذا فساد في الأرض، فلقي صاحب الخنزير فأرضاه في ثمنه، وهذا جانب واضح من التفريط في إعطاء الحقوق من أناس علمنا ما فعلوه في الصحابي وزوجه...فإذا علم الأخ ذلك جعل نصب عينيه قوله تعالى:﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾[٢] وسطًا في تحمل الواجبات، ووسطًا في أخذ الحقوق ووسطًا في التوغل والدخول في الدين والأخذ به «**ما شاد أحد هذا الدين إلا غلبه**»[٣] والْـمُنبتُّ لا أرضًا قطع ولا ظهرًا أبقى.

٢ ـ غذاء الداعية:

من البدهيات أن جسم أي كائن حي لا يتحرك ولا يعمل بدون غذاء؛ لأن هذا الغذاء هو مولد الطاقة التي بها تتحرك هذه الأجسام الحية، وبقدر جودة هذا الغذاء بقدر ما يعمل هذا الجسم ويتحرك، فإذا كان الغذاء جيدًا نظيفًا يتناول بطريقة صحيحة، يكون الجسم أكثر فعالية، والعكس لو كان هذا الغذاء من النوع الرديء، فإنه يلاحظ على جسم ذلك الكائن، الخمول والكسل وقلة الحركة.

أخي المربي، إن هذا الجسم هو دعوتك التي من أجلها نذرت نفسك، وهذا الغذاء جنودها. فأنت مسؤول عن نظافة وجودة هذا الغذاء، ألا وهم الأفراد الذين أودعتهم الدعوة بين يديك، فهم وديعة عندك.

---

(١) أخرجه أحمد (٥/ ١١٠)، والطبراني في الكبير (٤/ ٥٩، ٦٠) وأبو يعلى في مسنده (٧٢١٥) عن رجل من عبد قيس، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٧/ ٣٠٣): «رواه أحمد وأبو يعلى والطبراني... ولم أعرف الرجل الذي من عبد القيس وبقية رجاله رجال الصحيح»، وصحح سنده الحافظ ابن حجر في فتح الباري (١٢/ ٢٩٧).

(٢) البقرة: ١٤٣.

(٣) أخرجه البخاري (٣٩) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

فبقدر اهتمامك بهم وتفانيك في الحفاظ علىٰ هذه الوديعة بقدر ما يكون ذلك واضحًا في مسيرة دعوتك.

وتذكر - أخي الحبيب - أنك مرآة إخوانك والصورة الواضحة لهم بالعمل والسلوك والقول. فبقدر حماسك وتفانيك للدعوة وبقدر تشميرك وعلو همتك بقدر ما ترىٰ ذلك واضحا في اهتمام أفرادك بسلوكهم وأقوالهم؛ فاحرص - أخي المربي - أن يكون غذاء الدعوة من النوع الجيد النظيف الذي به تسير الدعوة، في ثبات حركة وقوة إرادة، يصحبها عزم وحماس، لا أن يكون من النوع الرديء الذي يكون سببًا في مرضها وقلة حركتها وعالة عليها، فيؤخرها عن مسيرتها المباركة.

٣ - المربي:

أخي المربي، إنك لست بدعًا من الأمر في وجودك هذا في العمل الإسلامي، بل إنك من شجرة ﴿أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾﴾ [١] تؤتي الخير والنور علىٰ من هم حولها بعملهم بهذا السراج راجين فضل الله وتوفيقه، فيأتيك الخير منهم وممن يعمل بعملهم بصريح حديث رسول الله ﷺ: «**من دعا إلىٰ هدىٰ كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئًا...**» [٢].

وأنتم في كفالتكم علىٰ من معكم من الأفراد تتذكرون قول الرسول ﷺ فيما يرويه كعب بن مالك رضي الله عنه وهو يصف لنا كيف تمت بيعة العقبة الثانية - البيعة التي أغلظت الشيطان واهتزت منها قريش - فيقول: «**بعد أن اجتمع النفر من الأوس والخزرج برسول الله ﷺ، وأخذ كل منهم من الآخر ما أراد لدينه ولنفسه، قال لهم ﷺ**: «**أخرجوا إليّ منكم اثني عشر نقيبًا ليكونوا علىٰ قومهم بما فيهم**» فلما بايعهم خاطبهم قائلاً: «**أنتم كفلائي علىٰ قومكم ككفالة الحواريين لعيسىٰ ابن مريم علىٰ قومهم**»[٣]، إذن فسلالة الدعوة ونهج الحركة وسبيل التربية الربانية اتخاذ كفلاء علىٰ الأفراد يقومون بتربيتهم وتقويمهم

(١) إبراهيم: ٢٤.
(٢) أخرجه مسلم (٢٦٧٤) عن أبي هريرة رضي الله عنه.
(٣) تقدم تخريجه.

علىٰ ما يحب الله ويرضىٰ.

وهذه الكفالة هي نوع من المواثيق حيث لها شروط وجزاء..وذلك ما بينه الله بالنسبة لبني إسرائيل في سورة المائدة، فقال سبحانه وتعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًاۖ وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْۖ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُۚ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٢﴾﴾[(١)]، بهذه الآية الواحدة بين الله ميثاقه مع بني إسرائيل، فبين أنه ميثاق بين طرفين شرطًا وجزاء...، وقد كان الميثاق مع نقباء بني إسرائيل الذين يمثلون فروع بيت يعقوب وعدتهم اثنا عشر سبطًا... وقد كان الميثاق، مع النقباء ومن هم من ورائهم...فصار بذلك ميثاقًا مع كل فرد فيهم، وهذا الميثاق، كما هو معروف في علم الأصول ـ أنه ليس العبرة بخصوص السبب بل بعموم اللفظ...، فهو ميثاق مع كل إنسان يتصل بالله له شروط: إقام الصلاة ـ وتمثل حقيقتها ـ وإيتاء الزكاة زكاة المال والقلب، زكاة العلم والمعرفة، ثم الإيمان بالرسل والتصديق بهم وبما أتوا به من أمر بعبادة الله واجتناب الطاغوت، ولا يكفي الإيمان القولي فقط بل النصرة لهم ولمنهجهم ولطريقهم وللدعوة التي أتوا بها وذلك بإقراضهم ومنحهم المال والنفس، ولا يكفي الإقراض فقط، وإنما الإحسان في الإنفاق والعطاء، حيث إنه أمر مطلوب في كل أمر حتىٰ في عملية الذبح وإراقة الدماء.

هذه هي الشروط وما أسهلها علىٰ من يسرها الله عليه ثم الجزاء واضح من نفس الشرط ﴿وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾[(٢)] فمن طبيعة القرض أنه يرجع إلىٰ صاحبه. فكيف سيرجع هذا القرض ومتىٰ سيرجع؟ إنه في الدنيا والآخرة حيث هو سبب تكفير للذنوب ودخول الجنات...هذا جزاء من أوفي بالعهد...أما من خان العهد، فالنتيجة واضحة، فهي الخسران في الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين.

---

(١) المائدة: ١٢.

(٢) المائدة:١٢.

ثم بعد هذا الاستطراد الموجز، أخي المربي، احرص علىٰ أن تكون عند حسن الظن فيك، وخير خلف لخير سلف، مستعينًا علىٰ التربية بالفهم الدقيق والإيمان العميق، والعمل المتواصل مرددًا ما كان يردده الإمام حسن البنا:

قد رشحوك لأمر لو فطنت له   فاربأ بنفسك أن ترعىٰ مع الهمل

٤ ـ تعال معي إلىٰ ديوانيتنا:

يعتبر نشاط الديوانية أحد الأنشطة المحببة لنفوس الأفراد، وحتىٰ تزيد من ذلك الحب في مثل هذا النشاط إليك بعض الأفكار والأعمال التي طبقها أحد الدعاة في ديوانيته فلاقت نجاحـًا في بث الوعي الإسلامي، وزادت من تعلق الشباب بمثل هذا النشاط، يقول الأخ:

١ ـ في بداية السنة خصصت جزءًا من وقتي وجلست علىٰ مكتبي وأحصيت ما يمكن إحصاؤه من ضيوف أستطيع دعوتهم إلىٰ الديوانية، أو مواضيع أطرحها للنقاش علىٰ الأفراد، وبذلك يكون عملىٰ منظمًا وليس مرتجلاً، ففي دفتري مواضيع مسبقة لمدة شهر علىٰ الأقل.

٢ ـ عقدت اتفاقًا مع إحدىٰ المكتبات الإسلامية علىٰ أن تبيعني مجموعة من الكتب بسعر مخفض كل أسبوع، وفي نشاط الديوانية أعرض هذه الكتب للبيع بسعرها المخفض فبذلك علىٰ مدار السنة أستطيع أن أكون للفرد مكتبته الإسلامية بصورة بطيئة، منظمة، جيدة.

٣ ـ علىٰ مدار الأسبوع ألاحظ في الجرائد اليومية الوفود الإسلامية المهمة التي تزور البلد، فإذا جاء ضيف مهم للحركة الإسلامية اتصلت في وزارة الأوقاف وأخذت عنوانه واستضفته بالتالي في ديوانيتي.

٤ ـ كل أسبوع أفتتح الديوانية بالتعليق علىٰ الصحف اليومية، والطريقة الناجحة في ذلك أنني كلفت أحد الإخوة لمتابعة أهم الأخبار التي ترد في الصحف اليومية والجرائد الأسبوعية فيأتي هذا الأخ ومعه مجموعة من القصاصات ويعلق عليها، فبذلك استطعت أن أربط الفرد بالمشاكل والأخبار، والوقائع السياسية اليومية التي يعيش فيها المجتمع،

واستطعت أن أعطيه التحليل الإسلامي لمثل تلك المواضيع، فيخرج كل أسبوع من الديوانية وعنده الطاقة للمناقشة بصورة إسلامية لمثل تلك الأمور.

٥ ـ كونت مجموعة من رواد الديوانية وأسميتها المجموعة الإدارية للديوانية تقوم بكافة خدمات الديوانية وهي كالتالي:

أ ـ توزيع الطيب والبخور علىٰ الحاضرين.

ب ـ توزيع الشاي والعصير والماء علىٰ الحاضرين.

٦ ـ أحيانـًا أتفق مع أحد الإخوة أو الضيوف لزيارتنا في الديوانية ولكن علىٰ آخر لحظة يعتذر هذا الأخ أو الضيف، فلمثل هذا الموقف أعددت فكرة «**علق علىٰ العبارة**» وطريقتها كالتالىٰ:

أ ـ أفكر في موضوع يهم الجميع وأحب أن يتربىٰ عليه الكل.

ب ـ ليكن هذا الموضوع علىٰ سبيل المثال تركيز مفهوم الجماعة في حس الأفراد.

فأطرح بالتالي هذا السؤال: يقول الرسول ﷺ: «**الجماعة رحمة، والفرقة عذاب**»[(١)] ثم أطلب من الحضور تعريفًا لكلمة الجماعة والتعليق علىٰ الحديث.

جـ ـ أوزع قصاصات ورق بيضاء حتىٰ يكتب عليها الأخ تعليقه.

د ـ أجمع القصاصات ـ ولا يشترط كتابة الاسم علىٰ الورقة.

هـ ـ فإن كان عدد رواد الديوانية ثلاثين فيكون بالتالي عندي ثلاثون قصاصة بها من التعليقات المختلفة الكثير. أقرأ هذه القصاصات علىٰ الإخوة الحاضرين معلقًا عليها بما عندي من ثقافة إسلامية رابطًا إياها بما أريد أن أركزه في مفاهيم وأمور حول أهمية الجماعة في حياة الفرد.

٧ ـ مواضيع مقترحة للتعليق:

أ ـ عرف الهجرة، وما أثر ذكرىٰ هجرة الرسول ﷺ في نفسك؟

(١) أخرجه عبد الله بن أحمد (٤/ ٢٧٨)، عن النعمان بن بشير رضي الله عنه، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٨/ ١٨٢): «رواه عبد الله وأبو عبد الرحمن راويه عن الشعبي لم أعرفه وبقية رجاله ثقات»، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٣١٠٩).

ب ـ يصاب الداعية بالكثير من الأمراض القلبية أذكر أحد هذه الأمراض وطرق علاجه؟

جـ ـ لماذا يغش الناس؟

٧ ـ عرض الأفلام السينمائية وأفلام الفيديو المقبولة إسلاميا.

٨ ـ أستغل الديوانية كل شهر مرة علىٰ الأقل للسمر الثقافي الترفيهي.

هذا ما فتح الله به علىٰ إخواني لتطوير الديوانية الإسلامية.

٥ ـ لا تخش في المنهج الصحيح شيئًا:

يخشىٰ الكثير من المربين مصارحة إخوانهم بأخطائهم ومرد ذلك الأمر إلىٰ:

١ ـ خشيته أن يؤثر كلامه عن خطأ أخيه في نفسيته.

٢ ـ خشيته الإحراج، فلربما ما يقوله غير صحيح.

٣ ـ استصغار الخطأ وأنه لا يستحق المصارحة فيه.

٤ ـ أن عمله هذا صنف من أصناف الرياء، حيث يظهر أمام الأخ بأنه العالم الفاهم.

٥ ـ خشيته المجادلة والرد علىٰ كلامه.

٦ ـ خشيته أن يقع فيما وقع فيه أخوه فكيف ينصحه، وهو قد يقع مستقبلاً في نفس الخطأ، فتنطبق عليه الآية الكريمة: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾(١).

هذه الأسباب وغيرها كثير قد يحيكها الشيطان في خلد الأخ المربي ويوهمه بما عنده من ذكاء ودهاء أن الواجب عليه هو إلقاء الدروس والمفاهيم وكفىٰ. أما تصحيح المسار لنفسية وسلوك الأخ؛ فللأسباب السابقة يجب عليه ألا يلج في هذا الخضم الذي يسبب له الإحراج وغير ذلك من مداخل الشيطان.

وعلاج هذا الأمر بمعرفة حقيقة هذه الأوهام:

١ ـ إن خشية المربي أن يؤثر كلامه في نفسية الأخ، فالواجب علىٰ المربي أن يكسر الحواجز والعوائق التي تعيق اندماج نفوسهما بعضها ببعض، وأن يسعىٰ بما لديه من

(١) البقرة: ٤٤.

حسن معاملة ومشاركة للأخ أن يكون له الشيخ والأستاذ والأب والمشاركة له في كل مشاكله، فإذا ما وصل الأخ المربي لهذه الدرجة فإن كلامه ونصحه لأخيه لن يؤثر في نفسيته سلبًا بل إيجابًا، بل سيجد أن أخاه يتلهف دومًا لنصحه وتذكيره بأخطائه.

٢ـ وأما خشيته الإحراج فهو قبل أن يوجه النصح عليه أن يتأكد تمامًا من الخطأ فيتأكد من الراوي والشهود، ولا يستعجل في النصح.

٣ـ وأما استصغار الخطأ وأنه لا يستدعي النصح، فالرد عليه واضح جلي بحديث الرسول ﷺ: «**لا تحقرن من المعروف شيئًا**»[١] والنصح معروف وإن قل، ومن تابع أخاه في نصحه على الأخطاء الصغيرة نجى أخاه من الوقوع في الأخطاء الكبيرة، فلرب أخطاء صغيرة تتجمع عند الأخ تعيقه مستقبلاً عن العمل في سلك الدعوة ﴿فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ شَرّٗا يَرَهُۥ ۝٨﴾[٢] ونحن نقول: من ينصح إخوانه وأحبابه في الأخطاء التي وزنها ذرة وليس شيئًا في العين. فإنه سيرى خيرًا وبركة وتقدمًا في سلوكهم.

٤ـ أما مسألة الرياء فلا أريد الإطالة فيها فما فتئ إبليس ـ لعنه الله ـ يصد الدعاة عن العمل والجهاد بحجة أن ذلك الرياء، وقرأت في كتاب«**الفتاوى الكبرى**» لابن تيمية ـ رحمه الله ـ ردًا جميلاً حول هذه المسألة. يقول فيه ـ رحمه الله: حينما سئل في الرجل إذا كان يتلو الكتاب العزيز بين جماعة فقرأ سجدة، فقام على قدميه وسجد، فهل قيامه أفضل من سجوده وهو قاعد أم لا؟ وهل فعله رياء ونفاق؟

فقال رحمه الله مجيبًا: بل سجود التلاوة قائمًا أفضل منه قاعدًا، وهذا ظاهر في الاعتبار فإنّ صلاة القائم أفضل من صلاة القاعد. ومن كان له ورد مشروع من صلاة الضحى أو قيام ليل أو غير ذلك، فإنه يصليه حيث كان، ولا ينبغي له أن يدع ورده المشروع لأجل كونه بين الناس إذا علم الله من قلبه أن يفعله سرًّا لله مع اجتهاده في سلامته من الرياء ومفسدات الإخلاص، ولهذا قال الفضيل بن عياض: «**ترك العمل**

(١) أخرجه مسلم (٢٦٢٦) عن أبي ذر رضي الله عنه.
(٢) الزلزلة: ٧، ٨.

لأجل الناس رياء، والعمل لأجل الناس شرك»، وفعله في مكانه الذي تكون فيه معيشته التي يستعين بها علىٰ عبادة الله خير له من أن يفعله حيث تتعطل معيشته ويشتغل قلبه بسبب ذلك. ومن نهي عن أمر مشروع بمجرد زعمه أن ذلك رياء فنهيه مردود عليه من وجوه:

أحدها:أن الأعمال المشروعة لا ينهي عنها خوفًا من الرياء بل يؤمر بها وبالإخلاص فيها، ونحن إذا رأينا من يفعلها أقررناه وإن جزمنا أنه يفعلها رياء فالمنافقون الذين قال الله فيهم: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾﴾[(١)]، فهؤلاء كان النبي ﷺ والمسلمون يقرونهم علىٰ ما يظهرونه من الدين وإن كانوا مرائين؛ لأن الفساد في ترك إظهار المشروع أعظم من الفساد في إظهاره رياء، كما أن فساد ترك إظهار الإيمان والصلوات أعظم من الفساد في إظهار ذلك رياء؛ ولأن الإنكار إنما يقع علىٰ الفساد في إظهار ذلك رياء للناس.

الثانيٰ: لأن الإنكار إنما يقع علىٰ ما أنكرته الشريعة، وقد قال رسول الله ﷺ: «**إني لم أؤمر أن أنقب عن قلوب الناس ولا أن أشق بطونهم**»[(٢)].

الثالث: إن شيوع مثل هذا يفضي إلىٰ أن أهل الشرك والفساد ينكرونه علىٰ أهل الخير والدين إذا رأوا من يظهر أمرًا مشروعًا مسنونًا قالوا: هذا مراء فيترك أهل الصدق والإخلاص إظهار الأمور المشروعة حذرًا من لمزهم وذمهم، فيتعطل أهل الخير ويبقىٰ أهل الشرك شوكة يظهرون الشر، ولا أحد ينكر عليهم، وهذا من أعظم المفاسد[(٣)].

٥ـ وأما خشيته من المجادلة وأنه قد يحرج في الرد إذا ما طالت المناقشة فالمجادلة والرد أمر طبيعي لأي إنسان تنصحه؛ لأن كل إنسان يعتقد أن أعماله هي الصالحة وأنه لا يمكن أن يخطئ وإنما الخطأ عند الناس والآخرين؛ لذلك وجهنا النبي ﷺ لتلافي الوقوع في المزالق.

(١) النساء: ١٤٢.
(٢) أخرجه البخاري (٤٣٥١) ،ومسلم (١٠٦٤) عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.
(٣) الفتاوىٰ الكبرىٰ١/ ١٣٩.

٦ـ وأما خشيته من الوقوع مستقبلاً في نفس الخطأ فهذه أيضًا حيلة شيطانية أخرىٰ؛ لصد الدعاة عن النصح، والرد عليها بأن يراقب الأخ نفسه ويجعل في نفسه ميزانًا إيمانيا حساسًا حتىٰ إذا ما أراد الوقوع فيما نصح فيه غيره انزجر وارتدع، وذكر نفسه بالآية الكريمة: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾(١).

وأخيرًا، أهدىٰ لمن تربطني بهم رابطة الإيمان والحب في الله هذه الحادثة التي أخرجها مسلم في «**صحيحه**». والتي نرىٰ فيها سلوك المربي الكبير محمد ﷺ مع أصحابه. فعن أبي ذر الغفارىٰ رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله ألا تستعملني؟ قال: فضرب بيده علىٰ منكبي ثم قال: «**يا أبا ذر، إنك ضعيف وإنها أمانة وإنها يوم القيامة خزي وندامة إلا من أخذها بحقها وأدىٰ الذي عليه فيها**»(٢) وفي رواية قال: «**يا أبا ذر، إني أراك ضعيفًا، إني أحب لك ما أحب لنفسي لا تأمرن علىٰ اثنين ولا تولين مال يتيم**»(٣).

فهكذا يربي المربون أتباعهم، يربونهم علىٰ الصلابة والقوة ولا يخشون مصارحتهم بأخطائهم، فكما قرأنا قول الرسول ﷺ لأبي ذر: «**إنك ضعيف**»، في إخبار الرسول ﷺ ذلك أنه متابع وملاحظ لأتباعه وأصحابه ويعرف نفسياتهم وسلوكهم فيعرف الضعيف من القوي، وحتىٰ يطيب خاطر من يسأله الإمارة ولا يرد عليه برد جاف بل برد طيب يتقبل معه الرفض لما طلب، ونرىٰ ذلك بوضوح في قول الرسول ﷺ: «**وإنها يوم القيامة خزي وندامة إلا من أخذها بحقها..**» وقوله: «**وإني أحب لك ما أحب لنفسي**».

وهكذا يحرص الدعاة وعلىٰ رأسهم المربي الكبير محمد ﷺ علىٰ تربية القاعدة الإسلامية تربية صلبة والتي قال عنها سيد قطب في كتابه «**في ظلال القرآن**»: «**إنه ابتداء يجب توجيه الحرص كله لإقامة القاعدة الصلبة من المؤمنين الخلص الذين تصهرهم المحنة فيثبتون عليها، والعناية بتربيتهم تربية إيمانية عميقة تزيدهم صلابة وقوة ووعيا**».

(١) البقرة: ٤٤.
(٢) أخرجه مسلم (١٨٢٥) عن أبي ذر رضي الله عنه.
(٣) أخرجه مسلم (١٨٢٦) عن أبي ذر رضي الله عنه.

فعلىٰ ذلك، فالنصيحة لا تخلو من أمرين: إما أن يكون العيب في الأخ حقيقة فيستفيد الأخ من هذه النصيحة ويصلح عيبه، أو لا يكون به هذا العيب فيستفيد الأخ من تذكيره بأمر هو ملتزم به فتزيده هذه النصيحة ثباتًا علىٰ ما هو عليه.

٦- يوم يستعد له:

قال تعالىٰ علىٰ لسان نوح عليه السلام في سورة هود: ﴿وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًاۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۚ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾ وَيَٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾﴾[1].

أخي المربي:

هل أصابك الخوف الذي أصابني يوم أن قرأت هذه الآيات؟ إن الرهبة لتكمن في ثلاث كلمات ﴿إِنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ﴾ لقد ارتجف قلب نوح خوفًا وفزعًا لما طلب منه الملأ المتكبر أن يطرد الذين آمنوا بدعوته واتبعوه.

إن نداء الطرد والترك لم ينته ولم يغرقه الطوفان العظيم، بل إننا لنسمع صداه قرع قلوب الأنبياء والدعاة من بعده في كل زمان. فيرتجفون رعبًا وفزعًا من يوم اللقاء الرهيب.

إن صداه ليكمن اليوم في نداء الدنيا وزينتها، وفي الوظيفة وجاهها وفي الشهادة وطلبها، وفي التجارة وسوقها، وإذا بذلك المربي المعطاء يتحول تدريجيا ودون أن يشعر إلىٰ صدىٰ من أصداء الطرد والترك ولكن بصورة عصرية مهذبة، لقد ظلت الجماعة تعطيه من جهدها سنين طويلة، فلما جاء وقت إنتاجه وعطائه استجاب لحظ نفسه.

أخي المربي، إن القضية لم تنته بترك من معك والتفرغ إلىٰ حظ نفسك «**إنهم ملاقو ربهم**» ثم بماذا تجيب إذا ما اشتكوا إلىٰ ربهم قائلين:

«**يارب لقد تركنا كل شيء من أجلك، ولكن داعيتك تركنا وقصر في حقنا من أجل شيء من الدنيا قليل، يارب لا تؤاخذنا بضعفنا وقلة عطائنا لدعوتك، إن ضعفنا من**

---

(١) هود: ٢٩، ٣٠.

ضعفه وقلة عطائنا من قلة عطائه، وهزال أرواحنا من هزال روحه، وهبوط همتنا من هبوط همته.

لقد جعلتنا الدعوة عنده أمانة ولكنه ضيعها، ويسرت له وسائل النهوض بنا ولكنه أهملها، ناداه حظ نفسه قائلاً: تجارتك، وظيفتك، دراستك، شهادتك، عائلتك، فأجاب لبيك لبيك. فإذا بنا لا نراه إلا في الأحلام، ولا نسمعه إلا مرة كل عام.

أصبح، وأفراده الدنانير، وبرنامجه البورصة، ونشاطه التجارات، وكتيبته المحلات، وجهاده الأسهم.ومسجده المكتب، وإذا ما نصحته يومًا ابتسم وقال: كل ميسر لما خلق له. وإني مرابط علىٰ ثغر مصلحة الدعوة.

يارب.. لقد كان إخواننا يعملون بالتكاليف قبلنا، فإذا سألناه عن سر التأخير زفر زفرة ملتهبة، وقال: مشغول!! حتىٰ أصبحنا في النشاطات العامة والخاصة كأننا بين إخواننا غرباء.

ماذا نقول ياربنا وماذا نشتكي؟ إنك تعلم منه ما لا نعلم، إنك علام الغيوب.

أخي المربي..ادفع عن نفسك الآن، قبل أن يأتي يوم اللقاء الرهيب «إنهم ملاقو ربهم» ماذا ستقول لربك يوم أن يقول لك: ألم أقل لك يا عبدي ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾﴾[(١)]؟ أجب الآن قبل فوات الأوان.

٧ـ لابد أن نفهم:

لابد أن نفهم أن من يقول: «**الثواب علىٰ قدر المشقة**» كلامه ليس بمستقيم علىٰ إطلاقه. وبطلان ذلك واضح، ففي رواية البخاري من حديث أبي إسرائيل الذي نذر أن يصوم وأن يقوم قائمـًا ولا يجلس ولا يستظل ولا يتكلم، فقال النبي ﷺ: «**مروه فليجلس وليستظل وليتكلم وليتم صومه**»[(٢)].

ومنفعة العمل، تنقسم إلىٰ وجهين من حيث الأمر: فيكون إما طاعة تعمل، أو معصية

(١) الكهف: ٢٨.

(٢) أخرجه البخاري (٦٧٠٤)، وأحمد (٤/ ١٦٨) عن أبي إسرائيل.

تجتنب، ومن حيث العمل نفسه، فيكون إما حسنًا فيعمل، أو سيئًا فيجتنب. لكن هناك ملاحظة وهي أن كثيراً ما يكثر الثواب علىٰ قدر المشقة والتعب، لا لأن التعب والمشقة مقصود من العمل، ولكن لأن العمل مستلزم للمشقة والتعب، وذلك لقوله ﷺ: «**الذي يقرأ القرآن وهو ماهر به مع السفرة الكرام البررة، والذي يقرأ القرآن ويتعتع فيه وهو عليه شاق له أجران**»(١).

فحصول الأجرين إذن ليس للمشقة ذاتها، وإنما لكونها آتية من المجاهدة في الطاعة، فالأجر إذن علىٰ قدر منفعة العمل وفائدته في كونه في طاعة الله ورسوله، وإن كان عملاً ميسرًا كما بَيَّنَ حديث الصحيحين«**كلمتان خفيفتان علىٰ اللسان، ثقيلتان في الميزان، حبيبتان إلىٰ الرحمن، سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم**»(٢).

ولا فائدة ولا طاعة إلا بأمرين، الإخلاص وموافقة الشرع، فإذا وضح ذلك فاحرص أخي قبل البدء بأي عمل أن تسأل نفسك عن فائدة هذا العمل وكيفية تحقيقه، والغاية من فعله، كل ذلك حتىٰ لا يكون عملك مصاحبًا لمشقة كبيرة وأجر ونفع قليل فتضيع الأوقات وتخالف بذلك وصية الإمام البنا ـ رحمه الله ـ في قوله: «**الأعمال أكثر من الأوقات، فأعينوا إخوانكم علىٰ أوقاتهم**». كما أن معرفة هذه الحقيقة تقينا المهالك في الدين والتربية؛ حيث إن الأخ قد يحمل نفسه لأمور ويحمل إخوانه معه معتقدًا أنه بذلك ينال الثواب والأجر، وأنه يسمو بنفسه وإخوانه إلىٰ الدرجات العلي في التربية، فإذا هو بعد فترة يرىٰ أن إخوانه قد انحرفوا ويكتشف أن عمله قد ذهب هباء منثورًا.

ولو كان الأجر علىٰ قدر المشقة لذاتها لحصل ذلك الصوفي علىٰ الأجر والثواب نظير ما يحمل نفسه مما يسمونه «**الرياضة الروحية**» حيث يعذب الجسد ليسمو بالروح. ونذكر علىٰ سبيل المثال أنك إذا أردت أن تذهب إلىٰ مكان معين تختار أقصر الطرق وأسهلها وأقلها وعورة ومصاعب بعد أن تستحضر الطريق في ذهنك، ثم تبدأ بالمسير. ولا تبدأ دون ذلك متعللاً بأنه علىٰ قدر ما يصيبك في الطريق يكون الأجر والثواب.

(١) أخرجه البخاري (٤٩٣٧)، ومسلم (٧) عن عائشة رضي الله عنها.
(٢) أخرجه البخاري (٦٤٠٦، ٧٥٦٣)، ومسلم (٢٦٩٤) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

٨ ـ عهود ومواثيق:

لقد دلت سنة رسول الله ﷺ علىٰ أن الولاية صغيرها وكبيرها أمانة لابد من أخذها بحقها وإعطائها لأهلها، ومن هذا الذي ذكرنا قوله ﷺ لأبي ذر رضي الله عنه: «**إنها أمانة، وإنها يوم القيامة خزي وندامة، إلا من أخذها بحقها، وأدىٰ الذي عليه فيها**»(١).

فوليٌّ أي أمر هو أجيرٌ ناصح، عليه أن يقوم بالذي استحفظه الله عليه كما قال أبو مسلم الخولاني عندما دخل علىٰ معاوية بن أبي سفيان: «**السلام عليك أيها الأجير، فقال معاوية بعد حوار: دعوا أبا مسلم فإنه أعلم بما يقول فقال: إنما أنت أجير استأجرك رب هذه الغنم لرعايتها، فإن أنت هنأت جرباها(٢)، وداويت مرضاها، وحبست أولاها علىٰ أخراها(٣) وفاك سيدك أجرك، وإن كان العكس عاقبك سيدها**»(٤).

وهذه الأمانة ترجع إلىٰ خشية الله، وعدم الشراء بآيات الله ثمنا قليلا وترك خشية الناس، قال تعالىٰ: ﴿فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا﴾(٥).

وأمام هذا الأمر استصحاب قول النبي ﷺ دائمًا: «**إن الله سائل كل راع عما استرعاه حفظ أم ضيع**»(٦).

فيا من اجتمعنا وإياهم علىٰ طريق الرسل، ومنهج الأنبياء ومسلك المجاهدين، ويا من نحبهم في الله ونسأله أن يجمعنا وإياهم في مستقر رحمته، ويا من نناصحهم ونُصارحهم، يا من حازوا الذي ذُكر وأكثر نقول: إن الأمانة عظيمة والحمل ثقيل، فحتىٰ تستطيع الحركة أن تبدأ بالمسير لابد وأن نهمس في آذانكم، فإن رأيتموه خيرًا وحقا، فاتبعوه وتمسكوا به، وإن رأيتم خلاف ذلك فانبذوه علىٰ سواء، فإنما هي عهود ومواثيق

---

(١) أخرجه مسلم (١٨٢٥) عن أبي ذر.

(٢) عالجت الجربان منها بالقطران.

(٣) جمعت متفرقها.

(٤) أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء (٢/ ١٢٥)، وابن عساكر في تاريخ دمشق (٢٧/ ٢٢٣) عن أبي عبد الله الحرسي.

(٥) المائدة: ٤٤.

(٦) أخرجه ابن حبان في صحيحه (٤٤٩٢) عن أنس بن مالك، وقال الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٢١٧٠): «حسن صحيح».

ندين الله بها نرجو ثوابه ونخاف عقابه، فولىٰ الأمر كالسوق ما نفق فيه جُلب إليه، فإن نُفق فيه الصدق والبر والعدل والأمانة، جُلب إليه ذلك، وإن نُفق فيه الكذب والفجور والجور والخيانة جلب إليه ذلك.

٩ـ الجمال في كل شيء:

ورد في حديث مسلم: «**إن الله جميل يحب الجمال**»(١)، وما أعظم الجمال في تربية الدعاة ومخالطتهم...فليكن صبرك جميلاً وصفحك وهجرك جميلاً...تكن بذلك متأسيًا بنبيك ومربيك رسول الله ﷺ، أمره الله بأن يصبر بغير شكوىٰ إلا لله، وأن يهجر بغير أذىٰ، وأن يصفح بلا عتاب...، والصبر نهايته النصر، والفرج من الله، فاصبر علىٰ ضعف إخوانك وقلة همتهم...وادع الله لهم وتفان في تربيتهم، وتذكر دائمًا قوله تعالىٰ: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ﴾(٢)، وكما قال الله تعالىٰ: ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٨٦﴾﴾(٣)...وقال: ﴿بَلَىٰٓ ۚ إِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾﴾(٤). واعلم أن الله أمر المؤمنين بتقواه، فليفعلوا المأمور، وليتركوا المحظور وليصبروا علىٰ ما يصيبهم من المقدور...فمأمور الله هو الواجبات والتي من أهمها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والمحظور هو المنهيات والتي من أخطرها ترك الجهاد وإيثار الحياة والأهواء والشهوات.

ثم بعد ذلك الصبر علىٰ ما يأتي من مقدور الله. واعلم أن الصبر ذكر في مواطن كثيرة مع التقوىٰ: منها قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾﴾(٥)، كما أنه قد قرن الصبر بالأعمال الصالحة عمومًا وخصوصًا فقال تعالىٰ: ﴿وَٱتَّبِعْ

(١) أخرجه مسلم (٩١) عن ابن مسعود.
(٢) آل عمران: ١٥٩
(٣) آل عمران: ١٨٦.
(٤) آل عمران: ١٢٥.
(٥) يوسف: ٩٠.

﴿مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ١٠٩﴾[١] وقد قرن الله بين الرحمة والصبر في مثل قوله تعالىٰ: ﴿وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ ١٧﴾[٢]... فمن رحمتك بأخيك أن تصبر علىٰ تقصيره وأنت تربيه، وبذلك قال ﷺ: «**من لا يرحم لا يُرحم**»[٣] لذلك أخي المربي لا تَشْكُ من فردك، فأنت كالطبيب المعالج لأمراض الناس والملزم بالصبر علىٰ معالجتهم، وبهجر جميل بغير أذىٰ، وأي أذىٰ أكبر من الإطالة في القطيعة وعدم السؤال. وعند صفحك أخي المربي ـ وفقك الله ـ لا تظهر عتابك لأخيك، فإنما تعمل هذه الأمور مبتغيًا ثواب الله ابتداء.

١٠ـ التثبت:

من الأحاديث النبوية الشريفة التي عليها مدار الفقه والعلم، حديث: «**الدين النصيحة**»[٤]، ومعنىٰ النصيحة واسع جدا فقد قيل: إنها مأخوذة من نصحت العسل إذا صفيته من الشمع، شبهوا تخليص القول من الغش بتخليص العسل من الخلط. وسنقف هنا علىٰ هذا المعنىٰ من النصيحة، وهي أن من النصح لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم: التثبت من كل خبر تسمعه الأذن ومن كل ظاهرة تراها العين، ومن كل حركة قبل الحكم عليها وإصدار الرأي أو الفتوىٰ بشأنها؛ ذلك لأن هذا التصرف ـ السرعة في الحكم ـ خفة وطيش وحدة في الأخ تمنعه من التثبت والوقار والحلم، وتوجب له وضع الأشياء في غير مواضعها وتجلب عليه أنواعًا من الشرور، وتمنعه أنواعًا من الخير، وهي قرين الندامة، فقلَّ من استعجل إلا ندم، كما إن الكسل قرين الفوت والإضاعة.

ولعل معظم أخطاء من يخطئون في أحكامهم، إنما تكون من التسرع والتأثر بالمظاهر الخادعة والألفاظ الخلابة، والعرض المؤثر الأخاذ؛ ولذا قال رسول الله ﷺ:

(١) يونس: ١٠٩.
(٢) البلد: ١٧.
(٣) أخرجه البخاري (٥٩٩٧)، ومسلم (٢٣١٨) عن أبي هريرة رضي الله عنه.
(٤) أخرجه البخاري معلقًا في كتاب الإيمان، باب قول النبي ﷺ: «الدين النصيحة (١/ ١٦٦ فتح الباري)، ووصله مسلم (٥٥) عن تميم الداري رضي الله عنه.

«أيها الناس...إنكم تختصمون إليّ، وإنما أنا بشر ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض، فمن قضيت له بحق أخيه شبرا، فإنما هي قطعة من النار، فليأخذ أو ليدع»(١).

وانظر إلىٰ تأثر نبي الله داود ـ عليه السلام ـ بأحد الذين تسوروا المحراب وتسرعه في الحكم له، فعاتبه الله سبحانه وتعالىٰ: ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ ﴿٢٣﴾ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ ۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾(٢). فتبين نبـــي الله داود عَلَيْهِ السَّلَامُ أن هذا امتحان له ﴿فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾(٣). فعاتبه الله بقوله: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾(٤) ولفت نظره إلىٰ ما فاته من وجوب ضبط النفس واستيفاء الأمر.

ثم استمع إلىٰ هذا الأدب الجميل الذي ترسمه لنا هذه الآية الكريمة: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾﴾(٥)، فالتثبت من كل خبر ومن كل ظاهرة ومن كل حركة قبل الحكم عليها هو دعوة القرآن الكريم، ومنهج الإسلام الدقيق، ومتىٰ استقام القلب والعقل علىٰ هذا المنهج لم يبق مجال للوهم والخرافة في عالم العقيدة، ولم يبق مجال للأحكام والفروض الوهمية في عالم البحوث والتجارب والعلوم، والأمانة العلمية التي يشيد الناس بها في العصر الحديث ليست سوىٰ طرف من الأمانة العقلية القلبية التي يعلن القرآن تبعتها الكبرىٰ، ويجعل الإنسان مسؤولاً عن سمعه وبصره وفؤاده أمام واهب السمع والبصر، إنها أمانة الجوارح والحواس والعقل والقلب، أمانة يسأل عنها صاحبها، وتسأل عنها الجوارح والحواس

(١) أخرجه البخاري (٦٩٦٧)، ومسلم (١٧١٣) عن أم سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.
(٢) ص: ٢١، ٢٤.
(٣) ص: ٢٤.
(٤) ص: ٢٦.
(٥) الإسراء: ٣٦.

والعقل والقلب جميعًا، أمانة يرتعش الوجدان، لدقتها وجسامتها، كلما نطق اللسان بكلمة وكلما روىٰ الإنسان رواية، وكلما أصدر حكمًا علىٰ شخص أو أمر أو حادثة.. «**ولا تتبع ما لم تعلمه علم اليقين، وما لم تتثبت من صحته، من قول يقال أو رواية تروىٰ، ومن ظاهرة تفسر، أو واقعة تعلل، ومن حكم شرعي أو قضية اعتقادية**».

وبهذا قال رسول الله ﷺ: «**كفىٰ بالمرء كذبًا أن يحدث بكل ما سمع**»[(١)]. وفي الحديث الذي رواه البخاري ومسلم: «**إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث**»[(٢)].

فالتثبت هو: الأدب الذي تقتضيه طبيعة العمل الحركي المنظم حتىٰ لا تأخذنا نزوة جامحة، أو طفرة طافحة، أو زمجرة جانحة.

١١ـ الاستئذان والاستشارة:

خير ما يحفظ الإنسان من الخطأ والزلل اتباع أسلوب«**الوقاية خير من العلاج**»، ومن الوقايات التي تعين الأخ علىٰ تلافي الخطأ هو كثرة استشارته واستئذانه من أخيه الموجه أيا كان وضعه في العمل، «**فالناس أصناف: رجل، ونصف رجل، ولا شيء.. فالرجل من له رأي صائب ويشاور، ونصف رجل من له رأي صائب ولا يشاور، أو لا رأي له ويشاور، ولا شيء من لا رأي له ولا يشاور**».

وهذا ليس بدعًا من الأمر وإنما هو منهج الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ أملاه عليهم قائدهم رسول الله ﷺ عملاً بقوله تعالىٰ: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾[(٣)] ولأخذهم المشاورة وصف الله المؤمنين وامتدحهم، فقال سبحانه: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾[(٤)].

وليست الاستشارة والاستئذان مقتصرة علىٰ أمور العمل الإسلامي بل وحتىٰ في الأمور الخاصة فإن ذلك أدعىٰ إلىٰ استكمال السعادة... وطرد ما يعكر صفاء الأخوة لذلك قال قتادة: «**ما شاور قوم يبتغون وجه الله إلا هدوا إلىٰ أرشد أمرهم**».

(١) أخرجه مسلم (٥)، وأبو داود (٤٩٩٢) عن أبي هريرة رضي الله عنه.
(٢) أخرجه البخاري (٥١٤٣)، ومسلم (٢٥٦٣) عن أبي هريرة رضي الله عنه.
(٣) آل عمران: ١٥٩.
(٤) الشورىٰ: ٣٨.

وها هو الصحابي يأتي إلىٰ قائده عمر بن الخطاب رضي الله عنه ليستأذنه في أمر خاص وهو أمر الطلاق، فكان من نتاج هذه الاستشارة أن بين له عمر القائد حقيقة قد غفل عنها هذا الرجل عندما قال له: «**ويحك وهل كل البيوت تبني علىٰ الحب؟ إن كرهت منها خلقاً أحببت منها خلقاً آخر**» فرجع الرجل إلىٰ زوجه فكانت السعادة. وانظر إلىٰ المؤمنين كما تبين حالهم سورة النور في هذا الموضع ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٢﴾﴾[1]... نعم «**وإذا كانوا معه علىٰ أمر جامع لم يذهبوا حتىٰ يستأذنوه**» والأمر الجامع، الأمر الهام الذي يقتضي اشتراك الدعاة فيه كالحرب مثلاً. فلا يذهب المؤمنون حتىٰ يستأذنوا إمامهم فإن ذلك أدعىٰ إلىٰ حياة النظام والانضباط.

فاحرص أخي المربي علىٰ الاستشارة وحث إخوانك علىٰ مثل هذا الأمر الدقيق..وبين لهم من واقع حياة الدعوة نتيجة عدم الاستشارة..وما تؤول إليه عملية التفرد في الرأي.

وحقق ما قاله ابن تيمية: «**ما ندم من استخار الخالق وشاور المخلوقين**»[2] وما قاله الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه من قبله: «**ما هلك امرؤ عن مشورة**».

٢١ـ خطورة الاستعجال:

قبل الشروع في بيان خطورة الاستعجال ينبغي أن ندرك قضية أساسية، وهي أن الدعوة، دعوة الله ـ سبحانه وتعالىٰ ـ والله يختار ويصطفي لدعوته من يشاء من عباده وما نحن إلا بمثابة السبب؛ لذلك نجتهد في حسن الاختيار بذل ما في وسعنا من الوسائل المناسبة لذلك، دون النظر إلىٰ نتيجة ما قدمناه من عمل؛ ولهذا علينا أن نخطو خطوات مدروسة في دعوتنا قائمة علىٰ المكث والتريث؛ لأن الحركة لا يهمها التجميع القطيعي، وإنما هي حريصة علىٰ الانتقاء المنظم وهذه الخطوة ـ المكث والتريث ـ كفيلة ـ إن شاء

---

(١) النور: ٦٢.

(٢) ذكره ابن القيم في الوابل الصيب ص (١٥٨).

الله ـ علىٰ إعطاء الأخ الجديد رؤية واضحة عن إخوانه العاملين وبالتالي يقبل علىٰ العمل في صفوف إخوانه الدعاة بقناعة تامة ويكون نتاجه جيداً بإذن الله تعالىٰ، قال تعالىٰ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ۝٣٢﴾[1].

«وفي هذه الآية دليل علىٰ أنه ينبغي للمتكلم في العلم من محدث ومعلم وواعظ أن يتأمل في توجيه ربه سبحانه في تدبيره أمر الخلق وبعث الرسل إليهم، فكلما حدث موجب أو حصل موسم أتىٰ بما يناسب ذلك من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية والمواعظ الموافقة لذلك».

لذلك ينبغي علىٰ الداعية المربي أن يتريث علىٰ إخوانه في المحاضن التربوية وغيرهم من الدعاة الجدد في انتهاز الفرص في تربيتهم جميعًا تربية مركزة قائمة علىٰ المكث لا الاستعجال وبذلك يكون قد وافق الأسلوب القرآني في التربية.

وفي الاستعجال خطورة كبيرة تتمثل في عدة نقاط، منها:

١ـ إن الاستعجال يجمع أعضاء بسطاء الفكرة، ضعفاء التربية، تجربتهم قليلة، وطريق هذه الدعوة شاق يشترط علىٰ السائر فيه التزام التقوىٰ؛ ولذلك يحصل التساقط في الطريق وهذا خطر كبير.

٢ـ إن الدعوة في نشأتها وبدايتها تقوم علىٰ أكتاف الأقوياء لتكوين القاعدة الصلبة والاستعجال يخالف ذلك.

٣ـ إن كثرة الضعفاء في هذه المرحلة داخل الصف الإسلامي تؤدي إلىٰ تأخير ساعة النصر، وإشغال المربين وإضاعة طاقتهم في نوعية ساذجة تأخذ منهم أوقاتهم وجهودهم التي ينبغي عليهم أن يصرفوها في أعمال أخرىٰ يرفعون فيها من مستوىٰ الشباب في المجالات المختلفة، وينتج عن ذلك خطورة واضحة لا شك فيها.

٤ـ إن عملية الاستعجال سيكون من نتاجها بعد فترة تجميع فئة من الضعفاء تشغل

(١) الفرقان: ٣٢.

المربين في تصريفها في مجال يتناسب معها، وبالتالي تنشأ قضية جديدة تأخذ منهم جهدا فكريا وتنظيمًا هي في غنىٰ عنه الآن، وفي هذه المرحلة من العمل؛ لذلك قال سيد قطب ـ رحمه الله:

«لابد للإسلام من رواد فيهم من القدرة والطاقة والإدراك والكفاية والاستعلاء والحماسة والإصرار والصلابة بقدر ما فيهم من الإيمان والثقة بهذا الإيمان؛ لكي يخلصوا أنفسهم أولا من ضغط هذا الواقع وشتىٰ التوجيهات والتصورات المصاحبة له، والمؤيدة بأجهزة الإعلام العالمية ولكي يروا تصورًا آخر أكمل وأشمل، ثم يتحركوا بعد ذلك في مواجهة هذا الواقع».

١٣ـ الفكرة والخاطرة:

قال ابن القيم: «**دافع الخاطرة، فإن لم تفعل صارت شهوة فحاربها، فإن لم تفعل صارت عزيمة وهمة، فإن لم تدافعها صارت فعلاً، فإن لم تتداركه بضده صار عادة فيصعب عليك الانتقال عنها**»[(١)].

كلام جميل يحتاج منا إلىٰ فهم دقيق وإحساس مرهف حتىٰ يمكن تذوقه والعيش في معناه، ونقله من واقعه النظري المجرد إلىٰ واقعه المحلي المحسوس. إن في حرصك علىٰ ألاَّ تصاحب إلا أهل الخير والصلاح وأن تجالسهم وتكون معهم في معظم وقتك هو في الحقيقة قطع لهذه الخواطر والأفكار المسمومة.

حيث إن مبدأ كل علم اختيارىٰ هو الخواطر والأفكار، فإنها توجب التصورات وهذه تدعو إلىٰ الإرادات، والإرادات تقتضي وقوع الفعل، وكثرة تكراره تعطي العادة، فصلاح هذه المراتب بصلاح الخواطر والأفكار وفسادها بفسادها.

هذا واعلم أن صلاح الخواطر بأن تكون مراقبة لوليها وإلهها صاعدة إليه، دائرة علىٰ مرضاته، فإنه سبحانه به كل صلاح ومن عنده كل هدي، ومن توفيقه كل رشد، ومن تولي العبد وإعراضه عنه كل ضلال وشقاء.

(١) الفوائد لابن القيم ص (٣١) ط. دار الكتب العلمية.

﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى ﴿١٢٤﴾ ﴾[١] هـذا واعلم أن الخطرات والوساوس تؤدي متعلقاتها إلىٰ الفكر، فيأخذها الفكر فيؤديها إلىٰ التذكر، فيأخذها التذكر فيؤديها إلىٰ الإرادة، فتأخذها الإرادة، فتؤديها إلىٰ الجوارح والعمل، ومن ثم تكرار العمل، تتمكن فتصير عادة وردها من بدايتها أسهل من قطعها بعد قوتها وتمامها.

ومن المعلوم أن الإنسان لم يعط أمانة الخواطر، ولا القوة علىٰ قطعها، فإنها تهجم عليه هجوم القوة، إلا أن قوة الإيمان وحاكم العقل يعيشان علىٰ قبول أحسنها والرضا به والمساكنة إليه. ويعينان علىٰ دفع القبيح من الخواطر وكراهته والنفرة منه.

أخي الحبيب.. إن الله قد خلق النفس شبيهة بالرحىٰ الدائرة التي لا تسكن ولابد لها من شيء تطحنه، فإن وضع فيها حب طحنته، وإن وضع فيها تراب أو حصىٰ طحنته، إذن فالأفكار والخواطر التي تجول في النفس هي بمنزلة الحب الذي يوضع في الرحىٰ، ولا تبقىٰ تلك الرحىٰ معطلة قط، بل لابد لها من شيء يوضع فيها فمن الناس من تطحن رحاه حبا يخرج دقيقًا ينفع به نفسه وغيره.

وأكثرهم يطحن رملاً وحصىٰ وتبناً ونحو ذلك.فإذا ذقت العجين والخبز تبين لك حقيقة طحينه هذا.

فيا أخي، لا تنس أن تحاسب نفسك في كل خطرة وفكرة، وجاهد نفسك في هذه المحاسبة حتىٰ تكون من الفائزين.

١٤ـ النصيحة شعاري وشعاركم:

فالنصيحة للجميع، ورحم الله من أهدىٰ إليّ عيوبي، والدين النصيحة والدعوة النصيحة، والأخذ بالنصيحة لله قال تعالىٰ: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾ وَإِذًا لَّآتَيْنَاهُم مِّن لَّدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٦٨﴾ ﴾[٢]. ﴿ وَالَّذِينَ

(١) طه: ١٢٤.
(٢) النساء: ٦٦.

جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَا ﴾[(١)].

﴿فَلَن يُضِلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ ۝٤ سَيَهۡدِيهِمۡ وَيُصۡلِحُ بَالَهُمۡ ۝٥ وَيُدۡخِلُهُمُ ٱلۡجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمۡ ۝٦ ﴾[(٢)]. ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ ۝٢٠١ وَإِخۡوَٰنُهُمۡ يَمُدُّونَهُمۡ فِي ٱلۡغَيِّ ثُمَّ لَا يُقۡصِرُونَ ۝٢٠٢ ﴾[(٣)].

فأصلحوا قلوبكم بالتقوىٰ والإيمان تصلح ألسنتكم، وإذا صلحت ألسنتكم صلحت أعمالكم، وإذا صلحت أعمالكم غفرت ذنوبكم، وإذا غفرت ذنوبكم حفظتم من المصائب. ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ۝٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡ ﴾[(٤)].

تبليغ الدعوة طاعة لله ولرسوله، والإنابة للدعوة والتوضيح أمر مطلوب من العاملين ولكن بعد ذلك يبقىٰ تحمل المسؤولية أمام من له دعوة الحق ـ سبحانه: ﴿قُلۡ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَۖ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا عَلَيۡهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيۡكُم مَّا حُمِّلۡتُمۡۖ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهۡتَدُواْۚ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ۝٥٤ ﴾[(٥)].

اللهم نسألك فعل الخيرات وترك المنكرات وحب المساكين، وأن تغفر لنا وترحمنا، وإذا أردت بعبادك فتنة فتوفنا إليك غير مفتونين، واهدنا لما اختلف فيه من الحق بإذنك إنك تهدي من تشاء إلىٰ صراط مستقيم.

واجعل الدنيا بأيدينا ولا تجعلها في قلوبنا، واجعل حظنا الأوفر يوم أن نلقاك، ونعوذ بك اللهم من عجز التَّقِي وصولة الجائر، ونعوذ بك من الكذب عند التقصير فما أنجىٰ كعب بن مالك إلا الصدق.

والحمد لله رب العالمين

*****

---

(١) العنكبوت: ٦٩.
(٢) محمد: ٤-٦.
(٣) الأعراف: ٢٠١، ٢٠٢.
(٤) الأحزاب: ٧٠، ٧١.
(٥) النور: ٥٤.

الخاتمة

كانت هذه السياحة في تعرف ملمات ومهمات ومتعلقات الطريق، وما يلزم السائر فيه من عدة وعتاد، وهي معالم وضعناها لإخواننا الدعاة يستفاد منها لتوحيد الصف، وتقريب وجهات النظر لعمل جاد؛ لإنقاذ البشر من حافة الهاوية؛ فإنه كما قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «**لا إسلام إلا بجماعة، ولا جماعة إلا بإمارة، ولا إمارة إلا بطاعة**»[1].

فلبناء جماعة ربانية، ولإقامة إمارة قرآنية، كانت هذه المحاولات وتلك التنقلات ما بين:

- العوائق الداخلية.
- والضوابط العامة.
- والعلاقات الاجتهادية.
- والوقفات الدعوية.
- والإشارات الضوئية.
- والهمسات الحانية

آملين أن ينتفع منها السائر في الدرب، وأن يتزود منها ذو العثار، راجين من الله القبول والتوفيق.

والحمد لله رب العالمين

*****

(١) الدارمي ١/ ٧٩.

هذه الرسالة

الدعاة إلىٰ الله ـ تعالىٰ ـ هم البعث لأمة واراها ركام الأجيال، وركام التصورات، وركام الأوضاع، وركام الأنظمة التي لا صلة بها بالإسلام، وطريق الدعوة طريق طويل يحتاج إلىٰ بحث الأسرار في العمل الإسلامي، وبحث العوائق، ووضع العلاجات، كما يحتاج إلىٰ وقفات وهمسات لأصحاب الدعوة، وإشارات يحتاجها السائر في طريق الدعوة.

وقد وضعت الرسالة مَعَالم لإخواني الدعاة يستفاد منها لتوحيد الصف وتقريب وجهات النظر لعمل جاد لإنقاذ البشر من حافة الهاوية.



الرسالة الثانية

ضوابط في العمل الإسلامي

مقدمة

العمل الدعوي ميدانه واسع، ومجال التحرك فيه بحر لا نهاية له.ولم لا، وإطاره الأرض، مطلق الأرض، وميدانه الإنسان من غير حد للون أو للجنس أو للغة، وعمل بهذه الفسحة من غير شك، ستعصف فيه رياح الأفكار والاجتهادات، وستعتلي به أمواج المقالات والأطروحات وهذا الكم الهائل من الوجودات الكتابية الإسلامية الشرقية والغربية لدليل واضح علىٰ ما ذكرنا، وهذه الثروة الفكرية والكتابية بلا شك لها جوانب سلبية، كما لها مجالات إيجابية، أما السلبية فترجع لأمور كثيرة منها:

١ـ عدم انضباط بعض ما هو مطروح بالكتاب والسنة والإجماع، وما في معناهم ومفهوم السلف من نصوص الشرع.

٢ـ تدخل الهوىٰ والضغوطات السياسية والاجتماعية والحزبية علىٰ صاحب القلم.

٣ـ التحليلات الجزئية والإلزامات الكلية العامة.

٤ـ محدودية المُطَّلِع علىٰ ما هو مطروح وعدم إدراكه للمراد.

٥ـ الاسترسال بالرمزية في الكتابات الإسلامية العامة.

هذه بعض السلبيات وغيرها مؤثر كذلك، وتأثيرها متحصل بصورة مختلفة منها:

١ـ تشكيك الشباب في أفهامهم وعلومهم التي أخذوها.

٢ـ إيجاد حوارات ومجادلات خالية من النضج والفهم.

٣ـ انشغال الكتاب بعضهم ببعض ردًّا ونقدًا، وما يترتب علىٰ ذلك من نزغ شيطاني يفسد الود في النفوس.

٤ـ وجود تحزبات حول الكتابات والتعصب لها، وهدم الشخصيات الإسلامية.

٥ـ وجود مادة كتابية من خلال الردود بين الكتاب الإسلاميين يستغلها أصحاب الأغراض السيئة من العلمانيين وغيرهم.

٦ـ الالتهاء عن مواجهة العدو المشترك من أصحاب المعتقد الفاسد.

ورسالتنا التي بين يديك ـ أخي الداعية ـ هي محاولة لمعالجة الأمر الأول: «**تشكيك الشباب في أفهامهم وعلومهم التي أخذوها**»، وذلك من خلال وضع شبه وضوابط يحتكم لها حين القراءة والاطلاع علىٰ المكتوب والمعروض في أسواق المكتبات الإسلامية، وكذلك ينظر فيها عند المساجلات وكتابات النقد والتجريح التي تكون بين الإسلاميين.

كما أن الصواب فيها سيكون إسهاما في صناعة الزجاج المصمت الصلب الذي يرىٰ فيه صاحبه الشبهات تمر عليه، ثم تمضي من غير أن تنكت في قلبه نكتة سوداء، وذلك بفضل الله، ثم صلابة الجدار وصفائه.

وقد يرىٰ الكاتب الإكثار من الاستشهاد بكلام شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ وما هو إلا لما عهد من الشيخ ابن تيمية ـ رحمة الله عليه ـ من سيلان ذهنه وقلمه في المباحث العويصة، وتكرار إحالاته من موضع إلىٰ موضع في كتبه ومؤلفاته، وكثرة استطراده فيها لتوضيح البحث وتمحيصه بسوق الأدلة والشواهد علىٰ المسأله وما يتصل بها، حتىٰ تبلغ درجة الإشباع في الإقناع، وهذا ما ستراه في كلامه الذي نقلته هنا، فلا غرابة إذا طالت هذه الصفحات، ففيها الفريد المفيد.

«**ذكر ذلك الشيخ الفاضل عبد الفتاح أبو غدة في التتمة الخامسة صفحة ١٤٧ في تحقيقه لكتاب الموقظة في علم مصطلح الحديث للإمام الذهبي...**» .

ونحن حين نقدم علىٰ هذه المحاولة لا نقصد أننا قد أصبنا المراد الاصطلاحي للضابط، بل قد يكون بعضها قاعدة والآخر أصلاً، ومنها ضابط ووسيلة، وهي في كل هذه الأمور تبقىٰ في دائرة العموم والتأصيل من أجل إيجاد وعىٰ عام، وإدراك واسع، وآفاق تعطي للداعي صحة التعامل الإيجابي مع الواقع وصراعاته؛ لنتحصل بعد ذلك علىٰ جيل يستحق أن يدخل في صراع ولادة الأمة ليتحمل أعباء المخاض، فالعالم الإنساني اليوم ينتظر المارد الإسلامي؛ ليمارس دوره الريادي للبشرية بعد سقوط المعسكر الشرقي، وتهاوي البناء العلماني الغربي.

وما سطرناه من ضوابط إنما هي محاولة، الخطأ فيها معتذر عنه ابتداء كما قيل:

تريد مهذبًا لا عيب فيه   وهل عود يفوح بلا دخان

وإنني لأدعو أساتذتنا الكرام أن يكتبوا حول مسائل الدين بقواعد تأصيلية، وكم هو مفيد ونافع ومزيل للالتباس كتاب شيخنا العلامة محمد بن صالح العثيمين «**القواعد المثلىٰ في صفات الله وأسمائه الحسنىٰ**».

وفي ختام هذه المقدمة أستسمح القارئ العذر لقلة نقلىٰ لنصوص الكتاب والسنة، وأسأل الله أن يعينني علىٰ عرض أفضل وتأصيل أعمق في الكتاب الثاني للضوابط، كما أن آثار العلم التي ذكرناها، إن لم تكن دليلاً لازمًا فهي صالحة كشواهد تطبيقية تبين أهمية ما ذكرنا.

والحمد لله رب العالمين

*****

الضابـــــط

* **لغة**: لزوم الشيء وحبسه، قال الليث: الضبط لزوم شيء لا يفارقه في كل شيء[١]، وهو في الحالة المحكمة التي يمتنع فيها الخطأ[٢].

* **اصطلاحًا**: الضابط الذي يجمع فروعًا من باب واحد في ضابط واحد[٣] والضابط أخص من القاعدة، والقاعدة تجمع فروعًا من أبواب مختلفة.

وكل ضابط سنذكره يجمع فروعًا متعددة في فهم من المفاهيم الإسلامية، وهي محاولة قد تصيب بأن يكون الضابط متحققًا بالكامل، وقد تخطئ بألا يجمع الفروع من بابها ومن ثم لا ينطبق عليه الضابط اصطلاحًا، وهذا لا يمنع وجود النفع والخير فيه، ولن يخرج الأمر من حد الفضل إلىٰ خير المفضول في أسوأ الأحوال.

ووجود هذه الضوابط بين يدي رجل الدعوة له فوائد متنوعة منها:

١ـ تكوين الملكة الدعوية والحس الحركي لدىٰ شباب الدعوة، وهذا من شأن تلمس طريق الدعوة الصحيح في وسط الأطروحات الكثيرة الموجودة في المجتمع.

٢ـ صعوبة جمع الفروع في المسائل الدعوية كلها لكثرتها وتناثرها؛ ولهذا لابد من وضع ضوابط يسهل حفظها والرجوع إليها عند وجود اختلال في الفهم[٤].

والضوابط هذه حاز قصب السَّبق من فيها وبرع؛ لأنه اتحد عنده ما تناقض عند غيره وتناسب، وأجاب الشاسع البعيد وتقارب، وحصل طلبته في أقرب الأزمان وانشرح صدره لما أشرق فيه من البيان[٥]، فالحكيم إذا أراد التعليم لابد أن يجمع بين بيانين؛ إجمالي تتشوق إليه النفس، وتفصيلي تسكن إليه.

وأخيرًا نقول: إن الأمر لا زال في دائرة الاجتهاد والنظر خاضع للتغيير والتعديل كما

(١) لسان العرب مادة (ضبط) ص ٥٠٩.
(٢) المصطلحات العلمية: ليوسف خياط في ذيل لسان العرب.
(٣) القواعد: تحقيق الدكتور أحمد بن عبد الله بن حميد ص ١٠٨.
(٤) بتصرف من كتاب القواعد، ص١١٤.
(٥) بتصرف من الفروق للقرافي (١/ ١١٣).

قيل:

مـا خط كف امرئ شيئًا وراجعه إلا وَعَـنَّ لـه تبديل مـا فيـه
وقـال ذاك أولىٰ وذاك كـذا وإن يكن هكـذا تسمو معانيه

الضابط الأول: العلم درع من تحصن به حفظ، ومن أخذ به حاز قصب السبق وارتفع(١).

العلم الشرعي المؤصل بالكتاب والسنة الصحيحة هو الحافظ بفضل الله من السقوط، وهو النور لمن عزم علىٰ المسير في طريق الأنبياء، قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه لكميل: احفظ ما أقول لك، الناس ثلاثة: فعالم رباني، وعالم متعلم علىٰ سبيل نجاة، وهمج رعاع أتباع كل ناعق، يميلون مع كل ريح لم يستضيئوا بنور العلم، ولم يلجؤوا إلىٰ ركن وثيق، العلم خير من المال، العلم يحرسك وأنت تحرس المال، العلم يزكو علىٰ العمل والمال تنقصه النفقة، ومحبة العالم دين يدان بها باكتساب الطاعة في حياته، وصنيعة المال تزول بزوال صاحبه، مات خزان الأموال وهم أحياء، والعلماء باقون ما بقي الدهر، أعيانهم مفقودة وأمثالهم في القلوب موجودة(٢).

وهذا يحصل بقوة تحصيلهم، كما وصف ابن ناصر أبا الطاهر السلفي، كأنه شعلة نار في التحصيل(٣).

فنورهم من جدهم وسهرهم، كالحافظ الضياء أبو محمد المقدسي: كأن النور يخرج من وجهه ضعف بصره من كثرة الكتابة والبكاء(٤).

وطالب العلم يتحصل علىٰ كرم الله بحفظه حتىٰ بعد الممات، نقل الحافظ ابن عساكر أن الحميدي كان أوصىٰ إلىٰ الأجل مظفر ابن رئيس الرؤساء أن يدفنه عند بشر، فخالف وصيته فلما كان بعد مدة رآه في النوم يعاتبه علىٰ ذلك، فنقله في صفر سنة إحدىٰ

(١) وأدلة الكتاب والسنة أكثرنا منها في كتابنا ـ العلم بين يدي العالم والمتعلم.
(٢) تذكرة الحفاظ للإمام أبي عبد الله شمس الدين محمد الذهبي، ط دار إحياء التراث العربي،(١/ ١١) سيرة الخليفة علي بن أبي طالب رضي الله عنه.
(٣) تذكرة الحفاظ (٤/ ١٣٠١) ترجمة السلفي أبي طاهر عماد الدين أحمد الأصبهاني.
(٤) نفس المصدر(٤/ ١٣٧٤) ترجمة عبد الغني تقي الدين أبو محمد المقدسي.

وتسعين وكان كفنه جديدًا وبدنه طريـًا تفوح منه رائحة الطيب رحمة الله عليه[١].

ولم لا ومذاكرة العلم ساعة خير من إحياء ليلة[٢]، وطالب العلم يوضع له القبول في الأرض. قال الإمام الذهبي يصف أبا الحسن الزيدي: قطع أوقاته في العبادة والعلم والكتابة والدرس والطلب حتىٰ مكن الله منزلته في القلوب وأحبه الخاصة والعامة[٣].

لهذه المكانة العالية للعلم وأهله كان العقلاء يحرصون عليه، ولبيان ذلك نسمع لابن العميد وهو يقول:

«ما كنت أظن في الدنيا حلاوة كحلاوة الوزارة أو الرياسة التي أنا فيها حتىٰ شاهدت مذاكرة الطبراني وأبي بكر الجعابي بحضرتي، وكان الطبراني يغلبه بكثرة حفظه، وكان أبو بكر يغلبه بفطنته حتىٰ ارتفعت أصواتهما إلىٰ أن قال الجعابي: عندي حديث ليس في الدنيا إلا عندي، فقال: هات. قال حدثنا أبو خليفة أنا سليمان بن أيوب (وحدث بحديث) فقال (الطبراني): أنا سليمان بن أيوب ومن سمعه أبو خليفة فاسمعه مني عاليًا، فخجل الجعابي، فوددت أن الوزارة لم تكن وكنت أنا الطبراني وفرحت كفرحه»[٤].

لوازم المحافظة على العلم:

١ـ عدم السقوط بحطام الدنيا: قال جابر بن عبد الله: ما منا إلا من مالت به الدنيا، ومال بها إلا عبد الله بن عمر رضي الله عنه[٥].

وهذا من دقته في متابعة النبي ﷺ والالتزام بأمره. ذكر نافع أن عبد الله تتبع أمر رسول الله ﷺ وآثاره وأفعاله حتىٰ كأنه خيف علىٰ عقله[٦].

والسقوط بالدنيا بداية الوهن، قال الإمام البنا ـ رحمه الله تعالىٰ: «**تغليب المصالح**

---

(١) نفس المصدر (٤/ ١٢٢١) ترجمة الحميدي أبىٰ عبد الله محمد بن أبي نصر الأندلسي.
(٢) تذكرة الحفاظ (١/ ٤١) قول لابن عباس رضي الله عنهما.
(٣) تذكرة الحفاظ (٤/ ١٣٦١) ـ ترجمة أبي الحسن علىٰ بن أحمد بن محمد بن عمر الحسيني الزيدي.
(٤) تذكرة الحفاظ (٣/ ٩١٥) ترجمة الطبراني أبي القاسم الشامي.
(٥) تذكرة الحفاظ (١/ ٤٠) ترجمة عبد الله بن عمر رضي الله عنه.
(٦) تذكرة الحفاظ (١/ ٣٩) ترجمة عبد الله بن عمر رضي الله عنه.

المادية الزائلة على الأخوة الإيمانية الباقية أول الوهن وأصل الفساد»[١].

٢ـ تكرار العلم والقراءة: ذكر ابن عطية أنه كرر على «**صحيح البخاري**» سبعمائة مرة[٢].

وكان يحيى بن هلال بن مطر يجلس كل يوم لإسماع «**المدونة**» من الظهر إلى الليل يستوعب قراءتها كل شهر[٣].

٣ـ عدم المباهاة عند الاجتماع مع طلبة العلم لا في اللباس ولا في الكلام خشية انكسار قلب من عنده نقص: قال إبراهيم النخعي يحدث عن واقع مجتمع العلماء الذي هو فيه: كانوا يكرهون إذا اجتمعوا أن يخرج الرجل أحسن ما عنده[٤].

قال سعيد المؤدب: قلت للحافظ أبي بكر الخطيب عند لقائي له: أنت الحافظ أبو بكر؟ فقال: أنا أحمد بن علي الخطيب، انتهي الحفظ إلى الدارقطني[٥].

وعدم المباهاة والورع يعبر عنها عمر بن خلدة المدني القاضي قال: إذا جاءك الرجل يسألك، فلا يكن همك أن تخرجه مما وقع فيه، وليكن همك أن تتخلص عما سألك عنه.

٤ـ يبذل السبب أيا كان لكسب عيشه حتى يتقوى على طلب العلم لينال بعد ذلك عون الله، حدث الوخشي أبو علي الحسن قال: كنت بعسقلان أسمع من ابن مصحح وغيره فضاقت على النفقة، وبقيت أيامًا بلا أكل، فأخذت لأكتب فعجزت، فذهبت إلى دكان خباز وقعدت بقربه لأشم رائحة الخبز وأتقوى بها، ثم فتح الله تعالى عليّ[٦].

٥ـ الوسطية في إعطاء الناس للعلم: قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: ألا أنبئكم بالفقيه حق الفقيه: من لم يقنط الناس من رحمة الله ولم يرخص لهم في معاصي الله، ولم يؤمنهم

---

(١) مجموعة رسائل الإمام البنا (ص ٣٥٩).
(٢) تذكرة الحفاظ (٤/ ١٢٦٩).
(٣) ترتيب المدارك (٢/ ٥٥٧).
(٤) تذكرة الحفاظ (١/ ٧٤) سيرة إبراهيم النخعي رحمه الله.
(٥) المرجع السابق (٣/ ١١٤١) ترجمة الخطيب أبى بكر أحمد البغدادي.
(٦) المرجع السابق (٣/ ١١٧٣) سيرة الوخشي أبى علي الحسن رحمه الله.

مكـر الله، وأن يـرد علـيهم مـا يناسـب مقـامهم. قـال رجـل لمحمـد بـن يوسـف بـن مطروح: أتخرب جهنم؟ فقال: ما أشقاك أن اتكأت على خرابها[١].

٦ـ التعفف عما في أيدي المربي، كما التعفف عما في الدعوة من مكاسب اجتماعية وسياسية ومالية، ذكر أبو العرب أن سحنونًا خلا بسعيد بن عباد يومًا، فقال له: ألست بإمامك؟ قال نعم، قال: وتقبل قولي؟ فقال: نعم ولو لم أقبل لم أختلف إليك، فقال له: هذا قولي، ويميني، فحلف بالله وأراه صرة في يده، ذكر أن فيها ثلاثين دينارًا وقال له: ما هي من سلطان ولا من تجارة ولا وصية، وما هي إلا من ثمرة شجرة غرستها بيدي، فخذها تتقوى بها على أمر دينك ودنياك، فقال: أنا عنها غني، وكان مفرط الحاجة إلى ما دونها، فقال سحنون: خذها سلفًا، فتتزوج منها وتنفق، فإن رزقك الله ردها أقبلها منك، فإن تعذر ردها، فأنت منها في حل، قال: ما كنت بالذي آخذ دينًا في ذمتي من غير حاجة، فقال سحنون: فإذا أبيت فلا تذكره لأحد ما دمت حيًّا[٢].

٧ـ الورع والتواضع مع العلم والرئاسة: قدم عيسى بن مسكين بن منصور إلى القيروان على حمار عليه إكاف، فقام الناس إليه على أقدامهم فقال: مكانكم ـ رحمكم الله ـ إنما يقوم الناس لرب العالمين[٣].

وهذا عبد الله بن أحمد بن إبراهيم أبو العباس الأبياني: إذا قيل له: الفقيه يقول: لقب لقبنا به، وقد سئل يومًا عن فقيهين من أصحابه، وتلاميذه، وهما: أبو القاسم بن زيد، وسعيد بن ميمون، فقيل له: أيهما أفقه؟ فقال: إنما يفصل بين عالمين من هو أعلم منهما[٤].

وأبو سنان زيد بن سنان الأسدي مع علمه كان يحمل خبزه إلى الفرن على يده ولا

(١) ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك للقاضي عياض، تحقيق: د. أحمد بكير ٢/ ١٤٢.
(٢) ترتيب المدارك ٢/ ١٢٦.
(٣) المصدر السابق ٢/ ٢٢٦.
(٤) المصدر السابق ٢/ ٣٥٠.

يترك طلبته يحملونه تواضعًا[(١)].

وكانوا ـ رحمهم الله تعالىٰ ـ يهربون من الزعامة؛ لما فيها من تبعة ومسؤولية وأمانة، وهذا أمر ليس بالهين. قال عبد الرحيم بن عبد ربه الرتعي: تجد الرجل يصبر علىٰ الصيام والصلاة، ويتورع فإذا جاءت الفتيا، لم يصبر[(٢)]. وذلك لما فيها من تصدر وظهور أمام الخلق، ولهذا كان يخافها أصحاب الورع، ذكر ابن سعدون أن أبا الحسن لما جلس للناس وعزم عليه في الفتوىٰ تأبي وسد بابه دون الناس، فقال لهم أبو القاسم بن شبلون: اكسروا عليه بابه؛ لأنه قد وجب عليه فرض الفتيا، هو أعلم من بقي بالقيروان، فلما رأىٰ ذلك خرج إليهم ينشد:

لعمر أبيك ما نُسِب المعلىٰ إلىٰ كـــرم في الدنيا كريم
وَلكن البلاد إذا اقشعرَّت وصوّح نبتُها رُعِي الهشيم[(٣)]

وهكذا يكون أثر العلم، قال الإمام الشافعي: «**ليس العلم ما حفظ، العلم ما نفع**»[(٤)] قد نفعهم العلم فحفظوا أنفسهم من فتنة المديح الرئاسة، قال أبو حفص بن الحكار لأبي القاسم بن الحداد عند ما قام؛ ليصلح له نعله: «**اصفعني به يا أبا القاسم لا تفتني في دين الله ـ عز جل**»[(٥)].

وفي الختام يُبتعد عن طريق محق البركة، قال الإمام الأوزاعي: «**بلغني أن الله إذا أراد بقوم شرا ألزمهم الجدل ومنعهم العمل**»[(٦)].

قال الشاعر:

إن كنت تبغي الرشاد محضًا لأمــر دنياك والمعـــــــاد

(١) المصدر السابق ٢/ ١٤ .
(٢) المصدر السابق ٢/ ٩٨.
(٣) ترتيب المدارك ٢/ ٦١٧.
(٤) تهذيب الأسماء واللغات ١/ ٥٦.
(٥) ترتيب المدارك ٢/ ٨٠١.
(٦) تذكرة الحفاظ: (١/ ١٧٩، ٣/ ٩٢٤) .

فخالف النفس في هواهـــا إن الهــوىٰ جامـع الفساد[١]

وهـذا الهـوىٰ دافـع للحـابط عملـه أن يعمـل علىٰ الإيقـاع بـين النـاس، قـال أبـو سـنان الأسدي: «**إذا كان طالب العلم قبل أن يتعلم مسألة في الدين، يتعلم الوقيعة في الناس متىٰ يفلح**»[٢].

*****

(١) تذكرة الحفاظ ٣/ ١١٤٥ ترجمة الخطيب أبىٰ بكر أحمد البغدادي.

(٢) المرجع السابق ٢/ ١٤، ١٥.

الضابط الثاني: يحفظ العلم بتكريمه، ووضعه في مكانه(١):

يتحرك الداعية إلىٰ الله بين الخلق بما عنده من كتاب وسنة، فما يقوم بتبليغه لا يتعدىٰ ما قام به الأنبياء ـ عليهم السلام ـ فهو أمر عظيم لابد من إنزاله منزله، قال ابن القاسم: «**عليك بأعظم مدائن الأندلس فانزلها ولا تنزل منزلاً يضيع ما حملت من علم**»(٢) ولبقاء قيمة العلم في النفوس اسمع هذه الحادثة:

قال أحمد أخو ربيع: كنا إذا جلسنا مع والدي، وخطر في باله شيء من العلم، قام من مكانه يبحث بين يدي ربيع ابنه. فيقوم ربيع إليه ويقول: لم فعلت هذا؟ فيقول:أردت أن أسألك عن شيء من العلم فيقول: وهلا وأنت في مكانك؟ فيقول:أردت أن أعطي العلم حقه(٣).

وهذا القاضي أبو بكر الطيب ذهب رسولاً من قبل عضد الدولة إلىٰ ملك الروم بالقسطنطينية، فلما وصل مدينة الطاغية وعرف به وبمحله من العلم، فكر الطاغية في أمره وعلم أنه لا يركع له إذا دخل عليه ـ كما جرىٰ رسم الرعية أن تقبل الأرض بين يدي ملوكها ـ فرأىٰ أن يضع سريره، وراء باب لطيف، لا يمكن أن يدخل أحد منه إلا راكعًا، ليدخل القاضي من ذلك الباب. فلما رآه القاضي، تفكر وأدار رأسه، وحنىٰ رأسه راكعًا، دخل من الباب يمشي مستقبلاً الملك بدبره، حتىٰ صار بين يديه، ثم رفع رأسه، ونصب ظهره، ثم أدار وجهه إلىٰ الملك حينئذ، فعجب من فطنته، ووقعت له الهيبة في قلبه(٤).

وإعطاء العلم حقه يحفظ صاحبه من الانزلاق، ذكر أبو ميسرة أحمد بن نزار أنه بينما هو يتهجد ليلة من الليالي، ويبكي، ويدعو، إذا بنور عظيم خرج له من حائط المحراب، ووجهه كالبدر. فقال له:تأمل في وجهي يا أبا ميسرة، بأني ربك الأعلىٰ فبصق في وجهه قال له: اذهب يا ملعون، فعليك لعنة الله(٥).

*****

(١) وهذا تابع للأول ولأهميته أفردناه.
(٢) ترتيب المدارك ٢/ ١٧.
(٣) المرجع السابق ٢/ ٣٣٢.
(٤) المرجع السابق ٢/ ٥٩٦.
(٥) المرجع السابق ٢/ ٣٥٩.

الضابط الثالث: مسائل الشريعة أصول وفروع، والإنصاف في التعبير يستلزم ذكر الأصول والفروع:

من المعروف أن أهل السنة عندما يطلقون تسمية أصول الدين على العقيدة يريدون بذلك تشريف العقيدة، وبيان عظيم مكانتها، وسمو منزلتها في هذا الدين.

وكذلك عندما يطلقون على المسائل العملية (الفروع) فإنهم لا يقصدون أن كل مسائلها فروع، بل فيها الأصول وفيها الفروع.

فالأمور الجليلة الكبيرة من العقيدة والفقه أصول، والأمور الخفيفة من العقيدة والفقه فروع.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله:

إن المسائل الخبرية قد تكون بمنزلة المسائل العملية، وإن سميت تلك «**مسائل أصول**» وهذه «**مسائل فروع**».

فإن هذه تسمية محدثة، قسمها طائفة من الفقهاء والمتكلمين، وهو على المتكلمين والأصوليين أغلب لا سيما إذا تكلموا في مسائل التصويب والتخطئة[١].

ثم قال ـ رحمه الله: فالعلم بوجوب الواجبات كمباني الإسلام الخمس، وتحريم المحرمات الظاهرة المتواترة: كالعلم بأن الله على كل شيء قدير، وبكل شيء عليم، وأنه سميع بصير، وأن القرآن كلام الله، ونحو ذلك من القضايا الظاهرة المتواترة، لهذا من جحد تلك الأحكام العملية المجمع عليها كفر، كما أن من جحد هذه كفر[٢]. ثم في بيان أن مسائل الشريعة ليست على وتيرة واحدة من حيث القطعية والظنية، وما يترتب على ذلك من جواز الاجتهاد فيها من عدمه، يقول رحمه الله: «**وقولنا: إنها ـ أي المسائل الخبرية ـ قد تكون بمنزلتها ـ أي المسائل العملية ـ يتضمن أشياء منها: أنها تنقسم إلى قطعي وظني.**

ومنها: أن المصيب وإن كان واحدًا، فالمخطئ قد يكون مذنبًا وقد يكون فاسقًا وقد

---

(١) الفتاوى ٦/ ٥٦.

(٢) المرجع السابق ٦/ ٥٧.

يكون كالمخطئ في الأحكام العملية سواء، لكن تلك لكثرة فروعها والحاجة إلىٰ تفريعها: اطمأنت القلوب بوقوع التنازع فيها، والاختلاف بخلاف هذه؛ لأن الاختلاف هو نفسه لا يحتمل إلا لدرء ما هو أشد منه.

ثم يبين ـ رحمه الله ـ سبب إنكار الناس للخلاف في المسائل الخبرية وعدم إنكارها في المسائل العملية من قوله: ولما دعت الحاجة إلىٰ تفريع الأعمال وكثرة فروعها، وذلك مستلزم لوقوع النزاع اطمأنت القلوب فيها إلىٰ النزاع، بخلاف الأمور الخبرية، فإن الاتفاق قد وقع فيها علىٰ الجملة، فإذا فصلت بلا نزاع فحسن، وإن وقع التنازع في تفصيلها، فهو مفسدة من غير داعية إلىٰ ذلك(1).

*** مثال واضح:**

ولتوضيح ما ذكرنا ننقل هذا النص:

قال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله: والذي أوجب هذا «رسالته إلىٰ أهل البحرين وحديثه لهم عن مسألة رؤية الكفار ربهم» أن وفدكم حدثونا بأشياء من الفرقة والاختلاف بينكم، حتىٰ ذكروا أن الأمر آل إلىٰ قريب المقاتلة، وذكروا أن سبب ذلك اختلاف في «**رؤية الكفار ربهم**»، وما كنا نظن أن الأمر يبلغ بهذه المسألة إلىٰ هذا الحد.

فالأمر في هذا خفيف. وإنما المهم الذي يجب علىٰ كل مسلم اعتقاده:

إن المؤمنين يرون ربهم في الدار الآخرة في عرصة القيامة وبعدما يدخلون الجنة علىٰ ما تواترت به الأحاديث عن النبي ﷺ عند العلماء بالحديث(2).

فبالجملة: فليس مقصودي بهذه الرسالة الكلام المستوفي لهذه المسألة، فإن العلم كثير، وإنما الغرض بيان أن هذه المسألة ليست من المهمات التي ينبغي كثرة الكلام

---

(1) الفتاوىٰ ٦/ ٥٧ ـ ٥٨.

قال العلامة محمد بن حمزة بن محمد الفناري الحنفي المتوفي سنة ٨٣٤ هـ: المسائل الاجتهادية إما أصلية أو فرعية، وقال الإيجري: الاجتهاد في القطعيات أصولاً فروعاً. انظر أصول البدائع ٢/ ٤١٦.

(2) مجموع الفتاوىٰ ٦/ ٤٨٥، ثم بدأت بعد ذلك تنحدر الأدلة من شيخ الإسلام حول موضوع رؤية الله من قبل المؤمنين. وهذه من أصول الدين المتفق عليها، بل هي من أشرف الأمور، وقد بيناها في كتابنا الجداول الجامعة.

فيها، وإيقاع ذلك إلىٰ العامة والخاصة حتىٰ يبقىٰ شعارًا، ويوجب تفريق القلوب وتشتت الأهواء[١].

بعد ذلك ذكر جملة مما كان عليه السلف ـ رضوان الله عليهم ـ من اختلاف في هذا النوع من المسائل فقال:

«**ليست هذه المسألة فيما علمت مما يوجب المهاجرة والمقاطعة، فإن الذين تكلموا فيها قبلنا عامتهم أهل سنة واتباع، وقد اختلف فيها من لم يتهاجروا ويتقاطعوا، كما اختلف الصحابة** ﵃**، والناس بعدهم في رؤية النبي** ﷺ **ربه في الدنيا، وقالوا فيها كلمات غليظة، كقول أم المؤمنين عائشة** ﵂: «**من زعم أن محمداً رأىٰ ربه، فقد أعظم علىٰ الله الفرية**»[٢].

ومع هذا فما أوجب هذا النزاع تهاجرا ولا تقاطعا. وكذلك ناظر الإمام أحمد أقوامًا من أهل السنة في «**مسألة الشهادة للعشرة المبشرين بالجنة**» حتىٰ آلت المناظرة إلىٰ ارتفاع الأصوات، وكان أحمد وغيره يرون الشهادة، ولم يهجروا من امتنع من الشهادة إلىٰ مسائل نظير هذه كثيرة»[٣].

*****

(١) مجموع الفتاوىٰ ٦/ ٥٠٢.
(٢) أخرجه البخاري (٣٢٣٤)، ومسلم رقم (١٧٧) عن عائشة ﵂.
(٣) مجموع الفتاوىٰ ٦/ ٥٠٢.

الضابط الرابع: عامة المسلمين يدعون إلىٰ أصول الدين، ويبعدون عن خلاف الفروع:

قال الله تعالىٰ: ﴿وَلَٰكِن كُونُواْ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمۡ تُعَلِّمُونَ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ (١) قال ابن عباس رضي الله عنهما: «**الرباني الذي يربي الناس بصغار العلم قبل كباره**».

إن ديننا عظيم وأصوله المتفق عليها كثيرة، ولـم لا وهو دين الفطرة ﴿فِطۡرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَاۚ لَا تَبۡدِيلَ لِخَلۡقِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ﴾(٢) إشغال عامة المسلمين بالعمل بالأصول المتفق عليها خير لهم ولدينهم من شحن قلوبهم وجرح نفوسهم بالأمور المختلف فيها، وقد نص علىٰ ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ فقال في مسألة «**رؤية الكفار لربهم في الآخرة اختلاف فيها**»: وهنا آداب يجب مراعاتها: منها: أن من سكت عن الكلام في هذه المسألة «**رؤية الكفار لربهم**»(٣) لم يدع إلىٰ شيء، فإنه لا يحل هجره، إن كان يعتقد أحد الطرفين، فإن البدع التي هي أعظم منها لا يهجر فيها إلا الداعية دون الساكت، فهذه أولىٰ.

ومن ذلك: أنه لاينبغي لأهل العلم أن يجعلوا هذه المسألة محنة و شعارًا يفضلون بها بين إخوانهم وأضدادهم فإن مثل هذا مما يكرهه الله ورسوله.

وكذلك: لا يفاتحون فيها عوام المسلمين الذين هم في عافية وسلام عن الفتن.

ولكن إذا سئل الرجل عنها، أو رأي من هو أهل لتعريفه ذلك ألقىٰ إليه مما عنده من العلم ما يرجو النفع به، هذا بخلاف الإيمان بأن المؤمنين يرون ربهم في الآخرة، فإن الإيمان بذلك فرض واجب؛ لما قد تواتر فيها عن النبي ﷺ وصحابته وسلف الأمة(٤).

وتحديث الناس بقدر عقولهم أمر تقتضيه الفطرة ويحدده النص، قال عبد الله بن

---

(١) آل عمران: ٧٩.

(٢) الرم: ٣٠.

(٣) وهذا بخلاف رؤية المؤمنين لربهم فهي من أصول الدين.

(٤) مجموع الفتاوىٰ ٦/ ٥٠٣، ٥٠٤.

مسعود: ما أنت بمحدث قومًا حديثًا لا تبلغه عقولهم إلا كان فتنة لبعضهم[١].

وهذا هو الطريق الموصل إلىٰ إنهاء الشقاق بين المسلمين، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله عند حديثه في مسألة خلق القرآن:

«**والواجب: أمر العامة بالجمل الثابتة بالنص والإجماع، ومنعهم من الخوض في التفصيل الذي يوقع بينهم الفرقة والاختلاف، فإن الفرقة والاختلاف من أعظم ما نهى الله عنه ورسوله**»[٢].

ومراعاة ظروف الناس وأحوالهم بما ليس فيه هتك للشرع أمر تقتضيه مصلحة جميع المسلمين، وقد وجدنا ذلك في أدق أمر عند المسلمين وهي الصلاة، فعن أبي مسعود الأنصاري رضي الله عنه قال: جاء رجل إلىٰ رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، إني والله لأتأخر عن صلاة الغداة من أجل فلان يطيل بنا فيها. قال: فما رأيت النبي ﷺ قط أشد غضبًا في موعظة منه يومئذ، ثم قال: «**يا أيها الناس، إن منكم منفرين، فأيكم ما صلىٰ بالناس فليوجز، فإن فيهم الكبير والضعيف وذا الحاجة**»[٣].

*****

(١) تذكرة الحفاظ ١/ ١٥ سيرة عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

(٢) مجموع الفتاوىٰ (١٢/ ٢٣٧).

(٣) أخرجه البخاري (٧١٥٩)، ومسلم (٤٦٦)، عن أبي مسعود الأنصاري.وإثبات صفات الله العليا وأسمائه الحسنىٰ الثابتة بالكتاب والسنة الصحيحة من أصول الدين والتي منها رؤية المؤمنين لربهم،واستوائه علىٰ عرشه سبحانه.

الضابط الخامس: لابد من الثقة والمحبة بين الشيخ والطالب والقائد والجنود: طريق الخير والنجاة.

الأصل في الصلة حصول الفائدة والنفع؛ لما فيه خير الدين والدنيا وهذا في الغالب لا يتحقق ما لم يكن هناك ارتباط روحي عنوانه الثقة والمحبة، فانظر مثلاً إلىٰ قول ابن الجوزي عن أبي بركات عبد الوهاب البغدادي قال: «**كنت أقرأ عليه وهو يبكي، فاستفدت ببكائه أكثر من استفادتي بروايته، وكان علىٰ طريقة السلف انتفعت به ما لم أنتفع بغيره**»[(١)].

والثقة والاستفادة إنما تتحصل بالصدق والإخاء يُبني عليها التكافل بشقيه المادي والمعنوي، وقمة الأمر تكون بتقديم الآخرين علىٰ النفس، وتتجلىٰ هذه الحقيقة بصور متعددة في حياة سلفنا ـ رضوان الله عليهم ـ فهذا عبد الله بن طالب يشكو إليه رجل لابنته جهازًا لزواجه، وكان لابن طالب ابنة تخرج إليه، من عيد إلىٰ عيد. فقال لأمها: «**أحب أن تزيني ابنتي وتلبسيها ثيابها وحليها. ففعلت، وأخرجت إليه فرحب بها، واستبشر، ثم قال لها ولأمها: «إن فلانًا شكا إلىٰ كذا، وأنا أحب أن أدفع له جميع ما علىٰ ابنتي من حلي وثياب، يجهز به ابنته وعلىٰ أن أعوض ابنتي منه بما هو أكثر**»[(٢)]. والأخ وهو يقوم بحقوق ومستلزمات الأخوة يستشعر التقصير ويسأل الله المغفرة، فهذا الإمام هشام بن مسروق التميمي من علماء القرن الثالث يقف عند باب المكتب الذي يُعلم فيه القرآن ثم يقول للمؤدب: أخرج إلىٰ من عندك من الأيتام، فيشتري لهم الفاكهة، ويطعمهم، ويدهن رؤوسهم، ويقبل بين أعينهم، ويقول: ما عسىٰ أن أصنع لكم، اللهم اقبل هذا الجهد منىٰ[(٣)].

هذه نماذج من التكافل المادي، أما المعنوي، فالحاجة إليه بين القيادة والأفراد أكثر، لما له من أثر في رص الصفوف، ودفع عجلة العمل وقطع السبيل علىٰ المرجفين

---

(١) تذكرة الحفاظ ٤/ ١٢٨٤.
(٢) ترتيب المدارك ٢/ ١٩٩.
(٣) أدب المعلمين لمحمد بن سحنون (٣٦).

المفرقين للصفوف الباذرين لحبوب الشقاق في أرض الزارعين، فانظروا إلىٰ التحسس المرهف؛ لشعور الآخرين في قول ابن عباس رضي الله عنه: «**لكل قادم دهشة فابدؤوه بالسلام**»[١]. وهذا الإحساس دليل الحب والإشفاق من أن يصاب أحد من المسلمين بسوء ولدقة هذا الإحساس، انظر إلىٰ هذه القصة، «**كان معاوية بن الحارث عاملاً لعمر بن عبد العزيز علىٰ** «**غزاة**» فبعث إليه رسولاً، فقال له عمر: هل سلم المسلمون، قال: نعم! قال: كلهم؟ قال: نعم، إلا رجلاً واحدًا عدلت به دابته فساح في الثلج، قال:فصنع ماذا؟ قال: فهلك. فقال عمر بن عبد العزيز: لقد أطلقتها غير مكترث. عليّ بفلان، كاتبه. فكتب إلىٰ عامله ـ معاوية: إياك وغارات الشتاء، فوالله لَرَجلٌ من المسلمين أحب إلىٰ من الروم وما حوت»[٢].

ومن التكافل المعنوي عدم سماع الوشاة فيهم والانبراء للدفاع عن أعراضهم وأفكارهم، وقطع السبيل علىٰ أصحاب الفتن كما أنشد بعضهم:

أولئك أصحابي فحَيّ هلا بهم وحَيّ هلا بالطيبين وأنعـم
ويا لائمي في حبهم وولائهـم تأمل هداك الله من هو ألـوم

*****

(١) تذكرة الحفاظ ٤/ ١٢٨٣.
(٢) أخرجه الدولابي في الكنىٰ والأسماء (١/ ٣١١)، وابن عساكر في تاريخ دمشق (٧/ ٩٤، ٩٥).

الضابط السادس: قوة الشجاعة في الحق طريق النصر في الدنيا والآخرة:

إن معرفة الحق أمر ليس بالسهل، فيحتاج إلىٰ أدوات كثيرة، منها الصدق والإخلاص مع النظر إلىٰ الكتاب والسنة مقترن ذلك بالدعاء لله أن يوفق للهدىٰ والصواب، والأمر بعد بيان الحق أشد، وهو الالتزام به مع كثرة المخالفين وتشعب الأهواء وتوزع المشارب، ولكنه في النهاية إعزاز في الدنيا والآخرة، وهذا منهج سلفنا ـ رضوان الله عليهم ـ قال عامر بن يساف: «**سمعت الأوزاعي يقول: إذا بلغك عن رسول الله ﷺ حديث فإياك أن تقول بغيره، فإنه كان مبلغًا عن الله ـ تعالىٰ ـ ومن مقولته هذه كان منهجه ـ رحمه الله ـ قال محمد بن كثير المصيصي: سمعت الأوزاعي يقول: كنا والتابعون متوافرون ـ نقول: إن الله ـ تعالىٰ ـ فوق عرشه ونؤمن بما وردت به السنة من صفاته. وكان يقول: عليك بآثار من سلف إن رفضك الناس، وإياك ورأي الرجال وإن زخرفوه بالقول، فإن الأمر ينجلي، وأنت علىٰ طريق مستقيم**»[(١)].

ووضوح الحق والقول به لم يكن عنده في حالة الأمن فقط، بل الأمر متسق في نمط واحد في جميع الأوقات، حتىٰ في الأماكن التي تتطاير بها الرقاب، فها هو ـ رحمه الله ـ يحدث عن موقفه بين يدي ـ عبد الله بن علىٰ عم السفاح ـ في قوله: «لما قدم ـ عبد الله ـ الشام وقتل بني أمية جلس يومًا علىٰ سريره وعبيّ أصحابه أربعة أصناف، صنف بالسيوف المسللة، وصنف معهم الجرزة، وصنف معهم الأعمدة، وصنف معهم الكافر كوب، ثم بعث إلىٰ، فلما صرت إلىٰ الباب أنزلوني عن دابتي، وأخذ اثنان بعضدي وأدخلوني بين الصفوف حتىٰ أقاموني بحيث يسمع كلامي، فقال لي: أنت عبد الرحمن بن عمرو الأوزاعي؟ قلت: نعم أصلح الله الأمير، قال: ما تقول في دماء بني أمية؟ قلت: قد كان بينك وبينهم عهود وكان ينبغي أن تفي بها، قال: ويحك اجعلني وإياهم لا عهد بيننا، فأجهشت نفسي وكرهت القتل، فذكرت مقامي بين يدي الله فلفظتها فقلت: دماؤهم عليك حرام، فغضب وانتفخت أوداجه واحمرت عيناه؛ فقال لي: ويحك ولم؟ قلت: قال رسول الله ﷺ: «لا يحل دم امرئ مسلم إلا بإحدىٰ ثلاث: ثيب زان، ونفس بنفس، وتارك

(١) تذكرة الحفاظ ١/ ١٨٠ ترجمة أبي عمرو الأوزاعي.

لدينه»[١]، قال: ويحك أو ليس الأمر لنا ديانة قلت: كيف ذاك؟ قال: أليس كان رسول الله ﷺ أوصىٰ لعلي؟ قلت: لو أوصىٰ إليه لما حكَّم الحكمين. فسكت وقد اجتمع غضباً فجعلت أتوقع رأسىٰ يسقط بين يدي، فقال بيده هكذا أومىٰ أن أخرجوه، فخرجت فما أبعدت حتىٰ لحقني فارس، فنزلت وقلت: قد بعث ليأخذ رأسي، أصلي ركعتين، فكبرت فجاء وأنا أصلي فسلم وقال: إن الأمير بعث إليك هذه الدنانير قال: ففرقتها قبل أن أدخل بيتي»[٢].

ودين أولئك الرهط وورعهم هو الذي أوصلهم إلىٰ ذلك، قال الإمام أحمد عن ابن أبي ذئب: هو أورع وأقوم بالحق من الإمام مالك، دخل علىٰ المنصور فلم يهبه أن قال له الحق وقال: «**الظلم ببابك فاش، وأبو جعفر أبو جعفر**»[٣].

وهذه سيرة السلف ـ رضوان الله عليهم ـ مطردة، قال ابن لهيعة: «**مرض يزيد ابن أبي حبيب الأزدي، فعاده الحوثرة بن سهيل أمير مصر، فقال: يا أبا رجاء ما تقول في الصلاة في الثوب، وفيه دم البراغيث؟ فحوّل وجهه ولم يكلمه وقام. فنظر إليه يزيد وقال: تقتل كل يوم خلقًا وتسألني عن دم البراغيث**»[٤]، والمتتبع لمثل هذه الأمور يجد أن الدافع لها من هؤلاء الرهط هو الحرص علىٰ حقوق الله ـ سبحانه.

وتحقيق ما ذكرنا يتضح فيما رواه المطلب بن السائب قال: «**كنت جالسا مع سعيد ابن المسيب بالسوق، فمر بريد لبني مروان فقال له سعيد: من رسل بني مروان أنت؟ قال: نعم، قال: كيف تركت بني مروان؟ قال: تركتهم يجيعون الناس ويشبعون الكلاب! فاشرأب الرسول فقمت إليه، فلم أزل أزجيه حتىٰ انطلق، فقلت لسعيد: يغفر الله لك تشيط بدمك؟ فقال: اسكت يا أحمق، فو الله لا يسلمني الله ما أخذت بحقوقه**»[٥].

وهذه المواقف يحتاجها الداعية وطالب العلم لتبقىٰ هيبة الإسلام، روىٰ حماد بن

(١) أخرجه البخاري (٦٨٧٨)، ومسلم (١٦٧٦) عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.
(٢) تذكرة الحفاظ ٥/ ١٨٥.
(٣) تذكرة الحفاظ ١/ ٥ في ترجمة ابن أبي ذئب.
(٤) تذكرة الحفاظ ١/ ١٣٠ سيرة أبي رجاء يزيد الأزدي.
(٥) تذكرة الحفاظ ١/ ٥٥ سيرة سعيد بن المسيب.

زيد عن أيوب قال: «**مرض أبو قلابة بالشام فعاده عمر بن عبد العزيز وقال: يا أبا قلابة: تشدد لا يشمت بنا المنافقون**»(١)، وهو السبب الذي جعل النبي ﷺ يأمر الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ بالرمل في عمرة القضاء(٢). وتصبر أبو قلابة ـ رحمه الله ـ حتىٰ مات بعريش مصر سنة أربع ومائة(٣)، وقد ذهبت يداه ورجلاه وبصره وهو مع ذلك حامد شاكر. هؤلاء هم سلفنا ـ رضوان الله عليهم ـ نماذج يقتدىٰ بها في كل ظرف بحسبه، وهذا من قدر الله أن مرت عليهم جميع الأحوال التي من المتصور مرور الجماعة الإسلامية عليها، وما أحسن تعبير سفيان الثوري في قوله: «**يُقتدىٰ بعمر في الجماعة وبابنه في الفرقة**»(٤). يقصد حال الأمة في عافيتها وفتنتها ـ وهكذا كل واحد منهما حفظ جماعة المسلمين من التفكك و الضعف.

وملاك هذه الروح العالية حُسْنُ الاعتقاد وخشيةٌ من الوقوف بين يدي الله سبحانه، فهذا نصر الفتىٰ يأتي إلىٰ سعيد بن حسان الصائغ فيجده يصلي متنفلا يطيل صلاته، فينصرف مغضباً يتوعده. فلما أكمل صلاته، كُلم في ذلك. فقال: «**كنا بين يدي الله نناجيه. وسيكفينا أمره من كنا بين يده**»(٥). وهذا الوضوح في الاعتقاد أن النافع والضار هو الله يدل علىٰ صفاء في التصور الاعتقادي الذي يعقبه عمق في الخشية من الله ـ سبحانه وتعالىٰ ـ وقبول في الدنيا والآخرة، قال ابن وضاح: حضر عيسىٰ ويحيىٰ جنازة، فلما صليا عليها أقبل الناس علىٰ عيسىٰ وحفوا به. قال له يحيىٰ: ما أشك أن الذي ألقىٰ لك في قلوب الناس لخبية صالحة. قال أصبغ بن خليل: كان يُقرأ علىٰ عيسىٰ، فإذا مر بذكر الجنة والنار لم ننتفع به يومنا»(٦).

*****

(١) تذكرة الحفاظ ١/ ٩٤ سيرة أبي قلابة عبد الله بن زيد.
(٢) أخرجه البخاري (١٦٠٢).
(٣) تذكرة الحفاظ ١/ ٩٤.
(٤) تذكرة الحفاظ ٢/ ٣٨ ترجمة عبد الله بن عمر.
(٥) ترتيب المدارك ٢/ ٢٢.
(٦) ترتيب المدارك ٢/ ١٩. فوضوح أمر الآخرة في نفسه الدالة علىٰ حسن اعتقاده جعلت له هذه المكانة.

الضابط السابع: من الإنصاف الحكم علىٰ المعاني دون المباني:

الناصح والناقد إما أن يريد الإصلاح والبناء أو يريد الهدم والإفناء؛ ولهذا طريقه ولذاك كذلك، والبعد عن التعميم ومحاكمة الآحاد من العبارات والجمل مع عدم تعميمها علىٰ غيرها والبعد عن إلزاماتها التي ليست بلازمة لها ولم يلتزم بها قائلها، هو طريق الإنصاف الذي سلكه علماء السلف ـ رضوان الله عليهم ـ يقول شيخ الإسلام ابن تيمية فيمن صرف الاستواء أو غيره من الصفات من الحقيقة إلىٰ المجاز: «**نعلم أن كثيرًا ممن ينفي ذلك ـ حقيقة بعض الصفات ـ لا يعلم لوازم قوله، بل كثير منهم يتوهم أن الحقيقة ليست إلا محض حقائق المخلوقين؛ وهؤلاء جهال بمسمىٰ الحقيقة والمجاز، وقولهم افتراء علىٰ اللغة والشرع**».

وفي الرد عليهم يقول ـ رحمه الله ـ للقائل منهم: أحسنت في نفي هذا المعنىٰ الفاسد ـ نفي المماثلة ـ ولكن أخطأت في ظنك أن هذا هو حقيقة ما وصف الله به نفسه[1] ويقول ـ رحمه الله ـ مفصلاً ومدققًا:

«**تجد خلقًا من مقلدة الجهمية يوافقهم بلسانه، وأما قلبه فعلىٰ الفطرة والسنة، وأكثرهم لا يفهمون ما النفي الذي يقولونه بألسنتهم، بل يجعلونه تنزيهًا مطلقًا مجملاً.**

ومنهم من لا يفهم قول الجهمية، بل يفهم من النفي معنىٰ صحيحًا، ويعتقد أن المثبت نقيض ذلك، ويسمع من بعض الناس ذكر ذلك، مثل أن يفهم من قولهم:

ليس في جهة، ولا له مكان، ولا هو في السماء إنه ليس في جوف السماء.

وهذا معنىٰ صحيح، وإيمانه بذلك حق. ولكن يظن أن الذين قالوا هذا النفي اقتصروا علىٰ ذلك، وليس كذلك. بل مرادهم:

أنه ما فوق العرش شيء أصلاً، ولا فوق السموات إلا عدم محض، ليس هناك إله يعبد، ولا رب يدعىٰ ويسأل، ولا خالق خلق الخلائق، ولا عرج بالنبي ﷺ إلىٰ ربه أصلاً.

(١) مجموع الفتاوىٰ ٢٠/ ٢١٨ .

هذا مقصودهم»[١].

وفي تطبيقاته ـ رحمه الله ـ لمنهجه هذا مع الصوفية يتضح ذلك:

يقول ـ رحمه الله: «**والصوفية يوجد فيهم المصيب والمخطئ، كما يوجد في غيرهم...**». وليس أحد معصومًا في كل ما يقول إلا رسول الله ﷺ[٢]، وعن أقسامهم يقول رحمه الله: «**ولأجل ما وقع من كثير منهم من الاجتهاد والتنازع فيه تنازع الناس في طريقهم؛ فطائفة ذمت «الصوفية والتصوف»**. وقالوا: إنهم مبتدعون، خارجون عن السنة، وطائفة غلت فيهم، وادعوا أنهم أفضل الخلق، وأحكمهم بعد الأنبياء وكلا طرفي هذه الأمور ذميم.

والصواب أنهم مجتهدون في طاعة الله، كما اجتهد غيرهم من أهل طاعة الله، ففيهم السابق المقرب بحسب اجتهاده، وفيهم المقتصد الذي هو من أهل اليمين، وفي كل من الصنفين من قد يجتهد فيخطئ، وفيهم من يذنب فيتوب أو لا يتوب.

ومن المنتسبين إليهم من هو ظالم لنفسه، عاص لربه.

وقد انتسب إليهم طوائف من أهل البدع والزندقة؛ ولكن عند المحققين من أهل التصوف ليسوا منهم: كالحلاج مثلاً[٣].

وهذا الإنصاف منه ـ رحمه الله ـ لكونه انتقل عند حكمه من الاسم إلىٰ المسمىٰ وحققه في معنىٰ الاصطلاح فقال:

«**لفظ الفقر والتصوف قد أُدخل فيه أمور يحبها الله ورسوله، فتلك يؤمر بها وإن سميت فقرًا أو تصوفًا؛ لأن الكتاب والسنة إذا دل علىٰ استحبابها لم يخرج عن ذلك بأن تسمىٰ باسم آخر.**

كما يدخل في ذلك أعمال القلوب بالتوبة والصبر والشكر والرضا والخوف والرجاء، والمحبة والأخلاق المحمودة.

وقد أُدخل فيها أمور كرهها الله ورسوله: كما يُدخل فيه بعضهم نوعًا من الحلول

(١) مجموع الفتاوىٰ ٤/ ٥٨، ٥٩.
(٢) كتاب الاستقامة لابن تيمية ١/ ١٦٣.
(٣) مجموع الفتاوىٰ ١/ ١٦٣.

والاتحاد، وآخرون نوعًا من الرهبانية المبتدعة في الإسلام، وآخرون نوعًا من مخالفة الشريعة، إلىٰ أمور ابتدعوها، إلىٰ أشياء أخر، فهذه الأمور يُنهي عنها بأي اسم سميت.

والمؤمن الكيس يوافق كل قوم فيما وافقوا فيه الكتاب والسنة، وأطاعوا فيه الله ورسوله، ولا يوافقهم فيما خالفوا فيه الكتاب والسنة أو عصوا فيه الله ورسوله»[١].

وقد أكد هذا المعنىٰ الإمام البنا ـ رحمه الله ـ بقوله:

«**والعرف الخاطئ لا يغير حقائق الألفاظ الشرعية، بل يجب التأكد من حدود المعاني المقصود بها، والوقوف عندها. كما يجب الاحتراز من الخداع اللفظي في كل نواحي الدنيا والدين، فالعبرة بالمسميات لا بالأسماء**»[٢].

وعن اشتراك لفظ التصوف واستعماله من قبل المنحرفين، بين شيخ الإسلام تفصيلاً جميلاً حتىٰ لا يطعن فيمن استخدمه في قاموس الاستعمال، قال ـ رحمه الله:

«**... فصارت المتصوفة تارة علىٰ طريقة صوفية أهل الحديث وهم خيارهم وأعلامهم، وتارة علىٰ اعتقاد صوفية أهل الكلام فهؤلاء دونهم، وتارة علىٰ اعتقاد صوفية الفلاسفة، كهؤلاء الملاحدة...**»[٣].

ثم يقول في نفس المرجع: «**... فلفظ الصوفي صار مشتركًا والقائلون بالوحدة إذا قالوا: «الصوفي»** يريدون به هذا، ولهذا عندهم أفضل من الفيلسوف؛ ولأنه جمع بين النظر والتأله كالسهروردي المقتول وأمثاله»[٤].

وبهذا يكون المنصف من لم يتأثر باللفظ والمبني، بل يعطي الحكم بعد النظر في المعنىٰ؛ ولهذا الأمر اعتنىٰ الإمام حسن البنا ـ رحمه الله ـ بمحاربة المعاني الفاسدة والاستفادة من المباني الصحيحة: فيأخذ من كلام الصوفية معنىٰ الزهد والرقائق والتقلل من الدنيا، ويجعلها من قواعد بناء الدعوة، ويحارب الانحرافات والمدخلات الشركية

---

(١) مجموع الفتاوىٰ ١١/ ٢٨، ٢٩.
(٢) الأصول العشرون للإمام البنا.
(٣) الصفدية لابن تيمية ١/ ٢٦٧.
(٤) الصفدية ١/ ٢٧٠.

التي في اللفظ، فيقول رحمه الله:

«**والتمائم والرقىٰ والودع والرمل والمعرفة والكهانة وادعاء معرفة الغيب، وكل ما كان من هذا الباب منكر تجب محاربته إلا ما كان آية من قرآن أو رقية مأثورة**»[(١)] ويقول:

«**وزيارة القبور أيا كانت سنة مشروعة بالكيفية المأثورة، ولكن الاستعانة بالمقبورين أيا كانوا ونداءهم؛ لذلك وطلب قضاء الحاجات منهم عن قرب أو بعد، والنذر لهم، وتشييد القبور وسترها وإضاءتها والتمسح بها والحلف بغير الله وما يلحق بذلك من مبتدعات كبائر تجب محاربتها، ولا نتأول لهذه الأعمال، سدا للذريعة**»[(٢)].

وهذا التفريق تجده واضحًا في كلام شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ فيقول في التفريق بين النوعين وإن اتفقا في الاسم: «**وشيوخ التصوف المشهورين من أبرأ الناس من هذا المذهب ـ مذهب ابن عربي وأهل الإلحاد ـ وأبعدهم عنه وأعظمهم نكيرًا عليه وعلىٰ أهله..**»[(٣)] ويقول ـ رحمه الله ـ علىٰ كتاب «**إحياء علوم الدين**» مع انتقاده له في أشياء كثيرة وردوده عليه في مواضع متعددة: «**والإحياء فيه فوائد كثيرة، ولكنه فيه مواد مذمومة، ـ ثم عدد أصولها، وذكر بعد ذلك المحاسن ـ وقال في «النهاية»**: فلهذا اختلف فيه اجتهاد الناس وتنازعوا فيه»[(٤)].

ويقول كذلك: «**وكلامه في «الإحياء»** غالبه جيد، ولكن فيه مواد فاسدة: مادة فلسفية، ومادة كلامية، ومادة من ترهات الصوفية، ومادة من الأحاديث الموضوعة»[(٥)].

*****

(١، ٢) الأصول العشرون للإمام البنا.
(٣) درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية ٥/ ٤.
(٤) مجموع الفتاوىٰ ١٠/ ٥٥٠ ـ ٥٥٢.
(٥) مجموع الفتاوىٰ ٦/ ٥٥.

الضابط الثامن: قيمة الأشياء بدقتها وندرتها لا بكبرها وكثرتها:

الناظر في حياة العلماء والدعاة يرىٰ أنهم يحرصون علىٰ النوع الثمين لا الكم المهين، فالناس كالإبل المائة لا تكاد تجد فيها راحلة، وكذلك الكتب كثيرة قد لا تجد فيها بغيتك، فعلىٰ سبيل المثال لو نظرنا في أمثال شيخ الإسلام ابن تيمية من الرجال لوجدناهم قليلاً، ولكن الواحد منهم أحيا الله به أجيالاً، وابن القيم وابن كثير خير دليل علىٰ ذلك.

وهذه القاعدة يعرفها العلماء قبل العامة، قال يحيىٰ بن آدم: «**كنت إذا طلبت الدقيق من المسائل، فلم أجده في كتب ابن المبارك أيست منه**»[1]. وهذه المرتبة إنما تتحصل بعمل يمتاز فيه صاحبه عن بقية الخلق، فابن المبارك، الذي سلف ذكره اجتمع في شأنه جماعة من أصحابه، فقالوا: «**عدوا خصال ابن المبارك فقالوا: جمع العلم والفقه والأدب والنحو واللغة والزهد والشجاعة والشعر والفصاحة وقيام الليل والعبادة والحج والغزو والفروسية وترك الكلام فيما لا يعنيه والإنصاف وقلة الخلاف علىٰ أصحابه**»[2].

والتدقيق والتحقيق يحفظ لنا المعنىٰ والمبني، وقد كان الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ أدق ما يكونون في رواية الحديث، عن أبي جعفر محمد بن علىٰ قال: لم يكن أحد من الصحابة إذا سمع من رسول الله ﷺ حديثًا أحذر ألا يزيد فيه أو ينقص منه من ابن عمر[3].

*****

(١، ٢) تذكرة الحفاظ ١/ ٢٧٦ ترجمة عبد الله بن المبارك.

(٣) تذكرة الحفاظ ١/ ٣٩ ترجمة ابن عمر.

الضابط التاسع: الاستفادة من ملاحظات الطاعنين وعدم الالتفات، لتثبيط الحاسدين[(١)]:

بلا شك أن السائر في طريق الدعوة والعلم يتعرض لعثرات وتحصل منه هفوات ينبري لها من وصاله صد وقربه بعد وسلمه حرب وهو ـ بحمد الله ـ فيه فظاظة، وكل ذلول من مركبه صعب، وهذا ليس من خلقه الستر؛ بل من طبعه التشهير والتعبير، وهنا لايرد كلامه كله ولا يعفي علىٰ قلمه رسمه، بل يستفاد مما في كلامه من حق، ولا يلتفت إلىٰ ما فيه من طعن، فللداعية خيره وعلىٰ الطاعن شره، والداعية لا يتلفت ولا يرتجف، لسان حاله يردد:

وكلمةِ حاسدٍ من غير جرْمٍ   سمعتُ فقلتُ مُرِّىٰ فانْفذيني
وعايوها عليّ ولم تُعِبْني   ولم يعرق لها يوماً جبيني
وما من شيمتي شتم ابن عمي   ولا أنا مُخلف من يرتجيني
وذو الوجهين يلقاني طليقاً   وليس إذا تغيَّب يأتليني
بصرت بعيبه فكففت عنه   محافظ علىٰ حسبي وديني[(٢)]

ومع أن غالب الحاسدين نقدهم من سوء فهم.

وكم من عائبٍ قولاً صحيحًا   وآفته من الفهم السقيم

وكذلك ليسوا بأكفاء للمحسود من العلماء والدعاة.

لا تسبني فلست بسبي   إن سبىٰ من الرجال كريم

ومع هذا كله نرىٰ أن القادة والمربين يتعاملون مع هذا الصنف برفق، قال الحافظ ابن كثير ـ رحمه الله: «**وأخبرني القاضي جمال الدين بن القلانسي، أن السلطان محمد بن الملك المنصور قلاوون، استفتىٰ الشيخ ابن تيمية في قتل بعض القضاة بسبب ما كانوا تكلموا فيه، وأخرج له فتاوىٰ بعضهم بعزله من الملك ومبايعة الجاشنكير، وقال للشيخ:**

(١) وعدم الالتفات يعني عدم الوقوف عند شبهاتهم والتعثر في السير، ولا يمنع ذلك من ذكر لبسهم وتدليسهم علىٰ العامة.

(٢) بهجة المجالس ١/ ١٠٣.

إنهم قاموا عليك وآذوك أنت أيضًا، وأخذ يحثه بذلك علىٰ أن يفتيه في قتل بعضهم، وإنما كان حقده عليهم بسبب ما كانوا سعوا فيه من عزله، ومبايعة الجاشنكير.

ففهم الشيخ مراد السلطان «وليت المنتسبين اليوم إلىٰ الدعوة يفهمون هذا الفهم عند تصدرهم للكتابات والفتاوي التي تطعن في الدعوات المجاهدة ورجالاتها، وهذا الرجاء للمنتسبين، أما المندسين والمتكسبين، فهؤلاء ننتظر فيهم مقولة: «لحوم العلماء مسمومة وعادة الله في هتك أعراض منتقصيهم معلومة، ومن وقع فيهم بالثلب ابتلاه الله قبل موته بموت القلب »[1].

فأخذ في تعظيم القضاة والعلماء، وينكر أن ينال أحد منهم بسوء. وقال له: «إذا قتلت هؤلاء لا تجد بعدهم مثلهم، فقال له: إنهم قد آذوك، أرادوا قتلك.

فقال الشيخ: من آذاني فهو في حل. ومن آذىٰ الله ورسوله، فالله ينتقم منه. وأنا لا أنتصر لنفسي، وما زال به حتىٰ حلم عنهم السلطان وصفح، قال: وكان قاضي المالكية ابن مخلوف يقول:

«وما رأينا مثل ابن تيمية: حرضنا عليه، فلم نقدر عليه، وقدر علينا، فصفح عنا وحاجج عنا»[2].

*****

(١) الرد الوافر لابن ناصر ص ١٩٧.

(٢) البداية والنهاية لابن كثير ١٤/ ٥٤.

الضابط العاشر: الاستمرار في العطاء، وفعل الخير وعدم الالتفات إلىٰ المهاترات: الاستمرار في الخير مطلب شرعي قرآني، قال الله تعالىٰ: ﴿ وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ﴾(١). وفي الحديث الصحيح عن النبي ﷺ: «**أحب الأعمال إلىٰ الله أدومها وإن قل**»(٢). وليس من أمر يحفظ المسلم من الانزلاق كالعمل الصالح، فهو نمو للمسلم، وحصن له من العاديات الجاهلية؛ لذلك نرىٰ أن الأعمش بقي قريبًا من سبعين سنة لم تفته التكبيرة الأولىٰ، فالاستمرار نتاج الوضوح بأن العمل والسعي في فعل الخير من أجل مرضاة الله(٣).

وقل اعملوا يا قومنا والله يجزي العاملين والله موف وعده فاستبشروا بالمؤمنين

فمن سمع للمخذلين والمرجفين أدىٰ إلىٰ ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وهذا ينتهي به إلىٰ الموات، قيل لحذيفة: «**ما ميت الأحياء؟ قال: الذي لا ينكر المنكر بيده ولا بلسانه ولا بقلبه**»(٤). وهذه هي النتيجة التي يريدها المشككون في النهاية.

والاستمرار طريق العز والنتاج، وهو عنوان الجد والمثابرة والبعد عن الإسفاف والمهاترة. قال ابن المديني: «**قيل للشعبيٰ: من أين لك هذا العلم كله؟ قال: بنفي الاعتماد، والسير في البلاد، وصبر كصبر الجماد، وبكور كبكور الغراب**»(٥). وهذا سمت المجدين، وقد وصف أبو جعفر أحمد بن عبد الله المهدىٰ القيرواني بقولهم: «**كان في الدراسة والمطالعة آية لا يكاد يسقط الكتاب من يده حتىٰ عند طعامه**»(٦).

ومن الأمور المثبطة عن الاستمرارية رؤية الأقران، وقد سبقوا بالرئاسة والمال، وعلاج ذلك أن ينظر إلىٰ أشياعهم الذين انتشر عندهم البلاء، ذكر أبو محمد عبد الله بن موسىٰ أنه جلس معه أخ له يومًا رأىٰ حال ابن الحديدي ورئاسته وسعة حاله. فقال له أخوه: «**أين كنا إذ فرقت هذه الأموال؟ فسكت عنه، فلما خرجا مر به علىٰ ربط الجذمي فلما أوقفه علىٰ اختلاف بلائهم. قال له أبو محمد: أين كنا يا أخي إذ فرق هذا البلاء**»(٧).

---

(١) الحجر: ٩٩.
(٢) أخرجه البخاري (٦٤٦٤)، ومسلم (٢٨١٨) عن عائشة رضي الله عنها.
(٣) تذكرة الحفاظ ١/ ١٥٤ ترجمة الأعمش أبو محمد سليمان بن مهران.
(٤) تذكرة الحفاظ ١/ ٣٧٥.
(٥) تذكرة الحفاظ ١/ ٨١ ترجمة الشعبي.
(٦) ترتيب المدارك ٢/ ٥٣٦.
(٧) ترتيب المدارك ٢/ ٨٢٣.

الضابط الحادى عشر: «النهاية المشؤومة لمن تعمد الطعن والانتقاص من علماء الأمة المرحومة».

كلمات يرتجف لها القلب حين سماعها: «**لحوم العلماء مسمومة، وعادة الله في هتك أعراض منتقصيهم معلومة، ومن وقع فيهم بالثلب، ابتلاه الله قبل موته بموت القلب**»[(١)]، فالمفسد لا يصلح الله عمله علىٰ أية حال. قال عمر بن عبد العزيز لأحد ولاته: «**أما بعد فاعمل عمل رجل يعلم أن الله لا يصلح عمل المفسدين**»[(٢)] . ومع عدم صلاحية عمله فسوؤه يرجع إليه، ذكر ابن عفيف في كتابه «**الاحتفال**» قال: «**جاءت إلىٰ القاضي ابن أبي عيسىٰ من باديته دجاج، وعلىٰ بابه السفيه، المعتوه، المعروف بـ «ابن شمس الضحىٰ»** فلما رأىٰ الدجاج قال: يا قاضي أعطني دجاجة منهن، لابد والله أن تعطيني. وكان لا يقدر علىٰ رده أحد، وإلا جاء من حمقه بالعجب العجاب، فأمر فأعطي دجاجة منها، فمضىٰ بها يفخر بعطية القاضي، إلىٰ أن اجتاز بدرب أبي زيد قرب الجامع، فإذا رجل من بني أبي زيد فقيه هناك، جالس بباب داره فقال للمعتوه: من أين لك هذه؟ قال: أعطانيها الساعة القاضي. قال الزيدي: خدعك القاضي أعطاكها مغربلة، أي:معزولة - بلغة عجم الأندلس الأولىٰ - فانصرف عجلاً، وقل له: إنها مغربلة - وكان القاضي يلقب مغربلة - فأبدلها لي سمينة، فهاج حمق المعتوه، ومضىٰ علىٰ أدراجه إلىٰ القاضي وهو في جماعة. فقال: هذه الدجاجة التي أعطيتني مغربلة. فأبدلها لي سمينة. فعرف أنه دهيس[(٣)] للتعريض به. فقال له:هاتها حتىٰ أراها، فجسها قال: صدقت، من أين علمت ذلك؟ قال: قال الفقيه الذي بموضع كذا. فسأله عن صفته، فوصفه. فاستدل علىٰ الرجل فعرفه، وإذا به يلقب بديك البادية، فوتأت لها المعارضة، فبدل له الدجاجة وقال له: اذهب إلىٰ ذلك الرجل واسأله أن يعطيك الديك الذي سيق له أمس من البادية يأتيك منه نسل جيد، فانطلق المعتوه إلىٰ ذلك الرجل الزيدي، فأصابه في جماعة، فأراه الدجاجة، وقال: أعطني أنت ديك البادية الذي أتاك يكون زوجًا لها. فعلم ما أراد، فتغير، وانتهر

(١) الرد الوافر لابن ناصر ١٩٧.
(٢) تاريخ الطبري ٦/ ٥٦٧.
(٣) فعرف هذه الداخلة.

المعتوه، فازداد تعلقًا به وجعل يبكي ويلطم وجهه، ويحلف ألا يزول إلا بالديك، فاضطر إلىٰ أن أخرج له ديك داره، الذي يوقظه للصلاة فداء من حمقه، فأخذه وانطلق وجعل الزيدي يقول: لعمري لقد انتصف مني ابن أبي عيسىٰ، وسار إليه، واعتذر له، فقال القاضي: واحدة بواحدة والبادئ أظلم[١].

وقصة أخرىٰ تبين كذلك خطورة التعرض لأهل الصلاح: قال ابن أبي الدنيا: حدثنا خلف بن هشام، حدثنا أبو عوانة، عن عبد الملك بن عمير، عن جابر بن سمرة، قال: شكا أهل الكوفة سعدا[٢] إلىٰ عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، حتىٰ قالوا: إنه لا يحسن يصلي، فقال سعد: أما أنا، فإني كنت أصلي بهم صلاة رسول الله ﷺ، لا أخرم[٣] عنها، وأركد[٤] في الأوليين وأحذف[٥] الأخريين، قال عمر: ذلك الظن بك يا أبا إسحاق، ثم بعث رجالا يسألون عنه في مجالس الكوفة فكانوا لا يأتون مجلسًا إلا أثنوا خيرا، وقالوا معروفًا، حتىٰ أتوا مسجدًا من مساجدهم، فقام رجل يقال له: أبو سعدة، فقال: اللهم إذا سألتمونا، فإنه كان لا يعدل في القضية، ولا يقسم بالسوية، ولا يسير بالسرية، فقال سعد: اللهم إن كان كاذبًا، فأعم بصره، وأطل فقره، وعرضه للفتن.

قال عبد الملك: «**فأنا رأيته يتعرض للإماء في السكك، فإذا قيل له: كيف أنت يا أبا سعدة، قال: كبير فقير مفتون، أصابتني دعوة سعد**»[٦].

والطعن بالعلماء ورجالات الخير نوع من غمط الناس الذي نهي عنه الرسول ﷺ، فعن ابن مسعود، قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر**»، فقال رجل: إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنًا ونعله حسنًا، قال: «**إن الله ـ تعالىٰ**

---

(١) ترتيب المدارك ٢/ ٤١١، ٤١٢ ترجمة محمد بن عبد الله بن يحيىٰ بن يحيىٰ بن يحيىٰ القاضي.

(٢) سعد بن أبي وقاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) لا أنقص.

(٤) أطول فيهما القراءة.

(٥) أخرجه البخاري (٧٥٥) عن جابر بن سمرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، انظر المرجع السابق ص ٤٤، ٤٥.

(٦) أخرجه مسلم رقم (٩١) عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ـ جميل يحب الجمال، الكبر بطر الحق وغمط الناس»[١].

والتعرض لأهل الصلاح قد يدفعهم لرفع أيديهم بالدعاء علىٰ من آذاهم وفي هذا خطر عظيم، قال ابن أبي الدنيا: حدثني محمد، حدثنا داود بن المحبر، حدثنا عبد الواحد بن زيد، قال: كنا عند مالك بن دينار، ومعنا محمد بن واسع، وحبيب أبو محمد، فجاء رجل، فكلم مالكًا، وأغلظ له في قسمة قسمها، وقال: وضعتها في غير حقها، وتتبعت بها أهل مجلسك ومن يغشاك؛ لتكثر غاشيتك وتصرف وجوه الناس إليك، قال: فبكىٰ مالك، وقال: والله ما أردت هذا، قال: بلىٰ، والله، لقد أردته فجعل مالك يبكي، والرجل يغلظ له، فلما كثر ذلك عليهم، رفع حبيب[٢] يديه إلىٰ السماء، ثم قال: اللهم إن هذا قد شغلنا عن ذكرك، فأرحنا منه كيف شئت، قال: فسقط ـ والله ـ الرجل علىٰ وجهه ميتًا، فحمل إلىٰ أهله علىٰ سرير، وكان يقال: إن أبا محمد مستجاب الدعوة[٣].

*****

(١) هو حبيب بن محمد العجمي، زاهد أهل البصرة وعالمهم، انظر ترجمته ومصادرها في «سير أعلام النبلاء» ٦/ ١٤٣، ١٤٤.

(٢) تهذيب الكمال (٥/ ٣٩١) ط. الرسالة، وكتاب: مجابي الدعوة لأبي بكر عبد الله بن محمد بن أبي الدنيا القرشي ص ٨٩.

(٣) ترتيب المدارك ٢/ ٥٣٣.

الضابط الثاني عشر: إحسان الظن بالمسلمين وحمل كلامهم علىٰ أحسن محامله وستر العيوب مع عدم الغفلة عن بيانها لصاحبها:

ما منا من أحد إلا وله زلة أو سقطة أو كبوة، وهذا نقص بشري معروف، وزلة المسلم إما أن تعرف وتشيع فيستمر بها صاحبها فينسلخ عنه الحياء ويصعب عليه الرجوع، وإما أن تكون حبيسة عاملها لا يعرف بها إلا الله، وهذا رجوعه بإذن الله أسرع وتوبته أقرب؛ ولهذا كان الستر أحب إلىٰ العلماء من الفضيحة، قال بعض تلاميذ أبي العباس تميم بن محمد بن أحمد التميمي: «**كنت مع أبي العباس يومًا جالسًا علىٰ باب داره؛ إذ وثب وقال لأصحابه: قوموا فادخلوا. فدخلوا وأغلق الباب، ولا يدرون ما السبب. فقال: رأيت رجلاً من أصحابنا سكران، فلم أرد أن تروه. فقالوا له: من هو؟ فقال: أنا سترته منكم، ثم أخبركم به؟**»(١).

وما هذا إلا ليبقىٰ حسن الظن قائمًا بين المسلمين، قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «**لا يحل لامرئ مسلم يسمع الكلمة من أخيه المسلم أو عن أخيه المسلم أن يظن بها ظن سوء، وهو يجد لها في شيء من الخير مصدرًا**»(٢).

*****

(١) ترتيب المدارك ٢/ ٤١.

(٢) فمع فضل الذهبي، وحجته وتتلمذه علىٰ يد شيخ الإسلام ابن تيمية إلا أنه غفل عن سد باب الذرائع في زيارة مسجد الرسول ﷺ.

الضابط الثالث عشر: الخطأ مردود علىٰ صاحبه المجتهد به مع بقاء فضله:

كثير من مجتهدي السلف والخلف قد قالوا وفعلوا ما هو بدعة ولم يعلموا أنه بدعة، إما لأحاديث ضعيفة ظنوها صحيحة، وإما لآيات فهموا منها ما لم يرد منها، وإما لرأي رأوه وفي المسألة نصوص لم تبلغهم، ولكن صاحب المعروف من أهل الاجتهاد لا يقع، فإن وقع وجد متكأ، ووقوعه متوقعًا ومع ذلك يبقىٰ فضله في الأمة، فهذا الإمام الحافظ الذهبي رحمه الله (*) تلميذ شيخ الإسلام ابن تيمية يتكلم في شد الرحال إلىٰ غير المساجد الثلاثة.

فيقول: وشد الرحال إلىٰ قبور الأنبياء والأولياء لئن سلمنا أنه غير مأذون فيه لعموم قوله ﷺ: «**لا تشد الرحال إلا إلىٰ ثلاثة مساجد...**»[١] فشد الرحال إلىٰ نبينا ﷺ مستلزم لشد الرحل إلىٰ مسجده، وذلك مشروع بلا نزاع، إذ لا وصول إلىٰ حجرته إلا بعد الدخول إلىٰ مسجده، فليبدأ بتحية المسجد، ثم بتحية صاحب المسجد[٢].

*****

(١) أخرجه البخاري (١١٨٩)، ومسلم (١٣٩٧) عن أبي هريرة.
(٢) سير أعلام النبلاء ٤/ ٤٨٤، ٤٨٥.

الضابط الرابع عشر: الاختلاف في فروع العقيدة لا يوجب التخاصم والقتال ولا يمنع من النصح والحوار:

كما ذكرنا فيما سبق أن من مسائل العقيدة ما هو أصول، ومنها ما هو فروع، وإن كانت تسمىٰ بالجملة أصول الدين؛ تعظيمًا لمكانتها، وحديثنا هنا عن الاختلاف في الفروع، قال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ في رسالته الجوابية لأهل البحرين التي سبقت في موضوع رؤية الكفار لربهم:

«**فبالجملة: فليس مقصودي بهذه الرسالة الكلام المستوفي لهذه المسألة، فإن العلم كثير، وإنما الغرض بيان أن هذه المسألة ليست من المهمات التي ينبغي كثرة الكلام فيها، وإيقاع ذلك إلىٰ العامة والخاصة حتىٰ يبقىٰ شعارًا، ويوجب تفريق القلوب وتشتت الأهواء**»[(١)].

* وفي هذا الضابط مسائل:

المسألة الأولىٰ: الغضب من شخص والاختلاف معه في المسائل الاجتهادية لا يوجب قطيعته وحرمانه من العلم:

فعن سعيد بن المسيب، عن أبي موسىٰ الأشعري قال: عدت الحسن بن علي فوجدت عنده أباه عليا قال: ما جاء بك إلينا؟ ما يولجك علينا؟ قلت: ما إياك أتيت، ولكن أتيت ابن ابنة رسول الله ﷺ أعوده. قال علىٰ: أما إنه لا يمنعنىٰ غضبي عليك أن أحدثك، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إذا عاد الرجل أخاه لم يزل يخوض في الرحمة حتىٰ إذا جلس عنده غمرته**»[(٢)].

المسألة الثانية: إن إزالة ما في نفوس الآخرين من حسد وكراهية ولو كان بالمال هو طريق الحب:

قال ابن أخي هشام: «**كان طريق زيد**[(٣)] **بتونس إلىٰ الجامع علىٰ الخرازين، فأقبل يومًا**

(١) مجموع الفتاوىٰ ٦/ ٤٨٥.

(٢) تذكرة الحفاظ ٣/ ٨٠٨، وأخرجه أحمد (٣/ ١٧٤) عن أنس، وقال الألباني في ضعيف الجامع (٢٢٣٨): «ضعيف جدًا».

(٣) زيد بن بشير بن زيد الأزدي.

علىٰ الطلبة، وإذا بشاب من الخرازين قام علىٰ دكانه وقال لجاره: ما رأيت أوحش من هذا الشيخ، ولا أوحش لباسًا منه، وكان زيد يلبس المفرج فنكس زيد رأسه، فلما انصرف من الجامع عاوده الفتىٰ يقبح، فلم يلتفت إليه زيد، وهم طلبته بضرب الفتىٰ، فبلغ ذلك زيدًا فسألهم عن ذلك. فقالوا: هو كما بلغك أصلحك الله لاستخفافه بحقك، واستهانته بعلمك. فقال لهم: أعطىٰ لله عهدًا، لئن تقدم إليه أحد لأقصينه، ولا وطئ لىٰ بساطًا. أنا أصلح شأنه، وصر في صرة عشرة دراهم، وجعلها في جيبه، واستعمل لفرد نعل قبالاً واهيًا، ثم توجه إلىٰ الجامع، فلما مر بالشاب قام لعادته وتكلم بقبيح كلام، فلما حاذاه الشيخ اتكأ علىٰ نعله فقطع القبال. ثم مال إلىٰ الشاب فسلم عليه، وقال: أي بني لعل عندك قبالاً، فأعطاه قبالاً. فأدخل زيد يده فأخرج الصرة من جيبه ودفعها له، فقال الشاب:ما هذا؟ فقال زيد: صنعت لنا قبالاً، فكافأناك، ولك عندنا أمثالها، وسار إلىٰ الجامع، فلما كان انصرافه منه، مر بالشاب. فقام علىٰ قدميه، وقال: الحمد لله الذي خص بلدنا بهذا الشيخ الفاضل اللهم أبقه لنا، واحرزه علىٰ المسلمين: فلقد انتفع به شبابنا وحظي به شيوخنا. فقال له جار له: ما هذا؟ فقال له الشاب: اسكت، إنه أعطاني عشرة دراهم علىٰ إصلاح قباله. فليت له بهذه آخر»(١).

فلابد من إزالة الحسد والكراهية من قلوب الناس لكي نصل إليها قال رسول الله ﷺ: **«إياكم والظن، فإن الظن أكذب الحديث، ولا تحسسوا، ولا تجسسوا، ولا تنافسوا، ولا تحاسدوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخوانًا كما أمركم، المسلم أخو المسلم، لا يظلمه ولا يخذله، ولا يحقره، التقوىٰ ها هنا، التقوىٰ ها هنا، التقوىٰ ها هنا ـ ويشير إلىٰ صدره ـ بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم، كل المسلم علىٰ المسلم حرام: دمه، وعرضه، وماله، إن الله لا ينظر إلىٰ أجسادكم، ولا إلىٰ صوركم، ولكن ينظر إلىٰ قلوبكم وأعمالكم»**(٢).

فالحسد يحمل صاحبه علىٰ اتباع هواه وأن يتكلم فيمن يحسده، ولله در القائل:

---

(١) ترتيب المدارك ٢/ ١٠، ١١.
(٢) أخرجه البخاري (٥١٤٣)، ومسلم (٢٥٦٣) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

لله در الحسد ما أعدله   بدأ بصاحبه فقتله[١]

وعدم الحسد والإحسان إلىٰ المسلمين هو الأمر اللازم؛ لتحقيق النصرة بين المسلمين وهذا هو الذي أمر به النبي ﷺ في قوله: «**ما من امرئ يخذل امرأ مسلمًا في موطن ينتقص فيه من عرضه، وينتهك فيه من حرمته، إلا خذله الله ـ تعالىٰ ـ في موطن يحب فيه نصرته، وما من أحد ينصر مسلمًا في موطن يُنتقص فيه من عرضه، وينتهك فيه من حرمته، إلا نصره الله في موطن يحب فيه نصرته**»[٢].

المسألة الثالثة: حفظ حرمة الأموات من العلماء والدعاة العاملين لنصرة الدين:

قال محمد بن مهرويه: «**سمعت ابن الجنيد، سمعت يحيىٰ بن معين يقول: إنا لنطعن علىٰ أقوام لعلهم قد حطوا رحالهم في الجنة من مائتىٰ سنة. قال محمد: فدخلت علىٰ ابن أبي حاتم وهو يحدث بكتاب الجرح والتعديل فحدثته بهذا فبكىٰ، وارتعدت يداه، وسقط الكتاب، وجعل يبكىٰ ويستعيدني الحكاية**»[٣].

المسألة الرابعة: الاختيار الأفضل للنصيحة والقبول الأحسن لها:

قال عبد الغني بن سعيد: «**لما رددت علىٰ أبي عبد الله الحاكم الأوهام التي في المدخل إلىٰ الصحيح، بعث إلىٰ يشكرني ويدعو لي، فعلمت أنه رجل عاقل**[٤]. **قال عيسىٰ بن دينار يوصي عبد الله بن حبيب في رحلته لطلب العلم: إذا أصبت عالمًا، فلا تظهر له مع علمه علمًا فيحرمك ما عنده**»[٥].

****

(١) الرد الوافر ص ١٤٨.

(٢) أخرجه أبو داود (٤٨٨٤)، وأحمد (٤/ ٣٠)، عن جابر بن عبد الله وأبي طلحة بن سهل، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٥٦٩٠).

(٣) تذكرة الحفاظ ٣/ ٨٣١. ترجمة ابن أبي حاتم.

(٤) تذكرة الحفاظ ٣/ ١٠٤٨ ترجمة عبد الغني بن سعيد أبو محمد الأزدي.

(٥) ترتيب المدارك ٢/ ٣٩.

الضابط الخامس عشر: إذا غلبت محاسن الرجل لم تذكر مساوئه[(١)]، وإذا غلبت المساوئ المحاسن لم تذكر المحاسن:

وهذه قاعدة كثرت فيها الحوادث والنقول والتي منها:

١ ـ قال سعيد بن المسيب: «**إنه ليس من شريف ولا عالم ولا ذي فضل إلا وفيه عيب، ولكن من الناس من لا ينبغي أن تذكر عيوبه، ومن كان فضله أكثر من نقصه وهب نقصه لفضله**»[(٢)].

٢ ـ قال ابن الأثير: وإنما السيد من عدت سقطاته، وأخذت غلطاته، فهي الدنيا لا يكمل بها شيء، وقد صح عن النبي ﷺ أنه قال: «**حق علىٰ الله ألا يرفع شيئًا من الدنيا إلا وضعه**»[(٣)].

٣ ـ ويقول الحافظ الذهبي ـ عليه رحمة الله تعالىٰ: «**إن الكبير من أئمة العلم، إذا كثر صوابه وعلم تحريه للحق، واتسع علمه، وظهر ذكاؤه، وعرف صلاحه وورعه، واتباعه، يغفر له زلله، ولا نضلله ونطرحه، وننسىٰ محاسنه، نعم، ولا نقتدي به في بدعته وخطئه، ونرجو له التوبة من ذلك**»[(٤)].

٤ ـ ويقول الإمام السبكي ـ رحمه الله تعالىٰ: «**من ثبتت إمامته وعدالته، وكثر مادحوه ومزكوه، وندر جارحوه، وكانت هناك قرينة دالة علىٰ سبب جرحه، من تعصب مذهبي أو غيره، فإنا لا نلتفت إلىٰ الجرح فيه، ونعمل فيه بالعدالة**»[(٥)].

ولصعوبة تربية النفس علىٰ هذا المعنىٰ ولعظمة أثر ضابطنا هذا أستطيل في ذكر طريق تكوينه ومبادئه:

١ـ مخافة الله ـ سبحانه ـ حين المثول بين يديه، ودقة محاسبته علىٰ الفتيل والقطمير:

ولبيان ذلك ننظر إلىٰ نافع وهو يحدث قال: «**دخل ابن عمر الكعبة، فسمعته يقول في**

---

(١) إن كانت سيئته بدعة تؤثر علىٰ البعض تذكر نصيحة للناس بالأسلوب الذي لا يؤدي إلىٰ منكر أكبر.

(٢) البداية والنهاية ٩/ ١٠٠.

(٣) أخرجه البخاري (٦٥٠١) عن أنس، وانظر: اللباب في تهذيب الأسماء (١/ ٩).

(٤) سير أعلام النبلاء (٥/ ٢٧٩).

(٥) قاعدة في الجرح والتعديل (١٠).

سجوده: ما يمنعني من مزاحمة قريش في هذا الأمر إلا خوفك»[١].

٢ ـ تربية النفس علىٰ ما تكره: الإنسان مجبول علىٰ حب نفسه، ومن يثني عليه ويمدحه والعكس صحيح، وحتىٰ يتعود علىٰ محبته للحق، والداعىٰ إليه يحتاج إلىٰ إرغام لكبر النفس واستعلائها، وخير مثال قصة عبد الله بن سلام بن الحارث حين مر وهو يحمل حزمة حطب فقيل له:أليس قد أغناك الله عن هذا؟! قال:بلىٰ ولكن أردت أن أقمع الكبر[٢]. قصة عمر ومروره بالوادىٰ الذي كان يرعىٰ فيه الإبل. دليل كذلك.

وهذه التربية من أجل إيجاد الأنماط المنضبطة من الرجال العارفة لمواضع القدم عند المسير، فتأمن السقوط والانجراف، قال سلمة بن علقمة حاكيًا صورة رائعة في هذا الإطار: جالست يونس بن عبيد فما استطعت أن آخذ عليه كلمة [٣]. وتربية النفس علىٰ ما تكره سبيل إلىٰ الإنصاف، قال نوفل بن ميمون: جاء سعيد بن سليمان إلىٰ «**عبد الله بن محمد بن عمران**» شاهدًا، فرد ابن عمران شهادته، فلما ولىٰ سعيد القضاء جاءه «**عبد الله بن محمد بن عمران**» شاهدًا فأخذ شهادته، فنظر فيها ساعة ثم رفع رأسه، فقال: المؤمن لا يشفي غيظه، أوقع شهادته يابن دينار، فأوقعها»[٤].

٣ ـ السعي لأهل الخير وإن كان مخالفًا: صاحب الصلاح يُسعىٰ إليه لتقويته في مسيرته والشد علىٰ يديه، وإن لم تكن هناك معرفة مسبقة أو انتماء عضوي واحد، وهذا طريق سلف الأمة رضوان الله عليهم: «**قال أبو بكر المروزي يحكي عن الإمام أحمد** رَضِوَاللَّهُعَنْهُ: **كان إذا بلغه عن شخص صلاحٌ أو زهد أو قيام بحق أو اتباع للأمر سأل عنه، وأحب أن يجري بينه وبينه معرفة، وأحب أن يعرف أحواله** »[٥] وهكذا أهل الخير يسعىٰ إليهم لا لذبحهم والانتقاص من أقدارهم وتسفيه آرائهم، وذلك من أجل سد باب الشيطان، فإنه يفتح للعبد تسعة وتسعين بابًا من الخير يريد به بابًا من الشر.

---

(١) تذكرة الحفاظ ١/ ٣٧، ترجمة عبد الله بن عمر رَضِوَاللَّهُعَنْهُمَا.

(٢) تذكرة الحفاظ ١/ ٢٧ سيرة أبو يوسف عبد الله بن سلام بن الحارث الإسرائيلي.

(٣) تهذيب التهذيب ١١/ ٤٤٤، يونس بن عبيد بين دينار، توفي سنة ١٣٩هـ.

(٤) تاريخ بغداد ٩/ ٦٦.

(٥) مناقب الإمام أحمد لابن الجوزي ص ٢٢٠.

٤ ـ تكريم أهل الفضل والعطاء: إن عملية إعطاء الثقة للآخرين أسلوب يعتمد علىٰ قمة الذوق الإنساني، والارتقاء الإيماني والسمو في اختيار المباني والمعاني. ولا يعتذر أحد لأحد عن سوء لفظه وغلظة معاملته بكثرة مشاغله وازدحام مهماته، فهذا الإمام أحمد مع كثرة همومه ومتعلقات حياته الدعويه والعلمية يقول عنه أبو حاتم في تعامله مع علىٰ بن المديني: «**ما سمعت أحمد بن حنبل سماه قط إنما كان يكنيه تبجيلاً له**»(١).

فانظر كيف كان الإمام أحمد يحافظ علىٰ مكانة علىٰ بن المديني حتىٰ في النداء بالكنية؛ لما فيها من زيادة تكريم وتبجيل.

والدعاء لأهل الحق في صراعهم مع الباطل نوع من التكريم لهم.

قال أبو بكر الأبهري: «**اجتمعنا في جماعة من أهل العلم والصلاح، وقد تناظر رجل من أهل السنة مع رجل معتزلي، فطال بينهما الكلام، فجاء المساء، فلم يظهر أحدهما علىٰ صاحبه، فقال السني: هذا مجلس انقضىٰ علىٰ غير فلاح. وقد حضرنا قوم صالحون فلنخلص الدعاء للمحق منا بأن يثبت الله تعالىٰ القرآن في صدره، وينسيه المبطل، فدعونا. قال الأبهري: فأقر لي المعتزلي بعد ذلك أنه نسي القرآن، حتىٰ كأنه ما رآه قط**»(٢).

وهذه المرتبة الرفيعة ضابط مطرد تجده في أهل العلم والعمل، فيزيد بن أبي حبيب الأزدي يقول: «**لا أدع أخا لي يغضب علىٰ مرتين، بل أنظر الأمر الذي يكره فأدعه**»(٣).

بل الأمر فيهم أكبر كما قال إبراهيم بن يزيد التيمي: إن الرجل ليظلمني فأرحمه(٤).

وقيل للحسن البصري: «**إن فلانًا اغتابك، فبعث إليه طبق حلوىٰ، وقال: بلغني أنك أهديت إليّ حسناتك فكافأتك**»(٥). فالمعروف في النهاية يبدد ظلمات الحسد ويحفظ

(١) تذكرة الحفاظ ٢/ ٤٢٨ ترجمة علىٰ بن المديني رحمه الله.

(٢) ترتيب المدارك ٢/ ٤٧٢ ترجمة أبىٰ بكر الأبهري، محمد بن عبد الله بن صالح بن عمر بن حفص بن عمر ابن مصعب بن الزبير.

(٣) تذكرة الحفاظ ١/ ١٣٠ ترجمة أبي رجاء الأزدي.

(٤) سير أعلام النبلاء ٥/ ٦١.

(٥) وفيات الأعيان ٢/ ٦٩. والإحسان في هذه القصة مع رجل ليس من أهل الفضل؛لأنه مغتاب، فكيف بمن عرف فضله.

صاحبه، قال ابن عباس: «**ما رأيت رجلاً أوليته معروفًا إلا أضاء ما بيني وبينه، ولا رأيت رجلاً أوليته سوءًا إلا أظلم ما بيني وبينه**»[١]. ولكن للأسف صار المعروف اليوم مقايضة كنقد السوق، خذ منىٰ وهات.

٥ ـ الإفصاح عن الدافع الكريم للنقد يخفف الألم:

قال محمد بن داود المصيصي: «**كنا عند أحمد بن حنبل، فذكر الذهلي حديثًا فيه ضعف، فقال أحمد: لا يذكر مثلك مثل هذا، فخجل محمد، فقال أحمد: إنما قلت هذا إجلالاً لك يا أبا عبد الله**»[٢].

«**إن تدارك الإمام أحمد لقوله بالإفصاح عن السبب الذي دفعه لذلك يُعتبر البلسم الشافي للجرح الذي أحدثه اللسان؛ لأنه لو تركه قد لا يلتئم**»[٣].

جراحات السنان لها التئام ... ولا يلتام ما جرح اللسان

*****

(١) عيون الأخبار ١/ ١٧٥.

(٢) تذكرة الحفاظ ٢/ ٥٣١ ترجمة الذهلي.

(٣) طبقات الشافعية ٦٠/ ١١٥.

الضابط السادس عشر: تحفظ الدعوة والحركات الإسلامية بدوام الاتصال بالله سبحانه:

قال أبو عثمان النهدي: «**تضيفت أبا هريرة سبعًا، فكان هو وامرأته وخادمه يعتقبون الليل أثلاثًا، يصلي هذا، ثم يوقظ الآخر، فيصلي، ثم يوقظ الثالث**»(١).

والصلة بالله هذه لا يحدها سن، فأبو إسحاق عمرو بن عبد الله الهمداني الكوفي يقول: «**قد كبرت وضعفت، ما أصوم إلا ثلاثة أيام من الشهر، والاثنين والخميس وشهور الحرم**»(٢). يا سبحان الله هذا وهو ضعيف، فكيف كان في قوته! اللهم ارض عنهم. وهذا الانشغال في العبادة لم يصرفهم عن بقية الطاعات، قال الغلاسي: «**أحضرت إلىٰ باب هشام بن حسان الجمل والزاد والسفرة ليحج، فشق علىٰ أمه وأخذها شبه الرعدة فبطل من أجلها، فلما توفيت كان لا يدع الحج**(٣).

وهذه الرتبة العالية إنما هي نتاج اليقظة وميراث مدرسة قيام الليل، ذكر ابن اللباد، أن محمد بن عبدوس صلىٰ الصبح بوضوء العتمة، ثلاثين سنة، خمس عشرة من دراسة، وخمس عشرة من عبادة(٤).

وكذلك روىٰ الشيرازي عن عيسىٰ بن دينار أنه صلىٰ الصبح بوضوء العتمة أربعين سنة(٥). **والاستمرارية التي قعدها أبو هريرة رضي الله عنه ظلت مستمرة في أمة الخير أتباع محمد صلى الله عليه وسلم فهذا محمد بن مسرور العسال كان يقوم الليل كله هو وكل من في داره. ولقد ذكر أنهم باعوا خادمة سوداء فرجعت إليهم. وقالت: «بعتموني من اليهود. فقالوا لها: إنهم مسلمون. قالت: إنهم لا يقومون الليل»**(٦).

*****

(١) تذكرة الحفاظ ١/ ٣٦ ترجمة أبي هريرة.
(٢) تذكرة الحفاظ ١/ ١١٥، فهو مع كبر سنه لا يزال علىٰ صلة قوية بالله سبحانه.
(٣) تذكرة الحفاظ ١/ ١٦٣ ترجمة هشام بن حسان.
(٤) ترتيب المدارك ٢/ ١٢٢.
(٥) ترتيب المدارك ٢/ ١٧.
(٦) ترتيب المدارك ٢/ ٣٩٠.

الخاتم

تنتهي رحلتنا المنهجية في ضوابط العمل الإسلامي والتي ارتكزت كما رأىٰ القارئ الكريم علىٰ حزمة من الضوابط بلغت ستة عشر ضابطًا ما بين:

- ضابط علمي. - وضابط شرعي.
- وضابط أصولي. - وضابط أخوي
- وضابط قيمي. - وضابط اجتماعي (من منظور شرعي).

وكلها تصب في قالب واحد هو قالب الحفاظ علىٰ الوحدة، وقالب الربط بين اللُّحْمة الواحدة، وتوثيق التواصل بين وشائج وأمشاج الدعوة علىٰ منهاج النبوة .

وخاصة في زمننا هذا الذي لاحت بوادر انفراط عقده في مجال العمل الدعوي أكثر مما لاحت نجوم الترابط بين عمال الدعوة وأهليها، مما استدعىٰ بالضرورة وضع تلك الملامح، وذكر تلك الضوابط سعيًا منا لمديد العون العلمي في سبيل ترشيد جيل الصحوة.

والحمد لله رب العالمين

*****

هذه الرسالة

العمل الدعوي ميدانه واسع تعصف فيه رياح الأفكار والاجتهادات ، وتعلو به أمواج المقالات والأطروحات .

ورسالتناالتي بين يديك – أخي الداعية – هي محاولة لمعالجة «تشكيك الشباب في أفهامهم وعلومهم التي أخذوها » ، وذلك من خلال وضع ضوابط يحتكم لها حين القراءة والاطلاع علىٰ المكتوب والمعروض في أسواق المكتبات الإسلامية ، وكذلك تنظر فيها عند المساجلات وكتابات النقد والتخريج التي تكون بين الإسلاميين ، كما أن الصواب فيها سيكون إسهاماً في صناعة الزجاج المصمت الصلب الذي يري فيه صاحبه الشبهات تمر عليه . ثم تمضي من غير أن تنكت في قلبه نكتة سواداء ، وذلك بفضل الله ثم صلابة الجدار وصفاته.

الرسالة الثالثة

الفتور

آثاره وأسبابه وعلاجه

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الفتور داء يصيب الهمم فتذبح في مراتع الكسل، والدعاة إلىٰ الله تعالىٰ سراج هذه الأمة، فعليهم أن يحتاطوا ويحذروا من هذا الداء الوبيل، والطريق الموصل إلىٰ الله ـ سبحانه ـ هو ما دام العبد عليه، وليس من لازم الباب في كل يوم وقتًا ما، كمن لازم يومًا كاملا، ثم انقطع.

وقد قال الشاعر:

كأنما التواني أنكح العجزَ ابنتَه وساق إليها حين أنكحها مهرا

فراشا وطيئا ثم قال له: اتكئ فقصرا كما لا شك أن تلد فقرا

ولذا كانت هذه الرسالة علىٰ النحو التالي:

أولا في التعرف علىٰ مظاهر الفتور وصوره، ثم اكتشاف أسبابه، وبيان طرق ووسائل معالجة العيوب من خلال تركيز مفهوم وجوب الدعوة، وإحياء روح الجدية، والبرمجة الفردية والجماعية، وإشاعة أدب الحماسة والرقائق الوعظية، واتخاذ احتياطات قيادية تدرأ الفتن، والتعرف علىٰ تاريخ الساقطين من قطار الدعوة، ونهايتهم للعبرة والعظة... وهلم جرًّا.

والله أسأل أن يأخذ بهممنا لكل ما يحب ويرضىٰ.

والله الموفق.

*****

مدخــل

«اللهم إني أعـوذ بـك مـن العجـز والكسل، والجبـن والهـرم والبخـل، وأعـوذ بـك مـن عذاب القبر، ومن فتنة المحيا والممات».

وبعد...

فإن معرفة الداء ووضع اليد عليه يعتبر من مستلزمات المسير، وأولويات التخطيط، وكيف لا والبدهية تقول:

متىٰ يبلـغ البنيـان يـومًا تمـامـه إذا كنت تبني وغيرك يهـدم
ولو ألف بانٍ خلفهم هادم كفي فكيف ببان خلفه ألف هادم

والهدم كما هو من الخارج، فهو من الداخل أعظم، ونريد بـذلك الفتن التي تعصف بالمجتمع الإسلامي من داخله، فوقعها أشد وآلامها أعمق، وحرص الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ علىٰ تحاشيها ومعرفتها واضح، فهـذا أبـو إدريس الخـولاني يقـول: إنـه سـمع حذيفة بن اليمان يقول: «**كان الناس يسألون رسول الله ﷺ عن الخير، وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يدركني، فقلت: يا رسول الله، إنا كنا في جاهلية وشر، فجاءنا الله بهذا الخير، فهل بعد هذا الخير من شر؟ قال:** «**نعم**». قلت: وهـل بعد ذلك الشر من خير؟ قال: «**نعم وفيه دخن**». قلت: وما دخنه؟ قال: «**قومٌ يهدون بغير هديي، تعرف منهم وتنكر**»، قلت: فهل بعد ذلك الخير من شر؟ قال: «**نعم دعُاةٌ علىٰ أبواب جهنم، من أجابهم إليها قذفوه فيها**». قلت: يا رسول الله، صفهم لنا، قال: «**هم من جلدتنا، ويتكلمون بألسنتنا**»، قلتُ: فما تأمرني إذا أدركني ذلك؟ قال: «**تلزم جماعة المسلمين وإمامهم**»، قلت: فإن لم يكن لهم جماعة ولا إمام، قال: «**فاعتزل تلك الفرق كلها، ولو أن تعضَّ بأصل شجرة حتىٰ يدركك الموت وأنت علىٰ ذلك**»[(١)].

---

(١) الحديث أخرجه البخاري (٧٠٨٤) والراوي هو: حذيفة بن حُسيل بن جابر العبسي اليماني، من نجباء أصحاب النبي ﷺ وصاحبُ سر النبي ﷺ الذي لا يعلمه أحد غيره، والمراد بالسر: ما أعلمه به النبي ﷺ من أحوال المنافقين، استشهد والده يوم أحد، قتله بعض الصحابة خطأً؛ لأن الجيش يختفون في =

وهذا الخوف الحذيفي الأصلي، ليس خوفًا علىٰ النفس؛ فهم أصحاب الوصف القرآنيٰ: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُ﴾[١] - بل هو خوف علىٰ الأمة الإسلامية - وسؤال إلىٰ المربي الأول بالجواب عليه، تتحصل المنفعة للأمة بكاملها، وتتضح المحجة البيضاء، كما كانت جلية في الحوار العُمري مع حذيفة رضي الله عنه قبل أن يطعنه أبو لؤلؤة المجوسي قال حذيفة: بينا نحن جلوس عند عمر، إذ قال: أيكم يحفظ قول النبي ﷺ في الفتنة، قال حذيفة: فتنة الرجل في أهله وماله وولده وجاره، تُكفِّرها الصلاة والصدقة، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر. قال عمر: ليس عن هذا أسألك، ولكن التي تموج كموج البحر. فقال حذيفة: ليس عليك منها بأس يا أمير المؤمنين، إن بينك وبينها بابًا مغلقًا، قال عمر: أيُكسرُ الباب أم يفتح؟ قال: لا بل يُكسر. قال عمر: إذن لا يغلق أبدًا. قال حذيفة: أجل، قال شقيق الذي روىٰ عن حذيفة: قلنا لحذيفة: أكان عمر يعلم الباب؟ قال: نعم، كما يعلم أنَّ دُون غدٍ ليلة، وذلك أني حدثته حديثًا ليس بالأغاليط. فهبنا أن نسأله من الباب، فأمرنا مسروقًا فسأله، فقال: من الباب؟ قال: عمر[٢].

وسؤال عمر رضي الله عنه يدل علىٰ نظرته الجماعية، فهو بالنسبة له شهيد مبشر من النبي ﷺ: «**اثبتْ أُحد فما عليك إلا نب أو صديق أو شهيدان**»[٣]. فه نظرة جماعية تكافلية،

=لأْمَةِ الحرب ويسترون وجوههم.

وكان النبي ﷺ قد أسر إلىٰ حذيفة أسماء المنافقين، وضبط عنه الفتن الكائنة في الأمة. وقد ناشَدَهُ عمر: أأنا من المنافقين؟ فقال: لا، ولا أزكىٰ أحدًا بعدك

وحذيفة هو الذي ندبه رسول الله ﷺ ليلة الأحزاب ليجُسَّ لهُ خَبَرَ العدو. وعلىٰ يده فتح الدينور عنوة. قال ابن سيرين: بعث عمر حذيفة علىٰ المدائن، فقرأ عهده عليهم، فقالوا: سل ما شئت. قال: طعامًا آكله، وعلف حماري هذا - ما دمت فيكم - من تبن فأقام فيهم، ما شاء الله؛ ثم كتب إليه عمر: أقدم فلما بلغ عمر قدومه، كمن له علىٰ الطريق؛ فلما رآه علىٰ الحال التي خرج عليها، أتاه فالتزمه، وقال: أنت أخي، وأنا أخوك. توفي في المدائن بعد الخليفة الثالث عثمان بن عفان رضي الله عنه وعن الصحابة أجمعين، له في الصحيحين اثنا عشر حديثًا، وفي البخاري ثمانية، وفي مسلم سبعة عشر حديثًا. انظر: سير أعلام النبلاء، المجلد الثاني ترجمة رقم «٧٦».

(١)التوبة: ١٠٠.

(٢)أخرجه البخاري رقم (٧٠٩٦) عن حذيفة رضي الله عنه.

(٣)أخرجه البخاري (٣٦٨٦) عن أنس رضي الله عنه واللفظ له،وأحمد في مسنده (٥/ ٣٣١) عن سهل بن سعد رضي الله عنه.

تنظر إلىٰ المجتمع بعين الرعاية والحفظ بعيدًا عن الزمان والمكان، فإن كان الباب بقتله يفتح، فالذي من خلفه سيسهل عليه أن يُغلقه، ولكن إن انكسر فالخطب شديد، يحتاج إلىٰ تشمير وإعداد، فإن ما يُجبر بعد الكسر يبقىٰ فيه أثر الشرخ، ومن الإعداد الذي نقوم به ليتم لنا الحفاظ علىٰ بناء مجتمعنا من الداخل هو أن نُعلق جهاز الإنذار الذي يُعلق في الفنادق؛ ليصيح عند اشتمامه لرائحة الدخان، ولو كان «**دُخانُ عودٍ ومسك**» يصيح لينتبه صاحبُ الملك، فإن كان الدخان طيبًا استأنس به وتطيب منه، وإن كان خبيثًا يُخبرُ عن حريق من بعده، شمر له وأطفأ ناره قبل أن تستعر، وبهذه لا تُذبح الدعوة بغفلة الصالحين.

وبعد هذا الذي ذكرنا يكون من الطبيعي أن نتحدث عن فتور العناصر العاملة بشيء من الحذر، والبعد في النظر، وما ذاك إلا لصالحهم، وصالح الدعوة التي ينتمون إليها.
ولكي لا يكسر بهم الباب فلابد أن يتحملوا مرارة الدواء والعبادة، فإن كتف الدعوة يئن لكثرة الذين حملتهم وتنكروا لها، حتىٰ أصبحتَ ترىٰ الآلام علىٰ وجوه القادة من العاملين؛ يُرددون بحزن مع إمامهم سفيان الثورىٰ: «**صرنا متجرًا لأبناء الدنيا يلزمنا أحدهم، حتىٰ إذا تعلم جُعل قاضيًا أو عاملاً**»[1] هذا، وقد استعاذ عمر بن الخطاب ﵁ من الخور الذي ينتاب المسلمين؛ وفي دعائه المشهور: «**اللهم إني أعوذ بك من جلد الفاسق وعجز الثقة**»[2].

ودراستنا هذه تأتي طبيعية مع مرحلة الدعوة، وبيئتها، لوجود شيء من الترف والحرية، والدراسة المسبقة لبداية المشكلة، ستتيح لنا إحصاءً عمليا للأسباب والظواهر بمنهجية علمية تحليلية دائرة في محور الاجتهاد قابلة للخطأ والصواب، وستكون الدراسة بمشيئة الله بعيدة عن تعميم الحوادث الفردية علىٰ المجتمع الدعوي؛ ونأمل بعد ذلك أن تحقق هذه الدراسة عملية وقائية لمن لم يُصب بداء الفتور وعلاجية لمن

(١) إحياء علوم الدين ١/ ٥٧، والعامل هو أمير البلد، وهذا الحزن ظهر علىٰ وجه سفيان ﵁، لا لكون طلبته عملوا في القضاء والولاية، ولكن لتنكرهم للشيخ ومنهجه والتحرك في الحياة من غير اعتبار للشيخ والمربي، والحرص علىٰ المنصب والشهرة بعيدًا عن العمل لنصرة الحق والعدل.
(٢)ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية في مجموع الفتاوىٰ (٢٨/ ٦٨).

أصابه الخمول، مع عونها للدعاة في مجال رسمهم لاستراتيجياتهم.

لابد من أن نذكر عدة أمور تُعتبر ضوابط لفهم هذه الظاهرة:

١ ـ إن وجود الإخوة الفاترين لا يعني عدم وجود الثقات، والعكس كذلك فوجود الثقات أصحاب الهمم لا يمنع ظهور حالات الضعف والفتور، فطبيعة المجتمعات البشرية وتنوع صور الناس فيها يُعطي انعكاسات علىٰ أي تجمع بشري فيه.

٢ ـ إن الفتور له أكثر من نوع، فمنه ما هو طارئ ومنه ما هو مستديم، وهذا يترتب عليه تطبيق القاعدة النسبية من أن عوامل الفتور تختلف في تأثيرها علىٰ الأشخاص بحسب المحل الذي تُلاقيه، فنسبة التأثر تختلف من شخصٍ لآخر لنفس العامل.

٣ ـ إن عوامل الضعف تتكامل مع بعضها، فكل واحد منها يوصل للآخر، وكذلك سبل العلاج كل سبيل يكمل الذي قبله، ويمهد للذي من بعده.

٤ ـ إن عملية العلاج تحتاج إلىٰ زمن، كما أن الفتور قد أخذ زمنًا حتىٰ ظهر علىٰ مسرح حياة الشخص.

وبعد ذلك نسأل الله ـ تعالىٰ ـ أن يعيننا علىٰ ذكر الأسباب والعلاج؛ لنأخذ بأيدي إخواننا، فتتقوىٰ بهم ويثبتون معنا، مرددين هديرنا السيار، غائظين للأعداء المتربصين.

الكفوف بالكفوف فاشهدوا عهودنا
الثبات في الصفوف والمضاء والفنا

ثم بعد ذلك يصدق وصف إقبال ـ رحمه الله:

كل فرد بأخيه ائتلفا مثل دُرٍّ في سموط ألفا
لفهم في عيشهم مُعترك كل فرد بأخيه ممسك

*****

الفتـــــور

التعريف:

لغة: سكن بعد جدة، ولان بعد شدة[١]: قال الله تعالىٰ: ﴿ وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَمَنۡ عِندَهُۥ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسۡتَحۡسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفۡتُرُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾.

قال الإمام الطبري: لا يضعفُون ولا يسأمون[٢]، فهو نوع من الكسل، قال ابن حجر: في قصة زينب ووضعها الحبل للتعلق به وقت فتورها، المراد بكلمة فترت: كسلت عن القيام في الصلاة[٣]، وبهذه جاءت عبارة عبد الله بن مسعود رضي الله عنه حين بكىٰ في مرض موته: «**إنما أبكي لأنه أصابني علىٰ حال فترةٍ ولم يُصبني في حال اجتهاد**». قال ابن الأثير: «**أي في حال سكون، وتقليل من العبادات، والمجاهدات**»[٤].

اصطلاحًا[٥]:

هو داء يصيب العاملين، يؤدي في أسوأ أحواله إلىٰ الانقطاع بعد الاستمرار، وفي أحسن أحواله يظهر السكون، والكسل، والتراخي، والتباطؤ بعد الحركة، وورود الفتور أمرٌ عارض يجب ألا يُسلم له، قال عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه: قال لي رسول الله ﷺ: «**يا عبد الله لا تكن مثل فلان، كان يقومُ من الليل فترك قيام الليل**»[٦]، فالداعية إن كانت له فترة فلتكن استراحة مقاتل يعود بعدها إلىٰ العطاء والجهاد، قال ﷺ في حديث عبد الله بن عمرو: «**لكل عمل شرة، ولكل شرة فترة، فمن كانت فترته إلىٰ سنتي فقد**

---

(١) لسان العرب ٥/ ٤٣ مادة فتر.

(٢) الأنبياء: ٢٠، تفسير الطبري ١٧/ ١٢.

(٣) فتح الباري ٣/ ٣٦.

(٤) النهاية في غريب الحديث والأثر للإمام مجد الدين أبي السعادات بن الأثير ٣/ ٤٠٨.

(٥) أي: في مصطلح الدعاة إلىٰ الله سبحانه.

(٦) أخرجه البخاري (١١٥٢)، ومسلم (١١٥٩) عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

أفلح، ومن كانت إلىٰ غير ذلك فقد هلك»[١]. قال ابن القيم ـ رحمه الله: «**فَتَخلُّل الفترات للسالكين: أمر لازم لابد منه، فمن كانت فترته إلىٰ مقاربة وتسديد، ولم تخرجه من فرض، ولم تُدخله في محرم: رُجي له أن يعود خيرًا مما كان**»[٢]، مع أن العبادة المحببة إلىٰ الله ـ سبحانه ـ هي ما دام العبد عليها «**وكان أحب الدين إلىٰ رسول الله ﷺ ما دام عليه صاحِبُه**»[٣] فالعمل الدائم محبوب لأمرين: أحدهما: أن التارك للعمل بعد الدخول فيه كالمعرض بعد الوصول، وثانيهما: أن مُداوم الخير مُلازم للخدمة، وليس من لازم الباب في كل يوم وقتًا ما، كمن لازم يومًا كاملاً ثم انقطع[٤]، وفتور يتمثل في الضعف في امتلاك الداعية لخصائص الدعاة، مما يؤدي إلىٰ قلة الإنتاج، مع ملاحظة قيام الداعية بالأعمال التي يُحب، وتركه لما لا يوافق هواه.

*****

(١)أخرجه أحمد (٢/ ١٨٨)، والبيهقي في شعب الإيمان (٣٨٧٨) عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢١٥٢).

(٢)مدارج السالكين ٣/ ١٢٦

(٣) أخرجه البخاري (٤٣) عن عائشة رضي الله عنها.

(٤)مدارج السالكين ١/ ١٠٣.

مظاهر الفتور وصوره

إن أي ظاهرة من الظواهر، أو حدث من الأحداث يعتبر تتابع مجموعة من العوامل والأسباب التي قد تكون متباينة، ومختلفة في فعلها وتأثيرها، ولكنها بالتأكيد مترابطة ومتكاملة، في تكوين الظاهرة، أو صياغة الحدث[1]، ولطبيعة تكوين جماعات العمل الإسلامي والظروف المحيطة بها كانت العوامل والأسباب كثيرة جدا؛ ولهذا سنقتصر علىٰ ذكر ما نراه مهمًّا، أو أنه جنس يدخل تحته أنواع، أو نوع يَدخُل تحته أفراد، فما نذكره سيكون في دائرة المثال أكثر مما هو في دائرة الحصر.

وهنا قبل ذكر المفردات لابد لنا من تعريجة حول:هل هذا الفتور كمي؟ أو نوعي؟ أم كليهما معًا؟ بمعنىٰ هل الفتور في كمية العطاء للدعوة من الداعية أم أنه في نوع العطاء؟ أم أنه في الأمرين هناك فتور؟ والذي يظهر أن مشكلة الفتور قد استفحلت في حجم العطاء ونوعه فكانت بعد ذلك ظاهرة منذرة بالخطر التفت إليها الدعاة، ووقفوا عندها؛ ليتدارسوها، ويتباحثوا في أسبابها وعلاجها، وورقاتنا هذه، مساهمة منا في بحث هذا الموضوع.

الصورة الأولىٰ للفتور: انتشار قائمة الأولويات النسبية وعكس القواعد الشرعية في تفاصيل الأعمال الإيمانية، فيلهي من أصابه الفتور بالمفضول والمرجوح؛ ليبدأ بالتخلص من الفضل، فتنقلب الأسس والموازين، وتنعكس المناهج والسبل فتحتاج البدهيات إلىٰ أدلة وبراهين، فترىٰ المسلم يتحرز عن رشاشة نجاسة، ولا يتحاشىٰ من غيبة وبهتان، ويُكثر من الصدقة، ولا يُبالي بمعاملات الربا، ويتهجد بالليل، ويؤخر الفريضة عن الوقت، وها هم أولاء إخوة يوسف لما دخلوا مصر كمموا أفواه إبلهم؛ لئلا تتناول ما ليس لهم، ونسوا تفاوت ما بين الورع واختطاف أكلة لا يملكونها، وبين إلقاء يوسف ـ عليه السلام ـ في الجب وبيعه بثمن بخس.

(١) حتىٰ يَصح اصطلاحًا تسمية أي حدث ظاهرة لابد أن يكون هناك استبيان وتتبع وإحصائيات تُعطينا أرقامًا تُنذر بالخطر الذي يستلزم معه الدراسة والتصدي، فالظاهرة كما قال الأستاذ سليمان محمد الشناوي موجه المواد النفسية والفلسفية في قطر: «هىٰ كل تغير يطرأ علىٰ بُنية الشيء ويمكن تحديده».

الصورة الثانية: الاهتمام بالحوار العقلي في تفنيد شُبَه الملاحدة والعلمانيين فيما بينهم والاكتفاء بالترف العلمي علىٰ حساب الهمم والحركة، فالغزارة الفكرية من غير حركة وعمل وجهاد بها هي بمثابة سيوف خشبية في أيد متوضئة، تكرر مأساة جهل الأبناء وعجز العلماء، فالإسلام بناء وتكامل كمثل ذاك الذي مر علىٰ بلدة ولم يسمع أذانًا فابتأس ووعظ، وطلب من أهل القرية حملة يتعاونون فيها علىٰ بناء مسجد. ثم يتحرك كُلٌّ بحسب استطاعته، فيقول أحدهم: أهب للمسجد ناحية من أرضي تبنونه عليها وليس لي مال. ويقول آخرون: لكم أكتافنا، نخلط الطين ونصنع اللبن. ويقول ثالث: وعليّ إقامة اللبن جدارًا، ويتبرع رابع بالأبواب، وخامس بالفرش، وسادس يُسرجه وينيره، وسابع يقول: ما عندي كتف ولا مال، ولكن صوتي جميل، فأنا المؤذن. ويقول المستضعفون: وعلينا تكثير السواد، والانتظام صفوفًا، وإظهار هيبة الإسلام، وتعميره بالتسبيح والتكبير، ثم يؤمهم الرائد، وتقام الصلاة.

الصورة الثالثة: السرف ومجاوزة الحد في تعاطي المباحات:

قال الله تعالىٰ: ﴿يَبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ٣١﴾[1]. وقال رسول الله ﷺ: «**ما ملأ آدمي وعاءً شرًّا من بطنه**»[2].

وبذلك يقول عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «**إياكم والبطنة في الطعام والشراب، فإنها مُفسدةٌ للجسد مورثةٌ للسقُم مكسلة عن الصلاة...**»[3]. وقد سأل العلامة ابن القيم شيخ الإسلام ابن تيمية عن بعض المباح. فقال الشيخ ـ رحمه الله: «**هذا يتنافى مع أصحاب الهمم العالية**» لذلك قيل: همُك علىٰ قدر ما أهَمك، خواطرك من جنس همِك. فاهتمامات الإنسان عنوان علىٰ ما في داخله من عزم أو خور!!

الصورة الرابعة: السقوط تحت ابتزاز الشيطان عن طريق الوسوسة في أمور عدة يحجبها الشاب عن مربيه، فتظل حبيسة في نفسه، تحط من همته، فيركن إلىٰ التباطؤ

(١) الأعراف: ٣١.

(٢) أخرجه الترمذي (٢٣٨٠)، وابن ماجه (٣٣٤٩)، وأحمد (٤/ ١٣٢) عن المقدام بن معدي كرب رضي الله عنه، قال الترمذي: «حسن صحيح».

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٣/ ٤٤٥)، وعزاه لأبي نعيم عن عمر رضي الله عنه.

والتكاسل، فيُحقر الشيطان نفسه عنده وأنه ليس بكفء للعمل الإسلامي، فتضعف إرادته تحت قصف الوساوس، فيتأخر حتىٰ يسقط، كما قال رسول الله ﷺ: «**لا يزال قوم يتأخرون حتىٰ يؤخرهم الله**»[(١)]، وقصة عبد الله بن عباس في طلبه للعلم عبرة[(٢)].

الصورة الخامسة: شعور من حصل له الفتور بقسوة القلب وخشونته، حتىٰ ليحس أنه قد تحجر قلبه نتيجة هزال روحه، فإن طال ذلك كان مرضًا، وإن لم يتداركه، مات قلبه ـ والعياذ بالله ـ وهذا التحجر سيترتب عليه عدم التأثر بآيات القرآن الكريم، من وعد ووعيد، فتكون الموعظة كالحديث العابر قصة تمر، والأموات والجنائز أجساد يحملها لا أثر لها.

الصورة السادسة: التكاسل عن أعمال الخير والعبادات، فحياة صاحب الفتور تفريط واضح في العبادات معنىٰ ومبنىٰ، بينما صاحب الروح النشيطة، يتذوق حلاوة الصلاة، ويستريح بها من متاعب الحياة، وفي قول الرسول ﷺ لبلال: «**يا بلال أرحنا بالصلاة**»[(٣)] ما يكفي لما نقول.

ومن الصور التي تظهر عليه بوضوح، أنك لا تجده يذكر الله ـ تعالىٰ ـ في أحواله وحركاته.

الصورة السابعة: ضعف التلقىٰ للتنفيذ:

وهذه الصورة ستؤول بصاحبها إلىٰ أن يتآكل في بنائه الذي كونه في البدايات، فوقوفه في الظاهر وعدم استكماله لنموه، هو في حقيقته انهيار ونزول إلىٰ الأسفل.

قال الأستاذ الرافعي: «**كل يوم لا أزيد فيه أنا زائدٌ علىٰ هذا اليوم**».

*****

(١)أخرجه مسلم (٤٣٨) عن أبي سعيد رضي الله عنه.

(٢)انظر كتابنا ـ العلم بين يدي العالم والمتعلم.

(٣) أخرجه أبو داود (٤٩٨٥)، وأحمد (٥/ ٣٦٤) عن سالم بن أبي الجعد، وصححه الألباني.

أسباب الفتور

إن طبيعة الدعوة الإسلامية إظهار المراتب والدرجات الإيمانية المرتبطة بالدرجات الأخروية، فمرتبة المسلم تكون بمقدار تقديمه وعطائه لهذه الدعوة، فهناك السابق، والمهاجر، والأنصاري، والبدري، كما أن هناك مُسلمة الفتح، كل بحسب سبقه وعمله، ونحن اليوم يظهر فينا العنصر الإيجابي المعطاء المجاهد، ويظهر المضحي بجزء من وقته، وكذلك المثبط يجد له في السلم درجة، وهذه الدرجات إنما تحصل بمقادير الله وفق الأسباب التي خلقها، وفي بحثنا هذا سنعمد لبيان الأسباب المؤدية للفتور، للعمل علىٰ تلافيها من أجل حفظ أنفسنا وإخواننا، وهنا لا نقصدُ كبوة الجواد واستراحة المقاتل، فهذه أمور حياتية طارئة، وإنما نقصد الفتور بعد الهمة العالية الذي يُعتبر انتكاسة، وما يتبع ذلك من استرخاء وجلوس عن العمل للإسلام.

السبب الأول: ضعف البدايات وتخلخلها:

إن البداية الضعيفة الخالية من الأصول والبناء المنهجي، والتي تعتمدُ علىٰ العواطف والعلاقات الشخصية، لا يمكن أن تورث ثباتًا، فصفاء الانتهاء من صفاء الابتداء، فإن الذي يأتي إلىٰ الدعوة علىٰ أنها مستشفي لعلاج مرض القلب يُزودُ روادَه بالإيمانيات والروحانيات وكفىٰ، أو أنها قراءة قُرآن في زاوية من زوايا المسجد فقط، يختلف عن شخص يعرف الدعوة؛ إنها جيش يُدافع ويُقاتل ويواجه ويُخطط، فالداعية داخل في معركة تحتاج إلىٰ عزم ونَفَس طويل، فمن لا يأتي بهذه النفسية وهذا الفهم سينقطع به الطريق ويظهر عنده التراجع، ويطول به الطريق، فيضعف مشيهُ، وينهار عزمه. فمن يقصر في البدايات يذهل عن الغايات، وفي تذكر أوقات البداية شحذٌ للهمم وعونٌ علىٰ المواصلة، قال الْجُنَيْد: «**واشوقاه إلىٰ أوقات البداية ـ يعنىٰ لذة أوقات البداية ـ وجمع الهمة علىٰ الطلب والسير إلىٰ الله، فالطالب الجاد تعرض له فترة. فيشتاق في تلك الفترة إلىٰ حالة وقت الطلب والاجتهاد، فهذا أبو بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وأرضاه يَمُر علىٰ رجل**

وهو يبكي من خشية الله. فيقول: «هكذا كنا حتىٰ قست قلوبنا»(١).

*** الأمور الذاتية التي ترجع إليها دراسة البدايات:**

١ ـ الأمور الجبلِّية التي يتمايز بها الناس:

إن اختلافات الناس مع بعضهم البعض المتعلقة في كينونتهم، أمرٌ مُلاحظ شرعًا وعقلاً، وهذا بينٌ في قول النبي ﷺ: «**الناس معادن كمعادن الذهب والفضة، خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا**»(٢). وقوله ﷺ: «**كل ميُسر لما خلق له**»(٣).

٢ ـ أُصول الإنسان وبيئته الاجتماعية:

المتتبع لمسيرة الدعاة في أي مجتمع يُلاحظ هذه الظاهرة بوضوح، من حيث الانتماءات القبلية، أو العيش الريفي والمدني، بل إن الأسر المنحدرة من قبيلة واحدة تجد فيها نوعًا من التجمع والافتراق في الصفات، ولبيان ذلك نذكر بعضًا من أحاديث النبي ﷺ الدالة علىٰ هذه القضية:

أ ـ «**والخيلاء والكبر في أصحاب الإبل**»(٤).

ب ـ «**السكينة والوقار في أصحاب الشاة**»(٥).

جـ ـ «**الحكمة يمانية**»(٦).

د ـ «**الأئمة من قريش**»(٧).

٣ ـ العوامل المكتسبة والطارئة علىٰ الإنسان:

وهذه تختلف من بيئة لأُخرىٰ، وكذلك آثارها تختلف، وذكرنا للعوامل في سياق واحد، لا يُعطيها نفس الأثر علىٰ المحل القابل للتأثر، بل إنها تختلف من شخص لآخر،

---

(١) مدارج السالكين ٣/ ١٢٥ بتصرف.
(٢) أخرجه البخاري (٣٣٨٣)، ومسلم (٢٦٣٨) عن أبي هريرة رضي الله عنه.
(٣) أخرجه البخاري (٤٩٤٩)، ومسلم (٢٦٤٧) عن علي رضي الله عنه.
(٤) أخرجه البخاري (٤٣٨٨)، ومسلم (٥٢)، وأحمد (٢/ ٤٨٠) عن أبي هريرة رضي الله عنه.
(٥) انظر السابق.
(٦) انظر السابق.
(٧) أخرجه أحمد (٣/ ١٢٩) عن أنس رضي الله عنه، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢٧٥٨).

وهي علىٰ سبيل المثال:

أ ـ الشهادات والمراتب العلمية:

إن المسلم ليس معزولاً عن أبناء مجتمعه وموازين التقويم عندهم، فهو واقعٌ تحت أنظارهم، دائرٌ في محيط عباراتهم ومديحهم، متأثر بكلمات الإطراء التي قد لا يسمعها ممن يُحيطون به من إخوانه الدعاة لكون ميزانهم ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾[(١)]، وحينئذ تُحدثُ له هذه المقابلة بين الفريقين هزة قد تُوجِد شرخًا في حائط الإيجابية، يعمل الزمن علىٰ توسعته وزيادته، وهكذا مع تكرار هذه الهزات، وعدم الصلابة في جدار الإيجابية، سيحصل التصدع والانهيار.

ب ـ المال:

إن فتنة المال كما تكون بالزيادة تكون بالنقص، فكلا الأمرين مُشغل للنفس، مُعرضها لضغط العوز أو الطغيان: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴿٧﴾﴾[(٢)] ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ۖ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ ۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةَ﴾[(٣)].

فبداية الانزلاق هو الشعور أن التزامه الإسلامي سيضيع عليه مستوىٰ أفضل من الحياة، فيبدأ يتحرك، ويتسع حتىٰ يخرج من دائرة الالتزام التي كان يتنقل في إطارها، فالباحث عن المال لا يشبع كما في الحديث: «**منهومان لا يشبعان: طالب علم، وطالب دنيا**»[(٤)]، «**لو كان لابن آدم واديان من ذهب لتمنىٰ ثالثًا**»[(٥)] فحبُّ المالِ أمرٌ فطري، إن لم يُهذَّب بضوابط الشرع في التحصيل والإنفاق كان مُنزلقًا صعبًا.

جـ ـ عدم القدرة علىٰ إشباع الحاجات الأساسية للإنسان:

وهذه أصبحت اليوم كثيرة، ومن يُعاني من نقصها كذلك أكثر، ومن هذه الأشياء الزواج والاستقرار بجميع صوره وأشكاله، وهذا النقص يوجد مشاكل شخصية للأخ

(١)الحجرات: ١٣.

(٢)العلق: ٦، ٧.

(٣)الحج: ١١

(٤)أخرجه الدارمي في سننه (٣٣٤) عن ابن عباس رضي الله عنهما، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦٦٢٤).

(٥) أخرجه البخاري (٦٤٣٦) عن ابن عباس رضي الله عنهما.

نفسه، يظل حبيسها تُقلقه في حركته وسكونه، وفكره وشروده.

د ـ البيئة الخاملة:

فصاحب النشاط في وسط الكسالىٰ والخاملين مع الوقت تنتقل له العدوىٰ، فيهبط معهم من غير أن يشعر، فالإنسان حبيس بيئته.

السبب الثاني: الاستجابة لنداءات التشكيك في سلامة الطريق:

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: «**إن الصادقين في دعوة الإيمان هم المؤمنون الذين لم يعقبوا إيمانهم ريبة، وجاهدوا في سبيله بأموالهم وأنفسهم**»[1]، فاليقين هو أساس الثبات، والشك طريق الانهيار، فمن قصرت به الرجولة أن يرد علىٰ المشككين والمثبطين، فإنه باستطاعته أن يسكت عن الخوض معهم؛ فإننا إن لم نستطع أن نُحطم الكفَّ التي تمتد إلينا بالسوء، فلا يجوز أن ننحني لنقبلها. وهذا الاضطراب والتشكيك يأتي من الضعف، أو انعدام الثقة بثلاثيتها المعروفة:

١ ـ الثقة بالنفس.   ٢ ـ الثقة بالقيادة.   ٣ ـ الثقة بالمنهج.

*** ضعف الثقة بالنفس:**

وما يترتب علىٰ ذلك من الانسحاب من ميدان المبادرة الذي بدوره يدفع بالأخ إلىٰ الانزواء عن العطاء والمشاركة الإيمانية؛ ليبدأ بعد ذلك بالعد التنازلي.

*** ضعف الثقة بالقيادة:**

وهذا معول قديم جديد انتبه له المربون وأصحاب التوجيه علىٰ مر العصور، فعطاء الإنسان يتناسب مع الثقة تناسبًا طرديا، فكلما زادت الثقة زاد العطاء والعكس كذلك، ولذلك جعل الإمام حسن البنا ـ رحمه الله ـ الثقة، ركنًا من أركان البيعة في العمل الإسلامي.

*** ضعف الثقة بالمنهج:**

وهذا يأتىٰ عند تنازل الداعية عن وضوح فكرته باستجابته لمقترحات المقترحين في

(١) مجموع الفتاوىٰ (١٠/ ١٢).

تحوير منهج دعوته عن طبيعته الربانية أو تزيين الدين بما يوافق رغبات الناس وأهوائهم، فيكون بعد ذلك الانحراف عن أصول العقيدة، وليّ النصوص عن معانيها، أما التهاون في المنهج الحركي فيأتي من التردد بين منهجين للعمل، أو عدم القناعة الكاملة بأحدهما، مما يؤدي إلىٰ التخبط في الخطط والمسير ثم الانهيار.

السبب الثالث: عدم استشعار المسؤولية الشرعية:

فصاحب الفتور يظن أنه يكفيه أن يكون عنصرًا في داخل الجماعة، فيسقط عنه بذلك ما أُنيط به من مسؤولية، تجاه دينه وعقيدته، وهذا الفهم سيورث خمولاً في تبليغ ونصرة هذا الدين، فتمر عليه المنكرات ولا يتحرك، ويعرف الواجبات ولا يأمر بها، فيموت الدين في نفسه وتنطفئ جذوة الإيمان في قلبه، فاستشعار المسؤولية من أعظم أسباب الثبات، فهذا إمام أهل السنة والجماعة أحمد بن حنبل ـ رحمه الله ـ يأتيه أحد تلامذته في السجن؛ ليطلب منه أن يقول بخلق القرآن تقية فيقول للإمام: «**يا أبا عبد الله قلها وارتح، فإن الأمة تعذرك؛ لأنك تحت عذاب وبلاء**»؛ فيرد عليه الإمام: «**انظر من النافذة**» فنظر ووجد أن أهل بغداد كلُ واحد منهم بيده قلم، وينتظر ماذا يقول أحمد بن حنبل، فقال الإمام: «**أأهلكُ هؤلاء وأنجو بنفسي**».

وترك الاستشعار بمسؤولية العمل الإسلامي له أسباب منها:

أ ـ عقدة الخوف الحركي:

بحيث يتخلىٰ عن الممارسات الدعوية التي ستؤدي بالنهاية ـ لو عمل ـ بها إلىٰ إحياء وإنماء الجانب الإيماني، وهذا الترك آتٍ من خشية المحاسبة والمساءلة لما يتُوقع من خطأ الممارسة فيكون السكون الذي يتبعه بعد ذلك الخمول.

ب ـ الانسحابية:

وهذه تأتي من فهم قاصر لأمر الريادة، والمسؤولية في العمل الدعوي، فيبدأ الداعية في تركه لميادين العمل؛ خشية الظهور، وينحدر بهذا الفهم درجة تتبعها درجات حتىٰ يأتي إلىٰ مرحلة يُريد فيها أن يتحرك، فلا يستطيع.

جـ ـ الرتابة في النشاط:

إن الاستمرارية في عمل واحد مُتكرر يدفع بالملل ليحل في القلب تضجرًا تتبعه لامبالاة متناهية.

د ـ غياب التحدي:

إن عنُصر الصراع في كل الميادين يؤدي في الغالب إلىٰ الحركة والنشاط والعكس صحيح، فشعور المسلم أن غيره يُغنيه، وأن الثغور قد امتلأت رجالاً يجعله ينام ملء جفنيه، ويأكل ملء ماضغيه، ويقضي وقته لاهيًا عابثًا، فالمجاهد حياته دائمًا في تحدٍ، وإن لم يكن التحدي موجودًا استحدثه ليعيش في جدية دائمًا.

السبب الرابع: غلبة هم الدنيا علىٰ هم الآخرة:

قال الله تعالىٰ: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾ ﴾[1]، فالداعية درجة ثباته وضعفه تتناسب مع درجة قربه من الآخرة، فبمقدار حبُه للآخرة يكون ثباته والعكس صحيح.

وقد قيل شعرًا:

نرقع دنيانا بتمزيق ديننا فلا ديننا يبقىٰ ولا ما نُرقع[2]

السبب الخامس:

ظهور الاختلافات حول بعض القضايا المهمة التي يترتب عليها رسم الاستراتيجيات، مما يؤدي إلىٰ اختلاف طرائق التفكير، فتختل الروابط بين الصفوة القيادية مما يؤدي إلىٰ خلق حالة من الإحباط النفسي، والترهل، نتيجة الانعكاسات القيادية المختلفة علىٰ قواعد العمل، فالناس علىٰ دين ملوكهم، والجو المتناحر سيؤدي بالنتيجة إلىٰ:

أ ـ قلة الاختلاط بين القيادة والقاعدة وضعف الحوار بينهما.

---

(١) الشورىٰ: ٢٠.
(٢) تهذيب ابن عساكر ٢/ ١٩٣.

ب ـ جحود الوسائل وأنماط المعالجات في العمل والحركة.

جـ ـ غياب التخطيط الواضح المعالم البين الأهداف.

د ـ ضعف تحريك المجامع؛ لتتفاعل مع الأحداث.

هـ ـ الاختلاف علىٰ ترتيب الأولويات في ميدان العمل الإسلامي.

وهذه العناصر ستزرع الشيء الكثير في نفوس الشباب، وخصوصًا من لم يستكمل بناءه مما يؤدي إلىٰ زعزعة الثقة التي تحدثنا عنها كسبب من أسباب التثبيت.

السبب السادس: الاستعجال في التربية والتكوين:

إن طبيعة الإنسان في حبه للعددية والتراكمات البشرية، تجعله يغفل عن موازين الانتقاء؛ فيتساهل في تصديره وقبوله للمجاميع القادمة من الشباب من غير أن يتأكد من كمية الأخذ التربوي، والتطبيق السلوكي، وحينئذ يقع الظلم علىٰ الجماعة، التي جاءها هذا العنصر مُكونًا عبئًا إضافيا علىٰ برنامج عمل المجموعة، كما أنه يغبن نفسه بدخوله في مجالات وممرات لم يستعد لها، فيصيبه الإحباط، ويتراجع عن إكمال المسير.

السبب السابع: غياب الأهداف الكبيرة:

كلما كان الهدف واضحًا مبُرمجًا بَيِّنا في معالمه، كانت الخطوط متسقة، والأقدام ثابتة، والسعي حثيثًا، فالمسلم الذي يتحرك في مجتمع ما، والأهداف عنده واضحة.

يحقق نتائج إيجابية علىٰ سبيل المثال:

١ ـ منع انتشار الخمور وبيعها.

٢ ـ مُحاربة أوكار الفساد.

٣ ـ القضاء علىٰ الرشوة.

٤ ـ بناء الترابط الأخويّ المبني علىٰ الأصول الإسلامية.

فإنه سيتحرك بخطوات مرسومة، ومراحل مقدرة، ولا يُشغله حدث، ولا يغير مسيرته سبب، ومن ثم لا يحصل له اضطراب، ولا يدخل مع إخوانه في خلاف وصراع، ولكن إن لم تكن هذه معروفة، فكل فردٍ سيضع لنفسه الأهداف التي يراها بحسب توجهاته

وميوله ثم يسير، فتختلط عليه الدروب، فيشعر بالملل ثم ينسحب من الصف.

وبعد ذِكرنا لأسباب الضعف، وقبل انتقالنا إلىٰ صور العلاج، لابد أن نعرج علىٰ **بعض الآثار الخطيرة المترتبة علىٰ فتور المسلم المتحرك في إطار مجاميع الدعاة، وهي علىٰ سبيل المثال:**

١ ـ تعطيل مسيرة الدعوة، وعدم إنجاز الأعمال وتأخير مسار العمل الحركي وسط الدعاة، وذلك من خلال:

أ ـ عدم تأدية الأعمال في أوقاتها وما يترتب علىٰ ذلك من تأخر تحقق الغايات التي تريد الدعوة أن تصل إليها، وهذا في آحاد الدعاة، فكيف إن كان الفتور في أفراد القيادة.

ب ـ ضعف الإنتاج وظهور صورة إنتاجية باهتة.

جـ ـ ضعف الهمم والتفكير للعمل الإسلامي ومعاناته وما يترتب علىٰ ذلك من فقدان الإبداع مع ركاكة الإنتاج.

د ـ تثبيط الهمم داخل الصف الدعوي؛ لذلك أفتىٰ شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ بعدم جواز إخراج المثبطين في المعارك، فالعنصر الضعيف الذي يكون قد غلب عليه هم الدنيا علىٰ هم الآخرة عنصر متثاقل متراجع.

هـ ـ التهرب من التكاليف في الأوقات الحرجة.

٢ ـ الخسارة الدعوية للطاقات، التي تكون قد أخذت قسطًا وافرًا من التربية، والجهد في البناء.

٣ ـ تشويه صورة الدعوة الإسلامية عند عامة الناس، وذلك بوجود عناصر تظهر علىٰ السطح كقدوات للعامة، ثم تنتكس في صورتها.

٤ ـ تكون العناصر السلبية بيئة جيدة لاستقبال الأفكار المضادة لمسار الدعوة، حيث تنمو فتُشكل صورة معكوسة لمسار الدعوة.

*****

طرق ووسائل معالج العيوب

إن اكتشاف الداء ومعرفة مواطن الخلل ليس عيبًا بل هو دليل صحة ووعي، فالإنسان المتابع والراصد والمواكب للحركة اليومية للعمل هو الذي يتقص الأخطار والأخطاء، ويعرف أماكنها، فيسارع لعلاج الجزء المريض؛ ليستمر الجسم صحيحًا، تتولاه الأيدي الطاهرة الفطنة بالعلاج، والتقويم، وليس في ذلك نقص، بل كما قيل: «**كفىٰ المرء نبلاً أن تعد معايبه**».

والفتور كعيب يُصيب العاملين، يتفاوت بدرجته، وأسبابه من شخص لآخر، فما يصلح لإنسان قد لا يصلح لآخر، فهو قد يظهر بارزًا قويًا في شخص، وقد يظهر خافتًا ضعيفًا في آخر، وهنا في هذه الأسطر سنذكر شيئًا من العلاجات التي من الممكن أن تصلح جميعها، وقد يصلح بعضها وقد لا يصلح منها شيء؛ لأن الدواء قد يكون صحيحًا، ولكن هذا المريض لشيء في تكوينه لا يصلح له هذا الدواء.

* **العلاج الأول:**

تركيز مفهوم وجوب الدعوة، وأن الأمر لم يعد نصوصًا متعارضة وترجيحات، بل هي أمور معلومة من الدين بالضرورة، وبهذا يقول شيخ الإسلام ابن تيمية في قوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢﴾[1] «**واجب علىٰ الأمة أن يبلغوا ما أُنزل إلىٰ محمد، ويُنذروا كما أنذر محمد ﷺ**»[2] ولهذا قال ابن القيم ـ رحمه الله: «**إن مقام الدعوة إلىٰ الله هو أرفع المقامات عند الله تعالىٰ**»[3] علىٰ أن يفهم الدعاة ألا يستعجلوا في الوصول إلىٰ الغاية، وألا يُرتبوا وجودهم علىٰ تحقق الهدف علىٰ أيديهم، بل المطلوب منهم هو الثبات علىٰ الحق، والاستقامة علىٰ المنهج، فالذين يسلكون السبيل إلىٰ الله في طمأنينة وثقة، عندما يُغلبون يلجؤون إلىٰ الناصر المعين ويجأرون إليه، كما جأرَ نوح عليه السلام: ﴿

(١) المدثر: ١، ٢.
(٢) مجموع الفتاوىٰ (١٦/ ٣٢٧).
(٣) انظر: جلاء الأفهام ص (٤١٥).

﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغۡلُوبٞ فَٱنتَصِرۡ ١٠﴾[1]، ينتظرون الفرج القريب من الله، وهم بهذا الانتظار في عبادة يثابون عليها، وهذا الثبات يلزمه وضوح في الفكرة الإسلامية لدىٰ الداعية، فالوضوح يؤدي إلىٰ شعور الداعية بأنه يحمل إسلامًا ليس كمثله مبدأ آخر مما عند الأحزاب العلمانية، وينتج عن هذا الشعور بالتالىٰ فهم لضرورة الاستقلال عن غير المسلم ومفاصلة الأعداء، ويلمس دوره في مسؤولية الحفاظ علىٰ الإسلام، في عمل دائب ومصارعة للفكر المضاد ويستيقن ضرورة الممارسة الحركية الجماعية إذا أريد للصراع أن يكون متقنًا.

ويمكننا أن نفقه دور هذا الوضوح من مثل نضربه: إن رجلاً يريد أن يشتري تحفة، فهو يتحرىٰ الأتقن صنعًا والأجمل منظرًا؛ إذ الفطرة السوية تقوده إلىٰ ذلك، فيرىٰ ذات النقش الفني اليدوي الدقيق علىٰ خشب الأبنوس النادر، ويرىٰ ذات النقوش الغليظة التي تنتج المكائن ألوف النسخ المتماثلة منها من لدائن كيماوية. فإذا ظفر بالأولىٰ: ازداد إعجابًا بها مع الأيام، وحرص علىٰ حمايتها من يد تعبث بها، ووضعها في صندوق أو بعيدًا عن اللصوص والأطفال، وجعل ميزاتها موضوع حديثه إن زاره أحد، لما لمس فيها من الإتقان والجمال، من بعد ما رأىٰ الكثير غيرها من البائر القبيح الرخيص.

وهكذا إذا أحسّ الداعية فعلاً بإتقان الله تعالىٰ لأحكام الإسلام، واستمتع بجمالها ولمس المصالح الكامنة فيها، فإنه يشعر عندئذ بأن إسلامه دينٌ عزيز، وليس كمثله دين آخر أو فلسفة، ويندفع ذاتيا لصيانته والذود عنه والتحدث لجلسائه بإحساسه، ولله ولدينه المثل الأعلىٰ.

إلا أن هذا الوضوح الفكرىٰ سهل تمنيه، لكنه في التطبيق يمثل جهدًا جماعيًّا مكثفًا في تثقيف الدعاة، وتفهيمهم الأحكام الشرعية وفضائل الإيمان، من خلال تربية تعليمية طويلة ومطالعة منهجية، فتجتمع لهم بذلك صورة كاملة لجمال الإسلام، وأما مجرد المقالات التي تمدح الإسلام وتذكر عدله، فإنها لا تولد غير جدية سريعة الانقضاء والنفاذ. هكذا اتضح في المسار.

---

(١) القمر: ١٠.

وهذا التوضيح والبيان هو ما كان يستجليه الصحابة رضوان الله عليهم ومن بعدهم التابعون، حيث كان الإسلام يعظم في نفوسهم، وكذلك رسولهم ﷺ، فيزدادون حبا وطاعة وانقيادا له، وهكذا العلماء أصحاب التربيات الإيمانية عندما يتعرضون؛ لحديث النبي ﷺ بالبيان لا يبدؤون بسرد الأحكام الفقهية، والمعاني اللغوية، بل يجعلون لبيانهم توطئة، يُظهرون فيها عظمة النبي ﷺ من خلال بيانه، وترتيب كلامه، فيتعلق السماع بالنبي ﷺ، فيسهل عليه بعد ذلك أن ينُفِذ أوامره، وتوجيهاته، وما ذكرنا ليس في ميزان الناس فريدًا بل هو مطرد في أعمالهم، فلو أن جماعة خرجوا من المسجد ووجدوا حجرًا في الطريق علاه الغبار، ماذا سيصنعون؟ في أحسن أحوالهم سيقوم أحدهم برفعه عن الطريق؛ لأنهم لا يرونه إلا حجرًا قد علاه الغبار، ولكن لو أنهم علموا أنَّ بداخله جوهرةً ثمينة، فماذا سيصنعون بعد هذا العلم؟!

*** العلاج الثاني:**

إحياء روح الجدية؛ وهي حالة من التيقظ المتواصل المستديم تتيح استغلالاً وافرًا لطاقات الدعاة، في سد الحاجات واستثمار الفرص دون تعطيل لشيء منها، وهذه الجدية الدائمة، منضبطة بما ذكره الرافعي: «**إن روح العمل الدائم تكون فيما يشق بعض المشقة ولا يبلغ العسر والحرج، كما تكون فيما يسهل بعض السهولة، ولا يبلغ الكسل والإهمال**»[(١)].

فليس الأمر كلاما حماسيا مجردا ـ فنفع هذا آنِيّ، وإفادته وقتيةٌ ـ بل لابد من تربية للنفس لتنطلق وتتحرر إرادتها بالهمة العالية، وتحصيل هذه الهمة ليس بالأمر السهل، بل هو سهر وجد وعزيمة.

قيل لأحد السلف: ما الذي ينقض العزم؟ قال: طول الآمال وحب الزمان ـ وطول الآمال هو حب الراحات.

ويقول الإمام البنا ـ رحمه الله: «**المجاهد الذي ينام ملء جفنيه ويأكل ملء ماضغيه ويضحك ملء شدقيه ويقضي وقته لاهيًا لاعبًا عابثًا، فهيهات أن يكون من الفائزين أو**

(١) وحي القلم ٢/ ٧.

يكتب في عداد المجاهدين».

وقال ابن عقيل يصف طلبة العلم: «**غلب عليهم الجـــد وقل عندهم الهزل**» ويتكلم - أيضًا - عن طبيعة الجدية، فيقول: «**إني لا يحل لىٰ أن أُضيع ساعة من عمري حتىٰ إذا تعطل لساني عن المذاكرة والمناظرة، وبصري عن المطالعة أعملت فكري حتىٰ في حالة راحته**»[1].

وقيل للإمام أحمد: متىٰ يجد العبد طعم الراحة فقال: «**عند أول قدم في الجنة**». والإمام البنا يصفُ الأخ الداعية المجاهد بقوله: «**أستطيع أن أتصور المجاهد شخصًا قد أعد عدته، وأخذ أهبته، وملك عليه الفكر فيما هو فيه نواصي نفسه، وجوانب قلبه، فهو دائم التفكير، عظيم الاهتمام علىٰ قدم الاستعداد أبدًا، إن دُعي أجاب، أو نودي لبىٰ، غدوه ورواحه وحديثه وكلامه وجِدّه ولعبه لا يتعدىٰ الميدان الذي أعد نفسه له**» ويقول: «**كونوا مع الناس كالشجر... يرمونه بالحجر ويرميهم بالثمر**».

وهذه الجدية الإيمانية ستدفع الأخ للحماس للفكرة والحركة وذوبانه في حركته وجماعته، كما يقول محمد أمين المصري، في كتابه «**المجتمع الإسلامي**»: «**وبهذا تصبح رسالة الجماعة غرضه في حياته، وتحقيق أهدافها غاية آماله، حتىٰ ينتهي به الأمر أن يُصبح هو والجماعة وحدة لا يمكن فصل أحدهما عن الآخر، وعند ذلك يصل الداعية إلىٰ غايته، كما بين الإمام البنا - رحمه الله - في قوله: إنما يوصلُ الداعية إلىٰ غايته؛ شغفه بدعوته، وإيمانه واقتناعه بها، وتفانيه فيها، وانقطاعه إليها بجميع مواهبه، وطاقاته، ووسائله، وذلك هو الشرط الأساسي والمسحة الرئيسة للدعاة. هكذا كان الوضوح في مذكراته - رحمه الله - وهذا الذوبان سيدفعه؛ لأن يحقق المراتب العالية التي تتناسب مع توصية الرسول ﷺ**: «**إذا سألتم الله - تعالىٰ - فاسألوه الفردوس، فإنه سر الجنة**»[2]، وسيرتقي بنفسه عن الخوض والتمادي بالمباح. يقول ابن القيم - رحمه الله: «**العارف**

(١) لسان الميزان للحافظ ابن حجر (٤/ ٢٤٣).

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير (١٨/ ٢٥٤) (٦٣٥) عن العرباض بن سارية، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/ ١٧١): «رواه الطبراني ورجاله وثقوا»، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٥٩٢).

بالله يترك كثيرًا من المباح إبقاءً علىٰ صيانة نفسه، ولا سيما إذا كان ذلك المباح برزخًا بين الحلال والحرام».

*** العلاج الثالث: البرمج الفردي والجماعي :**

فَنُعَلِّم الداعية كيف يبرمج يومه، ونقيد تصرفاته ونشاطه في بعض أيام الأسبوع، لا ندعه فيها حرا؛ ليتعلم تنظيم الأوقات، ومع هذا من الضروري أن ندعه في الأيام الأخرىٰ يمارس تجربة ذاتية بغير رقابة، إذ النفس تمل الرقابة الكثيفة.

وَنُعَلِّمه برمجة أسبوعه، بحيث يخصص بعض الأيام لعمل معين أو لون من النشاط، مع الانتباه إلىٰ تخصيص يوم راحة له مهما بلغت الضرورة؛ لأن الإرهاق يولد الملل ويضاد حقيقة الجدية.

وتزداد أهمية البرمجة الشهرية ثم الفصلية ثم السنوية، فنعلم الداعية أن يضرب لنفسه موعدًا منذ الشتاء أن يعمل كذا وكذا في الصيف، وأن يقرأ كتبًا مسماة خلال سنة، ولا يترك همته تحركها الصدفة فحسب، أو حين ساعة يتذكرها من بعد نسيان، أو يطالع ما تقع عليه عينه من الكتب دونما اختيار للأنفع والأهم، بل نلزمه بجدول وخطوات متتالية مدروسة سلفًا.

إن فائدة هذه البرمجة لا تكمن في أنها تمنع من التفلت فقط، بل لها أثر نفسي كبير يؤدىٰ إلىٰ إتقان التنفيذ؛ إذ الداعية يظل يفكر فيما يتعلق بالأمر الذي سينفذه بعد مدة تفكيرًا متواصلاً، ويصطاد الخواطر التي تأتيه حوله، حتىٰ إذا جابهه وبدأ التنفيذ: بدأه بتصور واضح، ولكن إذا نفذه بعد انقداح الفكرة في ذهنه بمدة قليلة، فإن صورة الأمر ستظل ناقصة عنده، لقصر وقت التفكير التمهيدي، فيهمل بعض الفوائد نسيانا، ولقلة الاستعداد والتهيؤ، ولطبيعة الارتجال.

وتأتي بعد ذلك: البرمجة الجماعية والخطط التنفيذية مكملة ومستدركة علىٰ نقص البرمجة الفردية، فتوجه وتنسق فرص الاستفادة من القابليات المختلفة، وليس هناك مانع من وضع جداول زمنية مفصلة، والتطرق في الخطط ذات الطبيعة التنفيذية إلىٰ فرعيات مختلفة. هكذا سار بنا صاحب المسار.

فمن لم يُبرمج حياته ويُعدد أهدافه فلن يحقق شيئًا وبهذا قالوا مثلاً: «**تقطع أعناق الرجال المطامع**».

*** العلاج الرابع: إشاع أدب الحماس والرقائق الوعظي :**

وهذا لا يعتبر علاجًا منفصلاً بل هو مواكب للعلاجات التي يقوم بها القائمون علىٰ التربية، فالعلاجات في العادة، تكون مُرة فتنخفض بالرقائق وأدب الحماسة، فبعد أن ترِق القلوب يسهل عليها أن تتلقىٰ التوجيهات والعلاجات.

*** العلاج الخامس: اتخاذ احتياطات قيادي تدرأ الفتن:**

إن الكثير من التجمعات الجديدة التي لم تراهق بعد، يظن مَنْ فيها أنهم بدعة في العاملين، وأنهم أجادوا التربية فانتفت ظواهر الخلاف والتطرف والتساقط بين إخوانهم. وذاك نوع من اعتداد لا تصدقه سنن تطور التجمعات العاملة، فإن من شأن البداية الهادئة ألا يختلف في حيثيات خطتها البسيطة اثنان، ومن شأن المجموعة الصغيرة ألا يكثر المتطلعون للصدارة فيها، ومن شأن الترغيب والترهيب ألا يصرعها من بعيد.

أما حين يتقادم عهد العمل وتكون له بعض القوة، فإنه يبدأ مرحلة مراهقة صعبة؛ إذ تكثر المواقف تجاه الأحداث والحكومات والأحزاب، فتتعدد الاجتهادات، ويأتي احتمال الخلاف في ثنايا هذا التعدد، كما أن اتساع المجموعة يبرز رؤوسًا قيادية متعددة أيضًا، بحكم مركزها في العمل، أو بحكم قابليتها العالية التي تشد قلوب الآخرين إلىٰ تبعيتها، ومع هذا التعدد احتمالات لخلافات أخرىٰ.

فالخلاف يوهن الثقة، ويُقبح جهة الاستحسان بين العاملين.

*** العلاج السادس: التعرف علىٰ تاريخ الساقطين من قطار الدعوة ونهايتهم للعبرة والعظة:**

ومعرفة سنن الله في خلقه، فإن الإنسان إذا عرف عاقبة أمره من خلال أشباهه، سيفيق عنده الضمير، والعقل الخامل، كما قيل:

اقرأ التاريخ إذ فيه العِبر ضاع قوم ليس يدرون الخبر

فالسائرون في التاريخ كراكب البحر، إن سلم بدنه من الغرق لم يسلم قلبه من الخوف، فهو رجلٌ يخاف موت قلبه لا موت بدنه(١).

ومما يستفيده السائر من دراسته للتاريخ أنه يقيس الحاضر علىٰ الماضي، كما فعل شوقي، عندما سقطت الخلافة، فقال متوقعًا ما سيحدث:

فَلتسمعُن بكلِ أرضٍ داعيًا ... يدعو إلىٰ الكذابِ والسجاحِ
ولتشهَدُن بكل أرضٍ فتنةً ... فيها يباعُ الدينُ بيعَ سماحِ
يُفتي علىٰ ذهبِ المعزِ وسيفهِ ... وهوىٰ النفوس وحِقدِها الملحاح

*** العلاج السابع: تصحيح مفهوم السكينة الإيجابية:**

حتىٰ لا تنقلب إلىٰ نوع من الانعزالية والركود بتغليف من النوافل، وخلوات التفكر.

*** العلاج الثامن: تربية النفس علىٰ العفو عن الآخرين، وبناء النفس المتسامحة:**

سامح أخاك إذ خَلَط ... منه الإصابة والغَلَطْ
وتجافَ عن تعنيفِهِ ... إن زاغ يومًا أو قَسَطْ
واعلم بأنك إن طلبـ ... ـت مهذبًا رمُتَ الشطط
من ذا الذي ما ساء قط ... ومن له الحسنىٰ فقط؟

وبهذا قال النبي ﷺ: «**وإن امرؤ شتمك وعيرك بأمر يعلمه فيك، فلا تعيره بأمر تعلمه فيه، فيكون لك أجره، وعليه إثمه، ولا تشتمن أحدا**»(٢).

وقال ﷺ: «**حوسب رجل ممن كان قبلكم، فلم يوجد له من الخير شيء إلا أنه كان يخالط الناس، وكان موسرًا، فكان يأمر غلمانه أن يتجاوزوا عن المعسر. قال الله عز وجل: نحن أحق بذلك منه، تجاوزوا عنه**»(٣).

وعنه ﷺ أنه قال: «**ألا أُخْبِرُكمْ بأفضل من دَرَجة الصيام والصلاة والصدقة؟**» قالوا:

---

(١) مدارج السالكين ٣/ ٥٩.
(٢) أخرجه أحمد (٥/ ٦٣) عن جابر بن سليم، وصححه الألباني في الصحيحة (٧٧٠).
(٣) أخرجه البخاري عن حذيفة وأبي هريرة (٢٠٧٧، ٢٠٧٨)، وأخرجه مسلم (١٥٦١) عن أبي مسعود واللفظ لمسلم.

بلىٰ يا رسول الله، قال: «**صَلاَحُ ذات البَين، فإنَّ فَسَادَ ذات البين هي الحالقة لا أقولُ: تَحلقُ الشعرَ ولكنْ تحلقُ الدين**»[(١)].

وفي الصحيح عنه ﷺ أنه قال: «**تُفْتَحُ أبوابُ الجنة يومَ الإثنيْن ويوم الخميس، فيغفر لكل عبد لا يُشْرِكُ بالله شيئًا، إلا رَجُلاً كانت بينَهُ وبَيْنَ أخيهِ شحْنَاءُ؛ فيُقال: أَنظِرُوا هذين حتىٰ يصطلحا**»[(٢)].

وقال ﷺ: «**لا يحلُّ لمسلم أن يهجرَ أخاهُ فوق ثلاث ليال، يلتقيان فَيصد هذا، ويصدُّ هذا وخيرهما الذي يبدأ بالسلامِ**»[(٣)].

وقال ابن المعتز: «**لا تطع أخاك بعد عجز الحيلة عن استصلاحه ولا تتبعه بعد القطيعة وقيعة فيه، فتسد طريقه عن الرجوع إليك، ولعل التجارب أن ترده إليك وتُصلحه لك**»[(٤)].

ومن لم يتجاوز عن إساءة الآخرين فقدهم، وقعد معهم المحسنين، وقد قالوا بذلك مثلاً: «**كطالب القرط جُدعت أذنه**».

*** العلاج التاسع: استدامة ذكر الله ـ تعالىٰ:**

وذلك باللسان مع مواطأة القلب، وما يصحبه من تفكر بمخلوقات الله، والاستدلال بها علىٰ عظيم قدرته، ودقيق حكمته، وعموم رحمته، ودوام الافتقار والحاجة إليه، واستحضار رقابته، وهيمنته الكاملة علىٰ الإنسان، وضرورة الحياء منه، وهذه المعاني ليس من السهل علىٰ صاحب الضعف الحصول عليها، ولكنه الصبر والعزم، وعدم التضجر والبدء بتحصيلها شيئًا فشيئًا، فهو في أول أمره يعتبرها دواء مرًّا وفي النهاية عسلاً حلوًا، وهذا الذكر والتفكر يستلزم استحضار معاني الآخرة، وما يجري فيها من أهوال؛ لتتحقق الغربة في نفسه، كما قال رسول الله ﷺ: «**كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر**

---

(١)أخرجه الترمذي (٢٥٠٩) عن أبي الدرداء رضي الله عنه، قال الترمذي: «صحيح»، وصححه الألباني.

(٢)أخرجه مسلم (٢٥٦٥) عن أبي هريرة رضي الله عنه..

(٣)أخرجه البخاري (٦٠٧٧)، ومسلم (٢٥٦٠)، وأبو داود (٤٩١١)، والترمذي (١٩٣٢) عن أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه.

(٤)الآداب لابن المعتز ص ١٢٥.

سبيل، وعد نفسك من أهل القبور»(١)، فيكون بعد ذلك الكرم الرباني، حيث تخفيف النكبات والشدائد التي يتلقاها الإنسان في طريقه، وما هذا إلا لامتداد النظر إلىٰ دار الآخرة، وعدم الاطمئنان بالحياة الدنيا، وتحديثه لنفسه بالنظر إلىٰ وجه الله ـ سبحانه، ﴿وُجُوهٌ يَوۡمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾(٢) ومع ذلك تراه دائمًا مُستحضرًا لعظيم عطاء الله ـ سبحانه، مرددًا قول عُروة بن الزبير عندما عزوه في ابنه حين استشهاده: «**الحمد لله كانوا سبعة فأخذت منهم واحدًا وأبقيت ستة، فلئن كنت قد ابتليت فلطالما عافيت، ولئن كنت قد أخذت فلطالما أعطيت، فلك الحمد علىٰ ما أخذت وعلىٰ ما عافيت**»(٣). هؤلاء هم سلفنا وقدوتنا وبذكرهم تتحقق لنا الخيرات. قال سفيان بن عيينة: «**عند ذكر الصالحين تنزل الرحمة**»(٤).

*** العلاج العاشر: إحياء معاني التوبة:**

كان الفضيل بن عياض يقول للمجاهدين إذا أرادوا أن يخرجوا للجهاد: «**عليكم بالتوبة فإنها ترد عنكم ما لا ترده السيوف**»، فهي توبة مُستمرة من حيث الزمان والمكان، تستدعىٰ الشعور بالتقصير. قال أبو بكر بن عبد الله المزني البصري: «**إذا رأيت من هو أصغر منك من المسلمين فقل: سبقته إلىٰ المعاصي، فهو خير مني، وإذا رأيت إخوانك يكرمونك ويعظمونك فقل: هذا من فضل ربي، وإذا رأيت منهم تقصيرًا فقل: هذا بذنب أحدثته**».

وقال ـ رحمه الله ـ كذلك: «**من مثلك يابن آدم؟ خُلي بينك وبين الماء والمحراب متىٰ شئت تطهرت ودخلت علىٰ ربك ـ عز وجل ـ ليس بينك وبينه تُرجمان ولا حاجب**»(٥).

العلاج الحادي عشر: تحريك العاملين في ميدان عمل خير محبب إليهم:

إن الدعاة إلىٰ الله لا ييأسون من تحصيل الفوائد من كل شخص انتمىٰ لهم ودار في

---

(١) أخرجه البخاري (٦٤١٦)، والترمذي (٢٣٣٣) عن ابن عمر رضي الله عنهما.
(٢) القيامة: ٢٢، ٢٣.
(٣) البداية والنهاية ٩/ ١٠٢.
(٤) الغُنية فهرست شيوخ القاضي عياض ص ١٧٤.
(٥) البداية والنهاية ٩/ ٢٥٦.

فلكهم، ولا يُكثِرون من ألفاظ وصف البعض بالخمول، أو الفتور، بل كل ميسر لما خلق له، وبإمكان الخطة المتنوعة أن توجد مجال عمل لكل مسلم حسب اختصاصه، وذوقه والمهارة التي يحملها ما لم يكن قليل الذكاء، وليست المشاركة في التجميع والتربية هي الصورة الوحيدة لعمل العامل، فخامل في الاتصال الشخصي: ناجح في الكتابة الصحفية والتخصص. وفاتر في حضور الاجتماعات: يتقد ذهنه في الصفق بالأسواق والصناعة وتحصيل الأرباح، وهكذا.

*****

الخاتم

وبعد هذه الورقات، المحزنة في أسبابها ومظاهرها، الطيبة والشافية في علاجها، لابد من وقفةٍ صريحة مع النفس، فإن مَنْ أهملها ازدرته الشُّبه وتوهم قلبه، وتعكر شعوره، ثم كان بعد ذلك كالمنخل يُرسل أطيب ما فيه ويمُسك الحثالة، فهي وقفة تسطع فيها أنوار التوبة الصادقة، والعزمة القوية، فينتشر ضياء النية وضياء الأجر وضياء العمل الجاد، فالأنوار في كل مكان، فلو أننا وقفنا لحظة حساب وتفكر ومدارسة، لرأينا الأضواء من حولنا، كما قال عزام في ديوانه:

رب نفس تلفها ظلمات وهي في عالم كثير الضياء

وبهذه الوقفات الصادقة سيتبدد زور الخداع للنفس، وزور التغميض عن الحقيقة، وزور التطمين الكاذب، نعم سيتبدد ويخرج الزور ليدخل النور، ليسطع بعد ذلك شهاب من قبس كريم، يراه السائر في طريق الأنبياء.

لا تمضوا في طريق اليأس، ففي الكون آمال.

لا تتجهوا نحو الظلمات، ففي الكون شموس.

فإلىٰ كل أخ حبيب إلىٰ النفس ضعفت همته، وعجزت خطواته عن اللحاق بإخوانه، نُرسل هذه الرسالة لعلها تكون بعد توفيق الله دفعة خير، ونبراسًا مضيئًا؛ ليلحق بركب إخوانه.

والحمد لله رب العالمين

*****

هذه الرسالة

تتحدث عن فتور العناصر العاملة بشيء من الحذر، والبعد في النظر، وهي دراسة طبيعية تأتي طبيعية مع مرحلة الدعوة وبيئتها لوجود شيء من الترف والحرية؛ لنتعرف علىٰ الفتــور وأسبابه ومظاهره، ومواطن الخلل، كما تبحث الرسالة طرق ووسائل العلاج.

وهي رسالة إلىٰ كل أخ ضعفت همته، وعجزت خطواته عن اللحاق بإخوانه؛ لا تمضي في طريق اليأس، ففي الكون آمال، ولا تتجه نحو الظلمات، ففي الكون شموس.

الرسالة الرابعة

القيادة

(الأسباب الذاتية للتنمية القيادية)

مقدمة

إن التحرك لنصرة الله لم يَعُدْ أمرًا نفلا، المسلمون فيه على الخيار، بل هو على الوجوب، دائر فيما هو معلوم من الدين بالضرورة: «**من مات ولم يغز ولم يحدث نفسه به مات على شعبة من النفاق**»[(١)].

وهذا التحرك المبارك له خاصية متميزة؛ إذ يأخذ فيه الإنسان من خلال عطائه للآخرين، فالحياة لا يمكن أن ينفرد الإنسان فيها، فطبيعة الحياة التعايش مع الناس، وحتى تنتظم الحياة فلابد من قادة، وأتباع، والقائد هو أحد أفراد المجتمع أو الجماعة، يتميز بمجموعة من الصفات تدفعه إلى المشاركة مع الغير بفاعلية.

وقد بينت التجارب أن الإنسان الفاقد لنسبة كبيرة من الاستعداد الفطري للبروز القيادي، قد يحسن تكوينه قياديا إذا توفرت التربية القيادية ذات الطابع التركيزي، والمحتوى المنهجي والبرنامج التدريبي.

وقد جاءت هذه الرسالة باسم: القيادة: «**الأسباب الذاتية للتنمية القيادية**»، نبحث فيها عن متعلقات القيادة وأساليبها في (عشارية): عشرة أساليب معرفية ووجدانية وسلوكية في تفعيل معنى ومضمون القيادة الدعوية في التبليغ والإرشاد.

* **بحثت الرسالة في:**

- مصطلح الأمة.
- القيادة (المفهوم والمعلوم).
- أساليب وطرق التنمية القادية:

الأسلوب الأول: تنمية البداهة والمبادرة وأخذ القرار.

الأسلوب الثاني: تنمية فاعلية التنفيذ فيمن يكونون معه.

---

(١) مسلم (١٩١٠).

الأسلوب الثالث: الاهتمام بالسنن الكونية الشرعية.

الأسلوب الرابع: تحريك القائد من معه لسؤاله.

الأسلوب الخامس: العمل علىٰ تقوية القول بالعمل دائمًا.

الأسلوب السادس: التدرب والممارسة علىٰ التخطيط.

الأسلوب السابع: التعود علىٰ العمل في حل المشاكل.

الأسلوب الثامن: تهيئة المناخ الوظيفي للعمل والعطاء.

الأسلوب التاسع: الاتصال بالقرآن والسنة.

الأسلوب العاشر: إحسان استخدام اللغة في الحياة اليومية.

وهذا العمل ـ ولله الحمد ـ ليس بدعًا من الأمر، بل منهج نبوي كريم، فرسولنا الكريم ﷺ انتصر يوم انتصر حينما جعل من كل فرد نموذجًا مجسمًا للإسلام.

*****

مدخــــــل

١ ـ وقفة مع مصطلح ومدلول الجماعة:

عملية التبليغ هي حديث للنفس قبل أن تكون للآخرين ازدواجية خير ونماء، تعطي لتأخذ، وما تأخذ إنما هو مما تعطي، فنظرة المستمع تقول لك، وهل أنت كما تقول؟! كما استفساره فتحٌ لبابٍ لم تكن أنت طارقه، وهكذا معادلات الخير تنم عن روح جماعية، لا مجال للفردية فيها، فما من أحد دون أن يعين، وفوق أن يعان، والمنتفع الأول هو القارئ، فله صفو الكلام ولمؤلفه كدره، والعمل الجماعي وصية الرسول ﷺ: «**يَدُ الله مع الجماعة، وَمَنْ شَذَّ شذَّ في النّار**»[١]، «**فعليكم بالجماعة، فإنما يأكل الذئب من الغنم القاصية**»[٢]، «**من أراد بحبوحة الجنة، فليلزم الجماعة**»[٣]. ومن مشكاة النبوة قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن الجماعة: «**إنها حبل الله المتين الذي أمر به، وإن ما تكرهون في الجماعة والطاعة خير مما تحبون في الفرقة**»[٤]: وقال الإمام علي رضي الله عنه: «**كدر الجماعة ولا صفاء الفرد**».

والجماعة: أفراد وقيادة ومنهج ومكان من خلال الزمان، هي طبيعة ديننا الحنيف الذي جاء لينشئ أمة حاربها المجرمون بمختلف الصور؛ فعمدوا إلىٰ تجريد المسلمين من محتواهم؛ ليسهل توجيههم والسيطرة عليهم فيبقىٰ المسلمون أعدادا وأرقامًا من غير إطار، تتوزعهم الأمم وتوجههم التوجهات والأيديولوجيات، وسعىٰ أعداء الله في ذلك له صور مختلفة، وأساليب متنوعة، فسبل المجرمين لا نهاية لها، فهي سهام متولدة

(١) أخرجه الترمذي (٢٧٦٧) عن ابن عمر رضي الله عنهما، وقال الترمذي: «غريب» وصححه الألباني دون قوله: «ومن شذ...».

(٢) أخرجه أبو داود (٥٤٧)، والنسائي (٨٤٧)، وأحمد (٥/ ١٩٦) عن أبي الدرداء رضي الله عنه، وحسنه الألباني.

(٣) أخرجه الترمذي (٢١٦٥)، وأحمد (١/ ٢٦) عن عمر، قال الترمذي: «حسن صحيح».

(٤) أخرجه الحاكم في المستدرك (٤/ ٥٥٥)، والطبراني في الكبير (٩/ ١٩٨) (٨٩٧١، ٨٩٧٢)، عن عبد الله ابن مسعود موقوفًا، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٧/ ٣٢٨): «رواه الطبراني بأسانيد وفيه مجالد وقد وثق وفيه خلاف، وبقية رجال إحدىٰ الطرق ثقات».

في كنانة الشيطان، حتىٰ إنه قد وصل بهم الأمر إلىٰ أن يحاربوا الأمة في مبني الكلمة، ففي دائرة المعارف الإسلامية (٤/ ١١٤ ـ ٤١٤) عند الحديث عن مصطلح الأمة نجد هذه العبارة: هي ليست مشتقة من الكلمة العربية «أم»، بل هي كلمة دخيلة مأخوذة من العبرية «أما» أو الآرامية «أميثة» ويقول هوروفتز: «**ومهما يكن من شيء، فإن محمدًا أخذ هذه الكلمة، واستعملها وصارت منذ ذلك الحين لفظًا إسلاميا أصيلاً**» ا.هـ[1].

وعلىٰ ذلك فأعداء الله يخافون أن تنشأ الأمة الإسلامية، أو نواة هذه الأمة، ولو كانت في أحد القطبين، ولكن نصر الله آت وبشائر النصر تلوح ﴿جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ ٱلْأَحْزَابِ ۝١١﴾[2] ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ۝١٧٣﴾[3] ﴿وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ۝٥٦﴾[4] ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ۝٢١﴾[5].

وقد يسر الله للدكتور أحمد حسن فرحات الرد علىٰ المستشرقين في هدمهم لبناء الكلمة، فكان ملخص ما قال: ذكر أبو البقاء في «**كلياته**» (١/ ١٠٣) أن «**الأمة**» في الأصل: المقصود،، هو الذي أكده صاحب «**لسان العرب**» حيث قال : الأمة لغة من القصد. يقال: أممت إليه أي قصدته، ويشهد لقول صاحب «**اللسان**» قوله تعالىٰ: ﴿وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ﴾[6]، أي:قاصدين، وقال الفيروز آبادي في «**بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز**» (٢/ ٩٢): «**الأمة**» لغة: الرجل الجامعُ للخير، والإمامُ... وجماعة أُرسل إليهم رسول.

ثم قسم الدكتور أحمد فرحات معاني الكلمة إلىٰ مجاميع:

١ ـ المجموعة الأولىٰ:

أنها بمعنىٰ الجماعة، وأن المعاني الأخر يمكن ردها إلىٰ ذلك المعنىٰ الأصلي.

---

(١) الأمة في دلالتها العربية القرآنية. الدكتور أحمد حسن فرحات ص٩ ـ ١٢.
(٢) ص: ١١.
(٣) الصافات: ١٧٣.
(٤) المائدة: ٥٦.
(٥) المجادلة: ٢١.
(٦) المائدة: ٢.

٢ ـ المجموعة الثانية:

أنها بمعنىٰ الدين أو الملة، قال أبو جعفر الطبرىٰ: «**الأمة**» الدين، والأصل أنه يقال للقوم يجتمعون علىٰ دين واحد:أمة فتقام الأمة مقام الدين.

٣ ـ المجموعة الثالثة:

أنها بمعنىٰ الرجل المنفرد، وهو كل من كان علىٰ دين الحق مخالفًا لسائر الأديان، يمثل بذلك القدوة﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً ﴾(١)، حيث اجتمع عنده من خلال الخير ما يكون مثله في أمة.

٤ـ المجموعة الرابعة:

أنها بمعنىٰ «**الحين**» أو «**الزمن**»، قال أبو جعفر الطبري: «**وإنما قيل للسنين**: «**المعدودة**» و«**الحين**» أمة؛ لأن فيها تكون «**الأمة**».

ثم بعد ذلك يبين الدكتور وجه الترابط بين هذه المجاميع فيقول: «**تتمثل** «**الأمة**» أولاً برجل واحد، حينما يكون علىٰ دين الحق مخالفًا لسائر الأديان، وهو النبي غالبًا، أو من يسير علىٰ طريقته، ومن ثم يكون الرجل الذي لا نظير له؛ لأنه الرجل الجامع للخير، والذي يكون إمامًا وقدوة لغيره من الناس.

فإذا استجابت لهذا الرجل فئة من الناس، وسارت علىٰ طريقته ومنهجه، سميت أمة؛ لاجتماعها إليه في حال الدين...، فإذا تخلت الأمة عن دينها وعقيدتها فقدت حقيقة وجودها، ومن ثم تسمىٰ أمة باعتبار ما كان، فالأمة هنا يراد بها الحقبة الزمنية التي كانت فيها ملتزمة بدينها».اهـ.

نعم، هو دين يتحرك به قائد في زمن معين، ليلتف حوله الناس، فيكون منهم أمة تستمر بمقومات البقاء وتنهار عند طغيان أسباب الدمار.

وهنا نقول: إنه بات من المؤكد أن العمل لإنشاء الأمة القرآنية لا يتم من خلال صيحات متطايرة هنا وهناك، أو مؤتمرات توزع فيها المجاملات، بل لابد من طليعة

---

(١) النحل: ١٢٠.

ناضجة تحمل العبء الذي أشفقت منه مخلوقات الله من سماء وأرض وجبال﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ ﴾[١].

نعم، كما ذكر الأستاذ سيد قطب ـ رحمه الله: «**لابد من طليعة تعزم علىٰ العمل لبعث هذه الأمة لاستلام قيادة البشرية، ثم تمضي في الطريق، تمضي في خضم الجاهلية الضاربة الأطناب في أرجاء الأرض جميعًا، تمضي وهي تزاول نوعًا من العزلة من جانب، ونوعًا من الاتصال من الجانب الآخر بالجاهلية المحيطة**»[٢].

فهذه الطليعة هي مفتاح الأمر في القديم والجديد، فانتصار الإسلام لابد أن تكون بدايته حملة تجميع وتربية لعدد من المؤمنين يتجردون ويتبنون قضايا الأمة، ويقومون بذلك من خلال:

١ـ بناء وتربية مجاميع الشباب إيمانيا وعلميا وحركيا وجهاديا.

٢ـ تنفيذ برامج الدعوة التربوية ومتابعة المنفذين لها في ميدان العمل والتطبيق لضمان تحقيق الأهداف.

٣ـ ممارسة دور الرقابة والحفظ للذين معهم في العمل، فالقيادة هي العين الساهرة في المسيرة.

٤ـ تجذير الروح الشورية في واقع التكامل بين الرائد والأفراد.

٥ـ الإشراف علىٰ عملية البناء التربوي المبرمج ومعرفة مواطن الخلل في البرنامج ومدىٰ ملائمته للظروف والواقع والأفراد.

وهذا عمل جليل وعلىٰ النفس ثقيل وبعون الله مذلل للسائرين المرددين:

إذا فاتني يوم ولم أصطنع يـــدًا ... ولم أكتسب علمًا فما ذاك من عمري

وسلفهم في ذلك قولة الأمير القائد عمر بن الخطاب رضي الله عنه لمعاوية بن خديج عندما

---

(١) الأحزاب: ٧٢.

(٢) معالم في الطريق لسيد قطب ص ١١، ١٢،ط دار الشروق.

جاء مبشرًا بفتح الإسكندرية: «**لئن نمت النهار لأضيعن الرعية، ولئن نمت الليل لأضيعن نفسي، فكيف بالنوم مع هذين يا معاوية**»[١].

وهذا الشيخ علىٰ بن عقيل شيخ ابن الجوزي في النحو المولود سنة ١٣٤هـ يقول: «**إني لا يحل لي أن أضيع ساعة من عمري حتىٰ إذا تعطل لساني عن مذاكرة ومناظرة، وبصري عن مطالعة، أعملت فكري في حال راحتىٰ وأنا مستطرح، فلا أنهض إلا وقد خطر لي ما أسطره**»[٢].

وبهذا الحرص يمكن للعاملين أن يعيشوا لغيرهم فمن آثر الله علىٰ نفسه آثره الله، والمخاطرة بالنفوس مشروعة في إعزاز الدين[٣]، فالقادة الأعلام يوم من أيام أحدهم أكبر من عمر آحاد الناس[٤]، فبهؤلاء القادة تجري سنة الله في تحقيق منهج الله لتنفض ركام الجاهلية عن الفطرة، فهم قدر الله لإعلاء كلمته وتسلم منهجه الزمام[٥].

فالأيام قليلة لمن استقام وصبر. قال العلاء بن الزبير الكلابي يحدث عن أبيه أنه قال: «**رأيت غلبة فارس الروم، ثم رأيت غلبة الروم فارسًا، ثم رأيت غلبة المسلمين فارسًا والروم كل ذلك في مدة خمس عشرة سنة**»[٦]. وقال رحمه الله: «**ما زال الإسلام في دهره في مدٍّ وجزرٍ**»[٧] فلابد من العمل، فالمسلم داعية والداعية راعٍ مسؤول عن رعيته.

فإذا غاب عنهم تخلىٰ عن واجبه، وعرّض أمته لعبث المبطلين وغواية الشياطين، ولن يسوغ له هذه العاقبة بحال من الأحوال أنه حسن النية في الخلوة بربه، وإنا نقرأ في كتاب الله أن عملاً كهذا سبق من موسىٰ ـ عليه السلام ـ فأوقفه الله به موقف الحساب والمؤاخذة؛ لأن شعبًا بأسره ضلّ بغيابه عنهم﴿وَمَآ أَعۡجَلَكَ عَن قَوۡمِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٨٣﴾ قَالَ هُمۡ

(١) الزهد للإمام أحمد بن حنبل (١٦٣).

(٢) الذيل علىٰ طبقات الحنابلة لأبىٰ الفرج عبد الرحمن بن شهاب الدين المعروف بابن رجب(١/ ١٤٥، ١٤٦).

(٣) طبقات الشافعية الكبرىٰ للإمام تاج الدين تقىٰ الدين السبكي (٥/ ٩١).

(٤) سير أعلام النبلاء للإمام شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي (٨/ ٢٦٨).

(٥) هذا الدين لسيد قطب بتصرف(٩٥).

(٦) تهذيب تاريخ دمشق الكبير لابن عساكر(٣/ ٦١).

(٧) المرجع السابق (٣/ ٦٢).

﴿أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِي وَعَجِلۡتُ إِلَيۡكَ رَبِّ لِتَرۡضَىٰ ﴿٨٤﴾ قَالَ فَإِنَّا قَدۡ فَتَنَّا قَوۡمَكَ مِنۢ بَعۡدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ ﴿٨٥﴾ فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ غَضۡبَٰنَ أَسِفٗا﴾[(١)].

وإنا لنرىٰ في سيرة سيد الدعاة ﷺ أنه لم يلجأ إلىٰ هذه العزلة مرة واحدة مذ أمره الله ـ سبحانه ـ بالدعوة والتبليغ، فقد ظل مع أصحابه وأتباعه لا يفارقهم ولا يدع الرعية للسامرىٰ بدون راع[(٢)].

وهذا التحرك لازم للجميع، حتىٰ لا تخرب المجتمعات، قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه حين سئل: «**أتوشك القرىٰ أن تخرب وهي عامرة؟ قال: إذا علا فجارها علىٰ أبرارها**»[(٣)].

فالتحرك القيادي هو نوع من الولاية التي يقول عنها شيخ الإسلام ابن تيمية: «**إنها من أعظم واجبات الدين بل لا قيام للدين إلا بها**»[(٤)]، فالقائم بها حريص علىٰ هداية الناس متمثلاً قول زهير بن نعيم البابي: «**وددت أن جسدي قُرض بالمقاريض وأن هذا الخلق أطاعوا الله**»[(٥)].

نفسية متجردة تفضل الله بها علىٰ الدعاة، كما قال عبد القادر الجيلاني: «**سبحان من ألقىٰ في قلبي نصح الخلق وجعله أكبر همي**»[(٦)]، وهذه النوعية من المسلمين يتم اختيارها من مجامع الخير، وليس في ذلك حرج، فمحمد بن عبد الله بن عبد الحكم المالكي السعدي يستشيره قوم في الحج أو الجلوس إلىٰ السماع، فيشير علىٰ بعضهم بالحج، وعلىٰ بعضهم بالجلوس، فيسأله الذي أمره بالحج عن هذا التفريق، فيقول له: رأيت عند أصحابك فهمًا ورأيتك بخلافهم».

---

(١) طه: ٨٦.
(٢) تذكرة الدعاة للبهي الخولي ص ٢١٠.
(٣) أخرجه أبو عمرو الداني في السنن الواردة في الفتن (٤/ ٧٩٩)، وانظر: الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي لابن القيم تحقيق: عبد الله بن عالية ٤٥.
(٤) السياسة الشرعية لشيخ الإسلام ابن تيمية ص ٧٧.
(٥) تهذيب التهذيب للحافظ أحمد بن علي بن حجر العسقلاني ٣/ ٣٥٣.
(٦) الفتح الرباني والفيض الرحماني ـ لعبد القادر الجيلاني ص ١٤.

وهذا الأمر له فرسان[١]، فالأمر الذي تقوم عليه العصبة صعب لا يعين عليه إلا الله فقد فني عليه الكبير وكبر عليه الصغير، وفصح عليه الأعجمي، وهاجر عليه الأعرابي، حتىٰ حسبوه دينا لا يرون الحق غيره[٢]، فمهمتهم ليست في أن يقولوا للمخطئ: إياك والخطأ، لكن مهارتهم أن يهيئوا للمخطئ مجتمعًا، ويرسموا له طريقًا يعينه علىٰ الصلاح[٣]. إذن فالتكليف ثقيل والخطة شاقة، والثمن مرهق باهظ، ولكن لابد من ذلك فالرسالة أثقل، والمهمة أخطر، والبضاعة أربح، والمنزلة سامية، ورضوان الله ـ سبحانه ـ أسمىٰ وأكبر[٤]، فمن كان لغير نفسه كان أفضل، فهذا إبراهيم بن سعيد الجوهري يقول: «**قلت لأبي أسامة : «أيهما أفضل؟ فضيل بن عياض أو أبو إسحاق الفزاري؟ فقال: كان فضيل رجل نفسه، وكان أبو إسحاق رجل عامة**»[٥]. وهذا الذي أفتىٰ به الإمام أحمد، قيل له: الرجل يصوم، ويصلي، ويعتكف أحب إليك أو يتكلم في أهل البدع؟ قال: إذا قام وصلىٰ واعتكف، فإنما هو لنفسه، وإذا تكلم في أهل البدع؟ فإنما هو للمسلمين وهذا أفضل»[٦].

واصطاد لنا ابن الجوزي من خاطره ما هو أوضح فقال: «**وعلىٰ الحقيقة الزهاد في مقام الخفافيش، قد دفنوا أنفسهم بالعزلة عن نفع الناس، وهي حالة حسنة إذا لم تمنع من خير: من جماعة واتباع جنازة، وعيادة مريض إلا أنها حالة الجبناء، فأما الشجعان، فهم يتعلمون ويعلمون، وهذه مقامات الأنبياء عليهم السلام**»[٧]. «**وهؤلاء يتساوون مع غيرهم في وقت النعم فإذا نزل البلاء تباينوا**»[٨]، وهم الذين يبحث عنهم عمر بن الخطاب رَضِوَاللَّهُعَنْهُ حين قال لجلسائه: «**تمنوا**»، فتمنىٰ كل واحد أمنيته، فقال عمر بن الخطاب:

(١) ترتيب المدارك وتقريب المسالك للقاضي عياض البستي ٣/ ٦٨.
(٢) وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان لأبي العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن خلكان ٣/ ١٣٤.
(٣) كيف ندعو الناس لعبد البديع صقر ص ١١١.
(٤) تذكرة الدعاة للخولي ص ١٧٣.
(٥) سير أعلام النبلاء ٨/ ٤٧٧.
(٦) مجموع الفتاوىٰ ـ لشيخ الإسلام أحمد بن تيمية ٢٨/ ٢٣١.
(٧) صيد الخاطر لأبي الفرج عبد الرحمن بن الجوزي ص ٢٢٤.
(٨) نفس المرجع ص ١٩٥.

«ولكني أتمنىٰ بيتًا مملوءًا رجالاً مثل أبي عبيدة وسالم مولىٰ أبي حذيفة، إن سالمًا كان شديدًا في ذات الله ولو لم يخف الله ما أطاعه»[(١)]. نعم: **«لابد من الرجال فمن استعان بصغار رجاله علىٰ كبار أعماله ضيع العمل»**[(٢)]، فالأعمال الكبار يطلب لها كبار الرجال، قال رجل لعبد الله بن عباس: **«أتيتك في حاجة صغيرة، قال: فاطلب لها رجلاً صغيرًا»**[(٣)].

*****

(١) تهذيب تاريخ دمشق لابن عساكر٨/ ١٦٤.
(٢) رسائل الثعالبي لعبد الملك بن محمد الثعالبي ص ٨١.
(٣) بهجة المجالس وأنس المجالس١/ ٣٢١.

٢ ـ القيادة (المفهوم والمعلوم):

هي ذلك السلوك الذي يقوم به شاغل مركز الخلافة، أثناء تفاعله مع غيره من أفراد الجماعة، فهي عملية سلوكية، وتفاعل اجتماعئ فيه نشاط موجه ومؤثر، علاوة علئ كونه مركزًا وقوة[١]، والقيادة قبل ذلك مسؤولية، نابعة من حديث الرسول ﷺ: «**كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته**»[٢]، فهي في مجملها تحمل مسؤولية تجاه الجماعة، كما قال عمر بن عبد العزيز: «**ألا إني لست بخيركم، ولكني رجل منكم، غير أن الله جعلني أثقلكم حملاً**»[٣]، فالقيادة ليست مغنمًا يتمتع به القائد، ويتلذذ بعبارات الثناء فيه بل هي عناء وتبعية، وقد ضرب لنا حسن البنا في ذلك مثلاً رائعًا بدار جمعية الشبان المسلمين بالقاهرة سنة ٨٣٩١م حين وقف حسن البنا يخطب، إذ تحمس أحد الإخوة من الطلاب فهتف بحياة حسن البنا ـ ومع أنه لم يردد الحاضرون هذا الهتاف ـ إلا أن فضيلته وقف صامتًا لا يتحرك برهةً، فاتجهت إليه الأنظار في تطلع ثم بدأ حديثه في غضب فقال:

أيها الإخوان إن اليوم الذي يهتف في دعوتنا بأشخاص لن يكون، ولن يأتي أبدًا، إن دعوتنا إسلامية، قامت علئ عقيدة التوحيد، فلن نحيد عنها.

«**أيها الإخوان، لا تنسوا في غمرة الحماس، الأصول التي آمنا وهتفنا بها «الرسول قدوتنا»** ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ٥٦﴾[٤]».

---

(١) ذكر الدكتور حامد رمضان بدر المدرس في جامعة الكويت تعاريف للقيادة في بحث له عن القيادة الإدارية ـ اتجاه إسلامي ـ فذكر العناصر الأساسية للقيادة في المفهوم الإسلامي وهئ:
أ ـ فرد يتمتع بصفات قيادية إسلامية يقود مجموعة من الأفراد.
ب ـ مجموعة من الأفراد يفهمون المنهج الإسلامي للحياة أو علئ الأقل عندهم الاستعداد للانصياع أو المساهمة في تطبيق المفاهيم الإسلامية للقيادة.
جـ ـ أن ذلك الفرد يؤثر علئ سلوك هؤلاء الأفراد بالأسلوب الإسلامي من أجل تحقيق أهداف محددة في ظل النظام الإسلامي ويهم أفراد المجموعة تحقيقها ص(١٤٨، ١٤٩).

(٢) أخرجه البخاري (٣٤٠٩)، ومسلم (١٨٢٩) عن ابن عمر رضي الله عنهما.

(٣) الطبقات الكبرئ لمحمد بن سعد (٥/ ٣٤٠).

(٤) الأحزاب: ٥٦.

وبهذا الموقف وضع الإمام الشهيد شباب الدعوة أمام صورة حية للمحافظة علىٰ جوهر الدعوة والاستمساك بها، وعدم التعلق بأشخاص، مهما تكن مراكزهم في مسيرة العمل الإسلامي.

وفي مدينة رشيد أقام الإخوان حفلاً بمناسبة ذكرىٰ الإسراء والمعراج علىٰ صاحبها أفضل الصلاة والسلام. وجاء أحد المتكلمين في الحفل، وقد كان من المتحمسين لنشر دعوة الإخوان، فقام متحدثًا إلىٰ الناس، فقال: «**إن مثلنا الآن من فضيلة الأستاذ المرشد ـ وهو يشير إليه ـ كمثل رسول الله ﷺ بين أصحابه**»، وما كاد الأستاذ المتحدث ينتهي من هذه العبارة، حتىٰ قفز الإمام الشهيد إلىٰ المنصة، ثم اتجه إلىٰ الناس قائلاً:

«**أيها الإخوان، معذرة إذا كان الأستاذ المتحدث قد خانه التعبير، فأين نحن من تلامذة رسول الله ﷺ**»، ثم نزل إلىٰ مكانه، ولم يستطع الأستاذ المتحدث إكمال الحديث كما بدأه. وفي اليوم التالي انقطع اتصاله بالإخوان في الإسكندرية وبعد مدة أعلن عن تكوين جمعية التقوىٰ والإرشاد، ونفسية الإمام هذه تستلزم من القائد الزهد بالدنيا.

قال عبد الله بن سلام لكعب: «**ما يُذهب العلم من صدور الرجال بعد أن علموه؟ قال: الطمع وطلب الحاجات من الناس**»[1].

قال أبو العتاهية:

من لم يسعه الكفاف معتدلاً ضاقت عليه الدنيا بما رحبت[2]

وصدق من قال:

«**من تحسىٰ مرقة السلطان أحرقت شفتاه ولو بعد حين**»[3].

والقائد بعد ذلك هو الذي يريد ثم يعمل، ويثير رغبة العمل في نفوس الآخرين مع توزيعه للجهد عليهم، مراعيًا بذلك حسن سير العمل باختيار المنفذين وتدريبهم ودعمهم ومراقبتهم.

---

(١) أخرجه ابن عساكر في تاريخ دمشق (٥٠/ ١٧١) عن ابن معن.
(٢) ديوان أبي العتاهية (٣٨) عن بهجة المجالس (١/ ٣٢٦).
(٣) الكامل في التاريخ (٩/ ٦٧) لابن الأثير، ومجمع الأمثال (٢/ ٣٢١، ٣٣٠)، للميداني.

وأهمية وجود القائد أمر لا يخفىٰ، فإن مجموعة من الرجال بدون رئيس مجموعة فاشلة، وخاصة إذا كانت مشكلة من عناصر ممتازة ذات مواهب. فكلما كانت شخصيات الرجال قوية، توجب وجود رئيس قادر علىٰ كسب احترامهم وتوحيدهم وتوجيه جهودهم نحو هدف دقيق مقبول من الجميع، وإلا تبعثرت القوىٰ، وساد اعتداء كل واحد علىٰ صلاحيات رفاقه، وانطلق كل فرد في اتجاه معاكس للآخرين، غير مهتم بمصالحهم وشعورهم واتجاهاتهم.

فالجماعة بدون رئيس كالجسم بدون رأس، فهي بدونه تتبدد قواها في اتجاهات مختلفة، فالأعمال الكبيرة تتطلب جمع الجهود المبعثرة(١).

*** مراحل النمو القيادي:**

من المعلوم أن الجماعة تنظيم ديناميكي دائم النمو بمختلف احتياجاته القيادية بحسب مراحل التطور، ويظهر ذلك من خلال ذكرنا للمراحل:

أ ـ مرحلة الطفولة:

وهذه التسمية لا علاقة لها بنضج الأفراد، بل المعول عليه العمر الزمني للبناء، وهي تخضع للتوجيه القيادي الأبوي الفردي.

ب ـ مرحلة البلوغ:

وفيها يظهر الصراع بين الرغبة في الاستقلال والخوف من الابتعاد عن حماية اليد الموجهة، وقد يحدث هنا الخلاف بين الجماعة والقائد.

جـ ـ مرحلة النضج:

والجماعة هنا تتصرف كتنظيم مستقل متكامل، تقوم بتحمل مسؤولية أعمالها.

هذه هي طبيعة النمو القيادي البشري، والتي يعمل القائد الناجح علىٰ تفهمها والسعي للوصول بجماعته إلىٰ مرحلة النضج(٢).

*** تقسيم أهل التصنيف للقيادة:**

---

(١) لمحات في فن القيادة بتصرف من صفحات متعددة.

(٢) السابق نفسه.

١ـ قيادة وظيفية:

فهي تنظيمية غايتها القيام بالوظائف الاجتماعية التي تحقق أهداف الجماعة، وعلىٰ هذا المفهوم، فالقيادة قد يمارسها عضو واحد أو أكثر من عضو من أعضاء الجماعة، حيث تقوم القيادة بـ: تحديد أهدافها، والتحرك لتحقيق هذه الأهداف، وما يلزم ذلك من تنسيق بين الأعضاء، وتوفير الموارد لهم، وحل مشكلاتهم الناشئة عن العمل.

٢ـ قيادة ظرفية موقفية:

فالقائد الذي يصلح لكي يقود المجتمع في حالة المهادنة، قد لا يصلح للقيادة في حالة المصادمة، فالصديق رضي الله عنه أقدر علىٰ القيادة من عمر بن الخطاب رضي الله عنه، في موقف تلقىٰ خبر وفاة النبي ﷺ حيث قال قولته المشهورة: «**من كان يعبد محمدًا، فإن محمدًا قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله، حي لا يموت**»(١).

وعمر بن الخطاب رضي الله عنه يعزل زياد بن أبي سفيان ويقول له: «**لم أعزلك لعجز أو لخيانة، ولكني كرهت أن أحمل فضل عقلك علىٰ الناس**»(٢).

٣ـ قيادة سماتية:

القيادة هي سمة بارزة يتميز بها القائد، وقد اختلفت المعايير في تحديد السمات القيادية من مجتمع لآخر، ومن خلال الأبحاث توصل العلماء إلىٰ خمسة أنواع للسمات القيادية: جسمية، معرفية، اجتماعية، تعاملية، انفعالية، ثم سمات عامة كحسن المظهر، والوفاء بالعهد، والقدوة الحسنة.

ولزوم هذه السمات يختلف من موقف لآخر، فطالوت القائد العسكرىٰ يحتاج إلىٰ قوة جسمية وإدارية، قال الله تعالىٰ عنه: ﴿وَزَادَهُۥ بَسۡطَةٗ فِي ٱلۡعِلۡمِ وَٱلۡجِسۡمِۖ﴾(٣)، وأمين الخزائن يوسف ـ عليه السلام ـ كان يحتاج إلىٰ الأمانة والقدرة علىٰ المسؤولية فقال الله

(١) أخرجه البخاري (١٢٤٢، ٣٦٦٨، ٤٤٥٤) عن ابن عباس وعائشة رضي الله عنهما.
(٢) ذكره ابن العربي في العواصم من القواصم ص (٢٥٥)، وقال: «هذه زيادة ليس لها أصل من ناقص عقل...».
(٣) البقرة: ٢٤٧.

حكاية عنه: ﴿ قَالَ ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾ ﴾[١].

وقوام هذه الصفات قولة أسامة بن زيد رضي الله عنه: «**لا رأى لمن لا يُطاع**»[٢].

وأن يكون قادرًا على سياسة نفسه، فإن قصر عن ذلك كان عن سياسة غيره أشد تقصيرا[٣]. وكلما اكتملت عناصر القوة فيه كملت عناصر قيادته، فالله ـ سبحانه وتعالى ـ أثنى على إبراهيم عليه السلام: ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ ﴾[٤]. الفرد والأمة هو الذي جمع صفات الكمال، من العلم والعمل، بحيث بقى فيها فردًا وحده، فهو جامع لصفات تفرقت في غيره[٥]، ففي ذاته وشخصه توجيه للغير، قال يونس بن عبيد: «**كان الرجل إذا نظر إلى الحسن انتفع به، وإن لم ير عمله، ولم يسمع كلامه**»[٦]. وقال الإمام مالك: «**كنت كلما أجد في قلبى قسوة آتي محمد بن المنكدر فأنظر إليه، فأتّعظ بنفسي أيامًا**»[٧].

ومجالسة هؤلاء القادة نضج للرأي وقوة في العمل، قال أبو موسى الأشعري رضي الله عنه: «**لمجلس كنت أُجالس فيه عبد الله بن مسعود أوثق في نفسي من عمل سنة**»[٨].

وعند إعادة النظر في خلاصة التصنيف الذي ذكرناه نرى: أنه لا يخرج عن المعنى الذي ذكرنا، من أنه إدارة عمل بطريقة ناجحة تحقق النتائج وتدرأ المفاسد، فالقيادة ظاهرة اجتماعية، ذات نشاط هادف، لا خيار للجماعة فيه«**إذا خرج ثلاثة في سفر فليؤمروا عليهم أحدهم**»[٩]. وهؤلاء الذين يمارسون القيادة تختلف أنماطهم القيادية وسلوكهم في إدارة الأفراد والتعامل معهم، وهذا السلوك في الغالب يحكم عليه

(١) يوسف:٥٥.
(٢) زاد المعاد في هدي خير العباد لابن قيم الجوزية ٣/ ٣٦١.
(٣) رسائل الثعالبي.
(٤) النحل: ١٢٠.
(٥) مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة لابن قيم الجوزية (٢/ ٣١).
(٦) رسالة المسترشدين لأبي عبد الله الحارث بن أسد المحاسبي، تحقيق: الشيخ عبد الفتاح أبو غدة ص٦٠.
(٧) نفس المرجع ص ٦١.
(٨) نفس المرجع ص٦٢.
(٩) أخرجه أبو داود (٢٦٠٨) عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، وقال الألباني: «حسن صحيح».

المرؤوسون، كما أن تعداد الأنماط القيادية المذكورة في كتب الإدارة لم توضع في سبيل الحصر بل من باب تقريب المفاهيم للأذهان[(١)]. وقد صور د. سيد الهواري عملية الإدارة برسم جميل بين فيه أركان العملية الإدارية: التنظيم، التخطيط، التوجيه، الرقابة.
نحن في هذا المبحث سنتحدث عن جزئية من هذا الموضوع الكبير، وهي: «**أساليب وطرق التنمية القيادية**» والطريق: هو السبيل والجمع طرائق وطرق وطرقات، وطريقة الشخص:سيرته وعادته، كما أن العرب تعتبر الطريقة الرجال الأشراف، ولذلك تقول للرجل الفاضل: هذه طريقة قومه، وتأويل هذا: الذي يبتغي أن يجعله قومه قدوة ويسلكوا طريقته ونحن هنا نجمع بين معاني اللغة للكلمة، فنريد، السبل، والطرق، والجادة، التي يسلكها السائر في هذه الحياة، ليكون سيرة حميدة، وشخصية فريدة، توجد منه قدوة عند قومه وبني جنسه[(٢)].

هذا، وقد بينت التجارب أن الإنسان الفاقد لنسبة كبيرة من الاستعداد الفطري للبروز القيادي، قد يحسن تكوينه قياديا إذا توفرت التربية القيادية ذات الطابع التركيزي والمحتوىٰ المنهجي والبرنامج التدريبي[(٣)].

وهذا أمر يجب الصبر عليه لتتم الاستفادة. قال عبد القادر الجيلاني: «**لا تهربوا من خشونة كلامي، فما رباني إلا الخشن في دين الله ـ عز وجل ـ ومن هرب مني ومن أمثالي لا يفلح**»[(٤)]، وعلىٰ ذلك فالقائد الحق هو الذي لا يتولىٰ بالشفاعة، فمن ولته الشفاعة عزلته الشفاعة[(٥)]، بل لابد من التربية والمعاناة، فمن لم تكن له بداية محرقة، لم تكن له نهاية مشرقة[(٦)].

---

(١) المدير الفعال دراسة تحليلية لأنماط المديرين، د. سيد الهواري بتصرف (٤٧ ـ ٥٠) والصورة صفحة (٥٠).
(٢) انظر مادة (طرق) في لسان العرب لابن منظور.
(٣) الدور القيادي في الإسلام ص١٧.
(٤) الفتح الرباني والفيض الرحماني ص٢٢.
(٥) من أقوال الإمام سحنون، ترتيب المدارك ١/ ٥٩٧.
(٦) المدخل إلىٰ دعوة الإخوان المسلمين لسعيد حوىٰ ص ٣٢٢.

فالجماعات التي تحرص علىٰ أن يمارس العضو فيها دوره القيادي تسعىٰ لإحياء الطاقات التي وهبها الله إياه، وبهذا يقول الأستاذ محمد قطب: «**إن طاقة الجهد المدخرة في كيان الإنسان وجدت لتبذل فإن لم تبذل تمرض، ويمرض معها الإنسان، وهذا البذل منضبط بالطاقة البشرية؛ لأن الله لا يكلف نفسًا إلا وسعها**»(١).

ويراعىٰ في ذلك ألا يتصدر المتدرب للقيادة إلا بعد اكتماله ونموه قال الإمام الشافعي: «**إذا تصدر الحدث فاته علم كثير**»(٢)، وقيل: «**من تصدر قبل أوانه، فقد تصدىٰ لهوانه**»(٣).

وعن الأحنف قال: قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «**تفقهوا قبل أن تسودوا**»(٤).

والتربية القيادية تحتاج إلىٰ صبر من المربي. وإلا فاته شيء كثير، فهذا أبو جعفر الطحاوي يقص علينا أنه كان يقرأ علىٰ المزني، فقال له يومًا: «**والله لا أفلحت**»، فغضب وانتقل من عنده، وتفقه علىٰ مذهب أبي حنيفة وصار إمامًا، فكان إذا درس أو أجاب في المشكلات يقول: «**رحم الله أبا إبراهيم لو كان حيا، ورآني كفر عن يمينه**»(٥).

*****

---

(١) منهج التربية الإسلامية للأستاذ محمد قطب، ٢/ ٢١٣، ٢١٤ بتصرف.
(٢) سيرة الإمام الشافعي لعبد الغني الدقر ص ٣٤١.
(٣) شذرات الذهب في أخبار من ذهب لابن العماد الحنبلي ٣/ ١٧٣.
(٤) أخرجه البخاري فوق حديث (٧٣) تعليقًا مجزومًا به من قول عمر، ووصله الدارمي في سننه عنه (٢٥٠)، وصحح إسناده الحافظ ابن حجر في فتح الباري (١/ ١٦٦).
(٥) معجم السفر للحافظ أحمد بن محمد الأصفهاني السلفي ـ تحقيق: د. بهجة ص ١١٨.

أساليب وطرق التنمية القيادية
الأسلوب الأول
تنمي البداه والمبادرة وأخذ القرار

مما كان يوصف به إسحاق بن محمد بن يعقوب أنه«**لا يطاق شجاعة وإقدامًا وصبرًا**، «**يرتجل الخطبة والمقالة البديهة في الساعة الراهنة**»[١]، فالبداهة من مستلزمات القيادة للتدرب علىٰ تحليل الأشياء بهدوء، ومدارستها باهتمام لعمل موازنة بين المحاسن والمساوئ، قبل اتخاذ القرار وهو نوع من التدبير بحيث يجعل لكل سؤال جوابًا، مما ينمي حاسة الصواب الكامنة في كيانه وبهذا يكون دائمًا علىٰ أهبة الاستعداد للعمل، فالحياة عبارة عن مجموعة قرارات صغيرة، فمن أحسن اتخاذها في حياته اليومية استطاع في اللحظة الحرجة اتخاذ القرار الحاسم الدقيق.

والمبادرة تكون في انتهاز الفرصة في وقتها ولا يتركها حتىٰ إذا فاتت طلبها، فهو لا يطلب الأمور في أدبارها، ولا قبل وقتها بل إذا حضر وقتها بادر إليها، ووثب عليها وثوب الأسد علىٰ فريسته، فهو بمنزلة من يبادر إلىٰ أخذ الثمرة وقت كمال نضجها وإدراكها، فإن لم يحطم المتاعب حطمته. قال ابن هبيرة البغدادي: «**لولا الظلم الجائر ما حصلت الشهادة للشهيد، ولولا أهل المعاصي ما بلغت بلوىٰ الصابر في الأمر بالمعروف، ولو كان المجرمون ضعفاء لقهروا، فلم يحصل ذلك المعنىٰ**»[٢].

فإذا ما حطت الملمات ولم يستطع القائد الرجوع لجماعته بادر إلىٰ قياس الأمور علىٰ الأصول التي يعرفها واستقرت عنده، وبهذا ستنمو روح المرونة والجرأة عنده كما يقول أندريه موروا: «**إن حدود الأشياء الممكنة مرنة، تزيد أو تنقص بحسب مواهب المنفذين وبداهتهم**»[٣].

وبسرعة البداهة واختيار العبارة، قال ابن الجوزي يعظ المستضيء: «**يا أمير**

---

(١) البداية والنهاية للحافظ عماد الدين أبي الفدا إسماعيل بن كثير ١١/ ٢٢٦.
(٢) الإفصاح عن معاني الصحاح ـ للوزير عون الله أبىٰ المظفر يحيىٰ بن محمد بن هبيرة ١/ ٣٥.
(٣) لمحات في فن القيادة ـ ج كورتوا، ترتيب: المقدم هيثم الأيوبي ص٤٥.

المؤمنين، إن تكلمت خفت منك، وإن سكت خفت عليك، وإن قول القائل لك: اتق الله، خير لك من قوله لكم: إنكم أهل بيت مغفور لكم»[١].

أما المبادرة فهي انتهاز الفرصة في وقتها وعدم تركها، فالقائد حتىٰ يحقق القيادة في نفسه لابد أن يستشعر المسؤولية، فهذا سفيان الثوري ـ رحمه الله ـ يقول: «**إني لأرىٰ الشيء يجب عليّ أن آمر فيه وأنهي فأبول دما**»[٢].

فالقائد مهتم بالعمل الإصلاحي علىٰ الدوام، كما عبر إبراهيم بن عبد الله بن حسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب بقوله: «**كل فكر في غير صلاح سهو، وكل كلامٍ في غير رضي الله لغو**»[٣].

كما يحسن من القائد تحديد واختيار الطريق، فهذه من بدايات النجاح التي ستساعده علىٰ عملية التنفيذ، فرجل ينفذ أفكاره القليلة بهمة ورغبة لأفضل ممن امتلأ رأسه بالأفكار وعجزت يداه عن تنفيذها، فهو يعرف ما يريد، ويقوم بالتنفيذ، فتكون طاعته عن رغبة لا رهبة، فيستطيع أن يستخدم كلمتي«**نعم**» و«**لا**» في الوقت المناسب، «**فالناس حازمان وعاجز: فأحد الحازمين الذي إذا نزل به البلاء لم ينظر به وتلقاه بحيلته ورأيه حتىٰ يخرج منه، وأحزم منه العارف بالأمر إذا أقبل فيدفعه قبل وقوعه، والعاجز في تردد وتثنٍ حائر بائر لا يأتمر رشدًا ولا يطيع مرشدًا**»[٤]، فالذي لا يقرر في الوقت المناسب من الممكن أن يكون عالمًا كبيرًا، ولكن لا يكون قائدًا ناجحًا، فالقائد كلماته محدودة، ونظمه محدد، قال سلمة بن علقمة: «**جالست يونس بن عبيد ـ تابعي ثقة ـ فما استطعت أن آخذ عليه كلمة واحدة**»[٥].

وقد كان سلفنا مثالاً ناجحا في الرد السريع واختيار العبارة، فهذا الخليفة العباسي

---

(١) البداية والنهاية ١٣/ ٢٩.

(٢) الإمام سفيان الثوري للدكتور محمد أبو الفتح البيانوني ص ١٥٩.

(٣) الوافي بالوفيات، لصلاح الدين خليل بن أيبك ٦/ ٣٢.

(٤) عيون الأخبار، لأبي مسلم محمد بن قتيبة الدينوري ١/ ٢٨٠.

(٥) تهذيب التهذيب ١١/ ٤٤٤.

هارون الرشيد رحمه الله يلعب بالصوالج[١] فيقول لزيد بن مزيد الشيباني: كن مع عيسىٰ - أي: في مجال اللعبة الحربية والمبارزة - فيأبىٰ عن ذلك، فيقول الرشيد: أتأنف ويحك أن تكون معه؟ فيرد الشيباني: يا أمير المؤمنين، إني حلفت يمينًا ألا أكون علىٰ أمير المؤمنين في جدٍّ ولا هزل!! وهذا المأمون يسأل يحيىٰ بن المبارك عن شيء فيقول: «**لا، وجعلني الله فداك يا أمير المؤمنين**»، فيقول المأمون: «**لله درك، ما وضعت واو قط موضعًا أحسن من موضعها في لفظك هذا**»[٢].

وفي الحكمة النبوية في قصة حكم سيدنا داود وسيدنا سليمان - عليهما السلام - دليل كذلك، قال الله تعالىٰ: ﴿ وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿٧٩﴾ ﴾[٣].

قال ابن مسعود في تفسير هذه الآية: «**كرم قد أنبتت عناقيد فأفسدته الغنم، فقضىٰ داود بالغنم لصاحب الكرم، فقال سليمان: غير هذا يا نبي الله. قال: وما ذاك؟ قال: تدفع الكرم لصاحب الغنم فيقوم عليه حتىٰ يعود كما كان، وتدفع الغنم إلىٰ صاحب الكرم، فيصيب منها حتىٰ إذا كان الكرم كما كان دفعت الكرم إلىٰ صاحبه ودفعت الغنم إلىٰ صاحبها، فذلك قوله: ﴿ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ﴾**».

وقيل لأعرابي: «**أين منزلك؟ قال: بحيث ينزل الغيث**»[٤]. وفي حسن الأدب في الطلب قال محمد بن واسع لقتيبة بن مسلم: إني أتيتك في حاجة رفعتها إلىٰ الله قبلك، فإن أذن الله فيها قضيتها وحمدناك، وإن لم يأذن الله فيها لم تقضها وعذرناك»[٥].

وسأل ابن الزبير معاوية حاجة، فلم يقضها، فاستعان عليه بمولاة له فقضىٰ حاجته، فقال له

(١) الصولج: من أدوات الحرب والقتال.
(٢) تاريخ بغداد للحافظ أبي بكر أحمد بن علىٰ الخطيب البغدادي ١٤/ ١٤٨.
(٣) الأنبياء: ٧٨، ٧٩.
(٤) بهجة المجالس ١/ ١٠٠.
(٥) نفس المرجع ١/ ٣١٩.

الرجل: «**استعنت بامرأة!**» فقال: «**إذا أعيت الأمور عن أعاليها طلبناها من أسافلها**»[(١)].

والتصرف السريع ليس في القول فقط بل بالفعل، قال الهيثم بن جميل:

«**جاء فضيل بن مرزوق ـ من أئمة الهدىٰ زهدًا وفضلاً ـ إلىٰ الحسن بن حي، فأخبره أنه ليس عنده شيء فقام الحسن فأخرج ستة دراهم، وأخبره أنه ليس عنده غيرها، فقال: سبحان الله ليس عندك غيرها وأنا آخذها، فأخذ ثلاثة وترك ثلاثة**»[(٢)].

ومن جميل ما قيل في الرد الجميل أن زوجًا قال لزوجته:

إن النساء شياطين خلقن لنا نعوذ بالله من شر الشياطين

فأجابته الزوجة:

إن النساء رياحين خلقن لكم وكلكم يشتهي شمَّ الرياحين

وعن معمر بن راشد، قال: «**إن رجلاً كان يسير مع طاوس فسمع الرجل غرابًا ينعب فقال: خير، فقال طاوس: أي خير عند هذا أو شر لا تصحبني ولا تمش معي**»[(٣)]، وقال له رجل مرة: «**ادع لي، قال ـ أي طاوس: ادع لنفسك، فإنه يجيب المضطر إذا دعاه**»[(٤)].

وقال رجل للحسن البصري: «**مات فلان فجأة، فقال: لو لم يمت فجأة لمرض فجأة ثم مات**»[(٥)]. وقال رجل للأحنف بن قيس: «**أخبرني الثقة عنك بسوء**»، فقال الأحنف: «**الثقة لا ينم**»[(٦)]. وفي مجلس وجد عمر بن الخطاب من بعض جلسائه رائحة، فقال: «**عزمت علىٰ صاحب هذه الريح إلا قام فتوضأ**»، فقال جرير بن عبد الله البجلي: «**اعزم علينا كلنا فلنقم، فعزم عليهم**»، ثم قال: «**يا جرير، ما زلت شريفًا في الجاهلية والإسلام**»[(٧)].

---

(١) نفس المرجع ١/ ٢٢٢.
(٢) ميزان الاعتدال للإمام الذهبي، تحقيق: علي محمد البجاوي ٣/ ٣٦٢.
(٣) البداية والنهاية ٩/ ٢٤١.
(٤) المرجع السابق ٩/ ٢٣٩.
(٥) العقد الفريد لأبىٰ عمر أحمد بن محمد بن عبد ربه، تحقيق أحمد أمين وآخرين ٣/ ١٨٦.
(٦) وفيات الأعيان ٢/ ٥٠٦.
(٧) شذرات الذهب ١/ ٥٨.

وقام رجل إلىٰ ابن الجوزي فقال: «**يا سيدي نريد كلمة ننقلها عنك، أيهما أفضل أبو بكر أو عليّ؟ فقال له: اقعد، ثم قام فأعاد مسألته فأقعده ثم قام فقال: اقعد، فأنت أفضل من كل رجل - يعني فضولي**»[١].

ودخل عبد العزيز بن يحيىٰ المكي علىٰ المأمون، وكانت خلقته شُنْعة[٢] جدا، فضحك المعتصم، فأقبل عبد العزيز علىٰ المأمون وقال: يا أمير المؤمنين لم ضحك هذا؟ لم يصطف الله يوسف لجماله، وإنما اصطفاه لدينه وبيانه، وقد قص ذلك في كتابه بقوله تعالىٰ: ﴿ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾ ﴾[٣]، ولم يقل لما رأىٰ جماله، فبياني يا أمير المؤمنين أحسن من وجهي هذا، فضحك المأمون وأعجبه قوله[٤].

وكتب رجل إلىٰ طاهر بن الحسين بن مصعب قائد المأمون رقعة يسأله فيها فوقَّع له عليها: «**ما شاء الله كان، فوقَّع الرجل في أسفلها: إن الله شاء المعروف**» فلما قرأها طاهر وصله[٥]. وقدم وكيع بن الجراح بن مليح الحافظ مكة، وكان سمينًا فقال له الفضيل بن عياض: ما هذا السمن وأنت راهب العراق؟ فقال: هذا من فرحي بالإسلام»[٦]. ونختم هذه اللطائف في حسن الرد وبداهته في الحوار الذي تم بين عمر بن عبد العزيز والفقيه الكبير سالم السدي قال عمر: «**أسرك ما وليت أم ساءك؟**» فقال السدي: «**سرني للناس وساءني لك**»[٧].

*****

(١) تذكرة الحفاظ للذهبي، صححه عبد الرحمن المعلمي ٤/ ٤٠٤.
(٢) شنعة: قبيحة (اللسان).
(٣) يوسف: ٥٤.
(٤) تاريخ بغداد ١٠/ ٤٥.
(٥) البصائر والذخائر ١/ ٢٧.
(٦) طبقات المفسرين للحافظ شمس الدين محمد بن علىٰ بن أحمد الداودي، تحقيق: علىٰ محمد عمر ٢/ ٣٥٩
(٧) البصائر والذخائر لأبي حيان علىٰ بن محمد بن العباس التوحيدي، تحقيق: إبراهيم الكيلاني ٤/ ١٨٨.

الأسلوب الثاني
تنمية فعالية التنفيذ فيمن يكونون معه

إن الأوامر الصادرة من القائد إما أن تكون أوامر ذاتية منه، أو أوامر تنفيذ من الأعلىٰ، والثانية هي التي تنقل القرار إلىٰ حيز التنفيذ، وقد تكون مليئة بالمتاعب، فيستلزم حينئذ اعتبار المتاعب من جملة عناصر الفعالية، فينقلها القائد بنفس قوية، لا تفقدها الانفعالات والاضطرابات توازنها، فالأعمال القيادية في الغالب مقرونة بالأخطار، والقائد يحاول تخفيف آثارها بالقدر الذي يستطيع.

وفي هذا يقول الأستاذ عباس السيسي عن جولته مع الإمام حسن البنا: كنا نعود من جولة داخل مدينة الإسكندرية...فقلت لفضيلته: أنا غاضب وحزين يا فضيلة المرشد..أليس من أهدافنا تحرير الوطن الإسلامي من كل سلطان أجنبي؟ قال: نعم. قلت: فكيف إذا علمت أن روسيا الشيوعية قد اقتحمت دولة ألبانيا المسلمة...وبهذا بدل أن نحرر وطننا من الاستعمار فقد ضاع منا وطن آخر!! قال: وهل أنت متألم إلىٰ هذا الحد؟ قلت: جدا، قال: وهذا هو المطلوب. قلت: وكيف ذلك؟ قال: لو أن كل المسلمين تألموا مثلك نكون قد بدأنا الطريق، فنحن أولاً في حاجة إلىٰ يقظة وصحوة، فالجسم الميت لا يشعر بالألم، فعلمت أن عودة الوعىٰ هو بداية الطريقة في نهوض هذه الأمة[(١)].

وعلىٰ القائد أن يعتبر الأخطار حواجز استثنائية تتطلب جهودًا استثنائية تقارنها إدارة قوية، وملاك هذا الأمر هو ضبط النفس للعمل علىٰ مجاوزة الرغبات الشخصية والغايات الخاصة، كما كان الإمام أحمد، قال أبو محمد فوزان: جاء رجل إلىٰ الإمام أحمد بن حنبل فقال له: نكتب عن محمد بن منصور الطوسي؟ فقال له: إذا لم تكتب عن محمد بن منصور فعمن يكون ذلك؟ فقال له الرجل: إنه يتكلم فيك. فقال أحمد:

---

(١) حسن البنا مواقف في الدعوة والتربية، لعباس السيسي ص ٧٩.

رجل صالح ابتلي فينا، فما العمل؟[١].

وهذا كان دأب السلف رضوان الله عليهم، قال أبو قلابة الجرمي: إذا بلغك عن أخيك شيء تكرهه فالتمس له عذرًا جهدك، فإن لم تجد له عذرًا فقل: لعل لأخي عذرًا لا أعلمه[٢]، وهذا قاضي القضاة أبو عثمان أحمد بن إبراهيم بن حماد بن إسحاق البغدادي المالكي يضرب لنا في ذلك مثلاً رائعًا، حيث إنه رحمه الله كان يتردد إلىٰ الإمام أبي جعفر الطحاوي الحنفي ليسمع منه تصانيفه، واتفق مجيء شخص لاستفتاء الطحاوي عن مسألة والقاضي عنده، فقال له الطحاوي: مذهب القاضي أيده الله كذا وكذا، فقال له السائل: ما جئت إلىٰ القاضي إنما جئت إليك. فقال: هذا هو كما قلت، فأعاد السائل، فقال له القاضي: أفته أيدك الله برأيك، فقال الطحاوي: إذن حيث أذن القاضي أيده الله أفتيته، ثم أفتاه[٣].

وعن عبد الرحمن بن عمر الأصبهاني قال: «**كنا في مجلس عبد الرحمن بن مهدي، إذ دخل عليه شاب، فما زال يدنيه حتىٰ أجلسه إلىٰ جنبه قال: فقام شيخ من المجلس فقال: يا أبا سعيد، إن هذا الشاب يتكلم فيك حتىٰ إنه ليكذبك، فقال عبد الرحمن: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم....قال تعالىٰ:** ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾﴾[٤]»[٥].

فالقائد منضبط في تعبيراته عن الفرح والحزن والشجاعة، وبهذا يقول الإمام حسن البنا رحمه الله: «**ألجموا نزوات العواطف بنظرات العقول. وأنيروا أشعة العقول بلهب العواطف. وألزموا الخيال صدق الحقيقة والواقع**»[٦].

(١) طبقات الحنابلة ـ للقاضىٰ أبىٰ الحسين بن أبي يعلىٰ ١/ ٩٦.
(٢) البداية والنهاية ٩/ ٢٣١.
(٣) ذيل التبر المسبوك لمحمد بن عبد الرحمن بن محمد بن أبي بكر السخاوي ١٦، ١٧.
(٤) فصلت: ٣٤، ٣٥.
(٥) تبيين كذب المفتري فيما نسب إلىٰ الإمام أبي الحسن الأشعري لأبي القاسم علىٰ بن حسن بن عساكر ص٤٢٢.
(٦) مجموعة رسائل الإمام حسن البنا ٢٥٧، رسالة المؤتمر الخامس.

ويقول محمد بن إبراهيم بن مصعب وهو يومئذ على الشرط للمعتصم خليفة إسحاق ابن إبراهيم: ما رأيت أحدًا لم يداخل السلطان ولا خالط الملوك أثبت قلبًا من أحمد بن حنبل يومئذ، ما نحن في عينه إلا كأمثال الذباب(١).

فالطبيعة التنفيذية تمثل اندفاع الإنسان الذاتي الناشئ عن الاستقرار الإيماني في قلبه لتكييف الواقع الذي من حوله، وتغييره وتبديله إن لزم، لكي يطابق الواقع الإيماني في حسه، فهذا يونس بن عبيد البصري التابعي الجليل ينظر إلى قدميه عند موته فيبكي ويقال له: ما يبكيك فيقول: قدماي لم تغبّر في سبيل الله.

كان يقول لائمًا نفسه: «**هان عليّ أن آخذ ناقصًا وغلبني أن أعطي راجحًا**»(٢).

وكان رضوان الله عليهم لا يمنعهم مانع من التبليغ، فهذا الحسن البصري يمشي في جنازة وفيها نوائح وكان معه رجل فهم بالرجوع فقال له الحسن: أخي إن كنت كلما رأيت قبيحًا تركت له حسنًا أسرع ذلك في دينك(٣).

وهذه الطبيعة يعرفها القائد من خلال مظاهرها والتي منها:

١ـ التلقى للتنفيذ لا التلقى للمعرفة:

فهو تلقٍّ عقائدي يعطي تصورًا شاملاً عن الوجود والحياة وعن الحقائق الكبرى في الوجود، وعن علاقاتها ببعضها البعض، ومن ثم تدفع إلى حركة واضحة المعالم والغايات بنية الدوافع والحوافز، وقصة الاستجابة لتحريم نداء الخمر فيما ذكره أنس ابن مالك في مسند أحمد دليل واضح، وحادثة تحويل القبلة في مسجد القبلتين دليل أكثر وضوحًا.

٢ـ أن يجد العامل الراحة والسعادة في العمل والبذل والعطاء:

وهذه الطبيعة التنفيذية تكتسب من خلال:

(١) مناقب الإمام أحمد بن حنبل لأبى الفرج عبد الرحمن بن الجوزي ص ٣٢٩.
(٢) تهذيب التهذيب ١١/ ٤٤٤، وهو ثقة توفي سنة ١٤٠ هـ، قال عنه ابن حبان: وهو من سادات زمانه علمًا وفضلاً وحفظًا وإتقانًا.
(٣) وفيات الأعيان ٢/ ٧٠.

أ ـ الفهم الشامل للإسلام الذي منه:

١ـ أن عملية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجب شرعي، فالقائد كامل في نفسه مكمل لغيره[(١)].

٢ـ أن هذا الدين لا يقوم ولا ينتشر إلا بالجهد البشري بعد توفيق الله عز وجل، قال أبو المعالي الجويني: أنا لا أنام، ولا آكل عادة، وإنما أنام إذا غلبني النوم ليلاً أو نهارًا، وآكل إذا اشتهيت الطعام في أي وقت كان.

٣ـ إن رسالة المسلم في الحياة هي:

أ ـ العبادة الخالصة لله ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ ﴾[(٢)].

ب ـ الإيمان العميق والحماسة الفياضة، والتقوى والورع، والإخلاص والتجرد التي بمجموعها تعبر عن تغلغل العقيدة.

جـ ـ التفكر الدائم بخلق الله وعظمته سبحانه.

د ـ حب الدعوة والغيرة عليها، فالحب يورث شدة الولاء، ويبعث إلى العمل والاجتهاد.

هـ ـ دوام التفكير بالغاية، قال عامر بن ضبارة: ما من امرئ على ظهر الأرض لا يخاف على إيمانه أن يذهب إلا ذهب[(٣)].

وهذه الطبيعة بعد ذلك تعطيك الثمرات المرجوة من:

١ـ اتساع الفقه بالدعوة والرسوخ فيها.

٢ـ تطهير النفس من العيوب وتخليصها من رواسب الجاهلية.

٣ـ زيادة الإيمان واليقين.

٤ـ تقريب النصر وتحقيق الفوز.

---

(١) مفتاح دار السعادة ١/ ٨٠.

(٢) الأنعام: ١٦٢.

(٣) تهذيب ابن عساكر ٧/ ٢٠٨.

وقد يقول بعض من تهيأ للقيادة: وما له وكل هذا، فنقول له: ما لنا وما لك، إنك تريد أن تكون قائدًا، فوصفنا لك بعض الأعباء، فإن رأيتها فوق طاقتك فأت منها ما استطعت، وإلا فإن الله قد عذر أمثالك، فالزم صفوف الضعفاء، واتق الله في هذ الصف(١).

فإن قلتم: تكليف ثقيل وخطة شاقة! وثمن مرهق باهظ! قلنا: لابد من ذلك فالرسالة أثقل والمهمة أخطر والبضاعة أربح، والمنزلة سامية، ورضوان الله سبحانه وتعالىٰ أسمىٰ وأكبر(٢).

ومما يساعد علىٰ تنمية الفاعلية:

١ـ ضرب المثال:

يذكر أحمد بن عمار الأسدي أنه خرج مع معلمه في جنازة ومعه جماعة من أصحابه فرأىٰ في طريقه كلابًا مجتمعات بعضها يلعب مع بعض، ويتمرغ عليه ويلحسه، فالتفت إلىٰ أصحابه فقال: انظروا إلىٰ هذه الكلاب ما أحسن أخلاق بعضها مع بعض، فقال أحمد بن عمار: ثم عدنا من الجنازة، وقد طرحت جيفة وتلك الكلاب مجتمعة عليها يتهارش بعضها مع بعض، يخطف هذا من هذا ويعوي عليه، وهي تتقاتل علىٰ تلك الجيفة، فالتفت المعلم فقال: قد رأيتم يا أصحابنا متىٰ لم تكن الدنيا بينكم، فأنتم إخوان، ومتىٰ وقعت الدنيا بينكم تهارشتم عليها تهارش الكلاب علىٰ الجيفة(٣).

٢ـ بيان مكانة المقابل وأهميته:

قال الشعبي: عن عديي بن حاتم قال: أتيت عمر بن الخطاب ﵁ في أناس من قومي، فجعل يفرض للرجل من طيئ في الفيء ويعرض عنىٰ فاستقبلته فقلت: يا أمير المؤمنين أتعرفني؟ قال: فضحك حتىٰ استلقىٰ لقفاه، وقال: نعم، والله إني أعرفك... آمنت إذ كفروا، وعرفت إذ أنكروا، ووفيت إذ غدروا، وأقبلت إذ أدبروا، وإن أول صدقة بيضت وجه رسول الله ﷺ ووجوه أصحابه، صدقة طيئ جئت بها إلىٰ رسول الله ﷺ، ثم

(١) تذكرة الدعاة للبهي الخولي ص١٧٣.
(٢) المرجع السابق ص ١٧٩.
(٣) تهذيب تاريخ دمشق ١/ ٤١٤.

أخذ يعتذر[١].

وقال يوسف بن الماجشون: قال الزهري: تعلموا يا شباب ولا تحقروا أنفسكم! قال يوسف بن الماجشون: قال لنا ابن شهاب ـ أنا وابن أخي وابن عم لي ونحن غلمان أحداث نسأله عن الحديث: لا تحقروا أنفسكم لحداثة أسنانكم، فإن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان إذا نزل به الأمر المعضل دعا الشباب، فاستشارهم، يبتغي حدة عقولهم[٢]، وكان سعيد بن المسيب إذا مر بالمكتب، قال للصبيان: هؤلاء الناس بعدنا[٣]، وهذا الحسن البصري يحدث أنه مر في بعض حيطان المدينة فرأىٰ أسود بيده رغيف يأكل لقمة ويطعم الكلب لقمة إلىٰ أن شاطره الرغيف، فقال له الحسن: ما حملك علىٰ أن شاطرته؟ فلم تغابنه فيه بشيء، فقال: استحت عيناي من عينه أن أغابنه، فقال له الحسن: أقسمت عليك لا برحت حتىٰ أعود إليك، فمر فاشترىٰ الغلام والحائط، وجاء إلىٰ الغلام فقال: يا غلام قد اشتريتك، فقام قائمًا، فقال: السمع والطاعة لله ولرسوله ولك يا مولاي، قال: وقد اشتريت الحائط، وأنت حر لوجه الله تعالىٰ، والحائط هبة مني إليك، فقام الغلام: يا مولاي، قد وهبت الحائط للذي وهبتني له[٤].

قال أنس بن مالك: إن رجلاً من أهل البادية كان اسمه زاهرًا وكان رسول الله ﷺ يحبه، وكان رجلاً دميمًا، فأتاه يومًا وهو يبيع متاعه فاحتضنه من خلفه ولا يبصره الرجل، فقال: أرسلني من هذا؟ فالتفت فعرف النبي ﷺ فجعل لا يألو ما ألصق ظهره بصدر النبي ﷺ حين عرفه، وجعل النبي ﷺ يقول: «**من يشتري العبد؟**» فقال: يا رسول الله، إذن والله تجدني كاسدًا، فقال ﷺ: «**لكن عند الله لست كاسدًا**»[٥].

وكان الإمام أحمد إذا بلغه من شخص صلاح أو زهد أو قيام بحق أو اتباع للأمر،

---

(١) تهذيب التهذيب ٧/ ١٦٦.

(٢) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، للحافظ أبي نعيم أحمد بن عبد الله الأصبهاني ٣/ ٣٦٤.

(٣) سير أعلام النبلاء ٤/ ٤٤٤.

(٤) معجم الأدباء لياقوت الحموي ١/ ١٢٠.

(٥) أخرجه أحمد (٣/ ١٦١)، وأبو يعلىٰ في مسنده (٣٤٥٦) عن أنس، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٩/ ٣٦٨، ٣٦٩): «رواه أحمد وأبو يعلىٰ والبزار ورجال أحمد رجال الصحيح».

سأل عنه وأحب أن يجري بينه وبينه معرفة، وأحب أن يعرف أحواله[١].

* وهناك ملاحظة وهي أن ثم فرق بين المدير الفعال والمدير الناجح، فالناجح هو الذي يحظىٰ بموافقة رئيسه وعدم شكوىٰ مرؤوسيه، وإن لم يكن مرؤوسوه الذين نفذوا الأمر يريدون أن يفعلوا ما أمرهم، لكن لو طلب مدير من مرؤوسيه أن ينفذوا أشياء معينة، ونفذوها لأنهم يريدون أن ينفذوها؛ لكونها تحقق أهدافهم أيضًا فإن ذلك المدير يكون ناجحًا وفعالاً أيضًا، فعلىٰ هذا، فالمدير الناجح هو الذي يستخدم السلطة بحكم منصبه، أما المدير الفعال، فهو الذي يعتمد علىٰ سلطته الشخصية بالإضافة إلىٰ سلطته الزمنية[٢].

كما أنه له القدرة علىٰ التكيف مع عناصر الموقف ـ متطلبات العمل، توقعات الرئيس، توقعات الزملاء، توقعات المرؤوسين، والمناخ العام السائد في محل العمل[٣] فيستطيع بذلك أن يعطي اهتمامًا كبيرًا للعمل واهتمامًا كبيرًا للأفراد.

*****

(١) مناقب الإمام أحمد ص ٢٨.
(٢) المدير الفعال ص ٥١، ٥٢ بتصرف.
(٣) نفس المرجع ص ١٧١.

الأسلوب الثالث
الاهتمام بالسنن الكونية الشرعية

إن القادة يمكنهم باستخدام السنن المتعلقة بتغيير النفس أن يرفعوا أو يخفضوا من مستوىٰ أدائهم أو أداء من معهم، ليوجدوا الفعالية المطلوبة التي تأخذ بالعمل إلىٰ الأمام، وبهذا كانت اللفتة القرآنية ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾ ﴾[1].

فصاحب الفعالية تجده يستفيد من الوسائل المتاحة له من خلال الاستفادة من وقته أو ماله بل حتىٰ من قلمه الذي يكتب به ومن حذائه الذي يلبسه، فهذا أحمد بن رشيد الأندلسي يقول: «**إنما غضبي في نعلي إذا سمعت ما أكره أخذتهما ومضيت**»[2]، وعلىٰ هذا فيجب علىٰ المسلم أن ينبعث من حدود دينه وفضائله، لا من حدود نفسه وشهواته حتىٰ إذا سل سيفه سله بقانون وإذا أغمده أغمده بقانون: «**وأن يكون جميعًا في واجبات القلب ما هو في واجبات العقل**»[3].

فعلىٰ سبيل المثال: الزمن بالنسبة لكل إنسان واحد، ولكن بالنسبة للإنسان الفعال زمن تتولد فيه حقيقة من حقائق، ولحظات تنبض بالحيوية، فالفعالية هي استخلاص أحسن النتائج من الوسائل المتاحة للإنسان، وبهذا يقول الإمام حسن البنا رحمه الله: «**لا تصادموا نواميس الكون فإنها غلابة، ولكن غالبوها واستخدموها وحولوا تيارها واستعينوا ببعضها علىٰ بعض، ترقبوا ساعة النصر، وما هي منكم ببعيد**»[4].

«**وما حدث مرة يمكن أن يحدث مرة أخرىٰ، فقد حدث ما حدث وفق سنة جارية، لا وفق معجزة خارقة، وقد قام ذلك البناء علىٰ رصيد الفطرة المدخر لكل من يستنقذ هذا**

(١) النحل: ٧٦.
(٢) معجم الأدباء ٣/ ٣٤.
(٣) وحيٰ القلم لمصطفي صادق الرافعي ٢٠.
(٤) الإمام حسن البنا يتحدث إلىٰ الشباب للإمام حسن البنا ص ٩.

الرصيد، ويوجهه ويطلقه في اتجاهه الصحيح»[١].

وحتىٰ يتم هذا لابد من توفير الشروط الآتية:

الشرط الأول: استخدام العقل للاستفادة من:

أ ـ النظر في النفس. ب ـ النظر في الكون.

﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾[٢].

فالنفس قابلة للتزكية وضدها، وصاحبها قد يكون في «**أحسن تقويم**» أو «**أسفل سافلين**»، وهذه القابلية هي التي تسمىٰ بما هو «**كائن بالقوة**» لذلك قيل:

١ ـ مثل أعلىٰ صحيح + طريقة في البناء صحيحة = حياة صحيحة ﴿ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ﴾[٣].

حياة طيبة علىٰ الحقيقة لا علىٰ الوهم الذي يعيشه أصحاب الماديات، فهذا أبو حازم يمر بالجزارين فيقولون له: يا أبا حازم هذا لحم سمين فاشتر، فيقول: ليس عندي ثمنه فيقول: نؤخرك فيقول: أنا أؤخر نفسي[٤]. فالنظر والتفكير قبل الكلام والعمل من صفات القائد، فكل كلمة لم يتقدمها نظر، فالكلام فيها خطر، وإن كانت من أسباب النظر[٥]، وبهذا قال الإمام حسن البنا: «**لا تأخذوا ببادئ الرأي ومبهم القول ولا تجاروا العرف الخاطئ والاصطلاح الجائر، ولكن فكروا وحددوا، فإن التفكير السليم، والتحديد الدقيق يرفع الخلاف بين الناس ويقرب علىٰ الأقل بين وجهات النظر**»[٦]. قال المهلب بن أبي صفرة: «**يعجبني من الرجل الكريم خصلتان: يعجبني أن أرىٰ عقل الرجل الكريم زائدًا علىٰ لسانه، ولا يعجبني أن أرىٰ لسانه زائدًا علىٰ عقله**»[٧].

---

(١) هذا الدين لسيد قطب ص ٢.

(٢) فصلت: ٥٣.

(٣) النحل: ٩٧.

(٤) العقد الفريد ٣/ ١٦٨.

(٥) ترتيب المدارك ٣/ ٢٦٣.

(٦) المؤتمر الشعبي حسن البنا ٤/ ١٠/ ١٩٣٥م.

(٧) تاريخ بغداد ٩/ ٣٠٠.

فيستفيد من الخصال الجيدة في كل نموذج من النماذج البشرية فيكون فيه من الساسة دهاؤهم ومن القادة قوتهم، ومن العلماء حججهم، ومن الزهاد روحانياتهم، ومن الرياضيين حماسهم، ومن الفلاسفة مقاييسهم، ومن الخطباء لباقتهم، ومن الكتاب رصانتهم، فاستخدام العقل هو الطريق لعدم الوقوع في المنزلقات، قال ابن سماك: «**ومن لم يتحرز من عقله بعقله، هلك من قبل عقله**»(١) وقال ابن هبيرة: «**احذروا مصارع العقول عند التهاب الشهوات**»(٢).

٢ ـ مثل أعلىٰ خاطئ + طريقة خاطئة في البناء = ضياع في الدنيا والآخرة ﴿خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةَ﴾(٣).

٣ ـ مثل أعلىٰ صحيح + طريقة خاطئة في البناء = تناقص وعجز.

٤ ـ مثل خاطئ + طريقة صحيحة للبناء = بناء كبير لغير صالح الإنسانية.

وهذا يستلزم الانتباه الدائم، قال شاعرنا:

كفاك مذكرًا وجهي بأمري   وحسبي أن أراك وأن تراني

وكذلك ينبغي التعلم وقراءة الكتب فإن بها أدبًا وعلمًا قيده العلماء من قبل.

الشرط الثاني: شعور الإنسان أنه يملك شيئًا يمكن أن يقدمه للآخرين:

ومن القواعد المقررة أنه إذا أردت إبطال جهد إنسان وإيقافه عن أي عمل ما عليك إلا أن تقنعه بعدم جدوىٰ هذا العمل، فبمجرد أن يقتنع الإنسان بعدم جدوىٰ عمله سيكف عن نشاطه ويتوقف عن العمل.

وبهذا يقول الإمام حسن البنا رحمه الله: ميدانكم الأول أنفسكم فإن انتصرتم عليها كنتم علىٰ غيرها أقدر، وإذا أخفقتم في جهادها كنتم عما سواها أعجز، فجربوا الكفاح معها أولاً(٤). فإذا أقنع الإنسان نفسه أنه يستطيع أن يقدم للآخرين شيئًا كانت هذه هي

(١) تاريخ بغداد ٨/ ٨

(٢) الذيل علىٰ طبقات الحنابلة ١/ ٢٧٥، الإفصاح عن معانىٰ الصحاح لابن هبيرة ١/ ٣٥.

(٣) الحج، ١١.

(٤) للإمام حسن البنا ص ٣.

الخطوة الأولىٰ التي يتحرك منها، قال عبد الله بن عثمان شيخ الإمام البخاري: ما سألني أحد حاجة إلا قمت له بنفسي، فإذا تم وإلا قمت له بمالي، فإذا تم وإلا استعنت له بالإخوان، فإن تم وإلا استعنت له بالسلطان(١). وهذا الأمر توفيق من الله تعالىٰ، فعن ابن عمر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن لله تعالىٰ أقوامًا اختصهم بالنعم لمنافع العباد ما بذلوها، فإذا منعوها نزعها الله منهم وحولها إلىٰ غيرهم**»(٢). وبهذا قال علي بن أبي طالب: «**المؤمن حسن المعونة قليل المؤونة**»(٣). وهذا التحرك آت من القوة التي أنت مؤمن بها، قال الرافعي رحمه الله: إذا آمنت لم تعد بمقدار نفسك، ولكن بمقدار القوة التي أنت بها مؤمن(٤). فالمسلم لا يضع نفسه في الظلام والضياء من حوله كثير وافر، فإنه سينسىٰ تدريجيا أن هناك ثمة ضياء، فتهون نفسه عليه، ويصدق فيه قول المتنبي:

ومن يهن يسهل الهوان عليه ... ما لجـــرح بميت إيـــلام

وسيرتعد من خزي يوم يسأله ﷺ: قد أخذت منا كلمة الحق، فلماذا لم تسلمها إلىٰ الخلق(٥). والخير الذي يملكه المسلم لا مانع ولا حاجب دون تسليمه للآخرين، وهذا الذي ذكرنا من فقه عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه حين استعمل «**ميمون بن مهران**» علىٰ الجزيرة وعلىٰ قضائها وعلىٰ خراجها فمكث حينًا ثم كتب إلىٰ عمر يستعفيه عن ذلك، وقال معتذرًا: كلفتني ما لا أطيق، أقضي بين الناس وأنا شيخ كبير ضعيف رقيق، فكتب إليه عمر: اجب من الخراج الطيب، واقض بما استبان لك، فإذا التبس عليك أمر فادفعه إلي، فإن الناس لو كان إذا كبر عليهم أمر تركوه ما قام لهم دين ولا دنيا(٦).

(١) الآداب الشرعية والمنح المرعية لأبي عبد الله محمد بن مفلح الحنبلي ٢/ ١٧١.

(٢) أخرجه الطبراني في الأوسط (٥١٦٢)، والبيهقي في شعب الإيمان (٧٦٦٢) عن ابن عمر رضي الله عنهما وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٨/ ١٩٢): «رواه الطبراني في الأوسط والكبير وفيه محمد بن حسان السمتي وثقه ابن معين وغيره وفيه لين، ولكن شيخه أبو عثمان عبد الله بن زيد الحمصي ضعفه الأزدي»، وحسنه لغيره الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٢٦١٧).

(٣) تاريخ العلماء بالأندلس (١/ ١٧٠) لعبد الله بن محمد الأزدي.

(٤) وحيٰ القلم للرافعي ص ٣٨.

(٥) محمد إقبال سيرته وفلسفته وشعره، لعبد الوهاب عزام ص ١٥٦.

(٦) البداية والنهاية ٩/ ٣١٧.

نعم، فمعاملة الرجل بأحسن مما يستحق لمن أفضل الوسائل لكسب ثقته ودفعه إلىٰ العمل والتضحية، فالمرء يندفع إلىٰ تحسين نفسه واستغلال كافة قواه في العمل إذا ما شعر بأنه مفهوم ومشجع من رؤسائه[(١)] والقائد شعوره بما عنده يجعل له نظرة خاصة، فهذا رجل يقول للعباس بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس: إني أتيتك في حاجة صغيرة، فقال له: اطلب لها رجلاً صغيرًا[(٢)]. وهو هنا لا يدعي بل هي الحقيقة، فكما قيل: كل منا يصف أواني بيته، ورب البيت أدري بما فيه، وأهل مكة، أدري بشعابها، والصيرفي أعرف بنقد الدينار[(٣)]. فهو لا يقول ما لا يعلم فيتهم فيما يعلم، والقائد بهذا يحسن منه ما قد لا يحسن من غيره. قال الأمير محمد المهدي أمير السعديين في المغرب: ينبغي للملك أن يكون طويل الأمل، فإن الأمل وإن كان لا يحسن من غيره فهو منه صالح؛ لأن الرعية تصلح بطول أمله[(٤)]. فإذا ما استقر ذلك في نفس القائد علم أن كل حركة يقوم بها له فيها أجر، وهذا الفهم أصله الإمام الشعبي، حين قال: لو أن رجلاً سافر من أقصىٰ الشام إلىٰ أقصىٰ اليمن؛ ليسمع كلمة ينتفع بها فيما يستقبل من عمره، ما رأيت أن سفره قد ضاع[(٥)].

*** والناس في هذا الأمر ينقسمون إلىٰ:**

القسم الأول:

قسم أصابه اليأس من أن يكون هناك شيء يقدمه الإسلام للناس، لذلك لا يخطر له رجاء في عودة الحياة الإسلامية بجهد بشري.

القسم الثاني:

قسم يمدح الإسلام وينسب له كل الألفاظ الجميلة من غير أن يتحرك للعمل،

(١) لمحات في فن القيادة ص ٩٧.
(٢) تاريخ بغداد ١٢/ ١٢٥.
(٣) النبوغ المغربي في الأدب العربي، لعبد الله كنون ٢/ ٨٩.
(٤) نفس المصدر ١/ ٢٤٥، وهذا ما يسمىٰ اليوم بالنظرة البعيدة الإستراتيجية.
(٥) بهجة المجالس وأُنس المُجَالِس لابن عبد البر ١/ ٣٧٠.

ويطمئن نفسه بأن المسلمين ليسوا محاطين بشيء من الأخطار، فهو يكرر دائمًا القول الشائع: «**أمة محمد بخير**». ويعيش في الأماني فيضل الطريق، كما قال بعض الحكماء: أسوأ الناس حالاً من اتسعت أمنيته، وضاقت مقدرته، وبعدت همته.

القسم الثالث:

قسم وسط في ذلك، فهو كاللبن الذي يخرج من بين فرث ودم، وهم الدعاة العاملين الذين يعرفون ما يحاط بهم من مكر الليل والنهار واعين لحقيقة المعركة وطبيعة الصراع بين الحق والباطل، وهم مع ذلك يستيقنون بأن النصر آت لا محالة إن لم يكن في عهدهم، ففيمن يأتي من بعدهم، فالله سبحانه وتعالىٰ متم نوره ولو كره الكافرون، وقد كتب جل وعلا أنه غالب وناصر جنده ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾﴾[1]. ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾﴾[2].

ولكن هذا النصر قدر الله سبحانه أن ينتصر بالجهد البشري والتفاعل مع السنن الكونية.

فالمسلم عنده اليقين بأن دور الإنسان في الحياة هو التغيير لخلافة الأرض؛ لقوله تعالىٰ: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾[3] فآيات القرآن الكريم صريحة في إعطاء دور التغيير للإنسان، فالحضارة الإسلامية هي حضارة إنسانية تعتمد علىٰ حركة الإنسان مهتدية بتوجيهات وهداية الله، الخالق العظيم، ومن ثم كان إنشاء وصياغة الأخ القائد المبدع أمر يأخذ الأولوية في البناء الإسلامي.

الشرط الثالث: يقين القائد بما يطلب:

دائمًا الإنسان في حركته يسعىٰ لخير يجلبه أو لشر يدفعه صادقًا فيما يطلب، وغاية المسلم تتميز عن غيرها ﴿إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا

---

(١) المجادلة: ٢١.

(٢) الصافات: ١٧٣

(٣) البقرة: ٣٠.

يَرْجُونَ ﴾[١].

لذلك أعلنها هود عليه السلام مدوية: ﴿قَالَ إِنِّيٓ أُشۡهِدُ ٱللَّهَ وَٱشۡهَدُوٓاْ أَنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ٥٤ مِن دُونِهِۦۖ فَكِيدُونِي جَمِيعٗا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ٥٥ إِنِّي تَوَكَّلۡتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٥٦﴾[٢].

قال ابن القيم رحمه الله: إن رجلاً واحدًا يخاطب أمة عظيمة بهذا الخطاب في غير جزع ولا فزع ولا خور، بل هو واثق بما قاله جازم به. قد أشهد الله أولاً علىٰ براءته من دينهم وما هم عليه، إشهاد واثق به، معتمد عليه، معلم لقومه أنه سبحانه وليه وناصره، وغير مسلطهم عليه، ثم أشهدهم إشهاد مجاهر لهم بالمخالفة في أنه بريء من دينهم وآلهتهم التي يوالون عليها ويعادون، ويبذلون دماءهم وأموالهم في نصرتها، ثم أكد عليهم ذلك بالاستهانة بهم واحتقارهم وازدرائهم، وأنهم لو يجتمعون كلهم علىٰ كيده وشفاء غيظهم منه، ثم يعاجلونه ولا يمهلونه، وفي ضمن ذلك: أنهم أضعف وأعجز وأقل من ذلك.

ثم قرر عليه السلام دعوته أحسن تقرير، وبين أن ربه تعالىٰ وربهم الذي نواصيهم بيده، هو وليه ووكيله، القائم بنصره وتأييده وأنه علىٰ صراط مستقيم، فلا يخذل من توكل عليه، وآمن به، ولا يُشمت به أعداءه، ولا يكون معهم عليه، فإن صراطه المستقيم الذي هو عليه في قوله وفعله: يمنع ذلك ويأباه»[٣].

ويقينه هذا للحق الذي يعرفه لا لكثرة خلق أو قلة، قال الحسن بن زياد: كلمة سمعتها من الفضيل بن عياض: لا تستوحش طرق الهدىٰ لقلة أهلها، ولا تغتر بكثرة الهالكين[٤]. وهذا المستيقن مطاع؛ لأنه يتكلم وهو علىٰ يقين بالله تعالىٰ، وقصة عبد القادر الجيلاني توضح ذلك:

(١) النساء: ١٠٤.
(٢) هود: ٥٤ـ ٥٦.
(٣) التفسير القيم لابن قيم الجوزية جمعه محمد أويس الندوي ص١٩٠.
(٤) تبيين كذب المفتري فيما نسب للإمام الأشعري ص ٣٣١ والأذكار للنووي ص (١٢٧).

حكىٰ الشيخ أبو الحسن بن غريبة الفقيه، أن الوزير ابن هبيرة رحمه الله، قال له الخليفة[(١)] وقد شكىٰ من الشيخ عبد القادر، وقال: إنه يستخف بي، ويذكرني. وله نخلة في رباطه، يتكلم ويقول: يا نخيلة لا تتعدىٰ أقطع رأسك، وإنما يشير إليّ. قال الشيخ أبو الحسن: قال لي الوزير ابن هبيرة: تمضىٰ إليه وتقول له في خلوة: ما يحسن بك أن تتعرض بالإمام أصلاً وأنت تعرف حرمة الخلافة. قال الشيخ أبو الحسن: «**فذهبت إليه فوجدت عنده جماعة، فجلست أنتظر منه خلوة فسمعته يتحدث، ويقول في أثناء كلامه: نعم أقطع رأسها، فعلمت أن الإشارة إليّ، فقمت وذهبت، فقال لي الوزير: بلغت؟ فأعدت عليه ما جرىٰ، فبكىٰ الوزير، وقال: لا شك في صلاح الشيخ عبد القادر**»[(٢)]. **وهذا اليقين يظهر حتىٰ مع كثرة المحبطات، قال سهل: قلت لسحنون: البدعة فاشية، وأهلها أعزاء، فقال: أما علمت أن الله إذا أراد قطع بدعة أظهرها**[(٣)].

*****

(١) يريد ـ المقتفي لأمر الله.

(٢) الذيل علىٰ طبقات الحنابلة ١/ ٢٩٢.

(٣) ترتيب المدارك ٢/ ٦١١.

الأسلوب الرابع
تحريك القائد من معه لسؤاله

قال عكرمة تلميذ ابن عباس رضي الله عنهما لتلاميذه: «ما لكم لا تسألوني.. أأفلستم؟» إن مما ينمي القائد أن يكثر من يسأله، فيضطر إلىٰ البحث من خلال الكتب والواقع؛ ليحصل لهم ما ينفعهم، ويبقىٰ دوام الحاجة إليه وإلىٰ علمه وفقهه، فالانتقال في الأحوال والتحريك من مكان إلىٰ آخر مع العيش في الحوادث والمشكلات ينمىٰ العقل والإدراك مع إبعاد روح الملل والسآمة، وبهذا يقول أبو العتاهية:

لا يُصْلِحُ النفسَ إذ كانَتْ مُدبِّرة إلا التنقل من حالٍ إلىٰ حالِ

وقد حذر ابن الجوزي من معه من الجلوس والركون إلىٰ الدعة، فقال: «**إذا خلوت في البيت غرست الدود في أرض القراطيس، وإذا جلست للناس دفعت بدرياق العلم سموم الهوىٰ، أحميكم عن طعام البدع، وتأبون إلا التخليط، والطبيب مبغوض**»[١].

فالقائد يدرك أن للجماعة الحق في أن تخطئ وأنها لا تنمو إلا إذا تعلمت كيف تتحمل المسؤولية كاملة؛ لما تصدره من قرارات وما تحسمه من أمور[٢].

ومنهج التحرك يبينه ابن عباس بقوله لعكرمة: انطلق فأفت الناس وأنا لك عون. قال عكرمة: فقلت له: لو أن هؤلاء الناس مثلهم مرتين لأفتيتهم، قال ابن عباس: فانطلق فأفتهم، فمن جاءك يسألك عما يعنيه فأفته، ومن يسألك عما لا يعنيه، فلا تفته، فإنك تطرح عنك ثلثي مؤنة الناس[٣].

فالقائد ينمو إذا كان يتحرك في مجموعة وينتهي إذا تخلىٰ عنه من معه، قال الإمام الشافعي: كان الليث أفقه من مالك إلا أنه ضيّعه أصحابه[٤]؛ ولذلك قيل: المستعين

---

(١) الذيل علىٰ طبقات الحنابلة ١/ ٤٢٢.
(٢) كيف نعد قادة أفضل، ترجمة د. حسين حمدي الطوبجي ٢١.
(٣) تهذيب التهذيب ٧/ ٢٦٥.
(٤) حسن المحاضرة، للحافظ جلال الدين عبد الرحمن السيوطي، تحقيق: محمد أبي الفضل إبراهيم ١/ ٣٠١.

أحزم من المستبد، ومن تفرد لم يكمل، ومن شاور لم ينقص[١].

وفي التحريك للآخرين تلاحظ بعض الاعتبارات:

١ ـ الاهتمام بمن يتم تكليفه وإشعاره بذلك، فهذا عطاء بن أبي رباح يقول: إن الرجل ليحدثنى بالحديث، فأنصت له كأني لم أسمعه، وقد سمعته قبل أن يولد[٢].

٢ ـ إيجاد روح المنافسة، وهي المبادرة إلىٰ الكمال الذي يشاهد في الآخرين؛ ليلحق بهم ويتجاوزهم، فأصل المنافسة من الشيء النفيس الذي تتعلق به النفوس طلبًا ورغبة، وقد كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يسابق أبا بكر رضي الله عنه فلم يظفر بسبقه أبدًا فلما علم أنه قد استولىٰ علىٰ الإمامة قال: والله لا أسابقك إلىٰ شيء أبدًا[٣].

٣ ـ غفران الزلات الصغيرة للعامل المعطاء، قال النبي ﷺ: «**أقيلوا ذوىٰ الهيئات عثراتهم إلا الحدود**»[٤]، قال الإمام الشافعي: ذوو الهيئات: الذين ليسوا يعرفون بالشر، فيزل أحدهم الزلة.

٤ ـ استخدام أسلوب الحوافز والهدايا، قال رسول الله ﷺ: «**من صنع إليكم معروفًا فكافئوه، فإن لم تجدوا ما تكافئونه فادعوا له، حتىٰ تروا أنكم قد كافأتموه**»[٥] أي: اجتهدوا في المكافأة وتحصيلها.

وأهم حافز هنا هو الحافز العقدي، حيث يؤدي إلىٰ تزكية الشعور الديني خلال بناء جانب الإخلاص وإثارة الجهاز الرقابي داخل الإنسان؛ ليصل بالعمل إلىٰ الإتقان ومع هذا يحقق الراحة النفسية للإنسان.

٥ ـ المحافظة علىٰ نفسية السائلين والحرص علىٰ عدم خدشها، فها هو رجل يسأل مطرف بن عبد الله بن الشخير حاجة، فقال: من كان له حاجة فليكتبها في رقعة، فإني

(١) الإمتاع والمؤانسة، لأبىٰ حيان التوحيدي، تحقيق أحمد أمين ص٦٥.
(٢) سير أعلام النبلاء (٥/ ٨٦).
(٣) أخرجه أبو داود (١٦٧٨) عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وحسنه الألباني.
(٤) أخرجه أبو داود (٤٣٧٥) عن عائشة رضي الله عنها، وصححه الألباني.
(٥) أخرجه أبو داود (١٦٧٢) عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، وصححه الألباني.

أرغب بوجوهكم عن مكروه السؤال[١].

٦ ـ ترتيب الجهود للطاقات الموجودة بصورة جماعية لتحقيق الهدف المشترك بفاعلية وكفاءةٍ، ويكون ذلك وفق المنهج العقدي في التنظيم ليصدر عنه: قائد مشاور للمرؤوسين، مرؤوسون مطيعون للقائد، وأهداف سامية ووسائل وإنجازات متقنة[٢].

٧ ـ تقسيم العمل بين العاملين: من أهم وسائل الإنجاز والاستفادة من طاقات العاملين، وتفجير الطاقات، تقسيم العمل بين العاملين. قال عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في خطبة له بالجابية ـ من قرئ الشام: من أراد أن يسأل عن القرآن فليأت أبي بن كعب، ومن أراد أن يسأل عن الفقه فليأت معاذ بن جبل، ومن أراد أن يسأل عن المال فليأتني، فإن الله قد جعلني خازنًا وقاسمًا[٣].

*****

(١) بهجة المجالس ١/ ٣٢٢.

(٢) التنظيم بين الإدارة الإسلامية والإدارة العامة: د. فرناس عبد الباسط البنا ١٦، ٤٦ بتصرف.

(٣) أخرجه الطبراني في الأوسط (٣٧٨٣) عن ابن عباس، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١/ ١٣٥): «رواه الطبراني في الأوسط وفيه سليمان بن داود بن الحصين لم أر من ذكره».

الأسلوب الخامس
العمل على تقوية القول بالعمل دائمًا

إن صاحب النشاط والإنتاج والاندماج مع أحداث الدعوة اليومية تشفع هفواته إذا ما زل، والماء إذا بلغ القلتين لم يحمل الخبث، والخطأ وارد من الجميع كما قيل: «**ما كل قاتل يسلم، ولا كل سامع يصيب**» ولكن من ثبتت عدالته لا ينسب إليه إلا ما يليق بحاله وبطريقته من الخصال الحميدة[(١)]، فما من شريف ولا عالم ولا ذي فضل إلا وفيه عيب ولكن من الناس من لا ينبغي أن تذكر عيوبه، فمن كان فضله أكثر من نقصه وهب نقصه لفضله[(٢)]. فإنه ليس من شرط أولياء الله المتقين ألا يكونوا مخطئين في بعض الأشياء خطأ مغفورًا لهم، بل ولا من شرطهم ترك الصغائر مطلقًا، بل ولا من شرطهم ترك الكبائر أو الكفر الذي تعقبه التوبة[(٣)]، فهذه الأمور تمثل قاعدة جليلة كما قال السخاوي: ومن ثبتت إمامته وعدالته، وكثر مادحوه ومزكوه، وندر جارحوه، وكانت هناك قرينة دالة علىٰ سبل جرحه من تعصب مذهبي، أو غيره، فإنا لا نلتفت إلىٰ الجرح فيه، ونعمل فيه بالعدالة، وإلا فلو فتحنا هذا الباب وأخذنا تقديم الجرح علىٰ إطلاقه، ما سلم لنا أحد من الأئمة، إذ ما من إمام إلا وقد طعن فيه الطاعنون، وهلك فيه هالكون[(٤)].

فهو ميزان العدل في الإسلام من غير إفراط أو تفريط، فإذا غلبت محاسن الرجل علىٰ مساوئه لم تذكر المساوئ، وإذا غلبت المساوئ عن المحاسن لم تذكر المحاسن[(٥)].

وقد أنشدوا:

وإذا الحبيب أتىٰ بذنب واحد   جاءت محاسنه بألف شفيع[(٦)]

وهذا الإثبات لمحاسن الأئمة القادة لا يعنىٰ متابعتهم فيما أخطؤوا فيه، بل فضلهم

---

(١) المدخل لأبي عبد الله محمد بن محمد الشهير بابن الحاج٣/ ٩٨.

(٢) ذيل التبر المسبوك للسخاوي ص٤.

(٣) مجموع الفتاوىٰ ١١/ ٦٦، ٦٧.

(٤) قاعدة في الجرح والتعديل لابن السبكي ص١٠.

(٥) كلمة لعبد الله بن المبارك، سير أعلام النبلاء ٨/ ٣٥٢.

(٦) خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر للمحبي ١/ ١١٧.

محفوظ وصوابهم مقتدىً به خطؤهم مردود، قال الإمام الذهبي: إن الكبير من أئمة العلم إذا كثر وعلم تحريه للحق واتسع علمه، وظهر ذكاؤه وعرف صلاحه، وورعه واتباعه يغفر له زلله، ولا نضلله ونسىٰ محاسنه، نعم ولا نقتدي به في بدعته وخطئه ونرجو له التوبة من ذلك[١]. وملاك ذلك الحب الصادق، قال عمرو ابن عبيد: في المؤمن ثلاث خلال، يسمع الكلمة التي تؤذيه فيضرب عنها صفحًا كأن لم يسمعها، ويحب للناس كما يحب لنفسه، ويقطع أسباب الطمع عن الخلق[٢].

هذه سياحة في أقوال العلماء ـ رحمهم الله ـ تبين ضرورة السعي والحركة لموافقة القول وإن توقع الخطأ والوقوع فيه من غير قصد لا يؤثر ولا يحبط، ومع ذلك فنحن ندعو الصفوة القيادية لأن تكمل من بنائها الظاهر والباطن وإظهار الدليل عليه، حيث دليل كمال الظاهر تناسب أعضاء البدن وحسن صورتها وتناسقها، ثم حسن السمت، والهدي، ودليل كمال الباطن حسن الطبائع والأخلاق، والنزاهة والأنفة من الجهل ومباعدة الشر وستر العيوب وابتداء المعروف، وسلامة القلب والحلم عن الجهل والتسليم لمقادير الله تعالىٰ ظاهرًا وباطنًا، فهذه تقريبًا الأسباب الموصلة إلىٰ الكمال، فمن رزق هذه الأشياء أخذت به إلىٰ الكمال، وإن نقصت خلة من هذه الخلال أوجبت النقص[٣]. ويبدأ هذا الضبط في موافقة القول العمل من داخل الإنسان، قال عبد القادر الجيلاني: إذا كنت منكرًا علىٰ نفسك قدرت علىٰ الإنكار علىٰ غيرك، فعلىٰ قدر قوة إيمانك تزيل المنكرات، وعلىٰ قدر ضعفه تقعد في بيتك وتتخارس عن إزالتها[٤]. ومن وثق قوله بعمله ختم الله له بالشهادة وكلمة التوحيد، فهذا سعيد بن جبير لعظيم جهاده للظلم والظالمين عندما قتله الحجاج سنة ٥٩ هـ وبان رأسه عن جسده قال: «**لا إله إلا الله**» مرتين ثم بدأ بالثالثة ولم يتمها وفاضت نفسه ولم يكن سعيد ـ رحمه الله ـ يومئذٍ نكرة في المجتمع، بل كما ذكر الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه: مات يوم مات وما أحد من أهل

(١) سير أعلام النبلاء ٥/ ٢٧١.
(٢) بهجة المجالس ١/ ١٥٩.
(٣) صيد الخاطر لابن الجوزي ١/ ٢٨٩.
(٤) الفتح الرباني لعبد القادر الجيلاني ص٥٠.

الأرض إلا وهو محتاج إلىٰ علمه[١]. وفي ذلك حجة علىٰ من تخارس عن الحق بحجة أن الناس بحاجة إليه!! فالقائد يتعلم ليعمل لا ليظهر بين الناس أو يوقع بينهم. فمن يسلك هذا السبيل لن يفلح، قال أبو سنان زيد بن سنان الخزاعي: إذا كان طالب العلم لا يتعلم أو قبل أن يتعلم مسألة في الدين يتعلم الوقيعة في الناس، متىٰ يفلح؟![٢].

*****

(١) تذكرة الحفاظ ١/ ٨٢٧.

(٢) ترتيب المدارك ٢/ ١٤.

الأسلوب السادس
التدرب والممارسة على التخطيط ووضع السياسات

فالأخ القائد يتدرب دائمًا علىٰ رسم الأهداف القريبة والبعيدة، مع وضع السياسات العليا والتحتية، وهو في عملية التدريب هذه وبعد أن ينتهي من كتابة الأوراق يقوم بحرقها، ويكرر هذا بعد إعادة النظر فيما كتب مرات ومرات.

وهذا ما عناه ياقوت الحموي عندما قال: إني رأيت أنه لا يكتب إنسان كتابًا في يومه إلا قال في غده: لو غيّر هذا لكان أحسن، ولو زيد كذا لكان يستحسن، ولو قدم هذا لكان أفضل، ولو ترك هذا لكان أجمل، وهذا من أعظم العبر وهو دليل علىٰ استيلاء النقص علىٰ جملة البشر(١).

فالمعارضة والمراجعة لابد منها، فمن لم يعارض لم يدر كيف يضع رجله(٢). وهو بهذا العمل يحقق لنفسه أمرين:

الأمر الأول:

تربيته لنفسه علىٰ أن يكتب لمن هم أعلىٰ منه أو من هم في درجته من غير أن يأخذوا بما كتب أو أن ينظروا فيها، وهذا بالتالي سيؤول به إلىٰ تنمية الإخلاص، فهو ليس مكلفًا بأن يؤخذ اقتراحه، ولكنه مطلوب منه أن يتفاعل مع العمل الذي هو عليه، ويسعىٰ للأخذ به إلىٰ الأحسن، وهذا هو الأمر الثاني والمهم والذي يعتبر عدم الوعي به سبب رئيس لوجود الإحباطات القيادية والفتن الشيطانية. كما أن الإكثار من الكتابة سيقلل من الأخطاء في الصياغة والأسلوب، ويقضي علىٰ رهبة الكتابة التي لا تقل عن رهبة الحديث والخطابة.

فلابد من الممارسة وعدم التخوف من الخطأ، فلولا ظلمة الخطأ ما أشرق نور

(١) مقدمة معجم الأدباء ص٩.
(٢) المنهج الأحمد في تراجم أصحاب الإمام أحمد لأبي اليمن مجير الدين عبد الرحمن بن محمد العليمي، تحقيق محمد محيىٰ الدين عبد الحميد ٢/ ٩.

الصواب في القلوب[١]. وهذا يستلزم تواجده اليومي في العمل محصورًا في واجبات عمله، كالجندي لا يكون جنديًّا صحيحًا إلا إذا كان في وسط ميدانه[٢]. فمعظم الأشخاص الذين يتولون مراكز قيادية اليوم تعلموا كثيرًا مما يعرفون عن القيادة من ملاحظة من سبقوهم من القادة[٣]، وبهذا قيل: من التوفيق حفظ التجربة[٤].

وعندما نذكر هذا الأمر نؤكد علىٰ أن الفارق بين القيادة والأتباع هو فارق في الدرجة لا النوع، وهذه الدرجة إنما أتت من خلال التدريب والممارسة، والابتكار عملية ذهنية منتجة لمعطيات جديدة قابلة للضبط. ومنهج التعود والتدرب أخذ به السلف رضوان الله عليهم فكان عبد الله بن مسعود يقول: تعودوا الخير؛ فإنما الخير عادة[٥]. ومن تدرب وعزم فسيصل بإذن الله تعالىٰ. قال الشافعي رحمه الله: كانت نهمتي في شيئين: في الرمي وطلب العلم فنلت من الرمي، حتىٰ كنت أصيب من عشرةٍ عشرةً[٦].

وهذا أمر يحتاج إلىٰ صبر واستمرار فيه؛ ليتم الوصول كما قال النعمان بن مقرن: ونحن نرجو في المكث مثل الذي نرجو في الحث.. رويدًا، رويدًا ترىٰ أمرك[٧]، فالمهم أن يكون هناك نمو وزيادة في اليوم الذي يعيشه القائد، كما قال ابن القيم رحمه الله: إذا مر بي يوم ولم أستفد هدىً ولم أكتسب علمًا فما ذلك من عمري[٨].

ومنهجه في هذا السير منهج المجاهد الذي صوره الإمام حسن البنا في قوله: وأستطيع أن أصور المجاهد شخصًا قد أعد عدته، وأخذ أهبته، وملك عليه الفكر فيما هو فيه نواحي نفسه وجوانب قلبه، فهو دائم التفكير، عظيم الاهتمام، علىٰ قدم

(١) البصائر والذخائر ٤/ ١٨٦.
(٢) وحي القلم ٢/ ٢٧٢.
(٣) كيف نعد قادة أفضل - مالكوم وهولدا فولز - ترجمة د. حسين حمد الطوبجي ص ٢٦.
(٤) المجتبىٰ للإمام أبي بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي.
(٥) البصائر والذخائر ٣/ ٤٣٦.
(٦) أدب الشافعي ومناقبه للحافظ أبي محمد عبد الرحمن بن أبي حاتم الرازي - قدم له وحققه: عبد الغني عبد الخالق ص ٤٤.
(٧) فتوح الشرق لأحمد عادل كمال ص ٢٣٦.
(٨) مفتاح دار السعادة ١/ ١٨٦.

الاستعداد أبدًا، إن دعي أجاب، وإن نودي لبىٰ، غدوه ورواحه، حديثه وكلامه، جده ولعبه، لا يتعدىٰ الميدان الذي أعد نفسه له، ولا يتناول سوىٰ المهمة التي وقف عليها حياته وإرادته، يجاهد في سبيلها، تقرأ في قسمات وجهه وترىٰ في بريق عينيه وتسمع في فلتات لسانه، ما يدلك علىٰ ما يضطرم به قلبه، من جوىٰ لاصق، وألم دفين، وما تفيض به نفسه من عزمة صادقة وهمة عالية، وغاية بعيدة.

أما المجاهد الذي ينام ملء جفنيه، ويأكل ملء ماضغيه، ويضحك ملء شدقيه، ويقضي وقته لاهيًا لاعبًا عابثًا، فهيهات أن يكون من الفائزين أو يكتب من عداد المجاهدين[١].

وهذا التدرب يستلزم القيام به عند بداية الطريق حتىٰ تتم الاستفادة؛ لذلك أنشدوا:

إن الغصون إذا قومتها اعتدلت ولن تلين إذا قومتها الخشب

فالتدرب الذي ذكرنا بعضًا من قواعده يستلزم منا أن نذكر له قاعدة التدرب وهي التأني، قال ﷺ: «**ما أراد الله بأهل بيتٍ خيرًا إلا أدخل عليهم الرفق، ولا أراد بهم شرًّا إلا أدخل عليهم الخرق**»[٢].

وأنشد القطامي:

قد يدرك المتأني بعض حاجته وقد يكون مع المستعجل الزلل[٣]

والتأني مدعاة للاستفادة من أوقات إقبال القلب قال عبد الله بن مسعود: إن للقلوب شهوة وإقبالاً، وفترة وإدبارًا، فخذوها عند شهواتها. ولكي تقبل القلوب لابد لها من ترويح تستعيد بعده القوة والاندفاع.

قال أبو الدرداء: إني لأستجم قلبي بشيء من اللهو؛ ليكون أقوىٰ لىٰ علىٰ الحق[٤]، وهذا هو مذهب عمر بن عبد العزيز من بعده، حيث دخل عليه ابنه عبد الملك وهو في

(١) حسن البنا يتحدث إلىٰ شباب العالم ص٧.
(٢) أخرجه عبد الرزاق في المصنف (١٩٥٣٨)، عن الزهري مرسلاً، وأخرجه أحمد (٦/ ٧١) عن عائشة دون جملة الخرق، وهو الذي صححه الألباني في صحيح الجامع (٣٠٣).
(٣) ديوان القطامي ص ١٣٥، عن بهجة المجالس ١/ ٣٢٦.
(٤) انظر: لسان العرب (١٢/ ١٠٦).

نوم الضحىٰ فقال: يا أبت إنك لنائم، وإن أصحاب الحوائج لراكدون ببابك، فقال: يا بني إن نفسي مطيتي وإن حملت عليها فوق الجهد قطعتها[١].

والقائد المتأني يستطيع أن يقول:نعم أو لا، ويتحمل مسؤولية الكلمة؛ لأنها نتجت بروية ودراسة وبهذا قيل:

إذا قلت في شيء نعم فأتمه   فإن نعم دين علىٰ الحر واجب

وإلا فقل لا، تسترح وترح بها   لئلا يقول الناس إنك كاذب[٢]

وهذه الدقة في الإجابة عنوان النبوغ والرجولة يعرفها أصحاب الملاحظة، روي أن معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه جلس لأخذ البيعة علىٰ الناس والبراءة من علىٰ رضي الله عنه، فقال رجل من المبايعين: يا أمير المؤمنين، إنا نطيع أحياءكم ولا نبرأ من موتاكم. فالتفت معاوية إلىٰ المغيرة بن شعبة، فقال: رجل فاستوص به خيرًا [٣].

*****

(١) ذكره ابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة (١٧/ ٩٨) وعزاه للزبير بن بكار في الموفقيات.
(٢) بهجة المجالس ١/ ٣٢٩.
(٣) نفس المرجع ١/ ٣٤٢

الأسلوب السابع
التعود على العمل في حل المشاكل

يعمـل القائـد علـىٰ أن يتعـود علـىٰ النظـرة الكليـة دون التفاصـيل الجزئيـة، فيـضع المعضلات في حجمها الطبيعي ويربطها بمصادرها ويقوم بمواجهة المسؤولية، واتخاذ الخطوات اللازمة والقرارات المناسبة في الوقت المناسب حسب ما يمليه الموقف، وهكذا القادة في الأمة الإسلامية، فصلاح الدين كان يجلس في مجلس عام في يومي الإثنين والخميس من كل أسبوع ويحضر معه الفقهاء والقضاة والعلماء، ويفتح الباب للمتخاصمين والمظلومين، وينظر في قضاياهم، ويرفع الظلم عنهم، وما استغاث إليه أحد إلا أجابه، وكشف ظلامته[١].

وحل المشاكل يحتاج من القائد إلىٰ الحكمة التي تقتضىٰ معرفة الحق والعمل به والإصابة في القول والعمل، وهذا يستلزم فعل ما ينبغي علىٰ الوجه الذي ينبغي في الوقت الذي ينبغي، وهذا لا يكون إلا بفهم القرآن والفقه في شرائع الإسلام وحقائق الإيمان[٢]. فكما قيل: ليس العاقل الذي يعرف الخير من الشر، ولكن الذي يعرف خير الشرين[٣]. فقد يكون من المهاجرين الذين يهجرون السيئات ولكن ليس من المجاهدين الذين يجاهدون في إزالتها[٤]. والمجاهد قد يتعرض لسوء من الآخرين أو من نفسه؛ فلذا لابد له من الممارسة والتعود. قال أبو حازم: عود نفسك علىٰ الصبر علىٰ السوء، فإنه لا يزال يخطئك، فالتعود والتدرب ومعرفة الأمور المحيطة في المشكلة من الأسباب المعينة علىٰ حل الصعاب، كما قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: إنما تنقض عرىٰ الإسلام عروة عروة إذا نشأ في الإسلام من لا يعرف الجاهلية؛ ولذلك كان الصحابة رضوان الله عليهم أعرف الأمة بالإسلام وتفاصيله وأبوابه وطرقه، وأشد الناس رغبة فيه ومحبة له، وجهادًا لأعدائه،

(١) النجوم الزاهرة ٦/ ١٠، العز بن عبد السلام للدكتور عبد الله بن إبراهيم الوهيبي (٢٩).
(٢) تهذيب مدارج السالكين لابن القيم بتهذيب عبد المنعم الصالح ص٤٨٨.
(٣) بهجة المجالس ٢/ ٥٣٥.
(٤) المنطلق، محمد أحمد الراشد ص ٢٠٦.

وتكلمًا بإعلائه، وتحذيرًا من خلافه؛ لكمال علمهم بضده[١].

فالقائد وهو يعمل على حل المشاكل يلزمه مشاورة غيره من الثقات المجربين، فهذا عمر بن عبد العزيز رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول: والله إني لأشتري ليلة من ليالي عبيد الله[٢] بألف دينار من بيت المال، فقالوا: يا أمير المؤمنين تقول هذا مع تحريك وشدة تحفظك؟ فقال: أين يذهب بكم؟ والله إني لأعود برأيه وبنصيحته وبهدايته على بيت مال المسلمين بألوف وألوف، إن في المحادثة تلقيحًا للعقل وترويحًا للقلب وتسريحًا للهم، وتنقيحًا للأدب.

ومن الآفات النفسية التي تعتري القائد في حله للمشاكل وسوسة الشيطان له، بأنه لابد قبل البدء والممارسة في مساعدة الغير وحل مشاكلهم من صفاء كامل في نفسه وسلوكه، وهذا الوهم سبيل لعدم التحرك، قال سعيد بن جبير: لو كان المرء لا يأمر بمعروف ولا ينهي عن منكر حتى لا يكون فيه شيء ما أمر أحد بمعروف ولا نهي عن منكر، وعندما سمع الإمام مالك هذا القول قال: صدق ومن هذا الذي ليس فيه شيء[٣]. وعن هذه الآفة قال ابن القيم رحمه الله: لقد ود الشيطان أن يظفر من الناس ببعض هذا ومثله.

فالقائد يأتى إليه الناس ليجدوا عنده الحل لمشاكلهم، والسلوى لهمومهم، يقول ابن القيم رحمه الله عن ذهابه لشيخه ابن تيمية ـ رحمه الله: كنا إذا اشتد بنا الخوف، وساءت منا الظنون وضاقت بنا الأرض أتيناه، فما هو إلا أن نراه ونسمع كلامه، فيذهب ذلك كله وينقلب انشراحًا وقوة ويقينًا وطمأنينة.

وحل المشاكل يحتاج إلى صفة العدل التي وصفها محمد بن كعب القرظي لعمر بن عبد العزيز بقوله: كن لصغير الناس أبا ولكبيرهم ابنا، وللمثل منهم أخا وللنساء كذلك، وعاقب الناس بقدر ذنوبهم وعلى قدر احتمالهم[٤].

*****

(١) مفتاح دار السعادة ٢/ ١٩٥.

(٢) يريد: عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود.

(٣) رسالة المسترشدين ص٦١.

(٤) بهجة المجالس ١/ ٣٤٤.

الأسلوب الثامن
تهيئة المناخ الوظيفي للعمل والعطاء

من المقرر أن المناخ ليس بالضرورة أن يدركه الإنسان ويكون خاضعًا للرؤية، ولا يقلل من فاعليته عدم رؤيته، فتهيئته ستدفع العاملين للاندفاع الذاتي، وتحقيق التوازن بين كمية الأداء والاستمرارية في تنمية المواهب والقدرات، وتهيئة المناخ تكون من خلال:

١ ـ الوضوح ومعرفة الأهداف والوظائف:

فالسير بخطوات واضحة يقلل الوقت في إنجاز المهمات، ويحقق المراد بأقل التكاليف، فالواجبات كثيرة والأعمار قصيرة، قال ابن عباس رضي الله عنهما: العلم كثير، ولن تعيه قلوبكم، ولكن اتبعوا أحسنه، ألم تسمع قوله تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقَوۡلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحۡسَنَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ١٨﴾[١]. وقال أبو حاتم الرازي: اكتب أحسن ما تسمع، واحفظ أحسن ما تكتب، وذاكر بأحسن ما تحفظ[٢]؛ وهو بذلك لا يلتفت إلىٰ المشغلات من حوله مهما تكون. قال شبيب بن شيبة: من سمع كلمة يكرهها فسكت انقطع عنه ما يكرهه وإن أجاب سمع أكثر ما يكره[٣]. ولهذا سمعنا الإمام البنا يتحدث للشباب فيقول: لا ترتادوا الأماكن التي لا تحيا فيها عقيدتكم ﴿وَإِذَا رَأَيۡتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيۡرِهِۦۚ﴾[٤]. ولا تقرؤوا الصحف التي لا تناصرها، ولا تجالسوا الذين لا يزكونها، ولا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالاً، وترقبوا ساعة النصر وما هي منكم ببعيد[٥].

---

(١) الزمر: ١٨.
(٢) تاريخ دمشق لابن عساكر (٥٢/ ١٥)، وتهذيب الكمال (٢٤/ ٣٨٧) للحافظ المزي.
(٣) تاريخ بغداد ٥/ ٢٧٦.
(٤) الأنعام :٦٨.
(٥) حسن البنا يتحدث إلىٰ شباب العالم الإسلامي ص ٣٠.

٢ ـ الالتزام والمواصلة لتحقيق الأهداف في الواقع:

فعلىٰ سبيل المثال: هدف تحقيق الأخوة الإسلامية في واقع المجتمعات لابد له حتىٰ يؤتىٰ ثماره من متابعة ومواصلة، قال أخ لأخيه: أما بعد... يا أخي، فقد زرعت في قلوبنا مودتك، فتعهد زرعك بسقي الزيارة[١].

٣ ـ حسن الأداء:

في تحقيق الأهداف، والعمل علىٰ إنمائها؛ لتصل لمستوىٰ التحدي.

٤ ـ الشعور بالمسؤولية والتبعية الملقاة علىٰ عاتقه:

مع فهم لحقيقة التقدير والمكافأة، قال الإمام أحمد رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: كنت أصلي بأهل السجن وأنا مقيد. فهذا الشعور من الإمام أحمد بالمسؤولية ملك عليه نفسه فنسي ما هو فيه والتفت إلىٰ مهمته فتخطىٰ بذلك الضعف البشري وتجاوز ذاته وهو ينظر إلىٰ المجتمع حوله، وهذه هي نفسية القادة الكبار، فانظر معي إلىٰ قول أبي قلابة الجرمي: إذا بلغك عن أخيك شيء تكرهه فالتمس له عذرا جهدك، فإن لم تجد له عذرًا فقل: لعل لأخي عذرًا لا أعلمه[٢]. فإنه ظلم لأخيك أن تذكر منه أسوأ ما تعلم منه وتكتم خيره[٣]. فبسلامة الصدر ساد القوم، قال الفضيل بن عياض: لم يدرك عندنا من أدرك بكثرة صيام ولا صلاة، وإنما أدرك بسخاء الأنفس وسلامة الصدر والنصح للأمة[٤]. وبهذا يصل إلىٰ ما وصل إليه الإمام البخاري رحمه الله عندما قال: المادح والذام عندي سواء[٥].

٥ ـ تعويد المتدرب علىٰ العيش في دائرة القرارات مع عيشه في أجواء الأحداث والمشكلات:

يقول الإمام البنا رحمه الله: ونحن نعلم أن رواسب القرون الماضية ونتائج الحوادث

---

(١) الصداقة والصديق ص ٣٤٦.
(٢) البداية والنهاية ٩/ ٣٣١.
(٣) نفس المرجع ٩/ ٢٧٥ قوله: لمحمد بن سيرين.
(٤) غربة الإسلام لابن رجب ص ٨٧.
(٥) نفس المرجع ص٧٩.

الخالية لا يمكن أن تزول بأمنية تختلج في الصدور، أو كلمة تكتب في الصحف، بل لابد من طول الأناة ودوام المثابرة وعظيم المثابرة والدأب علىٰ العمل، وذلك ناموس الحياة الذي لا يتخلف[١]، فالعمل الإسلامي فضل من الله، والقيادة فيه اتخاذ واختيار فمن جاء وبذل فاز بالسبق، ومن تقاعد من المخلصين اليوم فسيلحق غدًا، وللسابق عليه الفضل؛ ومن رغب عن العمل الإسلامي زهادة وسخرية أو استصغارًا أو يأسًا من انتصار الدعوة، فستثبت له الأيام عظيم خطئه[٢].

٦ ـ التواضع وعدم الاستعلاء:

إن تواضع القائد وهو يمارس دوره يعطي الأجواء التي من حوله نمطًا من السعة والبراح بحيث ينمو كل شيء من حوله، وبهذه الروح كان يعيش القادة في الأمة الإسلامية؛ لذلك رأينا تدفق الأجيال القيادية التي تحافظ علىٰ استمرارية الخيرية في الأمة، فما من إمام إلا وتجد من حوله ومن بعده أئمة أعلام، فهذا عمرو الناقد يروي فيقول: كنا عند وكيع وجاء الإمام أحمد بن حنبل فقعد، وجعل يصف من تواضعه بين يديه، فقلت ـ عمرو: يا أبا عبد الله، إن الشيخ يكرمك فما لك لا تتكلم؟ فقال الإمام أحمد: وإن كان يكرمني فينبغي لي أن أجله[٣].

وبهذه الروح كان يتعامل القادة فأوجدوا جوًّا خاصًا نمت وترعرعت خصلة القيادة فيه، فقادوا الأمة بذلك، وفي غزوة ذات السلاسل، دليل علىٰ ما ذكرنا؛ فقد بعث رسول الله ﷺ عمرو بن العاص إلىٰ ذات السلاسل ثم ألحقه بالمهاجرين وأمر عليهم أبا عبيدة بن الجراح، فلما قدموا علىٰ عمرو قال: أنا أميركم وأنا أرسلت إلىٰ رسول الله ﷺ أستمده بكم، فقال المهاجرون: بل أنت أمير أصحابك وأبو عبيدة أمير المهاجرين، فلما رأىٰ أبو عبيدة قال: تعلم يا عمرو أن آخر ما عهد إلىٰ رسول الله ﷺ أن قال: إذا قدمت علىٰ صاحبك فتطاوعا، وإنك إن عصيتني لأطيعنك، فسلم أبو عبيدة الإمارة لعمرو بن

(١) حسن البنا يتحدث إلىٰ شباب العالم الإسلامي ص ٥٦.
(٢) مجموعة الرسائل للإمام البنا ص ٣٢١ بتصرف.
(٣) مناقب الإمام أحمد لابن الجوزي ص٨٢.

العاص[1].

*****

(١) أخرجه البيهقي في دلائل النبوة (٤/ ٣٩٩)، وابن عساكر في تاريخ دمشق (٢/ ٢٦) من رواية موسىٰ بن عقبة.

الأسلوب التاسع
الاتصال بالقرآن والسنة

إن هذا القرآن أتىٰ بتوجيهاته وأسسه، لكي ينشئ الجماعة المسلمة الأولىٰ وينمي القيادات البشرية من خلاله، وهذه التوجيهات والأسس ما تزال ضرورية لقيام الجماعة والقيادة المسلمة في كل مكان، وإن المعركة يمكن أن تتكرر في كل زمان ومكان، فالقرآن الكريم هو كتاب هذه الدعوة ودستورها ووسيلتها كذلك. ويضرب الإمام حسن البنا لذلك مثلاً فيقول: القرآن مثله مثل التيار الكهربائي، فيه شحنة كهربائية تؤثر في النفوس تأثيرًا ماديًا وروحيًا، يظهر أثره الفياض علىٰ من هداه الله: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾[١] وهذا التيار بحسب الاستعداد، فإذا كان الاستعداد قويًا كان التيار قويًا ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾[٢].

إن مثلنا مثل صانع الكهرباء الذي جعل بينه وبين الكهرباء حائلاً، فهو لا يتأثر بها، فمهمتنا أن نكسر هذا الحائل حتىٰ نلامس هذا القرآن[٣]. وذلك بقراءته والعمل به، فإنه ينبغي لمن كان عنده مصحف أن يقرأ منه كل يوم آيات يسيرة؛ لئلا يكون مهجورًا[٤]، فبهذا القرآن سمت الأمة وساد رجالها. يقول الحافظ الأعمش: لولا القرآن وهذا العلم عندي لكنت من بقالي الكوفة[٥].

وقد بين الإمام الشافعي أثر القرآن والسنة فقال: من تعلم العلم عظمت قيمته، ومن نظر في الفقه نبل مقداره، ومن كتب الحديث قويت حجته..[٦]. والكتاب والسنة هما

(١) الزمر: ٢٣.
(٢) الأنفال: ٢
(٣) مجموعة الرسائل.
(٤) من كلام ابن الجوزي انظر الآداب الشرعية ٢/ ٣٠٩.
(٥) سير أعلام النبلاء ٦/ ٢٢٩.
(٦) تاريخ بغداد ١١/ ٦.

المشرب الأول الذي قال عنه ابن الجوزي: من ورده رأى سائر المشارب كدرة[١]، فهما الصراط المستقيم الموصل إلى حصول المقصود[٢]، ومن سار عليه وصل، قيل للحسن: سبقنا القوم على خيل دهم ونحن على حمرٍ معقرة، فقال: إن كنت على طريقهم، فما أسرع اللحاق بهم[٣].

وهذا المنهج هو الذي فهمه عمر بن عبد العزيز حين ولي يحيى بن يحيى الغساني قضاء الموصل فوجدها من أكبر بلاد الله تعالى تفشت فيهم السرقة والحيل، فكتب إلى عمر بن عبد العزيز يسأله: آخذ بالظنة؟ فكتب إليه عمر بن عبد العزيز: أن خذهم بالبينة وبالسنة، فإن لم يصلحوا، فلا أصلحهم الله تعالى[٤]، فالسنة كما قال الإمام مالك: سفينة نوح من ركبها نجا، ومن تخلف عنها غرق[٥].

*****

(١) صيد الخاطر ١/ ٣٣.
(٢) الاستقامة، لشيخ الإسلام ابن تيمية تحقيق محمد رشاد سالم ٢/ ٢٣٠.
(٣) الفوائد ص٤٣.
(٤) تهذيب التهذيب ١١/ ٣٠٠.
(٥) تاريخ بغداد ٧/ ٣٣٦.

الأسلوب العاشر
إحسان استخدام اللغة في الحياة اليومية

تعتبر اللغة أضخم أداة اتصالية عرفها الإنسان، وهذه تكون لفظية مباشرة، وقد تكون غير مشافهة وغير مباشرة وصاحب الدور القيادى ينبغي أن يكتسب النوعين ويتعلمهما، فبهما يستطيع الاتصال، وبهما يستطيع الانتقال؛ ولهذا يشير القرآن الكريم: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ﴾[(١)] وفي طلب موسىٰ عليه السلام خير دليل ﴿ وَأَخِى هَـٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِىٓ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾ ﴾[(٢)].

ومن الأمور التي تساعد علىٰ فصاحة اللسان ويغفل عنها الناس الإخلاص في القول، كما قيل: كن صحيحًا تكن فصيحًا[(٣)].

والقائد كما يحرص علىٰ سلامة قوله يكون أشد حرصًا علىٰ عمله، قال مالك بن دينار: «**تلقىٰ الرجل ولا يلحن حرفًا وعمله لحن كله**»[(٤)].

وهنا نعرج علىٰ بعض الصفات التي من خلالها يعرف مقدار الصفات القيادية عند الأفراد، فيتم اختيارهم بحسبها مع مراعاة الطاقة الاستيعابية لمراكز التوجيه والتكوين، وهذه الصفات هي:

١ ـ العلم علىٰ وجه العموم، وظهور المواهب علىٰ وجه الخصوص.

٢ ـ قوة الجسم وكمال البنية ﴿وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ ﴾[(٥)].

٣ ـ القدرة علىٰ تجميع الناس من حوله.

٤ ـ تمثله للقدوة في الأقوال والأفعال.

(١) إبراهيم: ٤.
(٢) القصص: ٣٤.
(٣) الفتح الرباني ص ٨٤.
(٤) تهذيب ابن عساكر ٦/ ٢٣٥.
(٥) البقرة: ٢٤٧.

٥ ـ لين الجانب وعدم الغلظة في القول والفعل، مع توفر الشجاعة والكرم، والنظر الثاقب.

قيل لكسرىٰ ذي الأكتاف ـ وكان ضابطًا لمملكته: بم ضبطت ملكك؟ قال: بثمان خصال: لم أهزل في أمر ولا نهي، ولم أخلف وعدًا ولا وعيدًا، ووليت للغنىٰ لا للهوىٰ، وعاقبت للأدب لا للغضب، وأوطأت قلوب الرعية الهيبة من غير ضغينة، وملأتها محبة من غير جرأة، وأعطيتها القوت، ومنعتها الفضول(١).

٦ ـ الحكمة والاتزان العاكسة لحسن التصرف في المواقف.

٧ ـ اللباقة وحسن الأخذ والعطاء والطلب، وقد قيل في ذلك أن سوار بن عبد الله بن سوار القاضي كتب إلىٰ محمد بن عبد الله بن طاهر قائلاً:

لَنَا حَاجَـــةٌ والْعُذْرُ فيهَـا مُقَدَّمٌ　　خَفيفٌ مَعنَاهَا مُضاعَفَةُ الأجْـــر
فَـإنْ تَقْضهـا فالْحَـمدُ لله رَبِّنَا　　وَإنْ تكُن الأخْرَىٰ فَفي أَوْسَع العذْر
عَلَىٰ أَنَّهُ الرحْمَنُ مُعْط ومَانِـــعٌ　　وللرِزْق أسْبَابٌ إلىٰ قَـدَرٍ تَـجْرِي

فأجابه محمد بن عبد الله بن طاهر:

فَسَلْهَا تَجِدْني مُوجبًا لِقَضائـــهَا　　سَريعًا إليها لا يُخالِطُنـي فِكـــْرُ
شـكُورٌ بإفْضالِــي عَلَيْكَ بِمثْلهَا　　وَإنْ لَمْ تكُنْ فِيما حَوَتْهُ يدي شُكْـر
فَهَذَا قلَيـــلٌ لِلِـــذي قَدْ رأيْتـهُ　　لَـحّقكَ لا مَـــنٌّ لَدَيّ ولا فَـخْر(٢)

٨ ـ الرحمة والصبر والحلم والتروي والحسم والحزم وعدم التردد.

٩ ـ الالتزام بمواصفات السمت الإيماني، والأخذ بالعزائم، فتمثل القائد في نفسه بالخصال العالية يلبسه ثوب القدوة لمن معه، روىٰ سفيان بن عيينة عن مالك بن معن، قال: قال عيسىٰ عليه السلام: جالسوا من تذكركم بالله رؤيته، ويزيد في علمكم منطقه ويرغبكم في الآخرة عمله(٣).

(١) بهجة المجالس لابن عبد البر ١/ ٣٣٧.
(٢) المرجع السابق ١/ ٣٢٠.
(٣) المرجع السابق ١/ ٤٣.

١٠ ـ عنده القدرة علىٰ رد الشبهات المثارة حول دينه ومبادئه.

١١ ـ أن يكون واعيًا للواقع الذي يعيشه.

١٢ ـ الصلابة في تحمل التكاليف، والقدرة علىٰ متابعة الأفراد بالتوجيه.

١٣ ـ القدرة علىٰ الإبداع وحب العمل يقول: ج. كورتوا: يؤدي عدم حب العمل إلىٰ الروتين، ويحطم المزايا والاندفاع، ويجعل الجهود المبذولة عقيمة(١).

١٤ ـ تمثل الجدية، فإنه ليس في الحياة شيء بدون ثمن، ولا ثمار بدون عناء، وتقدر قيمة الأشياء، بمقدار الجهد المبذول للحصول عليها(٢)، فالمسلم مطلوب منه أن يبذل السبب والنتائج يكرم الله بها عباده، روىٰ عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**أبى الله أن يجعل أرزاق عباده المؤمنين إلا من حيث يحتسبون**»(٣).

١٥ ـ القدرة علىٰ كسب قلوب من حوله والسعي في حوائجهم، قال الحارثي:

وَمَـــا روضـــةٌ عُلْويةٌ أَسَديةٌ ... مُنمْنَمَةٌ زَهْرَاء ذاتُ ثَـرَىٰ جَعْد
سَقَاها النَّدَىٰ في غَفلَة الدَهْر نَوءَهَا ... فَنَوارُهَا يَهْتزُّ كالْكَـوْكبِ السَّعْد
بأَحْسَنَ مِـنْ مَرْءٍ تَضَمَّن حَاجَـةً ... لِحُر فأَوفي بالنَّجَـاحِ وبالرَّفْدِ (٤)

١٦ ـ القدرة علىٰ معرفة نفسيات الأفراد واستيعابها، يقول ج. كورتوا: يتطلب عمل الرئيس تفهم الرجال. وهذا لا يتسنىٰ إلا بالاحتكاك المباشر الذي يرافقه انسجام متبادل بين الرئيس ومرؤوسيه(٥).

١٧ ـ العقلانية في حل المشاكل مع الاستشعار الكامل بالمسؤولية والإحساس

---

(١) لمحات في فن القيادة، ج كورتوا.

(٢) نفس المصدر ص٩٨.

(٣) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (١١٩٧) عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وقال البيهقي: «وهذا حديث لا أحفظه علىٰ هذا الوجه إلا بهذا الإسناد، وهو ضعيف بمرة، فإن صح فمعناه: أبى الله أن يجعل جميع أرزاقهم من حيث يحتسبون، وهو كذلك، فإن الله يرزق عباده من حيث يحتسبون كما أن التاجر يرزقه من تجارته...»، وضعفه الألباني في الضعيفة (١٤٩٠).

(٤) بهجة المجالس ١/ ٣٢٤.

(٥) لمحات في فن القيادة ص ٣٠.

بمشاكل المسلمين.

١٨ ـ الإلمام الشرعي مع قدرته علىٰ الربط بين الأمور، وتنظيم الوقت والاستفادة منه.

١٩ ـ يحسن الحديث والاستماع.

٢٠ ـ لين من غير ضعف، حازم من غير بطش، قال محمد بن جعفر: الأدب رياسة، والحزم كياسة، والغضب نار، والصخب عار[١]. وقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: لا يصلح هذا الأمر إلا شدة في غير عنف، ولين في غير ضعف[٢].

قال عبد الملك بن عمير: كان مكتوبًا في مجلس زياد الذي يجلس فيه للناس بالكوفة، في أربع زوايا بقلم جليل: الوالي شديد في غير عنف، لين في غير ضعف، العطية لأربابها، والأرزاق لأوقاتها، البعوث لا تجمر، المحسن يجازي بإحسانه، والمسيء يؤخذ علىٰ يديه، فكان كلما رفع رأسه قرأه[٣].

٢١ـ تفقد الغائبين وتحسس مشاكلهم.

٢٢ـ يقلل من سلطة الأمر والنهي، وبهذا قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: دلوني علىٰ رجل أستعمله، فقد أعياني أمر المسلمين..قالوا له: عبد الرحمن بن عوف، قال لهم: ضعيف. قالوا له: فلان. قال: لا حاجة لي به. قالوا: فمن تريد؟ قال: رجل إذا كان أميرهم كان كأنه رجل منهم، وإذا لم يكن أميرهم كان كأنه أميرهم» قالوا: ما نعلمه إلا الربيع بن زياد الحارثي. قال:صدقتم[٤].

٢٣ـ معرفته لمفهوم النقد وأنه للإصلاح وليس للفتنة، يقول ج. كورتوا:ليس هنالك ما يفتت الوحدة ويحطم فعاليتها، مثل النقد المستمر الذي يقوم به أشخاص لا يمكن إرضاؤهم.

(١) بهجة المجالس ١/ ١١٢.
(٢) نفس المرجع ١/ ٣٣١.
(٣) نفس المرجع ١/ ٣٣٤.
(٤) نفس المرجع ١/ ٣٣٦.

ويكون النقد مفيدًا رغم عنفه إذا صدر عن وجدان حيٍ، وسعىٰ إلىٰ البناء والإصلاح، ويصبح ضارا إذا صدر عن نفس مملوءة بالمرارة، والحقد، بغية التخريب والتهديم، حتىٰ لو كان لَبِقًا بألفاظ مختارة. والنقد الممتاز: هو ما كان لَبِقًا في لفظه بناء في غايته[١].

٢٤ـ معرفته ومراعاته لأسس تنمية القدرة علىٰ القيادة، والتي منها:

أ ـ إدراك البيانات التي يمكن أن تستفيد منها الجماعة، ملاحظًا النقط التي تعود علىٰ الجماعة بالفائدة أكثر من ملاحظة النقط التي استرعت الانتباه عنده.

ب ـ من المرغوب فيه ذكر منجزات الجماعة التي تمت إذا كان ذلك يساعد الجماعة علىٰ مواجهة الصعوبات بأمانة وبطريقة بناءة.

جـ ـ عدم التركيز علىٰ المشكلات المتعلقة بشخصية الأفراد، والاقتصار علىٰ ما يهم المؤسسة بأكملها[٢].

٢٥ـ يدرك ويطبق مع أفراد مؤسسته الأسس العلمية للتعامل مع الآخرين والتي منها:

أ ـ يدرك الموجه أن هناك فروقًا فردية بين القادة، وأن لِكُلٍّ أساليبه في إنجاز الأمور، فهو يشجع كل القادة علىٰ أن يكونوا طبيعيين في تصرفاتهم ولا يحاول أن يفرض عليهم أي عادات شخصية ـ أو أجنبية ـ تتعلق بالعمل أو بسرعة إنجاز الأمور والأسلوب المتبع في ذلك.

ب ـ يشيع الموجِّه جوًّا من الحب والاحترام وتبادل المساعدة بعيدًا في كل ذلك عن التوتر الذي يفسد علاقته بمن يوجههم.

جـ ـ يشجع الموجه كل قائد علىٰ الوصول إلىٰ الحلول التي يراها للمشكلات، ويبتعد عن تقديم الحلول له. وله أن يرشد القائد إلىٰ طريقة تعريف المشكلة، وتشخيص أسبابها وجمع الحقائق بشأنها، واختبار الحلول المختلفة، ثم اختيار أحدها لتطبيقه، مراعيًا في ذلك الضوابط الشرعية والأعراف الجماعية.

د ـ يساعد الموجه القائد علىٰ الإيمان بأنه من الطبيعي وجود المشكلات في حياة

(١) بهجة المجالس ١/ ٣٣٤.

(٢) لمحات في فن القيادة ص١٤٧.

الجماعة وأنها فرص للتعلم.

هـ ـ يقدم الموجه ما عنده من المعلومات والفهم لسلوك الأفراد والجماعات للإسهام في حل مشكلات القائد، كما يقترح مصادر أخرىٰ يقومان معًا بدراستها ليستزيدا من فهم الأمور.

و ـ يساعد الموجه القائد علىٰ تحديد أهدافه دوريا فيما يختص بخططه وأعماله، ثم تقييم مدىٰ تقدمه نحو تحقيق هذه الأهداف[١].

هذه بعض الصفات التي نذكرها علىٰ سبيل المثال؛ لعلها تكون عونًا للسائرين في طريق الخير والنماء.

والحمد لله رب العالمين

*****

(١) كيف نعد قادة أفضل ص٣٤.

الخاتم

قال المبرد: الاستماع بالعين، فإذا رأيت عين من تحدثه ناظرة إليك، فاعلم أنه يحسن الاستماع. فنظرات إخواننا التي نحسن الظن بها، ونشعر بحبها لما نكتب وما نقول، هي الدافعة لأن يمسك أحدنا قلمه ويبدأ بالتفكير بما ينفع السائرين إلىٰ الله سبحانه في تحركهم لخدمة الإسلام، راجيًا بذلك المثوبة من الله.

وإيمانًا بأهمية القائد وبدوره الفاعل في البناء الدعوي والإصلاحي، فقد تعددت الأبحاث وتنوعت الكتابات في القيادة والقادة.

وما قد ذكرناه في الصفحات السابقة، هو نتيجة إحساسنا باحتياج العاملين في حقل الدعوة إليه، حيث إن المسلم مطلوب منه أن يكون قائدًا في ميدانه الذي أعد نفسه له، وهذا الأمر ليس بالتمنىٰ، بل هو عوامل متضافرة يطلب فيها الجهد البشرىٰ ليخرج بعدها المسلم حائزًا لقدر كبير من الصفات القيادية، فكما أن القيادة موهبة، وفن تعتمد علىٰ المواهب الفطرية، فهي كذلك علم وقواعد رسمت من خلال تاريخ طويل من تجارب القادة، فمعرفة هذا العلم وممارسة القيادة العملية لا يؤديان فقط إلىٰ تحسين الأهلية القيادية لأصحاب المواهب الفطرية والوصول بهذه الأهلية إلىٰ مستويات ممتازة، ولكنهما يؤديان أيضًا إلىٰ تنمية الأهلية القيادية لقادة المستويات المتوسطة والصغرىٰ، حتىٰ لو لم يكن هؤلاء القادة يملكون في الأساس قسطًا عاليًا من موهبة القيادة الفطرية، وهذه الورقات هي مساهمة في عملية البناء القيادي يؤخذ منها ما يتبين صوابه، ويرد ما يظهر خطؤه، فهي اجتهادات بشرية مدعمة بمواقف بشرية كذلك يطرأ عليها الخطأ، كما يرجىٰ فيها الصواب، فما كان فيها صوابًا فمن الله، أما الخطأ فمن نفسي وأستغفر الله منه، كما لا يفوتني أن أذكر أن ما ورد يبقىٰ لا قيمة له إن لم يجد الاعتناء الكافي من المقتنعين به، في مجال تطبيقاتهم العملية اليومية.

والله أسأل أن يوفق الجميع لما فيه رفعة هذا الدين.

*****

هذه الرسالة

اختطت سبيلا مخصوصًا في الحديث عن القيادة، وهو الحديث عن «**التنمية القيادية**» بالتركيز علىٰ جملة الأسباب الذاتية خاصة؛ وذلك لأهميتها الإيمانية في صناعة النموذج القيادي الرباني الذي يهتدي بخطة النموذج الأسمىٰ في الدعوة إلىٰ الله، وفي الرحمة والهداية للعالمين محمد ﷺ...

والله أسأل القبول والتوفيق والسداد والرشاد.

الرسالة الخامسة

ذاتية المؤمن طريق النماء

مقدمة

عند الحديث عن الشخصية الإيجابية لا بد من وقفة عند الشخصية التنفيذية ومقوماتها من ذكاء مقنن ومبلور في دائرة العمل الإسلامي لتحقيق أهدافه وغاياته، وكذلك العمق والأصالة في الرصيد الفكري الذي يتحرك فيه أثناء محاوراته مع الآخرين من أجل الدعوة ومتعلقاتها.

ويلزمه كذلك روحانية عالية، تتساقط عندها الشبهات وتذوب عندها الشهوات، وهو في ذلك يكون في نفسه قدوة عمية لمن معه ومن بعده، وهو مع هذه الحركة الإيجابية مفتقر إلىٰ نصر الله ـ تعالىٰ ـ وإن لم يحقق شيئًا فعزاؤه ما ذكره ابن عباس ﵄ في الحديث الصحيح، قال: خرج علينا رسول الله ﷺ يوما، فقال: «**عرضت عليّ الأمم، فجعل يمر النبي معه الرجل، والنبي معه الرجلان، والنبي معه الرهط، والنبي ليس معه أحد...**»[1].

وحين تتكون هذه الذاتية في مجاميع العاملين وتعم، سيعلمون أن نصر الله قد جاء ـ كما قال صاحب الظلال ـ رحمه الله: «إنه مدخر لمن يستحقونه، ولن يستحقه إلا الذين يثبتون حتىٰ النهاية، الذين يثبتون علىٰ البأساء والضراء، الذين يصمدون للزلزلة، الذين لا يحنون رؤوسهم للعاصفة، الذين يستيقنون أن لا نصر إلا نصر الله، وعندما يشاء الله، وحتىٰ تبلغ المحنة ذروتها، منهم يتطلعون فحسب إلىٰ نصر الله، لا إلىٰ أي حل آخر، ولا إلىٰ أي نصر لا يجيء من عند الله، ولا نصر إلا من عند الله[2].

وحين ذلك ستتساقط الأصنام، وتتغير شنشنة الطغاة، كما قال الله ـ عز وجل ـ في حكاية الطاغية فرعون ﴿قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم

(١) أخرجه البخاري (٥٧٥٢)، ومسلم (٢٢٠).
(٢) الظلال ١/ ٢١٩.

بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾ [1]، نعم إنها التمتمات التي يجب أن ينتبه لها فهي: «شنشنة الطغاة حينما يحسون أن الأرض تتزلزل تحت أقدامهم، عندئذ يلينون في القول بعد التجبر، ويلجؤون إلىٰ الشعوب، وقد كانوا يدوسونها بالأقدام، ويتظاهرون بالشورىٰ في الأمر، وهم كانوا يستبدون بالهوىٰ، وذلك إلىٰ أن يتجاوزوا منطقة الخطر، ثم إذا هم جبابرة مستبدون ظالمون»[2].

*****

(١) الشعراء: ٣٤، ٣٥.
(٢) الظلال ١/ ٢٥٩٤.

مدخل

الإيمان والحرك :

اختلف العلماء في تعريف الإيمان وتحديد مقصده، فمنهم من جعل العمل شرطًا لاستكمال الإيمان وصحته، ومنهم من جعل العمل ركنًا لازمًا للإيمان لا يصح إلا به. ومهما يكن من اختلاف في تحديد معنىٰ الإيمان، فإن الإيمان في حقيقته ليس مجرد عمل لساني ولا عمل بدني ولا عمل ذهني. إن الإيمان في حقيقته عمل نفسي يبلغ أغوار النفس ويحيط بجوانبها كلها من إدراك وإرادة ووجدان. فلابد من إدراك ذهني تنكشف به حقائق الوجود، إدراك لا يدانيه شك ولا تعتريه شبهة، ولابد أن يصحب هذه المعرفة الجازمة إذعان قلبي وانقياد إرادي، يتمثل في الخضوع والطاعة لحكم من آمن به مع الرضا والتسليم. ولابد أن يتبع ذلك حرارة وجدانية قلبية، تبعث علىٰ العمل بمقتضيات العقيدة والالتزام بمبادئها الخلقية والسلوكية والجهاد في سبيلها بالمال والنفس.

فالإيمان إذن ليس فكرة تعيش في محيط الذهن ولا هو حركة تنمو في محيط العمل. ولكنه عقيدة تنغرس في القلب، فتتمكن منه، وتنمو ثم تثمر وتزهر، كالبذرة إذا ألقيت في تربة صالحة نمت وترعرعت وضربت بجذورها في الأرض، وامتدت بأغصانها في الهواء، ثم أزهرت وأثمرت وآتت أكلها بإذن ربها، فالإيمان يعطي الإنسان تصورًا عن عالمه الخارجي، وعن العوالم الأخرىٰ المغيبة عنه، ويعطيه تصورًا عن علاقاتها ببعضها وعن دوره فيها وعلاقتها بها. فمتىٰ استقر ذلك في النفس وبلغ منها مبلغ اليقين أحاطت به النفس واحتضنته، كما تحتضن التربة البذرة إذا ألقيت فيها. هذه طبيعة النفس التي خلقها الله تعالىٰ وفطر الناس عليها. وهذا هو الناموس الذي يحكمها، لا نملك نحن البشر بعلمنا القاصر لها تعليلاً، ولكنها حقيقة يجب أن نستبقيها علىٰ كل حال.

ثمرة الإيمان:

إن القلب متىٰ تذوق حلاوة هذا الإيمان واطمأن إليه وثبت عليه، لابد وأن يندفع لتحقيق حقيقته في خارج القلب، وفي واقع الحياة، في دنيا الناس. يريد أن يوحد بين ما

يستشعره في باطنه من حقيقة الإيمان، وما يحيط به في ظاهره من مجريات الأمور وواقع الحياة. ولا يطيق الصبر علىٰ المفارقة بين الصورة الإيمانية التي في حسه والصورة الواقعية من حوله؛ لأن هذه المفارقة تؤذيه وتصدمه في كل لحظة، ومن هنا كان هذا الانطلاق إلىٰ الجهاد في سبيل الله بالمال والنفس، فهو انطلاق ذاتي من نفس المؤمن.

حقيقة الإيمان:

قلنا: إن الإيمان في حقيقته ليس مجرد عمل لسانىٰ، ولا عمل بدني ولا عمل ذهني ولكنه عمل نفسي يبلغ أغوار النفس ويحيط بجوانبها كلها من إدراك وإرادة ووجدان. ونزيد الأمور وضوحًا، والإجمال تفصيلاً فنقول:

الإيمان ليس عملاً لسانيا:

ليس الإيمان مجرد إعلان بين الناس يعلنه الإنسان بلسانه، وقد لا تكون له حقيقة في قلبه، فقد كان المنافقون في عهد رسول الله ﷺ يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم، ويعلنون أنهم مؤمنون بالله وباليوم الآخر، والله سبحانه يكشف زيفهم، ويظهر خداعهم الذي يخدعون به أنفسهم لا غيرهم قال سبحانه ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾﴾[1]، فقول اللسان وحده، ليس هو الإيمان في حقيقته، كما يتضح من الآيتين السابقتين.

الإيمان ليس مجرد عمل بدني:

وليس الإيمان -في حقيقته- مجرد عمل بدنىٰ اعتاد الإنسان أن يؤديه، فقد كان المنافقون يصلون خلف رسول الله ﷺ، بل وكانوا يخرجون معه للغزو في بعض الأحيان، ومع هذا لم تنقلهم هذه الأعمال البدنية التي هي من شعائر الإسلام إلىٰ روضة الإيمان مما يؤيد القول بأن الإيمان ليس فقط عملاً بدنيًا.

الإيمان ليس عملاً فكريا ذهنيا:

إن الإيمان ليس هو المعرفة العقلية الذهنية بحقائق الحياة، فالإيمان ليس في دراسة

---

(١) البقرة: ٨، ٩.

الكتب الدينية ومعرفة حقائقها، فذلك وحده لا يحقق الإيمان، ولا يجعل القلب يستشعر حلاوته، فكم من قوم عرفوا حقائق الإيمان، ولم يؤمنوا ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾(١).

إذن فما هو الإيمان..؟

إنه نسيج متكامل من المعرفة بالله وبرسوله وبكل ما أمر به الله ورسوله، معرفة تصل إلىٰ حد اليقين الجازم الذي لا يزلزله شك، ولا يخالج صاحبه ريب، فيستقر هذا المفهوم الإيماني في قلب المؤمن فتندفع جوارحه لتترجم عمّا في القلب، فيعمل الإنسان بموجب ما اعتقد، حتىٰ إنه يقدم روحه ـ إذا اقتضىٰ الأمر في سبيل الله، وإعلاء دينه ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾﴾(٢)، هذا المعنىٰ الإيمانىٰ حينما تخالط بشاشته القلوب، تنقاد إليه الجوارح، فيكون الخشوع والخضوع لأمر الله سبحانه: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾﴾(٣).

وهذا الخضوع والخشوع يبعث علىٰ العمل بمقتضيات العقيدة، فتحسن الصلة بالله، وتلين القلوب ويقبل المؤمن علىٰ ربه في ذلة وتضرع وتوكل، وتحسن الصلة بخلق الله المؤمنين، فيحس المؤمن آلامهم ويقيل عثراتهم، ويعينهم بماله ـ زكاة أو صدقة ـ ويتعاون معهم في البر والمعروف ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾(٤).

فالمؤمن الحق يُصدِّق قلبه بالله وبرسوله فيخشع ويخضع، ويندفع ليحقق بسلوكه وعمله ما استقر في قلبه، فيكون للإيمان أثر طيب في واقع الحياة يزيل منها المكر،

(١) النمل: ١٤.
(٢) الحجرات: ١٥.
(٣) النور: ٥١.
(٤) الأنفال: ٢ـ٤.

ويغرس في أرضها البر والخير والحب والتعاون والرحمة بين المؤمنين، والشدة والغلظة على الكافرين الجاحدين، فينقشع الشر، ويعم الخير، وعلى هذا فليس الإيمان فكرًا نظريا ولا ترديدًا لسانيا، أو إعلانًا قوليا، ولا عملاً بدنيا، وإنما هو مزيج يصب في القلب فيحركه، فيندفع المؤمن به مغيرًا واقع الأرض من حوله، ليظهر فيها دين الله على الدين كله ولو كره المشركون. نستطيع إذن أن نطلق على هذه الحقيقة لفظ عقيدة، لا يمكن للمؤمن أن يتخلى عنها، فقد عُقدت في قلبه وارتبطت به، وقد فرق الكاتب أحمد أمين بين الرأي والعقيدة فقال: «**فرق كبير بين أن ترى الرأي، وأن تعتقده، إذا رأيت الرأي فقد أدخلته في دائرة معلوماتك، وإذا اعتقدت به جرى في دمك وسرى في مخ عظامك، وتغلغل في أعماق قلبك**»(١).

والإيمان بهذا المعنى ثابت مستقر، لا يقبل تغييرا ولا تبديلاً، ولا وهنًا ولا ضعفًا ولا تراجعًا أمام كيد الأعداء ومكر المتربصين، وقدوة كل مؤمن في ذلك رسول الله ﷺ حيث قال قولته التي تكشف عن موقفه: «**والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر ما تركته، حتى يظهره الله، أو أهلك دونه**»(٢).

فهذا هو الإيمان وهذا هو أثره في تغيير النفوس والجماعة والأرض؛ ليسلم الجميع لرب العالمين.

*****

(١) فيض الخاطر.

(٢) أخرجه ابن إسحاق كما في السيرة النبوية لابن هشام (٢/ ١٠١)، وابن جرير الطبري في تاريخه (١/ ٥٤٥)، والبيهقي في دلائل النبوة (٢/ ١٨٧) عن يعقوب بن عقبة بن المغيرة بن الأخنس معضلاً، وأخرجه الطبراني في الأوسط (٨٥٥٣) عن عقيل بن أبي طالب بنحوه، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٦/ ١٥): «رواه الطبراني في الأوسط والكبير.... وأبو يعلى باختصار يسير من أوله ورجال أبي يعلى رجال الصحيح».

أولا: مفهوم الذاتية وجوانبها

بعد هذا الاستطراد في مظاهر الطبيعة التنفيذية يتضح أن الذاتية:

هي الحافز الذي يدفع بطاقات الإنسان لأداء عمل معين؛ للوصول إلىٰ غاية محددة؛ متحملاً كافة الصعاب لتحقيق الهدف، فهي اندفاع من الداعية بمجرد إحساسه أن هذا النمط من الأعمال يحقق نمو شخصيته في شتىٰ الجوانب، ويقوم بعمله هذا دونما تكليف أو متابعة، بل هو السعىٰ لتحقيق الأجر والمثوبة من الله.

*** جوانب الذاتي :**

أولا: الذاتية الإيمانية:

ويتضح مرادنا من خلال الأمثلة الآتية:

من السير الماضية:

أ ـ قال البخاري: حدثنا أبو نُعَيم قال: حدثنا مِسْعَرٌ عن زِيادٍ قال: سمعتُ المغيرةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ يقول: إنْ كانَ النبيُّ ﷺ لَيَقُومُ ـ أو ليصلي ـ حتىٰ ترم قدماه ـ أو ساقاه ـ فيقال له، فيقول: «**أفلا أكونُ عبدًا شكورًا؟**»[1] فالنبي قد غُفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، ومع ذلك نراه ﷺ بهذا الرّقي في ممارسة النوافل.

ب ـ قصة أبي لبابة في حصار النبي ﷺ بني قُريظة. حيث إنهم بعثوا إلىٰ رسول الله ﷺ: أن ابعثْ إلينا أبا لُبابة بن عبد المُنذر، أخا بني عمرو بن عوف، وكانوا حُلفاء الأوس؛ لنستشيره في أمرنا، فأرسَله رسول الله ﷺ إليهم؛ فلما رأَوْه، قام إليه الرجالُ، وجَهش إليه النساءُ والصبيانُ يَبكونَ في وجهه، فَرَقَّ لهم، وقالوا له: يا أبا لُبابة! أترىٰ أن ننزل علىٰ حُكمِ محمد؟ قال: نعم، وأشار إلىٰ حَلقه، إنه الذبحُ. قال أبو لبابة: فوالله ما زالت قدماي من مكانها حتىٰ عرفتُ أني خنتُ الله ورسوله ﷺ. ثم انطلق أبو لُبابة علىٰ وجههِ، ولم يأت رسول الله ﷺ حتىٰ ارتبط في المسجد إلىٰ عمودٍ من عمده، وقال: لا أبرحُ مكاني هذا حتىٰ يتوب الله عليّ مما صنعتُ، وعاهد الله: ألا أَطأ بني قريظة أبدًا، ولا أُرىٰ في بلد

(١) أخرجه البخاري (١١٣٠)، ومسلم (٢٨١٩)، عن المغيرة بن شعبة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

خُنتُ الله ورسوله فيه أبدًا[١].

وأقام أبو لبابة مُرتبطًا بالجذع ستَّ ليال، تأتيه امرأته في كل وقت صلاة، فتحلّه للصلاة، ثم يعود فيَرتْبط بالجذْع، حتىٰ نزل في توبته قول الله عز وجل: ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠٢﴾﴾[٢]

جـ - قصة عبَّاد بن بِشْر: في حراسته لمجموع المسلمين الراجعين من غزوة «**ذات الرقاع**»، حيث رُمي بالسهام أكثر من ثلاث مرات، وعند خوفه من الموت أيقظ رفيقه في الحراسة «**عمّار بن ياسر**» فلما رأىٰ - عمار - ما بالأنصاري من الدماء، قال: سبحان الله، أفلا أهببتني أول ما رَماك؟ قال: كنتُ في سورة أقرؤها فلم أحبَّ أن أقطعها حتىٰ أنفذَها، فلما تابع عَلَيّ الرمي ركعتُ فأذِنْتُكَ، وايم الله، لولا أن أضيِّعَ ثغرًا أمرني رسول الله ﷺ بحفظه، لقطع نفسي قبل أن أقطعها أو أنفِذَها[٣].

من سير الحاضرين:

إن الذاتية بالنسبة لشباب الدعوة اليوم تعني عملية ذكية في كسب الأجر وتنمية الجذوة الإيجابية في النفس من خلال عمل عام فيه نفع الناس، كما قال عبد الله بن عباس.

ولوضوح الأمر سنذكر صورًا من ذلك:

١- حدثنا أخ أنه في رحلة جهادية مع إخوانه، وفي ليلة من الليالي استيقظ بعد منتصف الليل، فتوجه للوضوء ليُصلي ما يُكرمه الله به، وإذا به بعد الانتهاء من الوضوء يرىٰ ملابس إخوانه قد ملأت سلة ملابس المغسلة؛ ولعدم وجود وقت للراحة كان هذا الكم

---

(١) أخرجه ابن إسحاق كما في السيرة النبوية لابن هشام (٤/ ١٩٥، ١٩٦) عن معبد بن كعب بن مالك مرسلاً، وأخرجه سعيد بن منصور في سننه (٩٨٧) . ط. دار العصيمي عن عبد الله بن أبي قتادة مرسلاً أيضًا.

(٢) التوبة: ١٠٢.

(٣) أخرجه أبو داود (١٩٨) ، وأحمد (٣/ ٣٤٣) عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه، وحسنه الألباني، وليس في الحديث تسمية الرجلين بعمار وعباد بن بشر،وبذكرهما أخرجه البيهقي في دلائل النبوة (٣/ ٣٧٨، ٣٧٩) عن خوات بن جبير.

من الملابس، فتحركت الذاتية بفضل من الله وقام الأخ بغسل ملابس إخوانه، وقبل صلاة الفجر كان قد انتهىٰ، فصلىٰ الوتر مكتفيًا به عن قيام الليل، ثم أيقظ إخوانه لصلاة الفجر، يقول محدثنا: إنه قد وجد في نفسه سموًّا إيمانيا لم يكن يجده في تعبداته السابقة.

٢ـ وحدثنا أخ أنه في ليلة من ليالي منىٰ في موسم الحج كان هو ومجموعة من الطيبين يعيشون في مخيم من المخيمات المنتشرة في أرض منىٰ، وفي ليلة الأول من أيام التشريق والناس قد أعياها التعب في العبادات المتتالية ـ عرفات ثم يوم النحر ـ أيام حافلة بالمناسك المتتالية، يقول محدثنا: إنه في هذه الليلة وفق للقيام قبل صلاة الفجر، فذهب للوضوء ـ وهذه الأمر قبل عشر سنوات ولم تكن هناك حمامات عامة ـ وإذا بالأباريق قد امتلأت تنتظر الحجاج ليتوضؤوا منها لصلاة الفجر، وإذا بطيف رجل يقوم بتصليح أماكن الخلاء يتخفي بظلام الليل، ويبتغي بذلك التسهيل علىٰ إخوانه في استعدادهم للصلاة، فعرفتهُ. شاب جديد في التزامه في سلك الدعوة أعرف أنه مدير شركة حكومية تحت إمرته ما لا يقل عن مائة موظف، فكبر في عيني، وحمدت الله أن وفقه لهذا العمل الذاتي الرائع وذهبت من غير أن يشعر بي لأتوضأ وأصلي، وهذا قدري من الأجر فهنيئًا لأخي هذا التوفيق.

والأمثلة بعد ذلك كثيرة لمن عدها وتتبعها.

ثانيا: الذاتية الأخلاقية:

نذكر علىٰ سبيل المثال قصة تعامل الصديق رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مع حادثة الإفك، وعفوه عن مسطح بن أثاثة بن عبّاد ولأهميتها ولتصوير الوضع الذي عفا فيه الصديق عن مسطح نذكرها بكاملها.

قال الإمام البخاري[(١)]: حدثنا عبدُ العزيز بن عبد الله: حدثنا إبراهيمُ بن سعد عن صالح، عن ابن شهاب قال: حدثنىٰ عُروةُ بن الزُّبير وسعيدُ بن المسيب وعلقمة بن وقاص وعُبيدُ الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود، عن عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا زوج النبي ﷺ حينَ قال لها أهل الإفك ما قالوا، وكلهم حدثني طائفة من حديثها وبعضهم كان أوعىٰ

(١) أخرجه البخاري (٤١٤١)، ومسلم (٢٧٧٠) عن عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا.

لحديثها من بعض وأثبت له اقتصاصًا، وقد وعَيتُ عن كل رجل منهم الحديث الذي حدثني عن عائشة، وبعض حديثهم يصدِّقُ بعضًا، وإن كان بعضهم أوعىٰ له من بعض، قالوا: «**قالت عائشةُ: كان رسول الله ﷺ إذا أرادَ سفرًا أقرع بين أزواجه، فأيتهنَّ خرجَ سهمها خرج بها رسول الله ﷺ معه. قالت عائشة: فأقرع في غزوة غزاها فخرج فيها سهمي، فخرجتُ مع رسول الله ﷺ بعدما أنزل الحجاب، فكنتُ أحمل في هَودجي وأنزلُ فيه، فسرْنا؛ حتىٰ إذا فرغَ رسول الله ﷺ من غزوته تلك وقفَلَ ودنونا من المدينة قافلين آذن ليلة بالرحيل، فقمت حين آذنوا بالرحيل، فمشيت حتىٰ جاوزت الجيش، فلما قضيتُ شأني أقبلتُ إلىٰ رحلي، فلمست صدري، فإذا عِقْدٌ لىٰ من جَزع ظَفارٍ قد انقطع، فرجعتُ فالتمستُ عِقْدي، فحبسني ابتغاؤه. قال: وأقبلَ الرهط الذين كانوا يرحُلُوني فاحتملوا هودجي، فرحلوه علىٰ بعيري الذي كنت أركب عليه وهم يحسبون أني فيه، وكان النساءُ؛ إذ ذاك خِفَافًا لم يَهْبُلْنَ ولم يَغشَهُنَّ اللحمُ، إنما يأكلْنَ العلقة من الطعام ـ فلم يستنكر القوم خِفةَ الهودج حين رفعُوه وحملُوه، وكنتُ جارية حديثة السِّن، فبعثوا الجمل فساروا، ووجدت عِقْدي بعدما استمر الجيش، فجئت منازلهم وليس بها منهم داعٍ ولا مجيبٌ. فتيممتُ منزلي الذي كنتُ فيه، وظننتُ أنهم سيفقدوني فيرجعونَ إليّ، فبينما أنا جالسةٌ في منزلي غَلَبَتْني عيني فنمتُ، وكان صفوانُ بن المعطَّل السُلَميّ ثم الذكواني من وراء الجيش، فأصبح عند منزلي، فرأىٰ سوادَ إنسان نائمٍ، فعرفني حين رآني، وكان رآني قبل الحجاب، فاستيقظت باسترجاعه حين عرفني، فخمَّرت وجهي بجلبابي ووالله ما تكلمنا بكلمة، ولا سمعت منه كلمة غيرَ استرجاعه، وهوىٰ حتىٰ أناخ راحلته، فوطئ علىٰ يدها، فقمتُ إليها فركبتها، فانطلق يقودُ بي الراحلة حتىٰ أتينا الجيشُ موغرِينَ في نحر الظهيرة وهم نزول، قالت: فهلك من هلك، وكان الذي تولىٰ كِبْرَ الإفْكِ عبدُ الله بنُ أبيّ ابن سلول. قال عروة: أُخبِرْتُ أنه كان يُشاعُ ويُتَحدَّثُ به عنده فيُقرُّه ويستمعُه ويستوشيه. وقال عروة أيضًا: لم يسمَّ من أهل الإفك أيضًا إلا حسان بن ثابت، ومسطح بن أثاثة وحَمنة بنت جحش في ناس آخرين لا علم لي بهم، غير أنهم عُصبة ـ كما قال الله تعالىٰ ـ وإن كبر ذلك يُقال عبد الله بن أبيّ ابن سَلولَ، قال عروة: كانت عائشة**

تكره أن يُسبَّ عندها حسان وتقول: إنه هو الذي قال:

فإن أبي ووالده وعِرضي لعِرضِ محمدٍ منكم وِقاء

قالت عائشة: فقدمنا المدينة، فاشتكيت حين قدمت شهرًا، والناس يُفِيضُون في قول أصحاب الإفك لا أشعر بشيء من ذلك، وهو يريبني في وجعي أني لا أعرف من رسول الله ﷺ اللطفَ الذي كنتُ أرىٰ منه حين أشتكي، إنما يدخلُ عليّ رسولُ الله ﷺ فيُسلمُ، ثم يقول: «كيفَ تيكم؟» ثم ينصرف، فذلك يريبني ولا أشعر بالشر، حتىٰ خرجت حين نقهت، فخرجت مع أم مسطح قبل المناصع - وكان مُتبرزنَا، وكنّا لا نخرج إلا ليلاً إلىٰ ليل - وذلك قبل أن نتخذ الكُنُفَ قريبًا من بيوتنا، قالت: وأمرنا أمر العرب الأولِ في البريّة قِبَلَ الغائطِ، وكنا نتأذىٰ بالكنف أن نتخذها عندَ بيوتِنا. قالت: فانطلقت أنا وأم مسطح - وهي ابنة أبي رُهم بن المطلب بن عبدِ مناف، وأمها بنتُ صخرِ بن عامر خالة أبي بكر الصديق، وابنها مسطح بن أثاثة بن عبادِ بن المطلب - فأقبلت أنا وأم مسطح قبلَ بيتي حين فرغنا من شأننا، فعَثَرت أم مِسطحٍ في مِرطها فقالت: تَعِسَ مسطحٌ، فقلتُ لها: بئس ما قلت، أتسُبينَ رجلاً شهدَ بدرًا؟ فقالت: أي هَنتَاه، ولم تسمعىٰ ما قال؟ قالتْ: وقلتُ ما قالَ؟ فأخبرتني بقولِ أهل الإفكِ فازددت مرضًا علىٰ مرضىٰ، فلما رجعتُ إلىٰ بيتي دخلَ علىٰ رسول الله ﷺ، فسلمَّ ثم قال: «**كيف تيكم؟**» فقلت له: أتأذن لي أنْ آتي أبويّ؟ قالت: وأريد أن أستيقن الخبر من قبلهما. قالت: فأذن لي رسولُ الله ﷺ. فقلت لأمي: يا أمتاه، ماذا يتحدث الناس؟ قالت: يا بنية، هوِّني عليك. فوالله لقلَّما كانت امرأةُ قطُ وضيئةٌ عند رجلٍ يحبُّها لها ضرائرُ إلا أكثرنَ عليها، قال فقلت: سبُحان الله، وقد تحدث الناس بهذا؟ قالت: فبكيت تلك الليلة حتىٰ أصبحتُ لا يرقأ لي دمعٌ ولا أكتحلُ بنومٍ، ثم أصبحتُ أبكي. قالت: ودعا رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب وأسامةُ بن زيد حين استلبث الوحي يسألهما ويستشيرهما في فراق أهله. قالت: فأما أسامة فأشارَ علىٰ رسول الله ﷺ بالذي يعلم من براءة أهله وبالذي يعلم لهم من نفسه، فقال أسامة: أُهْلُكَ، ولا نعلم إلا خيرًا. وأما عليّ فقال: يا رسول الله، لم يضيقْ الله عليك، والنساء سواها كثيرٌ، وسل الجارية تصدقْكَ. قالت: فدعا رسولُ الله ﷺ بريرةَ فقال: «**أي بريرةَ، هل رأيت من**

شيء يَريبُك؟» قالت له بريرةُ: والذي بعثكَ بالحق، ما رأيت عليها أمرًا قط أغمِصُه، غير أنها جاريةُ حديثةُ السنِ تنامُ عن عجين أهلها، فتأتي الداجنُ فتأكلُه. قالت: فقام رسول الله ﷺ من يومه فاستعذر من عبد الله بن أبي وهو علىٰ المنبر ـ فقال: «**يا معشر المسلمين من يعذرني من رجل قد بلغني عنه أذاه في أهلي، والله، ما علمتُ علىٰ أهلي إلا خيرًا، ولقد ذكروا رجلاً ما علمت عليه إلا خيرًا، وما يدخل علىٰ أهلي إلا معي**» قالت: فقام سعدُ بن معاذٍ ـ أخو بني عبد الأشهل ـ فقال. أنا يا رسول الله أعذرُك، فإن كان من الأوس ضربتُ عنقه، وإن كان من إخواننا من الخزرج أمرتنا، ففعلنا أمرك. قالت: فقام رجل من الخزرج ـ وكانت أم حسان بنت عمه من فخذه وهو سعدُ بن عبادة وهو سيد الخزرج. قالت: وكان قبل ذلك رجلاً صالحًا، ولكن احتملته الحميَّة ـ فقال سعد: كذبت لعمرُ الله، لا تقتلُه ولا تَقْدِرُ علىٰ قتله، ولو كان من رهطك ما أحببت أن يقتل. فقام أسيد بن حضير ـ وهو ابن عم سعد ـ فقال لسعد بن عبادة: كذبت لعمرُ الله، لنقتلنَّه، فإنك منافقٌ تجادل عن المنافقين. قالت: فثار الحيان:الأوسُ والخزرجُ ـ حتىٰ همُّوا أن يقتتلوا ورسولُ الله ﷺ قائم علىٰ المنبر. قالت: فلم يزل رسولُ الله ﷺ يُخفضهُمُ حتىٰ سكتُوا وسكتَ. قالت: فبكيتُ يومي ذلك كله لا يرقأ لىٰ دمع ولا أكتحل بنوم، قالت: وأصبحَ أبواي عندي وقدْ بكيتُ ليلتين ويومًا لا يرقأ لي دمع ولا أكتحل بنوم، حتىٰ أني لأظنُ أن البكاء فالقٌ كبدي. فبينما أبواي جالسان عندي وأنا أبكي، فاستأذنت عليّ امرأة من الأنصار، فأذنْت لها، فجلست تبكي معي. قالت: فبينما نحن علىٰ ذلك دخلَ رسول الله ﷺ علينا فسلم ثم جلس. قالت: ولم يجلس عندي منذُ قيل ما قيل قبلها، ولقد ثبت شهرًا لا يوحىٰ إليه في شأني بشيء. قالت: فتشهد رسول الله ﷺ حين جلس ثم قال: «**أما بعد يا عائشة إنه بلغني عنكِ كذا وكذا، فإن كنتِ بريئةً فسيبرئك الله، وإن كنت ألممتِ بذنبِ فاستغفري الله وتوبي إليه، فإنَّ العبدَ إذا اعترفَ ثم تابَ تابَ الله عليه**» قالت: فلمَّا قضىٰ رسول الله ﷺ مقالته قَلَصَ دمعي حتىٰ ما أحسُّ منه قَطرة، فقلت لأبي: أجبْ رسولَ الله ﷺ عني فيما قال، فقال أبي: والله ما أدري ما أقولُ لرسولِ الله ﷺ. فقلتُ لأمي: أجيبي رسولَ الله ﷺ فيما قال. قالت أمي: والله ما أدري ما أقولُ لرسولِ الله ﷺ.

فقلتُ ـ وأنا جارية حديثةُ السن لا أقرأ من القرآن كثيرًا: إني والله لقد علمتُ لقد سمعتم هذا الحديث حتىٰ استقرَّ في أنفسكم وصدقتم به، فلئن قلتُ لكم:إني بريئة ـ لا تصدقونني، ولئن اعترفت لكم بأمر ـ والله يعلم أني منه بريئة ـ لتُصدِّقُنِّي، فوالله لا أجدُ لي ولكُمْ مثلاً إلا أبا يوسف حين قال: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ١٨﴾[1]، ثم تحولت فاضطجعت علىٰ فراشي، والله يعلمُ أني حينئذ بريئةٌ، وأنَ الله مبرئي ببراءتي. ولكن والله ما كنتُ أظنُّ أن الله تعالىٰ منزلٌ في شأني وحيًا يتلَىٰ، لشأني في نفسي كان أحقرَ من أن يتكلمَ الله في بأمرٍ، ولكن كنتُ أرجُو أنْ يرىٰ رسولُ الله ﷺ في النوم رؤيا يبرئني الله بها، فوالله ما رام رسول الله ﷺ مجلسه ولا خرج أحد من أهل البيت حتىٰ أنزلَ عليه، فأخذه ما كان يأخذه من البُرَحَاءِ، حتىٰ إنه ليتحدرُ منه العرقُ مثلُ الجُمانِ ـ وهو في يوم شات ـ من ثقلِ القول الذي أُنزلَ عليه، قالت: فسُرِّيَ عن رسول الله ﷺ وهو يضحكُ، فكانت أولَ كلمة تكلَّمَ بها أنْ قال: يا عائشة، أمَّا الله فقد برأك. قالتْ: فقالت لي أمي: قومي إليه، فقلت: لا والله لا أقومُ إليه، فإني لا أحمدُ إلا الله عز وجل. قالت: وأنزل الله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ﴾[2] الآيات العشر. ثم أنزل الله تعالىٰ هذا في براءتي. قال أبو بكر الصديق ـ وكان ينفقُ علىٰ مسطح ابن أثاثةَ؛ لقرابته منه وفقره: والله لا أنفقُ علىٰ مسطح شيئًا أبدا بعد الذي قال لعائشة ما قال: فأنزل الله تعالىٰ: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ﴾ إلىٰ قوله: ﴿غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[3]. قال أبو بكر الصديق: بلىٰ والله، إني لأحب أن يغفرَ الله لي، فرجع إلىٰ مسطح النفقة التي كان ينفقُ عليه وقال: والله لا أنزعُها منه أبدًا. قالت عائشة: وكان رسول الله ﷺ سأل زينبَ بنت جحشٍ عن أمري، فقال لزينب: «**ماذا علمتِ أو رأيتِ؟**» فقالت: يا رسول الله أحمي سمعي وبصري، والله ما علمت إلا خيرًا. قالت عائشة: وهي التي كانت تُساميني من أزواج النبي ﷺ، فعصمها الله بالورع. قالت: وطُفِقَتْ أختها حمنةُ تحاربُ لها، فهلكت فيمن هلك». قال ابن

(١) يوسف: ١٨.
(٢) النور: ١١.
(٣) النور: ٢٢.

شهاب: فهذا الذي بلغني من حديث هؤلاء الرهط. ثم قال عروة: «**قالت عائشة: والله إن الرجل الذي قيل له ما قيل ليقول: سبُحان الله، فوالذي نفسي بيده ما كشفت من كنف أنثىٰ قط. قالت: ثم قُتل بعد ذلك في سبيل الله**».

ثالثًا: الذاتية الثقافية:

وهذه الذاتية قد امتلأت بها كتب التراجم الإسلامية التي سنقتطف منها ما يوضح الأمر:

١ ـ قال حمزة: سمعت أحمد بن إبراهيم بن إسماعيل بن العباس يقول: لما ورد نعىٰ (محمد بن أيوب الرازي) دخلت الدار، وبكيت فاجتمع علىٰ أهلي، ومن في منزلي، وقالوا: ما أصابك؟ قلت: نعىٰ «**محمد بن أيوب الرازي**» وقد منعوني الارتحال إليه، فسَلُّوا قلبي، وأذنوا لي في الخروج عند ذلك وأصحبوني خالي إلىٰ «**نسا**» إلىٰ «**الحسن بن سنان**» فكان ذلك أول رحلتي في الحديث[1].

٢ ـ وهذا مثال آخر يبين حرص الإمام أحمد علىٰ طلبه للحديث مع ما وصل إليه من إمامة وفضل رحمه الله، قال محمد بن إسماعيل الصائغ: مر بنا الإمام أحمد بن حنبل وهو يعدو[2] ونعلاه في يديه فأخذ أبي بمجامع ثوبه، فقال: يا أبا عبد الله ألا تستحي؟ إلىٰ متىٰ تعدو مع هؤلاء؟ قال: إلىٰ الموت[3].

رابعًا: الذاتية الحركية:

لتوضيح هذا الأمر نذكر هذه القصة:

قال الإمام حسن البنا رحمه الله تعالىٰ:

«وفي إحدىٰ ليالي رمضان زرتُ منزل فضيلة قاضي الإسماعيلية الشرعي واجتمع في هذه الزيارة مأمور المركز والقاضي الأهلي وناظر المدرسة الابتدائية ومفتش المعارف ولفيف من الأدباء والفضلاء والمحامين والأعيان، وكانت جلسة سمر لطيف.

(١) طبقات الشافعية ٢/ ٨٠.
(٢) في طلب الحديث.
(٣) مفتاح دار السعادة ١/ ٧٤.

وطلب فضيلة القاضي الشاي، فقدم إلينا في أكواب من الفضة، وجاء دوري فطلبت كوبًا من زجاج فقط، فنظر إليّ فضيلته مبتسمًا، وقال: أظنك لا تريد أن تشرب؛ لأن الكوب من فضة؟ فقلت: نعم وبخاصة ونحن في بيت القاضي.

فقال: إن المسألة خلافية، وفيها كلام طويل، ونحن لم نفعل كل شيء حتىٰ نتشدد في مثل هذا المعنىٰ، فقلت: يا مولانا إنها خلافية إلا في الطعام والشراب، فالحديث متفق عليه والنهي شديد، والنبي ﷺ يقول: «لا تشربوا في آنية الذهب والفضة ولا تأكلوا في صحافها»[1] ويقول: «**الذي يشرب في آنية الذهب والفضة فإنما يجرجر في بطنه نار جهنم**»[2] ولا قياس مع النص ولا مناص من الامتثال، وحبذا لو أمرت بأن نشرب جميعًا في أكواب من زجاج. وتدخل بعض الحاضرين في الأمر وأرادوا أن يقولوا: إن الأمر ما دام خلافيا، فلا لزوم للإنكار، وأراد القاضس الأهلي أن يدلس بدلوه في الدلاء فقال للقاضىٰ الشرعي: يا فضيلة القاضي ما دام هناك نص، فالنص محترم، ولسنا ملزمين بالبحث عن الحكمة، وإيقاف العمل بالنص حتىٰ تظهر، فعلينا الامتثال أولا ثم إن عرفنا الحكمة فبها، وإلا فذلك قصور منا والعمل علىٰ كل حال واجب، فانتهزتها فرصة وشكرت له وقلت له مشيرًا إلىٰ أصبعه: وما دمت قد حكمت، فاخلع هذا الخاتم، فإنه من ذهب والنص يحرمه، فابتسم وقال: يا أستاذ أنا أحكم بقوانين نابليون، وفضيلة القاضي يحكم بالكتاب والسنة وكل منا ملزم بشريعته، فدعنس وتمسك بقاضي الشريعة فقلت: إن الأمر إنما جاء للمسلمين عامة وأنت واحد منهم، فهو يتجه إليك بهذا الاعتبار. فخلع خاتمه وكانت جلسة ممتعة حقا وكان لها صداها بعد ذلك في جمهور يرىٰ مثل هذا الموقف العادي أمرًا بمعروف أو نهيا عن منكر، ونصيحة في ذات الله[3].

خامسًا: الذاتية الخيرية:

إنها ذاتية الخير التي لا يمنعها تشابك الأعمال وكثرة تفريعاتها كما كان ابن عباس في الخير لم يمنعه طلب العلم والتعلم.

(١) أخرجه البخاري (٥٤٢٦)، ومسلم (٢٠٦٧) عن حذيفة رضي الله عنه.
(٢) أخرجه البخاري (٥٦٣٤)، ومسلم (٢٠٦٥) عن أم سلمة رضي الله عنها.
(٣) مذكرات الدعوة والداعية للإمام حسن البنا ص ١٠١، ١٠٢ ط الثانية.

وهي حقيقة تكرر عند أصحاب العطاء، فهذا عمر بن الخطاب ﵁ يسابق أبا بكر ﵁ فلم يظفر بسبقه أبدًا فلما علم أنه قد استولىٰ علىٰ الإمامة قال: والله لا أسابقك إلىٰ شيء أبدًا[١]. وأخرج الطبرانىٰ في الأوسط عن علىٰ قال: والذي نفسي بيده ما استبقنا إلىٰ خير قط إلا سبقنا إليه أبو بكر[٢].

وأخرج أبو داود والترمذي عن عمر بن الخطاب ﵁ قال:أمرنا رسول الله ﷺ أن نتصدق، فوافق ذلك مالاً عندىٰ. قلت: اليوم أسبق أبا بكر، فجئت بنصف مالىٰ فقال رسول الله ﷺ: «**ما أبقيت لأهلك؟**» قلت:مثله، وأتىٰ أبو بكر ما عنده، فقال: «**يا أبا بكر ما أبقيت لأهلك؟**» قال: أبقيت لهم الله ورسوله، فقلت: لا أسبقه في شيء أبدًا[٣].

وهكذا تكون أعمال البر الذاتية التي يقوم بها الموفق للخير، وهي أشبه بكرامات الأولياء منها بجهود العباقرة، تنمُّ عن عزيمة تتضاءل دونها العزائم تحملها همة لا تبلغها العصبة أولو القوة، تستشعر من صاحبها أن يقوم بالعمل، وكأنه هو وحده الذي أنيط به التكليف.

*****

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه الطبراني في الأوسط (٧١٦٨)، عن علي، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٩/ ٤٦): «رواه الطبراني في الأوسط وفيه أحمد بن عبد الرحمن بن المفضل الحراني ولم أعرفه وبقية رجاله ثقات».

(٣) أخرجه أبو داود (١٦٧٨)، والترمذي (٣٦٧٥) عن عمر، قال الترمذي: «حسن صحيح».

ثانيًا: الشخصي الذاتي

الإيجابية هي أصل في المسلم، ومحتاجٌ إليها في العمل اليومي، ويكون الاحتياج إليها أكثر عند تأسيس العمل الدعوي في البلاد التي لم يصل إليها المد الدعوي، حيث يلزم الداعية أن يُمارس جميع الأدوار فهو الشيخ في وعظه والعالم في تدريسه، والرياضي في ملعبه، ومنظم البرامج في رحلته، وهكذا هو جمعٌ في واحد يندفع ذاتيًّا في كل تحركاته، هذا في مرحلة التأسيس، وفي وقت البلاء يكون الاحتياج أكثر. حيث التفرد يُحيط به في كل شيء، فإن لم تكن عنده ذاتية هلك، وأهلك من معه، ولا يعنىٰ ما ذكرنا أنه في غير هذه الأوقات لا يحتاج إلىٰ الذاتية، بل هي لازمة كذلك لتطوير ودفع عجلة العمل؛ لذا رأينا أن نذكر هنا خصائص الشخصية الدعوية وكيفية بناء الذاتية فيها.

خصائص الشخصية الذاتية:

١ـ الذكاء:

كما أنه أمرٌ فطري كما ذكرنا في رسالة «**الصفات اللازمة**» إلا أنه لا يمكن الاستفادة منه ما لم يُبلور ليكون «**ذكاء دعويًّا حركيًّا**» ومن غير هذا الذكاء سنرىٰ حركة كثيرة للدعاة وتنقُلات وغدوة وروحة وكثرة صلات، وفي نهاية المطاف لا شيء، ومن الممكن أن نرىٰ ذلك واضحًا في حركة الداعية للعمل التجميعي لعناصر الخير في المجتمع، وكذلك في تربيته للشباب الذين التزموا معه في حلقة العلم في مسجد وفي منافحته عن هذا الدين ضد قوىٰ الشر.

٢ـ قوة الرصيد الفكري:

وهذا يعتبر وليد العقيدة، والبناء الصحيح للتصور المنهجي المستقىٰ من الكتاب والسنة، وعلىٰ الداعية أن يُلبي احتياجه من غير عجز وانحسار، فالداعية لا يتصور أن يكون عمله فقط في وسط المتدينين، بل مجاله واسع؛ ولذلك يحتاج إلىٰ قدرات فكرية أصيلة في عملية الصراع، وقد يتضح ما ذكرنا في مثال «**الرصيد المالي**» فمن عنده مال وافر يستطيع أن يحقق ما يُريد بخلاف من ليس له رصيد، فهو في ضيق من كل حدثٍ

يقوم به، ويُجهَد في كل تلبية لأي احتياج يشبع ضرورته.

٣ـ روح التنافس:

ونُريد الممدوح منه وهو الذي يكون في أعمال الخير، فهو دائمًا ذو نفس تواقة نفاذة، تتوق إلىٰ المعالي وتخطو إليها، وإلىٰ أعمال البر وتنقذها، لا تنتظر التوجيه ولا التخطيط من الغير، بل تُبادر في حدود القواعد العامة، والانضباط المرن، والداعية وهو يُمارس هذا الدور يبتعد عن التنافس المذموم المؤدي إلىٰ الحسد والوقوع بالمنافسين، وهو ما يسمىٰ بـ«**تنافس الأقران**».

٤ـ الروحانية العالية:

وهي الوقود للماكينة والدافع للحركة، حيث من خلالها يندفع الداعية مستشعرًا الأجر والمثوبة يرىٰ الجنة ونعيمها والنار وحريقها، فيركض برجله إلىٰ منابع الخير مرددًا.

ركضًا إلىٰ الله بغير زاد إلا التقىٰ وعمل الرشاد

فهي شفافية تجعل الداعية يعزف عن بهرج الدنيا فيُسهر ليله ويُظمِئ نهاره، كأنه ينظر إلىٰ عرش ربه بارزًا وإلىٰ أهل الجنة يتزاورون فيها، وإلىٰ أهل النار يتضاغون فيها، وعندما تصاب النفس بالخمول والكسل وتنطفئ شعلة الحماس الإيماني ستتعثر القدم، وتستكثر الحمل، وتُصاب بالعتمة، فتصاب بالعشاء الليلي والرمد بالنهار.

٥ـ القدوة العملية:

فاستشعار الداعية أنه قدوة لغيره يدفعه إلىٰ الاستمرارية، فوقوفه يعني سكون الناظرين إليه، فبدلاً من أن يُقتدىٰ به بالحركة والخير، فيكون له أجر من عمل بعمله، يتبع بالسكون وفي ذلك خطر كبير، وهذه القدوة تستلزم من صاحبها الربانية ﴿وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّـۧنَ﴾[1] ولا يكون ذلك إلا بالتفاعل مع الدعوة التي آمن بها وسخر نفسه لها.

هذه بعض مزايا ما رأيناه من خصائص أصحاب التحرك الذاتي كأصول وما يتفرع

(١) آل عمران: ٧٩.

منها كثير، أما كيفية بناء الذاتية فالوسائل كثيرة، وفي هذه الأسطر بعضًا منها.

*****

ثالثا: مظاهر الطبيع التنفيذي

وإذا عرفنا الإيمان وطبيعته هذه التي أشرنا إليها فيما مضىٰ أمكننا أن نعرف معنىٰ الطبيعة التنفيذية بيسر ووضوح. إنه اندفاع الإنسان الذاتىٰ الناشئ عن استقرار الإيمان في قلبه؛ لتكييف الواقع الذي من حوله وتغييره وتبديله إن لزم لكي يطابق الواقع الإيماني الذي في حسه.. إن هذا الاندفاع الذاتي، وهذه القوة الدافعة الباعثة علىٰ العمل والحركة هو ما تعنيه بقولنا الطبيعة التنفيذية، أو الذاتية التي سيأتي تفصيلها في البحث إن شاء الله.

إن الطبيعة التنفيذية هي المؤشر الدال علىٰ الإيمان في النفوس ولكي يتجلىٰ لنا هذا المعنىٰ، ولكي نضع أيدينا علىٰ حقيقة هذه الطبيعة، فإننا نسوق بحول الله تعالىٰ بعضًا من مظاهرها.

أولاً: التلقىٰ للتنفيذ لا التلقي للمعرف :

هناك فارق كبير بين التلقي للتنفيذ والتلقي للمعرفة. في الأول يتلقىٰ الإنسان المعرفة ليس لذاتها فحسب ولكن ليكتسب من هذه المعرفة ما يعينه علىٰ الانطلاق، وليطرق بهذه المعرفة أبواب العمل، أما في الثاني فغاية المتلقي هي المعرفة ذاتها فمتىٰ ازداد معرفة وعلمًا، فقد استوفى حظه.

وتلقي العقيدة هو تلقٍّ للتنفيذ، فطبيعة العقيدة هي التي تستوجب هذا التلازم بين المعرفة والتنفيذ بحيث يستحيل في منطق العقيدة أن تُتلقىٰ من أجل المعرفة الذهنية الباردة.

إننا حين نتلقىٰ عقيدة فإننا ـ لا محالة ـ مقدمون علىٰ التنفيذ ـ فطبيعة العقيدة تستلزم:

أولاً: أنها تعطينا تصورًا شاملاً عن الوجود والحياة، وعن الحقائق الكبرىٰ في الوجود، وعن علاقاتها ببعضها البعض. ونحن حين نتلقىٰ هذا التصور الشامل الكامل المتكامل المتوازن، فإننا نتكيف معه في أنفسنا وفي واقع حياتنا. إن هذا التصور يخبرنا مثلاً أن وراء هذه الحياة حياة أخرىٰ مديدة، يجازىٰ فيها كل إنسان علىٰ ما قدم من عمل في هذه الحياة الدنيا، وأن تلك الدار هي دار حساب لا دار عمل، كما أن دارنا التي نحن فيها هي دار

عمل لا دار حساب. كما يخبرنا هذا التصور عن دورنا في هذه الحياة، وعن وظيفتنا التي من أجلها وجدنا، وعن المصير الذي نحن إليه آيبون: إما جحيم مستعر وإما نعيم مستقر ـ ويخبرنا هذا التصور كذلك عن هذا الكون الذي يحيط بنا ما هو؟ وما هي قواه الظاهرة والمكنونة؟ وما هي سننه الجارية؟ وكيف يكون تعاملنا معها؟ كما يكشف لنا طرفًا من الغيب ويخبرنا عن عوالم أخرىٰ تحيط بنا في السماء أو في الأرض وعن شيء من أوصافها وأعمالها، وعن الملائكة المقربين، وعن الجن والشياطين، وعن مصارع الغابرين... وهكذا وهكذا مما يفيض به القرآن مع الشرح والتفصيل كلما تحدث عن العقيدة.

ونحن حين نتلقىٰ هذا التصور، فإن ضمائرنا تهتز له، ومشاعرنا تتكيف به، وإيحاءاته ترتسم في جوارحنا وآثاره تمتد إلىٰ واقع حياتنا.

ثانيًا: أنها تضع حوافز وتحدد قيمًا لحركة الإنسان ونشاطه في الحياة، وتربطه بكل حركة وكل نشاط بشري ثمرة يجنيها صاحبها، ينال قسطًا منها في هذه الدنيا وينال القسط الأكبر في الآخرة. وقيم العقيدة وحوافزها هي الأشد أثرًا والأكثر عمقًا في النفوس؛ لما للعقيدة من سلطان عليها؛ ولما لارتباط هذه الحوافز والقيم بمصير الإنسان ونهايته وبقائه.

ثالثا: أنها مفتاح النفوس. فهي التي تملك أن تستنفذ طاقات الإنسان الكامنة فيه، تجمع منها ما تشتت، وتوحد فيها ما تعارض، وتدفع بكليتها في اتجاه واحد وفي خط مرسوم.

ولقد تلقىٰ الصحابة هذا الدين كما ينبغىٰ أن يُتلَقَّىٰ، فكان أحدهم لا يتجاوز عَشْرًا من الآيات حتىٰ يحفظها ويفهمها ويعمل بها؛ لما كان يشعر به من زيادة في التكليف بتحملها.

وكان من آثار هذا المنهج التربوي الفريد في حياتهم تلك المواقف الرائعة التي لم يشهد التاريخ لها مثيلاً في سرعة التنفيذ والاستجابة.

أخرج ابن جرير في «**تفسيره**» عن أنس بن مالك قال: بينما أنا أدير الكأس علىٰ طلحة

وأبي عبيدة بن الجراح وأبي دجانة ومعاذ بن جبل وسهيل بن بيضاء حتىٰ مالت رؤوسهم من الخمر؛ إذ سمعت مناديًا ينادي: ألا إن الخمر قد حرمت، قال: فما دخل علينا داخل ولا خرج منا خارج حتىٰ أهرقنا الشراب، وكسرنا القلال، وتوضأ بعضنا، واغتسل بعضنا وأصبنا من طيب أم سليم، ثم خرجنا إلىٰ المسجد[١].

وفي رواية بريدة قال: فجئت إلىٰ أصحابي فقرأتها عليهم (يعني:آية التحريم) وبعض القوم شربته في يده، شرب بعضًا وبقي بعض في الإناء، فأراقوا ما في كؤوسهم، ثم صبوا ما في باطيتهم، وقالوا: انتهينا ربنا. انتهينا ربنا[٢].

وهكذا انتهت قصة الخمر من المدينة ببضع آيات تلاها عليهم رسولهم، بينما أنفقت بعض الحكومات الحاضرة -كأمريكا- ملايين الدولارات في الدعاية والتحريم واستعملت كل وسائل إعلامها من جرائد ومجلات ومحاضرات وسينما وإذاعة وتلفاز في سبيل ذلك. وجندت كل طاقاتها من قوانين صارمة وغرامات باهظة، فما زاد ذلك المجتمع الأمريكىٰ إلا غرامًا بالخمر، فأما الذين لم يجدوها فقد تحولوا عنها إلىٰ المخدرات مما حدا بالحكومة الأمريكية إلىٰ إعادة إباحتها مرة أخرىٰ.

روىٰ ابن أبي حاتم عن عائشة أم المؤمنين قالت حين ذكر نساء قريش وفضلهن: «**إن لنساء قريش فضلاً، وإني والله ما رأيت أفضل من نساء الأنصار أشد تصديقًا لكتاب الله ولا إيمانًا بالتنزيل. لما أنزلت في سورة النور: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾[٣] انقلب رجالهن إليهن يتلون عليهن ما أنزل الله إليهن منها، يتلو الرجل علىٰ امرأته وابنته وأخته وعلىٰ كل ذي قرابته فما منهن امرأة إلا قامت إلىٰ مرطها المرحل فاعتجرت به تصديقًا وإيمانًا بما أنزل الله من كتاب فأصبحن وراء رسول الله ﷺ كأن علىٰ رؤوسهن الغربان**»[٤].

(١) أخرجه ابن جرير الطبري في تفسيره (٧/ ٣٧)، وزاد السيوطي نسبته في الدر المنثور (٣/ ١٧٢) لأبي الشيخ وابن مردويه عن أنس.
(٢) أخرجه ابن جرير في «تفسيره» ٧/ ٣٤.
(٣) النور: ٣١.
(٤) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (٨/ ٢٥٧٥) ط. المكتبة العصرية.

وبآية أخرىٰ كذلك اختفي السفور من وجه المدينة وتزينت المدينة بحلة الإيمان، كما تزينت نساؤها برداء الشرع، إنه مجتمع الإيمان والتقوىٰ الذي تعيش فيه الفضيلة. وأورد ابن كثير في تفسيره كذلك حديث عمارة بن أوس قال: بينما نحن في الصلاة نحو بيت المقدس، ونحن ركوع إذ نادىٰ مناد بالباب: إن القبلة قد حولت إلىٰ الكعبة. قال:فأشهد علىٰ إمامنا أنه انحرف فتحول هو والرجال والصبيان، وهم ركوع نحو الكعبة(١).

هذه نماذج قليلة لحال الجيل الأول مع القرآن وموقفهم من أوامر دينهم ونواهيه. وهي نماذج قليلة ولكنها تدل بشكل واضح علىٰ ما كان عليه تعامل ذلك الجيل مع هذا الدين وكيفية تلقيهم له؛ إذ كان قوله فيهم هو الفصل، وحكمه بينهم هو العدل، وعلىٰ هذا قام مجتمع المدينة، وبهذا كان منطلق الدعوة.

ثانيا: جذوة متقدة في القلب تدفع صاحبها إلىٰ العمل دفعًا:

إنها جذوة الحق وشعلة الإيمان، ألهمت قلب داعيتنا، فما عاد يهدأ له بال ولا يقر له قرار، وهو يرىٰ رايات الكفر مرفوعة، ومنارات الإيمان موضوعة. ويرىٰ الفساد وقد عم وطم، والشهوات وقد استعرت.

وإنما نريد لداعيتنا أن يعيش للإسلام بكليته وأن يوجه حياته ـ كل حياته ـ من أجله، وأن يسخر كل طاقته وإمكاناته لما يعزز سلطانه ويرفع بنيانه.

«**نحن نريد نفوسًا حية قوية فَتِيَّة، وقلوبًا جديدة خفاقة غيورة ملتهبة، وأرواحًا طموحة متطلعة متوثبة، تتخيل مثلاً عليا وأهدافًا سامية لتسمو نحوها وتتطلع إليها ثم تصل. ولابد من أن تحدد هذه الأهداف، ولابد من أن تحصر هذه العواطف والمشاعر. ولابد من أن تركز حتىٰ تصبح عقيدة لا تقبل جدلاً ولا تحتمل شكًّا ولا ريبًا.وبغير هذا التحديد والتركيز سيكون مثل هذه الصحوة مثل الشعاع التائه في البيداء لا ضوء له ولا حرارة فيه**»(٢).

(١) أخرجه ابن مردويه في « تفسيره» كما في « تفسير ابن كثير» ١/ ١٩٤.
(٢) من رسالة دعوتنا في طور جديد ـ الإمام حسن البنا.

إن الذي لا يشتعل قلبه ولا تتأجج نفسه علىٰ واقع الإسلام الحاضر ومجده الضائع وماضيه الذي اندثر، أو الذي يمشي في الناس، فيراهم يتخبطون في الجهل والضلال، ويجدهم وقد استولت عليهم شهواتهم، وطغت عليهم أهواؤهم واتجه بهم الشيطان في كل طريق، ثم لا تهتز له نفسه، ولا تلتهب كيف له أن يكون من الدعاة أو يحسب في عداد المجاهدين؟

وما أحلىٰ وأصدق قول الإمام البنا في وصف نموذج المجاهد الذي نريده:

«**أستطيع أن أتصور المجاهد شخصًا قد أعد عدته وأخذ أهبته، وملك عليه الفكر فيما هو فيه نواحىٰ نفسه وجوانب قلبه، فهو دائم التفكير، عظيم الاهتمام علىٰ قدم الاستعداد أبدًا، إن دُعيَ أجاب، أو نودي لبىٰ، غدوه ورواحه وحديثه وكلامه، وجده ولعبه، لا يتعدىٰ الميدان الذي أعد نفسه له، ولا يتناول سوىٰ المهمة التي وقف عليها حياته وإرادته، يجاهد في سبيلها، تقرأ في قسمات وجهه وترىٰ في بريق عينيه، وتسمع من فلتات لسانه ما يدلك علىٰ ما يضطرم في قلبه من جوىٰ لاصق وألم دفين، وما تفيض به نفسه من عزمة صادقة وهمة عالية وغاية بعيدة.**

أما المجاهد الذي ينام ملء جفنيه، ويأكل ملء ماضغيه، ويضحك ملء شدقيه ويقضي وقته لاهيًا لاعبًا عابثًا ماجنًا، فهيهات أن يكون من الفائزين أو يكتب في عداد المجاهدين»[(١)].

إن القلب هو مركز التفاعل ومصدر المشاعر، وحين تستقر الفكرة في النفس وحين نتمكن منها يفيض القلب عليها من مشاعره وعواطفه ما يحيلها جذوة متقدة ملتهبة وقوة منهضة ثابتة تدفع إلىٰ العمل دفعًا كأنه ضرورة ملحة.

وحين يرتقي داعيتنا هذا المرتقىٰ الرفيع، ويتحلىٰ بحلة الدعاة المجاهدين لابد أن يستقر في قلبه حقائق ثلاث:

الأولىٰ: أن ما هو عليه من العلم والدين، وما آمن به من العقائد والمبادئ هو الحق وأن ما عداه هو الباطل، وأن رسالته خير الرسالات، ونهجه أفضل المناهج وشريعته أكمل

(١) في الدعوة ص٦٠ ـ الإمام حسن البنا.

النظم التي تتحقق بها سعادة الناس أجمعين، ويؤمن بذلك إيمانا راسخا ويصدق به يقينًا لا يتزعزع، ويمتثل في كل أحواله قول الله تعالىٰ:

﴿ فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾[(١)]. وقوله تعالىٰ: ﴿ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ﴿٧٩﴾ ﴾[(٢)].

الثانية: وأنه ما دام علىٰ الحق وما دام هو حامل النور وغيره يتخبط في الظلام وبين أيديهم هدي السماء لإرشاد أهل الأرض فهو إذن يجب أن يكون أستاذًا لهم، يقعد منهم مقعد الأستاذ من تلميذه، يحنو عليهم ويرشدهم ويقومهم ويسددهم، ويقودهم إلىٰ الخير ويهديهم سواء السبيل، ويتذكر في ذلك قول الله تعالىٰ: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ﴾[(٣)]، وقوله تعالىٰ ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾[(٤)].

الثالثة: وأنه ما دام كذلك مؤمنًا بالحق الذي جاءه متمسكًا به، ومعتزًا مدافعًا عنه، ومنافحًا، فإن الله معه يعينه ويرشده وينصره، ويؤيده ويمده إذا تخلىٰ عنه الناس، ويدفع عنه إذا أعوزه النصير، وهو معه أينما كان، تتنزل عليه جند السماء إذا لم ينهض معه جند الأرض، ويقرأ في ذلك كله قول الله تعالىٰ: ﴿ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ ﴾[(٥)]، وقوله: ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ﴾[(٦)]، وقوله: ﴿ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ﴾[(٧)].

بهذه المشاعر الثلاث: الإيمان بعظمة الرسالة، والاعتزاز باعتناقها، والأمل واليقين في تأييد الله إياها، يتحلىٰ الداعية بأبهىٰ الحلل وتشتعل في قلبه جذوة الحق والإيمان.

---

(١) الزخرف: ٤٣، ٤٤.
(٢) النمل: ٧٩
(٣) آل عمران: ١١٠.
(٤) البقرة: ١٤٣.
(٥) الأعراف: ١٢٨.
(٦) الحج: ٤٠.
(٧) المجادلة: ٢١

ثالثا: أن يجد الداعية راحته في العمل والبذل والعطاء:

ويجد أنسه وسروره وفرحته في نصر يصيب دعوته، أو خير يتحقق علىٰ يديه، أو واجب يوفق إلىٰ أدائه، ويحس بلذة عارمة تغمره إذا هو أنفق جل وقته في أمور الدعوة، ويخرج من دروس ووعظ وإرشاد؛ ليجتمع إلىٰ شاكٍّ متردد يجادله وينصحه، وإلىٰ فاسق استولت عليه شهوته وغلبه هواه علىٰ أمره، فيذكره ويعظه ويرغبه ويرهبه، ويأخذ بيده ويعينه علىٰ أمره، ويمر علىٰ إخوانه وزملائه فيهدىٰ هذا كتابًا ويجلس مع ذاك ساعة يتذاكر معه كتاب الله ويفضي إلىٰ الثالث بنصيحة رقيقة، وهكذا لا ينقضي يومه إلا وقد طاف بخلق كثير، وحضر مجالس عدة وفي كل ذلك يفيض من نفحات قلبه علىٰ من حوله، ويسكب من مشاعر الخير الذي يمتلئ به نفسه عليهم.

وسر هذه الراحة التي يشعر بها الداعية هو ارتباطه بدعوته وارتباط دعوته به ارتباطًا وثيقًا لا تنفك عراه، فهي جزء منه لا يهنأ له عيش بدونها؛ لأنها مقصد آماله ومزيلة آلامه. هي شغله الشاغل وهمه الأهم. هي مصيره الذي وهب نفسه لها ووقف حياته عليها.

ولقد كان رسول الله ﷺ يتحرق حزنًا وألمًا علىٰ ما كان يلقىٰ من إعراض المشركين له وصدهم عن دعوته حتىٰ عاتبه ربه في ذلك ونهاه أن تستبد به مشاعر الحزن والأسف عليهم فقال له: ﴿ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ إِن لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾ ﴾[1]، أي: فلعلك قاتل نفسك حزنًا وأسفًا عليهم إن لم يؤمنوا بهذا القرآن، وما يستحق هؤلاء أن تحزن عليهم وتأسف، ولقد كان رسول الله ﷺ يطيل الحوار والجدال مع المشركين رغبة في إيمانهم، بل لقد كان يقطع المفاوز والقفار، ويتسلق الجبال وينزل الوديان؛ طمعًا؛ في إيمان رجل أو بضعة رجال، كما كان من سفره ﷺ إلىٰ الطائف وعرض نفسه علىٰ ثقيف.

ولقد عاتبه الله سبحانه وتعالىٰ رسوله ﷺ لما أعرض عن ابن أم مكتوم وخاض مع أشراف قريش؛ طمعًا في إيمانهم.

---

(١) الكهف: ٦.

ذكر ابن كثير في «**تفسيره**» عن ابن عباس قوله في الآية الكريمة: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ ۝٢﴾[1] قال: بينما رسول الله ﷺ يناجي عتبة بن ربيعة وأبا جهل بن هشام والعباس بن عبد المطلب، وكان يتصدىٰ لهم كثيرًا ويحرص عليهم أن يؤمنوا فأقبل رجل أعمىٰ يقال له: عبد الله ابن أم مكتوم يمشي وهو يناجيهم، فجعل عبد الله يستقرئ النبي ﷺ آية من القرآن وقال: يا رسول الله علمني مما علمك الله، فأعرض عنه الرسول، وعبس في وجهه، وتولىٰ وكره كلامه، وأقبل علىٰ الآخرين[2].

*****

(١) عبس: ١، ٢.

(٢) أخرجه ابن جرير في «تفسيره» (٣٠/ ٥١)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٠/ ٣٣٩٩) عن ابن عباس. قال ابن كثير في تفسيره (٤/ ٤٧٢): «فيه غرابة ونكارة، وقد تكلم في إسناده».

رابعًا: وسائل اكتساب الطبيع التنفيذي

الوسيلة الأولىٰ: الفهم الشامل الموزون للإسلام:

علينا ـ حين نفهم الإسلام ـ أن نفهمه بشموله ونقف علىٰ حقائقه وأحكامه ونعني بقواعده وأصوله وأن نتدارسه من مصدريه الأساسيين: الكتاب والسنة، وأن نلتمس تطبيقه في سيرة رسوله ﷺ، وألا نصطدم في إدراك حقائقه بفهم سلف الأمة الصالح.

ولابد لنا؛ إذ نتدارس الإسلام من أن نحذر تأثير الأوضاع والظروف التي نحياها في فهمنا له، فالإسلام يجب أن يفهم بعيدًا عن أوضاع نفسية خاصة أو بيئات تاريخية محددة، بل يجب أن يفهم خالصًا نقيًّا كاملاً مِنْ مصدريه الأساسيين وتتحدد ظروفنا وأوضاعنا، تبعًا له وقياسًا عليه.

علىٰ أن تطاول الزمان واختلاف البيئات، وتتابع الأحداث طمست في نفوس الناس حقائق وأدخلت فيها أهواء، فتعددت أفهام الناس للدين الواحد والحق لا يتعدد، فكان لابد من التنبيه والإشارة إلىٰ حقائق هي من بدهيات هذا الدين.

الحقيقة الأولىٰ:

وهي أن الدعوة إلىٰ الله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والعمل علىٰ إقامة الحق وزهق الباطل واجبة علىٰ كل مسلم بما يقدر عليه. قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «**وكل واحد من الأمة يجب عليه أن يقوم من الدعوة بما يقدر عليه إذا لم يقم به غيره. فما قام به غيره سقط عنه، وما عجز لم يطالب به. وأما ما لم يقم به غيره وهو قادر عليه فعليه أن يقوم به، ولهذا يجب علىٰ هذا أن يقوم بما لا يجب علىٰ ذاك، وقد تقسطت الدعوة علىٰ الأمة بحسب ذلك تارة وبحسب غيره أخرىٰ. فقد يدعو هذا إلىٰ اعتقاد الواجب، وهذا إلىٰ عمل ظاهر واجب، وهذا إلىٰ عمل باطن واجب، فتنوع الدعوة يكون في الوجوب تارة وفي الوقوع أخرىٰ**»[1].

ولقد حث القرآن الكريم في كثير من آياته علىٰ فرضية الدعوة إلىٰ الله ووجوبها علىٰ

(١) مجموع الفتاوىٰ ١٥/ ١٦٦. وديننا لا يوجد فيه رجال دين، وإنما هم علماء الدين وحفظته.

كل مكلف، فكل بالغ عاقل من الأمة الإسلامية مكلف بهذا الواجب، ذكرًا كان أو أنثىٰ، فلا يختص العلماء أو كما يسميهم البعض رجال الدين[(١)] بأصل هذا الواجب؛ لأنه واجب علىٰ الجميع. وإنما يختصون بتبليغ تفاصيله وأحكامه ومعانيه؛ نظرًا لسعة علمهم به ومعرفتهم بجزئياته. ومما يدل علىٰ ذلك قول الله تعالىٰ: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾﴾[(٢)]. فأتباع الرسول ﷺ المؤمنون به، يدعون إلىٰ الله علىٰ بصيرة، أي: علىٰ علم ويقين، كما كان رسولهم ﷺ يدعو، ومعنىٰ ذلك أن من اللوازم الضرورية لإيمان المسلم أن يدعو إلىٰ الله، فإذا تخلف عن الدعوة دل تخلفه هذا علىٰ وجود نقص في إيمانه يجب تداركه بالقيام بهذا الواجب.

«والدعوة إلىٰ الله، هي واجبة علىٰ كل مسلم ومسلمة، وهي كما قلنا قد تؤدي بصورة فردية وقد تؤدي بصورة جماعية، وإذا أردنا الدقة بالتعبير قلنا: إن هذا الواجب يؤدي علىٰ نحوين: الأول: نحو فردي بأن يقوم به المسلم بصفته فردًا مسلمًا. والثاني: يؤدي هذا الواجب أو جانبًا منه بصفته فردًا في جماعة تدعو إلىٰ الله تعالىٰ يدل علىٰ هذا كله قول الله تبارك وتعالىٰ: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾﴾[(٣)]. قال الإمام ابن كثير في تفسير هذه الآية: «والمقصود من هذه الآية أن تكون فرقة من هذه الأمة متصدية لهذا الشأن وإن كان ذلك واجبًا علىٰ كل فرد من الأمة بحسبه، كما ثبت في «صحيح مسلم» عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من رأىٰ منكم منكرًا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان»[(٤)]. والواقع أن تجمع الدعاة للقيام بواجب الدعوة بصورة جماعية يكون ضروريا، كلما كانت مهمة الدعوة جسيمة، كما لو أريد نشر الدعوة إلىٰ الله في المجتمعات الوثنية الجاهلية التي عشَّش فيها الشيطان وباض، وصد أهلها عن سبيل الله وأركسهم في حمأة الشرك، كما في الأقطار الوثنية في إفريقيا ونحوها. فإن مثل هذه

(١) ودينا لا يوجد فيه رجال دين، وإنما هم علماء الدين وحفظته.يوسف: ١٠٨.

(٢) يوسف: ١٠٨.

(٣) آل عمران: ١٠٤..

(٤) أخرجه مسلم (٤٩) عن أبي سعيد ﷺ.

الأقطار تحتاج إلىٰ جهود كبيرة جدا ومنظمة لنشر الدعوة إلىٰ الله وتعليمهم أمور الإسلام مما لا يقوىٰ عليه جهد فرد ولا جهود مبعثرة لبعض الأفراد. ويؤيد هذا التبشير بالإسلام علىٰ شكل جمعىٰ ما جاء في السنة النبوية أن النبي ﷺ كان يأمر من يسلم إلىٰ التحويل إلىٰ دار الهجرة؛ ليضم جهوده إلىٰ جهود المسلمين وتوجيهها التوجيه السليم من قبل رسول الله ﷺ»[1].

واستشعار الداعية لفرضية الدعوة يبعث في نفسه الهمة للعمل والحث علىٰ التنفيذ؛ ذلك أنه لا تراخي في الفريضة ولا نكوص عن الواجب. تراه «**أسيرا في يد الشريعة ديدنه السنة، فإذا هو بمنأىٰ عن البدعة وما لم يكن عليه أمر رسول الله ﷺ، مشربه كوثر الحديث النبوي وحوض الخبر المصطفوي، فهو يكرع من سلسبيل الإسلام الخالص ويشرب من عين الإيمان الصرف، فحق له أن يكون من أهل السنة الخالصة والجماعة الناجية. إن سئل عن طريقه قال: الاتّباع. وعن خرقته قال: لباس التقوىٰ. وعن مقصوده ومطلوبه قال: يريدون وجه الله. وعن قضائه لوقته بالغدو والآصال قال:** ﴿ فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ ﴾[2] **وفي ميادين الدعوة وَرَدِّ الناس إلىٰ طريق الحق**»[3].

الحقيقة الثانية:

هي أن الدين لا يقوم ولا ينتشر إلا بالجهد البشري، وبالطاقة التي يبذلها أصحابه والمؤمنون به، وبالإمكانات التي يملكونها ويسخرونها في سبيله. وبغير هذا لا تقوم لهذا الدين قائمة ولا يرجىٰ لها أن تقوم.

وهذه حقيقة عريضة في هذا الدين. وبدهية من بدهياته الأولىٰ عرضها القرآن الكريم في ثنايا نصوصه في مواضع متفرقة، وفي أحوال مختلفة، وفي تعقيباته علىٰ أحداث واقعية وقعت للفئة المسلمة وقت نزول القرآن، كوقعة أحد ويوم حنين، مؤكدًا عليها ومدللاً علىٰ صدقها من واقع حياتهم.

(١) أصول الدعوة ـ عبد الكريم زيدان ص ٣٠٠.
(٢) النور:٣٦.
(٣) الرسائل ـ حسن البنا.

«إن هذا الدين منهج إلهي للحياة البشرية، يتم تحقيقه في حياة البشر بجهد البشر أنفسهم في حدود طاقتهم البشرية وفي حدود الواقع المادي للحياة الإنسانية في كل بيئة، ويبدأ العمل من النقطة التي يكون البشر عندها حينما يتسلم مقاليدهم ويسير بهم إلىٰ نهاية الطريق في حدود طاقتهم البشرية، وبقدر ما يبذلونه من هذه الطاقة»(١).

«وهذه هي الحقيقة التي شاء الله أن يُعَلِّمَهَا للجماعة المسلمة في غزوة أحد حينما قصرت في تمثيل حقيقة هذا الدين في ذوات أنفسها في بعض مواقف الغزوة. وحينما قصرت في اتخاذ الوسائل المناسبة في بعض مواقفها وحينما غفلت عن هذه الحقيقة الأولية أو نسيتها وفهمت أن من مقتضىٰ كونها مسلمة أن تنتصر حتمًا. فقال لها الله سبحانه: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡ﴾(٢) وقال لها: ﴿وَلَقَدۡ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥٓ إِذۡ تَحُسُّونَهُم بِإِذۡنِهِۦۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلۡتُمۡ وَتَنَٰزَعۡتُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِ وَعَصَيۡتُم مِّنۢ بَعۡدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنۡيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَۚ ثُمَّ صَرَفَكُمۡ عَنۡهُمۡ لِيَبۡتَلِيَكُمۡ﴾(٣).

أما كيف يتحقق هذا المنهج، فإنما يكون (بأن تحمله جماعة من البشر تؤمن به إيمانًا كاملاً وتستقيم عليه ـ بقدر طاقتها ـ وتجتهد لتحقيقه في قلوب الآخرين وفي حياتهم كذلك، وتجاهد لهذه الغاية بكل ما تملك: تجاهد الضعف البشري والهوىٰ البشري في داخل النفوس وتجاهد الذين يدفعهم الضعف والهوىٰ؛ للوقوف في وجه الهدي.. وتبلغ ـ بعد ذلك كله ـ من تحقيق هذا للمنهج إلىٰ الحد الذي تطيقه فطرة البشر، والذي يهيئه لهم واقعهم المادي، علىٰ أن تبدأ بالبشر من النقطة التي هم فيها فعلاً لا تغفل واقعهم ومقتضياته في سير وتتابع هذا المنهج الإلهي.. ثم تنتصر هذه الجماعة علىٰ نفسها وعلىٰ نفوس الناس معها تارة.. وتنهزم في المعركة مع نفسها أو مع نفوس الناس تارة.. بقدر ما تبذل من الجهد. وبقدر ما تتخذ من الوسائل المناسبة للزمان ولمقتضيات الأحوال.

---

(١) هذا الدين لسيد قطب ص٤، ٨.

(٢) آل عمران: ١٦٥

(٣) آل عمران: ١٥٢ انظر: هذا الدين لسيد قطب ص ٤، ٨.

وقبل كل شيء.. بمقدار من حقيقة هذا المنهج وعن ترجمته ترجمة علمية في واقعها وسلوكها الذاتي»[1].

واستقرار هذه الحقيقة في النفوس يجعلها أكثر جدية في تحمل أعباء هذا الدين وأقدر علىٰ النهوض بواجباته؛ لأنها تشعر بأن قعودها عن قافلة الدعوة تفريط بالأمانة الكبرىٰ ودفع للباطل أن يحيا. وهو ما لا يستقيم مع أوليات الإيمان، فكيف بمرتبة الدعوة والجهاد؟

فتذكر أخي الداعية أنك علىٰ ثغر عظيم ودعوة كريمة، وأنك قد استؤمنت علىٰ أمانة كبرىٰ قد أبت عن حملها السموات والأرض والجبال فعهدت إليك. فكن بها حريصًا تجد حبل الله منك قريبًا. وكن عليها أمينًا تتنزل عليك رحمة الله وتحوطك عنايته وتغشاك رعايته. وإياك أن تلهو عنها أو تغفل، فإنها فرصة الشيطان يترقبها فيك، وينتظر سهوك «**عنها ساعة، فكن أفطن منه وأذكىٰ، وعض علىٰ أمانتك بالنواجذ وتعهدها بروحك ونفسك فإنها غالية غالية**».

الحقيقة الثالثة:

تتعلق بغاية وجود الإنسان في الحياة ودوره فيه، فرسالة الإنسان في الحياة هي عبادة الله تعالىٰ بمعنىٰ العبادة الواسع الكبير الذي يتجاوز علاقة الإنسان الفردية بربه إلىٰ علاقته بالحياة: عمارة الأرض واستخلافها وتفجير طاقاتها ومكنوناتها، واستغلال خيراتها، والاستفادة من قواها بشرط توجيه القصد وموافقة الشرع في كل ذلك، ويتجاوز كذلك إلىٰ علاقته بالناس، ودعوتهم إلىٰ هذا الحق الذي معه لإخراجهم مما هم فيه من ظلمات الجاهلية والشرك إلىٰ نور الإسلام والحق، ومجاهدتهم في إعراضهم، والصبر علىٰ أذاهم فذلك ما عليه، ولا عليه إن هم آمنوا به أو لم يؤمنوا، قبلوا دعوته أم رفضوها؛ لأنه لا سطان له علىٰ قلوبهم، وحسبه أن يبلغ دعوة الله، وأن يقيم شرعه في الأرض ولا عليه بعد ذلك إلىٰ أي طريق تتجه أو تسير. «**إن الدعوة واجبة علينا، معلقة بأعناقنا، فإن ظفرنا فيها بما نحب من خير هذه الأمة وهدايتها، فذلك هو المأمول بحول الله وعونه،**

---

(١) هذا الدين ص٩.

وإلا فحسبنا أن نكون قنطرة تعبر عليها فكرة الدعوة والإرشاد إلىٰ من هم أقدر منا علىٰ التنفيذ، حسبنا أن نكون حلقة اتصال بين من تقدمنا ومن سيأتىٰ بعدنا. إن الدعوة إلىٰ الله علينا فريضة لا يخلصنا منها إلا الأداء، ولا يقبل فيها عذر ولا هوادة» [١].

ولابد لهذه الحقيقة من أن تستقر في النفوس كي لا يتسرب إليها اليأس ولا ينتابها الملل. فوظيفتنا التبليغ والبيان وليس علينا أن نشق عن القلوب؛ لندخل فيها الإيمان. **«لذلك لم يكن بد من النموذج الذي يمثله حادث الأخدود إلىٰ جانب النماذج الأخرىٰ القريبة منه والبعيدة. لم يكن بد من هذا النموذج الذي لا ينجو فيه المؤمنون ولا يؤخذ فيها الكافرون؛ ذلك ليستقر في حس المؤمنين ـ أصحاب دعوة الله ـ أنهم قد يدعون إلىٰ نهاية كهذه النهاية في طريقهم إلىٰ الله، وأن ليس لهم من الأمر شيء إنما أمرهم وأمر العقيدة إلىٰ الله»** [٢].

الوسيلة الثانية: الإيمان العميق، والحماسة الفياضة، والتقوىٰ والورع، والإخلاص والتجرد:

وكلها آثار لتغلغل العقيدة في القلب واتصال الروح بالله وامتلاء النفس بمقامه. **«وأصحابها رجال لأفئدتهم لوعة، ولقلوبهم لذعة، فإذا نومهم قليل، وكلامهم عند الضرورة فحسب، تجد عليهم روح السلوك إلىٰ الله، وبهجة المحب للرب. قد أيقنوا أن نفوسهم إن تركت بلا محاسبة ومراقبة كانت رأس البلاء، ومعدن الفضيحة»** [٣].

لذلك كان تعميق الإيمان وزيادة اليقين هدفهم الأول في ميدان الإصلاح والتوجيه، فعكفوا علىٰ نفوسهم بالتزكية والتطهير وبالإرشاد والتوجيه حتىٰ سلس لهم قيادها، وسهل عليهم علاجها، ولا شك أن لتزكية النفوس والتقوىٰ، والإخلاص والتجرد أسبابًا كثيرة وأبوابًا واسعة من أهمها:

أولاً: الذكر وقراءة القرآن:

---

(١) الدعوة إلىٰ الله ﷻ، حسن البنا.
(٢) معالم في الطريق لسيد قطب.
(٣) تذكرة المربي.

وهـذا بـاب مـن أوسـع الأبـواب ومـن أيـسرها وأكثرهـا أجـرًا وأجـداها نفعًـا. فبالـذكر يطمئن قلب الإنسان ويخشع، وبه يستشعر الذاكر عظمة الله تعالىٰ، ويتـذكر أن كـل شـيء في هذا الوجود يسبح معه، ويحمد الله تعـالىٰ علـىٰ الـنعم العظيمـة التـي أسبغها عليـه مـن سمع وبصر ومأكل ومشرب وملبس... إلخ. ويكبر الله مستشعرًا أنـه مـع الله الحـق الـذي لا يكبر بجانبه كبير. ويحس أنـه لا يخـشىٰ أحـدًا إلا الله وحـده نـاظرًا إلـىٰ الـدنيا وطغاتها باستهزاء واستعلاء؛ لاتصاله مع الله الكبير المتعال.

ولابد للذاكر أن يراعي أمورًا هامـة حتـىٰ يكـون ذكـره لله مثمـرًا مـؤثرًا في نفسه، وأهـم هذه الأمور:

أ ـ ذكر الصيغ الواردة: ولا شك أن الذاكر له أن يذكر الله بما يشاء ومـا يطمـئن لـه قلبـه وينطق به لسانه. غير أن رسول الله ﷺ علمنا أذكارًا معينة في كل حال من أحـوال المـسلم هو من خير الذكر وأحسنه؛ لأنه أوتي ﷺ جوامع الكلام، وأفضل الذكر ما ورد في القـرآن ثمَّ في السنة المطهرة.

ب ـ التفكر فيما يـذكر: فالـذكر الـذي تعبـدنا الله تعـالىٰ بـه، إنمـا جعلـه شـفاء للنفـوس ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾(١) فحين نسبح الله تعـالىٰ علينـا أن نستـشعر عظمته وجلاله ونحس بـأن الوجـود كلـه يسبح معنـا. وحـين نحمـده سبحانه.. نتـذكر نعمة الله الظاهرة والباطنة، وحين نقول: الله أكبر.. نحس بعزة الإيمان وقوته؛ لأن الله هـو القوي العزيز. وهكذا مع سائر الأذكار.

جـ ـ الخشوع: فلابد من الخشوع في الذكر؛ لأننا نذكر العظيم الجليل الواحد الأحـد.. ولابد أن يتناسب ذكرنا له مع مقامه وجلاله سبحانه.

ولقد قلنا: إن أفضل الذكر قراءة القرآن، فالقرآن هو أقوىٰ سلاح في يد المؤمن في هذه الدنيا. فإن كل شيء يطرأ عليه التبديل والتغيير إلا هذا الكتاب الكـريم: ﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ﴾(٢)، لذلك وجب علىٰ الداعية كثرة النظر في كتاب الله وأن يخصص

(١) الإسراء: ٨٢.
(٢) فصلت: ٤٢.

لنفسه وردًا يوميًا لا يتركه بحال من الأحوال؛ لأن «**قلوبنا بحاجة إلىٰ عذب من معين القرآن؛ ليمنحها السكينة والطمأنينة ويكسبها الشفافية والإرهاف**»[١]. وكما قال الشاعر:

وإن شعرت بنقص فيك تعرفه   فغذ روحك بالقرآن واكتمل

ولابد لنا إذ نقرأ القرآن أن نقرأه علىٰ أنه روح من الله تعالىٰ، إنه تعالىٰ يأمرنا وينهانا. فلابد لنا حين نقرأ القرآن من أن نستحضر عبوديتنا لله تعالىٰ، وأن نتأمل فيه ونتدبر معانيه، ونقف علىٰ عبره وعظاته.

ثانيًا: ذكر الموت والإحساس بالغربة في الحياة:

ويكون شعاره ذلك الشعار الذي رفعه النبي ﷺ حين قال: «**كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل**»[٢]. فيعيش المسلم في هذه الحياة كالغريب الذي لا يأوي إلىٰ شيء، ولكنه يظل دائمًا في شوق إلىٰ دياره يترقب لقاء الله، كما يترقب الغريب لقاء الأهل والولد. ويترقب رحمته ومغفرته. ويكون الموت منه علىٰ مرأىٰ ومسمع.. ينتظره في كل لحظة ويستعد له في كل حال. ينظر إلىٰ القبور، فيرىٰ سكونها وهدوءها ليشعر أن تحت التراب أناسًا مثله قد أفضوا إلىٰ ما قدموا، فمنهم الذين اسودت وجوههم وازرقت عيونهم، وكأنىٰ به يرىٰ الملائكة التي تعذبهم، ولا تأبه بصراخهم وعويلهم، ويحس بضمة القبر، وقد أطبقت علىٰ أضلاعهم، ثم ينظر إلىٰ التراب نظرة أخرىٰ فينظر إلىٰ أهل النعيم والجنات، مبيضة وجوههم، هادئة أرواحهم مطمئنة نفوسهم، ينظرون إلىٰ رحمة الله تعالىٰ ويحمدونه علىٰ النعيم. فيأخذ من هذا الموقف زادًا له في دربه وصدق رسول الله ﷺ؛ إذ يقول: «**أكثروا ذكر هادم اللذات**» يعني: الموت[٣].

اذكر الموت هادم اللذات   وتجهز لمصرع سوف يأتي

وما نعيم الدنيا إلا كخيال طيف أو سحابة صيف، فهو ظل زائل، ونجم قد تدلىٰ

(١) مشكلات الدعوة والداعية ـ فتحي يكن ص ٢٣.
(٢) أخرجه البخاري (٦٤١٦) عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.
(٣) أخرجه الترمذي (٢٣٠٧) والنسائي (١٨٢٤)، وابن ماجه (٤٢٥٨) عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال الترمذي: «حسن غريب»، وقال الألباني: «حسن صحيح».

للغروب. فهو عن قريب آفل. قال النبي ﷺ: «**ما لي وللدنيا؟ إنما أنا كراكب قال في ظل شجرة ثم راح وتركها**»[(١)]. وقال: «**ما الدنيا في الآخرة إلا كما يدخل أحدكم أصبعه في اليم، فلينظر بم يرجع**»[(٢)] [(٣)].

الوسيلة الثالثة: الإكثار من التفكر في خلق الله:

وهذه عبادة تركها كثير من الناس وزهدوا فيها، فحري بالدعاة أن يعيدوها ويحيوها. كيف لا وقد ألزمهم بذلك ربهم: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟﴾[(٤)]. وهي عبادة جليلة وقربة إلىٰ الله تعالىٰ عظيمة تترك في النفوس أثرًا لا يمحىٰ، وتكسب في القلوب رغبة ورهبة. وتنزع منها شرورًا في النفس خافية، ولذلك، فقد مدح الله سبحانه وتعالىٰ المتفكرين في خلقه، فقال: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾﴾[(٥)]؛ ولذلك فحين نزلت الآية السابقة قال رسول الله ﷺ: «**ويل لمن قرأها ولم يتفكر**»[(٦)] ولأمر ما كان رسول الله ﷺ يختلي في غار حراء قبيل بعثته الليالي الطوال يتفكر في خلق الأكوان وفي أمر الحياة.

الوسيلة الرابعة: حب الدعوة والغيرة عليها:

والحب عاطفة وفطرة ربانية فطر الله الناس عليها. «**والحب يورث شدة الولاء، ويبعث إلىٰ العمل والاجتهاد قربىٰ إلىٰ المحبوب وابتغاء لمرضاته؛ عملاً من تلقاء النفس**

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٣٧٧)، وابن ماجه (٤١٠٩) وأحمد (١/ ٩١) عن عبد الله بن مسعود، وصححه الألباني.

(٢) أخرجه مسلم (٢٨٥٨)، وابن ماجه (٤١٠٨)، عن المستورد.

(٣) مدارج السالكين لابن القيم ٣/ ٩٣.

(٤) سبأ: ٤٦.

(٥) آل عمران: ١٩٠، ١٩١.

(٦) أخرجه ابن حبان في صحيحه(٦٢٠) عن عائشة،وحسنه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (١٤٦٨).

وطوعها لا يراقب منفعة مرجوة ولا تحده مراعاة أجرٍ مرغوب»[١].

«**والإنسان بالغريزة المركوزة فيه يحب نفسه ويشمل بعاطفته كل شيء يتمثل نفسه فيه أو يرىٰ وجوده ممتدًّا إليه ـ وذلك هو سبب حب الإنسان؛ لما ينتسب إليه من أهل وملك وموطن ـ وما يشاكله ويلائمه بأي وجه من الوجوه، وبهذا المعنىٰ أيضًا يحب الإنسان ربه متىٰ اهتدىٰ إليه فوجوده كله لله وقيامه ودوامه به، ورجوعه إليه تربطه بربه وشائج أوثق من كل قرابة؛ لأنه أثر منه تعالىٰ، صنعه بيديه، ونفخ فيه روحه ولقنه من علمه، وحاطه برحمته وقدرته»**[٢].

ويكاد يكون مركز هذه العاطفة ـ عاطفة الحب ـ هو ذات الإنسان نفسه. فكلما اتصل الشيء بذاته، كلما كان أقرب إليه وأحب إلىٰ نفسه. وهكذا حين ينغرس في قلب الإنسان أنه مخلوق لله تعالىٰ قائم به وراجع إليه يحس بأنه أثر منه سبحانه، وأن وجوده متصل بوجوده. فتمتلئ نفسه بمشاعر الحب له ولما يصدر منه، وهكذا يحب الإنسان ربه ويحب منهجه وشريعته ودعوته، ويحب العمل لها والجهاد في سبيلها.

وحين يبلغ الحب مرتبة عليا في نفس الإنسان تقوم الغيرة تحرس حماه وتصون محارمه أن تستباح، ومن علامات الغيرة الغضب إذا انتهكت محارم الله والثورة لإبطال ما يرىٰ من منكر. قالت عائشة ﵂: قدم رسول الله ﷺ من سفر، وقد سترت سهوة وهو ما يشبه النافذة لىٰ بقرام وهو الستار فيه تماثيل، فلما رآه رسول الله ﷺ هتكه وتلوَّن وجهه وقال: «**يا عائشة أشد الناس عذابًا يوم القيامة الذين يضاهون بخلق الله**»[٣].. ومن علامات الغيرة كذلك ألاَّ يطيق أن يرىٰ رسالته معطلة أو خاضعة لسلطان رسالة أخرىٰ. ومن هنا نرىٰ المؤمن الحق والداعية المفطور يلح في أن يجمع لرسالته كل سلطان روحي ومادي يكفل لها الهيمنة علىٰ ما سواها»[٤].

(١) الإيمان وأثره في حياة الإنسان ـ حسن الترابي ص٦٦، ٦٧.
(٢) المرجع السابق ٦٦ ـ ٧٦.
(٣) أخرجه البخاري (٥٩٥٤)، ومسلم (٢١٠٧) عن عائشة ﵂.
(٤) تذكرة الدعاة ـ البهي الخولي ص٢٣٣.

إن حب الدعوة وحب العمل لدليل علىٰ حب الله ورسوله وثمرة من ثمراته. وإن لم يؤد حب الله إلىٰ هذه الثمرة، فهو ادعاء كاذب وعاطفة غامضة، ليس لها علىٰ النفس توجيه ولا سلطان. فإن الحب الصادق دليله أن يكون الله ورسوله والعمل لدينه أحب إلىٰ النفس من كل ما تحبه وتعتز به ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾[1].

ومن علامات محبة الداعىٰ المسلم لربه كذلك:

أ ـ الولع بذكره تعالىٰ في كل حين، فلا يفتر عنه لسانه، ولا يخلو منه قلبه: فمن أحب شيئًا أكثر بالضرورة من ذكره وما يتعلق به. ومن هنا كان من علامات المحبين الإكثار من تلاوة كتاب الله تعالىٰ.

ب ـ يأنس بمناجاة الله: فهو لا يستوحش منها ولا يضيق بها، بل يهتبلها فرصة لهذه المناجاة.

جـ ـ يتنعم بطاعته ولا يستثقلها: فإن المحب يتلذذ بخدمة محبوبه وينشط لها؛ ولهذا كانت الصلاة قرة عين لرسول الله ﷺ، وراحة لنفسه الكريمة من نصب الدنيا. قال الجنيد رحمه الله: علامة المحب دوام النشاط في طاعة الله.

يقول الشاعر:

تعصي الإله وأنت تظهر حبه ... هذا لعمري في الأنام شنيع
لو كان حبك صادقًا لأطعته ... إن المحب لمن يحب مطيع

د ـ لا يتأسف علىٰ ما يفوته مما سوىٰ الله عز وجل: ويعظم تأسفه علىٰ فوت كل ساعة خلت عن ذكر الله، وعن القيام بخدمته وطاعته.

---

(١) التوبة: ٢٤.

هـ ـ يؤثر ما يحبه الله علىٰ ما يحبه هو في ظاهره وباطنه: فإن المحب الصادق يؤثر دائمًا ما يحبه محبوبه، ولا يبالي بالمشاق والمتاعب في هذا الإيثار.

و ـ يحب لقاء الله: لأن المحب يحب لقاء الحبيب، وبالتالي، فهو لا يكره الموت إذا جاءه؛ لأنه مفتاح اللقاء وطريق الوصول إلىٰ الله(١).

الوسيلة الخامسة: دوام التذكير بالغاية:

وإنما قصدنا التذكير بالغاية لا التعريف بها؛ لأن أمر التعريف بالغاية من مقتضيات فهم مبادئ الإسلام الأولىٰ. وهو ما لابد منه لكل منتسب إلىٰ هذا الدين فضلاً عن الدعاة إليه. أما التذكير بالغاية فهو شيء آخر. وهو ما لابد منه لكل مسلم، كبيرًا كان أم صغيرًا، عالمًا كان أم متعلمًا داعيًا له أو من عامة المسلمين. ذلك أن الإنسان قد ركب في فطرته الغفلة والهوىٰ، والسهو والنسيان. وإن لشهوات الدنيا ومغرياتها لثقلاً علىٰ نفسه، وضغطًا علىٰ عقيدته وفكره، وهو ما يحتم عليه تذكيرًا دائمًا بالميزان، ومراجعة متواصلة ومحاسبة، وإعادة للأمور إلىٰ نصاب الحق علىٰ الدوام. فإذا تأكد للداعية غايته ـ وهي مرضاة ربه سبحانه ـ فقد وجب عليه أن يحيي قلبه بالسير إليه وأن يجتهد في ذلك ما استطاع. وأن ينتزع الناس ـ ممن حوله ـ من الدنيا؛ ليسيروا معه في الرحلة الطويلة البعيدة.

نحن علىٰ رأس رحلة إلىٰ الله سبحانه وتعالىٰ، فإذا اجتزنا مراحلها علىٰ ما يرضيه، فعند الصباح يحمد القوم السرىٰ، ويحطون رحالهم في دار المقامة من فضله ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾﴾(٢) وهي بعد رحلة لا تقطع بقطار أو سيارة، وإنما تقطع بالقلب، والقلب فيها هو كل شيء؛ فيه يبصر الإنسان غايته أو يبصر الله تبارك وتعالىٰ، كما قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «**وغايتنا لا تدرك بالأبصار ولكن تدرك بالقلوب التي في الصدور، وما لم يبصر الإنسان غايته لم يعرف إليها سبيلاً ولم**

(١) أصول الدعوة ـ زيدان ص ٣٢٧.
(٢) العنكبوت: ٦٤.

يدرك لها جمالاً».

وبه يستبين الطريق إليها، فلا تلتبس المعالم علىٰ ذوي القلوب الحية ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾[1]. وما المعالم هنا إلا الطيب والخبيث، والحسن والقبيح، والنافع والضار، والحلال والحرام. وهو الذي يضاعف أشواق المرء إلىٰ غايته، ويستحث همته إليها، فتهون عليه المراحل والعقبات، وكلما أدركه كلال أو ملل، لاحت له بوارق من دار السلام فيتجدد عزمه ويحيا رجاؤه علىٰ حد قول الشاعر:

لها أحاديث من ذكراك تشغلها   عن الطعام وتلهيها عن الزاد
إذا اشتكت من كلال السير أوعدها   روح القدوم فتحيا عند ميعاد

فالقلب يا أخي هو كل شيء في هذه المرحلة الأزلية. هو كل شيء في حياتك. وما الجسم إلا مطية له أو ظرف يصونه.

وإذا تقرر أن القلب هو كل شيء في عوامل الرحلة، أو هو أهم شيء فيها ـ فهو الذي يبصر الغاية، وينير الطريق، ويجدد العزائم، ويستحث الأشواق ـ وجب أن نتيح له من الهدوء وفراغ البال ما يجعله يستمر علىٰ ذكره وفكره، وإقباله علىٰ الله سبحانه في طمأنينته وسكينته.. وفي رأيي أن القلب إذا أحيط بما يقيه ويحفظه من المؤثرات العارضة فقد مضىٰ إلىٰ غايته علىٰ هدىٰ وصراط مستقيم.. ويمكن للداعية أن يجمل هذه المؤثرات فيما يلي:

أ ـ مؤثرات اقتصادية:

نعم، فمطالب العيش وكل ما يتصل بالحياة الاقتصادية له تأثيره المباشر القوي علىٰ القلب.. كالفقر والتعطل عن العمل والمرض.... إلخ. وعلىٰ الداعية أن يدرك هذا وأن يبذل غاية جهده لصيانة القلب منه، والمحافظة علىٰ بقائه في روض سلامته، ونعيم ذكره

(١) الأنعام: ١٢٢.

وفكره. ولأمر ما كان رسول الله ﷺ يقول: «**اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن.. وأعوذ بك من غلبة الدين وقهر الرجال**»(١)، ويقول: «**اللهم إني أعوذ بك من الكفر والفقر**»(٢) وليس في البشر كافة من هو أسمىٰ همة من رسول الله ﷺ.فهل تراه فزع إلىٰ الله واستعاذ به إلا لأن الحزن والهم وغلبة الدين والفقر من مهلكات القلب كالذنوب والشهوات سواء بسواء؟

فإذا نحن عنينا بتقرير هذه العوامل الاقتصادية، وأثرها علىٰ حالة المرء النفسية، فلسنا نقف بمرادنا عند حدود اللقمة التي تسد جوعه وتستر عورته.. بل نرمي إلىٰ ما وراء هذه الحدود من انقشاع الظلمة عن القلب، وصفاء الأفق من حوله، وعودة الطمأنينة إليه، ليواصل سيره إلىٰ غايته فإذا أمكن أن نصل إلىٰ هذه الغاية، مع بقاء أسباب الجوع فتلك مرتبة لا يدركها إلا المجدون، ولقد كان رسول الله ﷺ يجوع، فلا يذله الجوع، ويخلو بيته من القوت فلا يتضعضع لأحد لينال من فضله شيئًا، ولا يهمه ذلك أو يغمه، بل يربط الحجر علىٰ بطنه.

ب ـ مؤثرات نفسية:

وهي عوامل ترجع إلىٰ غرائز الإنسان الحيوانية وأهمها كلها هنا غريزتا الجنس(٣) وحب المال(٤)، وكل منهما إذا ثارت بصاحبها عصفت بعقله ومزقت همة قلبه فتعبث به كالريشة في مهب الريح.. ولابد لانتظام سير الإنسان أو لانتظام سير قلبه إلىٰ الله من معالجة جموح هذه الغرائز وتلطيف حدتها وثورتها؛ ولذلك فقد أوصىٰ الرسول ﷺ الشاب بالزواج ودل من لم يستطع ذلك إلىٰ سبيل ميسور «**يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج، فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم،**

(١) أخرجه أبو داود (١٥٥٥) عن أبىٰ سعيد الخدري، وضعفه الألباني.

(٢) أخرجه أبو داود (٥٠٩٠)، والنسائي (١٣٤٧)، وأحمد (٥/ ٣٦)، عن أبي بكرة، وصحح الألباني إسناده.

(٣) غريزة الجنس: استغلها فرويد أسوأ استغلال.

(٤) غريزة حب المال استغلها كارل ماركس أسوأ استغلال.

فإنه له وجاء»[١].

جـ ـ مؤثرات اجتماعية:

وهي عوامل ترجع إلىٰ العادة والعرف في تقدير قيمة العرض والعفة والفضيلة، وأبرز ما في هذا الباب، تبرج النساء واستعلان الناس بما يأتون من منكر، فإن ذلك مما يقطع علىٰ القلب طريقه، ويفسد عليه هدوءه وطمأنينته، والنظرة سهم من سهام الشيطان، كما أخبرنا بذلك رسول الله ﷺ: «**النظرة سهم من سهام الشيطان من تركها مخافتي أبدلته إيمانًا يجد حلاوته في قلبه**»[٢] وما ترك رسول الله ﷺ بعده فتنة أضر علىٰ الرجال من النساء. ومطلوب إلىٰ الداعية أن يعمل بكل ما يستطيع من الوسائل علىٰ تطهير البيئة من كل فساد يضر بحياة القلب[٣].

الوسيلة السادسة: التركيز علىٰ أصول التكوين الذاتي:

وذلك من خلال:

١ ـ بيان الكيفية: نحو كيف تقرأ؟ كيف تتثقف؟ كيف تحلل؟ كيف تنظم؟ كيف تستغل الوقت؟ وهكذا في كل أمر تعليمي، فعلىٰ سبيل المثال لا يكفي أن نوجه الأفراد للقراءة ونحثهم عليها مبينين أهمية الاطلاع، بل لابد من تنمية وصقل الكيفية التي تكون بها المعرفة.

٢ ـ دراسة أساليب التطبيقات العملية لتحركات القادة والمصلحين في بنائهم لأنفسهم ولغيرهم، وسيرهم ـ رحمهم الله ـ كثيرة ومثبوتة في كتاب السير والتراجم.

٣ ـ تنشيط الإبداع والابتكار والتفكير بالجديد، وذلك باتباع نظام التشجيع علىٰ الإبداعات التي فيها دفع للعمل الإسلامي إلىٰ الإمام، مع عدم إخلالها بالثوابت التي

(١) أخرجه البخاري (٥٠٦٥)، ومسلم (١٤٠٠) عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

(٢) أخرجه الحاكم (٤/ ٣١٣، ٣١٤) من طريق إسحاق بن عبد الواحد القرشي ثنا هشيم عن عبد الرحمن بن إسحاق عن محارب بن دثار عن صلة بن زفر عن حذيفة به مرفوعًا. وتعقبه الذهبىٰ فقال: قلت: إسحاق واه وعبد الرحمن هو الواسطي ضعفوه، وقال الألباني في الضعيفة (١٠٦٥): «ضعيف جدًّا».

(٣) مقتطفات متفرقة من كتاب تذكرة الدعاة ـ البهي الخولي ص ٢٣٩ ـ ٢٥٠.

تقوم عليها الدعوة الإسلامية، ومن صور التشجيع بيان أهمية المشروع المُبدع فيه للمسيرة الإسلامية مع ربطه بأمثلة ظهرت في السابق نتيجتها الإيجابية للدعوة الإسلامية، وتحميله مسؤولية تنفيذ هذا الإبداع مع إعانته عليه.

*****

خامسًا: طرق التنمي الذاتي

بعد ذكرنا لوسائل اكتساب الطبيعة التنفيذية كان طبيعيًّا بيان طرق التنمية، فما من شيء يراد له الاستمرار بعد الحيازة إلا اتُبعت فيه طرق التنمية، فصاحب المال يُصاب بالإفلاس عندما لا يُنمي المال الذي اكتسبه، وهنا سنذكر طرق التنمية علىٰ سبيل المثال؛ للمساعدة علىٰ بقاء الذاتية عند الدعاة.

الأسلوب الأول: نظام التفويض الإداري:

المراد بالتفويض:

إن العمل المؤسسي للدعوة الإسلامية يستلزم إيجاد رجال يتحركون بذاتهم وعندهم القدرة علىٰ اتخاذ القرار، وهذا يستلزم إتاحة الفرصة لهم لاتخاذ القرارات الخاصة بتأدية واجباتهم ومسؤولياتهم من أجل إعطائهم فرصة أكبر للحماس في تنفيذ قرارات المؤسسة الدعوية والخيرية.

مكانته في التاريخ الإسلامي:

إن المتتبع لسيرة النبي ﷺ والخلفاء الراشدين من بعده في السرايا والبعوث والغزوات ليجد نظام التفويض في أجمل صوره التي تناسب طبيعة البساطة الإدارية التي كانت في ذلك الوقت.

التفويض الناجح:

لمعرفة التفويض الناجح لا بد من بيان عناصره المكونة له وهي: المسؤولية - السلطة - المساءلة.

١ - المسؤولية: هي المهمة المفوضة من حيث إنها واجب علىٰ الفرد أن يؤديه.

٢ - السلطة: هي القوة المعطاة للفرد في حق اتخاذ القرارات الضرورية لتنفيذ المسؤولية.

٣ - المساءلة: هي محاسبة الفرد المفوض علىٰ نجاحه أو فشله في المسؤوليات

الموكلة إليه.

وعلىٰ هذا فالتفويض الناجح هو عملية توفيق ومواءمة بين العناصر الثلاثة السابقة.

التفويض بين الدراسة والإجمال:

إن عملية التفويض ليست عجزًا في الإدارة بدفع القائمين علىٰ العمل بإلقاء الأعباء علىٰ الآخرين، أو هي سلب من المفوَّض للصلاحيات من المفوِّضين: بل هي:

١ ـ عملية مدروسة من حيث الوقت والأشخاص والمهام، وعلىٰ ذلك لا تُعتبر تنازلاً عن قيادة المؤسسة أو عن جزء من عملها.

٢ ـ مساءلة كاملة للمسؤولين عن المؤسسة في نهاية الأمر؛ لأن المكلفين معرضون للخطأ والصواب، وهذا لا حرج فيه، وهذه المساءلة تُلقىٰ علىٰ قيادة المؤسسة المتابعة والدقة في التكليف.

مزايا عملية التفويض:

١ ـ إعطاء مسؤول المؤسسة فرصة للتركيز علىٰ الجوانب الهامة في مسؤوليته بدل تبديد الوقت في التفاصيل الفرعية.

٢ ـ إعطاء المسؤول فرصة للتخطيط المستقبلي والتنبؤ بالأحداث بدل ملاحقاته للأحداث.

٣ ـ رفع الروح المعنوية للمفوَّضين وتجديد روح العمل عندهم دائمًا.

٤ ـ تدريب المفوَّضين علىٰ المسؤوليات الهامة؛ ليكونوا صفًّا ثانيًا للعمل في المؤسسة.

مبادئ التفويض الفعال:

١ ـ شعور المسؤول أن هناك من يُحسن القيام بعمله، وما يترتب علىٰ ذلك من تقبل الخطأ من الأفراد.

٢ ـ التأكد من وضوح خطوط السلطة بتفهم المفوض للخارطة التي تحكم السلم الهرمي للعمل الذي يقوم بعمله من خلاله.

٣ ـ أن يعرف الفرد النتيجة المطلوب منه تحقيقها، والموعد الذي يجب أن يحققها فيه مع تحديد الأولويات.

٤ ـ كتابة النقاط المتفق عليها، ويراعىٰ وجود النقاط الآتية:

أ ـ الأهداف المطلوب تحقيقها.

ب ـ الموعد الذي يجب أن يحقق فيه العمل.

٥ ـ تفويضه بالسلطة اللازمة لأداء العمل وبيان المدىٰ الذي يمكن للفرد المفوَّض أن يستخدم سلطته فيه.

صعوبات عملية التفويض وكيفية التغلب عليها:

١ ـ المشكلة:

تكون المساءلة في النهاية علىٰ عاتق المسؤول مما يجعله في خوف من خطأ الفرد أثناء عملية التنفيذ.

العلاج:

محاولة التقليل من درجة المخاطرة عن طريق:

أ ـ التخطيط لعملية التفويض بعناية.

ب ـ إشعار المفوَّضين بالثقة في قدراتهم والإفصاح لهم بذلك.

٢ ـ المشكلة:

تأخر نتائج عملية التفويض.

العلاج:

عدم الاستعجال للنتائج من المسؤول.

٣ـ المشكلة:

شعور المفوِّض بالخوف من اكتساب الأفراد الخبرات خاصة التي تجعلهم في موقف الند والمنافسة للمسؤولين.

العلاج:

تنمية شعوره بالرضا نتيجة لقدرته علىٰ تنمية الآخرين وإن له أجر هذا القائد الجديد أو ما يأتي منه من خير؛ لقوله ﷺ: «**من سن في الإسلام سنة حسنة، فله أجرها وأجر من عمل بها من بعده لا ينقص من أجورهم شيء**»[1].

٤ـ المشكلة:

إحساس المسؤول بأن الأفراد لا يستطيعون تأدية المهام المنوطة بهم بالكفاءة التي يؤديها.

العلاج:

لابد من وضع عنصر المخاطرة واحتمال الخطأ من المفوِّض في عملية التخطيط والتنفيذ وحينئذ تراعي الأمور التالية:

١ـ طبيعة قدرات ومهارات الفرد.

٢ـ طبيعة قدرته علىٰ التعلم واكتساب المهارات الجديدة.

٣ـ عدم تكرار الخطأ بعد توجيهه وإرشاده.

٤ـ إشعار الفرد بأن القدرة والخبرة تكتسب تدريجيا.

٥ـ غرس الثقة في نفس الفرد مع الثناء عليه في مواقف تستحق الثناء.

٦ـ تحليل الخطأ الذي يصاحب عملية التفويض مع الفرد من خلال:

أـ معرفة حجم وطبيعة الخطأ.

بـ معرفة السبب الذي أدىٰ إلىٰ وقوع الخطأ.

جـ استخدام المدخل العلاجي لكل حالة علىٰ انفراد.

خطة التفويض:

يفضل استخدام الخطوات الآتية:

١ـ تسجيل المهام الرئيسة للمسؤول بتحديد الأهداف الرئيسة للمسؤولية دون الدخول بالتفصيل.

(١) أخرجه مسلم (١٠١٧) عن جرير بن عبد الله رضي الله عنه.

٢ـ فحص الأعمال اليومية التي تمت في الشهر الماضي مع التسجيل والتحليل لعينة نموذجية من الواجبات اليومية أو الأسبوعية.

٣ـ تحديد المسؤول لأعماله اليومية بجدولته بالساعات والنسب المئوية، ثم تحديد المهام التي يتم فيها التفويض.

مجالات التفويض علىٰ سبيل المثال:

١ـ المهام الروتينية: وهي التي تستغرق جزءًا كبيرًا من وقت المدير العام أو مجلس الإدارة.

٢ـ إعداد المساعدين وتنميتهم: وذلك بإسناد بعض الأعمال غير الروتينية لتدريبهم وتأهيلهم.

الأسلوب الأول: اختيار الأفراد المفوَّضين:

يعتمد الاختيار علىٰ تحليل المهارات والقدرات الخاصة بالأفراد للتعرف علىٰ:

١ـ المهارات والمواصفات التي تتوفر للأفراد أو المزمع اختياره منهم.

٢ـ المهارات التي يستخدمونها بالفعل في وقت الاختيار لهم.

٣ـ المهارات التي لم تستخدم من الفرد إلىٰ حين وقت الاختيار له.

٤ـ ماهية الأعمال التي يهتم بها الفرد في الوقت الحاضر.

٥ـ الأعمال التي لا يستطيع أن يقوم بها بكفاءة وفاعلية رغم تكرارها.

الأسلوب الثاني : نظام الحوافز:

وهو تابع ومرتبط بحاجات الإنسان:

أ ـ الأولية.

ب ـ الثانوية.

وأما الحاجات الثانوية، وهي الأكثر تعقيدًا وأثرًا كذلك وهي علىٰ سبيل المثال:

المنافسة ـ تحقيق الذات ـ الحاجة إلىٰ الاعتراف والتقدير ـ وهذه تلعب دورًا هامًّا في تعطيل أو تعقيد الجهود التي تبذلها المؤسسات، لإثارة دوافع العاملين وتحفيزهم

للعمل.

ولأهميتها نذكر بعض الأمور الخاصة بها:

١ـ إنها شديدة التأثر بالخبرة التي يمر بها الفرد.

٢ـ تتنوع من حيث النمط من شخص لآخر.

٣ـ تتغير في داخل الفرد ذاته.

٤ـ مشاعر غامضة وليست كالحاجات الفسيولوجية.

أما الحاجات الأولية، فهي كما ذكر أصحاب الاختصاص:

١ـ فسيولوجية: وتعتبر هذه في أعلىٰ هرم الحاجات الأولية، وعدم إشباعها قد يخضع الإنسان لها ولمن يتحكم بها.

٢ـ نفسية: تقوم علىٰ الأمن والاستقرار؛ ليتسنىٰ له التخطيط والتفكير والحركة.

٣ـ اجتماعية: تقوم علىٰ الإحساس بالانتماء للجماعة؛ ليتسنىٰ له النصرة والتوجيه.

٤ـ ثقافية: تقوم علىٰ الفهم والمعرفة؛ ليحسن التحليل والتنظير.

وعلىٰ ذلك، فالحوافز الآخذة بعين الاعتبار الحاجات الأولية والثانوية تلعب دورًا كبيرًا في حياة العامل وخير مثال نضربه في موضوع الحوافز في دفع المسلمين للعمل قوله تعالىٰ: ﴿ وَقُلِ ٱعۡمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ وَرَسُولُهُۥ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴾[(١)].

والآية الكريمة تبين أمرين في غاية الأهمية كحافز للاندفاع الذاتي:

١ـ مكانة الجهة التي تصدر الأمر بالنسبة للعامل، فالآمر في الآية هو الله.

٢ـ منزلة جهة التقويم والمراقبة وهي هنا الله سبحانه وتعالىٰ والرسول ﷺ والمؤمنون.

الأسلوب الثالث: جذب الانتباه والتشجيع:

وذلك بلفت انتباه المكلف لأهمية العمل الذي يقوم به وتشجيعه عليه، ومن العبارات المستخدمة في ذلك:

---

(١) التوبة: ١٠٥.

أ ـ تصرف حسبما تراه مناسبًا.

ب ـ تستطيع أن تواصل عملك بالأسلوب الذي تراه.

جـ ـ إنك تُمثل كسبًا حقيقيا لهذا القسم.

الأسلوب الرابع: إطلاع أفراد المؤسسة علىٰ مجريات الأمور:

وهذا بالتالي سيُشعر الفرد بالمشاركة والتفاعل المؤدي إلىٰ البذل والعطاء، فتقوم المؤسسة بعد ذلك برسم خطوات تعمل علىٰ استثمار هذه الروح، وهذا الاندفاع الذاتي نحو:

أ ـ مساعدتهم علىٰ أن يضعوا لأنفسهم أهدافًا واقعية في حدود إمكاناتهم وقدراتهم وظروفهم، مع البعد عن الطموح الزائف الذي قد يؤدي إلىٰ الفشل وخيبة الأمل.

ب ـ تزويد الأفراد بالوسائل والقدرات التي تمكنهم من تحقيق أهدافهم.

جـ ـ تدريب الفرد علىٰ ألا يقلق أو يضطرب أو يشعر بالإحباط الشديد إذا لم يتمكن من تحقيق بعض أهدافه مع البحث عن أهداف بديلة مناسبة.

د ـ التوفيق بين أهداف ومطالب الفرد وبين أهداف ومطالب المؤسسة التي يعيش فيها حتىٰ لا يحدث تعارض.

*****

سادسًا: العوامل المؤثرة في اكتساب وتنمي الذاتي عند الأفراد

بعد ذكرنا للوسائل والطرق يحسن بنا أن نذكر العوامل التي تساعد علىٰ إنجاح هذه الوسائل والطرق وهي:

العامل الأول: الاستعداد الفطرىٰ لدىٰ الشخص للنمو والعطاء:

إن المتتبع لسير القادة في العالم يجد أن بناءهم الذاتي ومعدنهم يتميز بالندرة، ثم أتت الوسائل التكوينية لتزيدهم جمالاً، وهذا قَدَرُ الله في الناس «**الناس معادن فخيارُهُم في الجاهلية خيارُهُم في الإسلام إذا فقِهُوا**»[1]، فالذهب يزداد لمعانًا وجمالاً بالعناية به، وكذلك الفضة تزداد بياضًا بالتنظيف، ولكنها لا تكون ذهبًا في يوم من الأيام، ولتوضيح ذلك نذكر مثالاً واحدًا يظهر من حديث النبي ﷺ. «**الناس كإبل مائة، لا تكاد تجد فيها راحلة**»[2].

«**حديث الأشج فيك خصلتان**»[3].

«**ضعف أبي ذر عن القيادة**»[4].

من لم يقفْ عند انتهاءِ قدرِهِ تقاصرتْ عنهُ فسيحاتُ الخُطىٰ[5]

العامل الثاني: البيئة المحيطة بالإنسان: وهذا يظهر جليا من خلال:

أ ـ شعور الفرد باحتياج المجتمع إليه: فهو يخاف ـ إن لم يتقدم لمسك الراية ـ أن تحصل الهزيمة، ويتحمل هو إثم التقصير، والخوف إما أن يكون علىٰ العاجل وإما علىٰ الآجل، فالعاجل فان، وهو ما يتعدىٰ الخوف من فقدان المال أو الجاه، وهذا وذاك زائل، والزائل لا يُخاف عليه، أما الخوف الحقيقي، فهو من الوقوف بين يدي الله يوم

(١) أخرجه البخاري (٣٣٨٣)، ومسلم (٢٥٢٦)، عن أبي هريرة رضي الله عنه.
(٢) أخرجه البخاري (٦٤٩٨)، ومسلم (٢٥٤٧) عن ابن عمر رضي الله عنه.
(٣) أخرجه مسلم (١٧) عن ابن عباس رضي الله عنهما.
(٤) أخرجه مسلم (١٨٢٥) عن أبي ذر رضي الله عنه.
(٥) مقصورة ابن دريد الأزدي.

القيامة من غير رصيد، فهذا هو الدافع للعمل. كما قال النبي ﷺ: «**من خاف أدلج ومن أدلج بلغ المنزل، ألا إن سلعة الله غالية، ألا إن سلعة الله الجنة**» هذا حديث حسن غريب[(١)].

ب ـ طبيعة المجتمع المحيطة به، وكونه مشجعًا للإبداع والعمل الإنتاجي.

جـ ـ توفير الأدوات المساعدة للنمو نحو: إكرام العلماء وإظهارهم للاستفادة منهم، تجهيز المكتبات ووضعها بين أيدي الأفراد، توفير الوقت للمبدعين منهم وتسهيل أمورهم الحياتية حتىٰ لا يَنْشغلوا بها.

د ـ وجود القدوة في المجتمع، حيث لا يختلف اثنان علىٰ أهمية القدوة، وإنَّ فِعْلَ حكيمٍ في ألف رجل خيرٌ من خطبة ألف رجل في رجل.

والناس ألفٌ منهمُ كواحـدٍ ... وواحدٌ كالألفِ إنْ أمرٌ عني[(٢)]

العامل الثالث: طبيعة التنشئة الأولىٰ:

وهي البناء الأول الذي يعتمد علىٰ غرس عنصر المبادأة ونبذ الاتكالية وربط الفرد دائمًا بالمثل الأعلىٰ.

العامل الرابع: الاستحضار الدائم لنية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

العامل الخامس: تنشيط روح التفكير والتجديد المنضبط بالكتاب والسنة.

*****

(١) أخرجه الترمذي (٢٤٥٠) عن أبي هريرة رضي الله عنه، وصححه الألباني.

(٢) مقصورة ابن دريد الأزدي.

سابعًا: ثمرات الطبيع التنفيذي

١ـ اتساع فقهه في الدعوة ورسوخه فيها:

وازدياد خبرته بالحياة وطبائع الناس... ذلك أن الطبيعة التنفيذية تنقل الداعية من حيز إلىٰ حيز. تنقله من حيز القواعد المتصورة إلىٰ حيز القواعد التطبيقية التنفيذية، وهو الذي يطبقها بنفسه، أو بإرشاده وتوجيهه، ويرىٰ أثرها في الحياة[١]، ويقيس نتيجتها في الواقع. فيزداد إلىٰ فقهه فقهًا ويضيف إلىٰ عمله خبرة لا يضيفها من سطور الكتب، بل يستنطقها من فم الحياة.

إن ميدان الفكر غير ميدان العمل. في الأول يجد المرء سعة في المجال ويسرًا في الحركة، ووفرة في العطاء. وفي الثاني يضيق له المجال، وتتشابك أمامه السبل ويضن به البذل، ويجد مشكلات استجدت، وعقبات برزت، وأمورًا لم تكن بالبال وقضايا ظهرت في الحال، فحينئذ يتسع أفقه وينضبط ميزانه ويختلف لذلك نهج تفكيره، ومن هنا جاء وصف تفكير الدعاة المربين بأنه تفكير هادف؛ لأنه ينبع من حاجة الدعوة، ويترعرع في محيط الدعوة وتحتمه قوانين الدعوة، ويسير وفقها إلىٰ هدف الدعوة الأساسىٰ الذي رسمه وقرر أبعاده التخطيط التربوي الحركي.

وهذا ليس بالصعب، فإن الداعية إذا صهر نفسه في الدعوة، وأوقف قابلياته وقواه عليها، دون النظر إلىٰ مصالحه الذاتية فإن تفكيره حينذاك لا يكون مجرد تفكير نظري ليست له رابطة بواقع الدعوة ومشاكل الطريق، وإنما يكون تفكيرًا عمليًا يتلمس بالحلول الواقعية المناسبة. بل وليس مجرد هذا وإنما يحمل هذا التفكير معه قوة دافعة ذاتية تدفع الداعية دفعًا سريعًا للمشاركة في تنفيذ هذه الحلول[٢].

إن الحركة تلد الحركة، والهمة تدفع الهمة، والعمل يفتح آفاق العمل والمرء يتعلم من تجارب الحياة في أيام ما لا يتعلمه في قاعات الدرس في سنين، والحياة هي المدرسة

(١) تذكرة الدعاة ص ٢٧٤

(٢) تذكرة المربىٰ ص٤٠.

الكبرىٰ، ولقد قص الله تعالىٰ علينا مثالاً عمليًّا لنبي كريم كان يهيئه ربه للرسالة والدعوة. وهو شاب اكتمل حماسة وخلقًا، ولكنه لم يتعلم الكثير من مدرسة الحياة بعد، إذ شب في بيت ملك وسلطان، فكان لابد له لكي تكتمل خبرته بالحياة ودرايته بطبائع النفوس من أن يجتاز دروسًا شاقة يدفع ثمنها غاليًا، فقرًا من بعد ملك وغني، وخوفًا من بعد أمن وسلام، وتشريدًا في الأرض بعد إذ كان بين أهل وعشيرة.

فلما اجتاز تلك الدروس تهيأ له أن يباشر الرسالة ويتحمل الأمانة. دخل موسىٰ عليه السلام المدينة ﴿عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ۖ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ﴾[1]، لقد استعجل موسىٰ في استخدام قوته. لقد مات الرجل وإنما أراد موسىٰ أن يمنع الظلم.

«إن المصري قد يكون له بعض العذر في ضرب الإسرائيلي وظلمه؛ لأنه إنما يجري في ذلك علىٰ عادة شائعة موروثة، وسنة مرعية، يرعاها فرعون مصر الأكبر... فإذا أردنا العلاج الصحيح، فلن يكون بعلاج الحوادث الفردية، وإنما بتغيير العادة الشائعة، وإبطال القانون الذي يرعاه فرعون. أما قتل فرد أو عدة أفراد كما حدث من موسىٰ عليه السلام، فهو عمل لا يقرب من الإصلاح خطوة واحدة. وقد نعته موسىٰ بأنه من عمل الشيطان.

علىٰ أن علاج الفساد بعلاج الحوادث الفردية كثيرًا ما يوقع تحت طائلة القانون ويغضب مقامات كبيرة لها منفعة في استمراره علىٰ ما هو عليه، وحينئذ يعرض الداعية نفسه لحكم القانون ولبطش الجبارين في غير نفع يعود علىٰ الرسالة.

لا نشير بالجبن ولا بالاستكانة..ولكننا نحب للداعية أن يتسع أفقه العقلىٰ والنفسي فيعالج مبعث العلة، وأصلها بالحكمة والروية، وحسن النظر في مبادئ الأمور ونهاياتها. فذلك هو السبيل الطبيعي للعلاج. أما الوثوب علىٰ الحوادث الفردية، ومظاهر الفساد المتفرقة فشأن البسطاء الذين يذهبون مع حرارة العاطفة دون تقيد بالنظر في عواقب الأمور وشأن من لا يدخرون أنفسهم لما هو أجل»[2].

---

(١) القصص: ١٥.

(٢) تذكرة الدعاة ص ٢٦٩.

ونعود إلىٰ التلميذ الرباني موسىٰ بعد هذا الدرس القاسي، وقد عاهد ربه ألاَّ يعود إلىٰ فعله مرة أخرىٰ ﴿رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾﴾[1].

نعود إليه وقد تعلم درسًا عمليًّا عميقًا من استعجاله في قتل المصري الظالم -وما أراد قتله- حين استنصر به الإسرائيلي المظلوم. فحين جاءه الإسرائيلىٰ بالغد يستصرخه علىٰ مصري آخر تذكر موسىٰ خطأه بالأمس وقال له: ﴿إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾﴾[2].

ثم قدر الله له -لكي تكتمل تجربته في الحياة- أن يعيش بعيدًا عن قومه وعن دياره نحوا من ثماني أو عشر سنوات، قضاها في رفقة شيخ طاعن اجتمع له إلىٰ سداد الهداية والعلم، دراية بسنن الحياة، وخبرة بطبائع الناس وتجربة في كل ميدان. فكان أن أفاض عليه من علمه وخبرته وتجربته، وسرد عليه من قصص السابقين وأحداث الأولين بعد أن تنسم فيه ذكاء وخلقًا، ووجد فيه قوة وعزمًا.

فنفث فيه من كل ذلك حتىٰ استوىٰ لموسىٰ عوده واستقام له أمره.

فحسبك -إذن- أخي الداعية بالحياة معلمًا وأستاذًا. حسبك بها مدرسة تتلمذ فيها علىٰ علم الحياة وفن الواقع. ولكنها مدرسة لا تفتح لغير العاملين، ولا يتعلم منها غير الصابرين المثابين.

٢- تطهير النفس من العيوب وتخليصها من رواسب الجاهلية:

ذلك أن في النفس عيوبًا خافية لا يكتشفها صاحبها إلا في جو العمل وفي محيط الدعوة وما يصاحبها من جهاد ومكابدة ومعاناة. ولا يسلم منها ولا يبرأ إلا في جو العمل ومحيط الدعوة كذلك. فالشح والكبر والخوف سلاسل من العيوب لا يكاد يحس بها القاعد الآمن؛ إذ كثيرًا ما تكون خافية تطويها النفس، فإذا انخرط في الميدان نشأت بينه وبين مختلف الطوائف معاملات متباينة، وصلات متعددة، فالناس منهم المؤيدون، ومنهم المخالفون، ومنهم المعارضون المعاندون. وهو مضطر حيال ذلك إلىٰ أن يقف من كل منهم موقفًا. ثم هو يمر بظروف ومواقف وأزمات تستدعىٰ بذلاً وتضحية

(١) القصص: ١٧.
(٢) القصص: ١٨.

وتتطلب صبرًا وشجاعة وعزما.

فإذا هو من كل ذلك مُطلعٌ علىٰ حقيقة نفسه يعرف ما خفي منها عليه ويكشف ما غاب منها عنه، حينئذ يكون العلاج بأسلوب التربية بالموقف علىٰ طريقة الضرب علىٰ الحديد والحديد ساخن. وقد كان من نصيحة الإمام البنا لتلامذته في المؤتمر الخامس أن «**أعدوا أنفسكم وأقبلوا عليها بالتربية الصحيحة والاختبار الدقيق، وامتحنوها بالعمل القوي البغيض لديها، الشاق عليها وافطموها عن شهواتها ومألوفاتها وعاداتها**»[1].

ولقد سلك رسول الله ﷺ في تربية أصحابه وتخليصهم من رواسب الجاهلية هذا المسلك الفريد، فكان ﷺ يربيهم بأسلوب الإيجاب حينًا وأسلوب السلب حينًا آخر. وتعتبر هذه الخطة منهجًا تربويًا عميق الأثر في دفع النفسية الجاهلية وتربيتها تربية إسلامية جديدة، وتعويدها علىٰ الصبر وتحمل الأذىٰ والفتنة، وبعد أن كانت تثور لأتفه الأسباب، أصبحت مأمورة بالعفو والإحسان عن الإساءة ـ مع القدرة علىٰ الانتصاف. ولا شك أن الالتزام بهذه الخطة كان عسيرًا علىٰ بعض النفوس ولكن الانصياع الكامل لأوامر الله ورسوله جعلت رجالاً أمثال عمر بن الخطاب في حميته، وحمزة بن عبد المطلب في فتوته، وغيرهما ممن اعتادوا الاندفاع والاستجابة لأول ناعق، يتعودون ضبط نفوسهم ويوازنون بين الاندفاع والتروىٰ، والحماسة والتدبر، والحمية والطاعة، وبهذا تجردوا من ذواتهم وانتصروا علىٰ نفوسهم التي أصبحت خالصة لله وفي سبيل الله.

٣ـ زيادة الإيمان واليقين:

ذلك أن من سنة الله في الحياة أن جعل سبيل رسوخ العقيدة في القلوب واستقرارها فيها هو المعاناة والمكابدة والمجاهدة. «**إن حقيقة الإيمان لا يتم تمامها في قلب حتىٰ يتعرض لمجاهدة الناس في أمر هذا الإيمان مجاهدتهم بالقلب بكراهة باطلهم وجاهليتهم والعزم علىٰ نقلهم منها إلىٰ الحق والإسلام. ومجاهدتهم باللسان بالتبليغ والبيان، ورفض باطلهم الزائف، وتقرير الحق الذي جاء به الإسلام. ومجاهدتهم باليد بالدفع والإزالة من طريق الهدىٰ حين يعترضونه بالقوة الباغية والبطش الغشوم، وحتىٰ**

(١) رسالة المؤتمر الخامس.

يتعرض في تلك المجاهدة للابتلاء والأذىٰ، والصبر علىٰ الهزيمة والصبر علىٰ النصر أيضًا ـ فالصبر علىٰ النصر أشق من الصبر علىٰ الهزيمة ـ ثم يثبت ولا يرتاب، ويستقيم ولا يلتفت، ويمضىٰ في الإيمان راشدًا صاعدًا.

حقيقة الإيمان لا يتم تمامها في قلب حتىٰ يتعرض لمجاهدة الناس في أمر هذا الإيمان؛ لأنه يجاهد نفسه كذلك أثناء مجاهدته للناس وتتفتح له في الإيمان آفاق لم تكن لتتفتح له أبدًا وهو قاعد آمن ساكن. وتتبين له حقائق في الناس وفي الحياة لم تكن لتتبين له أبدًا بغير هذه الوسيلة. ويبلغ هو بنفسه وبمشاعره وتصوراته، وبعاداته وطباعه وانفعالاته واستجاباته، ما لم يكن ليبلغه أبدًا بدون هذه التجربة الشاقة العسيرة. وهذا بعض ما يشير إليه قوله تعالىٰ: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ﴾[1]. وأول ما تفسد: فساد النفوس بالركود الذي تأسن الحياة كلها به، أو بالحركة في مجال الشهوات وحدها. كما يقع للأمم حين تبتلىٰ بالرخاء[2].

ولقد أدرك سلفنا الصالح هذا المعنىٰ كاملاً فما بخلوا بجهد ولا استأثروا بوقت، بل وقفوا حياتهم كلها لله ولدعوته، فرجع مردودها عليهم زيادة في الإيمان، ورسوخًا في العقيدة، بذلك خرج ذلك الجيل الفريد في تاريخ البشرية ولم يخرج مثله بعد.

٤ـ تقريب النصر وتحقيق الفوز:

وما ذكرناه حتىٰ الآن من ثمرات الطبيعة التنفيذية ـ علىٰ عظم أهميتها وخطورة شأنها ـ هي ثمرات تعود علىٰ الفرد قبل المجموع. ولا شك أن ثمرات الأفراد هي في النهاية ثمرة للمجموع؛ إذ إن تكامل الأفراد في حصيلتهم التربوية واقترابهم من النموذج الإيماني الكامل دفع للمجموع نحو النصر، وتضييق للشقة إلىٰ الغاية. والنصر شيء غال وكسب ثمين، ولا يهبه الله سبحانه إلا للأخيار الأطهار.

«فصاحب مقام الدعوة قد اشترىٰ الله منه نفسه وماله وعرضه بأعظم الثمن، فإن أراد

---

(١) البقرة: ٢٥١.

(٢) هذا الدين ص١٠، ١١.

أن يسلم إليه الثمن، فليسلم هو السلعة ليستحق ثمنها»[١].

ومحنة الداعية في لهوه وغفلته وجلوسه فارغًا، وربما زاد فينفتح له باب من اللغو بعد اللهو. تلك هي المحنة الحقيقية التي تفتعلها الجاهلية للدعاة بما تعرض للناس من مغريات وأسباب لهو تلفت أنظارهم إليها. وانتصار الداعية يبدأ في أن تعاف نفسه ما لا يؤثر في تقدم دعوته.

فغفلة الداعية محنة؛ لأنها صرفته عن نصر ممكن يحققه له الجد والعمل الدائب، وعن أجر وثواب أخروي ليس له من مقدمة إلا هذا الجد.

ومن الثمرات علىٰ سبيل الإجمال:

١ـ تكوين النموذج القادر علىٰ العطاء والحركة الذاتية.

٢ـ اختصار الزمن والجهد في العملية الدعوية ـ التربوية الاجتماعية الفكرية.

٣ـ إشاعة روح الجدية والهمة في الوسط الدعوي.

٤ـ توفر العناصر القيادية للمهمات الكثيرة التي تحتاجها الدعوة.

*****

(١) مدارج السالكين ٢/ ٣٢.

الخاتم

وبعد: فإننا نريد داعية هو في ركض إلىٰ الله، طالبًا الاستشهاد في موقف خطبة ودعوة إلىٰ الله، كاستشهاد عروة بن مسعود الثقفي رضي الله عنه حين خرج يدعو قومه إلىٰ الإسلام، وكان فيهم محببًا مطاعًا لدرجة أنه أحد الاثنين العظيمين اللذين عناهما المشركون في قوله تعالىٰ: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾﴾[1]، فلما أشرف لهم علىٰ غرفة له، وقد دعاهم إلىٰ الإسلام وأظهر لهم دينه رموه بالنبل من كل وجه، فأصابه سهم فقتله.

نريد داعية عالي الهمة كعلو همة الأسلمى رضي الله عنه قال ابن القيم: «**إذا أردت أن تعرف مراتب الهمم فانظر إلىٰ همة ربيعة بن كعب الأسلمي رضي الله عنه وقد قال له رسول الله ﷺ «سلني»** فقال: أسألك مرافقتك في الجنة[2]، وكان غيره يسأله ما يملأ بطنه أو يواري جلده»[3].

نريد داعية صادق الوعد كما صدق أنس بن النضر رضي الله عنه «**روىٰ أنس بن مالك: أن أنس بن النضر عمه غاب عن قتال بـــدر فقال: أول مشهد شهده رسول الله ﷺ لم أشهده؟! لئن كان لرسول الله ﷺ قتال مع قريش بعد هذا اليوم ليرين الله عز وجل ما أصنع. وهاب أن يقول غير ذلك، فلما كان يوم أحد وانهزم الناس، قال سعد بن معاذ: فاستقبلته فقال: يا سعد، إلىٰ أين؟ واهًا لريح الجنة، إني لأجد ريحها دون أحد، فتقدم فقاتل حتىٰ قتل، وأصابته بضع وثمانون جراحة من ضربة بسيف وطعنة برمح ورمية بسهم. فما عرفته أخته إلا ببنانه، فنزلت: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾[4]**[5] **فكذلك يكون الوفاء بالعهد والعزم.**

---

(١) الزخرف:٣١.

(٢) أخرجه مسلم (٤٨٩) عن ربيعة بن كعب الأسلمي.

(٣) مدارج السالكين لابن القيم (٣/ ١٤٧).

(٤) الأحزاب:٢٣.

(٥) أخرجه مسلم (١٩٠٣) عن أنس رضي الله عنه.

نريد داعية مبادرًا إلىٰ الامتثال..له ميراث في قوله تعالىٰ: ﴿ فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ ﴾[١] فيمتثل كما امتثل إبراهيم لأمر ربه، فأخذ الشفرة وأهوىٰ إلىٰ حلق ابنه، فلم يبق هناك منازعة لا من الوالد ولا من الولد، بل استسلام صرف وتسليم محض.

نريد داعية شاعرًا بواجباته كقدوة للناس، متحملاً العذاب في سبيل ذلك، كما شعر الإمام أحمد بن حنبل حين عذب بقصر المأمون، فقال له أحد تلاميذه: يا أستاذ، لولا نطقت بما يريدون من خلق القرآن ودرأت عنك العذاب، فقال الإمام أحمد: اخرج وانظر إلىٰ الشرفة، ينتظرون ما يجيب به الإمام ليكتبوه، فقال الإمام: أنجو بنفسي وأضل هؤلاء؟ لا. هكذا نريد نموذجنا[٢].

*****

(١) الصافات: ١٠٣.
(٢) تذكرة المربي ص ١٤-١٦.

هذه الرسالة

تدفع بطاقات الإنسان للوصول إلىٰ الغاية، وتحرك إحساسه بما يحقق نمو شخصيته في شتىٰ الجوانب، والقلب متىٰ تذوق حلاوة الإيمان، واطمأن إليه، لا بد وأن يندفع لتحقيق حقيقته في خارج القلب، وفي واقع الحياة.

وقد جاءت رسالتنا علىٰ النحو التالي:

أولا: الشخصية الذاتية.

ثانيًا: مفهوم الذاتية.

ثالثًا: مظاهر الطبيعة التنفيذية.

رابعًا: وسائل اكتساب الطبيعة التنفيذية.

خامسًا: طرق تنمية الذاتية.

سادسًا: العوامل المؤثرة في اكتساب وتنمية الذاتية عند الأفراد.

سابعًا: ثمرات الطبيعة التنفيذية.

الرسالة السادسة

الأوراق الثمانية
من كوامن المائة الثامنة

مقدمة

الحمدُ لله رَبِّ العالمينَ مُعز المؤمنينَ العاملين، ومُخزي المجرمينَ المعادينَ، والصلاةُ والسلامُ علىٰ سيد الخلقِ أجمعين، نبي الرحمةِ ورسولِ الهُدىٰ وعلىٰ آله وصحبهِ أجمعين.

أما بعد:

فقدْ باتَ من المتفق عليه أن التوجهات والسلوكياتِ والتصرفات وحتىٰ العلاقات إنما هي نِتاجُ البناءِ الفكري والعلمي لمجموعة من البشر، فالأدبياتُ التي تَعيشُها أيُّ بِنية من المجتمع ستكُونُ لهَا الإسقاطاتُ الكافيةُ لكل التصرفات المستقبلية لهذا الأمر، ولأهميةِ ذلك كان لابُدَّ من توفير الأطروحات الفِكريةِ والحركيةِ وجَعلها بين يدي العاملين في المجال الإسلامي، وكل ذلك من أجلِ الإبقاءِ علىٰ الأطرُوحات الموافقةِ للشرع، والمتمشية مع الزمانِ والمكانِ، وإبعاد كُلِّ ما هو مُخالفٌ للشرعِ، أو قل مَا ليس يخدمُ الدعوةَ بالصورة التي كتبها الله سبحانه وتعالىٰ: «إن الله كتب الإحسانَ علىٰ كل شيء»[1].

ونحنُ نَسعىٰ لتحقيقِ ذلكَ من خلال فَتح الحِوارِ، وتداول نتاج الفكر وحصيلة الخبرات لكي نصل إلىٰ الأحسن، ونحنُ إذ ندعو إلىٰ الحوار نتوقىٰ الحذر في الطرح من غير تهيب ولا وجل، كما ندعوك ـ أخي ـ كذلك إلىٰ الحذر من الكريم إذا أهنته، ومن العاقل إذا أحرجتهُ، ومن اللئيم إذا أكرمته، ومن الأحمق إذا مازحته، وأن نتعود جميعًا علىٰ نهج خلق «**الحلم**» في تلقي الرأي ومناقشته، والابتعاد عن الاستعجال، فإن كان هناك من خطأ ألقيناه وبحثنا عن غيره، فالأفكار تنضج بالأخذ والعطاء، وأجمل الحلم ما كان من مقتدر، وسير سلفنا في ذلك كثيرة، فهذا عبد الله ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يقول: «**تغدّينا يومًا عند الوليد بن عتبة، وهو أمير علىٰ المدينة، فأقبل الخادم بصحفة، فعثر، فوقعت**

(١)أخرجه مسلم (١٩٥٥) عن شداد بن أوس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

الصحفة من يده، فما ردّها ـ والله ـ إلا ذقنُ الوليد وانكبّ ما فيها في حِجْره، فبقي الغلام واقفًا وما معه من روحه إلا ما يُقيم رجْلَيْه، فقام الوليد فدخل، فغيّر ثيابه، وأقبل علينا تبرق أساريره، وأقبل علىٰ الخادم فقال: يا بائس، ما أرانا إلا روّعناك اذهب، فأنت وأولادك أحرار لوجه الله تعالىٰ» وعملية الحوار هذه نوع من بذل السبب والنظر تلو النظر لمعرفة الخطأ وتجنبه، والصواب وتنميته، ثم بعد ذلك التوكل علىٰ الله، كما قيل:

توكل علىٰ الرحمن في الأمر كله ... ولا ترغبن في العجز يومًا عن الطلبْ
ألـم تـر أن الله قـال لمريـم ... وهـزىٰ إليك الجذع يَسَّاقَطُ الرطبْ
ولو شاء أن تجنيه من غير هـزه ... جنته ولكـن كـل رزق لـه سببْ

ونحن نعرف ـ أخي القارئ ـ خطورة إصدار الكلمة، وتزداد الخطورة إذا حبست الكلمة عن وقت صدورها، ولهذا نحن نحتاج إلىٰ كسر الحاجز النفسي وصناعة الجرأة في إصدار الكلمة مع الحذر من عثرتها في العثار الكلمات...!:

يموت الفتىٰ من عثرة من لسانه ... وليس يموت المرء من عثرة الرِّجلِ
فعثرته من فيه ترمي بـرأسه ... وعثرته بالرجل تبرا علىٰ مهل

ونحن نظن أنه من الأمور الموصلة للصواب الحوار مع المخالف وأخذ وجهات النظر، ثم الكتابة في قضايا الحوار ، وقد وجدتني أتفق مع كل من تذاكرت معه من أهل الدعوة والفكر، إلا أنني أجد في نفسي شيئًا من الجرأة في قول ما أعتقد أن فيه نفعًا للأمة، سائلاً الله العلي أن يجنبني العجلة فهي أم الندامة، صاحبها يقول قبل أن يعلم، يجيب قبل أن يفهم، ويعزم قبل أن يفكر، ويقطع قبل أن يقدر، ويحمد قبل أن يجرب، ويَذُم قبل أن يَخبره.

والحركةُ الإسلامية في كل حال من أحوالها سائرةٌ بتوفيق الله ـ تعالىٰ ـ وبالقوة الذاتية التي أودعها الله فيها، ولكن هذا ليس هُو المراد، فالدعوة الإسلامية في تحدٍّ دائم ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾[1] والعالم في سباقٍ، والزمنُ حاسمُ، وصاحبُ الهمةِ

(١)هود: ٧.

ينبغي أن يكون في ازديادٍ دائم، كما قال الرافعيٰ رحمه الله: وكل يوم لا أزداد فيه علمًا فأنا زائد علىٰ يومي. وقيل في منثور الحكم: «**الجاهل وإن توفرت عليه الأيام، فكأنه ابنُ يومه وتلادُ ساعته**»، ورجالات الدعوة ورائدو دروبها يأبونَ أن يكونوا خارج الحياة وبعيدًا عن سننها ومُتغيراتها، بل يَسعونَ دائمًا لأن يَركبوا دواليب الحياة ويَصنعوا التاريخَ، وكلُ واحدٍ منهم يَسمو لأن يكون قدرًا من أقدارِ الله في إحياء البشرية بنور الهداية، وأخذها بعيدًا عن طريق الغواية. وسعيًا في سبيل استكشاف دروب هؤلاء الرجالات، واستشعارًا للمسؤولية إزاء الجيل، كان التلمسُ لسير سلفنا رضوانُ الله عليهم، نشمُّ من كلماتهم وتَراجمهم سُلوكيات دعويةٍ نَربطُ فيها الماضي بالحاضر مع السير لاستشراف المستقبل وسعي دؤوب بتفعيل نواميس الحياة، وعدم الاصطدام بها، كما وقد حرصنا علىٰ استخدام المنهجِ العلمي في محض وبحث سير وتراجم وخبرات هؤلاء الأعلام والمنابر، بحيث نقرأ التراجم أولاً ثم نستخرج منها القواعد التي نقررُها من غير تعسف ولا تجنٍّ علىٰ الأحداث، لا أن نقسر الكلام قسرًا ونوجه الحدث علىٰ غير وجهه كما هو دأب البعض؛ حيث يضعون القاعدة أولاً ثم يحاولون تأييدها بأحداث من التاريخ قد تكون متعسفةً، ولا تدل علىٰ ما يريدون.

ولأذكِّر القارئ الكريم بأنه عندما قرأتُ تَراجمَ المسلمينَ في حقبة من الزمنِ تُسمىٰ بالقرن الثامن الهجري من خلال كتاب «**الدُّرر الكامنة**»[1] لابن حجر، كانت القاعِدةُ أو المعنىٰ الدعوي ينقَدحُ من الذهنِ نتيجة لما في الذهن من اهتمامات وانشغالاتٍ، فأقومُ بتسجيله علىٰ هامش التَّرجَمَة، ليأتي هذا العنوانُ الجَانبي مُنسابًا من غير تكلف ولا تعسف مع النص، ثم نظرتُ فيما تجمعَ لأضم بعضَهُ إلىٰ بعض، ليَخرُجَ نصًّا جميلاً متكاملاً في هذا الكراس. وأنا لا أدعي أنهُ كُلَّهُ جَديدٌ، ولكنْ فيه النافعُ والجديدُ، وخصوصًا الترجمَاتِ، فقد حرصتُ علىٰ ألا أضع ما يُبين القاعدة إلا من تراجم القرن الثامن، وإن كان في القرون السابقة واللاحقةِ مواقفُ مبينةٌ كذلك، ومعرِفَتُنَا لهذه التراجمِ

(١) الدرر الكامنة لأعيان المائة الثامنة، لابن حجر العسقلانيٰ، الطبعة الثانية سنة ١٩٦٦م طبعة المدني، عدد الأجزاء خمسة، ورمزنا إلىٰ رقم الترجمةبـ « ت» والجزء والصفحة بـ ١/ ٣.

معينة لنا علىٰ أخذ ما نستطيعُ من سلوكياتهم كما قالتْ العرب: «**لولا الوئامُ لهلكَ الأنامُ**»(١) نعم كما قال الماوردي: لولاَ الناسُ يرىٰ بعضهم بعضًا فيُقتدىٰ بهم من الخير، وينتهي بهم عن الشر لهلكوا(٢).

وأخيرًا:

ها نحن ذا أيها القارئ الكريم نضع الأقلام، ونكفئ الإداوة بعد ذلك التطواف بين رجالات وسادات الدعوة والخبرة والفضل وبين أفانين من سير الصالحين؛ سعيًا لإيجاد روح من التنافس مع الأكفَاءِ والأخيارِ في فضائلهم ومحاسنهم للاجتهاد بالزيادة عليهم، فإن لم يكنْ ذلكَ في مقدُورِنا لا نقصِرُ عنهم؛ فما تكَامل فضلُ الأخيارِ إلا بالاقتداءِ؛ لأن لكلِ نفسٍ من الخير حظًّا مطبوعًا، وحظًّا مُكتسبًا، فإن اجتمعا تكاملَ الخيرُ بهما(٣)، وكما قال الشاعرُ الحارثُ بنِ حِلزة اليَشكُري:

إن السَّعيد له من غِيرهِ عظةٌ وفي التَجاربِ تحكيمٌ وَمُعتَبرُ

والعلماءُ الذين يقودون الأمةَ، والحركاتِ الإسلامية التي أخذت علىٰ نَفْسِها عملية الإصلاح، لابد لها من عمليةِ التقويم المستمر لمسيرتها؛ لتظل في مرحلةِ الاستقامة ما استطاعت إلىٰ ذلك سبيلاً، وإلا كانتْ بمنزلة من أرادَ تقويم ظلٍّ مُعوج قبلَ تقويم عُوده الذي هُو ظل له، وعمليةُ الإصلاح والقيامِ من العثرات أمرٌ ممكنُ، والنفسُ مهيأة ومستعدةٌ لذلك، فالنفسُ عزوفٌ، ونفورٌ ألوف، متىٰ رَدَعتها ارتدعت، ومتىٰ حمَّلتَها حَملتْ وإن أهملتها فسدت(٤). فلابد من الاعتناء والاهتمام بحملةِ الرايةِ فاستعدادُ الخير باقٍ في نُفُوسِهم، وإن كان من خطأ يحتاجُ إلىٰ معالجةٍ:

فالنفسُ راغبةٌ إذا رغبتها وإذا تُردُّ إلىٰ قليل تقنَعُ(٥)

فالنفسُ القائدةُ لا تأنفُ من حقٍّ إن لَزِمَ، أو حجةٍ إن قامت، فهي تعلمُ أن الرجوعَ

(١)الوئام: التشبه بالكرام.
(٢)تسهيل النظر وتعجيل الظفر للماوردي ص ١٢١.
(٣)المرجع السابق.
(٤)المرجع السابق ص ٣٣.
(٥)نفس المرجع ص ٣٥.

للحق أولىٰ من التمادي في الباطلِ، فمن خادع الحقَّ خُدع، ومن صارَعهُ صُرع، والحقُّ مع جمال عرضه يَجرُّ الجبالَ الرواسي إليه.

متىٰ ما نَقُدْ بالباطل الحقَّ يأبَه   وإن قُدْتَ بالحق الرَواسي تنقدِ

والانصياع للحقِ والوقوفُ عند بابه إنما هو نتاجُ عِلم الإنسانِ، فكلما كان ناضجًا عالمًا كان عارفًا بما ينفعُهُ مبتعدًا عما يَضرهُ، فليس هناكَ أنفعُ من العلم ولا أضرُّ من الجهلِ:

العقل ما خُلق الإنسانُ فالتمسَنْ   بالعقلِ حظّكَ لا بالجهل والرُتَبِ

لا يلبثُ الجهلُ أن يَجني لصاحبِهِ   ذمًّا ويُذهبَ عنُه بهجةَ الحَسَبِ

فعملية الصياغةِ التربويةِ تحتاج إلىٰ جُهد وجهادٍ وصبر ومصابرة، فهذا باشقرد ناصر الدين الناصري، كان من أبر الفضلاء والأمراء كثيرَ العقل والفضل قال عن نفسهِ: بَقيتُ عشرينَ سنةً لا أتكَلمُ بالتركي حرصًا علىٰ إتقانِ اللسان العربي[1]، فإن كان تقويمُ اللسان لزم منه هجَر التركيةِ والتزام العربية، فكيف بتقويم المنهج والسلوك، بلا شكٍّ أنهُ يستلزم الكثيرَ، فهذه الأمور لا يُعينُ عليها إلاّ الله، فعقلُ المؤمِن يَختلفُ عن عُقول الآخرينَ من البشر، فعقلُ الفيلسوف يبني دولة من الهواء، وعقلُ القصصي يَبني دولةً فوق الماءِ، وعقلُ الطاغيةِ يَبني دولةً فوق مستودع بارود، أما عقلُ المؤمنِ، فهو يَبني دولةً أصلُها ثابتٌ وفرعُها في السماءِ، فهي دولةُ مراحل وتأصيل وتعميق وثبات، أكلها دائم وظلها، ولا ترتبطُ بأناس معينين ولا بمكان مُحدد، فقدر الله نافذٌ لا محالة عندما يَحينُ الوقتُ المحددُ في علم الله سبحانه: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغۡلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓ﴾[2] صدق الله العلي العظيم، والحمد لله ربّ العالمين.

وأعجب العجب أخي القارئ أن نعرف الله ثم لا نحبه، وأن نسمع داعيه ثم نتأخر عن الإجابة، وأن نعرف قدر الربح في معاملته ثم نتعامل مع غيره، وأن نعرف قدر غضبه، ثم نتعرض له، وأن نذوق ألم الوحشة من معصيته ثم لا نطلب الأنس بطاعته.

(١)الدرر الكامنة ت: ١٢٦٨.

(٢)المجادلة: ٢١.

وفي الختام فإنني ألتمس من قارئينا عفوًا عن خطئنا وسهوًا عن زلتنا ودعوة قربىٰ عساها تلامس ساعة إجابة.

والحمد لله رب العالمين

*****

اللفتة الأولى
لقادة الخير سمات خاصة ومواصفات

إنّ من يحمل الخير يختلف عن الفارغ من كلّ شيء، ومن يتعدَّ في حمله إلىٰ إعطاء الناس، فهذا تكثر مواصفاته، والذي يُحسن ويُتقن في عطائه للخير ويهديه للنّاس عامَّة، فهذا ربّانيّ اتخذه الله لأن يكون مفتاحًا للخير مِغلاقًا للشَّرِّ، يجري الخير علىٰ لسانه ويده، وهو قدرٌ من أقدار الله في استمراريّة عمارة الأرض، وهذا الصّنف من الناس لهم سِيرَ خاصة علىٰ مرّ القرون، سنختار بعضها من خلال سير بعض الرّجال من أعيان المائة الثامنة الهجريّة، لعلّنا نستفيد من سيرتهم وسمتهم، فقد امتازوا عن غيرهم في زمانهم فحفظهم التاريخ، فهذا عمر بن أبي القاسم الْبَجَليّ نجم الدّين، مولده سنة ٦٣٢هـ، يقول عنه البرزالي: كان ذا مروءة وتواضع، وحبّ للصَّالحين، وحسن المحاضرة، ثم قال: أعجبني سمته(١).

فهذا السمت هو الذي نبحث عنه في شباب الدعوة الذين نخاطبهم:

*** قمة في الحلم والسماحة:**

أحمد بن محمّد بن سالم بن أبي المواهب الرّبعي بن صعري نجم الدين الدمشقي، وُلد في ذي القعدة سنة ٦٥٥هـ، كان يتفضّل علىٰ كلّ من قدم من أميرٍ وكبيرٍ وعالم، وهداياه لا تنقطع لأهل الشام ولأهل مصر، مع التودّد والتواضع الزّائد، والحلم والصبر علىٰ الأذىٰ، من حلمه وسماحته؛ أن هجاه «**ابن المرحل**» فتحيّل حتّىٰ وصلت إليه بخطّ الناظم، فاتّفق أنّه دخل عليه، فغمز مملوكه فوضعها أمامه مفتوحة، فلمّا جلس «**ابن المرحل**» لمحها، فعرفها، فلمّا لحظ القاضي أنّه عرفها أشار برفعها، ثمّ أحضر بقجة قماش وصرّة فضة، وقال له:هذه جائزة فأخذها ومدحه(٢).

وقادة الخير يحتاجون إلىٰ أذن تسمع الحسن، فتُجازي عليه وتكرم صاحبه، لكي

---

(١)الدرر الكامنة ت: ٣٠٥، ٣/ ٢٥٩.

(٢)الدرر الكامنة ت: ٦٨٠، ١/ ٢٨١.

يعود إلىٰ تكرار الحسن، ويزيد من إحسانه، وهي نفس الأذن التي لا تسمع الإساءة وإن كانت بصوتٍ مرتفع؛ لأنّ السماح لكلمة السوء أن تخترق الحاجز الأوّل من الأذن، وهو بداية الجفوة، وطريقة القطيعة التي يستغلّها الشيطان؛ ليبني مملكة الحقد والحسد؛ لتأتي عناكب الإنس والجنّ فتنسج خيوط الوهن علىٰ البناء الإسلامي؛ ليزداد وهنًا وضعفًا علىٰ ما لحقه من أثر معاول الهدم التي بدأت بمكر اليهود قبل ولادة النبي ﷺ.

وقادة الخير كما يحتاجون إلىٰ هذه الأذن القائدة، يحتاجون إلىٰ العين الرّبّانية ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنۡهُمۡ أَحۡسَنَ مَا عَمِلُواْ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمۡ فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلۡجَنَّةِۖ وَعۡدَ ٱلصِّدۡقِ ٱلَّذِي كَانُواْ يُوعَدُونَ ١٦﴾[1] إنّها عين التسامح التي ترىٰ كلّ خير بأجمل صورة وأوضح تقاسيم، ولا تكتفي بذلك بل تزيد في اللّوحة حسنًا بالإضافات التي تستعيرها من كل منابت الجمال في الكون، فمن الطيف تأخذ الألوان، ومن الأزهار ترتشف الرّحيق، ومن الأجواء تداعب النّسيم، ومن الشروق تختلس الضياء، وهكذا نرىٰ المحافظ علىٰ صلاة العشاء كالمحافظ علىٰ القيام، والراجع من العُمرة يكون كصفحة بيضاء لا ذنب فيها، والكاظم لغيظه مع الصابرين الأبرار، هذه هي العين الرّبّانية التي إن رأت سوءًا سترته، وتأوّلت لصاحبه، وحملته علىٰ أحسنه، إنّها أدوات الحلم والسّماحة: الأذن المزدوجة والعين الرّبّانية.

﴿وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُواْ ٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ يَنزَغُ بَيۡنَهُمۡۚ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلۡإِنسَٰنِ عَدُوّٗا مُّبِينٗا ٥٣﴾[2].

أحمد بن أبي طالب بن أبي النعم نعمة بن حسن بن علي بَيّان الصَّالِحِي الحجّار أبو العبّاس، وُلد سنة ٦٢٤هـ قال عنه الذّهبي: كانت له همّة، وفيه عقل وفهم، يُصغىٰ جيّدًا[3]. إنّ الكثير من الدعاة يحسن الحديث والخطابة ولكنّه يعجز أن يكون مستمعًا جيّدًا، وبهذا يُحرم من كمّ من المعلومات والأرقام، والإحصائيات، ومعرفة الواقع،

(١)الأحقاف: ١٦.
(٢)الإسراء: ٥٣.
(٣)الدرر الكامنة ت: ٤٠٤، ١/ ١٥٢.

ونظرات الآخرين وتحليلاتهم وتقويمهم، وبهذا الحرمان قد يفقد أكثر من نصف أدوات المعرفة والحكم الصحيح، وحسن الإصغاء وطوله يبعد السآمة والملل عن المجلس، فالمكان الذي يتحدث فيه الجميع كلٌّ بما عنده من إمكانات وقدرات يعتبر منتدىٰ محبّبًا، كلٌّ يجد مكانه من خلال ما يحسن، وما من إنسان إلاّ ويحسن أشياءَ ويجهل أشياءَ، كما وأنّ الإصغاء الجيّد يشجّع قدرات المتكلّمين ويُخرج منهم قادة يُكملون المسير ويحملون المشعل للبشرية، والاستماع بدقّة واهتمام بالمتكلم يجعل من المستمع أستاذًا جيّدًا في النقد والتوجيه الذي يحتاجه المبتدئون، ليتحصّلوا علىٰ الإجازة من أساتذتهم وهم شباب، فهذا أحمد بن الحسن بن عبد الله بن أبي عمر المَقْدِسي الحنْبَلِي ولُد في شعبان سنة ٦٩٣هـ خرج له مشيخة بلغت ثمانية عشر شيخًا حدّث بها واشتغل بالعلم، فبرع في الفنون، وكان بارعًا في العلوم، بعيد الصيت قديم الذكر، وله نظم وذهن سيّال، وأفتىٰ في شبيبته، ويقال: إنّ ابن تيمية أجازه بالإفتاء، وكان يعمل الميعاد فيزدحم إليه الفضلاء والعامّة. كان من شعره:

نبيي أحمدٌ وكذا إمامي ... وشيخي أحمدٌ كالبحر طامِ

واسمي أحمدٌ وبذاك أرجو ... شفاعة سيد الرسل الكرامِ[(١)]

*** أهل عبادة وصبر:**

عبد الله المَغْرِبي الأصل، ثمّ المصري المشهور بالمنوفي: ولد ببعض قرىٰ مصر وتتلمذ للشيخ سليمان التنوخي الشاذلي، مات في الطاعون العام في رمضان سنة ٧٤٩هـ، كان من الصلحاء، انقطع بالمدرسة الصالحية، فكان لا يخرج إلاّ إلىٰ صلاة الجماعة أو الجمعة، وكان يشتغل بالعربية والأصول ويكثر من الفقه، وقد شهد له معاصروه بأنه كان أحسن الناس إلقاءً للتفسير، و كان يصوم الدّهر، ولكنّه يفطر إذا دُعي إلىٰ وليمة، يتعبّد، ويشغل عامّة نهاره وأكثر ليله، وكان لا يكتسي إلاّ من غزْل أخته، لعلمه بحالها، ويتبلّغ من زرعه، وكان كثير الاحتمال، ولا سيّما جفاء الطلبة من المغاربة أهل الرّيف[(٢)].

(١) الدرر الكامنة ت: ٣٣٤، ١/ ١٢٩.

(٢) المرجع السابق ت: ٢٢٥٥، ٢/ ٤٢٠.

يا لها من سيرةٍ لقائد نستفيد من سمته بعد وفاته بأكثر من خمسمائة عام، إنّها مواطن الجمع بين الفقه والعلم والعبادة ممّا لا تتسنىٰ إلاّ لأهل الصبر والجلد، فانفصال الفقه عن العبادة أو العكس خللٌ، قد يُحدث فجوة في مسيرة القائد، فمنهج التكامل سبيل إلىٰ الريادة والاتزان، وضمان لعدم الشطط، فكل واحد منهما سياج أمنٍ للآخر، الفقيه يحتاج إلىٰ العبادة؛ ليتعلم الصبر علىٰ التحصيل والتعليم للآخرين، هذا الذي أعان المنوفي علىٰ جفاء تلامذته.

*** قادة العمل أقران يتنافسون في الخير:**

محمّد بن أحمد بن عثمان التُرْكِسْتَاني الشيخ شمس الدين الغرمي: ولُد سنة عشرين وسبعمائة كان يقول: ما بلغني عن أحد من الناس أنّه تعبّد عبادة إلاّ تعبدتُ نظيرها ونظيرها وزدت عليه[1]. هكذا كان رحمه الله يطلب السبق، ويأبي التخلّف عن تحصيل الأجر، وقد أحسن التنصيص علىٰ الاقتداء والمسابقة، وإنها من العبادات لا من المبتدعات، فهي ليست ابتداعًا لعبادة خاصة، بل تلمس للأجر، وتتبع للتوجيهات المنبثّة في الكتاب والسنّة، والتي تدخل في أصول الأشياء، فصلاة الليل مثلاً مثنىٰ مثنىٰ، فإن بلغه أنّ أخًا له يصلي من الليل عشرين ركعةً صلَّىٰ مثله وزاد أربعًا، وإن كان الآخر يصوم من كل شهر ثلاثة أيام عمل مثله وزاد الإثنين والخميس، وإن كان ورد عنده أنّ محسنًا يترفّق بخدمه وعبيده، عمد هو إلىٰ عتق الرقاب التي عنده، وإن كان إخوانه الدعاة يمشون في حاجة الناس، بحث هو عن أصعب المسائل وأشكل القضايا وسعىٰ لحلّها، وإزالة المعاناة عن صاحبها وهكذا سيعيش متعبًا؛ لأنه يبحث عن الأحسن عند الآخرين ويزيد عليه وهو مع عيشه متعبًا سيحيا كبيرًا، ويموت كبيرًا، والكبار من الدعاة والعلماء يرون الخير عند أقرانهم فيفرحون لذلك، وكأنه عندهم ويحرصون علىٰ فعلهم الحسن، ويتمنّونه علىٰ الدوام لهم جميعًا، روح التنافس علىٰ الخير بينهم، لا روح التباغض والتحاسد، بهذا تعمر الدعوة ويكثر العلم وطلبته.

---

(١)المرجع السابق ت: ٣٤١٢، ٣/ ٤٢٥.

* **الحرص علىٰ أموال المسلمين والحفاظ عليها:**

محمّد بن إبراهيم بن سعد الله بن جماعة الحموي البياني الشافعي: ولد بحماة سنة ٦٣٩هـ، وَلِي تدريس الكاملية، فرأىٰ في كتاب من الوقف شرط الطلبة «**المبيت**»، فجمع ما كان أخذه وهو طالب وأعاده للوقف؛ لأنَّه كان لا يبيت، قال عنه الذهبي: قد كثرت أمواله فترك الأخذ علىٰ القضاء عفة[١]. وشبيهه المغربي الذي ذكرناه، حيث كان صاحب حاجة فألحّ عليه الشيخ علاء الدين القونوي أن ينزله بخانقاه سعيد السعداء، وقال له:إنّه مكان فيه جماعة من أهل الخير، فقال المغربي: نعم، ولكن شرط الواقف أن يكون المنزل بها صوفيًّا، وأنا والله لست بصوفي[٢]!!

وهذا أحمد بن موسىٰ الزّرعي الشيخ الصالح: كان من كبار أصحاب ابن تيمية وكان ينسج الصوف، ويتقوت من ذلك، وإذا زاده أحد في القيمة لم يقبل، وكان له إقدام علىٰ ملوك الترك، وتردد إلىٰ القاهرة مرارًا، وكان لا يعود إلا وقد أُجيب إلىٰ كل ما أراد، فأبطل أشياء من المظالم، وانتفع الناس به كثيرًا، وكان الكثير من أهل الدولة يكرهونه ولا يتهيأ لهم رده فيما يطلب، وكانت وفاته في آخر ذي الحجة سنة ٧٦١هـ وقيل: في أول المحرم سنة ٦٢ وقد جاوز الستين[٣].

وما ورد من قصة أخت بشر الحافي التي سألت الإمام أحمد عن جواز نسج الصوف في الليل علىٰ سرج الشُرَط لدليل آخر علىٰ الورع وأهميته لعناصر الأمة.

* **إجمال يغنىٰ عن التفصيل:**

إنّها مجموعة صفات من سيرة رجل بلغ من ضبطه ودقّته أن قال ابن تيميّة عنه[٤]: نقلُ البِرْزالي نقشٌ في حجر، إنّه القاسم بن محمد بن يوسف بن محمدّ بن يوسف البرزالي، علم الدين بن بهاء الدين الدمشقي الحافظ، ولُد في جمادىٰ الأولىٰ سنة ٦٦٥هـ كَان ـ رحمه الله:

(١)الدرر الكامنة ت: ٣٢٦٦، ٣/ ٣٦٩.
(٢)المرجع السابق ٢/ ٤٢٠.
(٣)المرجع السابق: ت: ٨١٤، ١/ ٣٤٥.
(٤)ذكره الحافظ ابن كثير في البداية والنهاية (١٤/ ١٨٥).

يحفظ السرّ، ويصلح بين المتخاصمين:

فجاء في ترجمته: باذلاً لكتبه وأجزائه، مؤثرًا متصدّقًا، وافر العقل جدًا بحيث إنّه كان يصحب المتعاديين فلا يكتم واحد منهما منه سِرّه لوثوقه به، زاد الصفدي عنه أنه: كان يصحب الخصمين، فكلٌّ منهما راضٍ بصحبته، واثق به، حتىٰ كان من ابن تيمية وابن الزملكاني يذيع سرّه في الآخر إليه؛ وثوقًا به، وسعىٰ في إصلاح ذات بينهما فلم يتيسّر له. اهـ.

صاحب الوفاء:

جاء في ترجمته: كان حليمًا صبورًا، لا تنكر فضائله ولا ينتقص فاضلاً بل يوفيه فوق حقه، ويلاطف الناس، وله ود في القلوب، وحب في الصدور. اهـ.

يشجّع من معه علىٰ الارتقاء والصعود:

قال الإمام الذهبي عنه: هو الذي حبّب إلىّ طلب الحديث، فإنّه رأىٰ خطّي، فقال: خطّك يشبه خطّ المحدثين، فأثر قوله فيّ، وسمعت منه وتخرّجت به في أشياء. اهـ.

كريم النفس والصورة:

قال عنه البدر النابلسيٰ: كان حسن الوجه واللباس، كثير التواضع، كريم النفس، كثير الحلم، ضحوك السّن، يحتمل الأذىٰ، ويغضّ عمّن يغض منه. اهـ.

وحق للبرزالي أن يحوز هذا السمت الطيب، فقد كان رأسًا في صدق اللّهجة والأمانة، صاحب سنّة واتباع، ولزوم للفرائض، خيّرًا دينًا متواضعًا، حسن البشر، عديم الشرّ، فصيح القراءة، قويّ الدراية، عالمًا بالأسماء والألفاظ، سريع السرد مع عدم اللحن(١).

هذا مجمل عجيب من فرائد سلفنا ـ رضوان الله عليهم، يلتزمون بأمور نتمنّىٰ أن نجدها ولو في كلّ قرية واحدًا، فكم نحن عطشىٰ لمن يصلح بين المتخاصمين والمختلفين من أبناء الدّعوات، مرضيّ عنه عند هؤلاء وهؤلاء، وهذا العنصر إن لم يكن موجودًا فحريٌّ بأهل الدعوات أن يصنعوا هذا الرمز، ويبقوا في كلّ مجموعة أُناسًا لا

(١) الدرر الكامنة ت:٣٢٢٩، ٣/ ٣٢٢، ٣٢٣.

يُتعرّض لهم بالجرح والتسفيه؛ ليكون علىٰ أيديهم إصلاح ذات البين، وإنّ من أكبر الأخطاء في الممارسات التي تستخدم اليوم أن كل مجموعة من مجاميع العمل الإسلامي تبحث عن رموز وقادة العمل، لتنال منها، وتحطّ من مكانتها، بل إنّ الأمر قد تطاول إلىٰ قادة العلم والعمل؛ وأخذت أقلام وألسنة الخطيئة تنال منهم وهم يظنّون أنّهم بذلك يتيحون الفرصة لقادتهم وعلمائهم أن يظهروا بعد إزاحة الكبار، ليظهر الصغار، وهم بذلك مخطئون، وعن الصراط ناكبون؛ لأنه متىٰ سقط الكبار مات الصغار، فهم إنّما يكبرون ويعيشون بالظلّ والفيء الذي يعمله الكبار!! فهل لنا في سيرة البرزالي من موعظة؟!! وهل في منهجه في الوفاء مدرسة؟!! «**كان لا ينتقص فاضلاً، بل يوفيه فوق حقّه**».

فكم من فاضل اليوم قدّم روحه، والآخر أنفق ماله، وذاك بذل وجاهته، وهذا في دين الله عظيم، والأجر فيه إن شاء الله كبير، ولكنّ للبشر احتياجاتهم الطبيعية التي كان يراعيها النبي ﷺ، فهذا أبو سفيان يسبق مُسلمة الفتح إلىٰ دين الله، ويحقن الدماء في بلد الله الحرام، فيكرمه النبي ﷺ بقوله: «**من دخل دار أبي سفيان فهو آمن**»[(١)]، ويوصي بالوفاء للمرأة علىٰ ما قدمت وضحت «**استوصوا بالنساء خيرًا**»[(٢)] بل يوصىٰ ﷺ بالوفاء للجمل الذي شكا إلىٰ نبي الله إهمال أهله له بعد أن كبر وعجز عن العمل[(٣)].

فهل تكون الحركات الإسلامية لرجالاتها وذرّيّاتهم أم يتركونهم لنوائب الدهر وعصف الزمان؟ لقد حفظ نبي الله ﷺ لخديجة وفاءها حتىٰ بعد وفاتها عندما أكرم العجوز التي كانت تأتي إليها في حياتها. وها نحن أولاء نرىٰ قادة في العمل الإسلامي عمالقة كبارًا تتلمذ علىٰ أيديهم وكتاباتهم عشرات الآلاف، يتوفّاهم الله سبحانه، فينساهم العاملون، إمّا عمدًا، وإمّا انشغالاً بأمور لا تنتهي، ولا يُعذر المنشغل بها، نحن لا ندعو إلىٰ تمجيد الأموات، بل إلىٰ إعطائهم حقوقهم، وللأسف الشديد أصبحت قلة الوفاء صفة مجتمعاتنا اليوم، حتىٰ وصل الأمر في بعض صوره إلىٰ عدم وفاء الولد لأبيه وأهله،

(١)أخرجه مسلم (١٧٨٠) عن أبي هريرة رضي الله عنه.
(٢)أخرجه البخاري (٥١٨٦)، ومسلم (١٤٦٨) عن أبي هريرة رضي الله عنه.
(٣)أخرجه أبو داود (٢٥٤٩)، وأحمد (١/ ٢٠٤) عن عبد الله بن جعفر، وصححه الألباني.

وأنا أعرف أنّ هذه الكلمات ستثير الشجون في نفس أرملة الشهيد وزوجة السجين، وابن المشّرد، الذين ينظرون إلىٰ حالهم، وقد تركهم النصير، وانشغل عنهم الحبيب، عزاؤهم أنّ الله ينظر إليهم ويتولاّهم ﴿لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ۝٥٢﴾[١] ﴿بَلِ ٱللَّهُ مَوۡلَىٰكُمۡۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلنَّٰصِرِينَ ۝١٥٠﴾[٢].

ومن صور الإجمال ما ذكره جعفر بن محمد الصادق بن محمد الباقر قال:

روىٰ جعفر بن محمد قال: ناجىٰ الله بعض أنبيائه، فقال: يارب، أيّ خلقِك أحبُّ إليك؟ قال: أكثرُهم لىٰ ذكرًا.

قال: يا ربَّ، فأيّ خلقِك أصبَرُ؟

قال: أكظمهم للغيظ.

قال: يارب ، فأي خلقك أعدل؟

قال: من أدان نفسه.

قال: يارب، فأي خلقك أغنىٰ؟

قال: أمتعهم برزقه.

قال: يارب، فأي خلقك أسعد؟

قال: من آثر أمري علىٰ هواه.

قال: يارب، فأي خلقك أشقىٰ؟

قال: من لم تنفعه الموعظة.

*** إكرام الله لقادة الخير في الدنيا قبل الآخرة:**

لقد حبّب الله إلىٰ المؤمنين الطريق إلىٰ ولايته، والاحتماء بجنابه، وطلب ما عنده، وخلاء القلب من كل شيء سواه، والفناء في مراده أمرًا ونهيًا[٣] فقال سبحانه: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾[٤]، وقال سبحانه: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا

(١)طه: ٥٢.
(٢)آل عمران: ١٥٠.
(٣)هذا ليس الفناء المذموم كما فصل ذلك ابن القيم رحمه الله في مدارج السالكين.
(٤)البقرة: ٢٥٧.

﴿خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝٦٢﴾[(١)]، وقال سبحانه في الحديث القُدُسي: «**من عادىٰ لي وليّا فقد آذنته بالحرب**»[(٢)]، وأولياء الله تُرىٰ بشارتهم في الدنيا قبل الآخرة فهذا بلال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول له النبي ﷺ: «**يا بلال حدثني بأرجىٰ عمل عملته في الإسلام، فإنّي سَمِعْتُ دَفَّ نَعْلَيْك بين يدي في الجنة**»[(٣)]، ويقول عن الرجل من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

«**يطلع عليكم الآن رجل من أهل الجنة**»[(٤)] وللصدّيق والفاروق قصة معروفة في جبل أحد «**اهدأ أحد فإنما عليك نبي وصديق وشهيدان**»[(٥)]. وهذا أبو البركات حين احتضر بدأ بقراءة سورة الرعد، فلمّا انتهىٰ إلىٰ قوله: ﴿أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا﴾[(٦)] خرجت روحه[(٧)].

وقد تكون رؤية حُسْن الخاتمة قبل زهوق الرّوح ممّا يجعل العالم يزيد من حبه لهذا الدين العظيم، ويوصي الخلق من حوله بالتمسك به، فهذا شهاب الدين المولود سنة ٦٣٤هـ يقول عنه الإمام الذهبي: كتب إلىٰ شهاب الدين بن مُرّي أنّ شمس الدّين لّما احتضر اجتمعنا حوله فأظهر فرحًا واستبشارًا، وكرّر كلمتي الشهادة، وقال: ساعدوني وآنسوني، فإنّ للنفس انزعاجًا عند الفراق، وإذا رأيتموني متُّ مسلمًا فاشكروا ربّكم علىٰ الهداية لهذا الدّين العظيم، ثم كرّر الشهادة نحو ثلاثين مرّة ومات[(٨)].

وهذا هو الفوز الحقيقي الذي بيّنه عبد الله بن الأكرم بن أبي البركات بن عبد الله بن أبي الفرج المعروف بزراق. حكىٰ عنه عتيق العمري: أنّه دخل عليه مع جماعة في ليلة وفاته، فقالوا: أما تذكر الشهادة؟ فذكرها، ثم قال: لمثل هذا فليعمل العاملون وقضىٰ، وذكر ابن سيد الناس عمن أخبره أنه كان حالة الوفاة يتلّفظ بالشهادتين، ثم قال: فزتُ

(١)يونس: ٦٢.
(٢)أخرجه البخاري (٦٥٠٢) عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
(٣)أخرجه البخاري (١١٤٩)، ومسلم (٢٤٥٨) عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
(٤)أخرجه أحمد (٣/ ١٦٦)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٨/ ٧٩): «ورجال أحمد رجال الصحيح».
(٥)أخرجه البخاري (٣٦٧٥) عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
(٦)الرعد:٣٥.
(٧)الدرر الكامنة ١/ ١٢٨.
(٨)المرجع السابق ت: ١/ ١٢٢.

ورب الكعبة، ومات من وقته[١].

وهكذا يتكرّر هذا الإكرام من الله لأهل العلم حملة الدعوة، والحسين بن محمد بن عبد الله الطّيبي الإمام المشهور صاحب «**شرح المشكاة**» وغيره، كان ذا ثروة من الإرث والتجارة، فلم يزل ينفق ذلك في وجوه الخير إلىٰ أن كان في آخر عمره فقيرًا. كان يشتغل في التفسير من بكرة إلىٰ الظهر، ومن ثمّ إلىٰ العصر، لإسماع البخاري إلىٰ أن كان يوم مات، فإنّه فرغ من وظيفة التفسير وتوجّه إلىٰ مجلس الحديث، فدخل مسجدًا عند بيته، فصلىٰ النافلة قاعدًا، وجلس ينتظر الإقامة للفريضة، فقضىٰ نحبه متوجّهًا إلىٰ القبلة، في يوم الثلاثاء الثالث عشر من شعبان سنة ٧٤٣هـ[٢] رحمه الله رحمة واسعة، لقد كان قدوة لمن حدّثته نفسه أن يأخذ التقاعد عن العلم والتعليم، وخاتمة مثل هذه تحرّك النفوس الجامدة للاستمرارية، فكيف بالنفوس الحيّة المتقدة؟

وبهذا قيل:

وأحسن وأنتَ معان   يا أيهـــا الإنسان
إن الأيـادي قروض   كما تدين تـــدان

وتظل نعم الله علىٰ المتتبعين للشرع في حكمهم وأمرهم ونهيهم بأن يحفظ الله أقلامهم من الخطأ، فهذا أحمد بن محمد بن أبي الحزم المكي نجم الدين المخزومي القمولي، ولىٰ الحسبة وولىٰ قضاء أسيوط والمنية والشرقية والغربية قال عن نفسه: لىٰ أربعون سنة أحكم ما وقع لىٰ حكم خطأ ولا مكتوب فيه خلل مني. قال عنه أبو الوكيل:ما في مصر أفقه منه. مات في رجب سنة ٧٢٧هـ، وهو من أبناء الثمانين[٣].

بل إن أصحاب الصلاح يشعرون بدنو أجلهم، وهذا في السِّير كثير في القرن الثامن، فعبد الرحمن بن أحمد بن رجب بن أبي البركات مسعود البغدادي الدِّمشقي الحنبلي الشيخ المحدث الحافظ زين الدين. ولد ببغداد في ربيع سنة ٧٠٦هـ، ومات في شهر

(١)المرجع السابق ت: ٢١٢٣، ٢/ ٣٥٥.
(٢)المرجع السابق ت: ١٦١٣، ٢/ ١٥٦.
(٣)الدرر الكامنة ت: ٧٦٩، ١/ ٣٢٤.

رجب سنة ٧٩٥هـ. يروىٰ أنه جاء إلىٰ شخص حفار، فقال له: احفر لي هنا لحدًا وأشار إليه؛ قال الحفار: فحفرت له، فنزل فيه فأعجبه واضطجع، وقال: هذا جيد، فمات بعد أيام فدُفن فيه(١).

* **قادة الخير من الرجال والنساء:**

﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ﴾(٢)، إنّ الخطاب القرآني بنداء الإيمان إنّما هو خطاب للرجل والمرأة ما لم يكن هناك تخصيص لأحدهما لخصوصيّة موضوع الخطاب لأحدهما، وهذه النظرة العادلة إنّما تأتي في وقت وصلت فيه البشرية إلىٰ درجة الانحطاط عندما نظرت الجاهلية العربية للمرأة علىٰ أنّها عار يجب دفنه في مهده، وحينذاك كانت الجاهلية الغربية تائهة في معرفتها لحقيقة المرأة وأصل خلقتها، وفي هذه الأجواء جاء عدل الإسلام «**النساء شقائق الرجال**»(٣)، «**استوصوا بالنساء خيرًا**»(٤)، وبهذه النظرة خرجت الصحابية من مدرسة النبوّة، لتكون مجاهدة كأمّ عمّار: سميّة، وأسماء ذات النطاقين، وأم أيّوب الأنصارية الصابرة علىٰ حكم وقضاء ربّها، والفقيهة أم المؤمنين: عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا جميعًا، ثم من بعدهن جاء السيّل الجرّار من العالمات والمحدّثات الذي جرف كلّ التصورّات المغلوطة علىٰ المرأة، ليظهر بعد ذلك نبت قرآني جديد يمتاز بكلّ صفات القيادة والخيرية، فهذه زينب بنت يحيىٰ ابن الشيخ عزّ الدين بن عبد السلام السلمي، قال الذهبي عنها: كان فيها خير وعبادة، وحبّ للرواية بحيث قرئ عليها يوم موتها عدة أجزاء، وكانت وفاتها في ذي القعدة سنة ٧٣٥هـ(٥). وهكذا ضربت زينب مثلاً للاستمرارية في طلب العلم قد يعجز عنها الرجال في زماننا هذا، وفاطمة بنت عيَّاش بن أبي الفتح البغدادية، كان ابن تيمية

---

(١) المرجع السابق: ٢٢٧٦، ٢/ ٤٢٩.

(٢) التوبة: ٧١.

(٣) أخرجه أبو داود (٢٣٦)، والترمذي (١١٣) وأحمد (٦/ ٦٥٦)، عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وصححه الألباني في الصحيحة (٢٨٦٣).

(٤) سبق تخريجه.

(٥) الدرر الكامنة ت: ١٧٦٤، ٢/ ٢١٥.

يثنىٰ عليها، ويتعجّب من حرصها وذكائها، وانتفع بها نساء أهل دمشق؛ لصدقها في وعظها وقناعتها[١]. ففاطمة لم تكن صالحة في نفسها فقط، بل كانت هادية ومعلّمة لغيرها، فنفعها تعدّاها، وهذا ممّا أعجب ابن تيمية فيها، وهذا بيان واضح للمرأة القادرة علىٰ التحرك للدعوة والنصرة لهذا الدين ألاّ تركن إلىٰ الراحة والدعة، بل إلىٰ الحركة والجهاد بالكلمة والموعظة الحسنة، هذه صور من القرن الثامن، وغيرها كثير، مجالها في غير هذا الموضع، وإنَّما أردنا ذكر هذه الصور؛ لنؤكّد أن المشروع الإسلامي إنّما يتعاون فيه الجميع، وكلٌّ ميسّرٌ لما خلق له.

*****

(١)الدرر الكامنة ت: ٣١٨٦، ٣/ ٣٠٧.

اللفت الثاني
حاجة البناء الحركى
للعلم كحاج الإنسان للهواء

بنىٰ الله الكون وفضل الخلق وحفظ الحياة بالعلم، وإنّ أي محاولة للبناء علىٰ غير أساس من العلم حاكمة علىٰ نفسها بالانهيار، هذا علىٰ وجه العموم والتخصيص في بنائنا الحركي الإسلامي لابد من الاتفاق علىٰ إلزاميّة قيامه علىٰ العلم الصحيح القائم علىٰ الكتاب والسنّة.

*** ملازمة الكتاب مانعة من السّوء:**

أرون الدَّوادار، اشتراه المنصور، فربّاه مع ولده النّاصر محمد، كانت وفاته بحلب في ربيع الأوّل سنة ٧٣١هـ، كان قد اشتغل علىٰ مذهب الحنفية، ومهر فيه إلىٰ أن صار يُعدُّ من أهل الإفتاء، قال صلاح الصفدي: قال لي فتح الدين بن سيد الناس: إنه كان يعرف مذهب أبي حنيفة ودقائقه، وكانت له عناية عظيمة في الكتب، جمع منها جمعًا ما جمعه أحد من أبناء جنسه، وكان خيرًا، ساكنًا، قليل الغضب، حتىٰ يُقال: إنه لم يسمع منه أحد في طول نيابته بمصر وحلب كلمة سوء[(١)]. يا لها من نفس عالية. وقوة ضابطة؟! يتولىٰ علىٰ قطرين عظيمين ولا يُسمع منه سوء، هذا بلا شك حفظٌ من الله كبير، وفي ميزان البشر مقدر وعظيم، وهكذا حفظ الله لمن حفظه والتزم دينه «**احفظ الله يحفظك**»[(٢)]. فإذا أرادت الحركات الصواب في بنائها وخطابها السياسي والاجتماعي، فلا تتعسّف الطريق، ولتلتزم جادة العلم، لتطوّع رأيها لما صحّ من الدليل، ولا تلوي أعناق النصوص؛ انتصارًا للنفس وما اعتادت عليه.

وملازمة العلم لا تنفك عن طالبه، فهذا أحمد بن علي نجم الدين بن الرفعة[(٣)]؛ كان كثير الصدقة، مكبًّا علىٰ «**الاشتغال، حتىٰ عرض له وجع المفاصل، بحيث كان الثوب إذا**

---

(١)الدرر الكامنة ت: ٨٧٣، ١/ ٣٧٤.

(٢)جزء من حديث أخرجه الترمذي (٢٥١٦)، وأحمد (١/ ٢٩٣) عن ابن عباس رضي الله عنهما، وصححه الألباني.

(٣)الدرر الكامنة ت: ٧٣٠، ١/ ٣٠٦.

لمس جسمه آلمه، مع ذلك معه كتاب ينظر إليه، وربما انكب علىٰ وجهه وهو يُطالع، وهذه الملازمة جعلته يتشرّب بالعلم حتىٰ أصبح العلم جزءًا من تكوين جسده. وهذا الذي عبّر عنه شيخ الإسلام ابن تيمية عندما سئل عنه بعد مناظرة بينهما قال: رأيت شيخًا تتقاطر.

فروع الشافعية من لحيته. وقال الإسنوي عنه: ما أخرجت مصر بعد ابن الحداد أفقه منه. اهـ. وهذا أحمد بن الحسن بن أنوشروان الرازي الأصل، ثم الرّومي، الحنفي، ولد سنة ٦٥٢هـ، كان يحفظ في كلّ يوم من أيام الدرس ثلاثمائة سطر، ووفاته سنة ٧٤٥هـ، أقام فوق السبعين سنة يدرس بدمشق[١]، وهكذا سبعون عامًا لم يكلّ ولم يملّ!!

* الاشتغال بالعلم يدفع العالم للاعتناء بالناس:

أحمد بن إبراهيم بن الزبير بن عاصم بن مسلم العلاّمة، أبو جعفر الأندلسي، الحافظ النحوي، ولُد سنة ٦٢٧هـ، قام بتدريس الفقه وإسماع الحديث وتعليم العربية، عاكفًا علىٰ ذلك عامة نهاره مثابرًا علىٰ إفادة العلم ونشره[٢]، هكذا كان عاكفًا عامّة نهاره، بهذا الاعتكاف ارتبط مع تلامذته ونال السبق ودرجة الحافظ، واستفاد الذين من حوله، والحركة التي تهتمّ بالعلم ويتشبّع قادة الفكر فيها بالكتاب والسنّة نرىٰ منها عملاً دؤوبًا لا يفتر، وحركة متواصلة في بناء إسلامي مؤصل، يلتزم السنّة ويحارب البدعة، والاستمرارية لا يستطيعها إلا أصحاب العلم والاطّلاع، فهذا عبد الله بن محمّد بن أبي بكر بن أبي البركات الزويدائي المولد، البغدادي المنشأ الحنبلي، تقيّ الدين، طالع المغني للموفق ابن قدامة ثلاثًا وعشرين مرة، حتىٰ كاد يستحضره[٣]. هذا هو العالم الذي يتحرك لخدمة الناس، إنّه إنسان لا يملّ ولا يكلّ، فالمداومة أصل من حياته في كل شيء، وهذه المصابرة تعني النتاج، فالذي يصابر في دعوة الناس ويصبر عليهم، سيكون له خلق كثير، وأتباع يظهرون أيام الجنائز والدعاء بظهر الغيب، والمثابرة تعني النتاج في أكثر

(١)الدرر الكامنة ت: ٣٢٨، ١/ ١٢٧.
(٢)المرجع السابق ت: ٢٣٢، ١/ ٩٠.
(٣)المرجع السابق ت: ٢٢٠٧، ٢/ ٣٩٥.

الأحوال، فهذا خليل بن أيبك صلاح الدين الصفدي أبو الصفاء، ولد سنة ٦٩٧هـ جمع في تاريخه الكبير الذي سمّاه «الوافي بالوفيات» من نحو ثلاثين مجلدة علىٰ حروف المعجم، قال ابن سعد: وجد بخطّه: كتبت بيدي ما يقارب خمسمائة مجلدة، قال: ولعلّ الذي كتبته من الإنشاء ضعفا ذلك، وهذا النتاج الضخم والجمع الكثير لم يدفعه للغرور والتعالي، كما هو الحال اليوم عند من يجتمع إليه نفرٌ من الشباب أو مجموعة من الرسائل، إنّه رحمه الله كما قال عنه الحسيني: كان إليه المنتهي في مكارم الأخلاق ومحاسن الشيم(١).

وهذه الأخلاق إذا أضيف إليها الإحسان إلىٰ الناس والزهد بما عندهم تم استكمال الأدوات المساعدة للإنسان علىٰ قيامه لخدمة الناس. فهذا محمد بن شرشيق بن محمد بن صالح الجيلي، شمس الدين السِّنجاري، حفيد الشيخ عبد القادر، ولد في رمضان سنة ٦٥١هـ، كان يُعرف بالحيالي نسبة إلىٰ الحيال بسنجار. قال ابن رافع وكذلك الذهبي: كان حسن الخلق والخُلُق، فاضلاً، زاهدًا، عابدًا، من أهل السنة، له وقعٌ في القلوب وجلالة. ولزهده رحمه الله لم يمس كفُّهُ ذهبًا ولا فضة في طول عمره من الجود المفرط، والحشمة والإحسان للناس والمودة، وكان هو وأهل بيته معروفين بمناصحة الإسلام والمسلمين(٢).

وقمة الاعتناء تكون بأهل الفضل وها هم سلفنا رضوان الله عليهم يتبادلون ذلك. الإمام يوسف بن الزكي عبد الرحمن بن أبي الزهر الحلبي الأصل المزِّي أبو الحجاج جمال الدين الحافظ نراه ﵀ لمّا وقعت المناظرة لابن تيمية مع الشافعية، وبحث مع الصفي الهندي، ثمّ ابن الزملكاني بالقصر الأبلق شرع الإمام المزي يقرأ كتاب «**خلق أفعال العباد للبخاري**»، وفيه فصل في الرد علىٰ الجهميّة، فغضب بعض الفقهاء وقالوا: نحن المقصودون بهذا، فبلغ ذلك القاضي الشافعي يومئذ فأمر بسجنه، فتوجّه ابن تيمية وأخرجه من السّجن، فغضب النائب، فأعيد ثم أفرج عنه(٣). وهكذا كل واحد

(١)الدرر الكامنة ت: ١٧٥٤، ٢/ ١٧٧.
(٢)المرجع السابق ت: ٧٣٣٨، ٤/ ٧٢.
(٣)المرجع السابق ت: ٥١٢٢، ٥/ ٢٣٤.

من العلماء والفضلاء يسعىٰ بخدمة صاحبه والتفريج عنه، كل ذلك مع جلالة قدرهم، وواسع علمهم، وإمامنا المزي مع شهادة الذهبي له بقوله: ما رأيت أحدًا في هذا الشأن أحفظ منه؛ نراه كثير الحياء والاحتمال والقناعة والتواضع والتودّد إلىٰ الناس(١).

والاشتغال بالناس والتعليم والكتابة له ضريبة الانقطاع الجزئي عن التحصيل، ولا بأس بذلك كما قال شيوخنا عندما شكونا لهم قلة الاطلاع والتحصيل فقالوا تطمينًا لنا: وهل تحصيل العلم إلاّ من أجل التعليم والتبليغ والاشتغال بالدعوة؟ فكان ذلك تخفيفًا عمّا نجد في نفوسنا، وتمرّ الأيّام وإذا بترجمة محمد بن محمد بن محمد بن يحيىٰ بن محمد بن عبد العزيز بن سيد الناس، أبو الفتح فتح الدين اليعمري الشافعي الحافظ العلاّمة الأديب، ولد في ذي القعدة سنة ٦٧١هـ، مشيخته يُقاربون الألف، كان طيب الأخلاق بسَّامًا، صاحب دعابة ولعب، صدوقًا في الحديث، حجة فيما ينقله، له بصر نافذ، قال عنه الإمام الذهبي: ولو أكبّ علىٰ العلم كما ينبغي لشُدّت إليه الرحال، ولكنّه كان يتلهي عن ذلك بمباشرة الكتبة، وكان النظم عليه بلا كلفه، وكان بسّامًا كيّسًا معاشرًا(٢). أمّا محمد بن عليّ المنفلوطي الأصل المعدي الشافعي نزيل القاهرة، ولد في شعبان سنة ٦٢٥هـ، فقد قال عنه قطب الدين الحلبي: كان ممّن فاقه بالعلم والزهد، عارفًا بالمذهبين، إمامًا من الأصليين، حافظًا من الحديث وعلومه، وكان آية في الإتقان والتحرّي، شديد الخوف، دائم الذكر، لا ينام من الليل إلاّ قليلاً، يقطعه مطالعة وذكرًا وتهجّدًا، وكانت أوقاته كلها معمورة، وكان مشغوفا علىٰ المشتغلين، كثير البرّ لهم(٣).

*** العيش مع الحدث مدعاة للكتابة والتوجيه:**

إن الكتابة الصادقة في أيّ فن، هي نتيجة لمعاناة صاحبها؛ ولذلك تأتي الكلمة مؤثرة وبانية ويتكون علىٰ أثرها جيل؛ ولهذا لا يحسن الكتابة عن الصبر إلاّ من عاش معاناته، وإلا فهي كلمات وعبارات توضع بعضها مع بعض ليبعث بها إلىٰ آلات الطباعة؛ لتأتي

(١)الدرر الكامنة، ٥/ ٢٣٣.
(٢)المرجع السابق ت: ٤٤٣٧، ٤/ ٣٣١.
(٣)المرجع السابق ت: ١٤٢٠، ٤/ ٢١١.

بعد ذلك باردة لا روح فيها، فالكلمة قد تولد علىٰ الورقة البيضاء ميتة لا حراك فيها، وقد تخرج من بين الصفحة البيضاء وريشة الكتابة لتنطلق عبر مجاميع الناس، وعلىٰ ألسنة الناس، فتغيّر سلوكًا، وتوصل للمجاميع منهجًا، وقد تكون في أوّلها ثقيلة علىٰ صاحبها وعلىٰ سامعها، ولكنّها بعد ذلك درسٌ يتم البحث والتشاور والتدارس فيه، ولننظر معًا إلىٰ أحمد بن يوسف بن يعقوب الطيبي شمس الدين كاتب الإنشاء بطرابلس، الذي وُلد في ذي الحجة سنة ٦٤٩هـ. قال جمال الدين بن رزق الله: إنهم كانوا مع الطيبي هذا، وجماعة في نزهة فتذاكروا وقعة «**شقحب**» فقالوا له: لو نظمت في نصر المسلمين شيئًا؟ فتناول الدواة وكتب قصيدة نحو تسعين بيتًا، أوّلها:

برق الصوارم للأبصار يختطف ....

ثم قاموا إلىٰ النوم، فلمَّا استيقظوا ذكروها له فأنكرها وأخذ يحلف أنه لا يستحضر أنه نظم شيئًا، فأروه إيّاها فتعجّب(١)، نعم إنّها قريحة شاعر، جال في ذكره وسرح في خياله بمعركة انتصر فيها المسلمون، وأعزّهم الله، فامتلأت نفسه بنشوة الانتساب لهذا الدين العظيم وانتصاراته المشرقة، فأقامه مع معه ففجّر هذا المخزون، فانطلق اللسان يقذف من داخل النفس صدقًا واعتزازًا. هكذا بالأمس وكذلك اليوم نجد صاحب الدعوة مستلقيًا علىٰ فراشه، أو في عمله الذي يتكسب منه، وإذا بالأفكار الدعوية والمشاريع الإسلامية تتداعىٰ عليه، فإن أمسك القلم وقيّد ذلك، فقد اصطاد ما ينتفع منه، وإلا فعند خروج نفسه من معاناتها فسيبحث عمّا جال في نفسه، فلا يجد منه إلا القليل!! وهذا العيش مع الدعوة والعلم، يجعل هناك ألفة ومحبة بين الطرفين، وكأنهما جزء واحد، فهذا شافع بن عليّ بن عباس الكنانىٰ العسقلاني ثم المصري، ولد في ذي الحجة سنة ٦٤٩هـ، ومات في شعبان سنة ٧٣٠هـ أصابه سهم في وقعة حمص في صدغه سنة ٦٨٠هـ، فكان سبب عماه فألزمه بيته، كان يحب جمع الكتب حتّىٰ إنه لمّا مات ترك نحو العشرين خزانة، ملأىٰ بالكتب النفيسة، وكان من حبّه للكتب إذا لمس الكتاب يقول: هذا الكتاب الفلاني، ملكته في الوقت الفلاني، وإذا طلب منه أي مجلّد كان قام إلىٰ الخزانة فتناوله

(١) الدرر الكامنة ت: ٧٥٥، ١/ ٣٦٣.

وكأنه كما وضعه فيها قبل لحظة(١)، وكان ذلك بعد فقدانه لبصره وبقاء بصيرته، وحبّه الذي جعل هناك هاديًا بينه وبين الكتب، عشقها فأحبّته فنادته إلىٰ مكانها وهكذا العالم مع علمه وطلبته، والداعية مع حركته وأجياله، إنّها ألفة لا تنقطع ما دام هناك صدق ووفاء، وطلب العلم والاستمرارية فيه، والبحث عن الجديد النافع دائمًا، هي صفة العلماء والكبراء؛ فهذا أحمد بن عبد القادر بن أحمد بن مكتوم بن سليم بن محمد القيسي تاج الدين أبو محمد الحنفي النحوي، ولد سنة ٦٧٢هـ طلب العلوم الكثيرة وبرع فيها، وأقبل علىٰ طلب الحديث في آخر عمره، فتكلم بعض الناس عليه، فأنكر عليهم بأبيات جميلة، قال فيها:

وعاب سماعي للأحاديث ـ بعدما ... كبرتُ ـ أناسٌ هم إلىٰ العيب أقربُ
وقالوا: إمام في علوم كثيرة ... يروحُ ويغدو سامعًا يتطلّب
فقلتُ مجيبًا عن مقالتهم وقد ... غدوتُ لجهلٍ منهمُ أتعجّبُ
إذا استدرك الإنسان ما فات من علا ... للحزم يعزىٰ لا إلىٰ الجهل يُنسبُ(٢)

*** دقة العلم معين علىٰ التخّلص عند اشتداد الأمر:**

العالم الداعية إلىٰ الله، يخالط الناس ويتحرك في أوساطهم، ويظلّ في مقدّمة الخلق عند وجود الشدائد، وهو أمرٌ لازمٌ له؛ لأنّ الكبار تحكمهم توجيهاتهم وقدوتهم بين الناس، فمن قال في وقت الرخاء، لزمه الأمر في وقت الشدة وهل قتل المتنبي إلاّ قوله في وقت الرّخاء:

الخيلُ والليلُ والبيداءُ تعرفني ... والسيفُ والرمحُ والقرطاسُ والقلمُ

والعالم كما يتصدىٰ، يحسن به أن يتخلّص من المهالك؛ لأنّ في بقائه نفعًا للخلق، ودمه له حرمة عند الله أشدّ من حرمة البيت الحرام، وبحياته تحيا أممٌ، ويمنع الفساد عن خلقٍ كثير، فحفاظه علىٰ حياته ليس لذاته فقط، بل لخلق جعله الله قدرًا من أقداره في تعليمهم وتوجيههم، وهذا مثال حيّ من قصة محمد بن أحمد بن أبي بكر الرقوطي، قال

(١) المرجع السابق ت: ٤٥١، ١/ ١٨٦.
(٢) الدرر الكامنة ت: ٤٥١، ١/ ١٨٦.

عنه ابن الخطيب: كان عارفًا بالفنون القديمة كلها، وكان من أهل مرسية التي تغلب عليها الروم، وقد تعجّب ملك الروم من علمه، فأدنىٰ مجلسه، ونوّه به، وعرض عليه التنصير، فقال الإمام محمد متخلّصًا ممّا هو فيه: أنا أعبد واحدًا، وقد عجزت عمّا يجب له عليَّ من الحق، فكيف حالي لو عبدت ثلاثة!! وهكذا تخلّص من المأزق الذي كان فيه، ولم يؤذه الملك في سلطانه، وحافظ علىٰ حياته، لينقذه بعد ذلك ثاني الملوك من بني نصر، ليأخذ عنه الجم الغفير من الناس[١].

وحرصُ طالب العلم علىٰ الخير وتوخّي الصواب والصدق في التعلّم، يوافقه في الغالب توفيقٌ من الله سبحانه، وإنّني هنا أتذكر حادثة قبل عشرين عامًا عند انتهائي من الثانوية العامة، والبدء بالنّشاط الدّعوي الصيفي: كان معنا أخٌ حبيب توفّاه الله بعد أداء فريضة الحج، أسأل الله أن يتغمده بواسع رحمته، وأن يكرم ولده وأهله من بعده، فكان رحمه الله مع حسن أدبه ودماثة خلقه، يهوي آلة الطرب «**العود**» وكان شراؤه لها حديثًا، وتعلّمه عليها وإتقانه قبل تعرفنا عليه، وبعد التقائه معنا وذهابه إلىٰ حلق العلم وأنشطة الدعوة أحسستُ أنّه بدأ يراجع نفسه في استخدامه «**للعود**» فقلت له بعد رجوعنا من حلقة للعلم وفي السيارة: يا أخي لعلّك تملك آلة للطرب، ولعلك تريد التخلّص منها، وكأنىٰ بك تبتعد عن خلطتك لإخوانك بسبب وجودها معك في البيت!! فقال: نعم، فقلت: ما رأيك يا أخي لو وجدت لك من يشتريها منك، وتتخلّص منها وتتوب إلىٰ الله منها توبة صادقة. فوافقني علىٰ ذلك، وأخذت «**العود**» منه، وأعطيته مصروفي الخاص الذي أستفيد منه طوال شهري، ثم دخلت إلىٰ البيت فكسرته، وسألت الله أن يطهّر قلوبنا من حب اللهو، وأن يعوّضني عن مصروفي خيرًا في الدنيا والآخرة، وتمر الأيام وأحتسب عملىٰ عند الله، ولكن يظلّ الأمر في نفسي هل تصرّفي صحيح؟ أم كان الأولىٰ أن أدفعه لأن يكسر هو هذه الآلة؟ وأستشير بعض الشيوخ عندنا في ذلك الوقت وتختلف إجاباتهم، وتطوىٰ الصفحة، وتمرّ السنون وأقرأ في سير العلماء فإذا بالشيخ علي بن الحسن بن عبد الله بن الجابي يقول عنه ابن الجزري: كان صاحبي، وكان يعرف الكيميا

(١)جامع بيان العلم وفضله ١/ ٥٧.

معرفة تامة وحصل فيها كتبًا كثيرة جدا، ولما مات توجه الشيخ تقيّ الدين بن تيمية، فاشترىٰ منها جملة وغسلها في الحال، وقال ﷺ: هذه الكتب كان الناس يضلون بها، وتضيع أموالهم، ففتديتهم بما بذلته في ثمنها[١]، وهكذا أجد أني في وقت ما كنت أعرف سنن الوضوء من فروضه، وفّقني الله أن أسلك طريقًا أكتشف أنّه مسلك شيخ الإسلام ابن تيمية، فللّه الفضل والمنّة علىٰ توفيقه وإحسانه.

وحقا:

يعدّ عظيم الناس من كان عاقلاً   وإن لم يكن في قومه بحسيب
وإن حلَّ أرضًا عاش فيها بعقله   وما عاقل في بلدة بغريب[٢]

*****

(١)الدرر الكامنة ت: ٢٧١٦، ٣/ ١٠٨.
(٢)جامع بيان العلم وفضله ١/ ٥٧.

اللفتة الثالثة

الألفة بين الداعية والمجتمع

جاء في الحديث الشريف: «**المؤمن إلف وألوف كالجمل الأنف إذا أنيخ استناخ..**» عنوان الحديث: اللقاء طريق المحبة والقطيعة طريق الوحشة:

قال الله تعالىٰ: ﴿ وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿٥٣﴾ ﴾[1]، فقول الأحسن: طريق المحبة وإزالة الجفوة، والقول الحسن لا يتم إلاّ باللقاء والمجالسة التي تتم فيها المشافهة والتعرف علىٰ قسمات الوجه ونبرات الصوت وزفرات النفس، وهذا أمرٌ لا يعرفه إلاّ من عاشه، فهذا أحمد بن محمد بن مُرِّي البعلي الحنبلي كان منحرفًا عن ابن تيمية ثمّ اجتمع به فأحبّه، وتلمذ له، وكتب مصنّفاته[2]. واللقاء يحتاج إلىٰ أسلوب من الخطاب، واختيار للكلمة، وحسن للعبارة، وهذا مما يحبب الخلق بالإنسان، وهذا ابن هشام عبد الله بن يوسف جمال الدين أبو محمد النحوي، المولود في ذي القعدة سنة ٨٠٧هـ تفرد بالتحقيق البالغ، والاطلاع المفرط، والاقتدار علىٰ التصرف في الكلام، والملكة التي كان يتمكّن بها من التعبير عن مقصوده بما يريد، مسهبا وموجزًا، مع التواضع والبر والفقه، ودماثة الخلق ورقة القلب[3].

*** مواصفات يحبّها الناس للعامل في المجتمع:**

قال بعض البلغاء:

صلاحُ الشيم بمعاشرة الكرام، وفسادُها بمخالطة اللئام، وهي كلمة لقمان: من خير حظ المرء قرين صالح، فقارن أهل الخير تكن منهم، وباين أهل الشر تبن عنهم، وبها قال ابن المقفع: إن الخصال الصالحة من البر لا تحيا ولا تنمي إلا بالموافقين والمهذبين

---

(١) الإسراء: ٥٣.

(٢) الدرر الكامنة ت: ٧٦٨، ١/ ٣٢٣.

(٣) المرجع السابق ت: ٢٢٤٨، ٢/ ٤١٦.

والمؤيدين.

وعلىٰ هذا لابد من الاتصال مع الناس ونحن نحمل كمًّا كبيرًا من مواصفات الخير؛ ليحسن نفعنا للآخرين، فمهمة الدعاة من المهام التي لا تحتاج إلا إلىٰ صدق في اللهجة وأمانة في العمل والتوجيه.

لكلّ مهمّة مواصفات خاصة تضاف إلىٰ الأخلاق العامة التي يلزم المسلم أن يتخلّق بها، وتعدادنا لها لن يكون بصيغة مجردة مثالية بعيدة عن الواقع، بل سيكون من خلال الاطلاع علىٰ سيرة علم من أئمة الهدىٰ.

فهذا القاسم بن محمّد بن يوسف بن محمد بن يوسف البرزالىٰ علم الدين بن بهاء الدين الدمشقي، الحافظ الذي ولد في جمادىٰ الأولىٰ سنة ٥٦٦هـ، كان دقيقًا رحمه الله في كل شيء، حتىٰ قال عنه شيخ الإسلام ابن تيمية: نقل البرزالي نقش في حجر، من مواصفاته التي حبّبته إلىٰ الناس، كما ذكرها البدر النابلسىٰ، أنّه: حسن الوجه واللباس، كثير التواضع، كريم النفس، كثير الحلم، ضحوك السنّ، يحتمل الأذىٰ، ويغضىٰ عمّن يغضّ منه، وقال عنه الذهبي: كان رأسًا في صدق اللهجة والأمانة، صاحب سنّة واتباع ولزوم الفرائض[١]. والدقة يقابلها ضبط يدفع إلىٰ الاحترام. فهذا أحمد بن محمد بن أبي بكر بن جماعة الزُّهرىٰ أبو العباس القُوصىٰ كان رحمه الله يُرغب إليه؛ لضبطه وأمانته وسكونه، ولهذه الصفات كان وصولاً لذوي رحمه، مواظبًا علىٰ حضور الجماعة[٢]. والابتسامة محبّبة، والتجهم مبغوض، وملاعبة الناس لا تكسر الهيبة، ولا تخدش العلم. وهذا ابن سيد الناس الشافعي الحافظ العلاّمة الأديب المشهور، المولود في ذي القعدة سنة ١٧٦هـ كان طيّب الأخلاق بسّامًا صاحب دعابة ولعب[٣]. وجمال الثوب والمظهر مدعاة لدخول قلوب الناس؛ فهذا محمد بن علىٰ بن الزَّملكانىٰ كمال الدين أبو المعالي، ولد في شوال سنة ٧٦٦هـ، كان يضرب بذكائه المثل، أفتىٰ وله نيف وعشرون سنة،

(١)الدرر الكامنة ت: ٣٢٢٩، ٣/ ٣٢٣.
(٢)المرجع السابق ت: ٧٥٣، ١/ ٣١٩.
(٣)المرجع السابق ت: ٤٤٣٧، ٤/ ٣٣١.

وتخرج عليه غالب علماء العصر، ولم يروا مثل كرم نفسه، وعلو همته، وتجمله في مأكله وملبسه[(١)]. والسعي في حاجة الناس ملكٌ لقلوبهم، كما كان محمد بن الخضر تاج الدين بن الزين خضر؛ كان مشكور السيرة متواضعًا محبا لأهل الخير، يحب قضاء حوائج الناس ولا ينظر إلىٰ البذل[(٢)]. نعم، فقائد الخير عندما يبذل ماله وجاهه للخلق، لا ينتظر منهم جزاءً ولا شكورًا ﴿ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ ﴾[(٣)]، فهو يبذل سجية من غير تكلف ولا تعسف، قدوته في ذلك حبر هذه الأمة عبد الله بن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا حين قال: «**لأن أمشي في حاجة أخي خيرٌ لي من أن أعتكف في مسجد رسول الله ﷺ أربعين يومًا**».

*** ترك الغيبة طريق لمحبّة الخلق:**

إنّ من أفسد السموم التي تدمّر المجتمعات تلك التي تسمّىٰ بأمراض القلوب؛ كالغيبة والنميمة والحسد، فهذه مفسدة للألفة أيّ مفسدة، وقد جاء التحذير منها في القرآن والسنّة: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ﴾[(٤)]، ﴿وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلْأَلْقَٰبِ ﴾[(٥)]، ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ۝١ ﴾[(٦)]، وجاء في الحديث عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: «**أتدرون ما الغيبة؟**» قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «**ذكرك أخاك بما يكره**» قيل: أرأيت إن كان في أخي ما أقول، قال: «**إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته، وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهته**»[(٧)].

وكان لهذه التوجيهات أثر في بناء الأمّة ورجالاتها، فخرج جيل لا يغتاب ولا يسمح للغيبة أن تدار في مجلسه، كما لا يسمح لكؤوس الخمر أن تدور في مجلسه، فهذا محمد ابن عبد الحق بن عيسىٰ الخضري، وقيل: الجعفري مات في شهر شعبان سنة ٧٤٧هـ،

(١)المرجع السابق ت: ٤٠٧٤، ٤/ ١٩٣.
(٢)الدرر الكامنة ت: ٣٦٨، ٤/ ٥٣.
(٣)الإنسان: ٩.
(٤)الحجرات: ١٢.
(٥)الحجرات: ١١.
(٦)الهمزة: ١.
(٧)أخرجه مسلم (٢٥٨٩) عن أبي هريرة.

وصف رحمه الله بأنه كان جدًّا كلُّه لا هزل فيه، ولا يمكن أحدًا أن يذكر عنده أحدًا بسوء[1]، وهكذا كان كالسيف القاطع، والمحارب الذي علىٰ ثغره، لا يمكن أحدًا من الاقتراب من محارم الله، بانتهاش أعراض الناس وهو بذلك يحمىٰ نفسه من الإثم، ويحفظ مجلسه نقيا طاهرًا، ويربّي من معه علىٰ ضبط النفس، وإشغالها بالنافع وتركها للضار، وللأسف الشديد أصبح من النادر اليوم، أن تجد مجلسًا إلا وتدار فيه الغيبة، كما يدار كأس الماء علىٰ العطشىٰ، بل الأدهي من ذلك أن مجالس الدعاة أصبحت تتعاطىٰ الغيبة، وتعمل علىٰ إيجاد التخريج الشرعي لها، بأن هذه الغيبة لله وللنصح لدينه، والغيبة هذه تقويم لمسار الدعوة، والحبل علىٰ الجرار في إضفاء الشرعية علىٰ الفعل الذميم الذي لا تقتات عليه إلا الطفيليات من المخلوقات، أمّا أهل العبادة والصلة بالله سبحانه، فأثقل المجالس عندهم الذي تذكر فيه أعراض الناس، وهم يدرّبون أنفسهم علىٰ تركها، فهذا محمد بن سليمان بن أحمد بن الفخر تاج الدين، كان متعبدا متجنبا للغيبة وسماعها[2]، وقد وصل بهم الأمر إلىٰ التحرز من الغيبة كالتحرز من النجاسة الحسية وأكثر؛ فهذا سعيد بن محمد بن سعيد الملياني المغربي المالكي كان شيخًا فاضلاً في العربية من أعيان المالكية، خيرًا متحرزًا من سماع الغيبة، لا يمكن أحدًا يستغيب، فإن لم يسمع نهيه من في المجلس خرج من المجلس، ومات علىٰ ذلك رحمه الله في السادس من شوال سنة ١٧٧هـ[3]. وقمّة ضبط النفس في عدم الغيبة عندما يكون للإنسان في ذكرها مصلحة شخصية أو حزبية، فمنذ القديم والآن في الحديث يصل ضعاف النفوس إلىٰ سدّة التوجيه ومركز المال، علىٰ جثث الأخوة وقطيعة الرحم، وزجّ الطيبين الغافلين في متاهات الحياة وتعقيداتها، أمّا رجال القرآن فهم أبعد ما يكونون عن ذلك؛ فهذا محمد بن أحمد بن محمد التلمساني الأصل نزيل سبتة، ولد سنة ٩٧٦هـ، كان قائمًا علىٰ حفظ كتاب الله طيب النغمة به، لم يؤثر عنه في أحد وقيعة مع اتصاله بالسلطان[4]. يا الله أيّ قوة

---

(١)الدرر الكامنة ت: ٣٨٤٢، ٤/ ١١٣.

(٢)الدرر الكامنة ت: ٣٧٢١، ٤/ ٦٧.

(٣)المرجع السابق ت: ١٨١٨، ٢/ ٢٣٢.

(٤)المرجع السابق ت: ٣٤٨٦، ٣/ ٤٥٧.

هذه التي عنده، التي جعلته طوال مجالسته للسلطان لا يتكلم ولا يشي بأحد، مع قدرته علىٰ ذلك؟ ومع ما نعرف من حب أصحاب الأمر لسماع أخبار الناس وتوجهاتهم، وأن كثرة الأخبار والمعلومات هي التي تدني الرجل من مجلس السلطان، وهي المادة وللأسف الشديد المستخدمة في إثبات الولاء والصدق، وهذا ليس في مجالس سلطان الدنيا، بل قد زحف الأمر إلىٰ مجالس سلاطين الدعوة، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

لقد صدق الباقر المرتضي سليل الإمام عليه السـلام
بما قال في بعض ألفاظه سلاح اللئام قبيح الكلام[1]

*****

(١) المرجع السابق ت: ١١٣٤، ١/ ٤٦١.

اللفتة الرابعة
السعي في حاجة الناس وتحسس معاناتهم

إنّ التحسس لمعاناة الناس، والسعي معهم من الطاعات التي قصرت عنها أيامنا هذه، التي ما أصبح المرء يلتفت إلىٰ أخيه وجاره، إلاّ وهو يرتجي المقابل، حيث أصبحت (الأنا) غالبة علىٰ طبائع البشر، إلاّ من رحم الله. ويأتي هذا الخلق السيئ، في وقت ضعف النظر فيما عند الله من الأجر والمثوبة لمن سعىٰ في حاجة أخيه «**من كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته، ومن فرج عن مسلم كربة فرج الله عنه بها كربة من كرب يوم القيامة**»[١]. ومن رحمة الله بالإنسان أنه لا يكلفه ما لا يطيق ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾[٢] والقاعدة الشرعية تقول: «**لا تكليف إلا بمقدور**»، فالداعية عليه أن يسعىٰ في حدود الضوابط الشرعية، والقدرة البشرية، وأن يحسن ويتقي في سعيه ما استطاع، فالنحت في المستحيل ضربٌ من العبث، قال شرف الدين الرومي:

ومن يقصد الأمر الذي ليس ممكنًا ويطمع أن يمسي به وهو ظافر
كباحث صخر يبتغي فيه حاجةً أنامله تدمي وتحفي الأظافر[٣]

ومن ديوان أبي الحسن التهامي:

وإذا رجوت المستحيل، فإنما تبني الرجاء علىٰ شفيرٍ هار[٤]

قال بعضُ الحكماء: لو كانت الملوك تعرفُ مقدار حاجتهم إلىٰ ذوي الرأي من الناس مثل الذي يعرف أهل الرأي من حاجتهم إلىٰ الملوك، لم أرَ عجبًا أن ترىٰ مواكب الملوك علىٰ أبواب العلماء كما ترىٰ مواكب العلماء علىٰ أبواب الملوك.

ومن قصة البكري فقه عجيب، نسوقها بكاملها، لنأخذ العبر ونستفيد من الدروس،

---

(١)أخرجه البخاري (٢٤٤٢)، ومسلم (٢٥٨٠) عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

(٢)البقرة: ٢٨٦.

(٣)الدرر الكامنة ت: ١٩٥١، ٢/ ٢٩٥.

(٤)تسهيل النظر وتعجيل الظفر ص٧٨.

وهكذا صفحات الحياة، ينظر فيها حتىٰ لا يتكرر الخطأ، وليستفاد في التجربة. ينظر إلىٰ التاريخ للاعتبار، وحقًّا ما أكثر وأقلّ من يعتبر ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾﴾[1]. وللأسف الشديد، نحن ننظر في سير السالفين، لنأخذ منهم ما يوافق ما نقول، لا لننظر في تاريخهم، فنعرف ما نقول، فقد اتخذناهم متكأ، ولم نأخذهم مدرسةً ومعلمًا ومنارة، وإليكم السيرة بكاملها:

علىٰ بن يعقوب بن جبريل البكري نور الدين أبو الحسن المصري الشافعي الفقيه، ولد سنة ٦٧٣هـ، واشتغل بالفقه والأصول، وقرأ بنفسه مسند الشافعي علىٰ ست الوزراء لما قدمت القاهرة، وجرت له محنة بسبب القبط، فتعصبوا عليه، وأغروا به السلطان، وكان هو قد بسط لسانه في الإنكار، فأمر بقطع لسانه، فبلغ ذلك الشيخ صدر الدين بن الوكيل وكان بالقاهرة، فطلع إلىٰ القلعة، وشفع فيه، فقبل السلطان شفاعته بعد جهدٍ، وشرط أن يخرج من مصر، فخرج إلىٰ دهروط، وكان سبب ذلك أنه كان في النصف من المحرم سنة ٧١٤هـ بلغه أن النصارىٰ قد استعاروا من قناديل جامع عمرو بن العاص بمصر شيئًا وعلقوه في مجمع كان بالكنيسة المعلقة، فأخذ معه طائفة كبيرة من الناس، وهجم.

*** ضرب باب السلطان لتخفيف المعاناة عن الناس:**

كان من المستقر في أدبيات الدعاة والعلماء، ترك السعي لحاجة الناس إن كانت الحاجة عند ذي سلطان؛ لأن في ذلك خرقًا لهيبة العالم، وامتهانًا للدين، وأخذ هذا الأمر علىٰ إطلاقه، فضاعت مصالح كثيرة، ووجدت الجفوة بين السلطان والعلماء والدعاة، واستغل ذلك أصحاب النفوس الضعيفة، وتجار الدعوة أصحاب الوجوه الكثيرة، وغاب عن ساحة النصح أصحاب الصدق والإخلاص، ولله در شيخ الإسلام ابن تيمية، وعمق فهمه، ودقة معرفته لفقه الموازنات، وهذا بينٌ في سيرته ﷺ، حتىٰ إنه دخل علىٰ

(١) ق: ٣٧.

قطلوبك المصري الكبير من مماليك المنصور(١)، مع تاجر له، يشفع له في قضاء حقه، فقال له قُطلوبك: إذا رأيت الأمير بباب الفقير، فنعم الأمير ونعم الفقير، وإذا رأيت الفقير بباب الأمير، فبئس الأمير وبئس الفقير. فقال له ابن تيمية: كان فرعون أنجس منك، وموسىٰ خيرًا منّي، وكان يأتي إلىٰ بابه كل يوم يأمره بالإيمان، وأنا آمرك أن تدفع لهذا حقه، فلم يسعه إلا امتثال أمره، ووفي الرجل حقه(٢).

نعم كما قال بعض الحكماء: «**الملك كالبحر تستمد منه الأنهار فإذا كان عذبًا عذبت، وإن كان مالحًا ملحت**»، وقد روي موقوفًا علىٰ سفيان الثوري: صنفان إذا صلحا صلحت الأمة وإذا فسدا فسدت الأمة:السلطان والعلماء(٣).

والنفع مُتبادل بين العلماء والأمراء وبهذا قام علىٰ الكنيسة والنصارىٰ في المجمع، ونكل بهم، فبلغ منهم مبلغًا عظيمًا، وعاد إلىٰ الجامع، وأهان قومه، وأكثر من الوقيعة في خطيبه، فبلغ ذلك الفخر ناظر الجيش، فاتفق دخول البكري إلىٰ أرغون النائب، فشنع القول علىٰ كريم الدين الصغير ناظر النظار، وعلىٰ كريم الدين ناظر الخاص، وأن ذلك جرىٰ بأمره، فبلغ السلطان فأمر بإحضار القضاة، وفيهم ابن الوكيل، وأحضر البكري فتكلم ووعظ، وذكر آيات من القرآن وأحاديث، واتفق أنه أغلظ في عبارته، وواجه السلطان بقول: أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر. فقال له السلطان وقد اشتدّ غضبه: أنا جائر؟ قال: نعم، أنت سَلَّطْتَ الأقباط علىٰ المسلمين وقويت دينهم، فلم يتمالك السلطان نفسه أن أخذ السيف، وهم بالقيام ليضربه، فبادره أمير طغاي وأمسكه بيده، فالتفت إلىٰ ابن مخلوف وقال: يا قاضي يتجرأ علي هذا!! ما الذي يجب عليه؟ قال: لم يقل شيئًا يوجب عقوبة، فصاح السلطان بالبكري، اخرج عنّي، فقام وخرج، فقال ابن الوكيل: ما كان ينبغي أن يغلظ ويتكلم برفق، فأعجب السلطان، فقال ابن جماعة: قد تجرأ وما بقي إلا من مراحم السلطان، فانزعج أيضًا وقال: اقطعوا لسانه،

(١)انظر ترجمته في الدرر الكامنة ت: ٣٢٦٤، ٣/ ٣٣٧. كان ظالـمًا متعديًا لا يدفع لأحد ثمن ما يشتريه منه إلا بعسر وحيل.

(٢)الدرر الكامنة ت: ٣/ ٣٣٦، ٣٣٧.

(٣)تسهيل النظر وتعجيل الظفر ص٢٥.

فبادر طغاي الدويدار ليفعل، فحضر البكري وارتعد وصاح واستغاث بالأمراء، فرقوا له وألحوا على السلطان في السؤال في أمره، حتى رق وأمر بنفيه، ودخل ابن الوكيل وهو يبكي وينتحب، فظن السلطان أنه أصابه شيء، فقال له: خير خير، قال: البكري عالم صالح لكنه ناشف الدماغ، قال: صدقت، وسكن غضبه وأمر بإخراجه، وكان نور الدين المذكور جوادًا، مقلاً فقيهًا، فاضلاً، مناظرًا، وهو ممن كان يشدد على ابن تيمية لما امتحن بالقاهرة، وذكر الكمال جعفر الأدفوي: أن ابن الرفعة أوصاه أن يكمل شرح «**الوسيط**»، ولنور الدين كتاب «**تفسير الفاتحة**»، وكتاب في البيان، وغير ذلك، قال الذهبي: كان دينًا متعففًا مطرحًا للتجمل، نهّاء عن المنكر، وكان وثب مرة على ابن تيمية ونال منه، وأكثر القلاقل، ومات في شهر ربيع الآخر سنة ٤٢٧هـ[(١)].

هذه سيرة رجل من القرن الثامن لنا منها استفادة:

أولاً: سعى العلماء عند السلطان لفكهم من المصاب الذي وقع بهم، كما سعى الشيخ صدر الدين بن الوكيل لتخليص البكري.

ثانيًا: إنّ السلطان يرق ويستفيد من النصيحة المصاغة بالعبارة الجميلة، والمؤدّية للغرض المنشود، كما أنه يستشيط، وقد يرتكب حماقة (السلطان) عند استخدام العبارة الغليظة ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾﴾[(٢)]، فالهدف من النصيحة هو التذكير، ورجوع المنصوح عن الخطأ الذي هو فيه، وليس التشهير والانتقام؛ لذلك كان على الذي يتحرك في عملية الدعوة، أن يحدد الرسالة التي يريدها ويعمل على تحقيقها، وهذا أمرٌ في علم «**الاستراتيجيات**» له أهميته، بل أصبح تحديد رسالة أي مؤسسة، يحتاج إلى فترة طويلة، ذات مراحل علمية محددة، لتصل الهيئة أو الحركة إلى تحديد رسالتها بصيغة بعيدة عن الهلامية التي لا يمكن لأحد أن يقول: هذا خطأ، وذاك صواب، وفق ميزان عمليّ محدد، بل أصبح الصواب والخطأ مرهونين بقائله ومراكز القوة التي يملكها، وعندما تتضح الرسالة عند صاحبها، يسهل عليه أن يقوم بأدائها، فعندما ارتعد

(١)الدرر الكامنة ت: ٢٩٤١، ٣/ ٢١٤، ٢١٥.

(٢)طه: ٤٤.

البكرىٰ وصاح واستغاث لتخليصه من حكم السلطان، ما استطاع أحد أن يفعل له شيئًا إلىٰ أن كان التصرف الحكيم الذي عمله ابن الوكيل، فجعله الله سببًا في تخليص البكري من محنته.

ثالثًا: إن من يجالس يقول كلمة الحق، وإن كانت علىٰ غير هوىٰ السلطان، فعندما قام السلطان لقتل البكري أراد حكمًا قضائيا، فالتفت إلىٰ ابن مخلوف يريد حكمًا، فكان الجواب علىٰ حكم الشرع لا حكم هوىٰ السلطان، فقال: لم يقل شيئًا يوجب عقوبة!! فكان العلماء رحمهم الله، أداة حفظ للسلطان من أن يقع في الخطيئة، أو أن يرتكب حماقة تؤدي إلىٰ فساد ملكه وشعبه.

رابعًا: إنصاف العلماء بعضهم بعضًا، فهذا الإمام الذهبي ينصف البكري في الثناء عليه، مع أنه ممن تهجم علىٰ شيخ الإسلام ابن تيمية.

*** التحرك لخدمة الناس لا يجتمع مع إيذائهم:**

النصيحة للآخرين لا تعني تقريعهم، بل تعني الأخذ بأيديهم ومساعدتهم، لكي يبتعدوا عن مواطن الخطأ، والسعي معهم في ذلك، فهذا محمد بن محمد البكري أبو عبد الله بن الحاج الغرناطي، قال عنه ابن الخطيب: كان صالحًا شديدًا علىٰ أهل الدنيا، لا تأخذه في الله لومة لائم، كثير النصح للناس، ساعيًا في مصالحهم؛ مات سنة ٥١٧هـ[(١)]، فنصيحة الناس وقوة اللسان والجرأة فيه، هبة من الله سبحانه تُستخدم لخير الآخرين، فإن لم تستخدم لذلك، فلا أقلّ من أن تُحجب عن الشرّ، وهذه هي وصية العلماء بعضهم لبعض، فهذا محمد بن محمد بن عيسىٰ بن معتوق الشيباني القوصي الشاعر، يقول عن نفسه: لمّا دخلت إلىٰ منطقة قوص، قال لىٰ ابن دقيق العيد: أنت رجل فاضل، والسعيد من تموت سيئاته معه، فلا تهجُ أحدًا. قال: فلم أهج أحدًا. فمات رحمه الله بقوص سنة ٧٠٧هـ[(٢)]. كلمة من ذهب «**السعيد من تموت سيئاته معه**» لو استطاع الناس اليوم أن يجعلوها عنوانًا لحياتهم، في وقت تفرح وسائل الإعلام، وتزداد نسبة مبيعاتها في

(١)الدرر الكامنة ت: ٤٤٨٣، ٤/ ٣٥٤.

(٢)المرجع السابق ت: ٤٤٣٢، ٤/ ٣٢٩.

كل سيّئة يقومون على نشرها، بل يبحثون عن عورات الناس، في بيوتهم وأسرهم، ليجعلوها عناوين لصفحاتهم. رحم الله علماءنا، تركنا توجيهاتهم وأخذنا بنزعات نفوسنا.

والعالم إن استطاع أن ينفق من ماله، وإلاّ استخدم وجاهته في ذلك؛ للتخفيف من معاناة الناس، وإنفاق الوجاهة كإنفاق المال، يزيد عند صاحبه إن استعمل في طاعة الله تعالىٰ، وهذا محمد بن عمر بن مكي بن عبد الصمد بن عطية بن أحمد الأموي، صدر الدين بن الوكيل، كان أعجوبة في الذكاء، حفظ المفصل في مائة يوم، وحفظ «**ديوان المتنبي**» في جمعة، والمقامات في كل يوم مقامة، وكان لا يمر بشاهد للعرب إلاّ حفظ القصيدة كلها، وكان نظَّارًا مستحضرًا، أفتىٰ وهو ابن عشرين سنة، وكان لا يقوم بمناظرة ابن تيمية أحد سواه، ومن شدّة علمه وذكائه حسده أقرانه، ومن يعرف سيرته يَرَىٰ كم تعرّض للمهالك بسبب الوشاة، قال عنه العسجدي: كنت معه ليلة عيدٍ، فوقف له فقير فقال: شيء لله، فالتفت إليّ وقال: ما معك؟ قلت: مائتا درهم. قال: ادفعها إليه، فدفعتها إليه ثمّ قلت له: يا سيّدي غدًا العيد، وليس عندي شيءٌ فقال: امضِ إلىٰ القاضي كريم الدين فقل له: الشيخ يهنّئك بهذا العيد. ففعلت فقال: كأنّ الشيخ يعوز نفقة، ادفعوا له ألفي درهم فرجعت بها إليه. فقال لي: الحسنة بعشرة أمثالها(١)، فكما المال لم ينقص من العسجدي، فكذلك الجاه لم ينقص من ابن الوكيل، بل يزداد الحسنة بعشرة أمثالها.

وخدمة الناس من العلماء والدعاة لا تؤثر علىٰ ضبطهم ودقّتهم في فتاويهم؛ فهذا محمد بن الحسن بن محمد الحارثي جمال الدين أبو عبد الله الفقيه الشافعي، ولد في جمادىٰ الآخرة سنة ٨٨٦هـ كان ابن الفركاح شيخه يثني علىٰ فهمه وعلىٰ فتاويه المحررة، ويقال: إنه لم يضبط عليه فتوىٰ أخطأ فيها، وكان كثير المروءة، مقبول القول عند الأكابر، كثير التواضع، معروفًا بقضاء حوائج الناس(٢). ووصفه أنه معروف بقضاء حوائج الناس يدلّ علىٰ كثرة فعله وتحرّكه في ذلك، ومع ذلك لم يُضبط أنه أخطأ في

(١) الدرر الكامنة ت: ٤١٨٢، ٤/ ٢٣٤ ـ ٢٣٨.

(٢) المرجع السابق ت: ٦٣٤٧، ٤/ ٤٤.

فتوىٰ حرّرها. وهذا محمد بن يوسف بن عبد الله الجزري شمس الدين الخطيب، مات في ذي القعدة سنة ٧١١هـ كان عالمًا بالفنون، من الفقه والأصول والنحو والمنطق والأدب والرياضيات، وشرح منهاج البيضاوي، ومع ذلك كان كريم الأخلاق، يسعىٰ في قضاء حوائج الناس، ويبذل جاهه لمن يقصده[1]، فعلمه رحمه الله الذي حازه، وجاهه الذي تحصل عليه بشرف العلوم، لم يختزنه لنفسه، بل بذله لخلق الله والسعي في حوائجهم. والأئمة الكبار يعملون هذا الأمر، ويسعون لخدمة الخلق بدون ضجيج، نعم في كل خير، ولكن أين الإمام من المؤذن، وهذا التفريق هو الذي نوّه إليه محمد بن أحمد المعروف بالمنفلوطي، لمّا سئل أيّهما أفضل الإمام أم المؤذن؟ فقال: ليس المنادي كالمناجي، ومات سنة ٧٧٤هـ[2].

والعالم مع سعيه وعمله يستشعر التقصير دائمًا، فهذا أحمد بن محمد علاء الدين السِّيرامي الحنفي، قال عنه عز الدين بن جماعة: إنه تلقَّف منه أشياء لم يجدها مع نفاستها في الكتب، ولم يزل علىٰ حالته موصوفًا بالديانة والخير، والتواضع وكثرة الأسف علىٰ نفسه، والاعتراف بتقصيره في حق ربه، مات في ثالث جمادىٰ الأولىٰ سنة ٧٩٠هـ- رحمه الله[3].

الإنصاف حتىٰ مع المخالفة:

وهذا قلّ ما نجده اليوم عند عامّة الناس، وحريّ بأهل العلم والفضل أن يدرّبوا أنفسهم علىٰ الإنصاف، لأثره في إشاعة المحبة، وإزالة الفرقة ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾[4]، وما أجمل سلفنا في امتثالهم لهذا الخلق، فهذا علي بن إسماعيل بن يوسف القونوي علاء الدين الفقيه الشافعي كان يقول عن نفسه:

(١) المرجع السابق ت: ٤٦٩١، ٥/ ٦٧.
(٢) المرجع السابق ت: ٣٣٤١، ٣/ ٣٩٥.
(٣) الدرر الكامنة ت: ٧٨٣، ١/ ٣٢٩.
(٤) المائدة: ٨.

عرفت الشر لا للشر لـكـن لتـوقيـه
ومن لا يعرف الشرَّ مـن الخير يقع فـيهِ

وقد ردّ علىٰ أهل الاتحاد من الصوفية في تصانيفه، ولكن ظل هناك ميلٌ عنده إلىٰ محيي الدين بن عربي، ومع ذلك قال الإمام الذهبي: حدثني ابن كثير: أنه حضر مع المزي عند القونوي فجرىٰ ذكر الفصوص لابن عربي، فقال القونوي: لا ريب أن الكلام الذي فيه كفر وضلال، فقال له بعض أصحابه: أفلا يتأوّله مولانا، فقال: لا إنّما يتأوّل كلام المعصوم، وكان يعظّم شيخ الإسلام تقي الدين بن تيمية، ويذبّ عنه، مع مخالفته له وتخطئته له، وعندما تكلم ابن حجلة علىٰ ابن تيمية ردّ الشيخ القونوي، وقال: هذا ما يُفهم من كلام الشيخ تقي الدين. ولهذا قال عنه الإمام الإسنوي: كان صالحًا ضابطًا متثبّتًا كثير الإنصاف، مثابرًا علىٰ تحصيل الفائدة، طاهر اللسان، مهيبًا وقورًا، مات رحمه الله سنة ٧٢٩هـ[١].

*****

(١)المرجع السابق ت: ٣٦٨٤، ٣/ ٩٥.

اللفتة الخامسة
علاقة الداعية والعالم مع أبنائه وإخوانه

إنّ نجاح أي مؤسسة، إنّما يعتمد ـ بعد توفيق الله ـ علىٰ روح الفريق الواحد الذي يشتغل فيه المجموعة، حيث كل واحد منهم يسعىٰ بجهده، فهذا بماله، وهذا بوجاهته، وذاك بفكره وحسن تدبيره، ومن لم يملك ما يعطي فبدعائه وضعفه «**هل تنصرون وترزقون إلا بضعفائكم**»[١]، وهذا الفريق تحكمه علاقات سنحاول أن نلقي الضوء علىٰ بعضها من خلال سير سلفنا في القرن الثامن.

*** التجمل بالأخلاق الكريمة:**

«**إنّما بعثت لأتمّم مكارم الأخلاق**»[٢] هكذا كان الاهتمام بالأخلاق عن طريق الحق، ولمَ لا يكون هذا. وحسن الخلق مع الله يزيد في محبته؟ وكذلك التجمل مع الخلق يقرّبهم إلىٰ بعضهم، فما أصبح الناس يطمع بعضهم ببعض بمالٍ وجاه، فقد انتشر هذا بين الخلق، حتىٰ استغنىٰ الناس عن طلبهما، وظلّ الخلق يطلبون ما هو نادر من الأخلاق؛ ولأهميتّه وتميّزه، كان الوصف من الله سبحانه لنبيه ﷺ ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾[٣].

والأخلاق يتفاضل بها الناس.

وما هذه الأخلاقُ إلا طبائعُ فمنهنّ محمودٌ ومنها مذمَّمُ

فالفاضل من غلبت فضائلُه رذائلهُ؛ فقدر بوقورِ الفضائل علىٰ قهر الرذائل، فسلِم من شَيْنِ النقص، وسَعِد بفضيلة التخصيص[٤].

---

(١) أخرجه البخاري (٢٨٩٦) عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه.

(٢) أخرجه الحاكم (٢/ ٦١٣)، والبيهقي في السنن الكبرىٰ (١٠/ ١٩١)، عن أبي هريرة رضي الله عنه، وصححه الحاكم علىٰ شرط مسلم ووافقه الذهبي.

(٣) القلم: ٤.

(٤) تسهيل النظر وتعجيل الظفر ٦، ٧.

وحسن الخلق عندما يضاف إلىٰ غزارة العلم، يجتمع الخير بعضه إلىٰ بعض، فهذا يوسف بن الزكي عبد الرحمن بن يوسف الحلبي الأصل، المزِّي، أبو الحجاج، جمال الدين الحافظ، كان كثير الحياء، والاحتمال، والقناعة والتواضع، والتودّد إلىٰ الناس، قليل الكلام جدًّا حتىٰ يسأل فيجيب ويجيد، وكان لا يتكثر بفضائله، ولا يغتاب أحدًا، ويتوجه إلىٰ الصالحين ماشيًا، وفيه حياء وحلم، وسكينة واحتمال، وقناعة وتركٌ للتجمّل، وصبر علىٰ من يؤذيه، وكان طويل الروح، رصين الخلق جدًّا، لا يردّ بعنف، ولا يتكثر بفضائله، ولا يكاد يغتاب أحدًا، وكان ذا ديانة وتصون من الصغر وسلامة باطن وعدم دهاء، حسن الصحبة، خيّر الطوية[1].

هذه مجموعة من الأخلاق، جمعت بين علاقة الإنسان مع نفسه وإخوانه وتلامذته، قائمة علىٰ حسن الأدب وصفاء الطوية، وهذا ما جمع عليه في حياته ووقت جنازته، فقد كانت وفاته يوم السبت ٢١ صفر سنة٧٤٢هـ بين الظهر والعصر، وهو يقرأ آية الكرسي، ودفن بالقرب من ابن تيمية، وكان الجمع في جنازته متوفّرًا جدا[2].

هذا هو منهج العمالقة في جمعهم بين العلم والأخلاق، وليتنا نستفيد اليوم من طريقتهم، ونتخلّىٰ عن طريق الجمع بين الجهل وجلافة الأعراب، وإن كان المزّي لا يكفي دليلاً، فهذا سليمان بن حمزة بن أحمد بن عمر بن قدامة المقدسي، القاضي تقي الدين، مسند العصر، قال الذهبي:كان محبًّا للرواية، كثير التلاوة، طيب الأخلاق، صاحب ليل وتهجّد، وصيام وإيثار وسماح، حليم النفس، منبسطًا لقضاء الحوائج، ليّن العريكة، وكان لا ينهر أحدًا، ويصمّم علىٰ مراده بعقل وسكون، وفيه برّ بأقاربه ولطف بالناس، وكان من حلمه أنه لمّا وقعت محنة ابن تيمية في سنة ٧٠٥هـ، وألزم الحنابلة بالرجوع عن معتقدهم وهدّدوا، تلطّف بهم وترفّق، إلىٰ أن سكنت القضية ولم يك شيئًا[3]. صفات لو أردنا أن نقف عند كل واحدة منها، لطال الحديث، ولكنها ومضة خيرٍ حول حلمه، وعدم نهره لأحد، مسألة يحتاجها قادة الدعوة والعلماء اليوم، فطيش

(١)الدرر الكامنة ت: ٥١٢٢، ٥/ ٢٣٣ ـ ٢٣٦.
(٢)المرجع السابق ت: ٥١٢٢، ٥/ ٢٣٦ ـ ٢٣٧.
(٣)المرجع السابق ت: ٨٣٧، ٢/ ٢٤٢.

الشباب وتصرفاتهم الحماسية وأغلاطهم المتكررة، تحتاج من أهل العلم والتربية إلىٰ سعة صدر، وعدم النهر، حتىٰ لا تُكسر روح الشباب عندهم، ولا توهن جذوة الحماس في نفوسهم، ولكن في الوقت نفسه، لا تعالج المشاكل والمحن بروح الاندفاع عند الشباب، بل برجاحة عقول الكبار وتصميمهم، وسكونهم، إلىٰ حين تجاوز المحنة والمشكلة، حيث بها حافظ قاضي الحنابلة ابن قدامة علىٰ العقيدة الصحيحة، والتمسّك بها في محنة أصحابها من غير أن يورد مجاميع الحنابلة السجون والمذابح.

ومجاميع الشباب اليوم، يحتاجون إلىٰ قيادة تأخذ بأيديهم؛ ليجتازوا المؤامرة الدولية علىٰ الإسلام والمسلمين، وعلىٰ الصحوة الإسلامية، وبعد ذلك يفعل الله ما يشاء، ونتيجة لسعيه رحمه الله لحفظ مجاميع الحنابلة، عجّل الله له بالثواب من جنس عمله، فعندما اشتدّ عليه الأمر في وقت «**غازان التتاري**» وأوذىٰ كثيرًا، وخرج من بيته بطاقية علىٰ رأسه، وعليه فروة ما تساوي خمسة دراهم، وفي رقبته حبل، فغاب إلىٰ العشاء وجاء فسئل فقال: أوقدُوا لنا نارًا ليقدمونا، فإذا بصوت وصياح، فذهبوا فنظرت، فإذا أنا وحدىٰ فرجعتُ إليكم(١). وهكذا كان سببًا في نجاة تلاميذه، فأنقذه الله بصوت وصراخ**!!**

*** الصلة وعدم القطيعة مع المخالفة:**

الاختلاف كما أننا ندعو إلىٰ تقليله، ومن ثمَّ قطعه، إلاّ أننا لا ننكره، ونعترف به كواقع بشري، نعمل علىٰ التعامل معه في أقلّ الخسائر، وهذا يحتاج إلىٰ خلق وأدب خاص، يسمّىٰ بأدب الخلاف، كان سلفنا رضوان الله عليهم يتعاملون معه سجية وطبعا.

فهذا إبراهيم بن عبد الرحمن بن إبراهيم بن سباع بن ضياء الفزاري الصعيدي الأصل، كان مع مخالفته لشيخ الإسلام ابن تيمية لا يهجره، ولمّا مات شيّع جنازته وقعد لعزائه(٢).

وهذا محمود بن عبد الرحمن بن أحمد بن محمد بن أبي بكر شمس الدين أبو الثناء الأصبهاني، سمع كلام شيخ الإسلام ابن تيمية، فبالغ في تعظيمه، وقال مرة: اسكنوا،

(١)الدرر الكامنة، نفس الترجمة، ٢/ ٢٤٢.

(٢)المرجع السابق ت: ٨٨، ١/ ٣٥.

حتىٰ أسمع كلام هذا الفاضل، الذي ما دخل البلاد مثله[١].

والتجاذب الذي كان بين ابن تيمية والمزِّي دليل آخر، فعندما تولّىٰ المزّي «**دار الحديث الأشرفية**» بعد ابن الشريشي وباشرها، قال ابن تيمية: لم يلها من حين بنيت إلىٰ الآن أحق بشرط الواقف منه لقول الواقف، وفي المقابل لمّا وقعت المناظرة بين ابن تيمية والشافعية، وبحث مع الصفي الهندي ثم ابن الزملكاني، قام المزّي يقرأ كتاب «**خلق أفعال العباده**» للبخاري، وفيه فصل في الرد علىٰ الجهمية، فتحرك من هو علىٰ مذهب التعطيل ضدّه، وأكثروا الوشاية فسُجن، فتوجه إليه شيخ الإسلام ابن تيمية وأخرجه من السجن. وهكذا كانوا يتناصرون، مع أنهم قد يختلفون فيما بينهم من المسائل، وهم لا يُصرّون علىٰ الخطأ إن تبيّن، فنرىٰ أنّ الإمام المزي كان قد صحب التلمساني الصوفي، فلمّا تبيّن له ضلاله هجره[٢].

*** العلماء الكبار رحمة علىٰ إخوانهم العلماء:**

العلماء والدعاة الكبار، يحتاجون إلىٰ من يعينهم علىٰ مواصلة الطريق، ويخفّف عنهم الوحشة الحاصلة من الغربة التي يعيشها المسلم، كلما ابتعد عن القرون الخيرة «**بدأ الإسلام غريبًا وسيعود غريبًا كما بدأ فطوبىٰ للغرباء**»[٣]. وهذه المعادلة عرفها الكبار من سلف الأمة رحمهم الله، والذين منهم عمر بن عمران بن صدقة البَلاّلي بن هشام بن عبد الله بن مروان الأموي زين الدين البدوي، مع قوة إيمانه وعبادته وصلته بالله سبحانه، لدرجة أنّ ملك التتار اتّهمه بمكاتبة المصريين بأخبارهم، فألقاه إلىٰ الكلاب ومعه آخر، فأكلت الكلاب رفيقه ولم تؤذه، وكان في تلك الحالة ملازمًا للذكر[٤]، فعظم في أعينهم، وأكرموه وأقام معهم مدّة يجاهد المبتدعة، ثمّ قدم دمشق، وعملت له مكيدة، فسُجن بقلعة دمشق حين كان شيخ الإسلام ابن تيمية بها، وهنا بدأ شيخ الإسلام بدوره

(١)المرجع السابق ت: ٤٧٥٢، ٥/ ٩٥.

(٢)المرجع السابق ت: ٥١٢٢، ٥/ ٢٣٤.

(٣)الحديث أخرجه مسلم (١٤٥) عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٤)حدثني الثقات أن مثل هذا الأمر مع الكلاب حدث للحاجة زينب الغزالي عندما تعرضت للتعذيب، وأطلقت عليها الكلاب في السجن.

كأخٍ كبير في التخفيف عن أخيه، فكان ممّا قاله له:

لا تفكرن وثق بالله إن لـــهُ ألطاف دقّت عن الأذهان والفطن
يأتيك من لطفه ما ليس تعرفهُ حتىٰ تظن الذي كان لم يكن[١]

والاستفادة منهم متبادلة، قال المزِّي: ما التقيت مع ابن قدامة إلاّ استفدت منه[٢]، وحتىٰ إن كان بينهم نقد، فإنّما يؤخذ كدافع للإتقان والإبداع، فهذا محمد بن علي بن عبد الواحد الدَّكَّالي ثمّ المصري، أبو أمامة بن النقَّاش، عندما شرع في إلقاء التفسير في الجامع الأزهر في شهر رمضان فأكمله، بلغه أنّ بعض الناس استقصر علمه، ففهم أنّ هذه رسالة له للإبداع والإتقان، فشرع في إملاء تفسير علىٰ الفاتحة، فأقام فيه مدّة طويلة، ثمّ شرع في كتاب التفسير، والتزم ألاَّ ينقل فيه حرفا عن كتاب تفسير أحدٍ مّمن تقدّمه[٣]. وهكذا كانت الملاحظة علىٰ تفسيره دافعًا لأن تستفيد الأمّة من غزارة علمه وفضله.

*** علاقة الود تحكم العالم والمتعلم:**

إنّ العلاقة القائمة بين العالم وطلبته، وقائد الدعوة وتلامذته، مبنيّة علىٰ الاستفادة والنماء، وهذه لكي تتحقّق، لابدّ من وجود الألفة بين الطرفين، وعدم الكلفة، كما قال جعفر الصادق رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: أحبّ إخواني إليّ من إذا كنت معه كنت مع نفسي، وهذا نراه واضحًا في سير سلفنا رضوان الله عليهم، فهذا محمد بن أحمد بن إبراهيم الحرّاني المعروف بابن القزاز، جاء في ترجمته أنه كان زاهدًا كثير التلاوة، صاحب نوادر ودعابة[٤]، والعالم يهتم بالجميع، فلا يدري أيّ التلاميذ من الممكن أن يحمل علمه وينشره، وبه يدخل الجنّة، فقد يكون الضعيف اليوم غنيا صاحب جاه في الغد، يروّج للمذهب وللعلم الذي أخذه، وينشره بماله وجاهه، وحقا بيّن التاريخ ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ۝٣﴾[٥]، ولهذا وجدنا أن الإمام عبد الرحيم بن الحسن بن علي بن عمر بن علي بن

(١)الدرر الكامنة ت: ٣٠٤٧، ٣/ ٢٥٧.
(٢)المرجع السابق ت: ٣٠٤٧، ٣/ ٤٢٢.
(٣)المرجع السابق ت: ٤٠٧٣، ٤/ ١٩٠.
(٤)المرجع السابق ت: ٣٤٥٤، ٣/ ٤٤٤.
(٥)عبس: ٣.

إبراهيم الأموي الإِسْنَوي، صاحب التمهيد و«**الكواكب**»، كان فقيهًا ماهرًا، ومعلمًا ناصحًا، ومفيدًا صالحًا، مع البر والدين، والتودد والتواضع، وكان يقرّب الضعيف المستهان، ويحرص علىٰ إيصال الفائدة للبليد، وكان ربّما ذكر عنده المبتدئ الفائدة المعروفة، فيصغي إليه كأنه لم يسمعها؛ جبرًا لخاطره، وكان مثابرًا علىٰ إيصال البر والخير لكل محتاج، مع فصاحة العبارة وحلاوة المحاضرة، وقد أورثه هذا الخلق قبولاً في الأرض واضحًا، قال بدر الدين الزركشي: كانت جنازته مشهودة تنطق له بالولاية[(١)].

والعلماء مع هذا الاهتمام العام بكل الطلبة كانوا يخصون النابهين بشيء من الاعتناء؛ لأنهم هم القادة الكبار في المستقبل. فهذا الصفدي يتحدث عن محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان الغرناطي، أبو حيان الأندلسي المولود في أواخر شوال سنة ٤٥٦هـ، فيقول عنه: لم أره قط إلا يسمع أو يكتب أو ينظر في كتاب ولم أره علىٰ غير ذلك، وكان له إقبال علىٰ أذكياء الطلبة يُعظمهم وينوّه بقدرهم[(٢)].

ونحن نرىٰ أن العلماء رحمهم الله يجتهدون في التحصيل والتمكّن من العلم، لكي يسهل عليهم التدريس والتعليم، وإيصال المعلومة إلىٰ المتعلّمين، كما أن محمد بن شرف ابن عادىٰ الكلائي، كان حسن التعليم جدًّا، منطرح النفس علىٰ طريق السلف، يقرّب المساكين ويعَلّمهم، وكان أعجوبة في تعليم العربية، يعلّمها للطالب بسرعة، بحيث يرتفع عن درجة من يلحن، ومن نظمه:

سألت الله خلاّقي بنور جماله الباقي
بأن يغفر زلاّتي ويُحسِنَ سوء أخلاقي[(٣)]

وعلاقة الود هذه تستلزم من العالم بقاء مواطن القدوة وتحملها، فهذا محمد بن علي الأنصاري الحفّار الغرناطي، بقي نحوًا من عامين أو يزيد، يخرج للصلوات الخمس يهادىٰ بين رجلين لشيءٍ كان برجله، حتىٰ كان بعض أصحابه يقول: الحفّار حجة الله

(١)الدرر الكامنة ت: ٢٣٨٦، ٢/ ٤٦٤.
(٢)المرجع السابق ت: ٤٦٩٣، ٥/ ٧٠.
(٣)المرجع السابق ت: ٣٧٣٩، ٥/ ٧٣.

علىٰ من لم يحضر الجماعة[(١)]. وحقًّا فعل الحفّار يُغني عن مائة موعظة عن أهمية ووجوب صلاة الجماعة، عامين كاملين! بالتأكيد أن الأمر لم يكن تصنّعًا، بل أصبح سجيّة وطبيعة له في حياته، كالمنام والطعام، وهكذا مواطن القدوة مكلفة لصاحبها، مربحة في نتيجتها، مؤثرة في بنائها.

*** زاد في الطريق:**

العالم أو الداعية يحتاج إلىٰ زاد يُعينه علىٰ مواصلة الطريق، فالتحرك في المجتمعات التي خالطتها الجاهلية، في كثير من ميادينها، ينحت من زاده الإيماني وحصيلته الروحية؛ لذلك هو يحتاج إلىٰ الاستمرارية في عملية التزوّد، ليظلّ العطاء الدّعوي والعلمي مغلفًا بإطار تربوي روحي، يُعطي للكلمة أثرها، وللتوجيه جماله، والزاد الإيماني له ميادين كثيرة، وطرائق مختلفة يستفيد منها العالم، ومن هذه الميادين التفكّر في خلق الله، وبديع صنعه، كما بيّن الله جل وعلا: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾﴾[(٢)] آيتان عظيمتان ووقعهما كبير، كما قال النبي ﷺ لبلال: «**ويلٌ لمن قرأها يا بلال ولم يتفكر**»[(٣)]. هذا الكون الفسيح الذي يعيشه المسلم، في كل نظرة عبرة وآية علىٰ عظيم صفات الله سبحانه، فلو شغل المسلم تفكيره دائمًا بما يراه من حوله، لكان زاده عظيمًا من غير جهدٍ ولا وقت؛ فهو يأكل الفاكهة في كل يوم، فلو نظر إلىٰ الثمرة وكيف كانت بذرة، ثمّ كانت شجرة، ثمّ جاءت الثمرة، ثمار مختلفة، سقيت بماءٍ واحد، فضّل الله بعضها علىٰ بعض في الأكل، ومثل ذلك كثير حول الإنسان، وبهذا قال شرف الدين محمد ابن الصاحب زين الدين أحمد بن الصاحب بهاء الدين رحمه الله، يقول: كان ابن دقيق العيد يقيم في منزلنا بمصر في غالب الأوقات، فكنّا نراه في الليل إمّا مصلّيًا، وإمّا ماشيًا في جوانب البيت، وهو مفكر

(١)الدرر الكامنة ت: ٤٠٨٧، ٥/ ٩٩.
(٢)آل عمران: ١٩٠، ١٩١.
(٣)سبق تخريجه .

إلىٰ طلوع الفجر، فإذا طلع الفجر صلىٰ الصبح، ثمّ اضطجع إلىٰ ضحوه[(١)].

كما أنه من المعين الصافي، الذي يعين المرء علىٰ مواصلة الطريق، المحافظة علىٰ العبادة، وسير سلفنا في ذلك كثيرة، فهذا محمد بن علىٰ بن أبي بكر بن الأصفر قال ابن الخطيب عنه: كان فقيهًا ورعًا زاهدًا، كثير العبادة علىٰ سنن الصالحين، مات في آخر سنة ٤٤٧هـ عن مرض أصابه أنهك جسمه، ولم ينُقص من وظائف العبادة شيئًا، حتىٰ إنه انصرف من بعض الصلوات، فسقط، واحتمل خطىٰ يسيرة، وقضىٰ نحبه[(٢)]. وهذه العبادة هي زاد العلماء الكبار؛ ولتأكيد ذلك، لننظره في وصف ابن كثير لابن القيم رحمهما الله قال: كان ملازمًا للاشتغال ليلاً ونهارًا، كثير الصلاة والتلاوة، حسن الخلق، كثير التودد، لا يحسد ولا يحقد، ولا أعرف في زماننا من أهل العلم أكثر عبادة منه، وكان يطيل الصلاة جدًّا، ويمد ركوعها وسجودها، وكان إذا صلىٰ الصبح، جلس مكانه يذكر الله حتىٰ يتعالىٰ النهار، ويقول ابن القيم عن هذه الفترة من الذكر: هذه غدوتي لو لم أقعدها سقطت قواي[(٣)].

وهذا الذكر كما هو نافع للإنسان في الدنيا كذلك له أنسٌ في حياة الوحشة والانفراد في القبر، قال سيد الدين بلبان الحسامي: خرجت يومًا إلىٰ الصحراء، فوجدت ابن دقيق العيد في الجبانة واقفًا يقرأ، ويدعو ويبكي، فسألته عن حاله فقال: صاحب هذا القبر كان من أصحابي، وكان يقرأ عليّ فمات، فرأيته البارحة فسألته عن حاله فقال: لمّا وضعتمونىٰ في القبر جاءني كلب أنفط كالسبع، وجعل يروعني، فارتعبت فجاء شخص لطيف في هيئة حسنة، فطرده، وجلس عندي يؤنسني، فقلت: من أنت؟ قال: أنا ثواب قراءتك سورة الكهف يوم الجمعة[(٤)]. وهذه الصلة بالله سبحانه أوجدت نوعًا من العزلة عن الدنيا وبهرجها، فهذا محمد ابن صالح الحموي: كان يلازم العبادة لا يعبأ بالدنيا،

(١)الدرر الكامنة ٤/ ٢١٣.
(٢)المرجع السابق ت: ٤٠٩٧، ٤/ ٢٠٣.
(٣)الدرر الكامنة ت: ٣٥٨٦، ٤/ ٢١.
(٤)المرجع السابق ٤/ ٢١٤.

وأقام مدة لا يأكل لحمًا ولا فاكهة، ومات علىٰ ذلك سنة ٤٣٧هـ[١].

وهذا الزاد يتحصل للمسلم بصفاء نيته لله سبحانه، فتحصل البركة، ومن سيرة محمد بن علي بن عمر بن يحيىٰ الغسَّاني نعرف ذلك قال عنه ابن الخطيب: كان من أهل العلم والدين كثير الحياء والتبسم حسن السمت له عناية بالقراءات والعربية، مبارك النية حسن التعليم[٢].

*****

(١)المرجع السابق ت: ٣٧٤٨، ٤/ ٧٧.
(٢)المرجع السابق ت: ٤٠٨٢، ٤/ ١٩٦.

اللفتة السادسة
نصرة الحق قضاء محتوم والخلق قدر من أقدار الله

ليس من الشك أن انتصار هذا الدين آية من آيات الله لا تتخلّف، ولكن عندما يحين الزمان الذي قدره الله تعالىٰ: ﴿ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغۡلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓ ﴾[1]، ﴿ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾ ﴾[2]، «**والله ليتُمَّنَّ الله هذا الأمر**»[3]، ولهذا كان علىٰ الداعية ألا يتعسّف الخطىٰ، ويستخدم الحكمة التي لا يؤتاها إلا ذو حظٍّ عظيم، ويتأسّىٰ برسوله ﷺ وسلف هذه الأمة، ويستحضر وقوفه بين يدي الله سبحانه ﴿ يَوۡمَ لَا يَنفَعُ مَالٞ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنۡ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلۡبٖ سَلِيمٖ ﴿٨٩﴾ ﴾[4].

يهيئ الله للأمة رجالاً يحفظون عليها أمر دينها:

اقتضت حكمة الله تعالىٰ، أن ينتصر هذا الدين بالجهد البشري، وأن يتحمل الأنبياء والدعاة المعاناة، من أجل تمكين هذا الدين في أرض الله، مع أنّ أمر الله سبحانه قائم بين الكاف والنون، واختراق السنن الكونية وارد، فهذه النار لم تحرق إبراهيم عليه السلام، أمّا نبيّنا محمد ﷺ، ففي حادثة الإسراء والمعراج، تعطلت السنن الكونية في مواطن متعددة، وعند النظر في الأزمنة والأمكنة، تجد أن هناك رجالاً يُصنعون لتحمل الأمانة، فتكون لهم مواصفات قد يجد الإنسان أنّها ضرب من الخيال. ولننظر إلىٰ شيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن تيمية الحرّاني ثمّ الدمشقي الحنبلىٰ تقي الدين أبو العباس، قرأ بنفسه ونسخ سنن أبي داود، وفصل الأجزاء، ونظر في الرجال والعلل، وتفقه وتمهّر وتميّز، وتقدّم وصنّف، ودرّس وأفتىٰ، وفاق الأقران، وصار عجبًا في سرعة الاستحضار، وقوة الجنان، والتوسع في المنقول

---

(١) المجادلة: ٢١.

(٢) الصافات: ١٧٣.

(٣) الحديث قطعةٌ من حديث خباب بن الأرت رضي الله عنه أخرجه البخاري (٣٨٥٢).

(٤) الشعراء: ٨٨، ٨٩.

والمعقول، والاطلاع علىٰ مذاهب السلف والخلف[1]. بهذه المواصفات وأكثر من ذلك مذكور في كتب التراجم من مواصفات حق له أن يكون مجددًا، وهذا أحمد بن إبراهيم بن الحسن القنائي، اشتغل في العلم وهو ابن ثلاثين سنة، وتفقّه وقرأ النحو وغيره، حتىٰ مهر، وشغل الناس ببلده، وكان يحفظ أربعمائة سطر في يوم واحد، ثم أقبل علىٰ الطاعة ولازم الطاعة إلىٰ أن مات في سنة ٨٢٧[2]، وهؤلاء يتعرض لهم من قبل الأقران في زمانهم، لا لعلمهم وصدقهم ومكانتهم، بل في الغالب لحسدٍ شخصي لهم في الغالب يردّ علىٰ صاحبه، فهذا والد الشيخ جمال الدين بن الظاهري يكتب كتابًا لبعض معارفه في دمشق يبيّن الحملة الشرسة التي تعرّض لها شيخ الإسلام ابن تيمية فيقول: وكان من أعظم القائمين عليه الشيخ نصر المنبجي لأنه كان بلغ ابن تيمية أنه يتعصب لابن العربي، فكتب إليه كتابًا يعاتبه علىٰ ذلك، فما أعجبه لكونه بالغ في الحط علي بن العربي وتكفيره، فصار هو يحط علىٰ ابن تيمية، ويغري به بيبرس الجاشنكير، وكان بيبرس يفرط في محبة «**نصر المنبجي**» ويعظمه[3].

وإليك القصة التي تبين أسلوب بعض الناس مع العلماء، وتبين ما يجب علىٰ العالم من السماحة وسعة الصدر، في مواجهة هذا الصنف من الناس، أحمد بن عبد الدائم بن يوسف بن قاسم بن عبد الله بن عبد الخالق بن ساهل أمره، الكتاني شهاب الدين الشرَّمساحي أبو يوسف الشاعر، ولد سنة ٣٦٦هـ وتعاني النظم فمهر وكان عالي النفس، وله مروءة، ولم تكن طريقته محمودة، روىٰ عنه من شعره أبو الفتح اليعمري وأبو حيان وغيرهما منهم السبكي، وكان شاعرًا مشهورًا مولعًا بالهجاء، حتىٰ إنه لمّا دخل دمشق، قدم لقاضيها شهاب الدين الخوئي قصيدة هجو فردّها إليه، وقال: كأنك ذاهل، قال: بل لست بذاهل، بل صنعت ذلك عمدًا لأشتهر، لأني رأيت الناس اجتمعوا علىٰ الثناء عليك، فرأيت أن أخالفهم، فإني لو مدحتك، فأعطيتني لم يشعر بي أحد، فإذا هجوتك

(١) الدرر الكامنة ت: ٤٠٩، ١/ ١٥٥.
(٢) الدرر الكامنة ت: ٢٢٩، ١/ ٨٨.
(٣) المرجع السابق ت: ٤٠٩، ١/ ١٥٧.

وعزرتني يقال: ما هذا؟ فيقال: هذا غريم القاضي فأشتهر[(١)].

ووالله لا أعرف ممَّ أتعجّب: من منهجية أحمد بن عبد الدائم في طلب الشهرة، أم من حكمة القاضي شهاب الدين!!.

وهذه صورة أخرىٰ، عن كيفية التحول من الحب إلىٰ التهجّم، للاختلاف في وجهات النظر، وهي إن كانت في السلف قليلة، ففي أيامنا هذه لا حصر لها وتصل إلىٰ درجة أن الإنسان يتعجّب لدرجة الضحك علىٰ طبيعة الأنفس وتقلّبها، وإليكم قصة محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان الغرناطي، أثير الدين أبو حيان الأندلسي. ولد في أواخر شوال سنة ٤٥٦هـ، كان ظاهري المذهب، فلما قدم القاهرة، ورأىٰ مذهب الظاهر مهجورًا فيها، تمذهب للشافعي وقرأ علىٰ العلم العراقي في «**المحرر**» وفي «**المنهاج**»، ثمّ درس «**المنهاج**»، فحفظه إلاّ يسيرًا منه، قلت: ونسخه بخطه، ورأيته، ثم اختصره، وقرأ شيئًا من أصول الفقه علىٰ أبي جعفر بن الزبير في «**الإشارة**» للباجي، ومن «**المستصفىٰ**»، وقرأ في أصول الدين علىٰ ابن الزبير أيضًا، وقرأ شيئًا في المنطق علىٰ بدر الدين محمد بن سلطان، وقرأ عليه في «**الإرشاد**» للعميدي في الخلاف، وبرع في النحو، إلىٰ أن صار لا يُعرف إلا به، وكان عربيًّا من الفلسفة، بريئًا من الاعتزال والتجسيم، متمسكًا بطريقة السلف، وكان يعظم ابن تيمية، ومدحه بقصيدة، ثمّ انحرف عنه، وذكره في «**تفسيره**» الصغير بكل سوء، ونسبه إلىٰ التجسيم، فقيل: إنّ سبب ذلك أنّه بحث معه في العربية فأساء ابن تيمية علىٰ سيبويه، فساء ذلك أبا حيّان وانحرف عنه؛ وقيل: بل وقف له علىٰ كتاب العرش، فاعتقد أنه مجسّم؛ وأكثر من سماع الحديث، حتىٰ بلغت عدة شيوخه أربعمائة، وأجاز له جمع جم، وقد جمعهم في كتاب «**البيان في شيوخ أبي حيان**»، فبلغوا ألفًا وخمسمائة، وتصانيفه تزيد علىٰ خمسين[(٢)].

وللأسف الشديد إنه في الغالب يكون صنف العلماء العمالقة هؤلاء، متخوفًا منهم من قبل أصحاب الجاه والسلطان، لأنهم يظنون خطأ أن منهم يأتي الخطر، مع أن الحقيقة

(١)المرجع السابق ت: ٤١١، ١/ ١٧١.
(٢)الدرر الكامنة ت: ٤٦٩٣، ٥/ ٧٥.

والتجربة تقول: إنهم أداة الأمن والضبط العلمي، لكل التهوّرات التي من الممكن أن تحدث نتيجة للتجاوزات الشرعية التي تحدث في المجتمع، ولهذا يسعىٰ المنتفعون وأصحاب المصالح، إلىٰ استخدام قوة السلطان في عملية الإرهاب الديني، عندما تنقطع الحجة ويضعف الدليل، ولننظر معًا إلىٰ ابن تيمية ـ رحمه الله ـ عندما تمت الوشاية عليه وادعىٰ عليه، وحكم القاضي المالكي بحبسه، فأخذ من المجلس، وحبس في البرج، ثم بلغ المالكي أن الناس يتردّدون إليه، فقال: يجب التضييق عليه إن لم يقتل، وإلاّ فقد ثبت كفره، فنقلوه ليلة عيد الفطر إلىٰ الجب، وعاد القاضي الشافعي إلىٰ ولايته، ونودي بدمشق من اعتقد عقيدة ابن تيمية حلّ دمه وماله خصوصًا الحنابلة، فنودي بذلك، وقرئ المرسوم وقرأها ابن الشهاب محمود في الجامع، ثم جمعوا الحنابلة من الصالحية وغيرها، وأشهدوا علىٰ أنفسهم أنهم علىٰ معتقد الإمام الشافعي[1].

ومع هذا الحسد وهذا التحرك ضد عمالقة العلم، يظل قدر الله نافذًا في أنهم حفظة لهذا الدين، ويقوم بنصرتهم العلماء والفحول، ففي الوقت الذي كان القاضي المالكي يكيد للشيخ ابن تيمية، كان قاضي الحنفية بدمشق وهو شمس الدين ابن الحريري ينتصر لابن تيمية، حتىٰ إنه كتب في حقه محضرًا بالثناء عليه بالعلم والفهم، وكتب فيه بخطه ثلاثة عشر سطرًا من جملتها «**إنه منذ ثلاثمائة سنة ما رأىٰ الناس مثله**»[2] أمَّا البيان الواضح لهؤلاء الكبار، فهو يوم الجنائز، قال الشيخ شهاب الدين الأذرعي: إنه حضر جنازة شيخ الإسلام ابن تيمية، وإن الناس خرجوا من الجامع من كل باب، وخرجت من باب البريد، فوقعت سرموزتي فلم أستطع أن أستعيدها، وصرت أمشي علىٰ صدور الناس ثم لما فرغنا ورجعت، لقيت السرموزة وذلك من بركة الشيخ رحمه الله[3].

*** من أسباب انتصار الحق رجوع العلماء للحق:**

العلماء هم حماة العدل والحق في الأرض، وقد جعلهم الله مع الأمراء حراسًا للعدل

(١)المرجع السابق ت: ٤٠٩، ١/ ١٥٧.
(٢)الدرر الكامنة ت: ١/ ١٥٧.
(٣)المرجع السابق ت: ١/ ١٧٠.

والحق، فلزمهم الامتثال والانصياع للحق مبتدئين مع أنفسهم، ولا يضرهم من أي أحد جاء الحق، فهذا تقي الدين السبكي يقول عنه الإمام الإسنوي في «**الطبقات**»: كان أنظر من رأيناه من أهل العلم، ومن أجمعهم للعلوم، وأحسنهم كلامًا في الأشياء الدقيقة، وأجلهم علىٰ ذلك، وكان في غاية الإنصاف والرجوع إلىٰ الحق في المباحث، ولو علىٰ لسان آحاد الطلبة[١]. هكذا كانوا رحمهم مع الله مع جلالة علمهم، وقافين عند الحق وأهله، وهذا علاء الدين بن العطار مع القاضي الأفرم دليل آخر في النزول علىٰ الحق، والأمر به مع الصدق، قال قاضي صفد: إنه حضر دار العدل فرأىٰ علىٰ الأفرم قباء حريريًّا وخاتم فضة ودواة مذهبة فقال: إذا سألني الله عن هذا ما حُجتي إذا قال لي: لم لم تقل له: إن هذا حرام بالإجماع، وبكىٰ، فأبكىٰ الحاضرين والأفرم، وبادر إلىٰ نزع القباء والخاتم واستبدل بهما وبالدواة، قال: فكان آمرًا بالمعروف، قائمًا بالحقوق، كثير الإيثار، عظيم التواضع، رحمه الله، ومات في صفر سنة ٣٠٧هـ[٢].

وقولة الحق لا تُنقص من الرزق والأجل، فالآجال مضروبة والأرزاق مقسومة، فالله سبحانه أول ما أمر القلم أن يكتب، أمره بذلك، وهذا الفقه كان يعرفه الفحول من الرجال، فيمارسونه واقعًا في حياتهم؛ فمحمود بن علي بن هلال العجلوني، ولد بعد السبعمائة، نقم عليه أبو البقاء لموافقة ابن تيمية في مسائله، فبلغ العجلوني، ذلك، فكتب إلىٰ أبي البقاء: إن الله أعطاني من العلم ما يكفيني لديني، ومن الرزق ما يكفيني، ومن العمر فوق ما يتذكر فيه من تذكر[٣]. هكذا يكون التمسّك بالحق، وبهذا الوضوح نقطع علىٰ المرجفين الطريق.

*** أهل الدعوة والعلم يلتقون مع بعضهم البعض لنصرة الحق:**

الحق لابدّ له من معين ولكي ينتشر يلزم أن يتحرك الجميع وأن يضع كل واحد ما عنده من الحق والجهد، وأن يتناسىٰ المتخاصمون في الأمور الشخصية والفرعية ما

(١) المرجع السابق ت: ٣/ ١٤١.
(٢) المرجع السابق ت: ٢٢٣٧، ٢/ ٤١٢.
(٣) المرجع السابق ت: ٤٧٦٢، ٥/ ٩٩.

بينهم، من أجل إنجاح المشروع الإسلامي الكبير، فالأمر الذي يعالج اليوم من الأمة الإسلامية أكبر من أن تتفرّق فيه الجهود، انظروا من أجل ألاَّ تُسفك الدماء في بيت الله الحرام، أعطىٰ النبي ﷺ لأبي سفيان رضي الله عنه مكانة اجتماعية، «**من دخل دار أبي سفيان فهو آمن**»(١)، لو أعطيت اليوم لعالم فذٍّ يدخل جديدًا إلىٰ الحركات الإسلامية، لأدّىٰ ذلك إلىٰ مشاكل قد تصل إلىٰ شق الصف الواحد، نعم إنه فقه الموازنات الذي غاب عن الساحة الدعوية اليوم، إلاّ ما ندر، غاب مع ضجيج الخطابات الرنّانة، والصراخ العاطفي المؤقت، فالعلماء يأخذ بعضهم من بعض، من غير تكبر لسنّ أو لشهرة فهذا عبد الله بن المؤمن بن الوجيه بن عبد الله بن علي بن المبارك الناصر الواسطي تاج الدين، ويقال: نجم الدين المغربي، ولد سنة ١٧٦هـ، قال عنه الذهبي في «**طبقات القراء**»: له كتاب نفيس في القراءات العشر، اسمه «**الكفاية**» ونظمها، وقد أثنىٰ عليها البرهان الجعبري، وهو أكبر منه، وقال الذهبي: أخذ عني، وأخذت عنه، وأقرأ الناس ببغداد وواسط والبصرة والبحرين وهرمز وجزيرة قيس ومكة والشام، وغيرهما من البلاد، وكان تاجرًا سفّارًا(٢).

وأهل الفضل مع اختلافهم يظل يشهد بعضهم لبعض، فبهذا يُحفظ الدين ويستفاد من الجميع، وهذا عين العقل الذي نحتاجه اليوم ومثل هذا في سير سلفنا رضوان الله عليهم كثير، نسوق ما ورد من سيرة محمد بن أحمد بن عبد الله بن محمد بن يحيىٰ بن سيد الناس أبي الفتح فتح الدين اليعمري الشافعي الحافظ العلاّمة الأديب المشهور، ولد في ذي القعدة سنة ١٧٦هـ، وكان من بيت رياسة في بلاده، قال عنه القطب: إمام محدّث حافظ أديب شاعر بارع، جمع وألف وخرج وأتقن، وصارت له يد طولىٰ في الحديث والأدب مع الإتقان، ثبت فيما ينقل ويضبط، من أحسن الناس محاضرة، وقال ابن فضل الله: كان أحد أعلام الحفاظ، وإمام أهل البلاغة الواقفين بعكاظ بحر مكثار، وحبر في نقل الآثار، وله أدب أسلس قيادًا من الغمام بأيدي الرياح، وأسلك مرارًا من

---

(١) سبق تخريجه.
(٢) الدرر الكامنة ت: ٢١٦٣، ٢/ ٣٧٦.

الشمس في خيمة الصباح، فانظر كلام من يشهد الصفدي له، مع أنه كان منحرفًا عنه فالفضل ما شهدت به الأعداء، وقال الصلاح الصفدي: كان حافظًا بارعًا، متفننًا في البلاغة ناظمًا ناثرًا مترسلاً. حسن الخط جدًّا، حسن المحاورة، لطيف العبارة، أخبرني عماد الدين بن القيسراني قال: كان ابن دقيق العيد إذا حضرنا درسه وجاء ذكر أحد من الصحابة والرجال قال: إيش ترجمة هذا يا أبا الفتح. فيأخذ في الكلام ويسرد، والناس سكوت، والشيخ مصغ إلىٰ ما يقال. قال: وكان صحيح القراءة، سريعًا، لم أسمع أفصح منه ولا أسرع[1].

والشهادة لأهل الفضل وحفظ مكانتهم، حفظ للإنسان من عقوبة التعرض لهم، فلحوم العلماء مسمومة، وعادة الله في انتهاك منتقصيهم معلومة، والتحذيرات في التاريخ كثيرة، وفي زماننا رأينا منها شيئًا، وننتظر أن نرىٰ فيمن يتلذذون بغيبة العلماء أمرًا آخر إن لم يتوبوا إلىٰ الله سبحانه، ومن تاريخ المائة الثامنة محمد بن عبد الله بن أبي بكر الحنيثي النزاري الصرَّدفي الأصل، ثم الزبيدي، القاضي الفقيه الشافعي، ولد سنة عشر وسبعمائة، شرح «**التنبيه**» في أربعة وعشرين مجلدًا، أهداه للملك الأشرف صاحب اليمن، فأثابه عليه بأربعة وعشرين ألف دينار، درس وأفتىٰ، وكثرت طلبته ببلاد اليمن، واشتهر ذكره وبعد صيته، قال الجمال المصري: إنه شاهده عند وفاته وقد اندلع لسانه واسود، فكانوا يرون أن ذلك بسبب كثرة وقيعته في الشيخ محيىٰ الدين النووي رحمهم الله جميعًا[2]. وهذا في التاريخ كثير؛ وضبط النفس بعدم الغيبة والوقيعة بالآخرين أمرْ نحتاجه جميعًا، بعد أن تعودّت ألستنا علىٰ ذلك، وأصبحت الغيبة فاكهة مجالس بعض الدعاة؛ والداعية قد يضبط نفسه بعدم الغيبة، ولكنه يصعب عليه أن يلزم مجلسه بعدم ذكر الآخرين فيه، فهذا أمر لا يستطيعه إلا من أعانه الله، فهذا محمد بن إدريس بن محمد القمولي نجم الدين الفقيه الشافعي أحد الفضلاء النبلاء، كان يستحضر الروضة، وأكثر شرح مسلم، و«**الوجيز**» للواحدي، مع المشاركة في العربية والأصول والحساب، وكان لا يستغيب

(١)المرجع السابق ت: ٤٤٣٧، ٤/ ٣٣٢.
(٢)الدرر الكامنة ت: ٣٨٢٣، ٤/ ١٠٦.

أحدًا، ولا يمكن أحدًا يستغيب بحضرته، مع ملازمة الاشتغال والأمر بالمعروف والتقلل من الدنيا، حج وزار، وعاد إلىٰ قوص، فتوفي بها في جمادىٰ الأولىٰ سنة ٩٠٧هـ[١].

*** حرمة الدين والرسول مصونة بحفظ الله:**

لله ملك السموات والأرض، ختم كتبه بالقرآن وحفظه بفضله ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾ ﴾[٢]. وأرسل رسوله ﷺ وتكفل بحفظ حرمته حيًّا وميتًا ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ﴾[٣]، ﴿ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُ ﴾[٤]، ﴿ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ﴾[٥]، وهذه حقيقة لا ريب فيها، ولذلك المسلم يتحرك في العمل الإسلامي، في نفس راضية مستقرة من غير اضطراب ولا فزع ﴿ وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾[٦]، والأمثلة علىٰ ذلك لا حصر لها، وسنسوق هنا من المائة الثامنة من أجل طمأنة النفوس علىٰ بقاء حرمة النبيﷺ، ولو كتب ألف رشدي من اليهود وأعوانهم. علىٰ بن مرزوق بن أبي الحسن الرَّبعي السُّلامي زين الدين، أصله من الموصل، ولد سنة ٦٥٠هـ، وتعاني التجارة، ذكر عن جمال الدين إبراهيم بن محمد الطيبىٰ، أن بعض أمراء المغل تنصر، فحضر عنده جماعة من كبار النصارىٰ والمغل، فجعل واحد منهم ينتقص النبي ﷺ، وهناك كلب صيد مربوط، فلمّا أكثر من ذلك وثب عليه الكلب فخمشه، فخلّصوه منه، وقال بعض من حضر: هكذا بكلامك في محمد ﷺ، فقال: كلاّ بل هذا الكلب عزيز النفس، رآني أشير بيدي، فظن أني أريد أن أضربه، ثم عاد إلىٰ ما كان فيه فأطال، فوثب الكلب مرة أخرىٰ فقبض علىٰ زردمته، فقلعها فمات من

(١)المرجع السابق ت: ٣٥٢٠، ٣/ ٤٦٧.
(٢)الحجر: ٩.
(٣)البقرة: ١٣٧.
(٤)الأنفال: ٦٢.
(٥)التوبة: ٤٠.
(٦)يونس: ٤٦.

حينه، فأسلم بسبب ذلك نحو أربعين ألفًا من المغل[١].

والحادثة لا تحتاج إلىٰ تعليق، فبتصرف كلب آمن أكثر من عمل سنة كاملة لمجموع العاملين في الحقل الإسلامي. وحادثة أخرىٰ نختم بها هذه الورقة، ليزداد اليقين أن هذا الدين منتصر بمشيئة الله ولو كره الكافرون، عبد السيد بن إسحاق بن يحيىٰ الإسرائيلي الحكيم الفاضل، بهاء الدين بن المهذب كان ديان اليهود، وكان يحب المسلمين، ويحضر مجالس الحديث، وسمعه المزي ثم هداه الله تعالىٰ وأسلم وتعلم القرآن وجالس العلماء، وكان ماهرًا في صناعة الطب والكحل، قال ابن كثير: كان إسلامه يوم الثلاثاء رابع ذي الحجة سنة ١٠٧هـ، وحضر هو وأولاده إلىٰ دار العدل فأسلموا جميعًا، فأكرموا إكرامًا زائدًا؛ لأنهم أسلموا طائعين علىٰ بصيرة، وعمل في تلك الليلة في داره ختمة ووليمة عظيمة؛ حضرها القضاة والعلماء، وأسلم علىٰ يده جماعة من اليهود من أقاربه، وخرجوا يوم عيد الأضحىٰ يكبرون مع المسلمين، وفرح الناس بهم فرحًا زائدًا، وأكرموهم إكرامًا عظيمًا، ومات في جمادىٰ الآخرة سنة ٥١٧هـ[٢].

*****

(١) الدرر الكامنة ت: ٢٩١٥، ٣/ ٢٠٢-٢٠٣.

(٢) المرجع السابق ت: ٢٤١٩، ٢/ ٤٧٦.

اللفتة السابعة
الحب والبغض بين التعصب والإنصاف

الاتزان وصف خاص بالعقلاء، والطيش مما يوصف به الجهلاء، ومن تصدّر للناس، فعليه أن يلبس ثوب القضاء، ويقلب الأمور مع حضور الذهن، وسرعة البديهة، فلا تجره الحوادث عن هدفه، ولا يعيش بعيدًا عن واقعه، فهو حاضر مع الأحداث، ثابت مع الأهداف، يتصل مع الجميع، ويعطي لكل ذي حق حقه، من غير زيادة ولا نقصان، إطاره العام حب الصالحين، ومعرفة أفضالهم، والغضّ عن زلاّتهم، مع النصح في النصيحة لهم، يحيىٰ بن إسماعيل بن محمد بن عبد الله محمد بن نصر القيسراني المخزوميٰ شهاب، مات سنة ٣٥٧هـ قال عنه الصفدي: صحبته أكثر من عشرين سنة، وما رأيت منه سوءًا قط، وكان يتودّد للصالحين، ويكثر الصوم والعبادة، ويصبر علىٰ الأذىٰ، ولا يعامل صديقه وعدوه إلاّ بالخير وطلاقة الوجه[(١)]، وهذا أمر لا يستطيعه إلاّ من ضبط لسانه، وأمسك بزمام نفسه، كما وصف ابن السكاكري؛ وكان قوي النفس يتقىٰ لسانه[(٢)].

*** الداعية وطالب العلم يسعىٰ لطلب الحقيقة من الجميع:**

العلم ليس حكرًا علىٰ أحد، والعلماء الكبار كالسحابة، ينزلون الغيث علىٰ جميع الأراضي، وهي أشجارٌ مثمرة، تتدلىٰ منها أرزاق الله ليتحصل المجد علىٰ ما فيها من خير، فيطعم نفسه ويعطي غيره، وممّا تم البلاء به هذه الأيّام ومن قبلها، عصر التعصّب المذهبي، أنّ طالب العلم يتلقىٰ توجيهًا أن استمع إلىٰ هذا، واترك هذا، واقرأ هنا، واترك هنا، وأصبح عقل الإنسان كالشريط الذي يتحكم صاحبه بالمادة التي فيه، ومن ثمّ يموت الإبداع، وتتكرر القوالب الفكرية والمذهبية، وتحرم الساحة الإسلامية من تلاقح الأفكار والإنتاج الجديد الذي يُبقي الجيد ويطرد الضعيف، وأصبح أصحاب العقول

(١)الدرر الكامنة ت: ٥٠٠٣، ٥/ ١٨٩.
(٢)المرجع السابق ت: ٦/ ٢٨٨، ٣/ ١٨٨.

المتقدة في المذاهب أو الحركات المنغلقة، إمّا أن ينفجر في مجموعته، ويخرج عنها وقد أصابه الإعياء، لا هو الذي استفاد من قوته، ولا أفاد الآخرين، وقد يلجأ إلىٰ منتدىٰ بعيد عن الأنظار يمارس فيه حرية تفكيره، وفي هذا الطريق كذلك خطر علىٰ حركته وعليه، وحريٌّ بنا نحن اليوم، وفي زمن تقارب فيه العلم بوسائل الاتصال المختلفة، حتىٰ أصبح كالبلد الواحد الصغير، أن ننفتح علىٰ كل ما هو خير، وأن نؤسس الفهم عندنا علىٰ قواعد الكتاب والسنة، وأفهام سلفنا رضوان الله عليهم، ثمّ ترك طالب العلم يجلس في حلقات العلم المختلفة، سواءً أكانوا من مجموعتنا أم لا، ويتعوّد أن يعرف الصحيح من الخطأ بالحوار، والعرض علىٰ الكتاب والسنة من غير أن نرضعه ما نعتقد في نظرنا أنه هو الصواب، وبهذا الطريق والله أعلم يمكننا أن نضيّق من الفجوة التي بين طلبة العلم، وبين الحركات بعضها مع بعض، ويتربّىٰ شباب الدعوة علىٰ قاعدة التسامح عند سلفنا رضوان الله عليهم: «**كلامنا صواب يحتمل الخطأ، وكلام غيرنا خطأ يحتمل الصواب**» هذه قواعدهم، وكذلك حياتهم.

فهذا أحمد بن إبراهيم بن عبد الغني الحنفي شمس الدين أبو العبّاس السَّروجي القاضي، ولد سنة ٧٣٦هـ، وتفقه أولاً حنبليا، وحفظ المقنع، ثمّ تحوّل حنفيًا، وحفظ الهداية، وأقبل علىٰ الاشتغال إلىٰ أن مهر واشتهر صيته، وشرع في شرح الهداية شرحًا حافلاً، ومع انتقاله من المذهب الحنبلي إلىٰ الحنفية عندما أراد أن يرد علىٰ شيخ الحنابلة ابن تيمية كان متأدبًا، قال الإمام الذهبي عن السَّروجي: كان نبيلاً وقورًا كثير المحاسن، وما أظنه روىٰ شيئًا من الحديث، وله رد علىٰ ابن تيمية بأدب وسكينة وصحة ذهن، ورد ابن تيمية علىٰ رده[1]. وطالب العلم يجب أن يتثبت من معلوماته، وخصوصًا إذا كانت تتعلق بالعلماء وأهل الرأي والجاه والزعامة؛ لأن هؤلاء محسودون من أقرانهم، ولأن الطعن فيهم هدم لصرح قائم ينتفع منه المسلمون، ولننظر إلىٰ سير سلفنا وتثبتهم.

محمد بن عبد العظيم بن علي بن سالم جمال الدين السَّقطي، يُكنىٰ أبا بكر، ولد سنة

(١) الدرر الكامنة ت: ٢٤١، ١/ ٩٦، ٩٧.

٢٣٦هـ، وسمع من ابن الصابوني وغيره، وأجاز له ابن باقا وتفقّه وتعاني الشروط، فدربها، وناب في الحكم بالديار المصرية مدّة أربعين سنة، وكان صارمًا مهيبًا كثير التثبت، شهد عنده جماعة في قضية، فتوقف فيها، ثم ركب إلىٰ القرافة فقرأ تاريخ الوفاة علىٰ قبر المشهود عليه، فظهر له فسادها. وله في إخراج التزوير قضايا كثيرة، كان لا يقبل من الشهود إلاّ النادر، حتىٰ إن رجلاً شهد عنده، فقال له: أحضر من يعرف بك، فأحضر الشيخ علاء الدين الباجي، فقام له وبجّله وأجله وأجلسه فوقه، فقال الرجل: سيدي علاء الدين يعرف بي، فقال له القاضي: سيدي علاء الدين أجل من هذا وأكبر، امض فأت بمن يعرف بك(١).

ومعرفة القواعد الصحيحة، تحفظ طلبة العلم من الزيغ والوقوع بحبال المفسدين، وإن جالسوهم في حلقاتهم، بل قد يكونون أشدّ عودًا ممّن لازم كهفًا واحدًا، فهذا عرُضة لأن يقع عند أول ريح تهب عليه عند خروجه، وخروجه أمر محتّم، ولو لبث ثلاثمائة سنة وازدادوا تسعًا!!

*** المغالاة في الحب طريق التهور وعدم الاتزان:**

علاقة الحب من العلاقات التي ندعو إليها، والتي تُبنىٰ عليها الأُسر والمجتمعات، وبالحب نستطيع أن ننهي الكثير من المشاكل، ومن الأمور المتبادلة بين العبد وخالقه الحب ﴿ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ ﴾(٢) والمغالاة في الحب أو التقصير، طريق للانحراف، وهل بداية النصارىٰ في انحرافهم وضلالهم، إلاّ الحب والمغالاة فيه، وهل بداية الفجوة بين الجماعات الإسلامية بعضها مع بعض، إلاّ من مغالاة كل جماعة في حبها لقادتها وأقوالهم وكتاباتهم، ولو أن كل جماعة أنصفت محبّيها، وجعلتهم في صفوف البشر الذين يصيبون ويخطئون لاختصرت الجماعة مسافة الالتقاء مع الجهات الأخرىٰ العاملة للإسلام.

ولننظر جميعًا إلىٰ الخفة التي حدثت للشيخ محمد بن محمد بن إدريس بن مالك بن

(١)الدرر الكامنة ت: ٣٩١٠، ٤/ ١٣٦.
(٢)المائدة: ٥٤.

عبد الملك القُضاعي القالوسي، قال ابن الخطيب: كان إمامًا في العربية والعروض، وكان شديد التعصب لسيبويه، حدثني شيخنا أبو الحسن بن الحبّاب، قال: ورد أبو بكر القالوسي علىٰ القاضي أبي عمرو، وكان شديد المهابة، فتكلم في مسألة في العربية نقلها عن سيبويه، فقال له القاضي: أخطأ سيبويه، فكاد يُجنّ، ولم يقدر علىٰ جوابه لمكان منصبه، فجعل يدور في المسجد ودموعه تنحدر، وهو يقول: أخطأ، من خطّأه، ولا يزيد عليها [١]. إمامٌ فقد اتزانه علىٰ غير عادته، وما دفعه إلىٰ هذا التصرف إلاّ غلوه في سيبويه، وهو الذي دفع أبا حيان لأن يختلف علىٰ شيخ الإسلام ابن تيمية بعد محبته له، حيث كان يقول فيه قبل اختلافه معه: ما رأت عيناي مثل هذا الرجل ثم مدحه بأبيات ذُكر أنه نظمها بديهة:

ثم دار بينهما كلام فجرىٰ ذكر سيبويه، فأغلظ ابن تيمية القول في سيبويه فنافره أبو حيان وقطعه بسبب ذلك. ويقال: إن ابن تيمية قال له: ما كان سيبويه نبي النحو ولا كان معصومًا بل أخطأ في الكتاب في ثمانين موضعًا ما تفهمها أنت، فكان ذلك سبب مقاطعته إياه وذكره في تفسيره «**البحر**» بكل سوء وكذلك في مختصره «**النهر**»[٢].

هذه الصور تتكرر لدرجة الوقوع بالمخالفة الشرعية، في ارتكاب محظور نص الشارع عليه، بل إن أمر المغالاة يراه صاحبه ويتعجب منه، فيخبر به تعجبا من نفسه؛ فهذا سليمان بن يوسف بن مفلح بن أبي الوفاء الياسوفي صدر الدين الشافعي، ولد سنة ٩٣٧ هـ تقريبًا، ونقله أبوه إلىٰ مدرسة أبي عمر بالصالحية، فقرأ بها القرآن، وحفظ «**التنبيه**»، و«**مختصر ابن الحاجب**»، وأقبل علىٰ التفقّه، وأخذ عن العماد الحسباني والموجودين من أعلام الشافعية، وتمهر حتىٰ كان يقول: كنت إذا سمعت شخصًا يقول:أخطأ النووي أعتقد أنه كفر[٣].

ولا طريق للقضاء علىٰ هذا التعصب، إلا السير في طريق الإنصاف، وتعويد النفس علىٰ قول كلمة الحق، وإن كان فيها عدم الرضىٰ من الأطراف، فالحق أحق أن يُتبع،

(١)الدرر الكامنة ت: ٤٣١٦، ٤/ ٢٨٧.

(٢)المرجع السابق ت:١/ ١٦٢.

(٣)المرجع السابق ت: ١٨٦٩، ٢/ ٢٦١.

وهذا الأمر لا يستطيعه إلاّ الفحول من العلماء. ولننظر إلىٰ الإمام الذهبي عندما يتحدث عن الإمام ابن تيمية مع حبه له، إلا أن منهج الإنصاف واضح بيّن. قال الإمام الذهبي ما ملخصه: كان يقضىٰ منه العجب إذا ذكر مسألة من مسائل الخلاف واستدل ورجّح، وكان يحق له الاجتهاد لاجتماع شروطه فيه، وما رأيت أسرع انتزاعًا للآيات الدالة علىٰ المسألة التي يوردها منه، ولا أشد استحضارًا للمتون وعزوها منه، كأن السنّة نصب عينيه وعلىٰ طرف لسانه، بعبارة رشيقة، وعين مفتوحة، وكان آية من آيات الله في التفسير والتوسع فيه، وأمّا أصول الديانة ومعرفة أقوال المخالفين فكان لا يُشق غباره فيه ـ هذا مع ما كان عليه من الكرم والشجاعة والفراغ عن ملاذ النفس، ولعلّ فتاويه في الفنون تبلغ ثلاثمائة مجلدًا، بل أكثر، وكان قوالاً بالحق، لا تأخذه في الله لومة لائم، قال: ومن خالطه وعرفه، فقد ينسبني إلىٰ التقصير فيه، ومن نابذه وخالفه قد ينسبني إلىٰ التغالي فيه، وقد أوذيت من الفريقين من أصحابه وأضداده. وكان أبيض أسود الرأس واللحية، قليل الشيب، شعره إلىٰ شحمة أذنيه، وكأن عينيه لسانان ناطقان، ربعة من الرجال، بعيد ما بين المنكبين، جهوري الصوت فصيحًا، سريع القراءة، تعتريه حدة، لكن يقهرها بالحلم، قال: ولم أرَ مثله في ابتهاله واستغاثته وكثرة توجهه، وأنا لا أعتقد فيه عصمة، بل أنا مخالف له في مسائل أصلية وفرعية، فإنه كان مع سعة علمه وفرط شجاعته، وسيلان ذهنه، وتعظيمه لحرمات الدين، بشرًا من البشر، تعتريه حدة في البحث، وغضب وشظف للخصم، تزرع له عداوة في النفوس، وإلا لو لاطف خصومه، لكان كلمة إجماع، فإن كبارهم خاضعون لعلومه، معترفون بشنوفه، مقرون بندور خطئه، وأنه بحر لا ساحل له، وكنز لا نظير له، ولكن ينقمون عليه أخلاقًا وأفعالاً، وكل أحد يؤخذ من قوله ويترك. قال: وكان محافظًا علىٰ الصلاة والصوم، معظمًا للشرائع ظاهرًا وباطنًا، لا يؤتىٰ من سوء فهم، فإن له الذكاء المفرط، ولا من قلة علم، فإنه بحر زخار، ولا كان متلاعبًا بالدين، ولا ينفرد بمسائل بالتشهي، ولا يطلق لسانه بما اتفق، بل يحتج بالقرآن والحديث والقياس، ويبرهن ويناظر أسوة بمن تقدّمه من الأئمة، فله أجر علىٰ أخطائه، وأجران علىٰ إصابته، إلىٰ أن قال: تمرض أيامًا بالقلعة بمرض جد إلىٰ أن مات ليلة الاثنين

والعشرين من ذي القعدة، وصلّي عليه بجامع دمشق، وصار يضرب بكثرة من حضر جنازته المثل، وأقل ما قيل في عددهم: إنهم خمسون ألفًا[١].

وهذا أستاذ في الإنصاف، إبراهيم بن داود بن عبد الله الآمدي، برهان الدين نزيل القاهرة، يقول عنه ابن حجر: كان ممتحنًا بحب ابن تيمية، ونسخ غالب تصانيفه بخطه، وكان يأمر بالمعروف وينهي عن المنكر، برياضة وتؤدة. ويناظر في مسائل ابن تيمية من غير مماراة[٢]، والآمدي كما اتصف بحبه لابن تيمية، أنصف نفسه عندما قال له ابن حجر وهو يقرأ عليه أجزاء: أخبركم رضا الله عنكم وعن والديكم. نظر إليه الآمدي منكرًا وقال: ما كانا علىٰ الإسلام!![٣] يقصد بذلك لا تترض علىٰ والدي وقد كانا علىٰ النصرانية، حيث مات أبوه علىٰ النصرانية وهو صغير، فحمله وصيه الشيخ عبد الله الدمشقي إلىٰ مجلس ابن تيمية رحمه الله وأسلم عليه.

والإنسان لابدّ أن ينتمي لشيوخه وجماعته، ونحن لا ندعو إلىٰ انتزاع ذاته، ولا إلىٰ التنكّر لأهل الفضل، بل كما قال الإمام الشافعي: «**الحر من راعىٰ وداد لحظة، وانتمىٰ لمن أفاده لفظة**» فهذا أمر لا يمكن إخفاؤه، بل المرء يتشرّف بالانتماء إلىٰ أهل الصلاح والخير، سواءٌ أكانوا علماء أم حركات إسلامية صحيحة، فطالب العلم معروف بشيوخه وأساتذته. وإليك هذه اللفتة نختم بها ورقتنا هذه بعلم من الأعلام:

إبراهيم بن محمد بن أبي بكر بن أيوب بن قيِّم الجوزية، أحضر علىٰ أيوب الكحّال وغيره وسمع من جماعة: كابن الشحنة ومن بعده، واشتهر وتقدم وأفتىٰ ودرس، وذكره الذهبىٰ في «**المعجم المختصر**» فقال: تفقه بأبيه وشارك في العربية، وسمع وقرأ، واشتغل بالعلم. ومن نوادره أنه وقع بينه وبين عماد الدين بن كثير منازعة في تدريس، فقال له ابن كثير: أنت تكرهني لأنني أشعري، فقال له: لو كان من رأسك إلىٰ قدمك شعر ما صدّقك الناس في قولك: أنك أشعري، وشيخك ابن تيمية، وقال ابن رافع: شرح ألفية ابن مالك، وقال ابن كثير: كان فاضلاً في النحو والفقه علىٰ طريقة أبيه، ودرس بأماكن، وكانت وفاته

(١)الدرر الكامنة ١/ ١٦٠ ـ ١٦٢.

(٢)الدرر الكامنة ت: ٦١، ١/ ٢١.

(٣)المرجع نفسه.

في صفر سنة ٧٦٧هـ[1].

*****

(١)المرجع السابق ت: ١٥٥، ١/ ٦٠.

اللفت الثامن
خاتم الأوراق

بعد هذا التطواف في «**الدرر الكامنة في سير أعلام المائة الثامنة**»، نختم بهذه الورقة جبرًا لأي كسر، أو نقص وقع في أوراقنا السابقة، وأول ما نحب أن ننبه إليه قارئ هذه الورقات من أحبابنا الكرام؛ أن ما كتبناه ليس ترفًا فكريًا ولا حبا في زيادة الرسائل في مكتبات الدعاة، ولا هي بأوقات زائدة عند المرء يتسلىٰ فيها، بكتابة هذه الأسطر، بل هي أمانة بناء وتوجيه نتحمل معاناة الخطأ فيها، ونسأل الله الأجر في صحيحها، وأن تكون من العلم الذي ينفع المرء بعد موته، والمرء حين يكتب أو يتكلم، يستشعر اللحظة التي سيقف فيها بين يدي ربه سبحانه، كما كان عمر بن سعد الله عبد الله بن نَجِيح الحراني زين الدين الحنبلي، ولد سنة خمس وثمانين وستمائة، وناب عن ابن المنجا في القضاء، ودرس بالضيائية، وكان يحكم بالمسائل التي انفرد بها ابن تيمية، وطال امتناع السبكي من تنفيذ ذلك حتىٰ قال لمستنيبه ابن المنجا: هذا الذي يحكم به نائبك إن قلت لىٰ: إنه مذهبُ الإمام أحمد بن حنبل نفذته. فقال: لا أقول ذلك، لكن إذا حكم بشيء حكمت بصحته. قال ابن رجب: أخبرني عز الدين بن شيخ السلامية عنه أنه قال له: لم أقض قضية إلاّ وأعددت لها جوابًا بين يدي الله، قال ابن رجب: وكان حسن الأخلاق، ديِّنًا متواضعًا بشوش الوجه، فقيهًا فرضيًّا، متثبتًا(١).

وهنا وقفة مع قوله: «**لم أقض قضية إلاّ وأعددت لها جوابًا بين يدي الله**» إنها هي السبب الأول التي جعلت القاضي ابن المنجا يقول بصيغة الإطلاق: إذا حكم بشيء حكمت بصحته!! إنها الثقة بإنسان يخشىٰ الله سبحانه والمثول بين يديه، قبل المثول بين يدىٰ البشر، وكم هي روح الاعتزاز التي يشعر بها الإنسان عندما يرىٰ ثقة إخوانه به، ولا أنسىٰ في مطار إحدىٰ الدول الخليجية، عندما جاءني أخ نحبه في الله، ولا نعرفه باسمه، فقال: يا شيخ إني أحبّك في الله، وأنا أشتغل في مراقبة الكتب في جمارك المطار، والكتاب

(١) الدرر الكامنة ت: ٣٠٠٨، ٣/ ٢٤٢، ٢٤٣.

الذي عليه اسمك أجيزه من غير قراءة له، وحادثة أخرىٰ عندما جئتُ بمقالات إلىٰ مجلة المجتمع، فالتقيت بالأخ الكبير عبد الله العلي المطوع، رئيس جمعية الإصلاح التي تتبعها مجلة المجتمع، فقال لي: إن مقالاتك أجيزها من غير قراءة، فشكرت الله تعالىٰ وسألته سبحانه أن نكون عند حسن ظن عباد الله بنا، وأن يسترنا فيما لا يعلمون. واعتزاز الإنسان بدينه ومعتقده يُقربه إلىٰ الخلق، ويحفظ مكانته، ويرفع قدره، وما بين الإنسان والذل، إلاّ لحظة الثبات علىٰ الحق، وعدم الضعف؛ لذلك كان منهج أهل الإيمان ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ۝٣﴾[(١)]، فصبر لحظة يحتاج إلىٰ من يعين عليه، والأدلة علىٰ الثبات علىٰ الحق كثيرة، ومن مائتنا الثامنة نختار قصة موسىٰ بن أبي بكر سالم التكرور ملك الكرور، قدم حاجًا سنة ٤٢٧هـ في رجب، وأدخل إلىٰ الناصر فامتنع من تقبيل الأرض وقال: لا أسجد لغير الله، فأعفاه السلطان وقرّبه وأكرمه، وأحسن تجهيزه إلىٰ الحجاز[(٢)].

ونحن في كل كلمة أو جملة كتبناها نستمع بإصغاء للحكمة القائلة: لا تفتح بابًا يُعيِيك سدُّه، ولا ترم سهمًا يعجزك ردُّه، ولا تفسد أمرًا يعييك إصلاحه، ولا تغلق بابًا يعجزك افتتاحه وكما قال الشاعر:

فإيّاك والأمر الذي إن توسّعت ... موارده ضاقت عليك المصادرُ
فما حَسَن أن يعذر المرءُ نفسهُ ... وليس له من سائر الناس عاذر[(٣)]

فالكثير من القضايا لم نكتب فيها إلا بعد التحدث والحوار مع أهل الفكر من العاملين في الحقل الإسلامي؛ امتثالاً لقول النبي ﷺ لمعاذ بن جبل: «**استشر فإنّ المستشير معانٌ، والمستشار مؤتمنٌ، واحذر الهوىٰ، فإنه قائد الأشقياء**»[(٤)].

---

(١) العصر: ٣.
(٢) الدرر الكامنة ت: ٤٩٠٤، ٥/ ١٥٤ - ١٥٥.
(٣) تسهيل النظر ص١٣٤.
(٤) أخرجه ابن عساكر في تاريخ دمشق (٥٨/ ٤١٠)، عن عبيد بن صخر بن لوذان الأنصاري، وجملة «المستشار مؤتمن» أخرجها أبو داود (٥١٢٨)، والترمذي (٢٨٢٢)، عن أبي هريرة، وحسنها الترمذي وصححها الألباني.

نعم، حق علىٰ العاقل أن يضيف إلىٰ رأيه آراء العلماء، ويجمع إلىٰ عقله عقول الحكماء، فالرأي الفذُّ ربما زل، والعقل الفردُ ربما ضل[١].

ونحن نعرف أن الكلمة لها خطورتها، فهي أداة بناء كما هي معول هدم؛ لذلك رأينا النبي ﷺ يقول:

«**من يضمن لي ما بين لحييه وما بين رجليه أضمن له الجنة**»[٢]، فالأعضاء تصيح باللسان: اتق الله فينا، فإنما نحن بك فإن استقمت استقمنا. وخطورة الكلمة تأتي واضحة من البيان النبوي الكريم: «**إن العبد ليتكلم بالكلمة من سخط الله تعالىٰ لا يُلقي لها بالاً يهوي بها في جهنم**»[٣] فكلمات تقود الرجل الحكيم، ولكنها تقود المجانين أيضا[٤]. ونحن نسعىٰ في كتاباتنا إلىٰ التحديد في العبارات والكلمات ومدلولات الألفاظ حتىٰ لا تجري مناقشات في الظلام، فيضيع الفهم بيننا.

وعند ختمنا لهذه الورقة، يلزمنا أن نؤكد أنّ العمل الإسلامي والتحرك لتمكين شرع الله سبحانه، لا يعرف عمرًا زمنيًّا، فمن ثقل لكبر سنه فليتذكر أبا أيوب الأنصاري رضي الله عنه، ولتكن له همة الشباب كما كان يوسف بن رزق الله، عمر طويلاً لعله قارب التسعين، ثقل سمعه، لكن حواسه كلها صحيحة، وهمته همة ابن ثلاثين، مات وهو في ميدان العمل، يباشر التوقيع بصفد في ربيع الآخر سنة ٥٤٧هـ[٥].

هذا، وفي الختام نسأل الله أن يحسن خاتمتنا في الأمور كلها آمين، والحمد لله رب العالمين.

*****

(١)تسهيل النظر: ص١٠٠.
(٢)أخرجه البخاري (٦٤٧٤) عن سهل بن سعد رضي الله عنه.
(٣)أخرجه البخاري (٦٤٧٨) عن أبي هريرة رضي الله عنه.
(٤)المصطلحات السياسية ص١٠.
(٥)الدرر الكامنة ت: ٥١١٥، ٥/ ٢٢٩.

هذه الرسالة

ليست ترفًا فكـريًا، ولا حبًّا في زيــادة الرسائل في مكتبـات الـدعاة، بـل هـي أمانـة بنـاء وتوجيه، وحق علىٰ العاقـل أن يـضيف إلـىٰ رأيـه آراء العلمـاء، ويجمـع إلـىٰ عقلـه عقـول الحكماء، فالرأي الفذِّ ربما زل، والعقل الفردُ ربما ضل.

وهـذه الرسـالة تطـوف بنـا بـين رجـالات وسـادات الـدعوة والخـبرة، والفـضل، وبـين أفانين من سير الصالحين في القرن الثامن الهجري من خلال كتاب: «**الدرر الكامنة**» لابن حجر؛ سعيًا لإيجاد روح التنافس مع الأكفاء والأخيار في فضائلهم ومحاسنهم للاجتهـاد والزيادة عليهم، فإن لم يكن ذلك في مقدورنا لا نقتصر عنهم، فما تكامـل فـضل الأخيـار إلا بالاقتداء.

الرسالة السابعة

معاناة قلم
وكلمات أمل

مقدمة

هذه كلمات تحمل إليك ـ أخي القارئ ـ آلام نفس وآمالها. آلام نفس أحزنها ما ينبغي أن يحزن كل مسلم، لما يدور حوله لأمة الإسلام في عديد من أماكنها وأقطارها، فجاشت بها النفس، وخاض بها القلم، فكانت هذه السطور دعوة لمشاركتنا في حل معضلات عالمنا الإسلامي التي جعلتنا نعاني ما نعانيه، آلام الأمة المتمثلة في البوسنة وكشمير وتايلاند والفلبين، ودول أواسط آسيا وغيرها، نعاني آلام الصحوة الإسلامية وما يلحقها من كبوات، وما يقف أمامها من عقبات، نعاني آلام العاملين في الحركة الإسلامية، وما يجذبهم نحو الطين، فيتثاقلون ولا ينطلقون، ومع هذا كله، فلا مكان لليأس والقنوط ﴿وَلَا تَأْيْـَسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ٨٧﴾[١] إنها معاناة قلم وكلمات أمل أضعها بين يديك، راجيًا يا أخي القارئ أن تشاركنا، وتعمل معنا على تحقيق الأمل وإزالة الألم.

فهذه نفثة مصدور، وأَنَّةُ مكلوم، وزَفرة محزون، لقلم معنيّ بشأن الأمة الإسلامية، يرى آلامها آلامه، وأحزانها أحزانه، وفي فرحها سروره وراحته.

وكيف لا يحزن ويئن ويتوجع من يرى أمة الإسلام تُنتقص أطرافها، ويشرّد أبناؤها، وتنتهك أعراض النساء فيها، ويُتهم بالتطرف والإرهاب رجالها العاملون لنصرة هذا الدين وتحقيق شرع الله في العالمين؟

وكيف لا يحزن ويئن ويتوجع من يرى كثيرًا من المفكرين وأصحاب الأقلام يهدمون في بناء الإسلام، ويعلون فيما يجلبون من لبنات صنعها أعداء الإسلام؛ ليحجبوا بها عظمة هذا الدين عن أبنائه وأجياله القادمة، وإن استطاعوا أعلوا بها بناءً فكريـًا يحل محل الإسلام في كثير من الفروع والتفاصيل؟

وكيف لا يحزن من يرى عادات، وتقاليد أعداء الإسلام منتشرة في بلادنا، متغلغلة في

(١) يوسف: ٨٧.

أجهزة إعلامنا، تدخل علينا بيوتنا في كل حين عبر منافذ الإذاعة والتلفاز، يتشبع بها الصغار في البيوت، ويشبون عليها فيرون ـ بعد ذلك ـ قيم الإسلام غريبة عنهم، بعيدة عن أذهانهم لم يعرفوها، ولم يتربّوا عليها؟ أني لمثل هؤلاء أن يُناصروا الإسلام؟ وينشروا دينه بين الأنام؟

كيف لا يحزن ويئن ويتوجع من يرىٰ التيارات الإسلامية في كثير من بلاد الإسلام تتعارض ولا تتعاضد، تتصادم ولا تتناصر، تختلف ولا تأتلف، همها الأول ـ في معظم الأحيان ـ انتصار الذات، أو الأقوام، لا انتصار الإيمان والإسلام، وإلا ففيم الاختلاف والإسلام يجمعنا؟ وفيم التدابر ونحن إخوان في الإيمان؟

كيف لا يحزن ويئن ويتوجع من يقارن بين حالة الشعوب في بلادنا الإسلامية التي حملت مشعل الحضارة ما يزيد علىٰ ألف عام، وبين حالة كثير من الشعوب في الغرب أو الشرق، تجد عندهم التشاور قائمًا، والديمقراطية ثابتة، وكرامة المواطن محفوظة، وحقوقه لدىٰ المجتمع مصونة، ولا عقوبة إلا بعد التثبت، ولا اعتداء علىٰ حق ضعيف من ذىٰ منصب أو جاه، أو مال؟ وأما عندنا فأنت تجد ما تعرفه وما تراه، وما قد تنكره تارة بلسانك، وتارات بقلبك.

أخي، أرأيت ما في البوسنة التي اقتطع من أراضيها أكثر من ٨٠٪، وهجّر من أبنائها مئات الألوف؟ أرأيت ما يحدث في كشمير وتايلاند وبورما والفلبين؟ أرأيت ما يحدث في آسيا الوسطىٰ (جنوب الاتحاد السوفيتي سابقًا) من قتل وسحق وتهجير للمسلمين؟ وأظن أنه لا يخفي عليك من قبل ذلك نبأ المسجد الأقصىٰ وفلسطين، إنها مواجع وأحزان، جاشت في الفؤاد حينًا، فظهر بعضها علىٰ هذا القلم، لعل في البوح بها تخفيفًا عن صاحبها، ودعوة إليك يا أخي لأن تعاون في حلها، وتعمل علىٰ زوالها، وما ذلك علىٰ الله بعزيز.

*****

المعاناة الأولى
معاناة الاحتياج

احتياج القيادة:

قيادة العمل الإسلامي في وقتنا الحاضر تضطلع بعبء كبير أمام التحديات الكبيرة التي تواجه الحركة الإسلامية، وهي تحديات توجه إليها ممن لا يحبون الإسلام، ولا يودون له أن يسود في بلاد المسلمين، ولا تقوم له حركة تبعث في المسلمين روح الإسلام، وتنفخ في قلوبهم قوة الإيمان، فينفضون عن أنفسهم غبار التخلف والجمود، والكسل والهمود، فتعز بالإسلام هذه البلاد ـ كما عزت به من قبل وتعود أمة لها مكانها في ركب التقدم والحضارة.

تعاون ومساندة:

عبء وأي عبء هذا الذي تضطلع به قيادة العمل الإسلامي، تحتاج فيه إلىٰ معاونة المسلمين، ومساندة المحيطين الأقربين، ومشاركة المدركين الواعين من الأصحاب السائرين في هذا الطريق، الذين عرفوا قيمة التعاون في السراء والضراء، في النعماء والبأساء، وفي هذا مدد عظيم للقيادة يزيل عنها بعض ما تعانيه من آلام، ويدفعها إلىٰ مواصلة المسير باستمرار، ويشد من عضدها، ويقوي ركنها، ويدفع عنها وحشة الأحزان من الطعنات التي توجه للإسلام في كل مكان.

علىٰ درب الأنبياء:

ولسنا في هذا مبتدعين، بل إننا ندرك أن موسىٰ عليه السلام طلب من ربه أن يجعل له وزيرًا من أهله، وردءًا مصدقًا لما يقول، ومؤيدًا له أمام الناس الذين قد يظنون بموسىٰ عليه السلام الظنون. قال تعالىٰ حكاية عن موسىٰ: ﴿وَٱجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِي ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِيٓ أَمْرِي ﴿٣٢﴾ كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٣٦﴾﴾[1] وهذا رسولنا محمد ﷺ يأتيه الأمر من الله بأن ينهض بعبء الدعـوة، وأن الله كافيه المستهزئين قال سبحانه: فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ

(١) طه: ٢٩ـ٣٦.

﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيۡنَٰكَ ٱلۡمُسۡتَهۡزِءِينَ ﴿٩٥﴾﴾[١].

ولم يقف أمر مشاركة القيادة عند هذا الحد، بل تعداه إلىٰ الأمور المعيشية التي يتفاضل فيها الناس عادة، فهؤلاء أصحاب الرسول ﷺ يمسهم ما يمسه، ويؤذيهم ما يؤذيه، ويتحملون من الجوع والخصاصة ما يتحمل، وقصة ربط النبي ﷺ للحجر علىٰ بطنه ومعه الصديق والفاروق معروفة.

دور القيادة واحتياجها:

القيادة توجه وترشد، وتسهر علىٰ راحة الناس، وتبذل من جهدها ووقتها وكسبها ومالها، في سبيل استمرار الدعوة، ونشر تعاليمها، ودفع السهام الموجهة إليها وإلىٰ العاملين من أجل نصرتها وتأييدها، وكثيرًا ما يتعب فريق من الدعاة ويلحقه شيء من التواني، فيسارع إلىٰ القيادة، وتسارع إليه؛ ليزيلا معًا هذا الركود من تيار الدعوة المتدفق الجاري. وهذا ما أخبر به الإمام ابن القيم حين قال: «**كنا إذا ضاقت بنا الأمور، واشتد البلاء، وتخطفتنا الهموم ذهبنا إلىٰ شيخ الإسلام ابن تيمية، وهو في السجن - فنظرنا إليه وتحدثنا معه، ثم رجعنا وقد انتهي ما فينا من ضعف**». يالله، أفليس ابن تيمية محتاجًا لمن يذهب حزنه ويخفف كربه.

ومع أننا نسلم بأن الله مع المحسنين، وأن القيادة يصنعها الله بفضلٍ منه ورحمة ﴿وَلِتُصۡنَعَ عَلَىٰ عَيۡنِيٓ ﴿٣٩﴾﴾[٢] إلا أن القادة بشر محتاجون لمن يريحهم ويذهب ضعفهم ومحتاجون لمن يعطيهم، كما أن غيرهم يأخذ منهم، وهم لن يقبلوا عطية أحد كائنًا من كان إلا إذا كان قريبًا لهم عليه حقوق يؤديها لهم، كما أن له عليهم حقوقًا ينالها منهم.. وأقرب الناس جميعًا وألصقهم بالقادة الزوجات.

احتياج القائد من زوجته:

والقائد يحتاج من زوجته أن تكون له سكنًا، وأن تكون له سترًا، تحفظ سره، وتزيح همه، وتستر عيبه، وتنشر بين الناس ما حسن من خلقه، ما استطاعت إلىٰ ذلك سبيلاً، إن

(١) الحجر: ٩٤، ٩٥.
(٢) طه: ٣٩.

ذلك هو بعض ما يوحىٰ به مفهوم الآية الكريمة: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾(١) وبعض ما تستمد من سيرة السلف الصالح، فهذا أحدهم يجيب زوجته حين سألته عما يحب لكي تفعله، وعما يكره لكي تجتنبه بقوله: «**ما رأيت من سيئة فاستريها، وما رأيت من حسنة فانشريها**».

ويحتاج القائد من زوجته أن ترضىٰ بقضاء الله وقدره، الذي كتب لها أن ترتبط بهذا الزوج، المشغول بدعوته في حله وترحاله، في نهاره وليله، وفي خضم اشتغاله بالدعوة قد يفرط أحيانًا في بعض حقوق الزوجة، فعليها أن تدرك أن شغله الشاغل هو مرضاة الله، وأن لها إن أعانت زوجها علىٰ ذلك وساعدته، ثوابًا مدخرًا عند رب العالمين، تناله يوم الحساب.

فلتعلم زوجات الدعاة إلىٰ الله ما ينبغىٰ أن يتحملنه في هذا الأمر من صبر ورضا، وحسن مواساة للأزواج، وتخفيف بعض المعاناة عنهم، وليكن لهن في أم المؤمنين خديجة رَحِمَهَا اللهُ **أسوة حسنة، حين جاءها الرسول** ﷺ، **وهو يقول: «زملوني.. زملوني»** ويقص عليها ما حدث له في غار حراء، فما كان منها إلا أن قالت قولتها التي حفظها التاريخ: «**والله لا يخزيك الله أبدًا، إنك لتحمل الكَلَّ، وتعين علىٰ نوائب الدهر**»(٢)، وليكن لهن أسوة في أمهات المؤمنين حين خيرهن رسول الله ﷺ بعدما نزل عليه قول الله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾﴾(٣) فاخترن جميعهن رَضِيَ اللهُ عَنْهُنَّ الله ورسوله والدار الآخرة.

يحتاج من زوجته أن تشاركه بعض المعاناة، وأن تكون بسلوكها معه ومعاملتها إياه مفزعًا يلجأ إليه، ليستريح مما يعاني، ودافعًا يدفعه ليواصل المسير في ركب الدعوة الذي يتطلب الكثير من التضحيات من الداعية ومن زوجته، ونكتفي بذلك؛ لأننا لا نود أن

---

(١) البقرة: ١٨٧.
(٢) أخرجه البخاري (٣)، ومسلم (١٦٠) عن عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا.
(٣) الأحزاب: ٢٨، ٢٩.

نثقل عليها فيما نطلبه منها؛ عملاً بقول الرسول الكريم ﷺ: «**استوصوا بالنساء خيرًا**»[(١)].

احتياج القائد من ابنه:

يحتاج القائد من ابنه أن يكون مستديم الوفاء لأبيه الذي حقق متطلبات الدين مع ابنه في رعايته وتربيته وتوجيهه وإرشاده، هذا الوفاء الذي يستلزم من الابن:

أن يراقب ربه في كل أمر، في السر والعلانية، وأن يبتعد عن مواطن الشبهات التي تسيء إليه وإلىٰ أبيه، وأن يكون عضدًا يشد أزر أبيه؛ ليمارس الأب دوره دون عوائق أسرية، وأن يكون عونًا لإخوته الصغار بالقدوة والإرشاد والتوجيهات، وأن يكون ذكرًا حسنًا لوالديه في حياتهما وبعد مماتهما، يتوجه إلىٰ الله بالدعاء أن يرحمهما كما ربياه صغيرًا.

إن الابن بذلك يكون قد أدىٰ بعض ما يجب عليه نحو والديه، ويكون قد وفر لوالده الداعية خير جو ممكن، لينطلق منه عاملاً مجاهدًا مخلصًا، متوجهًا نحو جموع المؤمنين، ينفي عنهم خبث السيئات والمعاصىٰ بالأخذ بيدهم والسير معهم إلىٰ الله بعد أن يتوبوا جميعًا إلىٰ الله مما قد يكونون ألموا به من الآثام. ثم يتكاتف الجميع للقيام بمهمة هذا الدين وتحقيقه في الحياة، والداعية وهو يفعل ذلك يدرك أن من خلفه أبناء عالمين، جادين مجتهدين، صادقين في سلوكهم، وتصرفاتهم، فيكون ذلك منهم بلسمًا له وشفاء من الشقاء والعناء.

احتياج القائد من إخوانه:

يحتاج القائد من إخوانه أن يقوموا بحق الأخوة نحوه، ونحو بعضهم بعضًا حتىٰ يكونوا بنيانًا مرصوصًا، فهو يختار من بين إخوانه أمينًا لسره، تمتزج نفسه بنفسه، يجد فيه صدىٰ ما يتردد في قلبه، يكون نعم المعين، ونعم المشير، ونعم الناصح الصدوق، يكون مرآة يجد فيها القائد صورته، فهو مستودع الأسرار، وخزينة الأفكار، والمتحمل للشدائد إن جاءت بها الأقدار، فللقائد همومه، وله مشاكله، له مسراته وله أحزانه، له أفكاره، وله تصوراته، والأخ الذي أخذ علىٰ عاتقه أن يكون أمين سر، هو الذي يعامل

(١) سبق تخريجه.

كل هذه الأشياء بما تستحق في صدق وموضوعية.

هذه الأمور السابقة هي من احتياج العاملين في الحركة والدعوة، سواء كانوا قادة أم جنودًا، ولكن الجنود يجدون من بينهم من يقوم بكل هذه الأمور، وتبقىٰ القيادة تود وتتمنىٰ أن تجد من بين إخوانها من يقوم بهذه الأشياء، كما يحدث مع العاملين. ولكن ما كل ما يتمنىٰ المرء يدركه، ويتجه القائد إلىٰ مولاه في ضراعة وخضوع؛ ليعلن في صدق: ﴿إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَاىَ ﴾[1] .

اللهم تول القيادات الإسلامية بفضلك وحفظك وعونك... آمين.

(١) يوسف : ٢٣.

المعاناة الثاني
معاناة الفهم

أهمية الاشتراك في الفهم:

الفهم المشترك بين العاملين في أي مجال، يوحّد المسار، ويبين العوائق، ويكشف مراحل الطريق، ويتغلب أصحابه بتوحدهم واتفاقهم في الفكر والشعور علىٰ الصعوبات التي قد تقطع السير علىٰ السالكين، أو تعوق تقدمهم نحو الهدف المبين إلىٰ حين.

ومن قديم عبر الشاعر العربي عن الوسيلة الكاشفة عن الفهم بقوله:

لسان الفتىٰ نصف، ونصف فؤاده فلم تبق إلا صورة اللحم والدم

إنها الكلمة مسموعة أو مقروءة، إنها هي الرابط بين الأفئدة؛ لأنها المعبرة عن الفؤاد، المبينة للأفكار، المعبرة عن نفس صاحبها ووجدانه ومشاعره. فصار الكلام عنوانًا عما في داخل الإنسان.

غاي الكلم :

وما دام الكلام هو وسيلة التوصيل والتواصل، فإن للكلمة غاية يحاول المصلحون أن يصلوا إليها، ويعملوا علىٰ تحقيقها في عالم الواقع، إن غاية كلام المصلحين أن يصلحوا القلوب، فيستقيم بذلك السلوك، وينجلىٰ الصراط المستقيم، فلا يبقىٰ إنسان ما فيه عوج، فكيف يتم تحقيق هذه الغاية؟

إن الدعاة المتتابعين علىٰ البشرية منذ عهد نوح عليه السلام إلىٰ يومنا هذا يستخدمون الكلمة في بيان منهج الحق، ولا يكفون عن دعوة الناس إلىٰ هذا الحق، فما بال كثير من الناس يحجمون ولا يقدمون؟

إن الناس أمام دعوة الحق أصناف: منهم من يسمع فيجيب ويعمل، ومنهم من يسمع، ويتوقف، ومنهم من يعاند ويستكبر ﴿وَجَٰدَلُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ لِيُدۡحِضُواْ بِهِ ٱلۡحَقَّ﴾ [(١)] تلك هي

(١) غافر الآية: ٥.

الأرض التي يلقي فيها الدعاة إلىٰ الله بذور كلماتهم الطيبة، فتثمر مع الأولين، وقد تثمر - بعد حين - مع المتوقفين. أما المكابرون والمعاندون، فإن الآفة تكمن في فهمهم السقيم، الذي يحاولون به أن يوقفوا مسار الدعوة، ويصدوا عن سبيلها، ويصدق عليهم قول الشاعر:

وكم من عائب قولاً صحيحًا   وآفته من الفهم السقيم

وتظل المعاناة قائمة أمام الدعاة من مثل هؤلاء الناس الذين يفهمون الأمور علىٰ غير وجهها الصحيح. لا يخفف من هذه المعاناة إلا أننا نبلغ دعوة الله إلىٰ الناس، ولا نملك تحويل القلوب ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾[١] وبعد هذا البلاغ يفعل الله ما يشاء.

الكلم المؤثرة:

ولكي يؤدي الدعاة واجبهم في التبليغ عليهم أن يلتزموا هم أولاً قبل غيرهم بما يقتضيه هذا الواجب:

أ- من توافق سلوكهم مع أقوالهم ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٣﴾[٢].

ب - ومن التزام الصدق في كل حال، حتىٰ يصير طبعًا مواتيًا لا يتخلىٰ عنه الدعاة، وإن ظنوا - أحيانًا - أن فيه هلاكهم، ففيه حياتهم وحياة دعوتهم، وامتدادها في الزمان، واتساع أفقها في المكان.

جـ - ومن ضرورة التمسك بأسلوب العرض الصحيح لكلمة الدعوة ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ﴾[٣]، ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾[٤] فلا إسفاف ولا تجنٍّ علىٰ أحد، ولا سب ولا طعن ولا فحش ولا بذاءة، فإذا تحلىٰ الدعاة بهذا وقاموا بواجبهم في الدعوة، فلا عليهم إن خالفهم بعض الناس في الفهم والمسار.

عليَّ نحت القوافي من مقاطعها   وما عليَّ لهم أن يفهم البشر

---

(١) الشورىٰ: ٤٨.
(٢) الصف: ٣.
(٣) النحل: ١٢٥.
(٤) العنكبوت: ٤٦.

رغب الدعاة العاملين:

إن رغبة الدعاة العاملين أن يصل نور الله إلىٰ العالمين، وأن يتجاوب صدىٰ الدعوة في الآفاق، وأن يسود الدين ـ بكل تعاليمه ومبادئه ـ في بلاد المسلمين، وأن يظهر دين الله في الأرض علىٰ الدين كله، ولو كره ذلك المشركون والمنافقون وأتباعهم في كل عصر وجيل.

ويتفاوت العمل في حقل الدعوة لتحقيق هذه الغاية، مما يسبب معاناة جديدة بين العاملين الصادقين في هذا الحقل الخير العظيم، ومرجعا كذلك إلىٰ سوء الفهم، مما يجعل القيادة ـ بين حين وآخر ـ توضح المسار وتحدد الاتجاه وترسم الخطة؛ لتخفف المعاناة الناتجة عن سوء الفهم.

تخفيف العبء بتوضيح الهدف:

العاملون في الحقل الإسلامي يريدون من القيادة أن تمارس الأعمال التنفيذية اليومية، لما في ذلك من نفع للدعوة وتحقيق لها في أرض الواقع، بحيث يعلو بناؤها فيسرع نحوه الناس ملبين، مستجيبين، مدركين أن في ذلك نفعًا لهم في الدنيا والآخرة ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾﴾[1] وهذا بغير شك مطلب عادل ومشروع، غير أنه ليست له الأولوية المطلقة؛ إذ أن القيادة قد تنشغل به عما هو أهم وأولىٰ في هذه المرحلة، ألا وهو النظر الإستراتيجىٰ المستقبلىٰ للدعوة، ومدىٰ ارتباطه بالبيئة، ومدىٰ ما يحيط به من عوائق، قد تضيّع كثيرًا من فرص الاستثمار للأنشطة والبرامج والمواقف التي يقوم بها الدعاة في يومياتهم. ولعل هذا الوضوح في الهدف قد يخفف شيئًا من المعاناة، فيستريح ـ به الدعاة ـ قليلاً.

*****

(١) طه: ١٢٣.

المعاناة الثالث

معاناة الابتعاد عن الواقع

مناطقكم وأوطانكم:

تتنافىٰ الإقليمية مع الدعوة العالمية الإسلامية التي قضت علىٰ العصبية، وعلىٰ العنصرية، وتحددت فيها معالم المصلحة بين العباد والبلاد، فوضعت أوليات لا تلغي مصلحة الشخص لحساب المجموع، ولا تلغي ما يجب علىٰ الفرد نحو المجموع، وبهذا المقياس كانت تؤدي مصلحة البلاد أولاً، ثم إن استطاعت هذه البلدة أن تمد غيرها من بلاد الإسلام ـ بعد ذلك ـ بما يحتاجون إليه، فلا بأس بذلك، ولا غرابة. وهذا سعيد بن زيد يوليه عمر بن الخطاب مدينة حمص، ويستدعيه ليحاسبه، ويسأله عما عنده من مال، فيقول له: «**لو بقي عندنا شيء يا أمير المؤمنين لأتيتك به، لقد أخذت الصدقة من أهل الصدقة، ثم أعطيتها لمستحقيها ولو بقي عندنا شيء لأتيتك به**»، وهذا يتمشىٰ مع المبدأ الفقهي الإسلامي الذي لا يبيح نقل الزكاة من بلد فيه فقراء محتاجون إلىٰ بلد آخر لضرورة.

فالاهتمام بالإقليم أو بجزء منه أو بمجموع من الناس لا يمنع أن يكون هذا العمل جزءًا من العمل العام للإسلام.

والإنفاق ليس فقط بالمال فالأمر يتعدىٰ كل صورة فيها عطاء، فهذا يُعطىٰ مالاً، وهذا يُعطي وجاهة، وهذا يُعطي فكرًا، وهكذا يتنوع العطاء في البناء الإسلامي، وكل مُيسر لما خُلق له.

الفروق الإقليمية معترف بها:

لسنا ندعو إلىٰ إقليمية، أو إلىٰ عنصرية، ولكننا من أتباع السنة المحمدية، «**ابدأ بمن تعول**»[(١)] ومن أتباع الآية القرآنية: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾[(٢)]، وهذا بالطبع لا يمنع من إنذار الأبعدين في مرحلة البناء، ومن المعلوم الثابت أن لكل بيئة ظروفها التي

(١) أخرجه البخاري (١٤٢٧)، ومسلم (١٠٣٤) عن حكيم بن حزام.
(٢) الشعراء: ٢١٤.

تؤثر حتىٰ في القضايا الفقهية، فالإمام الشافعي له مذهبان قديم وجديد لا يفصل بينهما إلا انتقاله من البيئة في العراق إلىٰ البيئة الأخرىٰ في مصر، مما جعله يغير في بعض فتاويه، ويغير في بعض قضايا مذهبه بما يتوافق مع البيئة الجديدة، والنضج العلمي والواقعي الذي يأتي نتيجة لسعة الاطلاع علىٰ الكتاب المقروء والمنظور، فالفروق الإقليمية بين البلاد الإسلامية معترف بها، ومأخوذ بها بحيث لا تطغىٰ علىٰ العالمية في الإطار العام الشامل للإسلام، بعد القيام بالواجب الإسلامي الكامل في المنطقة التي يتحرك فيها الداعية الإسلامي.

القفز بعيدًا عن الإقليمي :

هذا الفهم المتوازن بين الإقليمية والعالمية، أو إن شئت فقل بين منطقة ما من أرض الإسلام وعموم هذه الأرض الإسلامية، هو الذي يصيبنا بالمعاناة؛ نظرًا لأن كثيرين يجاوزونه لسبب أو لآخر، فيفرون من أرض بلادهم إلىٰ بلاد بعيدة في أفريقيا أو أوربا أو أمريكا؛ عجزًا عن مقاومة الفساد الشائع في تلك البلاد، فيضطرون للتعامل مع الواقع القائم بنفسية مليئة بالإحباط، قد تجعلهم يتخبطون في عملهم الدعوي في تلك البلاد، مما يجعل مردود هذه الأعمال لا يتناسب مع الوقت والجهد والمال المبذول في سبيلها.
هذه الصورة للهروب من أرض الواقع ليست هي الصورة الوحيدة الفريدة التي نجني من خلفها المعاناة، بل إن هناك غيرها في بلاد الإسلام وبين الدعاة المسلمين أنفسهم، حينما يتحدثون عن الخلافة الإسلامية التي تجمع الأمة كلها، وعن ضبط الأمة، ليجتمع شملها تحت راية واحدة، وهذا وإن كان أملاً نرجو أن يتحقق ذات يوم، إلا أن الواقع المعاصر يخالف ذلك أعظم المخالفة، فالأقاليم الإسلامية كثيرًا ما تختلف حتىٰ تتحارب، وضبط الأمة علىٰ تصور واحد أمر بعيد عن الواقع الذي لا تستطيع الحركة أن تضبط فيه خطيبًا واحدًا بين مجموعة من الناس في إحدىٰ المدن الإسلامية. وعندما نذكر ذلك لا نعنىٰ أن تقوم الحركة بإزالة هدف الخلافة من جدولها، فهذا أمر سيتحقق إن شاء الله قبل أن تقوم الساعة، كما أخبر النبي ﷺ، ولكننا نتحدث عن واقع اليوم بإمكاناته وفرصه المتاحة، والأخطار المحيطة، فليس من المعقول أن يطلب من عنده درهم واحد

وجبة للعشاء ثمنها مائة درهم، فهو من الممكن أن يضع في ذاكرته أنه إذا ملك المبلغ الكبير يشتري هذه الوجبة، أما الآن فهو يشتري رغيفًا مع الماء الزلال؛ ليكون وجبة يجد فيها الشبع، وكفىٰ الحركة أحلامًا نتيجتها ضياع الحركة، وتأخرها، وفناء الشباب.

الصورة المرجوة اليوم:

إن الصورة المرجوة اليوم من العاملين في حقل الدعوة الإسلامية أن يتجهوا نحو أقطارهم وبلادهم أولاً؛ ليعملوا علىٰ إصلاح ما فيها ما أمكنهم ذلك، فأهل مكة أدرىٰ بشعابها، والرسم الصيني لا يفهمه إلا أصحابه، والقيادات اليوم في الأقطار متواضعة، ولعلها لا تستطيع أن تقوم بكامل واجبها نحو منطقتها، لقلة أهل العطاء وكثرة المتطلبات، فنحن في زمن ضعفت فيه الخيرية، وقل فيه بذل الجهد، وقد ينشغل قادة الحركة أحيانًا بهمومهم ومشاكلهم الخاصة التي تعوق من قدرتهم علىٰ العطاء؛ ولذا علىٰ الدعاة الاهتمام بمناطقهم، وواقعنا اليوم من تواجد القيادات أكثر من الحديث: «**الناس كإبل مائة لا تجد فيها راحلة**»[1]، بل الناس اليوم كإبل ألف لا تجد فيها راحلة، والأمر اليوم عند الدعاة كحال البلاد حين الاجتياح:

ولكن البلاد إذا اقشعرت وصوح نبتها رعىٰ الهشيم

فالتكاليف كثيرة، وعطاء الدعاة والقيادات متواضع، وجواذب الحياة وشواغلها عديدة، ومع كل هذه المعوقات تجد القيادة تريد كل شيء، مع أنها لا تملك غير القليل، لكل ذلك لزم الاهتمام بالمنطقة المحيطة أولاً، حتىٰ إذا استوىٰ نبتها، وأثمر غرسها، كان الاتجاه نحو أخرىٰ، وهكذا، أما أن تتسع الآمال والخيال والتصور ثم يضيق الواقع وينحصر ولا ينفرج فذلك فيه مطعن للدعوة أي مطعن «**يا أولي الأبصار**».

*****

(١) أخرجه البخاري (٦٤٩٨)، ومسلم (٢٥٤٧) عن ابن عمر رضي الله عنهما.

المعاناة الرابع
معاناة الحفاظ على بنيان الدعوة

الفتن ابتلاء واختبار:

لا تسلم الأمة من الفتن التي تتتابع عليها، فيسقط فيها من يسقط، وينجو من وبالها من ينجو، وتتنوع الفتن ما بين ظاهرة وباطنة، وتكون بالشر والخير، والسراء والضراء وصدق الله العظيم: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾(١). والمهم في رصد هذه الفتن وبيانها ومعرفة آثارها على الناس أنها لا تعم الأمة كلها، وذلك بحفظ الله لها، بفضل دعاء النبي: **«دعوت ربي ألاَّ يأخذ أمتي بسنة عامة فاستجاب لي»**(٢).

والفتن لا يسلم منها جيل، ولا يبتعد عنها من الناس قبيل؛ لأن أمر الناس لا يخلو من المعاصي والآثام والذنوب التي تجعل المصائب والنكبات تحل فوق المسلمين، لعلهم يرجعون عمّا هم فيه بالتوبة والإنابة إلى الله ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾﴾(٣).

الفتن والحرك:

وأشد ما تكون الفتنة حينما يتحير فيها أولو الألباب، ويقفون أمامها عاجزين، لا يجدون مخرجًا ولا يعرفونه، إلا من رحم ربك ممن اتقى الله، وطلب مثوبته ورضاه، وهذه الفتنة تبعثر قوى الأمة وتمزق أوصالها، وقد تتركها منهارة ضعيفة لا تسر حبيبًا، ولا تكيد عدوًا.

ومن طبيعة الفتن أنها غالبًا تتصل بالحركة لنصرة الحق وتأييده، وما فتنة المنافقين حينما عادوا بثلث الجيش قبل موقعة أحد عن الأذهان ببعيدة، وما كانت الفتنة التي قضت على الأخضر واليابس في عهد الخليفة الراشد عثمان بن عفان إلا مرتبطة ـ في أول

(١) الأنبياء: ٣٥.
(٢) أخرجه مسلم (٢٨٨٩) عن ثوبان رضي الله عنه.
(٣) الشورى: ٣٠.

أمرها - بالحركة المطالبة بتصحيح بعض الأخطاء التي وقع فيها بعض الولاة في عهده رَضِيَ اللهُ عَنْهُ. ومع هذا التحرك الذي يبتغي أصحابه الإصلاح فيما يطالبون به، كان الانفلات وكانت الفتنة، فقتل الخليفة الراشد، وسالت دماؤه علىٰ مصحفه، وحدثت موقعة الجمل وما بعدها من حروب وتمزقات، أخذت من عمر الأمة قرابة خمس سنوات أو تزيد، حتىٰ كان عام واحد وأربعين للهجرة الذي أطلق عليه عام الجماعة، فانحسرت الفتنة، وإن ظل لها بذور تنمو هنا أو تنمو هناك، فتعطل السير، وتقضي علىٰ قوة الدولة.

مداخل الفتن:

إن الراصد لما مرَّ بالأمة من فتن كبرىٰ وقعت قد يجد البداية واضحة، ظاهرها الحق من مطلب لعامة الناس، أو تخلص من ظلم وقع، أو دعوة لتغيير أمر يتصل بوالٍ أو بقاعدة من العرف والعادات ارتضاها الناس وألفوها، أو برفع راية معينة هي أحق من غيرها بأمر من الأمور، أو بغير ذلك، ثم يختلط هذا الحق الواضح في بدايته بعد قليل، ويختلط الحابل بالنابل، والصحيح بالسقيم، ولا يميز الناس بين زائف من القول أو صحيح. وهكذا تحدث الفتنة، البداية قد يكون فيها وضوح وحق ثم بعد ذلك الاضطراب والتذبذب والحيرة والاختلاف الذي يضعف الأمة ويجعل بأس أبنائها بينها شديدًا، ويخرج كل امرئ في الفتنة أسوأ ما فيه، حتىٰ يصير الحليم حيران.

ويصدق عليها ذلك القول: ومعظم النار من مستصغر الشرر.

وللشرارة حقر حين تنظرها   وربما أضرمت نارًا علىٰ بلد

وهذا الرصد الذي يراه الناظر المتأمل في طبيعة الفتن هو صادق في زمن الصالحين الذين كان فيهم من يقف بقوة في وجه الفتن يدرأ عن الأمة الفساد، ويأمر بالمعروف وينهىٰ عن المنكر، ويأمر الحاكم فيطيع امتثالاً للحق، ويطالب برفع الظلم فيزول ومع هذا كانت الفتن، فما بالك بزماننا الذي نعيشه والأمر فيه أوضح من أن نتحدث عنه، ومداخل الفتن أوسع مما كانت، والعاملون علىٰ درئها قليل عددهم، ضعيف بأسهم؟

تحذير للأم:

إن الفتن تطل برأسها، وتكاد تأخذ بخناق الأمة، فليحذر الناس ولينتبهوا، وليعلموا

أن الحذر واجب، ﴿خُذُواْ حِذۡرَكُمۡ ﴾[١]، وإن من أيقظ الفتنة من مرقدها استحق اللعنة والطرد من الرحمة، ولا نجاة إلا بالتقوىٰ والالتزام بأمر الله، والبعد عن الهوىٰ والميل عن الصراط المستقيم، دين الله القويم: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ٢﴾[٢].

الأمن ضرورة للناس في كل عصر:

شيئان يقضّان مضاجع الناس في أي عصر ومصر: هما الجوع والخوف؛ ولذا امتنَّ الله علىٰ قريش بقوله: ﴿ ٱلَّذِيٓ أَطۡعَمَهُم مِّن جُوعٖ وَءَامَنَهُم مِّنۡ خَوۡفِۭ ٤﴾[٣] والأمن هو الهاجس الشاغل للناس في منطقة الخليج الآن، الأمن مما يُكاد للبلاد من خارجها، ومما يكاد للبلاد من داخلها، وليس في البحث عن الأمن في منطقتنا غرابة، فنعم الله التي أفاضها علىٰ هذه البلاد يسيل لها لعاب الطامعين، فيعتدون علىٰ البلاد صراحة، كما حدث في أغسطس سنة ١٩٩٠م، حين هجم البعثيون العفلقيون علىٰ الكويت بليل غاب فجره، واختفي من السماء نجمه، فإن لم يستطيعوا مباغتة البلاد بجيوشهم لسبب أو لآخر، دبروا الفتن، وأوقدوا نيران المؤامرات الداخلية وألَّبوا الناس والطوائف بعضهم علىٰ بعض.

ومن وراء المؤامرات والفتن والحروب يختفي الأمان، ويطل الخوف، مما يجعل العقلاء في الأمة يبحثون عن الأمن الضائع ليعيدوه، فيطمئنوا في الأوطان والديار.

ونحن نبحث ـ كذلك ـ عن الأمن لنعيده لمن يفتقدونه، وسنصب حديثنا عن الأمن من زاوية محددة، نقول فيها رأينا، ويسعدنا أن يكون بابًا للحوار مع أصحاب الرأي، لنحقق الهدف وهو إيجاد الأمان علىٰ هذه الأرض. إننا نتحدث عن العلاقة بين الدعاة وأنظمة الحكم ومدىٰ صلتها بالأمان المطلوب.

علاق الدعاة بالأنظم القائم :

تختلف علاقة الحركة الإسلامية بالنظام القائم في عالمنا الإسلامي من بلد إلىٰ آخر؛

(١) النساء: ٧١.

(٢) الطلاق : ٢.

(٣) قريش: ٤.

إذ لا توجد صورة واحدة لهذه العلاقة يمكن أن تعمَّ العالم الإسلامي؛ لأن نظرة النظام القائم في بلد ما حين يتوجس من القائمين بالحركة الإسلامية فيتهمهم بالإرهاب والتطرف لا يمكن تعميمها، ونظرة القائمين بالحركة تجاه النظام بأنه معوق للأخذ بما أنزل الله، هي كذلك لا يمكن تعميمها.

إن العلاقة بين الطرفين إن قامت في بعض البلاد على الصراع والمواجهة، فليس هذا ضرورة حتمية للحدوث في كل بلد إسلامي، فالأصل في الحركات الإسلامية أنهم طلاب حق وعدل يبحثون عن الاستقرار والأمان لبلادهم وشعبهم الذي لا يمكن أن يكون إلا تحت مظلة الإسلام، ولهذا هم لا يُنازعون الأمر أهله بل يدعون أهل الحكم لتطبيق شريعة الله التي فيها دوام الحاكم وصلاح الأمة، ومن ثم فلا مبرر للصراع؛ لأنه ليس هناك كرسي للحكم يتصارعون عليه، وهذا المنهج أصيل، حيث كان قادة الفتح الإسلامي من أول عصره يولون زعيم القبيلة ورئيس القرية إن استجاب لحكم الله ويُعطونه حكم قريتهم، يحكمهم بشريعة الله، ولعلّ من أسباب الصراع الموجود بين الأنظمة والحركات الإسلامية عدم جلاء هذه الحقيقة، وظنهم أن الإسلاميين يسعون للإطاحة بهم، وسلب الحكم منهم، وحين ذاك وقبله لكون الأجهزة الخارجية والاستخبارات العالمية تشعل النار وتزيد من الشقة مستخدمة في ذلك كل الأساليب والإمكانات الجبارة التي تملكها، ويساعد على ذلك طبيعة بعض الأنظمة التي بنت نفسها على قواعد وأصول معادية للدين.

ومن الملاحظ أن هناك الكثير من الأنظمة في ظاهرها لا تتهم القائمين بالحركة الإسلامية بالإرهاب أو التطرف ولا تستخدم معهم الأساليب الشرطية، التي تستخدم في دول أخرى، بل قد نرى هذه الأنظمة ترى في رجال الحركة الإسلامية جذوة تعمل لخير البلاد وخير العباد، فتمد إليهم يد العون، وتزيل من طريقهم بعض المعوقات، ومن الملاحظ أن الدعاة من رجال الحركة الذين يتحدثون في محاضراتهم وكتبهم عن وجوب طاعة أولى الأمر لا ينابزون الحكام ولا يتهمونهم بالكفر والعصيان، وإنما يرون في ظاهرهم أنهم يسعون لإظهار تعاليم الإسلام في مجتمعهم، وهذا النوع من الأنظمة ـ

الأصل في العلاقة القائمة بينه وبين الحركة أن تكون علاقة تكامل لا تمنع النصيحة، وتوافق لا يمنع التواصي بالحق، وثقة لا تمنع أن يقوم كل طرف بواجبه نحو الطرف الآخر، من غير صراع أو مواجهة، بل في تآلف وتآزر وتعاون.

وهؤلاء الدعاة في هذه الأنظمة لا يُربون الشباب علىٰ الاستهتار بالحاكم، ولا علىٰ التشكيك في العلماء وأقوالهم وتصرفاتهم أيًا كان موقعهم، كذلك فالتقليل من شأن الحكام والعلماء وتشويه صورتهم وتتبع عوراتهم كفيل بهز صورتهم عند أي خطأ يقعون فيه في ذهن الشباب، وقد يقابلون هذا الخطأ في غير مرونة وبغير روية، ويظنونه عن تعمد، فيقابلون الأمر بالتحدي أو التعدي، فتكون الفتنة، ويكون الشر المستطير، ومن هنا لزم أن نقول: إن المحافظة علىٰ الشباب مقدم علىٰ (إعلان) النصيحة، حتىٰ لا يحدث ما حدث في بعض البلاد الإسلامية حيث مُسخت الهوية الإسلامية بعد المواجهة المفتعلة، والتي حُدد فيها الخاسر، وهو الطرف الأضعف في العالم، والمتآمر عليه من العالم أجمع.

المسئولي عام :

إن أمن البلاد هو مسئولية الحكام والعلماء، ثم الناس جميعًا بعد ذلك، كلٌّ بقدر قدرته واستطاعته، وعلىٰ الحكام أن يقوموا بمسئوليتهم في الأمن بأداء واجبهم نحو المحكومين، وبضرب القدوة في الإيثار أمامهم، وتقبل النصح -بشروطه- في غير غضاضة ولا نفور.

وعلىٰ العلماء أن يقوموا بمسؤوليتهم في تحقيق الأمن بمعرفة الطريق الذي إن استلزم العنف حينًا استلزم الصبر حينًا آخر، فليس هناك طريق واحد للدعوة، فليس بلازم أن يكون العنف هو الطريق، بل الأصل أن يكون الصبر والقول الحسن، والحكمة، ومخاطبة الناس بما يحبون من الموعظة الحسنة .

إذا تمَّ ذلك بين الطرفين (الحاكم والعلماء) فقد يتحقق الجزء الأكبر من الأمن،

وتستقر البلاد ويُهيأ للمبادئ الإسلامية أن تسري في المجتمع كما يسري رحيق الأزهار في الأشجار.

*****

المعاناة الخامس
الجرأة في إعادة النظر في تفكيرنا

الكلم مرهونة بملابساتها:

ليس لكلام بعد كتاب الله وسنة رسوله الصحيحة الثابتة قداسة، فكل واحد يؤخذ من كلامه ويرد، إلا النبي ﷺ، كما قال إمام دار الهجرة رضي الله عنه، وقد يكون الرد لا لخطأ في ذات الكلام، بل لأن ملابساته والظروف التي قيل فيها قد تغيرت وتبدلت، فأصبح أثرًا بعد عين، مما يستلزم إعادة النظر من حين لآخر في الأفكار المطروحة، لتغييرها، أو إقرارها، أو تعديلها وتحويرها، أو إضفاء مزيد بيان لها، أو تجاوزها ووضع أفكار بديلة مكانها.

قضايا ثابت المدلول:

هذا القول إن أخذناه في الأفكار الحركية النظرية، التي تصنع تصورًا لبناء جيل واع مفكر، مالك زمام نفسه أمام انحرافات الحياة، فقد لا يكون جائزًا أَن تعدل أو تغير من الكلام الذي يعبر عن قضايا ثابتة لا يتغير النظر إليها إلا حين يتحقق مدلولها في عالم الواقع، فيصبح المدلول الجديد أمرًا لازمًا، ليحل محل المدلول القديم.

فمثلاً مدلول: إرجاع فلسطين، فهمنا منه لزوم أن ترجع أرض فلسطين لأصحابها، وأن يتخلىٰ عنها الإسرائيليون، وأن يرجع الفلسطينيون المشردون في الأرض منذ قيام إسرائيل - في أرض فلسطين المحتلة - إلىٰ وقتنا هذا إلىٰ تلك البلاد، ليقيموا فيها دولة، وتكون وطنًا إسلاميًا لهم، وهم أحرار فيما يفعلون وفيما يمارسون، كما تمارس سيادتها علىٰ أرضها أي دولة من حدود شرع الله سبحانه، هل تحقق هذا المدلول حتىٰ نقدم بديلاً آخر عنه؟

بالطبع لم يتحقق هذا المدلول، وما تحقق هو أننا انتقلنا عنه إلىٰ غيره من المدلولات التي لا نحققها، كمبادلة الأرض بالسلام، والمفاوضات والحكم الذاتي للضفة وغزة، وغير ذلك من المدلولات التي يضعف حجمها وأثرها، حتىٰ صرنا نتحدث عن مدلول

عـودة المبعـدين في مـرج الزهـور إلـىٰ فلـسطين، وهـؤلاء لا يتجـاوز عـددهم أربعمائـة شخص، وصار موضـوعهم حـديث الـصحافة الـشاغل مـدة مـن الـزمن، ومـا يـزال. فـأين مئات الألوف الذين رحلوا من فلسطين قسرًا، ليهيموا في نجاد الأرض ووهادها؟

إلىٰ هذا الحد ينحسر المدلول العمليٰ لبعض الأقـوال، ممـا يـشعر بخلـل في التـوازن بـين المدلولين. وما الخلل إلا في قوتنا، وعدم قدرتنا علىٰ تحقيق ما نقول، كما أنه من الـلازم أن نقول: إن الحديث هنا عن فلسطين كأرض وشعب، أما فلسطين كمقدسـات ومـسرىٰ النبي ﷺ فهذه آية في كتاب الله، لا يملك أحد أن يُتاجر فيهـا أو يُزايـد، فهـي للإسـلام وإن ضعف المسلمون.

باطل مزخرف:

كم من كلام في ظاهره القبـول، وفي باطنـه تغريـر وتـضليل يقولـه المرجفـون، ويحمـل تبعته من لا ذنب له، ولا إساءة منه؛ ولذا شاع القول القـديم «**كلمـة حـق أريـد بهـا باطـل**» لكل شعار يعلن بين عامة الناس، فيرددونه ويقبلونه، ويدعون إلـىٰ تطبيقـه وتنفيـذه، وهـو في باطنه قد يحدث فتنة ويثير بلبلة، تستفيد بها فئة قليلة من الناس علىٰ حساب الجمـاهير العريضة.

وكم من أمثال هذا الشعار يطلق الآن في كـل حـين، ثـم لا يحـصد منـه عامـة النـاس إلا العلقم والشوك. والأمثلة أعظم من أن نحصرها أو نبينها ونعددها.

طبيع الحق:

قد يحجب الحق إلىٰ حين ولكنه لا يندثر ولا يتبدد، وقد ينتفش الباطل ويزهـو ولكنـه يدمغ بالحق ويدفع، ﴿ بَلۡ نَقۡذِفُ بِٱلۡحَقِّ عَلَى ٱلۡبَٰطِلِ فَيَدۡمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ﴾[1]، وزهوق الباطـل محتاج إلىٰ قوة تدافع عـن الحـق وتعلـىٰ مـن شـأنه، وقـد تمـوت أحيانًـا في سـبيله، ولكـن النـاس ـ اليوم ـ يكتفون بأن هذا القـول حـق، أو أن هـذه القـضية حـق، أو أن هـذا الموقـف حق ـ ثم تجد ـ بعد هذا الاعتراف السلبية، فلا يتحرك أحد لنصرة الحق، ولا يجـرؤ أحـد علىٰ مقاومة الباطل.

(١) الأنبياء: ١٨.

فما قيمة اعتراف بحق لا يتحقق، وما قيمة إنكار باطل ينتشر بين الناس دون مقاومة؟ ولو اكتفىٰ الناس بالإنكار علىٰ عدوان ثم لم يردوه ويقوموه فما قيمة هذا الإنكار؟

إنما يعترف الناس بالحق ليتمسكوا به وليحققوه واقعًا في حياتهم، وليدفعوا به الجور والظلم والعدوان، وكل منكر في الأرض. وما لم يكن للحق مناصرون يؤيدون هذا الدور في الحياة، فلا قيمة لإعلان حق، ولا قيمة لإنكار منكر؛ إذ ليس الهدف هو التسلق علىٰ المبادئ والوصول إلىٰ الغايات بأي سبيل ـ كما اعتاد بعض الناس أن يفعلوا ذلك ـ وإنما المقصود أن تحدث الكلمة أثرها، وأن يكون للمبادئ احترامها، ولن يتأتىٰ ذلك بغير الصدق في القول والعمل علىٰ السواء.

دعوة إلىٰ الخير:

إننا ندعو إلىٰ وحدة الكلمة بغير تحزب وبغير تعصب، وإنما بالحق وللحق، بحيث يعطىٰ الإنسان الحق من نفسه وهو راضٍ، ويخضع للحق وإن كرهه، ويرضىٰ بما يفرضه عليه، وإن ظن أن في ذلك ضيقًا له.

إن الكلمة المؤسسة علىٰ الحق والصدق والهادفة إلىٰ الخير والصلاح والمستمدة قوتها من إخلاص صاحبها: هي رسولنا للناس؛ ليلتفوا حول المنهج التربوي، وليتمسكوا بالقيم الأخلاقية، وليتخلصوا من الشرور في الحياة، مائلين نحو الخير، ولعلنا ـ بعد الغزو العراقي الآثم علىٰ بلدنا ـ نستطيع أن نقول بجلاء: إننا في حاجة إلىٰ إعادة النظر في كثير من القضايا والأمور التي كانت من المسلمات.

*****

المعاناة السادس
المعاناة من واقع الأمم :
البوسن والهرسك

يوم كنا خير أمم :

يدعو القرآن المسلمين أن يكونوا أمة واحدة، ويدعو الرسول ﷺ أن يكون المسلم للمسلم، كالبنيان يشد بعضه بعضًا، ويوم كان المسلمون مستجيبين لله والرسول كانوا في مقدمة ركب البشرية، فهم الأئمة للناس، وهم الذين لهم السيادة في الأرض، وهم الذين لا يعتدىٰ علىٰ حرماتهم، وتصان مقدساتهم، وتحفظ حدود بلادهم، فلا يجور عليهم من الناس أحد ولا تعتدي عليهم أمة من الأمم، وإن حدَّثت نفسها بغزو المسلمين وهمَّت فالرد معروف، وهزيمة الأعداء واقعة لا محالة، يجري عليهم ما جرىٰ علىٰ الصليبيين يوم هزموا في المنصورة وقال قائلهم في الأسر يخاطب لويس التاسع ملك فرنسا الذي أسر في دار ابن لقمان، تحت حراسة صبيح:

دار ابن لقمان علىٰ حالها والقيد باق والطواشي صبيح

ويجرىٰ عليهم ما جرىٰ علىٰ يد المعتصم يوم نادته امرأة مستغيثة «**وامعتصماه**» فلبىٰ نداءها وهاجم الروم بجيش دمّر عمورية، حتىٰ قال في ذلك شاعرهم:

لقد تركت أمير المؤمنين بها للنار يومًا ذليل الصخر والخشب
غادرت فيها بهيم الليل وهو ضحىٰ يشله وسطها صبح من اللهب

كان ذلك يوم كنا خير أمة، يوم وضع المسلمون أنفسهم جندًا تحت راية الحق يعلنون بين الناس أنهم عبيد لله لا لسواه.

سحق ومَحْق:

فلما فتر الإيمان، وخبت جذوته في القلوب، وانشغل الناس بالدرهم والدينار، والبنين والأوطان، وتساووا مع أعدائهم في المعاصىٰ ساء حالهم، وضعف بين الناس شأنهم، وذهبت ريحهم، فتآلبت عليهم الأمم، وتكالبت عليهم حثالة الناس وشراذم

المشردين في كل أرض، وعباد البقر، فديست المقدسات، وهدمت المساجد؛ لتقام علىٰ أرضها معابد وثنية لآلهة مزعومة، لا تضر ولا تنفع، وسلبت أوطان من بنيها، وهُجِّر مئات الألوف، بل قل الملايين من أرضهم وديارهم وأموالهم إلىٰ غيرها من البلاد لا لذنب إلا لأنهم يقولون: ربنا الله.

وإذا ما دققت في الصورة النظر، وتأملت ما فيها من العبر أخذتك الحسرة واللوعة علىٰ أمة يحدث ما حدثناك عنه في أطرافها، وفي بقع كثيرة منها، ثم في وسطها تذاع التهم وتلصق بكل من يظهر سمة إسلامية ويعلن بسلوكه ما حث عليه القرآن: ﴿وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ۝٣٣﴾[1] وتلاحقه التهم من كل جانب، وربما أخذته زبانية الجحيم إلىٰ حيث يذوق من حر السياط ويعرف من ألوان العذاب ما لم يكن يعرف أو يسمع من قبل.

أنين المستضعفين:

لكل هذا أصيبت الأمة في أعصابها فارتعشت أطرافها، واضطرب قلبها ووسطها، وعلم الآخرون شأنها، فاستطالوا عليها معتدين، فما وجدوا منها غير الأنين، الذي يطربون له، والنكير والشجب الذي يطمئنون لسماعه، ويعتبرون إعلانه علامة واضحة السمات؛ ليتقدموا نحو أهدافهم في إذلال الأمة وامتهانها. ونظرة منك يا أخي علىٰ مصوَّر أوربا تغنيك عن طلب الدليل، وتغنينا عن قول المزيد، أسمعت بتلك الدولة التي قامتْ في وسط أوربا تحت اسم: البوسنة والهرسك؟ وهل هناك من لم يسمع بتلك الدولة التي قامت فاعترفت بها دول عديدة وأصبح لها مكان في الأمم المتحدة؟

إنها ما كادت تعلن أمرها وتكشف هويتها الإسلامية، حتىٰ مُنعْت عنها الأسلحة، وظهرت فيها ذئاب صربية جائعة تفتك بالبشر المسلمين وتخوض في دمائهم، حتىٰ إذا روت غلها وحقدها بالقتل استدارت نحو النساء، لتنتهك الأعراض وتغصب الفتيات والسيدات علىٰ السواء، ولم تكف أذاها وشرها إلا بتشريد ما يزيد عن مليون من هؤلاء، خرجوا إلىٰ العراء تاركين ديارهم وأرضهم وأموالهم، ذاهبين إلىٰ حيث لا يد ترحم، ولا قلب يعطف، ولا معين ولا نصير إلا لمن ينتصرون ويتركون الحنيفية السمحة، وصدق

---

(١) فصلت: ٣٣.

فيهم قول الله عن أمثال هؤلاء: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ﴾(١) فمن عاد إلىٰ ملة الصرب كفوا عنه الأذىٰ ـ ولو كان ذلك إلىٰ حين ـ ومن استمسك بالصراط المستقيم فله من هؤلاء الصربيين سواء الجحيم، وعذاب السعير، وهتك الأعراض وإسالة الدماء بالقتل والتنكيل، دون أن يكون لمثل هؤلاء بكاةٌ يبكون، أو نواحٌ يستغيثون.

موقف العالم:

والعالم (الحر) يرىٰ ويسمع ما يدور، يرىٰ ضحية مقيدة حين منع عنها السلاح ويسمع الأنين والتوجع والصراخ، فلا يهتز منه قلب، ولا تفر من عينه دمعة، ولا يأسىٰ، ولا يحزن، ولربما تعطف لسانه بكلمة مواساة حينًا، في الوقت الذي يمد يده بالسلاح للصرب، ويومئ لهم بكل إشارة إنا لكم مؤيدون مناصرون، فافعلوا ما بدا لكم، فجنودنا من روسيا واليونان وغيرهما تقاتل معكم، وسلاحنا يأتيكم إلىٰ دياركم حيث أنتم، والأمم المتحدة بقراراتها المتلكئة، المتباطئة المتواطئة تعينكم ولا تتخلىٰ عنكم، فلماذا تتوقفون أيها الصربيون عن القتل والسفك والسلب والاغتصاب؟

نوم هنيء:

أمن أجل ما يسمىٰ بالعالم الإسلامي؟ لقد أعطىٰ الصرب والعالم مهلة من الزمن في ديسمبر سنة ٢٩٩١م وقال: إنه سيتخذ الموقف اللازم نحو إخوانه البوسنيين إذا لم يتصرف العالم مع الصرب بعد ٥١ يناير سنة ٣٩٩١م، ولما جاء الموعد المضروب كان النعاس قد سيطر علىٰ العيون في العالم الإسلامي، فاستسلمت لنوم لذيذ وديع، هانئ مستقر، وتركت مسلمي البوسنة يعانون مما يعانون، وصدق علىٰ عالمنا الإسلامي القول الذائع:

زعم الفرزدق أن سيقتل مربعًا ... أبشر بطول سلامة يا مربع

ولسنا نملك في النهاية إلا أن نقول: لا حول ولا قوة إلا بالله، وإنا لله وإنا إليه

(١) إبراهيم: ١٣.

راجعون.

*****

المعاناة السابع
معاناة الأمة في أفغانستان

تخطيط قديم للتغلغل والسيطرة:

منذ سنوات عديدة كانت الطريق الموصلة بين كابول، والاتحاد السوفيتي (سابقًا) من أوسع الطرق في أفغانستان وأكثرها تمهيدًا، ولم يكن يخطر على بال إنسان أن يسأل نفسه: لماذا هذا الاهتمام المنصب على هذا الطريق بالتحديد دون سواه من الطرقات التي يضيق بها الناس ويلقون عند اجتيازها والمرور فيها عناء؟ حتىٰ وقع الغزو الشيوعي لأفغانستان، وامتلأ هذا الطريق بالآليات الحربية المتنوعة والمتعددة، التي لابد من استخدامها في تثبيت أركان الشيوعية، والتي لا تغني عنها الطائرات وغيرها مما يركب الفضاء، ويخترق الهواء. وهنا فقط تنبه الناس لهذا الطريق، وعلموا أن الاهتمام به كان خطوة مهيئة للغزو الشيوعي الذي استطاع أن يوجد له صنائع صفقوا له، وأيدوه، ورحبوا به.

مَدّ بعد مدّ:

واستقر الغزو الشيوعي في أفغانستان، وتلفت العالم الإسلامي حواليه مذهولاً مما حدث في سهولة غريبة وعجيبة، وظن أنه قد جاء المد الثاني للاتحاد السوفيتي في بلاد الإسلام، بعدما استطاع أن يمتد سنة ١٩٢٤م ليأخذ من بلاد الإسلام ست جمهوريات، ويضمها إلىٰ بلاده لتكوِّن جنوب الاتحاد السوفيتي، ولتكون سلة الخبز التي تمده بالغذاء والكساء، ولينال شعوبها القهر والاعتداء إن لم يغيروا ملتهم، ويتخلوا عن عقيدتهم.

أهذا الغزو الشيوعىٰ لأفغانستان هو المد الثاني للاتحاد السوفيتي في بلاد الإسلام؟

جهاد وانتصار:

ويأبي شباب تربوا علىٰ الدين أن يستكينوا للمعتدين فأعلنوا الجهاد ضد واحدة من أكبر قوتين (آنذاك) في التاريخ المعاصر، ولو ترك المجال للموازنات العسكرية وحدها

لاعتبر عمل هؤلاء المجاهدين نوعًا من الخيال، وضربًا من ضروب الانتحار، لما لأعدائهم من قوة، ولما ما لديهم من ضعف في العتاد والسلاح. وما يكاد الجهاد الأفغاني يعلن عنه في بلاد الإسلام، حتىٰ تبادر الشعوب المسلمة بالعون والتأييد ما استطاعت إلىٰ ذلك سبيلا، وتشتد ضراوة المعتدين ولا تضعف عن السلاح قبضة المجاهدين، ولا تخضع عقولهم لمكر الكائدين من دهاقين السياسة وصانعي الأحداث.

وشاء الله أن ينتصروا وأن يندحر الشيوعيون من البلاد، وأن يسقط من بعد انسحابهم بسنوات حكم العملاء، وأن يظهر المجاهدون رفاق السلاح علىٰ ساحة السياسة، وسدة الحكم.

آلام وغصص:

وتنفس المسلمون الصعداء، بعد سنوات مرة ذاقوا فيها البلاء والعناء، واستبشروا خيرًا بقيام دولة مسلمة يضعون آمالهم عليها في إقامة كيان مسلم، يضاف إلىٰ سلسلة الدول الإسلامية التي تحكم بشريعة الله، ودول علىٰ رأسها المملكة العربية السعودية ودولة باكستان تكون نموذجًا آخر لتحكيم شريعة الله في الأرض، وتحقيق العدل، ورفع الظلم والجور، ولكن الآمال أصابها الجرح - ولو إلىٰ حين - مع إطلاق أول صاروخ من المجاهدين نحو كابول العاصمة التي تحت سلطان واحد من المجاهدين، وتدخل الخيّرون وسارعت هيئات، وقامت بالسعي بين زملاء الجهاد سلطات، استطاعت أن تحد من اتساع الخروق، ولكنها لم تُزِلْ جذورَ الخلاف، وما زال الأمر يحز في نفوس الغيورين من المسلمين علىٰ ما يحدث في هذا البلد بين المجاهدين، تلك معاناة أخرىٰ مما هو موجود في أمتنا، التي جُعِلَ بأسها بينها، يهدمون بأيديهم ما بنوه، من أجل أمر قد يزول بعد حين.

لم ينظروا إلىٰ نهر الدم الذي سال من الشهداء، ولا إلىٰ المعوقين من الأحياء، ولا إلىٰ ما خرب من العمائر والمدن، لم ينظروا إلىٰ الحسرات في قلوب المسلمين في كل أرض، حين يذوب الأمل في نفوسهم، وينمو الكمد والغيظ في أعماقهم.

لم ينظروا إلىٰ الشماتة التي تُرىٰ في عيون الأعداء أعداء الأمة وهم يضحكون هزءًا

وسخرية بالمسلمين. وإننا ما زلنا نأمل في وحدة الكلمة بين المجاهدين؛ لتوحيد الصفوف لإقامة شرع الله في الأرض.

*****

المعاناة الثامن
معاناة الأم

حقائق ثابت :

لا مراء في نصرة أتباع الحق، ولا مرية في اندحار الشيطان وحزبه، ولا شك في أن الحق يزهق الباطل ويدمغه، وليس يعلو الباطل إلا إذا ركن أصحاب الحق إلىٰ الأرض واثاقلوا إليها، وتمنوا الأماني، ولم يعملوا بجد وكد في سبيل إعزاز الدين والاستعلاء به في الأرض، هنا وهنا فقط ينتفش الباطل، ويزهو أصحابه، ويستكبرون في الأرض بغير الحق، ويظنون أن الدنيا قد دانت لهم، وأنها توشك أن تخلو من الحق وأنصاره، ويظل ذلك دأبهم حتىٰ يقيض الله للحق أنصارًا، يعملون بأوامر الله، ويتخذون منهجه دستورًا لهم في الحياة، لا يفرطون ولا يغيرون، يثبتون علىٰ الدين، ولا يبدلون أو يتلونون، تترىٰ عليهم الشدائد فيقولون:ربنا الله، وتأتيهم الدنيا بشهواتها، فلا يقبلون غير ما أحل الله لهم منها، هم جند الله المنتصرون، ﴿ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾ ﴾[1].

واقع الأم :

وأمتنا المسلمة اليوم تغلب عليها في أكثر أقطارها أخلاق الهزيمة والكسل عن العمل الجاد النافع للأمة في الدنيا والدين، فلا ابتكار ولا تجديد في وسائل الحياة التي فاقنا فيها غيرنا ولا استغناء لنا عنها، والضجر الذي يغرس في القلوب التقلب والتذبذب والقلق الدائم، فلا يحسن هذا المتضجر شيئًا لنفسه أو لغيره، والتواكل الذي يجعل المرء يدع ما في يده انتظارًا لما يتوهمه في المستقبل، فلا استفاد بحاضره، ولا استعد لمستقبله، والعجز في مجاراة الدول فيما تصنع أو تخطط أو تخترع أو تبتكر أو تعلم وتربىٰ، والتطلع بنهم شديد إلىٰ الماديات التي تحفظ للمرء حياته وكرامته إن أحسن استعمالها والانتفاع بها، ولكن حالتنا هذه هي تطلع بنهم يعمىٰ الأبصار عن رؤية الحقيقة، ويصم الأسماع عن تلقىٰ النصيحة.

(١) الصافات: ١٧٣.

أثر هذا الواقع:

وانعكس أثر هذا الواقع علىٰ الأمة وبالاً، فصارت كالأيتام علىٰ مأدبة اللئام، تقتات الفتات، وعندها وفي أرضها من الخيرات ما ليس عند غيرها، ويذبح أبناؤها، وأسباب القوة في يدها ـ إن أرادت ذلك ـ لتدفع بها عن نفسها، وتنتزع أرضها، فلا تصحو من اللهو والعبث، لكأن الناس مساقون سوقًا، نحو الهاوية لا يملكون أن يتوقفوا أو يمتنعوا!!.

فتنة عمت المدينة والقرية لم   تعف منهم فتية أو كهولا
وحقوق الإنسان لوحة رسام   أجاد التزوير والتضليلا
صور ما سَرَحتُ في العين فيها   وبفكرىٰ إلا خشيت الذهولا

إنك لترىٰ أثر هذا الواقع وصداه في القدس والأرض المباركة من حوله، حيث يفعل اليهود فيها ما يفعلون، فلا يلقون من أحد نذيرًا، ولا يسمعون من مشفق نكيرًا.

إنك لترىٰ أثر هذا الواقع وصداه من أطراف العالم الإسلامي كلما نظرت هنا أو هناك، هاهي ذىٰ كشمير المسلمة، التي تنزف دماؤها منذ تسلط الهندوس عليها، فلم يقف أمام فسادهم مصلح، ولم يمنع شرهم خيِّرٌ، مما جعل كثيرات من المسلمات هناك يلقين أنفسهن في الأنهار؛ خوفًا من انتهاك الأعراض من أفراد الجيش الهندوسي، الذي قتل أكثر من خمسة عشر ألف مسلم، فضلاً عن الجراح التي أصابت عشرات الألوف من المسلمين إلىٰ جانب المعتقلين الذين بلغ عددهم حسب الإحصائيات الرسمية أكثر من ثلاثين ألف مسلم.

إنك لترىٰ أثر هذا الواقع وصداه في بورما حيث النظام البوذي المطعّم بالشيوعية يكرر هناك مأساة كشمير، ويجبر أكثر من ٢٥٠ ألف مسلم علىٰ الهجرة عبر الحدود البنغالية في ظروف مأساوية محيرة مجحفة مهلكة.

إنك لترىٰ أثر هذا الواقع وصداه في آسيا الوسطىٰ، حيث حملات التنصير علىٰ أشدها، وفي تركستان المحتلة من الصين والتي يحارب الإسلام فيها بكل الصور، وفي تايلاند حيث يباع الأطفال المسلمون، دون رادع من أحد.

وفي سيرلانكا حيث قام التاميل بالهجوم على المصلين، فقتلوا مائة وسبعين مسلمًا ساجدًا لله رب العالمين في هجمة واحدة من هجماتهم الكثيرة.

وحقًّا كما قيل:

لو كان همّ واحد لاحتملته ولكنه هم وثانٍ وثالث

شروق الأمل:

رغم طول الليل يأتي الفجر المضيء، ورغم آلام المسلمين، فإن الأمل في تغير الصورة ليس ببعيد، ولكن على المسلمين أن يكونوا صابرين على العمل، ثابتين على الجد والكد، آخذين أنفسهم بتعاليم الدين، أقوياء في الدنيا، متمسكين بالاتباع في الدين، والابتداع الخلاق النافع في كل شئون الدنيا.

ويومها ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصْرِ ٱللَّهِ﴾[1] فيظهر نور الحق، ويسعد به أصحابه، ولايستطيع جاحد أو مكابر أو عدو أن يعتدي. تصان الأعراض، وتحقن الدماء وتحفظ الأموال، ويقف الأعداء مفكرين عشرات المرات قبل أن تسوّل لهم أنفسهم أن يعتدوا أو يسلبوا أو ينهبوا وإن غدًا لناظره قريب. ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾﴾[2].

*****

(١) الروم: ٤، ٥.
(٢) الشعراء: ٢٢٧.

المعاناة التاسع
شعوب لا تبصر الطريق

ضعف مصطنع:

إن الضعف المسيطر علىٰ كثير من بلاد المسلمين ضعف مصنوع بحنكة سياسية بارعة بحيث يظن المسلمون أن ضعفهم طبيعي، أو أنه قدر من الأقدار يتأبي علىٰ التغيير ولا يمكن لهم أن يتحولوا عنه في المسير، تلك الصنعة السياسية يقوم بها أعداء الإسلام ويجيدون تصديرها إلىٰ بلادنا، بعدما يهيئون لها السبل عن طريق الإعلام، فينشغل الناس عن كبار الأمور بصغارها، وعن عظائمها بسفاسفها، ولسنا نضرب في التيه بغير دليل، فكم من دولة مسلمة تستطيع أن تحسن صناعة الكثير من الآلات اللازمة للحياة، والتي تستوردها من الخارج بأثمان عالية، وناهيك من ثمنها، وما يترتب علىٰ ذلك من تبعات واشتراطات معلنة وغير معلنة، وقل مثل ذلك في الدول الإسلامية ذات الطابع الزراعىٰ، حيث يتأخر الإنتاج، وتضعف الثمار، ويحتاج الناس إلىٰ الاستيراد، فيتحكم غيرهم في عيشهم وطعامهم وربما شرابهم، فلا يستطيعون أن يستقلوا في قراراتهم؛ لأنهم لم يستقلوا بإرادتهم وإبداعهم، فيظلوا تابعين لغيرهم، يسيرون في ركابه، ولا يحيدون عن مناهجه.

سدود وقيود:

ليس الضعف إذن في البشر، وإنما الضعف هو نتيجة الطريقة التي يتخذونها في الحياة، فالبشر في منطقتنا ككل الناس يحتاجون إلىٰ التوجيه والتبصير وبعث الهمة، وإزالة العوائق والتشجيع علىٰ العمل المثمر النافع، والتبصير علىٰ إحسان العمل وإتقانه، ومكافأة المنتجين، ومعاقبة المسيئين المقصرين، وفتح باب العمل الجاد أمام الراغبين بسن القوانين التي تؤدي إلىٰ رقىٰ الأمة، وبعث روح الكفاح فيها، فتتحول عزائم أبنائها إصرارًا علىٰ التقدم والرقي، وعدم التبعية، مع بذل الجهد والتضحية في سبيل ذلك، والتخلي عن الأنانية في سبيل خير المجموع، فينصلح حال الجميع، وتتقدم الأمة؟

فما الذي يعوق ذلك؟ ومن الذي يمنع ذلك؟

إن المسلمين أقرب شعوب الأرض إلىٰ البذل والعطاء، والتضحية والفداء، إن عرفوا الطريق، وأتيح لهم أن يسلكوه من غير عوائق من بني جلدتهم ومن بينهم.

إن المسلمين أقرب شعوب الأرض لأن يكونوا أمناء أوفياء مجدين صابرين مثابرين؛ لأنهم يطلبون الرفعة في الدنيا، والعزة والجنة في الآخرة والرضوان، فهم يُعطونَ راضين، ويجدّونَ ويكدّون في الحياة مسرورين، فجزاؤهم إن لم يتحقق لهم كاملاً في الدنيا، فلن يضيع عند الله يوم الدين.

فماذا يمنعهم من ذلك؟ ومن يحول بينهم وبين واجبهم في خلافة الأرض؟

إن من الآفات ما تظهر أعراضه حين يحل بالجسد فيبادر المريض إلىٰ الطبيب ويستعين بأصحاب الخبرة لمقاومة المرض وأخذ الدواء النافع في حينه، ومن الآفات ما يصيب البدن فلا يشعر به المرء؛ لأنه يتسرب في جسده علىٰ رويّة، ويظل يظن أنه معافي حتىٰ يكون الداء قد تمكن منه، فتصبح المقاومة عسيرة، وحالة الشفاء متعسرة، وآفات أمتنا منها القديم المتمكن الذي يحتاج إلىٰ كفاح طويل وجهاد مديد، ومنها الظاهر البين الذي يمكن إيقافه والتخلص منه.

ومنذ القرنين السادس عشر والسابع عشر وأمتنا تشعر أنها أقل شأنًا في أمور الحياة من الدول الأوربية والغربية، وصار هذا الشعور يزداد رويدًا رويدًا كلما تقدم بنا الزمان، حتىٰ مطلع القرن التاسع عشر، بدأ التطلع لأخذ ما عند الغربيين، فكانت البعوث إلىٰ تلك البلاد في كثير من فروع العلم، ليعود المبعوثون محملين بقيم الحضارة الغربية المادية، المخالفة في أصولها، وكثير من فروعها لقيم الإسلام، فيعملون علىٰ بثها بين جماهير الأمة، ويقودونها في الفكر والعلم والأدب، وتفتح لهم المغاليق، وينالون أعلىٰ المناصب من قبل المستعمرين، ويجد هؤلاء مقاومة شديدة حينًا وضعيفة أحيانًا، حتىٰ أثمر هذا العمل في وقتنا عن جيوش تعمل في كثير من المجالات علىٰ إزالة قيم الإسلام، بل إنها لتهاجم الإسلام أحيانًا في صميمه، وتسخر من تعاليمه ومن رجاله، والعاملين في مجاله، وكل ذلك يتسرب إلىٰ الأجيال، ويترسب في شعور الأمة وفي «**لا شعورها**»

ليضعف فتيانها، ويفسد عليها أبناءها.

ويصاحب هذا الأمر التقدم المذهل في عالم المواصلات والاتصالات بأجهزتها الحديثة التي تنقل لنا ما عند الغربيين بصوته وصورته، وأحيانًا بفجوره وانحلاله؛ ليراه شبابنا الغض الذي ضعف الدين في نفسه بفضل أصحاب البعوث وآثارهم ودعواتهم، فيبتعد خطوة أخرىٰ نحو التحلل من قيم الدين وتكاليفه وواجباته التي لا يقوم بها إلا مَنْ صدوا أنفسهم عن الشهوات، وصانوا أعراضهم عنها، وحفظوا أفكارهم من اللوثات. فإذا ما ضعف الدين في النفس، ثم مالت هذه النفس إلىٰ ما لا يرضاه الدين فقد أصبح من السهل توجيهها الوجهة التي يريدها غير المسلمين، وفي هذا قضاء علىٰ الدين وأهله علىٰ المدىٰ البعيد الأكيد.

وإذا أضفنا إلىٰ ذلك ما نذيعه ونشيعه عن رقي الإنسان الغربي في نظمه وقوانينه وتمسكه بذلك رغم كل الظروف، وما يتبع ذلك من مظاهر الرفاهية، وخلو الحياة في بلادنا من ذلك ـ حقًا كان ذلك أم باطلاً ـ حين نذيع ذلك تكون كفة الميزان قد مالت نحو الإنسان الغربىٰ وطاشت كفة ميزان الإنسان المسلم.

إعادة البناء:

ونحن بحاجة ماسة لتأصيل أسس التربية الإسلامية التي تعصم المرء من أن يجرفه تيار الحياة الغربية، وتحول بينه وبين التردي والوقوع في الهاوية، وتبين طرق الولاء لهذا الدين، ومحبة البذل في سبيله، والتضحية بالنفس والنفيس من الأموال والبنين إن لزم الأمر.

نحن بحاجة لتبيان المناهج الغربية والقيم الزائفة من ورائها، ليحذر منها المسلمون ويبتعدون، نحن بحاجة لأخذ كل علم نافع من مصادره، علىٰ أن نُخضعه لقيم ديننا، فليس بلازم أن يصحب العلم التجريبي تقاليد أهله وعاداتهم المستمدة من أمور أخرىٰ بعيدة عن العلم.

*****

المعاناة العاشرة
معاناة من رفاق الطريق

هدف واحد:

الحركات العاملة للإسلام متعددة، وكلها يهدف لرفع راية التوحيد، وتحكيم شريعة الله وتحقيق المجتمع الذي تظلله العدالة، وتشيع فيه الحرية، ويأمن الإنسان فيه علىٰ نفسه وماله وعرضه، فلا يُعتدَىٰ عليه بغير حق، ولا يُرد رأيه بغير حجة، ولا يشك في نيته ما دام مظهره ملتزمًا بالإسلام.

وهذا هدف نبيل يسعىٰ إليه كل مسلم عرف الإسلام واتبع منهج رسول الأنام؛ لأنه يتبع الحق ولا يتبع الهوىٰ، ويتمسك بالقرآن والصراط المستقيم ولا يبغي عوجًا عن الطريق، ولا انحرافًا في السلوك. ولن يتم للعاملين في الحركات الإسلامية تحقيق هذه الغايات إلا إذا ارتفعوا بأنفسهم، لتتسامىٰ مع هذا الدين، فتترك الصغائر، وتنظر إلىٰ عظائم الأمور، وتتخلىٰ عن البحث عن سقطات الآخرين والتشهير بها إن وجدت، أو البحث عنها ومحاولة إيجادها أو الإيهام بوجودها إن لم تكن موجودة فعلاً؛ لأن هذا يعوق المسير ويجعل الدعاة العاملين ينظرون لأنفسهم ولا ينظرون -أحيانًا- إلىٰ غاياتهم، فيتعطلون وقد يتوقفون، وفي هذا إضاعة للجهود، وبعثرة للقوىٰ، وتفريط في عضد يؤيد، وساعد يساند.

النصيحة دين نتعبد الله فيه:

ولسنا نود أن يظل الخطأ سائدًا، والعيب شائعًا، فذلك ما لا يرضاه إنسان سمع قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «**رحم الله امرأ أهدىٰ إليّ عيوبي**»[(١)] ولكن النصيحة لها أصولها، ورد الناس إليها مرهون بتلك الأصول المرعية التي إن خرجت عنها صارت فضيحة لا نصيحة.

فما بالك بالباحثين عن الأخطاء والمنقبين عن قلوب الناس ونواياهم، وأنهم كانوا

(١) أخرجه الدارمي في سننه (٦٤٩).

يريدون في هذا الموضع كذا، وفي ذاك الموضع كذا، وتبدأ الكتابات التي تشوه صورة هذا الداعية أو ذاك، وقد يحمل هذا التشويه في ثناياه كلمات هي إلىٰ السب والطعن والتجريح أقرب منها إلىٰ التصويب والتوضيح، مما يجعل التلاقي بين العاملين في الحركات الإسلامية صعبًا والتوحد بينهم بعيدًا؛ إذ إن أصحاب هذا الاتجاه يصابون بموت القلب؛ لأنهم ينتقصون إخوانهم، وقد يسخرون منهم، فيثيرون بذلك حفيظتهم، فأنىٰ يلتقون؟ وكيف يجتمعون؟ ولقد قال ابن ناصر في «**الرد الوافر**» كلمة حق، ننقلها لما لها من أثر جدير بالاعتبار. قال: «**لحوم العلماء مسمومة، وعادة الله في هتك أعراض منتقصيهم معلومة، ومن وقع فيهم بالقلب ابتلاه الله قبل موته بموت القلب**» ومن مات قلبه، وخمدت شعلة الإيمان في فؤاده ماذا ينتظر منه؟

حب الخير للجميع منهج المخلصين:

ونحن نضرع إلىٰ الله ألا يميت قلوبنا أو قلوب أحد من إخواننا المسلمين، وندعو أنفسنا وإخواننا لأن نجدّ في طريق الدين، وأن نسعىٰ نحو الهدف الكريم هدف إقامة شرع الله في الأرض، وألا نبذر بذور الفرقة، أو نبعثر أشواك الاتهامات هنا أو هناك، فذلك يبعدنا عن الطريق.

ندعو أنفسنا وإخواننا لأن نكل الحكم علىٰ النيات لمن يعلم السر وأخفىٰ، وأن نحسن الظن بالعاملين، وأن نقيل عثراتهم، ونلتمس لهم أعذارًا لما قد يكون منهم من أخطاء - لم يتعمدوها، ولربما كانت منهم اجتهادًا أخطؤوا فيه ولم يصيبوا.

ندعو أنفسنا وإخواننا لأن يكون حالنا متمثلاً هذا القول:

وكلمة حاسدٍ من غير جرم ... سمعت، فقلت: مرّي فانفذيني
وعابوها عليّ ولم تعبني ... ولم يعرق لها يومًا جبيني
وما من شيمتي شتم ابن عمي ... ولا أنا مخلف من يرتجيني
بصرت بعيبه فكففت عنه ... محافظة علىٰ حسبي وديني

علىٰ طريق سلف الأمة نسير:

ولنا في السلف الصالح أسوة حسنة في ذلك، فقد كانوا يرعون حرمة العلماء والدعاة إلىٰ الله أحياءً وأمواتًا، وهذا يحيىٰ بن معين يقول: إنا لنطعن علىٰ أقوام لعلهم قد حطوا رحالهم في الجنة من مائتىٰ سنة.

ومن هنا وجب علينا ـ نحن المسلمين عامة والعاملين في الحركات الإسلامية خاصة ـ أن نغفر لمن أساء إلينا، ولا نشفي منه غيظنا، بل إن إسداء النصح بالطريقة الشرعية المقبولة خير لنا جميعًا؛ إذ نبدد به ظلمة الفرقة.

وقال ابن عباس: ما رأيت رجلاً أوليته معروفًا إلا أضاء ما بينىٰ وبينه، ولا رأيت رجلاً أوليته سوءًا إلا أظلم ما بيني وبينه.

ولقد عاد أبو موسىٰ الأشعري الحسن بن علي، فوجد عنده أباه عليًا، فقال: ما جاء بك إلينا؟ ما يولجك علينا؟ قلت: ما إياك أتيت، ولكن أتيت ابن ابنة رسول الله أعوده. قال علي: أما إنه لا يمنعني غضبي عليك أن أُحدثك، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إذا عاد الرجل أخاه لم يزل يخوض في الرحمة حتىٰ إذا جلس عنده غمرته**»(١) تلك آثار الصالحين تدلنا عليهم وتجذبنا إليهم، وتجعلهم لنا خير قدوة في هذا المجال، فلتكن لنا آثارنا في التسامح والعفو والصفح، حتىٰ ننال رضوان الله، ونكون من السائرين علىٰ درب الصالحين.

دعاة الخير انظروا بنفس صافي وعين راضي :

يقول عمر بن الخطاب ﵁: «**لا يحل لامرئ مسلم يسمع الكلمة من أخيه المسلم أو عن أخيه المسلم أن يظن بها سوءًا وهو يجد لها في الخير محملاً**» ما دامت الكلمة تحمل طوايا الخير في ثناياها، فلماذا نسيء بصاحبها الظن، ونحملها إلىٰ غير ما ينبغي؟

لا يفعل ذلك إلا كل من لم تخلص نيته، ولم تصفُ سريرته، إنه هو المنقب عما تحمل الكلمات من إساءات يبذرها في طريق المسلمين، ليسيء بها إليهم إلا أنه ـ بذلك ـ يرضىٰ نفسه التي لم تعرف غير السخط والضيق، ولو أنها عرفت الرضا، لعرفت معه حق

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف (١٠٨٣٩)، وأخرجه أحمد (٣/ ١٧٤) عن أنس بن مالك ﵁، وهو صحيح لغيره.

الأخوة ولعرفت معه أن المتأول في عمل من الأعمال له بذلك دليل من كتاب وسنة ومأثور من الصحابة والأئمة العاملين، ولا ينبغي أن يُعاب أو يذم، بل الأولىٰ به ـ إن أخطأ ـ أن ينصح وأن نبيّن له الطريق.

وعين الرضا عن كل عيب كليلة ولكن عين السخط تبدي المساويا

تلك هي العلة إنها عين السخط، التي لا ترىٰ من الدنيا نصفها المضيء، ولا ترىٰ من الكوب نصفها المليء. وفي ضوء رؤيتها القاصرة تنساق إلىٰ الجدل واللجاجة، فتقع في المحظور الشرعي الذي تجنبه العلماء، وجعلوا بينهم وبينه سدًا حاجزًا، وبونًا بعيدًا، وهذا هو الحسن البصري، وقد قيل له: نُجادلك؟ فقال: لست في شك من ديني، وقال العباس بن غالب لوراق: سألت إمامنا أحمد بن حنبل: يا أبا عبد الله، أكون في المجلس فيه من يعرف السنة غيري، فيتكلم مبتدع فيه، أرد عليه؟ فقال: لا تنصب نفسك لهذا، أخبره بالسنة، ولا تخاصم، فأعدت عليه القول. فقال: ما أراك إلا مخاصمًا.

أخي الداعي أسباب القطعي شرٌّ فاحذرها:

أسباب الوقوع في المخاصمة كثيرة، لأن المسائل منها ما هو قطعي لا مجال للمخاصمة فيه، والكثير من المسائل ظَنِّي وكون المسألة قطعية أو ظنية في الغالب من مسائل الخلاف من الأمور الإضافية، فقد تكون المسألة عند رجل قطعية؛ لظهور الدليل القاطع كمن سمع النص من رسول الله ﷺ وتيقن مراده، وعند آخر ظنية لعدم بلوغه النص، أو لعدم ثبوته عنده أو لعدم تمكنه من دلالته.

بناء علىٰ ما تقدم فما ينبغي لأحد أن يتهم آخر بغير دليل، طالما توفر حسن النية وخيرية المقصد، وفي هذا ترك للمجادلة والمخاصمة، يدفع بالناس إلىٰ التعاون فيما بينهم مما هو مشترك عام والإعذار فيما يرون فيه خلافًا مع غيرهم والحق مطلب الجميع، وإننا لنأخذ الحق من كل من تكلم به وأظهره، كما قال الإمام ابن تيمية: «**ولكن الحق يقبل من كل من تكلم به**»[1] والعارفون بالحق يعرفون أصحابه، أما الذين يعرفون الرجال، فلربما غفلوا عن الحق ما لم يرد علىٰ ألسنة رجالهم وأقلام أصحابهم، ومن ثَمَّ فقد يجادلون

(١) مجموع الفتاوىٰ (٥/ ١٠١).

وقد يخاصمون، وهم عن الحق بعيدون، وعن جادة الطريقة حائدون.

ميزان العدل أيها الدعاة فاستعملوه:

إن الله سبحانه يحاسب الناس علىٰ أعمالهم خيرها وشرها، فمن ثقل خيره، فله الثواب ومن ثقل شره فعليه العقاب، ولكن بعض الناس لا يرىٰ غير الخطأ ويعجز أن يرىٰ الصواب، فيرىٰ المخالف وكأنه مجموعة من الأخطاء ليس غير، وهذا ظلم بيّن، فلو عاملنا الناس بميزان العدل لنظرنا إلىٰ حسناتهم وسيئاتهم، وحكمنا بالغالب عليهم، فإن كثرت الحسنات قبلنا منهم الصحيح وعذرناهم فيما وقعوا فيه من سيئات، ونصحناهم بتركها، وإن كانت الأخرىٰ نصحنا وبينا الحق بالدليل والبرهان، من غير سب ولا إيذاء ولا اعتساف، آخذين بقول الشاعر:

وإذا الحبيب أتىٰ بذنب واحد ... جاءت محاسنه بألف شفيع

وليس علىٰ الناس ملام إن عملوا وجدوا واجتهدوا، ثم لم تثمر جهودهم شيئًا مذكورًا، فإن من الأنبياء من يأتي يوم القيامة وليس معه أحد استجاب له.

وعليّ أن أسعىٰ وليـ ... ـس عليّ إدراك النجاح

فالنجاح أو النصر مقدر بقدر الله، يؤتيه الله من يشاء من عباده، ولكن الذي علىٰ العباد أن يأخذوا بالأسباب كلها، وأن يخلصوا لله أعمالهم، وألا يتركوا شيئًا أمروا به إلا وفعلوه، ثم يكون بعذ ذلك كله النصر أو غيره بحسب مشيئة الله التي لا يعلمها الناس، وإنما هم يعلمون أن عليهم البذل والتضحية، والعمل المستمر مع الإخلاص وتبقىٰ نتيجة كل ذلك عند الله سبحانه قد يثيبهم عليه في الدنيا والآخرة وقد يدخر لهم الثواب في الآخرة وحدها.

والإنصاف يقتضي منا أن نحسن الحكم علىٰ الناس إن أحسنوا، ولا نسيء الحكم عليهم إن هم أساءوا غير عامدين، فقد يكونون مجتهدين أخطؤوا الطريق، وقد تكون لهم رؤية صحيحة جديدة، يراها الناس علىٰ غير ما ألفوا وعلىٰ غير ما عرفوا، فيظنون أنها مخطئة، وهي مصيبة. ويُرتبون علىٰ ذلك أمورًا وظنونًا تتهم صاحبها فلا يكون غير

الجدال والخصام والقطيعة.

ولم تزل قلة الإنصاف قاطعة بين الأنام وإن كانوا ذوي رحم

ونحن في هذا ندعو أنفسنا وإخواننا لحسن الظن، ونفي التهم، والبعد عن الجدال واللجاجة والخصومة، والأخذ بعين الإنصاف، ففي ذلك تتلاقىٰ الجهود، وتتوحد الاتجاهات، وتقوىٰ الأمة، وتأخذ في طريق إظهار الدين الإسلامي علىٰ الدين كله، ولو كره المشركون.

*****

المعاناة الحادي عشرة
الجمود في الفكر الحركي

الفكر الحركي الإسلامي مبعث للمعاناة، حينما نتأمل فيه؛ لأننا نجد قصورًا فيه أحيانًا، ونجد فيه أحيانًا أخرىٰ أمورًا مضىٰ وقتها الذي كان مناسبًا له في حينه، وهي اليوم تقال في زمن غير زمنها، وربما في بيئة غير بيئتها، فقد جدت أحداث، وتلاحقت أزمان، حملت كثيرًا من التغيرات في الوقائع ونوعية المواجهات وامتداد واتساع الحركة، مما كان يستدعي تطورًا فكريًا تجديديًا، لا يصف هذه الأحداث ويلاحقها فقط، بل يسبقها ويمهد لها إن كانت صالحة، أو يحذر منها إن كانت غير ذلك.

وهذه محاولة لتصحيح شيء مما لحق الفكر الحركي الإسلامي، قد تخفف شيئًا من المعاناة، وقد تحقق أملاً ربما طلبناه.

إن مجاميع الدعاة يحتاجون اليوم إلىٰ حركة فعالة سيارة متجددة لا تعرف القعود والجمود، إحيائية، تجديدية، متفاعلة مع واقعها من غير تعصب للمواقف الفكرية، أو السياسات المنهجية، ومن غير الالتزام الحرفي والتقيد بالأشكال التنظيمية والأعراف الحركية، بل إنهم محتاجون إلىٰ السعي دائمًا نحو توخي الحق وتحقيقه في واقع الحياة، وهذا التجدد قد يجري تلقائيًا عفويًا، نتيجة للنضج الحركي ونضج المجتمعات، أو لظرف طارئ علىٰ المجتمعات أو الحركات في مسيرتها، وفي هذا خير وخدمة للدين، ومن المعلوم أن أي طريقة للعمل لابد أن تعتمد علىٰ قواعد الدين وأصوله، ويتمسك بهما الدعاة، ولكن في المقابل لا يتعصبون لأي وسيلة بشرية تثبت الأيام أنها ليست حاملة للقدرة المغيرة لواقع المجتمع، وإن كانت في وقت من الزمان تؤدي الغرض الذي وضعت له، ولكن هذا لا يعني إلزامية استمرارها كوسيلة واحدة لا تتغير.

وأصحاب الطرح التجديدي يقررون أن المجتمعات والحركات الإسلامية الحاضرة تدين بالفضل للجماعات الإسلامية، والعلماء الأفاضل الذين سبقوا في حاضر العالم الإسلامي بالكم التوجيهي، من خلال وسائل الاتصال المختلفة التي خرجت منهم،

وهي حين تقرر ذلك عليها أن تضيف من الفكر الغربي التنظيمي والإداري الذي تفتحت عيون شباب الدعوة عليه من خلال دراساتهم الجامعية في جامعات الغرب، ثم تستفيد من هذا من خلال حركة تطويرية لمؤسساتها العاملة، ثم تصهر هذه الأمور في برنامج عملي في جو من الارتياح النفسي والاقتصادي والسياسي، لتنشيط روح الاجتهاد في إطار التخطيط والتنظير المبني علىٰ عمل مؤسسي شورىٰ، لينشأ بعد ذلك فريق كبير من الرواد.

المراد بالتجديد للفكر الحركي:

التجديد في الفكر الحركي هو إبراز البدائل وتقديم الحلول عند نقد الحلول الموجودة والتي لم تحقق الهدف، فالأفكار التجديدية في الفكر الحركىٰ ليست ردود فعل وانفعالات متسرعة نتيجة لحدث يعيشه الإنسان؛ لأن مثل هذا المنهج قد يوصل إلىٰ طرح حل معين، ولكنه ليس هو الذي يحل المشكلة، بل قد يوقع في مشكلة أخرىٰ. فالتجديد هو العمل المبرمج لتحقيق مراد الإنسان وإخراجه من حدود المثير والاستجابة.

وهو ترتيب للمصالح والمقاصد، وجمعها في صيغة متكاملة، بعيدة عن التعارض، مع الموازنة في ترتيب الأولويات، وتقديم مصلحة المجموعة علىٰ مصلحة الفرد، مع احتفاظ المجدد بقيمته أمام المجموعة.

التجديد بعد التقويم:

من الأزمات التي تعترض الحركات الإسلامية أزمة الفكر الحركي حيث أصابها شيء من الجمود والتوقف، وأصبح فكرها غير قادر علىٰ إخراجها من أزمتها، والفاحص يجد أن الكثير أو القليل من التعثرات هي انعكاسات وآثار مختلفة للأزمة الفكرية، حيث اختلطت الأوراق، واضطربت الأولويات، وتعرضت قدرة العطاء إلىٰ الذوبان، وتأخر مستوىٰ الأداء وشكله، وعلىٰ هذا لابد من أن تعطي قضية الفكر الحركي الأولوية كأساس في بداية الانطلاقة الجديدة، ولابد من إعطاء هذه المسألة الحق في النقاش والحديث، من أجل الوصول إلىٰ النضج.

فالإصرار والعناد علىٰ أمر من اجتهاد البشر تظهر صور الخطأ فيه من خلال الممارسة في الزمان والمكان ستكون نتيجته امتلاء قلوب الأتباع بالشعور بالتعظيم لهذا الذي ألفوه، حتىٰ يصلوا به إلىٰ عقدة السمو لما اعتادوا عليه واحتقار الآخرين من أصحاب الفكر الآخر، وهذه من الويلات التي يعيشها المجتمع الدعوي في عالمنا العربي الإسلامي، وهو تكرر لمقولة الأعرأبي: «**اللهم اغفر لىٰ ولمحمد، ولا تغفر لأحد معنا**»[1]، والخطورة الأكثر أن ينبني علىٰ هذا الفكر منهج سلوكي في تعامل القوىٰ الإسلامية بعضها مع بعض، فبدلاً من التناصح والتعاون يكون التحاسد والتناحر.

التجديد بين حرك الكون والفكر:

نلاحظ أن التجديد والحركة هي القاعدة التي يقوم عليها الكون من أجل ألا يأسن، ولا يتجمد، ولا يفسد، فهو في حركة وتغير وتطور مستمر، ولكن هذه المرونة والحركة منضبطة، فانظروا مثلاً إلىٰ الإلكترونات نجد أنها تدور وتتحرك، ولكن حول الذرة، وكذلك الحركة المقبولة في الفكر البشري التي لا تخرج عن ثوابت الأصول والقواعد التي قام عليها الدين.

فالتجديد في الفكر الحركىٰ تابع للخاصية الإيجابية لهذا الدين ﴿وَقُلِ ٱعۡمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ وَرَسُولُهُۥ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾[2] وهذه الإيجابية متوافقة مع واجب الإنسان في الأرض، وهو الاستخلاف لتحقيق منهج الله في صورته الواقعية.

البدء بالتجديد:

لابد من البدء بمنهج التجديد الحركي من خلال أدبيات الحركة الإسلامية، لتتكون بعد ذلك القناعة الفكرية بهذا المنحىٰ في السير؛ لتكون بعد ذلك حقيقة قائمة في الخطط المرحلية للدعوة، فالحركات التي تعرف مكمن الداء فتتقيه، ومركز الخطر فتجتنبه، ثم تبدأ بالتحذير من أماكن الخطر، هي الحركات التي يتم لها النجاة من غرق الفتن والانشقاقات.

---

(١) أخرجه البخاري (٦٠١٠) عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
(٢) التوبة: ١٠٥.

فالذي ينظر في التاريخ يرىٰ أن الانبعاث الذي يأتي نتيجة للاضطرابات التي تحدث في صفوف الجماعات قد يؤدي إلىٰ خطر يهدد حتىٰ وجود الجماعة في تماسكها وعطائها، أما ما يأتي عن طريق حركات تجديدية إنقاذية عامة أو قيادة آسرة[(١)] مبدعة، فهو طريق مأمون الجانب لحدوثه في فترة كافية للحوار والاختلاف وتخمير الرأي.

وبهذا قال أحد الزعماء الصينيين: «**إن الذي كان علينا أن نقوم به من توعية للشعب إلىٰ الخطر الذي يحيط به لم نقم نحن به، وإنما قام العدو بهذه التوعية، حين صارت قنابله تسقط علىٰ الشعب**».

فالبدء بالتجديد في الفكر الحركي من أجل ألا يتمزق شباب الدعوة بين سلبيات الحركة والولاء لها وعدم رفع الصوت فيها، فالتجديد من أجل ألا تكون الحركات الإسلامية مجموعات بشرية تجمعها الشعارات والعواطف والخطب البليغة، نعم لابد من التجديد والبدء لتستمر الحركة متماسكة سادة لباب الانشقاق والصراع الداخلي، من أجل ألا ينادي في وسط الحركات الإسلامية بأنها قد انتهت صلاحية البضاعة التي تحملها، فتحكم عليها حينئذ مؤسسات الفكر بالإلغاء، لانتهاء المدة!! ثم يتفرق بعد ذلك منتسبو الحركات إلىٰ شراذم تتساقط في مصائد ثعالبة الاستخبارات، وعباقرة مفرقىٰ الجماعات.

ومع أهمية البدء في التجديد لابد من الاعتراف بأن مرحلة البناء الإبداعي من أدق المراحل التي تمر بها الحركات والتي تستلزم تحديد عناصر البناء وأشكاله وخططه.

صعوب البداي بالتجديد:

إن للبداية صعوبة في كل شيء، فكيف إن كانت متعلقة بالقديم والجديد؟ فمن المعتاد أنه يشتد الأمر دائمًا بين القديم والجديد في فترات الانتقال، فأصحاب الحركات الإسلامية يثارون من الأطروحات التجديدية؛ لأن أصحاب الفكر التجديدي يضغطون علىٰ زر الانفعال الذي تحدث عنده الاستجابة، هذه الأزرار موجودة عند كل الناس،

---

(١) القيادة الآسرة: مصطلح إنجليزي المراد به أن قائدًا ما لديه قوة تأثير غير عادية تجذب الناس وتجعلهم مخلصين له ومتحمسين.

ولكن لا يستطيع كل واحد أن يضغط عليها، كما أن كل من ضغط لا يمكنه أن يحدث نفس الأفعال، إلىٰ جانب أن الصعوبة تأتي من أن التغير الفكري بطيء في سريانه وتفاعله، ولكنه، في الوقت نفسه طويل المدىٰ في تأثيره، بخلاف التغير السياسي والاقتصادي، الذي هو بمقدار ما هو سريع في التغيير والتقلب هو سريع أيضًا في زوال آثاره، كما يحدث في الثورات السياسية والاقتصادية، فالتغير الفكري لا يهجم علىٰ النفس دفعةً واحدةً، ولكن النفس تتشربه آنًا بعد آنٍ، ويسري فيها بطيئًا سريان الغذاء في الأبدان، وعملية التغيير والتجديد الحركي هي عملية أخذ كل ما هو نافع، وترك كل ما هو جامد متبلد.

كما أنه في البناء الفكري للحركات نرىٰ تراكم عدد هائل من الكتابات قد يكون متناسقًا وقد يكون متناقضًا، وقد يطمس كثير خطئها قليل خيرها، مما يعطل العاملين في البحث عن الصحيح في ركام الأخطاء، ويضاف إلىٰ هذه الصعوبة: أن القدرة الفردية عند أبناء الحركة الإسلامية ضعيفة باعتبار أن حرية الاختيار شبه مقيدة.

صانعو التجديد للفكر الحركي:

الاسم الجديد في الفكر الحركي ما كان موجودًا إلا عندما ولد فكرةً في عقولنا، ثم أطلق عليه هذا الاسم، فخرج من الفوضىٰ المبهمة، ليأخذ في عقولنا صورة محددة، فالإنسان عندما يسيطر علىٰ شيء ما يخلع عليه الأسماء.

وهذا التجديد لا يملكه فرد، بل هو مشروع يشترك فيه كل الغيورين من أصحاب الفكر الإسلامي، فهو في حكم المشاع إن أراد صاحبه الإصلاح والإبداع وفقه الله سبحانه؛ لأنه يوائم بين المعتاد والمبدع الجديد ﴿إِن يُرِيدَآ إِصۡلَٰحٗا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيۡنَهُمَآ ﴾(١).

وصانع التجديد يندفع ويعمل علىٰ تحقيق إبداعه، فإن تحقق لم يفتر، بل يقفز بعد ذلك قفزة جديدة، وهو بذلك يبتعد عن الأحلام التي لا يستطيع أن يحققها؛ لأنها خارجة عن إطار الممكن.

---

(١) النساء: ٣٥.

وصانعو التجديد تكون مهمتهم الأولىٰ تجديد الأهداف الإستراتيجية، ولا نقصد بذلك ما يتحدث به قادة العمل الإسلامي من أساسيات عامة موجودة أصلاً في المنهج الإسلامي العام، من إصلاح أحوال المسلمين، وإصلاح العالم كافة، وإعادة عصر الخلافة الراشدة. فهذه تصلح أن تكون إطارًا عامًا لا تخرج عنه الأهداف، أما أن تكون هذه هي الأهداف الإستراتيجية التي يوضع عليها المنهج الحركي، فهذا هروب من مواجهة الواقع، وإعاشة أبناء الحركة في عموميات وسبحات حالمة، فالغايات العامة التي هي ملك كل الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر علىٰ وجه العموم، سواء أكانوا دولاً أو جماعات أو أفرادًا، هذه الغايات يجب ألا تختلط مع الإمكانات والفرص المتاحة والأهداف المحددة التي يمكن قياسها ومعرفة مدىٰ تحققها ومدىٰ نجاحها أو فشلها، ولا حرج إذا قلنا: إن هذه الحركة أو تلك قد فشلت في تحقيق أهدافها في هذه المرحلة كما نجحت في تلك المرحلة؛ لأنه لا ربط بين فشل الحركة والإسلام؛ لأن الحركة البشرية وسيلة والإسلام هو دين الله الخالد الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ومن هذا يجب ألا يخلط بين أمرين: الفكر الإسلامي المعتمد علىٰ الكتاب والسنة والذي له صفة الثبوت من حيث الأصول الاعتقادية والتشريعية، وبين المنهج الحركىٰ الفكري والسلوكي المتجدد.

وصانع التجديد يحتاج إلىٰ وضوح الهدف عنده، مع قوة في الطاقة والوسيلة وتحدٍّ لكل الصعاب، فالإنسان الذي يعتقد أن بإمكانه حل المشاكل التي تواجهه إنسان يحسن التغيير والتجديد، ولعلنا نستأنس بقوله تعالىٰ: ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ۝٣٨﴾[1] في أن لكل فترة ومرحلة من العمل منهجًا في التفكير الحركي، يناسب زمانه وفق ما تقتضيه مصلحةُ العباد في هذا الوقت، وتبعة التغيير والتجديد أمر متعلق بأبناء الحركة الإسلامية، وهم يحملون بعد ذلك تبعة هذا التجديد إن كان سموًا أو انحطاطًا ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾[2]، فالحركات الإسلامية جاءت من أجل بعث الحياة ﴿أَوَمَن كَانَ

(١) الرعد: ٣٨.
(٢) الرعد: ١١.

مَيۡتٗا فَأَحۡيَيۡنَٰهُ وَجَعَلۡنَا لَهُۥ نُورٗا يَمۡشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ لَيۡسَ بِخَارِجٖ مِّنۡهَا ﴾[(١)]
الحياة لا يمكن أن تكون في جو آسن فلا بد فيها من التطور والتجدد، ثم بعد ذلك عملية التغيير مسؤولية يتحملها الجميع.

وقد أعطىٰ العلماء للمجدد سعة في استخدام كل الأدوات التي يصل فيها إلىٰ حل معضلات الحياة ومشاكلها، قال المناوي في «**فيض القدير**» عن وصف المجدد: «**أن يكون مجتهدًا، قائمًا بالحجة، ناصرًا للسنة، له ملكة رد المتشابهات إلىٰ المحكومات، وقوة استنباط الحقائق والدقائق من نصوص الفرقان، وإشاراته، ودلالاته، واقتضاءاته، مع قلب حاضر وفؤاد يقظان**».

احتياجات التجديد:

من المتفق عليه أن زمن التغيير يحتاج إلىٰ وقت؛ لأن الأفكار التي تقوم عليها الحركات قد انفعلت بها النفس، وتوراثتها الأجيال، وأصبح لها واقع ملموس يعيشه الناس، ولهذا سنحاول أن نستعرض الأساسيات التي يحتاج إليها العاملون في مجال التجديد في الفكر الحركي، وفي البداية نطرح السؤال الآتي:
من أين يبدأ التغيير؟

يبدأ من الإنسان نفس؛ لأنه هو محور التغيير الذي يتم داخل الحركة الإسلامية ومن أبنائها ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ ﴾ وعلىٰ هذا لابد من صياغة الإنسان في الحركة صياغة علمية، لكيلا تطمس شخصيته فيظل معطل القوىٰ، مزعزع الشخصية، فلابد من صياغة جديدة تعطيه قدرًا كافيًا من حرية التفكير وإبداء الرأي والإبداع.

وهنا نجد سؤالاً يطرح: هل يكفينا من صاحب الفكر الحركي التجديدي أن يقضي حياته بين الكتب والأقلام والدفاتر؛ ليروي لنا مما فيها عند أي احتياج يعترضنا؟ هل وقف عند ما كتبه الآخرون موقف الشارح المؤرخ بين التأييد والمعارضة؟

نقول مع فائدة الأولىٰ والثانية: إلا أننا نحتاج إلىٰ أكثر من ذلك، نحتاج إلىٰ تجميع

---

(١) الأنعام: ١٢٢.

لكل مشاكلنا والعوائق التي تعترضنا، لنضعها في وحدات متجانسة، ثم نسلط عليها فكرًا شوريًا متفتحا مستنيرًا بالكتاب والسنة، ليضع وليحدد لنا المنهج الذي قد نصل فيه إلىٰ حل مشكلاتنا، إن مشاكلنا ليست متكلفة ومتصنعة، بل هي ممارسات يومية تحتاج منا إلىٰ شيء من الجرأة لنضعها أمام أعيننا فهي من وضوحها لا تحتاج إلىٰ مجهر، ولكنها الرهبة من تحديد السؤال لصعوبة الإجابة.

وعملية التجديد تحتاج إلىٰ الاستيعاب لحصائل الإنتاج البشري في مجالات الإدارة والعلوم النفسية والتربوية، كما أن من مقومات التجديد وجود: العلم، والحركة، والتفتح، والقوة:

العلم: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ ﴾[1].

﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ﴾[2].

والحركة: ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ﴾[3].

والتفتح: «**الحكمة ضالة المؤمن يلتقطها حيث وجدها**».

والقوة: «**لأن القوة تستلزم الحركة، والفعل والاندفاع، والتقدم، والضعف تخلف وجمود**».

فالحركات بحاجة إلىٰ قوة من التماسك والنضج، وهذا يحدث حين ازدياد المعرفة واتساع الخبرة، والحركات إن كان فيها بعض البسطاء الذين يسهل إثارتهم، فما ينبغي أن تكون الحركة والجماعة بمجملها مما يتلاعب بها أصحاب الاختصاص الذين يتحكمون في المجاميع، فيضعونها في المواقف التي يرسمونها لتضرب أو تظهر أمام العالم بالصورة التي تجعلهم كالسفهاء الذين من المناسب أن يحجر عليهم، والقصص في ذلك لا حصر لها، بل لو استعرضنا المطبات التي تعرضت لها الحركة الإسلامية لوجدنا أن هناك وضوحًا لخبث الأذكياء المدربين علىٰ التلاعب بالحركات، ولكن هذا

(١) فصلت: ٥٣.
(٢) التوبة: ١٢٢.
(٣) النجم: ٣٩، ٤٠.

يمكن التقليل منه برفع مستوىٰ الحركات، فإن من المقبول أن تكون هناك مجموعة من البسطاء في الحركة ولكن ليس طبيعيًا أن تكون الحركة بكاملها متصفة بالبساطة والسذاجة، فقد أصبح في مقدور الإنسان بحسب العلوم الحديثة العمل علىٰ تغيير الشعور واللاشعور، وإن كانت قدرة الفرد علىٰ التغيير ليست مطلقة، ولكن كمؤسسة متكاملة لها القدرة علىٰ تغيير ما بالنفس، وهذا إن لم تفعله الحركة كمؤسسة في وقت الرخاء فقد تضطر لعمله في وقت المشاكل والفتن وهذا له ضريبته الكبيرة، وهنا في عملية التجديد لابد من مراعاة الظرف والزمان في التعامل مع الواقع والناس، ونحن نستأنس في ذلك بما ثبت عن النبي ﷺ في قوله لعمر بن الخطاب رضي الله عنه في التصرف مع المنافقين: «**لا يتحدث الناس أن محمدًا يقتل أصحابه**»(١) واعتبار المصلحة العامة عند الخطاب والتصرف: فهذا عمر بن الخطاب رضي الله عنه يأمر حذيفة بن اليمان بإخلاء سبيل اليهودية التي تزوجها بالمدائن، قائلاً له: «**أعزم عليك ألا تضع كتابي هذا حتىٰ تخليها، فإني أخاف أن يقتدي بك المسلمون، فيختاروا نساء أهل الذمة لجمالهن وكفي بذلك فتنة لنساء المسلمين**».

وهنا عند حديثنا عن قضية التجديد لا بد من الابتعاد عن الأطروحات الانفعالية التي قد تحرك العاطفة، ولكنها قد لا ترشد العقل والابتعاد عن التهويل والمبالغة؛ لأن البناء يستدعىٰ التأني والصبر والنضج، فعملية التجديد ليست سلوكًا فرديًا أو قياديًا، بل هي القدرة علىٰ بناء عقلية قادرة علىٰ البناء والإبداع والتجديد، وهذا العقل المبدع القادر علىٰ رسم المنهج التجديدىٰ الحركىٰ، وتعميق أبعاده ومتابعة تنفيذه بكل الوسائل المتاحة، هذا العقل يلزم أن تكون فيه النظرة الشمولية الكاملة القادرة علىٰ التراتيب التي تناقش وتعالج الأسباب والعلل قبل النظر إلىٰ الآثار، فالوقوف طويلاً عند الآثار وتضخيمها وإغفال الأسباب يقتل الإبداع ويحرم الإنسان من القدرة علىٰ العطاء والإفادة، فالعقلية المبدعة تحسن قراءة الظروف وتحديد الإمكانات. والمبدع المجدد يركض إلىٰ أهدافه ويجاوز المشي إلىٰ الهرولة، وعنده يقظة وتوهج في ضميره، ويحقق

(١) أخرجه البخاري (٣٥١٨)، ومسلم (٢٥٨٤) عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه.

في ذلك وفاقا مع الكون المتحرك المتجدد، فهو صاحب عقلية تملك القدرة علىٰ الرؤية الاستشرافية التي تطل من أعلىٰ علىٰ حشود الظواهر في العمل الإسلامي؛ بحثًا عن العلائق والارتباطات ووصولاً إلىٰ الحل والنتيجة.

احتياجات عملي التجديد في الفكر الحركي:

إننا نحتاج إلىٰ دراسة واعية موضوعية وجدية راقية، وروح نقدية مخلصة من غير تعرض للأشخاص وتعيين للأسماء، يصاحب ذلك دراسة تحليلية للواقع، وألا يخلط بين الممكن والمستحيل وأن تكون الأهداف عنده محددة ووسائلها مباشرة، كما يلزم أن يكون هناك وضوح كامل في أن التجديد في الفكر الحركي قائم «**علىٰ حقيقة أنه لا تعارض بين العقل والنقل**»، فالعقل يتصرف ضمن حدود النص وقواعده ودلالاته؛ لأن العقل مهما كان مستواه ومحيطه لا يستطيع أن يعلو بذاته علىٰ حدوده إلا بالاستعانة بالنصوص، فالنص مورد «**لا ينفك عن العطاء**»، والعقل محرك «**لا ينفك عن السعي**».

يقول الإمام الشاطبي في «**الاعتصام**»: «**لو كان ما يقول به العقل حقًا لكان العقل وحده كافيًا للناس في المعاش والمعاد، ولكان بعث الرسل عبثًا لا معنىٰ له، وهذا كله باطل**».

ويلاحظ عند اختيار الأساليب الحركية والأفكار أن تكون ميسرة وقادرة علىٰ تحقيق أكبر قدر من الأهداف، يقول الشيخ الطاهر بن عاشور: «**وقد تتعدد الوسائل إلىٰ المقصد الواحد فتعتبر الشريعة في التكليف بتحصيلها أقوىٰ تلك الوسائل تحصيلاً للمقصد المتوصل إليه، بحيث يحصل كاملاً راسخًا عاملاً ميسورًا، فتقدمها علىٰ وسيلة هي دونها في التحصيل**»، وهذا التجديد يكون دائمًا منضبطًا في حدود مقاصد الشريعة الإسلامية وقواعدها.

والفكر الحركي يُراعىٰ فيه النظر في أهداف الشريعة الإسلامية في المحافظة علىٰ «**الكليات الخمس**» (الدين – النفس – النسل – العقل – المال) وتستخدم في ذلك أمور لا تخرج عن الضروريات، الحاجيات، التحسينات، كما يلاحظ أنه: نابع من طبيعة هذا الدين المعترف بالواقع والعرف والمصالح، وهذه أمور لا تحل حرامًا ولا تحرم حلالاً.

والعامل في مجال تجديد الفكر الحركي يستدعي منه عدم العجلة والانفعال وألا يعمد إلىٰ احتقار سلفه من المفكرين ولا يظن في نفسه الصواب المطلق، وأن يعمل علىٰ وضع البدائل عند طلبه ترك القديم، فالهدم وعدم البناء يوقع صاحبه في التردد المستمر والتشكك في كل ما هو مطروح «**وعدم الاستقرار علىٰ شيء**»، وعملية التجديد تستلزم من صاحبها معرفة ما سيلغيه مخافة إلغاء الصواب وإقامة الخطأ.

وفي عملية التجديد لا بد أن تصاحب الجرأة فيها الدقة؛ لأن الغفلة اليسيرة قد تؤخر عملية التجديد كما قال محمد إقبال:

لحظةً يا صاحبي إن تغفل ألف ميل زاد بعد المنزل

فنلاحظ الأمور الدقيقة في عملية الانتقال من الموجود إلىٰ المقصود، والمجدد لا يحاول أن يستر عجزه، وإنما يسعىٰ بكل جد إلىٰ استكمال ما ينقصه.

إن بداية التجديد تكون من وجود الفكرة والاقتناع بها وإقناع الآخرين، ثم بعد ذلك قضية السلوك والتجديد تخضع للإمكانات والفرص المتاحة، فالأصل البدء في النفس ﴿حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾.

وفي نهاية ذكر الاحتياج نقول: إن عملية التجديد تحتاج من عقولنا إلىٰ التعامل معها بجدية، لأنها اعتادت علىٰ علف المعلومات ولم تعد تتذوق طعم الأغذية الفكرية الجيدة كما قال محمد إقبال:

جوهر الآساد أضحىٰ خزفًا حين صار القوت هذا العلفا

تعامل الحركات الإسلامي مع التجديد:

نحن لا ندعو هنا إلىٰ تحطيم الجماعات وإقامة جماعة أخرىٰ، فهذا تعامل «**مع غير الواقع**»، بل إننا ندعو إلىٰ وقفة لإعادة النظر في فكرنا المتحرك اليومىٰ وما ينبني عليه من طرائق في التحرك. فالفكر التجديدي الحركي لا يأتي بمبدأ النقيض الذي استخدمه «**نيتشه**» في مجال التصور، و «**هيجل**» في مجال الفكرة، و«**ماركس**» في مجال الاقتصاد وبناء المجتمعات، وهو مبدأ «**إن كل شيء يهدم نفسه**».

ففكرة التجديد الحركي لا تعني التخلي عن كل ما هو سابق والتقاط كل ما هو لاحق، والتجديد في الفكر لا يعني أن كل جديد أسمىٰ من السابق بالضرورة، كما أنه من الخطأ أن نرىٰ العجز في الحركة الإسلامية ثم نقف لنبكي ونلطم ما حصل للحركة بينما كان ينفعنا لهذا الوضع المريض السعي لجلب العلاج، وتعلم طرق الوقاية؛ إذ أن الله ما أنزل من داء إلا وأنزل له دواء.

والحركات الإسلامية مرتقبة من الجميع لتحدث أثرًا إسلاميًا، والحركات واقع «**لابد من التعامل**» معه وجعله من الوسائل المهمة لإعادة الصياغة الإسلامية للمجتمع. يقول المستشرق «**جب**» في كتابه «**إلىٰ أين يتجه الإسلام**»: «**إن الحركات الإسلامية تتطور عادة بسرعة مذهلة، تدعو إلىٰ الدهشة، فهي تنفجر انفجارًا مفاجئًا قبل أن يتبين المراقبون من أماراتها ما يدعوهم إلىٰ الاسترابة في أمرها، وهي اليوم لا ينقصها إلا وجود الزعامة، إلا ظهور «صلاح الدين» جديد**». انتهىٰ كلام جب. أقول: وهذا التطور إن لم ينضبط بمنهاجية حركية تجديدية قائمة علىٰ الكتاب والسنة وإجماع الأمة وفيها من المرونة والسعة ما يعينها علىٰ الاستفادة من كل مستجدات الحياة، إن لم تكن هذه الأمور، فسيصعب تحقيق المقصود وسيكون الضياع.

ولكي يتم قبول العاملين في الحركة الإسلامية للطرح التجديدىٰ للفكر الحركىٰ لا بد من أمور منها:

١ ـ عدم التعصب للرأي المطروح، بحيث لا يقبل المفكر المجدد بوجود الآخرين.

٢ ـ ترك الجمود علىٰ الرأي المطروح وعدم المرونة فيه، وكأنه نص في كتاب الله.

٣ ـ الابتعاد عن سوء الظن في الفكر المقابل، والنظر للأطروحات السابقة بمنظار لا يرىٰ الحسنات، بل يضخم السيئات.

٤ ـ أن تكون الأمور المطروحة في دائرة ما يكون وما يمكن أن يقع ويقبله أصحاب الحركات.

٥ ـ اتباع سنة التدرج التي خلق الله الأكوان عليها، فالإنسان والحيوان والنبات كل هذه تتدرج في مراحل حتىٰ تبلغ بناءها وكمالها.

فهذا عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز رحمهم الله يطلب من أبيه الإسراع في إزالة المظالم فيقول له: «**ما لك يا أبت لا تنفذ الأمور؟ فوالله ما أبالي، لو أن القدر غلت بي وبك في الحق**»، فكان جواب الأب الفاهم لسنة التدرج: «**لا تعجل يا بني، فإن الله ذم الخمر في القرآن مرتين وحرمها في الثالثة، وإني أخاف أن أحمل الناس على الحق جملة فيدعوه جملة فيكون من هذه فتنة**».

٦ ـ بيان أن التجديد منهج سلفي يزيل الجمود الفكري والبدع، وأنه في حدود النصوص الشرعية، فهو تفاعل مع الإسلام فكرًا وسلوكًا واعتقادًا، ورجوعًا إلىٰ الدين، لأخذه من أصوله الثابتة وينابيعه الصافية، كما تعامل الصحابة رضوان الله عليهم مع النصوص، حيث نظروا إلىٰ الواقع من غير إبطال للنص أو تعطيل للحكم الديني، فعمر رضي الله عنه عند عدم إقامته لحد السرقة في عام المجاعة إنما طبق قاعدة درأ الحد بالشبهة، وهذا أمر مقرر في الشرع، وهو أمر متعلق بسبب معين، كما أن تغيير الفتوىٰ في إطار الزمان والمكان إنما هو نتيجة للنضج وزيادة المعرفة للأدلة الكلية والتفصيلية، ووعي بالظرف الذي تتم فيه الفتوىٰ وعمق في واقعه، فلا تعارض أن سبب التغيير في بعض الفتاوىٰ نتيجة للنضج العملي واكتمال معرفة الواقع. وقد عقد ابن القيم رحمه الله فصلاً في ذلك في كتابه «**إعلام الموقعين عن رب العالمين**» بعنوان: «**تغير الفتوىٰ واختلافها بحسب تغير الأزمنة والأمكنة والنيات والعوائد**»، وهذه داخلة في القسم الثاني للشريعة التي ذكرها شيخ الإسلام ابن تيمية.

عوائق التجديد:

هناك عوائق كثيرة، لهذا نرىٰ أن الكثير من محاولات التجديد في الحركات الإسلامية إما أن تفشل أو تضمر، حتىٰ لا يبقىٰ لها تأثير، ومن هذه العوائق:

١ ـ أن أصحاب القديم ينظرون بعين الحذر إلىٰ هذا الجديد الذي يحاول أن يغزو القديم في عقر داره، وأن يزيحه عن مكانه، أو يشاركه في سلطانه، وسيكون محور الصراع: هل يرفضه أو يصالحه، أما أن يخلي مكانه له، فهذا في غاية التجرد الذي يصعب التحاكم إليه، وعلىٰ هذا فأصحاب الحركات في مواجهة الفكر التجديدي الحركي

ينقسمون إلىٰ ثلاثة أقسام:

أ ـ معارضة إلىٰ النهاية، ولو تشرذمت الحركات في وحدات صغيرة.

ب ـ المعارضة أولاً، ثم بعد زمن القبول.

جـ ـ المبادرة بالقبول والاستجابة.

٢ ـ الخلط بين الفكر الديني والفكر الحركي، فنرىٰ أن أصحاب التجديد في أول الأمر دخلوا علىٰ الفكر الديني وأصوله أثناء إعمال الفكر للاستفادة من النموذج الغربي ـ فعلىٰ سبيل المثال الأستاذ محمد إقبال مع جلالة قدره وخدمته للحضارة الإسلامية حتىٰ قال عنه العلامة أبو الأعلىٰ المودودي: «**إن العمل العظيم الذي أداه الدكتور محمد إقبال في مجال الإصلاح له قيمة كبرىٰ، لا ينساها التاريخ الإسلامي**»، ثم قال عنه: «**فلما نهض يفند فلسفة الغرب وأفكاره المادية بدأ يذوب سحر الحضارة الغربية الذي كان يبهر القلوب ويستولي علىٰ النفوس**». وبمثل هذا المدح قال كذلك العلامة أبو الحسن الندوي. ثم في المقابل عندما تقرأ الترجمة لكتاباته باللغة الإنجليزية كما ذكرت «**مريم جميل**» في كتابها «**الإسلام بين النظرية والتطبيق**»، نرىٰ أنه وقع في بعض السقطات التي سقط بها من يسمون بالعصرانيين في قصة هبوط آدم عليه السلام، والجنة والنار، ولكن الدكتور محمد إقبال يذكر بعد ذلك قواعد في ضبط عملية التجديد فيقول: ينبغي ألا ننسىٰ أن الوجود ليس تغييرًا صرفًا فحسب، ولكنه ينطوي أيضًا علىٰ عناصر تنزع إلىٰ الإبقاء علىٰ القديم.

٣ ـ الخلط بين الثابت والمتغير، لذلك نرىٰ أن رائد العصرانية ـ التي حدث حولها الصراع الفكري ـ (سيد أحمد خان ٧١٨١م ـ ٨٩٨١م) لم يقتصر فكره في دائرة واحدة من دوائر الإسلام، بل شمل العقائد والتفسير والحديث والفقه، لذلك نراه يتجه إلىٰ إعادة النظر في الفكر الديني الأصيل، وتأويل تعاليم الدين لتتلاءم مع معارف وظروف العصر السائدة!!

فهو بالمعنىٰ الواضح يقول: إن الدين بتعاليمه التي نزلت علىٰ النبي ﷺ في مكة قبل ألف وأربعمائة عام لا يناسب ظرفنا وزماننا.

وعند الحديث عن الفكر الديني لا بد من التأكيد علىٰ وجود المحاور الثابتة في هذا الدين نحو حقيقة الألوهية والربوبية والعبودية وحقيقة أن الدين عند الله الإسلام، وحقيقة أن الناس من أصل واحد، وأن الرابطة بينهم هي العقيدة، وأن الدنيا دار عمل والآخرة دار جزاء، والخلاصة أن الفكر الديني تصوره آيات الله تعالىٰ في القرآن الكريم نحو: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًاۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَاۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ ﴾[1] فالفكر الديني رباني ليس بنتاج فكر بشري، ولا بيئة معينة، ولا فترة من الزمن خاصةً، فهو الهدىٰ الموهوب من خالق الإنسان، رحمة بالإنسان، فهو متحرك في إطار ثابت حول محور ثابت.

٤ ـ إدخال تجديد الفكر الحركي في محل الصراع الفكري حول الاجتهاد في أصول الفقه من حيث الجواز أو العدم، فنحن نتحدث عن الاجتهاد في الفكر الحركي وهو فقه واقع وممارسة بشرية أكثر مما هو أصول مجمع عليها ومبنية علىٰ الأدلة الثابتة، ولكن مع ذلك نقول: إن كان مراد من يطرح هذا الأمر أنه من حقه أن ينظر فيما كتب من أصول الفقه، فإن كانت قائمة علىٰ الأدلة الثابتة كان الالتزام بها وإن لم تكن كذلك، فهي دائرة في مجال اجتهاد البشر، فهذا لا حرج فيه، كما أن من عنده قواعد توصل إليها ببحثه وتقوم علىٰ الأدلة من الكتاب والسنة لم لا يطرحها؛ ليتم نقاشها والوصول بعد ذلك للحكم عليها إن كانت صوابًا أو خطأً، وقد بين لنا الشيخ المجدد ابن تيمية رحمه الله تقسيمًا فيه من السعة ما يغنينا عن الصراع، فقال رحمه الله: «**الشريعة ثلاثة أقسام: شريعة منزلة وهي القرآن والسنة، وشريعة اجتهادية وهي ما توصل إليها عن طريق الاجتهاد، وشريعة محرمة وهي التي يظن أنها من الشرع، وهي محض انحرافات، فالشريعة الاجتهادية تتعدد الآراء فيها في المسألة الواحدة، ونقبل ونرفض منها بحسب الأدلة، أما الانحرافات والتحريفات فمرفوضة كلها**».

وجود القوة الطاردة في الحركات الإسلامي :

للحركات الإسلامية دورها الذي أخذت علىٰ عاتقها الدعوة له والقيام به والعمل من

---

(١) الروم: ٣٠.

أجله، لكي تنقذ المسلمين من مخلفات العصور السابقة التي تراجع فيها المسلمون عن بعض تعاليم الإسلام، فتخلفوا عن ركب الحضارة والمدنية، وهذا العمل الرائد الذي اضطلعت به الحركات الإسلامية وقفت أمام تحقيقه عوائق وعقبات أعاقت ـ أحيانًا ـ الوصول إليه، وفي أحايين أخرىٰ وقفت بالعمل عند حد معين لم تتجاوزه إلىٰ غيره، ولم تتقدم به خطوة واحدة إلىٰ الأمام، وإن قلنا: إنها توقفت عند حد معين، فهي بذلك قد تأخرت بالعمل الإسلامي؛ لأن المفروض في عملنا هذا أن يتقدم ولا يتوقف، فالتوقف بالنسبة للعمل الإسلامي أمر مرفوض؛ لأن كل صورة لا تقدم للعمل الإسلامي مزيدًا من التقدم أقرب إلىٰ الموت منها إلىٰ الحياة. فلا بد من التقدم في إطار العمل، ولا بد من إزالة العقبات المعيقة للتقدم مهما كلفت الحركة من جهد وعمل لكي يعود للحركة نشاطها، وتسير بالشباب المسلم نحو الغاية المرجوة، التي يسعده أن يراها وأن يراها معه المسلمون في كل عصر.

وفي المسير الدعوي هذا تحدث عوائق داخل الحركات: منها وجود القوة الطاردة في الحركات الإسلامية التي قد تعوق القوة الحادبة وأعني بهم بعض القادة المنفذين الذين يتولون بعض المناصب التوجيهية في الحركات الإسلامية، ويعملون علىٰ إبراز أفكار هلامية غير محدودة، تقرؤها فلا تجد بها غضاضة، وتعمل بها فلا تجد تقدمًا علىٰ ساحة العمل ولا علىٰ أرض الواقع الذي يراه الناس، ومن ثم يوجه النقاد الاتهام تلو الاتهام للحركات الإسلامية أنها لا تفعل شيئًا وأنها إن أخذت خطوة للأمام أخذت خطوات إلىٰ الخلف.

وإنما يكمن العيب في أولئك المنفذين الذين لا فكر محددًا لهم يعملون في إطاره ليتم التقويم والمحاسبة لهم علىٰ ما قدموه في ضوئه إيجابًا كان أو سلبًا، فنرىٰ أن الكثير من عملهم وأقوالهم عبارات حماسية من العشرينات إلىٰ اليوم وهي التي يتم التجمع والتحرك في ضوئها، بل وتضرب الحركات علىٰ مناداتهم العامة لها فيظنها الناس شيئًا، وهي لا شيء، ثم هم باقون في مواقعهم لا يفارقونها إلا الموت، ولو أنهم أفسحوا الطريق لغيرهم، ليضطلع بالمسؤولية ولينهض بالعمل، لخدموا الحركة الإسلامية بذلك أكثر

مما يخدمونها وهم في مواقعهم التي تعيق غيرهم عن الحركة، ولنالوا من احترام الجميع فوق ما ينالونه وهم في مواقعهم التي سيحاسبون عليها أمام الله يوم الدين.

وهذه القوة الطاردة من حيث إنها تشعر أو لا تشعر تعمل علىٰ إبعاد أصحاب الرأي والمشورة والفكر من الحركة؛ إما بدفعهم للانعزال عن الحركة وعدم بيان أخطائها أدبًا منهم؛ وحفاظًا علىٰ مسار الحركة والدعوة، وإما بابتعادهم عن تيار الدعوة والحركة وارتمائهم في مسارات أخرىٰ يعملون فيها ويدعمونها، وكلا الصنفين يمنعه دينه وحياؤه أن يعمل ضد الحركة أو ضد القوة الطاردة؛ لأنها تمثل الحركة، ومع كل طريد تفقد الحركة جزءًا من قوتها وعنصرًا من العناصر التي قد تجدد شبابها وتحيي مواتها.

ثم تبقىٰ القوة الطاردة لتعمل في الإطار الهلامي بغير محاسبة، وبغير مراجعة، ومن غير أن تضيف جديدًا في كم الحركة أو في كيفها.

فهل آن أن نضع حدًا أمام هذه الظاهرة في الحركات الإسلامية، حتىٰ تنفض عنها الغبار وتقوم من تحت الركام، وتسير مع السائرين في طريق الحياة الإسلامية الظليلة؟

سبل النجاح في عملي التجديد في الفكر الحركي:

١ ـ المجدد لا يصح أن يناقض الأصالة والاستمرارية، فهو يطوي الزمان عندما يستفيد مما سبق، ويبني علىٰ الصحيح منه، ويطوىٰ المكان عندما لا يجد فيه شيئًا يمكن الاستفادة به، والأخذ من كل الأطروحات الموجودة علىٰ الساحة العملية والفكرية بما يدفع العمل ويحقق النتائج ولا يخالف الشرع.

٢ ـ ألا يبحث المجدد عن شواهد في التاريخ ليدلل علىٰ صحة ما قرره مسبقًا، بل يبحث عن حل للمشاكل بتحريك عقله في الكتاب المكتوب والمقروء والكتاب المفتوح في الكون.

٣ ـ عملية التجديد ليست صنعًا فرديًا، بل هي عمل جماعي مؤسسي يكون فيه اللقاء المباشر والاحتكاك الفكري؛ ليسمع أصحاب الفكر من بعضهم البعض ليكتب بعد ذلك كل واحد نتاج فهمه وعصارة فكره.

ففي سنن أبي داود عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «**إن الله يبعث لهذه الأمة علىٰ رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها**»(١) فكلمة جديد نقيض الخلق، وجدد أي صار جديدًا ـ فالتجديد للشيء معناه أنه كان موجودًا، وللناس به عهد ثم صار قديمًا ثم أعيد لمثل ما كان عليه، وهكذا التجديد للفكر الحركي، فقد كان متحررًا، له من السعة والمرونة ما يجعله يضع الأساليب والطرق التي يحل بها المشاكل التي تواجهه، ثم صار بعد ذلك جامدًا في قوالب حزبية جعل أصحابها من هذه القوالب دينًا يتعبد به، وقضية التجديد هي إرجاعه إلىٰ ما كان عليه في عهد سلف الأمة رضي الله عنهم، والتجديد هو نوع من الحفاظ علىٰ قوة هذا الدين وعطائه للبشرية، ولو كانت القوالب التي تواجه المجدد من الحجارة والحديد ﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ خَلۡقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾ ۞ قُلۡ كُونُواْ حِجَارَةً أَوۡ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوۡ خَلۡقًا مِّمَّا يَكۡبُرُ فِي صُدُورِكُمۡۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَاۖ قُلِ ٱلَّذِي فَطَرَكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٖ﴾(٢). وهكذا نجد أن شيخ الإسلام ابن تيمية جاء فوجد أمامه حجارة وحديدًا من المفاهيم، فاستعان بالله ثم بدأ فكتب الله علىٰ يديه تجديدًا لهذه الأمة في فهمها ومناهج فهمها لدينها.

اجتهادات في صور التجديد في الفكر الحركي:

*** الصورة الأولىٰ: مساحات الالتقاء بين الحركات الإسلامي وغيرها:**

تعيش الحركات الإسلامية في عصر تماوجت فيه الأحداث واضطربت فيه الأمور علىٰ المجتمعات بحيث يحتاج إصلاحها أو إصلاح بعضها إلىٰ جهود كثيرة هي أكبر من طاقة الحركات الإسلامية، فهي لا تستطيع وحدها أن تقوم بما يجب تجاه هذه الأمور، ولا تستطيع في نفس الوقت أن تتخلىٰ عن الدور المنوط بها أمام هذه الأحداث.

إذن لا بد وأن تلتقي مع غيرها في ميادين كثيرة وهذا أمر لا مفر منه، والتنسيق فيه مع هذا الغير ضرورة لازمة تفرضها الأحداث الجارية، فهو ليس نافلة من العمل، وإلا ظهر القصور، واتضح العجز وبان الضعف.

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٢٩١) عن أبي هريرة رضي الله عنه، وصححه الألباني.

(٢) الإسراء: ٤٩ ـ ٥١.

فلماذا لا يكون هناك تنسيق بين الحركات الإسلامية من جانب وبين المنظمات الإنسانية من جانب آخر؟ وكذلك بين الحركات الإسلامية مع بعضها البعض، وهذا اللقاء ليس مقصده الوصول إلىٰ الحق والصواب عند أي الفريقين، فلذلك لقاءات أخرىٰ وإنما مقصده التنسيق في المجالات الإنسانية والأمور المتفق عليها بين المتواجدين في دائرة العمل المتعلقة بالإنسان والمجتمع، ليزداد العمل الذي ننسق فيه اتساعًا وامتدادًا، فإن الحركات الإسلامية تعمل في الخير ومن أجله، والمنظمات الإنسانية العاملة بين المسلمين وفي ديارهم. وغالبًا ما يكون عمل هذه المنظمات في أوساط المسلمين كما هو مشاهد الآن ومن واقع إحصائيات المجاعات والمآسي الإنسانية، وهذه منظمات تعمل سواء اتفقنا معها أو اختلفنا، وبالتأكيد لها أهدافها الخاصة المخالفة لأهدافنا، لكننا لا نستطيع منعها من العمل، فهي تقوم بعمل إنساني وقت المجاعات والكوارث والفيضانات والحروب التي تجتاح عالمنا الإسلامي، وتقوم بدور في تخفيف هذه الآلام أو التقليل من ويلاتها، فلماذا لا يتم بيننا كحركات إسلامية وبين هؤلاء نوع من التنسيق في هذا الجانب علىٰ الأقل، وهم يعملون لأهدافهم الخاصة التي لا نقدر علىٰ منعهم منها حتىٰ لو لم نتعاون معهم، ونحن نعمل علىٰ تحقيق أهدافنا حتىٰ وإن نسقنا معهم؟

كما أن ما من حركة من الحركات العاملة للإسلام بمفهومها العام إلا وبينها قدر معين من الاتفاق، كما وأن بينها مساحة من الاختلاف؛ فما الذي يمنع من وجود التنسيق بين هذه الحركات في المساحة المتفق عليها.

*** الصورة الثانية: العلاق مع الأنظم :**

بنت الحركات الإسلامية علاقتها مع الأنظمة ـ في الأغلب الأعم ـ علىٰ العداء والصراع؛ لأنها رأت أن هذه الأنظمة إما كافرة أو موالية للكفار، وفي كلتا الحالتين فالعلاقة هي علاقة صراع وبادلتها الأنظمة صراعًا بصراع وعداءً بعداء، مما كلف الحركة الإسلامية سنوات طويلة من العناء والبلاء، والسجون والمعتقلات، حتىٰ صار الأمر كأنه قدر لازم للحركات الإسلامية، والأمر ليس كذلك في حقيقته.

وقد اعتبرت الحركة الإسلامية الأنظمة كلها في بلاد الإسلام نظامًا واحدًا لا يختلف في شيء من بلد لآخر ولا من مكان لآخر مما ترتب عليه كسب عداء جميع الأنظمة بغير استثناء، والأمر ليس كذلك في الحقيقة؛ إذ لكل دولة ظروفها وبيئتها ونظمها الاجتماعية وأعرافها السائدة فيها، وأخذها أو تركها من الشريعة الإسلامية، وبالتالي تختلف نظرة النظام في بلد ما لمواطنيه عن نظرة نظام آخر في بلد آخر لمواطنيه، فما بالنا ننظر للجميع نظرة واحدة يغلفها الصراع والعداء؟

ولماذا غلبت علينا النصوص التي تدعو إلىٰ مقاطعة السلطان والنظام وعدم مجالسته وتقديم النصح له، وسرنا في هذا المجال خطوات فسيحات، وتناسينا النصوص الأخرىٰ التي تأمر بتوجيه النصح للسلطان، ومعاونته علىٰ الخير والتحمل والصبر علىٰ ما يبدر منه من مواقف أحيانًا لا تكون متوافقة مع مبدئنا وغايتنا، وتناسينا كذلك قول الإمام أحمد: «**لو كانت لي دعوة مستجابة لادخرتها لدىٰ السلطان**».

ولم يقف الأمر عند هذا الحد، فكان من نتيجة العداء والصراع أن امتد الأذىٰ وتشعب، وانتشر وتوزع في آفاق الحركة الإسلامية التي تبنت مذهب السيف، فأخذت برأي المعتزلة في ذلك، وتركت مذهب أهل السنة والجماعة الداعي إلىٰ الصبر، وعدم مقابلة العنف بمثله حتىٰ لا يشتد هذا العنف ويقوىٰ ويحصد رؤوسًا من رؤوس الدعاة، ويعطل مسيرة الدعوة في كثير من الحالات. وعلىٰ هذا لا بد من التفكير في المسلمات الاجتهادية السابقة، وتغيير العلاقة مع الأنظمة بحسب قُربها أو بُعدها عن الحق، لينشأ بعد ذلك فقه تقديم النصح والعون في الخير، ومحاولة الوصول إلىٰ التفاهم مع هذه الأنظمة بقدر ما يسمح الدين بذلك، بعيدًا عن النظرة الحزبية الضيقة التي لا مصلحة فيها للحركة الإسلامية، ولا للأنظمة القائمة.

ولنتخلىٰ عن نظرة العداء والصراع ليقوم نوع من التعاون يتم فيه التصالح بين الجميع لمصلحة الجميع، وأرجو أن لا يوصف هذا الطرح بالوصفات الجاهزة عند صيادلة الدعاة - بأن هذا تدجين وممالأة للحكام، وغير ذلك، بل الأمر قائم علىٰ مصلحة المجتمع المسلم والحفاظ علىٰ الدم المسلم.

*** الصورة الثالث : النظرة للمجتمع والتعامل معه:**

إن نظرة بعض الحركات للمجتمع كانت تتم علىٰ أنه مجتمع سادت فيه الجاهلية، ففاضت فيه المعاصي، وغاضت الفضائل، وعمت الرذائل، وانحسرت المكارم، فلم يعامل هذا المجتمع بغير المفاصلة والانعزال والابتعاد عنه، ثم حدثت الخصومات والحزازات؛ لأنها قائمة علىٰ الاستعلاء عليه، والنظر إليه نظرة دونية، واعتبار الدعاة ذوىٰ مكانة عليا فوق الناس، ما يجلب لهم الكراهية، وينفر منهم الناس ويجعلهم يبتعدون ولا يقتربون، وتلك النظرة قد أساءت إلىٰ الحركة الإسلامية أبلغ إساءة، وأعاقتها عن الانطلاق نحو جموع الناس زمنًا طويلاً، ومن هنا فإنه يلزم تغيير هذه النظرة إلىٰ المجتمع، بالانخراط فيه وترك العزلة، ومعايشة الناس معايشة يومية، ومعالجة مشاكل المجتمع، واعتبارها مشاكل الحركة الإسلامية؛ لأن الحركة لا تعيش بغير مجتمع، فلابد من المساهمة في حل المشكلات التي تواجه الناس سواء أكانوا داخل الحركة أم خارجها؛ إذ إن مردود ذلك في النهاية عائد إلىٰ الحركة الإسلامية نماء وقدرة علىٰ الانطلاق وحبًا من الآخرين.

إن الاهتمام بالتواصل الاجتماعي والفكري والنفسي والثقافي مع المجتمع في إطار من الضوابط الشرعية يعطي للحركة امتدادًا واتساعًا ويبعد عنها مشقات وعثرات قد تواجهها، ويذهب النظرة التي ينظر بها الناس إلىٰ الحركة علىٰ أن من ليس فيها فهو عدو لها، فلتثبت الحركة أنها حريصة علىٰ مصلحة جميع المسلمين بغير استثناء سواء أكانوا في الحركة أم كانوا بعيدين عنها، ولتبتعد عن النظرة السابقة التي أشرنا إليها، لتحل محلها نظرة أخرىٰ ترىٰ أن الحركة الإسلامية في مجتمع ما، هي جزء منه يصيبها ما أصابه ويؤلمها ما يؤلمه ويفرحها ما يفرحه في ضوء تعاليم الدين وضوابط الشرع.

*** الصورة الرابع : فلسف البلاء:**

سرىٰ بين الحركات الإسلامية أن من مستلزماتها أن يحيق بها البلاء، وينزل بالعاملين فيها الشقاء، فمن سجون ومعتقلات، إلىٰ مطاردة وملاحقات، وضحايا أحيانًا، وتشريد،

وهتك لأعراض، وغير ذلك من البلاء النازل بالعاملين في الحركات الإسلامية، فإذا لم يحدث هذا العذاب والهوان والشقاء، ففي الأمر ارتياب، وفي الدعاة دخن، وفيهم مهادنة إن لم تكن مخادعة، وهكذا اعتبر السجن والبلاء أمارة من أمارات الصدق ومرحلة من مراحل الدعوة لابد أن تعبرها وأن تأخذ منها قسطها وقدرها.

مما جعل أبناء الحركة يعيشون في ترقبٍ مستمرٍّ، وتوقع للبلاء النازل في كل حين، فأضعف ذلك نشاطهم وشتت يقظتهم، وأبعد وضوح الرؤية في المستقبل لدى الكثيرين منهم، وتلك نظرة خاطئة وفلسفة يائسة، فليس بلازم أن يكون السجن مدرسة للدعاة، وليس بلازم أن يكون التشريد والتعذيب أمارة من أمارات الصدق، وعلامةً على حسن التوجه، وسمةً من سمات وضوح الطريق ليس كل ذلك بلازم، فقد يكون الصدق دون امتحانٍ، وبدون عذابٍ، وبدون تشريد وهتك للأعراض، وإقامة مصحات لأبناء الحركة الإسلامية، يعالجون فيها من مسّ العذاب الذي نالهم.

إن هذه الفلسفة يجب أن تزول ليحل محلها الأمن والاطمئنان، وتتضح الرؤية أمام العاملين ولن يكون إلا بمعالجة الجوانب السلبية التي أشرنا إليها فيما سبق.

*** الصورة الخامس : طرح المشاريع وتحديد الأهداف:**

لقد اتسمت أطروحات الحركة في المراحل السابقة بأنها عاطفية عامة، والعاطفة مطاطة لا تستطيع أن تتبين حدودها بوضوح كامل؛ إذ هي متداخلة متشابكة، لذلك كانت أطروحات الحركة غير محدودة الملامح، وغير واضحة المعالم، وإذا كان هدف هذه الأطروحات في السابق هو جذب الجماهير واستثارتها لتشارك في الحركة وتؤدي دورًا في البناء، أو على الأقل لتتعاطف مع الحركة وتؤيد توجهاتها، فإن ذلك لم يحدث على النحو المطلوب، فسرعان ما تتبدد العاطفة ولا تترك وراءها أثرًا، اللهم غير الندم والحسرة على ما فات، ولذا فإن الحصاد لهذه الأطروحات بين الجماهير كان قليلاً، ولم تكسب الحركة الإسلامية كثيرًا من وراء ذلك في البنيان الاجتماعي الجماهيري بين المسلمين.

لابد ـ إذن ـ من توجه جديد وطرح عقلى واضح المعالم، بيّن القسمات، تتحدد

جزئياته واحدةً تلو الأخرىٰ بحيث يمكن طرح هذا البرنامج بين جماهير الناس والعمل من أجل تحقيق جزئياته ومراحل بنائه في وضوح تامٍّ لا يغيب عن العاملين في الحركة ولا عن المراقبين لمسيرها، المشاهدين لما يسفر عنه عملها، لينضموا إليه، أو ليجتنبوه، ليكونوا من جنود الحركة العاملين فيها، أو من المشاهدين الذين يأسفون علىٰ ضياع وقتهم في سماع ومشاهدة أمور لم تتحقق ولن تتحقق.

إن في المجتمع عيوبًا، هذا لا شك فيه، وإنَّ من واجب الحركة أن تبين هذه العيوب، وأن تنقدها، وهذا أيضًا لا شك فيه، ولكن دور الحركة لا يتوقف عند ذلك، بل لا بد من تقديم البدائل الصالحة، لتحل محل المفاسد المنتقدة.

فالنقد سهل علىٰ الجميع، والبناء صعب علىٰ الجميع، لا يقوم به إلا أصحاب الهمم العالية، والأخلاق النبيلة، وهذا واجب العاملين في الحركة الإسلامية قبل غيرهم، علينا أن نوجد البدائل الصالحة للعيوب القائمة، وأن نترجم هذه البدائل أعمالاً مرئيةً أمام الناس ونقدم لهم خدمات وبيانات واضحة لأعمالها كي يشاركوا فيها، ويتركوا ما قد يكونون عليه من سلبية، وقد ينضمون للعاملين في الحركة الإسلامية إذا ما اتضح دورها العملي، وانكشفت خدماتها للناس، وبعدت عن الأطروحات العاطفية المنمقة التي تستهوىٰ الجماهير حينًا من الدهر ثم لا تلبث أن ترتد علىٰ الحركة بغير أن تحصد الحركة منها قليلاً أو كثيرًا.

*** الصورة السادس : العالمي في الدعوة الإسلامي :**

ليس هناك من شك في عالمية الدعوة الإسلامية فهو أمر مقرر في كتاب الله ﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾[1] وهو أمرٌ مقررٌ في سنة رسول الله ﷺ: «**بعثت للأحمر والأسود من الناس**»[2] وقد أخذت عالمية الدعوة صورًا مختلفة عبر التاريخ لا إلزام بواحدة معينة منها، والمهم في الأمر أن عالمية الدعوة لا تتنافي مع العمل المحلي، ما دام في الإطار المشروع المقنن بتعاليم الدين، لا يخالفه ولا يبتعد عنه، وعلىٰ هذا لا معنىٰ إذن لأن

(١) المؤمنون: ٥٢.

(٢) أخرجه مسلم (٥٢١) عن جابر رضي الله عنه.

يتطور النقاش ويعلو الصياح بين أصحاب العالمية والعاملين في الميادين المحلية، فلا تلغىٰ العالمية العمل محليًا في مجتمع ما، ولا تعطل المحلية العمل من أجل العالمية، والأمر يحتاج إلىٰ نوع من التوازن الدقيق، تراعىٰ فيه ظروف المحليات وقدراتها، ومدىٰ ما يمكن أن تقدمه علىٰ المستوىٰ العالمي للدعوة، حتىٰ لا تكلف ما لا تطيق، فتتخلىٰ عن المحلية من أجل العالمية، أو تقتصر علىٰ المحلية فقط دون العالمية.
وفي هذا الإطار المتوازن لابد من معالجة الأمور المحلية، وتقديم الحلول اللازمة لها، والمساهمة في وضع البدائل، إن اقتضىٰ الأمر، والعمل من أجل الجميع محتسبين الأجر عند الله، محققين تلاحمًا علىٰ المستوىٰ المحلي بين الجماهير.

ومع هذا لا نغفل عن الاهتمام بأمر المسلمين في شتىٰ بقاع العالم، الذي صار بعد تطوير وسائل المواصلات والاتصالات كأنه قريةٌ صغيرةٌ، لا يخفي منها شيءٌ، ولا يستتر فيها خبرٌ، ونقدم ما نستطيع أن نقدمه للمسلمين علىٰ مستوىٰ العالم من خدماتٍ ماديةٍ أو معنويةٍ، وعلىٰ هذين القدمين قدم المحلية وقدم العالمية تنهض الدعوة، وتقوم الحركة بواجبها من غير خلل، ومن غير إفراطٍ هنا أو تفريط هناك.

ولئلا يكون هذا الطرح عاطفيًا غير محدد نرىٰ أن نضع أمامكم بعض المرتكزات:

١ ـ لا بد من وجود علاقة تعاونٍ مع المنظمات والهيئات والمؤسسات الموجودة علىٰ المستوىٰ المحلي، أو علىٰ المستوىٰ العالمي من أجل تحقيق الخير للجميع علىٰ المستوىٰ المحلي، أو علىٰ المستوىٰ العالمي.

٢ ـ عمل حصرٍ للمنظمات العاملة ومعرفة توجهاتها وأهدافها، ووسائل عملها ومدىٰ إمكانية التعاون معها، وفي أي الجوانب، حتىٰ يتم ذلك في وضوحٍ تامٍّ بعيدًا عن التكهنات والأمنيات.

٣ ـ من السهل علىٰ الدعاة أن يبلغوا بلسان قومهم ويطرحوا من القضايا ما يعني واقعهم ويؤثر بالالتحام الوثيق بمجتمعهم.

٤ ـ إيجاد التوازن بين المحلية والعالمية في إطار فكر واحد مشترك قائم علىٰ الكتاب والسنة وأفهام السلف دون التزامٍ هيكلي مسبقٍ.

*****

الخاتم

إخوتي الكرام إن تباشير التجديد قائمةٌ في كل مكان اليوم، حتىٰ ما أصبحت ملكًا لأفرادٍ معينين أو جماعةٍ خاصةٍ، بل هي لجميع أصحاب الفكر الحر، بل أصبح دوران المطابع كاسرًا لكل جدارٍ حديدي يوضع حول أبناء الحركة الإسلامية، وما أصبح أبناء الحركة يرضون من قادتهم النظر إليهم كأنهم صغارٌ يخشىٰ عليهم من الأطعمة كثيرة الدسم أو عسرة الهضم، بل ما أصبح يخشىٰ عليهم حتىٰ من الأطعمة الفاسدة؛ لأنه مع شيوع العلم الأصيل والمعتقد الصحيح بين شباب الدعوة أصبحت عندهم القدرة علىٰ معرفة الصحيح من السقيم، والعاملون في دائرة التجديد الحقيقي لمسار الحركة والدعوة الإسلامية هم الذين تبحث عنهم البشرية؛ ليدفعوا بالحركات الإسلامية إلىٰ إقامة دورها في البشرية من أجل إسعادهم وتوفير السكينة والطمأنينة لهم: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴿١٠٥﴾﴾[(١)].

*****

(١) الأنبياء: ١٠٥.

هذه الرسالة

هذه الرسالة خير معبر عن معاناة رجل نشأ للإسلام ، وترعرع في إطار حركة إسلامية ناشطة، وتولي المسؤولية الأولىٰ في ظل أصعب الظروف التي أحاطت بالحركة الإسلامية المعاصرة ، وبالأمة العربية والإسلامية، وكان أصعب ما فيها أنها فتنة يصبح الحليم فيها حيرانـًا كما قال رسول الله ﷺ .

وهذه السطور دعوة لمشاركتنا في حل معضلات عالمنا الإسلامي التي جعلتنا نعاني ما نعانيه من آلام الأمة المتمثلة في : البوسنة ، وكشمير ، وتايلاند ، والفلبين ، ودول أواسط آسيا .... وغيرها. نعاني آلام الصحوة الإسلامية وما يلحقها من كبوات ، وما يقف أمامها من عقبات ، نعاني آلام العاملين في الحركة الإسلامية ، وما يجذبهم نحو الطين فيتثاقلون ولا ينطلقون ، ومع هذا كله فلا بأس ولا قنوط .

خاتم الكتاب

لعلَّك ـ أخي القارئ ـ بعد أن طفت بأجزاء الكتاب، وألممت بأفكاره، وجدت فيه الأسس التي تعصم من السقوط، فهو رسائل نقف بها مع أبنائنا؛ ليتعرَّفُوا بها علىٰ ما هو مفيد ومؤصّل في مسيرتهم الدعويَّة، وهذا التأصيل المتدرج إنَّما نهدف منه، إيجاد قناعة في ضرورة المسيرة الدعويَّة، والتي هي شرف المؤمن في الدنيا والآخرة؛ ليبدأ ـ بعد ذلك ـ رجال الدعوة بالتحرّك بغير تلكؤ ولا تعثّر، لا يلتفتون إلىٰ مشكلة، ولا يضرهم غبار الفتن.

وقد وضعنا سبع رسائل، تكون ـ إن شاء الله ـ تكملة لما سبقها، وتكون بعد ذلك القاعدة الأساسية للانطلاق الدعوي المبارك القائم علىٰ الوسطية، والتي هي من خصائص هذا الدين، وقد جاءت كالتالي:

١ ـ طريق الدعوة الإسلامية (أسرار ـ عوائق وعلاجات ـ وقفات ـ إشارات).

٢ ـ ضوابط في العمل الإسلامي.

٣ ـ الفتور (آثاره ـ أسبابه ـ علاجه).

٤ ـ القيادة (الأسباب الذاتية للتنمية القيادية).

٥ ـ ذاتية المؤمن طريق النماء.

٧ ـ الأوراق الثمانية من كوامل المائة الثامنة.

٨ ـ معاناة قلم وكلمات أمل.

والله أسأل، أن يكتبَ لنا فيما كتبناه، الإخلاص والصواب مع الأجر والثواب.

والحمد لله الذي تتم بنعمته الصالحات.

المراجع والمصادر

١ ـ الإتقان في علوم القرآن، للسيوطي، ط. دار الفكر.

٢ ـ إحياء علوم الدين، لأبي حامد الغزالي.

٣ ـ الآداب الشرعية والمنح المرعية، لأبي عبد الله محمد بن مفلح الحنبلي.

٤ ـ الآداب، لابن المعتز.

٥ ـ أداب الشافعي ومناقبه، للحافظ أبي محمد عبد الرحمن بن أبي حاتم الرازي، قدَّم له وحقَّقه: عبد الغني عبد الخالق.

٦ ـ أدب المعلمين، لمحمد بن سحنون.

٧ ـ الأذكار، للنووي.

٨ ـ الاستقامة، لابن تيمية، تحقيق: د. محمد رشاد سالم.

٩ ـ أصول الدين، لعبد الكريم زيدان.

١٠ ـ الأصول العشرون، للإمام البنا.

١١ ـ الإفصاح عن معاني الصحاح، للوزير عون الله أبي المظفر يحيىٰ بن محمد بن هبيرة.

١٢ ـ الإمام البنا يتحدث إلىٰ الشباب.

١٣ ـ الإمام سفيان الثوري، للدكتور محمد أبي الفتح البيانوني.

١٤ ـ الأمة في دلالاتها العربية القرآنية، للدكتور أحمد حسن فرحات.

١٥ ـ الإمتاع والمؤانسة، لأبي حيان التوحيدي، تحقيق: أحمد أمين.

١٦ ـ الإيمان وأثره في حياة الإنسان، حسن الترابي.

١٧ ـ بدائع الفوائد، لابن القيم.

١٨ ـ البداية والنهاية، للحافظ ابن كثير.

١٩ ـ البصائر والذخائر، لأبي حيان علي بن محمد بن العباس التوحيدي، تحقيق:

إبراهيم الكيلاني.

٢٠ ـ بهجة المجالس وأنس المجالس، لابن عبد البر.

٢١ ـ تاريخ الإسلام، للذهبي.

٢٢ ـ تاريخ الطبري.

٢٣ ـ تاريخ العلماء بالأندلس، لعبد الله بن محمد الأزدي.

٢٤ ـ تاريخ بغداد، للخطيب البغدادي.

٢٥ ـ تاريخ دمشق، للحافظ ابن عساكر.

٢٦ ـ تبيين كذب المفتري فيما نُسب إلىٰ الإمام أبي الحسن الأشعري، لأبي القاسم علي بن حسن بن عساكر.

٢٧ ـ تدريب الراوي، للسيوطي.

٢٨ ـ تذكرة الحفاظ، للإمام أبي عبد الله شمس الدين محمد الذهبي، ط. دار إحياء التراث العربي.

٢٩ ـ تذكرة الدعاة، للبهي الخولي.

٣٠ ـ ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك، للقاضي عياض، تحقيق: د. أحمد بكير.

٣١ ـ تسهيل النظر وتعجيل الظفر، للماوردي.

٣٢ ـ تفسير ابن كثير.

٣٣ ـ تفسير القرطبي.

٣٤ ـ التفسير القيم، لابن قيم الجوزية، جمعه: أويس الندوي.

٣٥ ـ التنظيم بين الإدارة الإسلامية والإدارة العامة، د. فرناس عبد الباسط البنا.

٣٦ ـ تهافت العلمانية، لسالم البهنساوي.

٣٧ ـ تهذيب الأسماء واللغات، للنووي.

٣٨ ـ تهذيب الكمال، للحافظ المزي.

٣٩ ـ تهذيب تاريخ دمشق الكبير، لابن عساكر.

٤٠ ـ تهذيب مدارج السالكين، لابن القيم، بتهذيب: عبد المنعم صالح.

٤١ ـ توضيح المقاصد وتصحيح القواعد في شرح قصيدة الإمام ابن القيم، لأحمد ابن إبراهيم بن عيسىٰ، ط. المكتب الإسلامي.

٤٢ ـ جامع بيان العلم وفضله، لابن عبد البر.

٤٣ ـ جلاء الأفهام، لابن القيم.

٤٤ ـ الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي، لابن القيم، تحقيق: عبد الله بن عالية.

٤٥ ـ حسن البنا ـ مواقف في الدعوة والتربية، لعباس السيسي.

٤٦ ـ حُسْن المحاضرة، للحافظ السيوطي، تحقيق: محمد أبي الفضل إبراهيم.

٤٧ ـ خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر، للمحبي.

٤٨ ـ الدر المنثور، للسيوطي.

٤٩ ـ الدرر الكامنة لأعيان المائة الثامنة، لابن حجر العسقلاني.

٥٠ ـ الدعوة إلىٰ الله، للإمام البنا.

٥١ ـ ديوان أبي العتاهية.

٥٢ ـ ديوان القطامي.

٥٣ ـ ذيل التبر المسبوك، لمحمد بن عبد الرحمن بن محمد بن أبي بكر السخاوي.

٥٤ ـ الذيل علىٰ طبقات الحنابلة، لأبي الفرج عبد الرحمن بن شهاب الدين المعروف بابن رجب.

٥٥ ـ الرد الوافر، لابن ناصر.

٥٦ ـ رسائل الثعالبي، لعبد الملك بن محمد الثعالبي.

٥٧ ـ رسالة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، للخلال.

٥٨ ـ زاد المعاد في هدي خير العباد، لابن القيم.

٥٩ ـ الزهد، للإمام أحمد بن حنبل.

٦٠ ـ السنن الواردة في الفتن، لأبي عمرو الدَّانِيّ.

٦١ ـ السياسة الشرعية، لابن تيمية.

٦٢ ـ سير أعلام النبلاء، للذهبي.

٦٣ ـ سيرة الإمام الشافعي، لعبد الغني الدقر.

٦٤ ـ السيرة النبوية، لابن هشام، ط. دار الجيل.

٦٥ ـ شذرات الذهب في أخبار من ذهب، لابن العماد الحنبلي.

٦٦ ـ شرح السير الكبير، لمحمد بن الحسن الشيباني.

٦٧ ـ شرح نهج البلاغة، لابن أبي الحديد.

٦٨ ـ الصفدية، لابن تيمية.

٦٩ ـ صيد الخاطر، لابن الجوزي.

٧٠ ـ طبقات الحنابلة، للقاضي أبي الحسين بن أبي يعلىٰ.

٧١ ـ طبقات الشافعية الكبرىٰ، للإمام تاج الدين تقي الدين السُّبكي.

٧٢ ـ طبقات الفقهاء، لإبراهيم بن علي الشيرازي.

٧٣ ـ الطبقات الكبرىٰ، لابن سعد، ط. دار صادر.

٧٤ ـ طبقات المفسرين، للحافظ شمس الدين محمد بن علي بن أحمد الداودي، تحقيق: علي محمد عمر.

٧٥ ـ العقد الفريد، لأبي عمر أحمد بن محمد بن عبد ربه، تحقيق: أحمد أمين وآخرين.

٧٦ ـ العقود الدرية من مناقب شيخ الإسلام ابن تيمية، لابن قدامة المقدسي، تحقيق: محمد حامد الفقي، ط. دار الكتاب العربي.

٧٧ ـ العوائق، لمحمد أحمد الراشد.

٧٨ ـ العواصم من القواصم، لأبي بكر بن العربي.
٧٩ ـ عيون الأخبار، لأبي مسلم محمد بن قتيبة الدينوري.
٨٠ ـ غربة الإسلام، لابن رجب.
٨١ ـ الغنية، فهرس شيوخ القاضي عياض.
٨٢ ـ الفتاوىٰ الكبرىٰ، لابن تيمية.
٨٣ ـ الفتح الرباني والفيض الرحماني، لعبد القادر الجيلاني.
٨٤ ـ فتوح الشرق، لأحمد عادل كمال.
٨٥ ـ الفروق، للقرافي.
٨٦ ـ الفوائد، لابن القيم، ط. دار الكتب العلمية.
٨٧ ـ قاعدة في الجرح والتعديل، لابن السبكي.
٨٨ ـ القواعد، تحقيق: الدكتور أحمد بن عبد الله بن حميد.
٨٩ ـ الكامل في التاريخ، لابن الأثير.
٩٠ ـ الكُنَىٰ والأسماء، للدولابي.
٩١ ـ كيف تدعو الناس، لعبد البديع صقر.
٩٢ ـ كيف نعد قادة أفضل، مالكوم وهولدا فولز، ترجمة: د. حسين حمدي الطوبجي.
٩٣ ـ لسان العرب.
٩٤ ـ لمحات في فن القيادة، تأليف: ج. كورتوا.
٩٥ ـ المؤتمر الشعبي، حسن البنا، ٤/ ١٠/ ١٩٣٥م.
٩٦ ـ المجتبىٰ، للإمام أبي بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي.
٩٧ ـ مجمع الأمثال، للميداني، ط. دار المعرفة.
٩٨ ـ مجموعة الرسائل، للإمام البنا.

٩٩ ـ محمد إقبال (سيرته وفلسفته وشعره)، لعبد الوهاب عزام.
١٠٠ ـ مدارج السالكين، لابن القيم.
١٠١ ـ المدخل إلىٰ دعوة الإخوان المسلمين، لسعيد حوىٰ.
١٠٢ ـ المدخل، لأبي عبد الله محمد بن محمد، الشهير بابن الحاج.
١٠٣ ـ المدير الفعال (دراسة تحليلية لأنماط المديرين)، د. سيد الهواري.
١٠٤ ـ مذكرات الدعوة والداعية، للإمام البنا.
١٠٥ ـ المستقصىٰ في أمثال العرب، للزمخشري، ط. دار الكتب العلمية.
١٠٦ ـ مشكلات الدعوة والداعية، فتحي يكن.
١٠٧ ـ المصطلحات العلمية، ليوسف خياط في ذيل لسان العرب.
١٠٨ ـ معالم في الطريق، لسيد قطب، ط. دار الشروق.
١٠٩ ـ معجم الأدباء، لياقوت الحموي.
١١٠ ـ معجم السفر، للحافظ أحمد بن محمد الأصبهاني السلفي، تحقيق: د. بهجة.
١١١ ـ مفتاح دار السعادة، لابن القيم.
١١٢ ـ من فقه الدعوة، لمصطفىٰ مشهور.
١١٣ ـ مناقب الإمام أحمد، لابن الجوزي.
١١٤ ـ المنتظم، لابن الجوزي.
١١٥ ـ المنطلق، لمحمد أحمد الراشد.
١١٦ ـ المنهج الأحمد في تراجم الإمام أحمد، لأبي اليمن مجير الدين عبد الرحمن ابن محمد العليمي.
١١٧ ـ منهج التربية الإسلامية، للأستاذ محمد قطب.
١١٨ ـ النبوغ المغربي في الأدب العربي، لعبد الله كنون.
١١٩ ـ النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، لابن تغري بردي.

١٢٠ ـ النهاية في غريب الحديث والأثر، للإمام مجد الدين أبي السعادات بن الأثير.

١٢١ ـ هذا الدين، لسيد قطب.

١٢٢ ـ الوابل الصيب، لابن القيم.

١٢٣ ـ الوافي بالوفيات، لصلاح الدين خليل بن أيبك.

١٢٤ ـ وحي القلم، لمصطفىٰ صادق الرافعي.

١٢٥ ـ وفيات الأعيان، لابن خلِّكَان.

الفهرس

الموضوع **الصفحة**

الإهداء نثرًا ---------- ٥
الإهداء شعرًا ---------- ٧
المقدمة ---------- ٩

الرسالة الأولىٰ

طريق الدعوة الإسلامية

أسرار - عوائق وعلاجات - وقفات - إشارات وهمسات

مقدمة ---------- ١٣
أولاً: أسرار نبوح بها للدعاة ---------- ١٤
أولاً: أسرار في العمل الإسلامي ---------- ١٤
ثانيًا: سر فعالية وتأثير السيرة ---------- ١٧
ثالثًا: سرّ تأخر النصر عن الحركة الإسلامية ---------- ٢١
رابعًا: أسرار في قواعد العمل الإسلامي ---------- ٢٧
خامسًا: أسرار في أسباب السقوط من قطار الدعوة ---------- ٣٥
ثانيًا: عوائق وعلاجات في طريق الدعوة ---------- ٤٥
أهمية معرفة العوائق الداخلية في الحركة الإسلامية ---------- ٤٥
ضوابط في الدعوة ---------- ٤٨
أولاً: المعوقات الداخلية للحركة الإسلامية ---------- ٥٠
ثانيًا: علاجات اجتهادية للعوائق الداخلية ---------- ٧٩
ثالثًا: وقفات لأصحاب الدعوة ---------- ٩٧
رابعًا: إشارات ضوئية يحتاجها الداعية ---------- ١٢٨
خامسًا: همسات في آذان الدعاة ---------- ١٤٧
الخاتمة ---------- ١٧٠
هذه الرسالة ---------- ١٧١

الرسالة الثانية

ضوابط في العمل الإسلامي

مقدمة -- ١٧٥
تعريف الضابط -- ١٧٨
الضابط الأول: العلم درع-- ١٧٩
الضابط الثاني: يحفظ العلم بتكريمه -- ١٨٥
الضابط الثالث: مسائل الشريعة أصول وفروع -- ١٨٦
الضابط الرابع: عامة المسلمين يدعون إلىٰ أصول الدين -- ١٨٩
الضابط الخامس: لا بد من الثقة والمحبة بين الشيخ والطالب -- ١٩١
الضابط السادس: قوة الشجاعة في الحق طريق النصر -- ١٩٣
الضابط السابع: الحكم علىٰ المعاني دون المباني -- ١٩٦
الضابط الثامن: قيمة الأشياء بدقتها وندرتها -- ٢٠٠
الضابط التاسع: الاستفادة من ملاحظات الطاعنين -- ٢٠١
الضابط العاشر: الاستمرار في العطاء -- ٢٠٣
الضابط الحادي عشر: النهاية المشؤومة لمن تعمد الطعن في علماء الأمة-- ٢٠٤
الضابط الثاني عشر: إحسان الظن بالمسلمين-- ٢٠٧
الضابط الثالث عشر: الخطأ مردود علىٰ صاحبه مع بقاء فضله -- ٢٠٨
الضابط الرابع عشر: الاختلاف في الفروع لا يوجب التخاصم -- ٢٠٩
الضابط الخامس عشر: إذا غلبت محاسن الرجل لم تذكر مساوئه -- ٢١٢
الضابط السادس عشر: تحفظ الدعوة والحركات الإسلامية بدوام الاتصال بالله تعالىٰ٢١٦
الخاتمة-- ٢١٧
هذه الرسالة -- ٢١٨

الرسالة الثالثة

الفتور

مقدمة -- ٢٢١
مدخل -- ٢٢٢
تعريف الفتور -- ٢٢٦
مظاهر الفتور وصوره -- ٢٢٨

أسباب الفتور ---------- ٢٣١
آثار الفتور ---------- ٢٣٨
طرق ووسائل معالجة العيوب ---------- ٢٣٩
الخاتمة ---------- ٢٤٩
هذه الرسالة ---------- ٢٥٠

الرسالة الرابعة

القيادة

مقدمة ---------- ٢٥٣
مدخل ---------- ٢٥٥
١ ـ وقفة مع مصطلح ومدلول الجماعة ---------- ٢٥٥
٢ ـ القيادة (المفهوم والمعلوم) ---------- ٢٦٣
أساليب وطرق التنمية القيادية ---------- ٢٧٠
الأسلوب الأول: تنمية البداهة والمبادرة وأخذ القرار ---------- ٢٧٠
الأسلوب الثاني: تنمية فعالية التنفيذ فيمن يكونون معه ---------- ٢٧٥
الأسلوب الثالث: الاهتمام بالسنن الكونية الشرعية ---------- ٢٨٢
الأسلوب الرابع: تحريك القائد من معه لسؤاله ---------- ٢٩٠
الأسلوب الخامس: العمل علىٰ تقوية القول بالعمل دائمًا ---------- ٢٩٣
الأسلوب السادس: التدرب علىٰ التخطيط ووضع السياسات ---------- ٢٩٦
الأسلوب السابع: التعود علىٰ العمل في حل المشاكل ---------- ٣٠٠
الأسلوب الثامن: تهيئة المناخ الوظيفي للعمل والعطاء ---------- ٣٠٢
الأسلوب التاسع: الاتصال بالقرآن والسُّنة ---------- ٣٠٦
الأسلوب العاشر: إحسان استخدام اللغة في الحياة اليومية ---------- ٣٠٨
الخاتمة ---------- ٣١٤
هذه الرسالة ---------- ٣١٥

الرسالة الخامس

ذاتية المؤمن طريق النماء

مقدمة ---------- ٣١٩
مدخل ---------- ٣٢١
أولاً: مفهوم الذاتية وجوانبها ---------- ٣٢٥

ثانيًا: الشخصية الذاتية ---------- ٣٣٥
ثالثًا: مظاهر الطبيعة التنفيذية ---------- ٣٣٨
رابعًا: وسائل اكتساب الطبيعة التنفيذية ---------- ٣٤٦
خامسًا: طرق التنمية الذاتية ---------- ٣٦٢
سادسًا: العوامل المؤثرة في اكتساب وتنمية الذاتية عند الأفراد ---------- ٣٦٩
سابعًا: ثمرات الطبيعة التنفيذية ---------- ٣٧١
الخاتمة ---------- ٣٧٧
هذه الرسالة ---------- ٣٧٩

الرسالة السادسة

الأوراق الثمانية من كوامن المائة الثامنة

مقدمة ---------- ٣٨٣
اللفتة الأولىٰ: سمات ومواصفات قادة الخير ---------- ٣٨٩
اللفتة الثانية: حاجة البناء الحركي للعلم كحاجة الإنسان للهواء ---------- ٤٠١
اللفتة الثالثة: الألفة بين الداعية والمجتمع ---------- ٤٠٩
اللفتة الرابعة: السعي في حاجة الناس ---------- ٤١٤
اللفتة الخامسة: علاقة الداعية والعالم مع إخوانه ---------- ٤٢٢
اللفتة السادسة: نصرة الحق وقضاء محتوم ---------- ٤٣١
اللفتة السابعة: الحب والبغض بين التعصب والإنصاف ---------- ٤٤٠
اللفتة الثامنة: خاتمة الأوراق ---------- ٤٤٧
هذه الرسالة ---------- ٤٥٠

الرسالة السابعة

معاناة قلم وكلمات أمل

مقدمة ---------- ٤٥٣
المعاناة الأولىٰ: معاناة الاحتياج ---------- ٤٥٥
المعاناة الثانية: معاناة الفهم ---------- ٤٦٠
المعاناة الثالثة: معاناة الابتعاد عن الواقع ---------- ٤٦٣
المعاناة الرابعة: معاناة الحفاظ علىٰ بنيان الدعوة ---------- ٤٦٦
المعاناة الخامسة: الجرأة في إعادة النظر في تفكيرنا ---------- ٤٧٢

المعاناة السادسة: المعاناة من واقع الأمة: البوسنة والهرسك ---------------------------- ٤٧٥
المعاناة السابعة: معاناة الأمة: أفغانستان ---------------------------- ٤٧٩
المعاناة الثامنة: معاناة الأمة ---------------------------- ٤٨٢
المعاناة التاسعة: شعوب لا تُبصر الطريق ---------------------------- ٤٨٥
المعاناة العاشرة: معاناة في رفاق الطريق ---------------------------- ٤٨٨
المعاناة الحادية عشرة: الجمود في الفكر الحركي ---------------------------- ٤٩٤
الخاتمة ---------------------------- ٥١٩
هذه الرسالة ---------------------------- ٥٢٠
خاتمة الكتاب ---------------------------- ٥٢١
المراجع والمصادر ---------------------------- ٥٢٢
الفهرس ---------------------------- ٥٢٩

هذا الكتاب

رسائل نقف بها مع أبنائنا؛ ليتعرَّفوا بها على ما هو مفيد ومؤصّل في مسيرتهم الدعويَّة، وهذا التأصيل إنَّما نهدف منه إيجاد قناعة في ضرورة المسيرة الدعويَّة، والتي هي شرف المؤمن في الدنيا والآخرة.

وقد وضعنا سبع رسائل لتكون القاعدة الأساسية للانطلاق الدعوي المبارك القائم على الوسطية، والتي هي من خصائص هذا الدين، وقد جاءت كالتالي:

١. طريق الدعوة الإسلامية (أسرار. عوائق وعلاجات. وقفات. إشارات).

٢. ضوابط في العمل الإسلامي.

٣. الفتور (آثاره. أسبابه. علاجه).

٤. القيادة (الأسباب الذاتية للتنمية القيادية).

٥. ذاتية المؤمن طريق النماء.

٦. الأوراق الثمانية من كوامل المائة الثامنة.

٧. معاناة قلم وكلمات أمل.

والله أسأل أن يكتبَ لنا فيما كتبناه الإخلاص والصواب، مع الأجر والثواب.

المؤلف

مؤسسة السماحة للطباعة والنشر والتوزيع
الكويت - المنطقة التجارية رقم ٩ بلوك ١ مكتب ١٢
E-mail: alsamaha_laib@gmail.com